زهر الآداب

وثمر الألباب

لأبي إسحاق ابراهيم بن علي الحُصْري القيرواني

الجزء الأول

عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه

علي محمد البجاوي

الطبعة الأولى
[١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

زهر الآداب
وثمر الألباب

لأبي إسحاق ابراهيم بن على الحُصْرِي القَيْرَوَانِي

الجزء الأول

عارضه بمخطوطات القاهرة وحقّقه وضبطه
وشرحه ووضع فهارسه
على محمد البجاوى

الطبعة الأولى
[١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م]

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وبيان

كتاب « زهر الآداب » من أمهات كتب الأدب ؛ ويشبه فى طريقته «الأمالى» لأبى على القالى ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ؛ فمؤلفه يرسل القول إرسالا ، ويُتْبِع الملحة بالطُّرْفَة ، والقصيدة بالرسالة ، وينتقل من جدّ إلى فكاهة ؛ ويستدرج قارئه من حديث إلى حديث ؛ ويتخلّل كل ذلك وقفات نقدية تدل على ذوق رفيع وأدب أصيل .

وقد طُبع هذا الكتاب مرات على هامش « العقد الفريد » ؛ ثم طُبع منفصلا بإشراف المرحوم الدكتور زكى مبارك ، وكانت الطبعات الأولى غير مضبوطة ، فضلا عن أنها غير مستقلة . أما الطبعة الأخيرة فكانت مستقلة[1] ، ولكن المشرفَ عليها لم يرجِعْ إلى أصلٍ من أصول الكتاب الخطية ؛ بل إنه لم يرجِعْ إلى دواوين الشعراء ، وكتب الأدب ؛ فكثرت لذلك فيها الأغاليط .

وقد زاد على ذلك أنه ملأ صفحات الكتاب بعنوانات ضخمة ليست من الكتاب ، أخلَّت بنظام عقده ، وبعثرت حبات درّه ، وأضلّت القارىء ؛ إذ خلطت بين أصول الكتاب وغيرها .

على أن هذه الطبعات كلها كانت ناقصة ؛ وقد أكملنا الكتاب فى هذه الطبعة من النسختين المغربيتين اللتين سنتحدث عنهما فيما بعد . ويكفى أن يعرف القارىء أن الكتاب كان مبتوراً من آخره ، وأن هذا النقص قد بلغ ست صفحات متوالية فى بعض المواضع ، وأربعاً متوالية فى بعضها الآخر . هذا إلى فقرات كاملة ، وعبارات مكمّلة ، وغير ذلك مما يُرَى بين قوسين فى ثنايا الكتاب .

وقد رجعنا فى تحقيق هذه الطبعة إلى أربع نسخ خطية ؛ وجدناها ــ بعد البحث

(١) رمزنا إليها بالحرف (ط) .

الطويل ـ بدار الكتب ، وقد كانت هذه النسخ ـ بضبطها وتحقيقها ـ خير معين لنا على إخراج الكتاب على هذه الصورة التي يراها القراء .

وهذا بيان تلك النسخ :

(١) نسخة خطية برقم ٥٤٩٩ أدب ، بدار الكتب ، وقد كتبت بخط النسخ الجميل ، وضبطت بالشكل التام ، وعدد أوراقها ٣٨٠ ورقة ، وعليها تمليك غير واضح . وليس بهذه النسخة ما يدل على تاريخ كتابتها ، وهى تبدأ من أول الكتاب ، وتنتهى بالبيت الآتى :

فأجزى بالكرامة أهل ودى   وأجزى بالضغائن أهل ضرى[1]

وقد كتبت فى آخرها العبارة الآتية :

كمل السفر الأول من زهر الآداب وثمر الألباب على يد الفقير إلى الله تعالى امير وابن الشجاع بن المحتاج الحصنى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . والحمد لله رب العالمين . ثم العبارة الآتية : طالعه عبد المجيد بك نافع سنة ١٢٧٩ هـ .

وقد رمزنا إليها بالحرف (س)

(٢) نسخة خطية برقم ٥٥٠٠ أدب ، بدار الكتب ، وعدد أوراقها ١٥٩ ورقة ، وخطها مغربى دقيق ، وقد كتبت هذه النسخة فى سنة ٦٢٨ هـ . وتكاد تتصل بالأولى[2] ، وتنتهى بانتهاء الكتاب ، وقد كتب على صفحتها الأولى والأخيرة كلمة « وقف » . وقد أفادتنا هذه النسخة كثيراً ، ووجدنا بها زيادات ذات بال .

وقد رمزنا إليها بالحرف (ا) .

(٣) نسخة خطية برقم ٤١٦ أدب تيمور ، بدار الكتب ، وعدد صفحاتها ٩٨ صفحة . وقد كتبت بخط النسخ ، مع ضبط بعض الكلمات . وابتدأت من أول الكتاب ، وانتهت بالعبارة الآتية : وأتى الغاضرى يوماً الحسن بن زيد فقال :

---

(١) صفحة ٥٥٩ من هذه الطبعة .   (٢) تبدأ فى صفحة ٥٦٤ من هذه الطبعة .

جعلت فداك ، إنى عصيت الله ورسوله . قال : بئس ما صنعت . وكيف ذاك ؟ قال : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1] .

وقد رمزنا إليها بالحرف (ت)

(٤) نسخة خطية برقم ٤٦ م ، وأولها : ما يتعلق[2] بالبخلاء واحتجاجهم وحكمهم . وتنتهى بآخر الكتاب ، وهى مخطوطة بقلم مغربى ، وقد كتبت فى سنة ٥٣٤ هـ ، وتتفق مع النسخة المغربية السابقة فيما اشتملت عليه من زيادات .

وهى أقدم النسخ المخطوطة التى عثرنا عليها .

ولم نقتصر فى التحقيق على هذه النسخ الخطيّة ؛ بل إننا رجعنا إلى الطبعة الأميرية لهذا الكتاب[3] ، وإلى معجمات اللغة ، وكتب الأدب ، ودواوين الشعراء ، ورجعنا فى كل بيت إلى ديوان قائله ، وفى كل نص أدبى إلى كلام صاحبه فى الكتب الأدبية المختلفة ، وحرصنا على أن نشرك معنا القارىء فى هذا العمل الأدبى ، فأشرنا فى هامش الكتاب إلى الصفحات التى رجعنا إليها من تلك الكتب والدواوين .

وفى آخر الكتاب فهرس بهذه الكتب التى اعتمدنا عليها فى التحقيق .

وكانت طريقتنا فى المعارضة أن نثبت من الروايات ما نرجّحه ، ثم نثبت فى هامش الكتاب الروايات الأخرى .

وقد حاولنا أن نقيم للكتاب معالم ؛ فوضعنا له عناوين عامة ، ثم عناوين جانبية تفصّل تلك العناوين العامة ، وتساعد القارىء على الفهم والبحث ومتابعة المؤلف .

ولكى نميز هذه العنوانات من عناوين الكتاب الأصلية وضعناها بين قوسين ليعرف كل من يطلع على الكتاب أنها ليست من أصوله .

ثم وضعنا للكتاب فهارس الموضوعات ، وللأعلام ، وللقوافى والشعراء ، وللكتب والمراجع .

---

(١) صفحة ١٦١ من هذه الطبعة .

(٢) صفحة ٨٣٢ من هذه الطبعة .

(٣) وقد رمزنا إليها بالحرف (ق) .

وبما تقدم نستطيع أن نقول : إن هذه أول طبعة أخرجت كاملة للكتاب محققة مضبوطة ، مشتملة على الفهارس التى لا يستغنى عنها باحث أو أديب .

وقبل أن نختم هذه الكلمة ينبغى أن نشير إلى ما يأتى :

١ — مؤلف هذا الكتاب هو أبو إسحاق إبراهيم بن على بن تميم المعروف بالحُصْرى القيروانى .

وقد ذكر صاحب وفيات الأعيان أن له ديوان شعر ، وكتاب زهر الآداب وثمر الألباب ، وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون .

ثم قال : وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، ورأس عندهم ، وشرف لديهم ، وسارت تآليفه ، وانثالت عليه الصلات . وبعد أن أورد شيئاً من شعره قال : وقد توفى سنة ٤١٣ ﻫ . وقال ابن بسام: بلغنى أنه توفى سنة ٤٥٣ ﻫ .

٢ — أن لمؤلف هذا الكتاب كتابا آخر ، اسمه « جمع الجواهر فى الملح والنوادر » ، طبع باسم آخر هو « ذيل زهر الآداب » ولناشره تعليل لهذه التسمية لا نقره عليها ؛ لأنه كتاب مستقل للمؤلف .

ونرجو أن يوفقنا الله لإخراجه محققاً فى القريب إن شاء الله .

٣ — أننا أخرجنا هذا الكتاب فى جزأين مع أن المؤلف جمله فى ثلاثة أجزاء ، كما جاء فى كشف الظنون : ١ — ٤٥٨ إذ قال : « زهر الآداب وثمر الألباب فى ثلاثة أجزاء جمع فيه كل غريب ... » لأن التقسيم لا يؤثر فى منهج الكتاب أو الفائدة منه .

٤ — أن هذا الكتاب قد اختصره الإمام أبو الحسن على بن محمد بن على بن برى ، وفى دار الكتب نسخة من هذا المختصر فى مجلد بقلم مغربى جميل مكتوبة عن نسخة بخط المؤلف المختصر ، ورقمها ١٤٠٩٤ أدب ، واسم هذا المختصر : « اقتطاف الزهر واجتناء الشعر » .

٥ — أننا عثرنا ـ بعد إتمام العمل فى هذا الكتاب ـ على جزء منه مخطوط بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، يبدأ من « فقر من كلام المتصوفة[1] » . وعدد أوراقه ١٨٠ ورقة ، وهو منقول من « أيا صوفيا » ، وعلمنا أنه أحدث عهداً من النسختين المغربيتين اللتين رجعنا إليهما .

وبالأمانة العامة عمل دائب لتنظيم المخطوطات والفهارس من شأنه أن يؤخر إمدادنا بهذه النسخة ، ونأمل أن نعود إليها إذا قُدِّر لنا أن نعيد طبع هذا الكتاب .

ونرجو أن نكون قد وفقنا فى إخراج الكتاب على ما يرضى الأدب والأدباء . وأن ينفع الله به بقدر ما بذلنا فيه من جهد .

إنه نعم الموفق والمعين ؟

فبراير سنة ١٩٥٣ م — على محمد البجاوى

(١) صفحة ٨١٠ من هذه الطبعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى اختصَّ الإنسانَ بفضيلةِ البيانِ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين[1]، المرسلِ بالنور المبين، والكتابِ المستبين، الذى تحدَّى الخلْقَ أن يأْتُوا بمثله، فعجزوا عنه، وأقرّوا بفَضْلِه، وعلى آله وسلم تسليما كثيراً.

وبعد، فهذا كتابٌ اخترتُ فيه قطعةً كافيةً من البلاغات؛ فى الشعر، والخبر، والفصول، والفِقَر، مما حسُن لفظُه ومعناه، واستُدِلّ بفَحْوَاه على مَغْزَاه[2]، ولم يكن شارداً حُوشِيًّا، ولا ساقطاً سُوقيًّا؛ بل كان جميعُ ما فيه؛ من ألفاظه ومعانيه، كما قال البحترى[3]:

فى نظامٍ من البلاغةِ ما شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ نِظَامُ فَرِيدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختياراً وتجنَّبْنَ ظُلْمَةَ التعقيدِ
وركبن اللفظَ القريب فأدركْـ ن به غايةَ المرادِ البَعيدِ

ولم أَذهب فى هذا الاختيار إلى مطوّلات الأخبار، كأحاديث صَعْصَعَة بن صُوحان[4]، وخالد بن صفوان[5]، ونظائرها؛ إذ كانت هذه أجمل لفظا، وأسهل حفظا.

وهو كتابٌ يتصرَّف الناظرُ فيه من نثره إلى شعره، ومطبوعه إلى مصنوعه، ومحاورته إلى مفاخرته، ومُنَاقَلَتِه إلى مُسَاجَلَتِه[6]، وخطابه المبهت[7] إلى جوابه المُسْكِت، وتشبيهاته المُصيبة إلى اختراعاته الغريبة؛ وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجِدِّه المعجب إلى هَزْلِه المُطْرِب، وجَزْلِه الرائع إلى رقيقه البارع.

---

(١) فى ت أنبيائه. (٢) فحوى الكلام: معناه. ومغزاه: مقصده.
(٣) ديوانه ٢ ـ ١٩٥. (٤) كان خطيباً بليغاً، له مع معاوية مواقف.
(٥) من فصحاء العرب المشهورين له أخبار مع عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك.
(٦) المناقلة: أن تحدثه ويحدثك. والمساجلة: المباراة والمفاخرة. (٧) المبهت: المحير.

وقد نزعتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت ، وعن إبعاد الشكل عن شكله ، وإفراد الشيء من مِثْله ؛ فجعلتُ بعضه مُسَلْسَلا ، وتركتُ بعضَه مُرْسَلا ؛ ليحصلَ محرَّرَ[(١)] النَّقْد ، مقدَّرَ السَّرْد ؛ وقد أخذ بطرَفى التأليف ، واشتمل على حاشِيَتَى التصنيف ؛ وقد يعِزُّ المعنى[(٢)] فألْحِق الشَّكْلَ بنظائره ، وأعلّق الأول بآخره ، وتبقى منه بقية أفرّقها[(٣)] فى سائره؛ ليسْلَمَ من التطويل المملّ، والتقصير المخلّ ، وتظهر فى التجميع[(٤)] إفادةالاجتماع ؛ وفى التفريق لذاذة الإمتاع[(٥)] ؛ فيكمل منه مايُونق القلوبَ والأسماع[(٦)] ؛ إذ كان الخروجُ من جدٍّ إلى هزل ، ومن حَزْن إلى سَهْل أنْفى للكَلَل ، وأبعد من الملل ؛ وقد قال إسماعيل بن القاسم [هو أبو العتاهية][(٧)] :

لايصلِحُ النفسَ إذ كانت مدابرةً[(٨)] إلا التنقّلُ من حالٍ إلى حالِ

وكان السببُ الذى دعانى إلى تأليفه وندَبنى إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبى الفضل العباس بن سليمان ـ أطال الله مُدّته وأدام نعمته ـ فى الأدب ، وإنفاقِ عمره فى الطلب وماله فى الكتب ؛ وأن اجتهادَه فى ذلك حمله على أن ارتحل إلى المشرق بسببها ، وأغمَض فى طلبها[(٩)] ، باذِلًا فى ذلك مالَه ، مستعذباً فيه تعبَه ، إلى أن أورد من كلامِ بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائفَ طريفة ، وغرائب غريبة ، وسألنى أنْ أَجْمَع له من مُخْتارها كتاباً يكْتَفِى به عن جملتها ، وأُضيفَ إلى ذلك من كلام المتقدّمين ما قاربَه وقارنَه ، وشابَهه وماثَله ؛ فسارعتُ إلى مراده ، وأَعَنْتهُ على اجتهاده ، وألَّفتُ له هذا الكتاب ، ليستغنىَ به عن جميع كتبِ الآداب ؛ إذ كان موشَّحا من بدائع البديع ، ولآلىء الميكالى ، وشهىّ الخوارزمى ، وغرائب الصّاحب ، ونفيس قَابُوس ، وشذور أبى منصور[(١٠)] بكلامٍ يمتزجُ بأجزاء النفس لطافة ، وبالهواء رِقَّة ، وبالماء عذوبة .

---

(١) فى ت : مجرد . (٢) فى ت : يعن . (٣) فى ط : أصرفها .
(٤) فى ت : الجميع . (٥) فى ت : الاستمتاع . (٦) يونق : يعجب .
(٧) من ت . (٨) فى ت: مصرفة . والمدابرة : غير المقبلة . (٩) أغمض فى الأمر : ذهب.
(١٠) كل هؤلاء من أعلام الأدب اختار المؤلف من نظمهم ونثرهم .

وليس لى فى تأليفه من الافتخار أكثرُ من حسْنِ الاختيار ؛ واختيارُ المرء قطعةٌ من عقله تدلُّ على تخلُّفه أو فَضْلِه ؛ ولا شكّ – إن شاء الله – فى استجادة ما استجدت ، واستحسانِ ما أَوْرَدت ؛ إذ كان معلوما أنه ما انجذبت نفسٌ ، ولا اجتمع حسّ ، ولا مال سِر ، ولا جال فِكْر ، فى أفضلَ مِن معنى لطيف ظهر فى لفظٍ شريف ؛ فكساه من حسن الموقع قبولا لا يُدفع ، وأبرزه يَخْتَالُ من صفاء السبك [ونقاء السّلك][1] وصحة الدّيباجة ، وكثرة المائية ، فى أجمل حُلة ، وأجل حِلية :

يستنبط الروحَ اللطيف نسيمهُ أَرَجًا ويؤكل بالضمير ويُشْرَبُ

وقد رغبتُ فى التجافى عن المشهور فى جميع المذكور ، من الأسلوبِ الذى ذهبتُ إليه ، والنحو الذى عوّلتُ عليه ؛ لأن أوّل ما يقرع الآذان أَدْعى إلى الاستحسان مما مجَّته النفوسُ لطول تكراره ، ولفَظَتْه العقولُ لكثرة استمراره ؛ فوجدت ذلك يتعذَّر ولا يتيسّر ، ويمتنع ولا يتّسع ؛ ويُوجب ترك مانَدر إذا اشتهر؛ وهذا يوجب فى التصنيف دَخَلا[2] ، ويكسب التأليف خَلَلا ؛ فلم أُعْرِض إلّا عما أَهانه الاستعمال ، وأَذَاله[3] الابتذال ؛ والمعنى إذا استدعى القلوبَ إلى حِفْظِه ما[4] ظهر من مُسْتَحْسَن لفظه ؛ من بَارِع عبارة ، وناصع استعارة ، وعذوبة موردٍ ، وسهولة مَقْصِد ، وحسن تفصيل ، وإصابة تمثيل ؛ وتطابق أَنْحاء ، وتجانس أَجْزاء ، وتمكُّن ترتيب ، ولطافة تهذيب ، مع صحَّة طبع ، وجودة إيضاح ، يثقفه تثقيفَ القِداح ، ويصوره أفضلَ تصوير ، ويقدّره أكْمَل تقدير ؛ فهو مشرق فى جوانب السمع ، لا يُخلقه[5] عوده على المستعيد :

وهو المشيَّع بالمسامع إن مضى وهو المضاعف حُسْنُه إن كُرِّرا

---

(١) من ت . (٢) الدخل : العيب . (٣) أذاله : أهانه .
(٤) فى ت : بما ظهر . (٥) أخلقه : ذهب بجدته ورونقه .

وإن كنتُ قد استدركتُ على كثير ممن سبقنى إلى مثل ما جَرَيْتُ إليـــه ، واقتصرت فى هذا الـكتاب عليه ، لِمُلَحٍ أوردتُها كنَوَافِثِ السحْرِ ؛ وفِقَرٍ نظمتُها كالغِنَى بعد الفقر ، من ألفاظ أهلِ العصر ، فى محلول النثر ، ومعقود الشعر ؛ وفيهم من أدركتهُ بعُمْرِى ، أو لحقه أَهْلُ دهرى ؛ ولهم من لطائف الابتداع وتوليدات الاختراع أبكارٌ لم تَفْتَرِعْها الأسماع ، يَصْبُو إليهــا القلبُ والطَّرْف ، ويقطر منها ماء المَلَاحة والظَّرفِ، وتمتزجُ بأجزاءِ النفس ، وتسترجع نافِرَ الأُنس ، تخلّلت تضاعيفَه ووشّحت تأليفه ، وطرّزت ديباجه، ورصَّعت تاجه ، ونظَمت عقوده ، ورقمت بُرودَه ؛ فنوْرها يرِفّ ، ونورها يشِفّ ، فى روضٍ من الـكلم مُونِق ورَوْنَق من الحـكم مشرِق :

صفا ونفى عنه القَذَى فـكأَنهُ إذا ما استشفّته العيون مصعّد(١)

فهو كما قلت :

بديعُ نَثْرٍ رقّ حتَّى غَدا يَجْرِى مع الرُّوح كما تجرى
من مُذهب الوَشْىِ على وجههِ ديباجة ليسَتْ مِنَ الشعر(٢)
كزهرةِ الدنيا وقد أقبلت ترود(٣) فى رَوْنَقِها النَّضْرِ
أوكالنسيم الغض غِبَّ الحَيَا(٤) يَخْتَال فى أردية الفَجْـرِ

ولعلّ فى كثير ممــا تركتُ ماهو أجودُ من قليل مما أدركت ؛ إذ كان اقتصاراً من كلٍّ على بَعْض ، ومن فَيْضٍ على بَرْض(٥) ؛ ولـكنى اجتهدتُ فى اختيــار ماوجدتُ ؛ وقد تدخلُ اللفظةُ فى شفاعة اللفظات ، ويمرُّ البيت فى خِلَال(٦) الأبيات، وتعرض الحـكايةُ فى عرض الحـكايات ، يتمُّ بها المعنى المراد ؛ وليست مما يُسْتَجاد ،

(١) فى ط : تصعدا .
(٢) وشى مذهب : مطرز بالذهب .
(٣) ترود : تختال ، وفى ت : تروق .
(٤) غب : عقب . الحيا : المطر .
(٥) البرض : القليل .
(٦) فى ت : خلل .

ويبعث عليها فَرْط الضرورة إليها [فى إصلاح خَلَل][1] ؛ فمهما تره من ذلك فى هذا الاختيار فلا تُعرِضْ عنه بطَرْفِ الإنكار ؛ وما أقلّ ذلك فى جميع المسالك الجارية فى هذا الكتاب ، الموسوم بزَهْرِ الآداب وثمر الألباب ؛ لكنى أردت أن أشارك من يخرج من ضيق الاغترار إلى فسحة الاعتذار :

ويسىء بالإحسان ظنًّا لا كمن ... يأتيك وهو بشِعْرِه مَفْتُونُ

والله المؤيد والمسدّد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

[فضل البيان]

الزبرقان وابن الأهتم عند رسول الله

روى عن عبد الله بن عبّاس رضوان الله عليهما ، قال[2] : وَفَد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزِّبْرِقَانُ بن بَدْر وعَمْرو بن الأهتم ؛ فقال الزبرقان : يا رسولَ الله! أنا سيدُ تميم ، والمطاعُ فيهم ، والمجابُ منهم ، آخذُ لهم بحقهم ، وأمنعهم من الظلم ؛ وهذا يعلم ذلك — يعنى عَمْرا .

فقال عَمْرو : أجَلْ يا رسولَ الله ؛ إنه مانعٌ لِحَوْزَته[3] ، مُطَاعٌ فى عشيرته ، شديد العَارِضة فيهم[4] .

فقال الزبرقان : أما إنه والله قد علم أكثرَ مما قال ؛ ولكنه حسدنى شَرفى !

فقال عمرو : أما لئن قال ماقال ؛ فوالله ماعلمته إلا ضَيِّق العَطَن[5] ، زَمِرَ المروءة[6] ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغِنَى .

فرأى الكراهة فى وَجْه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا اختلفَ قولُه ؛ فقال : يارسول الله ؛ رضيتُ فقلتُ أحسنَ ماعلمت ، وغضبتُ فقلت أقْبَحَ ماعلمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صَدَقْتُ فى الثانية !

---

(١) ليست فى ت . (٢) البيان والتبيين : ١ — ٣١ ، العقد الفريد : ١ — ١١٧ ، ومجمع الأمثال : ١ — ٥ . (٣) حوزة الرجل : ما يحوزه ويملكه .

(٤) العارضة : قوة الكلام . (٥) ضيق العطن كناية عن البخل .

(٦) زمر المروءة ، أى قليل المروءة . وفى ط : زمن ، وهذا من ت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسحرا ، وإنّ من الشعر لحِكْمَة . ويروى لَحُكما(١) ؛ والأول أَصح(٢) . والذى روى أهل الثَّبَت(٣) ، من هذا الحديث أَنَّه قَدِم رجلان من أَهْل المشرق فخطبا ؛ فعجِب الناسُ لبيانهما ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسِحْرا ، أو إن من بعض البيان لسحرا .

وعَمْرو بن الأهتم هو عَمْرو بن سِنَان بن سُمَىّ [بن سِنَان بن خالد](٤) بن مِنْقَر ابن عُبيد بن الحارث(٥) ، والحارث هو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . وسُمّى سِنان الأهتم ؛ لأَنّ قيس بن عاصم المِنقرى سيدَ أهلِ الوبر ضربه بقوسه فهتَم فاه . هذا قول أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(٦) . وقال غيره : بل هتم فُوه يوم الـكُلَاب الثانى ، وهو يومٌ كان لبنى تميم على أهل اليمن . وكان عمرو يلقب المـكحَّل لجماله ، وبنو الأهتم أهلُ بيتِ بلاغةٍ فى الجاهلية والإسلام . وعبد الله ابن عمرو بن الأهتم هو جدّ خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة . وكان يقال : الخطابة فى آلِ عَمْرو ، وكان شعره حُلَلًا منشّرَة عنـد الملوك تأخذُ منه ما شاءت . وهو(٧) القائل :

ذرينى فإن البخلَ يا أمّ مالكٍ(٨) لصالحِ أَخـلاقِ الرجالِ سَرُوقُ
لعمركِ ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولـكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ

والزبرقان اسمه حُصَين(٩) بن بَدْر بن امرئ القيس [بن الحارث](٤) بن بهدلة بن عوف ابن كعب بن سعيد(١٠) . وسمى الزّبرقان لجماله ؛ والزبرقان : القمر [قبل تمامه](١١) ،

(١) النهاية لابن الأثير : ١ — ٢٤٦ ، والحـكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل .
(٢) قال فى النهاية : ويروى لحـكمة وهى بمعنى الحـكم . (٣) الثبت ، بفتح البـاء وتسكن : الحجة العدل الضابط . (٤) ليس فى ت . (٥) فى ت : عبيد الحارث بن مقاعس.
(٦) الشعر والشعراء : ٦١٤ . (٧) عمرو بن الأهتم — الشعر والشعراء ٦١٥ ، والمفضليات: ١٢٣ . (٨) فى المفضليات : ياأم هيثم. (٩) فى ط : حصن(١٠) فى ت : سعد .
(١١) من ت .

وقيل : لأنّه كان يُزَبْرِقُ عمامتَه ، أى يصفّرها فى الحرب . وكانوا يسمّون الكلام الغريب السِّحر الحلال، ويقولون : اللفظ الجميل من إحدى النَّفَثات[1] فى العُقَد .

غلام يفحم عمر بن عبدالعزيز

وذكر بعضُ الرُّواة[2] أنه لما استخلِف عمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله عنه قدِم عليه وفودُ أهلِ كل بلد ؛ فتقدم إليه وفدُ أهلِ الحجاز فاشرَأَبَّ[3] منهم غلامٌ للكلام، فقال عمر : يا غلام ؛ ليتكلَّمْ مَنْ هو أَسَنّ منك ! فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ! إنما المرء بأَصْغَرَيْهِ قلبِه ولسانه ، فإذا مَنَح اللهُ عبدَه لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاد له الاختيار ؛ ولو أَن الأُمور بالسنّ لكان هاهنا مَنْ هو أحقّ بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت ، تكلم فهذا السحر الحلال ! فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهنئة لَا وفد الْمَرْزِئَة[4] ، ولم تقدمْنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ؛ لأنّا قد أمِنّا فى أيامك ما خِفنا ، وأَدركنا ما طلبنا !

فسأل عمر عَنْ سِنّ الغلام ، فقيل : عشر سنين .

وقد روى أن محمد بن كعب القرظى كان حاضراً فنظر إلى وَجْه عمر قد تهلّل عند ثَناء الغلام عليه ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ لا يغلبَنَّ جهلُ القوم بك معرفتَك بنفسك ؛ فإنّ قوماً خدعهم الثناء ، وغرّهم الشكر ؛ فزلّت أقدامُهم، فهوَوْا فى النار . أعاذكَ الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالِفِ هذه الأمة ؛ فبكى عمر حتى خِيفَ عليه، وقال : اللهم لا تخلنا من واعظ !

وقد رُوى أن عمرَ قال للغلام : عِظْنى ، فقال هذا الكلام ، وفيه زيادة يسيرة ونقص .

أخذقولَ عمر : «هذا السحر الحلال» أبو تمام فقال يعاتب أباسعيد محمد بن يوسف الطائى[5] :

---

(١) فى ت : النفاثات . (٢) مروج الذهب : ٢ — ١٦٩ . (٣) اشرأب : تطلع .

(٤) المرزئة : طلب العطاء ، أى لسنا وافدين للعطاء . (٥) ديوانه : ٤٠٦ .

إذا ما الحاجـةُ انبعَثَتْ يدَاهَا جَعلْتَ المَنْعَ منكَ لهـا عِقَالاَ
فأين قصائدٌ لى فيكَ تَأْبى[١] وتأنفُ أَنْ أُهَانَ وأَنْ أُذَالا
هى السِّحرُ الحـلالُ لمُجْتَلِيه[٢] ولم أَرَ قبلها سِحْراً حَلَالا

رســالة لابن العميد

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب وردَ إليه [فأحمده] [٣] :

وصـل ما وصلْتنى به ، جعلنى الله فداك ، من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنّتك العامة ؛ فقرَّتْ عينى بوروده ؛ وشُفِيَتْ نفسى بوفوده، ونَشَرْتُه فحَـكَى نسيمَ الرياض غِبَّ المطر ، وتنفُّسَ الأنوارِ فى السَّحَر ، وتأمَّلْتُ مُفْتَتَحه ، وما اشتمل عليه من لطائف كَلِمك ، وبدائع حِكَمك ؛ فوجـدته قد تحمَّـل من فنون البرّ عنك ، وضروب الفَضْلِ منك جِدًّا وهزلا ، ملأَ عينى ، وعَمَرَ قلبى ، وغلب فِـكْرِى ، وبَهَرَ لُبِّى؛ فبقيتُ لا أَدرى: أسُمُوط دُرّ خَصَصْتَنِى بها، أم عقود جوهر مَنَحْتَنِيها؟ كما لا أدرى أبكاراً زَفَفْتها فيه ، أم روضةً جهزتَها منه ؛ ولا أدرى أخدوداً ضُرِّجت حياءً ضُمِّنته ؛ أم نجوما طلعت عِشاءً أودعته ؛ ولا أدرى أَجِدُّك أبلغ وأَلطف ، أم هَزْلك أَرفع وأَظرف ؛ وأنا أُوَكِّلُ بتتبعِ ماانطوى عليه نَفْسًا لا ترى الحظَّ إلا ما اقْتَنَتْه منه ، ولاتَعُدُّ الفضل إلاّ فيما أخذَتْه عنه ، وأُمَتِّع بتأمّله عينا لا تقرُّ إلاّ بمثله، مما يَصْدُر عن يَدِك ، ويَرِدُ من عندك ، وأُعْطِيه نظراً لا يملُّه ، وطَرْفا لا يطرِف دونه ، وأَجعله مِثالاً أَرْتَسمه وأَحْتَذِيه ، وأمتِّع خُلقى برَوْنَقِه ، وأُغذِّى نفسى بِبَهْجَتِه ، وأَمْزِجُ قريحتى برقّتِه ، وأَشْرَحُ صَدْرِى بقراءاته ؛ ولئن كنتُ عن تحصيل ما قلتَه عاجزا ، وفى تعديد ماذكرتَه متخلِّفًا ، لقد عرفت أنه ما سمعتُ به من السِّحْرِ الحلال .

---

(١) فى الديوان : تأتى . (٢) فى ت : من السحر الحلال لمجتنيه . (٣) من ت .

وقال بعض المحدثين يمدح كاتباً :

وإذا جرى قلمٌ له فى مُهْرَقٍ ... عَجْلانَ فى رَفَلانِه ووجيفهِ [١]
نظمت مراشفُه قلائدَ نُظِّمَتْ [٢] ... بنفيسِ جَوْهَرِ لفظه وشريفهِ
بِدْعاً من السِّحْرِ الحلال تولَّدتْ ... عن ذهن مصقول الذَّكاء مَشُوفه [٣]
مَثَلًا لضاربهِ وزادَ مُسافرٍ ... جُعِلت وتحفةَ [٤] قادمٍ لأليفهِ

وعلى ذكر قوله : « وتُحْفَة قادم » قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : وصف رجلٌ رجلا فقال : كان والله سَمْحاً [٥] سَهْلا ، كأنما بينه وبين القلوب نَسَبٌ ، أو بينه وبين الحياةِ سَبَبٌ ، إنما هو عيادة مريض ، وتُحْفَة قادم ، وواسطة عِقْد [٦] .

وأخذ بعض بنى العباس رجلا طالبيًّا فهمَّ بعقوبته ، فقال الطالبى : واللهِ لولا أَنْ أُفسد دينى بفساد دنياك لملكت من لسانى أكْثَر مما ملكتَ من سَوْطك ، والله إنَّ كلامى لَفَوْقَ الشعر ، ودون السِّحْر ، وإن أيسره لَيثْقُبُ الْخَرْدَل [٧] ، ويحطّ الجَنْدَل .

حسن الحديث.

وقال على بن العباس يصف حديث امرأة [٨] :

وحديثُها السِّحْرُ الحلالُ لو انه ... لم يَجْنِ قتلَ المسلم المتحرِّزِ
إن طال لم يُمْلَلْ وإنْ هى أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المحدَّثُ أنَّها لم تُوجِز
شَرَكُ العقول ونزهة ما مِثْلُها ... للمطمئن وعُقْلَة المستوفِز [٩]

ألمَّ فى بيته الآخر بقول الطائى [١٠] :

كَواعِبُ أَتْراب لغيداءَ أصبحتْ ... وليس لها فى الحسن شَكْلٌ ولا تِرْبُ [١١]

---

(١) المهرق : الصحيفة . رفل : تبختر أو خطر بيده . والوجيف : الاضطراب ، وضرب من سير الإبل . (٢) فى ت : فصلت . (٣) المشوف : المجلو . (٤) الطرفة .
(٥) فى ت : سحا . (٦) فى ت : قلادة . (٧) حب شجر .
(٨) ديوانه : ٤٠٩ ، والمختار من شعر بشار : ٤١ . (٩) فى الديوان : علقة ، واستوفز فى قعدته انتصب فيها غير مطمئن ، وعقلة : قيد . (١٠) ديوانه : ٣٠ .
(١١) الترب : من ولد معك ، أو الشبيه .

لهـا منظرٌ قَيْدُ النواظِرِ لم يزَلْ   يرُوحُ ويغدو فى خَفَارَتِه الحُبُّ

وأول من استثار[1] هذا المعنى امرؤ القيس بن حُجر الكندى فى قوله[2] :

وقد اغتدِى والطيرُ فى وُكُناتِها   بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ[3]

وقالت عُلَيَّة بنت المهدى :

اشرب على ذكرِ الغزَالِ   الأغيد الحلو الدَّلال

اشرب عليه وقلْ له   يا غُلَّ ألباب الرجالِ

وكانت علية لطيفةَ المعنى ، رقيقة الشعرِ ، حسنةَ مجارى الكلام ، ولها ألحانٌ حِسَانٌ ، وعَلِقت بغلام اسمه « رشأ » وفيه تقول[4] :

أضحى الفؤاد بزينبا   صبًّا كئيباً مُتْعَبا

فَجَعَلْتُ زَيْنبَ سترةً   وكَتَمْتُ أمراً مُعْجبا

[قولها : بزينب تريد برشأ][5] .

فنمِى الأمر إلى أخيها الرشيد فأبعده ، وقيل قَتَله ، وعلقت بعده بغلام اسمه « طل » ، فقال لها الرشيد : والله لئن ذكرتِه لأقتلنّك ! فدخل عليها يوماً على حين غَفْلة وهى تقرأ : فإن لم يُصِبْها وابلٌ فما نهى عنه أميرُ المؤمنين ، فضحك وقال : ولا كلّ هذا . وهى القائلة[4] :

يا عاذِلى قد كنتُ قبلَك عاذلًا   حتى ابتُليتُ فصرت صبًّا ذاهلا

الحب أَول ما يكون مَجَانةً[6]   فإذا تحكَّم صار شُغْلا شاغِلا

[أَرْضى فيغضب قَاتلى فتعجّبوا   يَرْضى القتيلُ ولا يُرضّى القاتلا][7]

---

(١) فى ت : استشار . (٢) ديوانه : ٣٤ . (٣) الوكنات جمع وكنة : وهى العش ، والمنجرد : الفرس القصير الشعر ، والأوابد : الوحوش لأنها تعمر على الأبد ، وقيد الأوابد : يسبقها فكأنه قيدها ، والهيكل : الضخم . (٤) شاعرات العرب : ٢٣٥ . (٥) من ت .
(٦) فى ت : لجاجة . (٧) ليس فى ت .

وهى القائلة(١) :

وُضع الحبّ على الجوْر فلو أنصف المعشوق فيه لَسَمُجْ
[وقليلُ الحب صرفاً خالصاً لكَ خير من كثير قد مُزِجْ](٢)
ليس يُسْتَحْسَنُ فى نَعْتِ الهوى عاشق يُحْسِنُ تأليف الحُجَجْ

وكأنها ذهبت فى الأول إلى قول العباس بن الأحنف :

وأَحسن أيام الهوى يومُك الذى تُروَّع بالهِجران فيه وبالعَتْبِ
إذا لم يكن فى الحب سُخْطٌ ولا رِضاً فأين حَلاوَاتُ الرسائل والكُتْبِ

وقد زاد النميرى فى هذا فقال :

راحتى فى مقالة العُذَّال وشِفائى فى قِيلهمْ بَعْدَ قالِ(٣)
لا يَطيبُ الهوى ولا يَحسُنُ الحـ ـبُّ لصبٍّ(٤) إلّا بِخَمْس خِصال
بسماع الأذَى وعَذْل نصيحٍ وعِتابٍ وهِجْرةٍ وتَقالِ(٥)

وقال بعض المحدثين :

لولا اطّرادُ الصيد لم تَكُ لذةٌ فتطارَدِى لى فى الوصال قليلا
هذا الشراب أخُو الحياةِ وما لَهُ من لذةٍ حتى يُصِيبَ غليلا(٦)

وقال آخر(٧) :

دَعِ الصبَّ يَصْلى بالأذى(٨) من حبيبهِ فإنّ الأذى ممن تُحِبُّ سُرورُ
غُبارُ قَطِيعِ الشاء فى عيْنِ ذئبها إذا ما تلا آثارَهنّ ذَرُورُ(٩)

وأنشد الأصمعى [لجميل بن معمر العذرى](٢) :

لا خَيْرَ فى الحبِّ وقفاً لا تحرِّكُهُ عوارضُ اليأسِ أَو يَرْتاحُه الطمعُ

---

(١) الصناعتين ٨٣ ، شاعرات العرب ٢٣٥ . (٢) من ت . (٣) فى ت : وشفائى فى سؤالهم عن حالى . (٤) فى ت : بخلق . (٥) التقالى : التباغض .
(٦) الغليل : الظمأ الشديد . (٧) المختار من شعر بشار : ٥٩ .
(٨) فى ت : بالهوى . (٩) الذرور : ما يذر فى العين .

لو كان لى صَبْرُها أو عندها جَزَعِى ... لـكنتُ أُمْلك ما آتِى وما أدعُ
إذا دعا باسْمِها داعٍ لِيحزننى ... كادت له شُعْبة من مُهْجَتى تقعُ
لا أَحمل اللومَ فيهـا والغرام بها ... لا حمَّـلَ اللهُ نفساً فوقَ ما تسعُ

وهذا البيت كقول على بن العباس الرومى[1] :

لا تُـكْثِرَنَّ ملامةَ العشاقِ ... فـكفاهُمُ بالوَجْـدِ والأشواقِ
إن البلاءَ يطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ ... فإذا تضاعَفَ كان غيرَ مُطَاقِ
لا تُطْفِئَنَّ جوًى بلَوْمٍ إنهُ ... كالريح تُغْرِى النـار بالإحراق

ويشبه بيت عليّة الآخـر بيت أنشد فى هذا[2] بشعر رُوِى لأبى نواس ، ورواه قوم لعنان جارية الناطفى وهو :

حُـلو العتابِ يهيجُهُ الإدلالُ ... لم يَحْلُ إلا بالعتابِ وصالُ
لم يَهْوَ قطُّ ولم يُسَمَّ بعاشقٍ ... من كان يصرف وجهه التَّعْـذَالُ[3]
وجميعُ أسبابِ الغرام يسيرةٌ ... ما لم يكن غَـدْرٌ ولا استبدالُ
تصف القضيبَ على الـكثيب قناتُها ... ولها من البدر المنير مِثَالُ
ولربَّ لابسـةٍ قِناعَ مَلاحَةٍ ... حسناءَ سار بحسنها الأمثـالُ
كَسَتِ الحَدَاثةُ ظَرْفَها وجمالَها ... نُورًا فماءُ شبابها يَخْتَال
وكأنها والـكأسُ فوق بَنانِها ... شمسٌ يمُدُّ بهـا إليك هِلَالُ
حتى إذا ما استأنست بحديثها ... وتـكلمت بلسانها الجِرْيالُ[4]
قلنا لها : إن صدَّقت أقوالَها ... أفعالُها وجرى بهنَّ الفَالُ
قولى فليس ترَاكِ عينُ نميمةٍ ... حضر النصيح وغابَتِ العُذَّال
وضميرُ ما اشتملَتْ عليه ضلوعُنا[5] ... سِرٌّ لدى أبوابه أَقْفَال

---

(١) ديوانه : ٢٥٣ ، المختار من شعر بشار : ٨٩ . (٢) فى ت : فى أول .
(٣) التعذال : اللوم . (٤) الجريال : الخمر . (٥) فى ت : صدورنا .

وقد أخذ أبو الطيب المتنبي معنى « قيد الأوابد » فقال ـ يصف كلباً[١] :

نَيْلَ المُنى وحُكْمُ نَفسِ المُرْسِلِ   وعُقْلَةُ الظَّبْىِ وحَتْفُ المتفل[٢]
كأنّه من عِلمِهِ بالمَقْتَلِ   عَلَّمَ بقْراط فصادَ الأكْحَلِ[٣]

وقال فى بنى حمدان[٤] :

مُتَصَعْلِكِينَ على كَثافةِ مُلْكِهِمْ   متواضِعِينَ على عَظِيمِ الشّانِ[٥]
يَتَقَيَّلُونَ ظِلالَ كلِّ مُطَهَّمٍ   أَجَلِ الظليم وربْقَةِ السِّرْحَانِ[٦]

وقال أعرابى يصف فرساً : إنه لدَرَكُ الطالب ، ومَنْجَى[٧] الهارِب ، وقَيْد الرّهان ، وزين الفِناء .

وقال بعضُ أهل العصر فى وصفِ غلام : وجهُه قَيْدُ الأبصار ، وأَمَدُ الأفكار ، ونهاية الاعتبار .

وقال أبو القاسم إسماعيل بن عباد :

وقد أَغتدى للصَّيْدِ غُدوةَ أَصْيَدٍ[٨]   أُعاجِلُ فيها الوحشَ والوحشُ هُجَّدُ
فعنَّتْ[٩] ظِباءٌ خِفْنَ تحتِيَ مطلقَ الْ   يدين به أَيْدى الوحُوش تُقَيَّدُ
فأدركتها والسيفُ لَمْعَةُ بارقٍ   ولم يُغنِها إحْضَارها[١٠] حين تجهَدُ
وقد رُعْتُها إذ كانَ شعرىَ رائعاً   وطَرْفُ مشيبى عن عِذارىَ أرمَدُ
وما بلَغَتْ حَدَّ الثلاثين مُدتى   وهذا طِراز[١١] الشيب فيه يُمَدّد[١٢]

---

(١) ديوانه : ٣ ــ ٢٠٦ .   (٢) فى الديوان وفى ت : التتفل . وعقلة الظبى : قيده ، والتتفل : ولد الظبى . أما المتفل فهى التى استبان حملها .   (٣) بقراط : طبيب ، والأكحل : عرق فى اليد .   (٤) ديوانه : ٤ ــ ١٧٩ .   (٥) الصعلوك : الفقير . والكثافة : الكثرة.
(٦) يتقيلون : يتبعون . والمطهم : الفرس التام كل شىء فيه على حدة فهو بارع الجمال . والظليم : ذكر النعام . والربقة : ما يكون فى رقبة الشاة . والسرحان : الذئب .
(٧) فى ت نجاء .   (٨) الأصيد : من يرفع رأسه كبرا .   (٩) عنت : عرضت .
(١٠) الإحضار : نوع من السير .   (١١) الطراز : الموضع الذى تنسج فيه الثياب ، وعلم الثوب .   (١٢) فى ت : تمدد .

المختار في حسن الحديث

وأبياتُ ابن الرومى من أجود ما قيـل فى حسن الحديث ، وقد توسَّع الشعراء فى هذا الباب ، وكَثُرَ إحسانُهم ، كما كَثُرَ افتنانُهم ، وسأُجرِى شأْوا فى مختار ماقيل فى ذلك ، وأعود إلى ما بدأت به .

قال القُطامى(١) واسمه عُمَيْر بن شُيَيم التغلبى(٢) ـ وسمى القُطَامى لقوله(٣) :

يَحُطّهنّ(٤) جانباً فجانبا ... حطَّ القُطامىِّ القطَا القواربا(٥)

وقال أبو عبيدة : ويقال للصقر قُطامى وقَطَامِى .

وفى الخُدُورِ غمَاماتٌ برَقْنَ لنا ... حتى تَصَيَّدْنَنَا من كلِّ مُصْطادِ

يَقْتُلْنَنَا بحديثٍ ليس يَعْلَمهُ ... مَنْ يتَّقِينَ ولا مَكْنونه بَادِى

فهنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ به ... مواقعَ الماءِ من ذى الغُلةِ الصَّادِى

وقال أبو حية النّميرى ، واسمه الهيثم بن الربيع(٦) :

وخـبَّرَكِ الواشون أن لن أُحبَّكم ... بلى وسُتُورِ اللهِ ذاتِ المحـارمِ

وإنْ دماً لو تعلمينَ جنيتِهِ ... على الحىّ ، جانِى مِثْله غيرُ سالمِ

أصدُّ وما الصـدُّ الذى تعلمينهُ ... عزاءً بكم(٧) إلا ابتـلاع العَلاقمِ

حياءً وتُقْيا(٨) أَنْ تشيعَ نميمةٌ ... بنا وبكم أفٍّ لأهـلِ النمائمِ

أما إنه لو كان غيرُكِ أرقلَتْ ... إليـه القنَا بالراعِفات اللهاذمِ(٩)

ولـكنه واللهِ ما طَلَّ مُسْلماً ... كَغُرِّ الثنايا واضحاتِ الملاغِمِ(١٠)

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٠١ ، والمختار من شعر بشار : ٥٥ . (٢) فى ط : شبيم التغلبى .
(٣) اللآلىء : ١٣١ . (٤) فى اللآلى : يصكهن ، وفى ت : يحطها .
(٥) فى ت : الغواربا . (٦) المختار من شعر بشار : ٣٨ ، الأمالى : ٢ ـ ٢٨٠ ، اللآلى : ٩٢٥ . (٧) فى ط : بنا . (٨) التقيا : الخوف ، وفى الأمالى ، وفى ت : وبقيا .
(٩) أرقلت : أسرعت ، الراعفات : الرماح يسيل منها الدم يعنى الأسنة . اللهاذم : القاطعات من الأسنة. (١٠) الوضوح : البياض والإشراق ، والملاغم : ما حول الفم ، وفى ط : ما ظل مسلماً لغر الثنايا .

إذا هنَّ ساقطْنَ الأَحاديثَ للفتى (١) سُقُوط حَصَى المَرْجَان من كَفِّ ناظمِ
رَمَيْن فأَنْفَذْنَ القـلوبَ ولا تَرَى دَماً مائِراً إلا جوًى فى الحيازمِ (٢)

وقال أيضاً (٣) :

حديثٌ ـ إذَا لم تَخْشَ عيناً ـ كأنّه إذا ساقطَتْهُ الشّهْدُ أَو هُو أَطْيَبُ
لو انك تستشفى به بعـد سكْرَةٍ من الموتِ كادتْ سَكْرَةُ الموتِ تَذْهَبُ

إلى هذا ينظر (٤) قول الآخر وإن لم يكن منه :

أَقـول لأَصْحَابى وهم يعذلوننى ودَمْعُ جُفُونى دَائِمُ العَبَراتِ
بذكر مِنًى (٥) نفسى فبلُّوا ، إذادَنَا خروجى من الدنيا ، جُفُوفَ لَهاتى

وقال سديف مولى بنى هاشم يصفُ نساءً (٦) :

وإذا نطقْنَ تَخَالُهنَّ نوَاظِماً دُرًّا يُفَصَّلُ لُؤْلؤاً مكنونا
وإذا ابتسمْنَ فإنهنَّ غمامـةٌ أو أُقحوان الرَّمْل بات معِينا (٧)
وإذا طَرَفْنَ طرفن عن حَدَقِ المَهَا وفَضَلْنَهنّ مَحَاجراً وجُفُونا (٨)
وكأنَّ أَجيادَ الظباء تَمُدّها وَحُضُورهنَّ لطافةً ولُدُونا (٩)
وأصحُّ مارأَتِ العيونُ مَحَاجراً (١٠) ولهنّ أمرضُ ما رأَيت عيونا
وكأَنَّهنَّ إذا نَهَضْنَ لحاجـةٍ ينهضْنَ بالعقدات من يَبْرِينا (١١)

(١) فى ت : كأنه . (٢) المائر : السائل . الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر ، وما استدار بالظهر والبطن . وفى ت : فأقصدن القلوب . وفى ط : إلا جرى .
(٣) المختار من شعر بشار : ٣٩ . (٤) فى ط : يتطرق قول .
(٥) فى ت : يذكرنينى . (٦) المختار من شعر بشار ٣٠٦ ، والبيت الخامس فى النويرى ٥ ـ ٦ منسوباً لإسحاق الموصلى . (٧) الأقحوان : زهر أبيض . (٨) المها : الغزلان .
(٩) اللدون : اللين . وفى ت : وخصورهن . (١٠) فى المختار : جوارحا .
(١١) يبرين : موضع .

وقال الطائى (١) :

تُعْطِيكَ مَنْطِقَهَا فَتَعْلَمُ أنهُ   لِجَنَى عُذُوبَته يَمُرُّ بِثَغْرِها

وأَظُنُّ حَبْلَ وصالهـا لِمُحِبِّها   أَوْهَى وأضعفَ قُوَّةً من خَصْرِها

أخذه أبو القاسم بن هانىء ، فقال يمدح جعفر بن على ، إلاَّ أَنه قَلَبَه فقال :

قد طيَّبَ الأفواهَ طِيبُ ثنائهِ   من أجل ذا نجدُ الثغورَ عِذَابا

وكأنما ضَرَبَ السماء سُرَادِقاً   بالزَّاب أورَفَعَ النجوم قِبابا (٢)

أرضاً وطِئْت الدُّرَّ رَضْرَاضًا بها   والمسكَ تُرباً والرياض جنَاباً (٣)

وقال الطائى (٤) :

بسطت إليك (٥) بنانةً أُسْرُوعا   تصف الفِرَاقَ ومُقْلةً ينبُوعا (٦)

كادتْ لعِرْفَانِ النَّوى ألفاظُها   من رِقَّة الشَّكْوَى تكونُ دُمُوعا

ومن جيِّد هذا المعنى وقديمه قول النابغة الذبيانى (٧) :

لو أنها عرَضتْ لأَشْمَطَ رَاهبٍ   عبدَ (٨) الإلهَ صَرُورَةٍ مُتَعبِّدِ (٩)

لرنَا لِبَهجتها (١٠) وطِيب حَدِيثِها   ولخالَهُ رشداً وإن لم يَرْشُدِ

نظرت إليك بحاجةٍ لم تَقْضِها   نَظَرَ السليمِ (١١) إلى وجوه العُوَّدِ

ومن مشهور الكلام قول الآخر :

وكنتُ إذا زُرْتُ سُعْدَى بأَرْضِها   أرىالأرضَتَطوَى لِيويَدْنُو بَعِيدُهَا

مِنَ الخَفِراتِ البِيضِ وَدَّ جَليسُها   إذا ما انقضَتْ أُحدوثةٌ لو تُعيدُها

---

(١) المختار من شعر بشار : ٣٩ . وفى ت : وقال .   (٢) الزاب : بلد .
(٣) الرضراض : صغار الحصى .   (٤) ديوانه : ٤٩٨ .   (٥) فى الديوان : إلى .
(٦) الأسروع : دود أحمر الرأس تشبه به الأنامل .   (٧) ديوانه : ٣٨ .
(٨) فى الديوان : يخشى .   (٩) صرورة : لم يتزوج .   (١٠) فى الديوان : لرؤيتها وحسن ، وفى ت : لبهجتها وحسن .   (١١) السليم : السقيم ، وفى ت : السقيم .

تَحَلَّلُ (١) أَحْقَادِى إذا ما لقِيتُها ... وترْمِى بلا جُرْمٍ عَلَىَّ حُقُودُها

وقال بَشار (٢) :

وكأنَّ رَجْعَ حَدِيثها ... قِطَعُ الرِّياض كُسِينَ زَهْرَا
حَوراء إنْ نظرتْ إليـ ... ـكَ سَقَتْكَ بالعينَيْنِ خَمْرَا (٣)
تُنسى الغوِىَّ مَعَادهُ (٤) ... وتكون للحكماء ذِكْرا
وكأنها بَرْدُ الشرا ... بِ صَفَا ووافَقَ فيه فطْرا (٥)
وكأنَّ تحتَ لسانِها ... هَارُوتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا
وتخال ما جَمَعتْ عَليـ ... ـهِ ثيابَهَا ذَهَباً وعِطْرا

وسمع بشار قول كُثيِّرٍ بن عبد الرحمن (٦) :

ألا إنما لَيْلى عَصا خَيْزُرَانَةٍ ... إذا غَمزُوها بالأَكُفِّ تَلِينُ

فقال : قاتل الله أبا صَخْر ! يزعم أنها عصا ويَعْتَذِر بأنها خَيْزُرَانة ، ولو قال : عصا مُخٍّ أو عصا زُبْد لكان قد هجنها مع ذِكر العصا ، هلاّ قال كما قلت (٧) :

ودَعْجَاء المَحاجر (٨) من مَعَدٍّ ... كأنَّ حَدِيثَها ثَمَرُ الجِنانِ
إذا قامت لحاجتها (٩) تثنَّتْ ... كأنَّ عِظَامَها من خَيْزُرَانِ

وبعد قول كُثيِّر : « أَلا إِنما ليلى عصا خيزرانة » :

تمتَّعْ بها ما ساعفتك ولا يَكُنْ ... عليك شجًى فِي الصَّدْرِ حين تَبينُ
وإنْ هى أَعْطَتْك اللّيان فإنّها ... لآخرَ من خُلاَّنها سَتَلِينُ
وإن حلفتْ لا يَنْقُضِ النأىُ عهدَهَا ... فليس لمخضُوبِ البنانِ يَمِينُ

---

(١) تحلل : تذهب . (٢) المختار من شعر بشار : ٣٣ ، الأغانى : ٣ — ١٥٠ .
(٣) فى ت : سحرا . (٤) فى ت : معاذه . (٥) فى ط : قطرا .
(٦) المختار من شعر بشار : ٣٤ ، الكامل : ٤٩٧ . (٧) المختار من شعر بشار : ٣٤ .
(٨) فى المختار . وحوراء المدامع . والدعج : سواد العين مع سعتها .
(٩) فى المختار : إذا قامت لمشيتها ، وفى ت : لسبحتها .

وقال البحترى (١) :

وَلما التَقَيْنَا واللِّوَى (٢) موعدٌ لنا ... تعجَّبَ رائِي الدُّرِّ حُسناً ولاقِطُهْ (٣)

فمن لؤلؤ تجنيه (٤) عند ابتِسَامِها ... ومِنْ لؤلؤ عند الحديثِ تُساقِطُهْ

وقال المتنبى (٥) :

أَمنْعِمَةٌ بالعَودةِ الظَبْيَةُ التى ... بغَيْرِ وَلِىٍّ كانَ نائلَهَا الوَسْمِى (٦)

تَرَشَّفْتُ فَاهَا سُحْرَةً فكأَنَّنِى ... تَرَشَّفتُ حَرَّ الوَجْدِ من باردِ الظَّلْمِ (٧)

فتاةٌ تَساوَى عِقْدُها وكَلاَمُها ... ومَبْسِمُها الدُّرِّىُّ فى النثر والنَّظْمِ

فضل الشعر

عاد الحديثُ الأول ، قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى : حدّثنا يوسف بن يعقوب قال : أخبرنى جدّى قراءة عليه عن أبى داود عن محمد بن عبيد الله عن أبى إسحاق عن البراء يرفعُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشعر لحُكْما ، وإنّ البيان لَسِحْرا ، قال أبو القاسم : هكذا رَوَيْنا الخبر ، وراجعت فيه الشيخ فقال : نعم هو : إنَّ من الشعر لحُكْما بضم الحاء وتسكين الكاف ، قال : ووجهُه عندى إذا رُوِى هكذا : إن من الشعر ما يلزم المقول فيه كلزوم الحُكْم للمحكوم عليه ؛ إصابةً للمعنى ، وقصداً للصواب ، وفى هذا يقول أبو تمام (٨) :

ولولا سبيلٌ (٩) سَنَّها الشِّعْرُ ما دَرَى ... بُغاةُ النَّدَى من أَيْنَ تُؤْتَى المَكارِمُ

يُرَى حكمةً ما فِيه وهو فكاهةٌ ... ويُرْضَى (١٠) بما يَقْضِى به وهو ظالمُ

انتهى كلام أبى القاسم .

وقد وجدنا فى الشعر أبياتاً يجْرِى على رَسْمِها ، ويمضى على حكمها ؛ فقد كان

---

(١) ديوانه : ٣٣١ ، المختار من شعر بشار: ٣٩ . (٢) فى الديوان : والنقا موعد لنا.
(٣) فى ت : ولافظه . (٤) فى الديوان وفى ت : تجلوه ؛ وفى المختار: تبديه .
(٥) ديوانه : ٤ ــ ٤٨ . (٦) الوسمى : المطر الأول والولى : الذى يليه .
(٧) الظلم : ماء الأسنان وبريقها . (٨) ديوانه : ٢٨٦ ــ ٢٨٧ .
(٩) فى الديوان : ولولا خلال . (١٠) فى الديوان وفى ت : ويقضى .

بنو أَنْف الناقة إذا ذكَر أحدٌ عند أحدٍ منهم أنفَ الناقة ـ فضلا عن أن ينسبهم إليه ـ اشتدَّ غضبُهم عليه ؛ فما هو إلا أَن قال الحطيئة يمدحهم [١] :

سِيرى أُمَامَ فإن الأ كثرينَ حَصًى والأَطْيبين إذا ما يُنْسَبُون أَبَا
قومٌ إذا عقدوا عَقْداً لجارهِمُ شَدّوا العِنَاجَ وشدّوا فوْقَه الكَرَبا [٢]
قوم همُ الأنفُ والأذْنَابُ غيرهُمُ ومن يُسوِّى بأَنْفِ الناقةِ الذَّنبَا

فصار أحدُهم إذا سُئِل عن انتسابه لم يَبْدَأ إلا بهِ ؛ وأنفُ الناقة هو جعفر بن قريع [٣] بن عوف بن كعب [٤] بن زيد مناة بن تميم .

وكان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، ويتشرّفُونَ بهذا الوَسْم ؛ إذ كان عبد الله بن كعب جدّهم إنما سمّى العجلان لتعجيله القِرَى للضِّيفَان : وذلك أَن حيًّا من طيّىء نزلوا به ، فبعث إليهم بقِرَاهم عَبْداً له ، وقال له : اعْجَل عليهم ، ففعل العبدُ فأعتقه لعَجلته ، فقال القوم : ما ينبغى أن يُسمى إلّا العَجْلان ؛ فسمى بذلك فكان شرفاً لهم ، حتى قال النجاشى ، واسمه قيس بن عمرو بن مالك بن حزن بن الحارث ابن كعب [٥] يهجوهم :

أولئكَ أخوال اللّعين وأسْرةُ الـ هجين ورَهْطُ الواهِنِ المتذلّلِ
وما سُمِّى العَجْلَانَ إلا لقولِهِ خُذِ القَعْبَ [٦] واحْلُبْ أيها العبد واعْجَلِ

فصار الرجل منهم إذا سُئِل عن نسبه قال : كعبى ، ويكنى عن العجلان ، وزعمت الرواة [٧] أنّ بنى العجلان استعْدَوا على النجاشى ـ لما قال هذا الشعر ـ عُمَرَ بن الخطاب

---

(١) العمدة : ١ ـ ٣٥ ، مختارات ابن الشجرى : ٣ ـ ١٨ ، البيان والتبيين ٣ ـ ٢٠٣ .

(٢) اللسان ـ مادة عنج ، والشعر والشعراء : ١ ـ ١٩٢ . والعناج : خيط أو سير يشد فى أسفل الدلو ، ثم يشد فى عروتها ، والكرب : من حبال الدلو . (٣) فى ت : قريح وهو تحريف.

(٤) فى العمدة : بن مالك ، وفى ت : بن كعب بن سعد بن زيد .

(٥) الشعر والشعراء : ٢٩٠ ، البيان والتبيين : ٣ ـ ٢٠٣ .

(٦) العقب : القدح الضخم . (٧) العمدة : ١ ـ ٣٨ ، الشعر والشعراء : ١ ـ ٢٩٠ ، حماسة ابن الشجرى : ١٣١ .

رضى الله عنه ، وقالوا : هَجَانَا ، قال : وما قال فيكم ؟ فأنشدوه قوله :

إذا اللهُ عادَى أهلَ لؤم ورِقَّةٍ فعادَى بنى العَجْلَان رهطَ ابن مقبلِ

فقال : إنَّ الله لا يُعَادى مسلماً ، قالوا : فقد قال :

قُبَيِّلة[1] لا يَغْدِرون بذِمَّةٍ ولا يَظْلِمُون الناسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

فقال : وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك ! قال : فقد قال :

تَعَافُ الكِلابُ الضارِيَاتُ لحومَهُمْ وتأْكلُ من عوف بن كعب بن نَهْشلِ[2]

فقال : كفى ضَياعاً مَن تأكل الكلابُ لحمه ! قالوا : فقد قال :

ولا يَرِدُون الماءَ إلّا عشيةً إذا صَدَر الوُرَّادُ عَن كلِّ منْهلِ

فقال : ذلك أصفى للماء ، وأقل للزّحام ! قالوا : فقد قال :

وما سمِّىَ العَجْلانَ إلاَّ لقولِهِ خُذِ القَعْبَ واحْلِب أَيها العبدُ واعْجَلِ

فقال : سيّد القوم خَادِمُهم ! وكان عمر رضى الله عنه أعلمَ بما فى هذا الشعر ، ولكنه دَرَأَ الحدودَ بالشبهات .

جمرات العرب

وهؤلاء بنو نمير[3] بن عامر بن صَعْصعة من القوم أحدُ جمرات العرب وأشرف بيوت قيس بن عيلان بن مضر . وجمرات العرب ثلاثة : وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم مُتَوافرون فى أنفسهم، لم يُدْخِلوا معهم غيرهم؛ والتجمير فى كلام العرب التجميع ، وهم بنو نمير بن عامر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد . فطفئت جمرتان وهما بنو ضبّة لأنها حالفت الرباب ، وبنو الحارث لأنها حالفت مَذحِج ، وبقيت نمير لم تحالف ؛ فهى على كَثْرَتها ومنَعَتِها . وكان الرجل منهم إذا قيل له : ممَّنْ أنتَ ؟ قال : نميرى كما ترى ! إدلالاً بنَسَبِه ، وافتخاراً بمنصبه ، حتى قال جرير بن الخطفى لعبيد بن حصين الراعى أحد بنى نمير بن عامر[4] :

---

(١) فى ط : قبيلته . (٢) فى الشعر والشعراء : من كعب وعوف ونهشل .

(٣) العمدة : ١ — ٣٦ ، اللسان — جمر . (٤) ديوانه : ٧٥ ، العمدة : ١ — ٣٦ ، البيان والتبيين : ٣ — ٢٠٣ ، المختار من شعر بشار : ٢٠١ .

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُميرٍ فلا كَعْباً بلَغْتَ ولا كِلابَا

كعب وكلاب : ابنا ربيعة بن عامر[١] بن صعصعة . فصار الرجل منهم إذا قيل له : ممن أنت ؟ يقول : عامرى ، ويكنى عن نمير .

ومرّت امرأة بقوم من بنى نمير فأَحَدُّوا النظر إليها ، فقال منهم قائل : والله إنها لرشْحَاء[٢] ، فقالت : يا بنى نمير ، والله ما امتثلتم فىَّ واحدة من اثنتين ، لا قول الله عز وجل : ﴿ قل للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارهم ﴾ . ولا قول الشاعر :

* فغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ من نُمير *

وسايَرَ شريك بن عبد الله النميرى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، فبرزت[٣] بغلة شريك ، فقال له يزيد : غُضّ من لجامها ، فقال : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير ، فضحك ، وقال : ما ذهبت حيث أَردت ، وإنما عرّض بقوله : « غُضَّ من لجامها » بقول جرير :

* فغُضَّ الطَّرْف إنك من نمير *

فعرض له شريك بقول ابن دَارَة[٤] :

لا تأمَنَنَّ فزَارِيًّا خَلَوْتَ بهِ على قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأَسْيَارِ[٥]

وبنو فزارة يُرمون بإتْيَانِ الإبلِ ، ولذلك قال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك لما ولى عمر بن هبيرة العراق[٦] :

أميرَ المؤمنين لأنْتَ مَرْءٌ[٧] أمينٌ لَسْتَ بالطَّبعِ الحريصِ

أوَلَّيْتَ[٨] العراقَ ورَافِدَيْهِ فزَارِيًّا أحذَّ يَدِ القَمِيصِ[٩]

---

(١) فى ت : بن عاصم . (٢) رشحاء : كثيرة العرق . (٣) سبقت .

(٤) الشعر والشعراء : ٨–٣٦٣ ، اللسان — مادة كتب . (٥) كتب الدابة : خزم حياءها .

(٦) ديوانه : ٧٨ ، والشعر والشعراء : ٣٤ ، واللآلئ : ٨٦٢ .

(٧) فى الديوان : وأنت وال شفيق لست بالوالى . (٨) فى الديوان : أأطعمت .

(٩) أحذ ، مقطوع . يريد أنه قصير اليد عن نيل المعالى .

ولم يكُ قبْلَها راعى مَخاضٍ ... ليأمنَهُ على ورِكَىْ قَلُوصِ

تَفَيْهَق[١] بالعراق أبو المثّنى ... وعَلَّمَ قومَهُ أَكْلَ الخبيصِ[٢]

الرافدان : دجلة والفرات . وقال بعض النميريين يُجيبُ جريراً عن شِعْرِه :

نميرٌ جمرة العرب التى لم ... تزل فى الحرب تلتهب التهابا

وإنى إذ أسُبُّ بها كليباً ... فتحت عليهمُ لِلْخَسْفِ بابا

ولولا أن يقال هَجَا نميراً ... ولم يَسْمَعْ لشاعرهم جوَابا

رغبنا عن هجاء بنى كليبٍ ... وكيف يُشَاتِمُ الناسُ الكِلابا

فما نفع نميرا ، ولا ضرّ جريرا ، بل كان كما قال الفرزدق[٣] :

ما ضرّ تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَها ... أم بُلْتَ حيث تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وقال أبو جعفر محمد بن منذر مولى بنى صَبير بن يربوع فى هجائه لثقيف :

وسوف يزيدكم ضَعَةً هِجَائى ... كما وضع الهجاء بنى نمير

وسمع الراعى منشداً ينشد[٤] :

وعاوٍ عوَى من غير شىء رَمَيْتُهُ ... بقافيةٍ أَنفاذُها[٥] تَقْطُرُ الدّما

خَرُوجٍ بأفوَاهِ الرُّوَاةِ كأنها ... قرَى هُنْدُوَانِىٍّ إذا هزَّ صَمَّمَا

فارتاع له ، وقال : لمن هـذا ؟ قيل : لجرير ، قال : لعن الله من يلومنى أن يغلبنى مثل هذا !

أثر الشعر

وقد بنى الشعرُ لقوم بيوتاً شريفة ، وهدم لآخرين أبنية منيفة :

وما هو إلا القول يسْرى فتغتدى ... له غُرَرٌ فى أوجـهٍ ومواسِم

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى : سمعت أبا عَمْرو بن العلاء ورجـل يقول :

---

(١) فى ط : تفهق . (٢) الخبيص : طعام يعمل من التمر والسمن .

(٣) الشعر والشعراء : ١٨٧. (٤) ديوان جرير : ٥٤٤ ، المختار من شعر بشار : ٩١، الشعر والشعراء : ٤٣٧ . (٥) فى الديوان : بقارعة ، والأنفاذ : جمع نفذ ، وهى الجراح الواسعة النافذة .

إنما الشعر كالمِيسَم . فقال: وكيف يكون ذلك كذلك ؟ والميسم يذهب بذهاب الجلد ، ويدْرُس مع طولِ العهد ، والشعر يَبْقى على[1] الأبناء بعد الآباء ، ما بقيت الأرض والسماء ! وإلى هذا نحا الطائى فى قوله[2] :

وأَنى رأيتُ الوَسْمَ[3] فى خُلُق الفتى هو الوَسْمُ[3] لا ما كان فى الشَّعْر والجلدِ

وقال عمر رحمة الله عليه : تعلّموا الشعر ، فإن فيه محاسن تُبتغى ، ومساوئ تُتقى.

وقال أبو تمام[4] :

إنَّ القوافىَ والمساعىَ لم تزَلْ مثلَ النِّظام[5] إذا أَصاب فَرِيدا

هِىَ جوهرٌ نثرٌ فإن أَلَّفتَهُ فى الشعر[6] كان قلائداً وعُقُودا

من أجل ذلكَ كانت العربُ الأُلى يدعونَ هذا سُؤْدَدًا مجْدُودا[7]

وتنِدُّ عندهمُ العُلَا إلا إذا[8] جُعِلَتْ لها مرَرُ القصيدِ قيُودا

وقال على بن الرومى :

أرى الشعر يُحيي الناسَ والمجد بالذى تُبقّيــه أَرواحٌ له عِطِراتُ

وما المجدُ لولا الشِّعْرُ إلا معاهدٌ[9] وما النــاسُ إلا أَعْظُمٌ نَخِراتُ

[شذور من كلام الرسول]

رجعت إلى ماقطعت ، مما هو أحق وأولى ، وأَجَلّ وأَعْلى ، وهو كلامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكريم النَّجْر[10] ، العظيم القَدْر ، الذى هو النهايةُ فى البيان ، والغايةُ فى البرهان ، المشتمل على جَوَامِع الكلم ، وبدائع الحِكم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنَا أَفْصَح العرب بَيْد أَنّى من قريش ، واسترُضعت فى سعد ابن بكر ! وليس بعضُ كلامه بأَوْلى من بعض بالاختيار ، ولا أَحقّ بالتقديم والإيثار؛ ولكنى أُورد ماتيسَّر منه فى أَول هذا الكتاب استفتاحاً ، وتيمّناً بذلك واستنجاحا.

---

(١) فى ت : مع . (٢) ديوانه : ١٢٩ . (٣) فى الديوان : الوشم .
(٤) ديوانه : ٩٠ . (٥) فى الديوان : مثل الجمان . (٦) فى انديوان : بالشعر صار.
(٧) فى الديوان : محدودا . (٨) فى الديوان : إلا علا . (٩) فى ت : مجاهد .
(١٠) النجر : الأصل .

وهذه شذورٌ من قوله صلى الله عليه وسلم الصريح الفصيح ، العزيز الوَجيز ، المتضمّن بقليل من المبانى كثيرَ المعانى :

قوله للأنصار : إنكم لتقلّون عند الطمع ، وتكثُرون عند الفزَع .

وقوله عليه السلام : المسلمون(١) تتكافأُ دِماؤُهم ، ويَسْعَى بذمَّتهم أدْناهم ، وهم يدٌ على مَن سِوَاهم . الناسُ كإبلٍ مائة لا تجدُ فيها راحلة . إياكم وخَضْرَاء الدِّمَنِ . كلُّ الصَّيْدِ فى جوْفِ الفرَا(٢) — قاله لأبى سُفْيان صخر بن حرب . الناسُ معادن ، خيارُهم فى الجاهلية خيارُهم فى الإسلام إذا فقهوا . المؤمن للمُؤْمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضا . أَصحابى كالنجوم بأيِّهم اقتديتُم اهتديتُم . المتشبع بما لم يُعْط كلابس ثوبى زور . المرأة كالضّلع إن رُمْتَ قِوامها كَسَرْتَها(٣) ، وإن دَاريتها استمتعتَ بها . اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى . مطل الغنىِّ ظُلم . يدُ اللهِ مع الجماعة . الحياء شُعبةٌ من الإيمان . مثلُ أبى بكر كالقطر ، أينما وقعَ نفَع . لا تجعلونى فى أَعْجَاز كتبكم كقَدح الراكب . أربعةٌ من كنوز الجنة : كتمان الصَّدَقة والمرض والمصيبة والفاقة . جنة الرجل دارُه . الناس نيام فإذا ماتوا انْتَبَهُوا . كفى بالسلامه داءً . إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، فسَعوهم بأخلاقكم . ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى . كلٌّ مُيسَّرٌ لما خلِقَ له . اليمين حِنثٌ أو مندمة . دَعْ ما يَريبك إلى مالا يريبك . انصُرْ أَخاكَ ظالماً كان أو مظلوماً . احترسوا من الناسِ بسُوءِ الظّنّ . الندمُ تَوْبة . انتظارُ الفرج عبادة . نعم صومعة الرجل بيتُه . المستشير مُعان والمستشار مؤتمن . المرءُ كثيرٌ بأخيه . إنَّ للقلوب صَدَأً كصدإِ الحديد ، وجلاؤُها الاستغفار . اليوم الرِّهان

---

(١) فى ت : المؤمنون . (٢) الفرا : حمار الوحش ، وهو مثل ، ومعناه أن من نال الأمر العظيم كان جديراً بأن ينسى ما سواه مما ينال الناس .

(٣) القوام : التقويم ، وفى ت : إن قومتها كسرتها .

وغَدًا السِّباق ، والجنـة الغاية . كلُّ مَن فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عاريّة ، والضيف مُرْتَحل ، والعاريّة مؤدَّاة .

ومن جوامع كَلِمه عليه الصلاة والسلام

ما رواه أهلُ الصحيح عن علقمة بن وقّاص الليثى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمـال بالنيّاتِ ، وإنما لـكل امرىء ما نَوَى ، فمن كانت هِجْرَتُه إلى اللهِ ورسوله فهِجْرُتُه إلى اللهِ ورسوله ، ومن كانَتْ هِجرتُه إلى دُنْيا يُصِيبها ، أو امرأة يتزوّجها ، فهِجْرَته إلى ما هاجر إليه !

قال أبو القاسم حمزة بن محمد الـكنانى : سمعتُ أهلَ العلم يقولون : هذا الحديث ثلث الإسلام ، والثلث الثانى ما رواه النعمان بن بشير ؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : الحلالُ بيِّن ، والحرام بَيِّن ، وبينهما أمورٌ مشتبهات ، فمن تركها كان أَوْفَى لدينه وعِرْضِه ، ومن واقعها كان كالراتع حول الحِمَى ؛ ألا وإنَّ لـكل ملك حِمًى ، ألا وإنّ حمى الله محَارمه .

قال: و[الثلث][(١)] الثالث مارواه مالك [عن][(١)] ابن شهاب عن على بن حسين أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : مِن حُسن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يعنيه .

تشجيع النبى على الشعر

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعرَ وأثابَ عليه ، ونَدَب [(٢)] حسَّان ابن ثابت إليه ، وقال : إن الله ليؤيّده برُوحِ القُدُس مانافحَ [(٣)] عن نبيه .

ولماانتهى شعرُ أبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم شَقَّ عليه فدعا عبد الله بن رَوَاحة فاستنشده فأَنشَده فقال : أنتَ شاعرٌ كريم . ثم دعا كعبَ بن مالك فاستنشده فأنشده ، فقال . أنت تُحْسِنُ صِفَةَ الحرب ، ثم دعا

---

(١) من ت . (٢) ندب : دعا . (٣) نافح : دافع .

بحسّان بن ثابت فقال : أَجِبْ عنى ، فأَخْرج لسانه فضرب به أَرْنَبَته [١] ؛ ثم قال : والذى بعثك بالحق ماأُحِبُّ أن لى به مِقْوَلًا فى معدّ ؛ ولو أن لسانا فَرَى الشِّعر لفراه [٢]. ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَمَسَّ من أبى سفيان ، فقال: وكيف، وبينى وبينه الرَّحِم التى قد علمت ؟ فقال : أَسُلُّك منه كما تُسَلُّ الشَّعْرَة من العجين ! فقال : اذهب إلى أبى بكر، وكان أعلَمَ الناس بأَنْساب قريش، وسائر العرب ، وعنه أخذ جبير ابن مطعم علم النسب . فمضى حسان إليه فذكر له معايبه ، فقال حسّان بن ثابت [٣] :

وإنّ سَنَام المَجْدِ من آلِ هاشِمٍ ... بنو بنت [٤] مخزوم ووَالِدُك العَبْدُ
ومَن ولَدَتْ أبناء زُهْرَةَ منهمْ ... كرامٌ ولم يَقْربْ عَجَائِزَكَ المَجْدُ [٥]
ولَسْتَ كَعَبَّاسٍ ولا كابْنِ أُمِّهِ ... ولكِن لَئيم لا يقوم له زَنْد [٦]
وإنّ امرءًا كانت سُمَيَّةُ أُمَّهُ ... وسَمْراءُ مغموزٌ [٧] إذا بلغَ الجَهْدُ
وأنت زنيمٌ نِيطَ فى آل هاشم ... كما نِيطَ خَلْفَ الراكبِ القدحُ الفَرْدُ [٨]

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال : هذا كلامٌ لم يغب عنه ابنُ أبى قُحافة [٩].

يعنى ببنى بنت مخزوم عبد الله وأبا طالب والزبير بنى عبد المطلب بن هاشم [بن عبد مناف] [١٠] ، أمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وأخواتهم برة وأميمة والبيضاء وهى [١١] أم حكيم والبيضاء جدَّة عثمان بن عفان أم أمه . وقوله : «ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام » يعنى أميمة وصفية أُم الزبير بن العوام أُمهاهالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة .

---

(١) الأرنبة : طرف الأنف . (٢) يفرى الشعر : يحوه . (٣) ديوانه : ١٥٩ .
(٤) فى ط : بيت . (٥) بنو زهرة : حى من قريش أخوال الرسول .
(٦) فى الديوان : * ولكن هجين ليس يورى له زند *
(٧) فى الديوان : مغلوب . (٨) زنيم : دعى ، وفى ت : ربيط . ونيط بكسر النون: علق.
(٩) يعنى أبا بكر . (١٠) من ت . (١١) فى ت : وهى وصفية أم الزبير بن العوام أمهما هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة .

وقوله : « ولست كعباس ولا كابنِ أمه » أم العباس نتيلة [١] امرأة بن جعفر ابن واسط [٢] وأخوه لأمه ضرار بن عبد المطلب .

وقوله: «وإن امرأ كانت سمية أُمه» سمية أم أبى سفيان، وسمراء أم أبيه ، وليس هذا موضع إطناب فى رفع الأنساب .

وكان عَبـد الأعلى بن عبد الرحمن الأموى عتب على بعض ولد الحارث فقال له مُعَرِّضا بما قال حسان :

إخالُ [٣] بالعمِّ وبالجدِّ مفتخِراً بالقَدَح الفَرْدِ
الْهَجْ بحسَّانٍ وأشعارهِ فإنها أَدْعَى إلى الْمَجْدِ
لولا سيوفُ الأزد لم تؤمنوا ولم تقيموا سُورَةَ الحمدِ

فتوعَّدُوه نخافهم ، فقال :

بنى هاشم عَفْواً عفا الله عنكمُ وإن كان ثوبى حَشْوِ ثِنييه مُجْرِمُ
لـكم حَرَمُ الرحمن والبيتُ والصَّفا وجَمْعٌ وما ضمَّ الحطيم وزمزَمُ
فإن قلتمُ بادَهْتَنَا بعظيمةٍ فأحلامكم منها أجلُّ وأعظمُ

وأسلم أبو سفيان ـ رحمه الله ، وشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم حُنَين ، وكان ممسكا بلجام بَغْلته حين فرَّ الناس وهو أحد الذين ثبتوا ، وهم ـ على ما ذكره أبومحمد عبد الملك [٤] بن هشام ـ أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبوسفيان بن الحارث وابنه الفضل وربيعة بن الحارث وأُسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن بن عبيد قتل يومئذ ، وبعض الناس يعدّ فيهم قثم بن العباس ، ولا يَعُدُّ أبا سفيان [٥] ، وكان أبو سفيان من أشعر قريش وهو القائل :

لقد عَلِمَتْ قريشٌ غير فخرٍ بأنّا نحن أجْوَدُهُم حِصَانا

---

(١) فى ت نثيلة . (٢) فى ت: من النمر بن قاسط وهو الصواب . (٣) فى ت : أصائلا .
(٤) فى ت : عبد الله وهو خطأ . (٥) فى ط : ابن أبى سفيان .

وأكثرهُمْ دُروعاً سابغاتٍ   وأمضاهم إذا طعنوا سِنانا
وأدفعهم عن الضّراء عنهم   وأبيَنهم إذا نطقُوا لِسانا

ويروى أنّ ابن سيرين قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَفَرِه قد شنق ناقته بزمامها، حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرَّحل، إذ قال يا كعب بن مالك، احْدُ بنا! فقال كعب (١):

قضَيْنَا من تِهامة كلَّ حَقٍّ (٢)   وخيبرَ ثم أجْمَمْنَا (٣) السيوفا
نُخَبِّرُها (٤) ولو نطَقَتْ لقالَتْ   قواطعهُنَّ دَوْسًا أو ثَقِيفَا

فقال عليه السـلام: والذى نفسى بيده لهى أشدُّ عليهم من رشق النبل! ويقال. إنّ دوسا أسلمت فرَقاً من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان، من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم!

حديث قتيلة مع النبي

وقتل (٥) النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث وكان ممن أُسِرَ يوم بدر وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه صَبْراً، فعرضت للنبي صلى الله عليه وسلم أخته قُتَيلة بنت الحارث ـ وفى بعض الروايات أن قُتَيلة أتَتْهُ فأنشدَتْه:

يا راكِباً إنَّ الأُثَيْلَ مظِنةٌ   من صُبْح غاديةٍ (٦) وأنتَ موفَّقُ
أَبْلِغْ بها مَيْتاً بأَنّ تحيَّةً   ما إنْ تزَالُ بها النَّجائب تعنق (٧)
منِّى إليه (٨) وعَبرةً مسفوحةً   جادت بوا كِفِها (٩) وأُخْرَى تخْنُقُ
هـل يسمعنى النَّضْرُ إن ناديته   إن كان (١٠) يسمع ميِّتٌ لا يَنطِقُ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤ ـ ١٢٢. (٢) فى السيرة: كل ريب وفى العقد: كل حتف.
(٣) أجممنا: أرحنا. (٤) فى ط: نخيرها. (٥) العمدة: ١ ـ ٤١، ديوان حسان ـ المقدمة، البيان والتبيين: ٣ ـ ٢٠٥، سيرة ابن هشام: ٢ ـ ٤١٩، شاعرات العرب ١٣٤.
(٦) فى ت: خامسة. (٧) العنق: نوع من السير، وفى السيرة، ت: تخفق.
(٨) في السيرة: إليك. (٩) الواكف: الجارى. (١٠) فى السيرة: أم كيف يسمع.

ظلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُه[١] ... للهِ أرحامٌ هناك تَشَقّقُ
قَسْراً[٢] يقادُ إلى المنيَّة مُتْعَباً ... رَسْفَ المقيَّدِ وهو عانٍ موثَقُ
أمحمــدٌ ها أَنت صِنْوُ[٣] كريمةٍ ... فى قومِها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كانَ ضرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما ... منَّ الفتَى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ[٤]
فالنضرُ أَقربُ مَنْ قَتَلْتَ[٥] قَرَابَةً ... وأحقُّهم إنْ كان عِتقٌ يُعْتَقُ
أو كنت قابلَ فِدْيَةٍ فَلْيُفْدَيَنْ[٦] ... بأعزِّ ما يُغلى به مَنْ يُنْفِقُ

فذُكر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقَّ لها ودمعت عيناه ، وقال لأبى بكر: لو كنتُ سمعتُ شِعْرَها ما قتلته !

والنضر هذا هو النضر بن الحارث بن عَلقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار.

قال الزبير بن بكار[٧] : وسمعت بعض أهل العلم يغمز فى أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول : إنَّها مصنوعة .

[من كلام أبى بكر]

ودخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، على النبى عليــه السلام وهو مُسجًّى بثوْبٍ[٨] ، فـكشف عنه الثوب وقال[٩] : بأبى أنْتَ وأمى ! طِبْتَ حيًّا وميّتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموتِ أحــدٍ من الأنبياء من النبوّة ، فعظُمْتَ عن الصفة ، وجلَلْتَ عن البُـكاء ، وخَصصْتَ حتى صرت مَسْلَاة ، وعَممْتَ حتى صِرْنا فيك سَواء ، ولولا أنّ موتك كان اختياراً منك لجُدْنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البُـكاء لأنفدنا عليك ماءَ الشئون[١٠] ، فأمّا مالا نستطيع نفيَه عنّا فـكَمَدٌ

(١) تنوشه : تتناوله . (٢) فى السيرة صبرا . (٣) صنو : ابن ، معرق : أصيل ، وفى السيرة : يا خير ضنء كريمة . والضنء : النسل . (٤) من : صفح ، والمحنق : للملوء بالغيظ (٥) فى السيرة : من أسرت. (٦) فى السيرة وفى ت : فلينفقن ما ينفق .
(٧) فى ت : بن أبى بكر . (٨) مسجى : مغطى . (٩) سيرة بن هشام : ٤ ـ ٣٣٥ .
(١٠) الشئون : جمع شأن : مجرى الدموع .

وإدْناف[1] يتحالفان ولا يَبْرَحان ، اللهم فأَبْلِغه عنا السلام ؛ اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ماخلَّفتَ من السكينة لم نقِمْ لما خَلَّفتَ من الوحشة ؛ اللهم أَبلِغ نبيَّك عنا واحفظه فينا . ثم خرج .

قوله رضى الله عنه: « لولا أن موتَك كان اختياراً منك » إنَّما يريد قولَ النبي صلى الله عليه وسلم : لم يُقبض نبيٌّ حتى يَرَى مقعده من الجنة ثم يُخيَّر . قالت عائشةُ رضى الله عنها : فسمعتُه وقد شخص بصرُه وهو يقول : فى الرفيق الأعلى ! فعلمت أَنه خُيِّر ، فقلتُ : لا يختارنا إذَن ، وقلت : هو الذى كان يحدثنا ، وهو صحيح .

فى يوم وفاة النبى

وكان أبو بكر لما تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أرضه بالسُّنْح[2] فتواترت إليه الرسلُ ، فأَتى وقد ذُهِل الناس ، فكانوا كالخرس ، وتفرقت أحوالُهم ، واضطربت أمورُهم ، فكذَّب بعضُهم بموته ، وصمت آخرون ؛ فما تكلّموا إلا بعد [التغير][3] ، وخَلَط آخرون فلاثُوا[4] الكلامَ بغير بيَان ، وحق لهم ذلك للرزيّة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى هى بيضة العُقْر[5] ، ويتيمةُ الدهر ، ومدى المصائب ، ومنتهى النوائب ، فكل مصيبةٍ بعدها جَلَلٌ عندها[6] ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: لِتُعَزّ المسلمين فى مصائبهم المصيبةُ بى .

وكان عمر[7] بن الخطاب رضى الله عنه ممن كذّب بموته ، وقال : ما مات ، وليرجعنّه الله ، فليقطعنّ أيدِى المنافقين وأَرجلهم ، يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموتَ ؛ وإنما واعده ربه ، كما واعَدَ موسى وهو يأتيكم .

وأما عثمان رضى الله عنه فكان ممن أُخْرِس ؛ فجعل لا يكلِّم أحداً ، فيُؤْخَذُ بيده ويُجاء به فينقاد .

---

(١) الإدناف : ثقل المرض . (٢) السنح : موضع قرب المدينة وكان به منزل أبى بكر
(٣) ليست فى ت . (٤) لاثوا : خلطوا . (٥) بيضة العقر : مثل للحادث الذى يندر أن يتكرر ، وهى فى الأصل بيضة الدجاجة التى لا تبيض بعدها . (٦) الجلل هنا : الأمر الحقير .
(٧) سيرة ابن هشام ٤ـ٣٣٤

وأما على رضى الله عنه فلُبِطَ به الأرض[١] فقعد ولم يَبْرَحِ البيت حتى دخل أبو بكر وهو فى ذلك جَلْد العقل والمقالة[٢] ، فأكب عليه ، وكشف عن وَجْهه ومسَحَه ، وقبَّل جبينه ، وبكى بكاء شديداً ، وقال الكلام الذى قدّمته . ولما خرج إلى الناس وهم فى شديد غمراتهم ، وعظيم سَكَراتهم ، قام فخطب خطبة جُلُّها الصلاةُ على النبى صلى الله عليه وسلم قال فيها[٣] : أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاشريكَ له ، وأشهدُ أنَّ سَيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزل ، وأن الدينَ كما شرع ، وأَنَّ الحديث كما حدث ، وأنَّ القول كما قال ، وأن الله هو الحقّ المبين . فى كلام طويل ، ثم قال : أيها الناسُ ؛ مَنْ كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإن اللهَ حىٌّ لا يموت ، وإن الله قد تقدَّم إليكم فى أمرِه ، فلا تدَعُوه جَزَعا ، وإن الله قد اختار لنبيهِ ما عنده على ما عندكم ، وقبضَه إلى ثوابه ، وخلَّف فيكم كتابَه ، وسنةَ نبيِّه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر ؛ يَٰأَيها الذين آمنُوا كونوا قوَّامِينَ بالقِسْطِ[٤] ، ولايشغلنَّكم الشيطانُ بموتِ نبيكم ، ويفتننَّكُم عن دِينكم ؛ فعاجلوه بالذى تعجزونه ، ولا تستنظروه[٥] فيلحقَ بكم .

فلما فرغ من خطبته قال : يا عمر ! بلغنى أنك تقول مامات نبىُّ الله ، أَمَا علمت أنه قال فى يوم كذا وكذا ، وفى يوم كذا وكذا : قال الله تبارك وتعالى : إنك ميِّتٌ وإنهم مَيّتُون . فقال عمر : والله لكأنى لم أسمعْ بها فى كتابِ الله قَبْلُ لِمَا نزل بنا ، أشهد أن الكتابَ كما نزل ، وأن الحديثَ كما حدّث ، وأنّ الله حىٌّ لا يموت ، وإنا لله وإنّا إليه راجعون ! ثم جلس إلى جنب أبى بكر رحمه الله .

قالت عائشة[٦] رضوان الله عليها : لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم نَجَم النِّفاق[٧] ، وارتدَّت العرب ، وكان المسلمون كالغنم الشارِدَة ، فى الليلة الماطرة ،

---

(١) هكذا فى ط ، ولبط به : صرع وسقط إلى الأرض كما فى النهاية، وفى ت : وليط .
(٢) جلد : ثابت . (٣) سيرة ابن هشام ٤ـ٣٣٥ (٤) القسط : العدل .
(٥) فى ت : فعاجلوه بالدين تعجزوه ، ولا تستبطئوه . (٦) سيرة ابن هشام ٤ـ٣٤٥
(٧) نجم : نشأ .

فحمل أبى مالو حملته الجبال لهاضها [1] فوالله إن اختلفوا فى مُعظم إلاّ ذهب بحظّه ورشده ، وغنائه، وكنتُ إذا نظرتُ إلى عمر علمتُ أنه إنما خُلِقَ للإسلام ، فكان والله أحوذيا نسيج وحده [2] ، قد أَعَدَّ للأمور أقرانها .

وحدث أبو بكر بن دريد عن عبد الأول بن مزيد قال حدثنى [رجل] [3] فى مجلس يزيد بن هارون بالبصرة قال : لما تُوُفّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دُفِن ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم [4] ، ورجعت فاطمة إلى بيتها ، فاجتمع إليها نساؤها فقالت [5] :

اغبرّ آفاقُ السماءِ وكُوِّرَتْ ... شمسُ النهار وأظْلَم العصرانِ
فالأرضُ من بعد النبى كئيبةٌ ... أسفاً عليه كثيرةُ الرجفان [6]
فليبكهِ شَرْقُ البلادِ وغَرْبُها ... وليبكه مُضَرٌ وكل يَمَانِى
وليبكه الطُّور المعظَّم جَوُّهُ [7] ... والبيتُ ذو الأسْتَار والأَرْكانِ
ياخاتم الرسل المبارك ضوءُهُ [8] ... صلَّى عليك منزِّلُ الفُرْقان

رجع إلى كلام أبى بكر

وكان أبو بكر رَضِيَ الله عنه إذا أُثْنِى عليه يقول : اللهم أنت أَعْلَمُ بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، فاجعلنى خيراً مما يَحْسَبُون ، واغفرلى برحمتك مالا يعلمون ، ولا تؤاخِذْنِى بما يقولون .

وقال رحمه الله فى بعض خطبه [9] : إنكم فى مَهَل ، من ورائه أَجل ، فبادروا فى مَهَل آجالكم ، قبل أن تنقطع آمالكم ، فتردكم إلى سوء أعمالكم .

وذكر أبو بكر الملوك فقال : إن الملك إذا مَلَك زَهَّده الله فى ماله ، ورغَّبه فى

---

(١) هاضها : دكها وحطمها . (٢) أحوذى : حاذق قاهر للأمور .
(٣) من ت . (٤) فى ت : منازلهم (٥) شاعرات العرب ١٦٥
(٦) فى الشاعرات: كثيرة الأحزان (٧) فى الشاعرات الطور الأشم وجوه، وفى ت الطود المعظم جوده (٨) فى الشاعرات ، وفى ت ضنؤه (٩) البيان والتبيين : ٢ ــ ٣١

مالِ غيره [١] ، وأشرب قلبه الإشفاق ، فهو يسخط على الكثير، ويَحْسُد على القليل، جَذل الظاهر ، حَزِين الباطن ، حتى إذا وَجَبَتْ نَفْسُه ، ونَضَب عمره ، وضَحَا ظلُّه [٢] حاسبه الله فأشدَّ حسابَه وأقلَّ عفوه [٣] .

وذكر أنه وصل إلى أبي بكر مالٌ من البحرين ، فساوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار ، وقالوا له : فضِّلْنا ! فقال أبوبكر : صدقتُم، إن أردتُم أن أفضِّلكم صار ما عَمِلتموه للدُّنْيَا ، وإن صَبَرتم كان ذلك لِلّهِ عزَّ وجل ! فقالوا : والله ما عملنا إلاّ لله تعالى ، وانصرفوا ؛ فرَقِيَ أبوبكر المنبر ، فحَمِدَ اللهَ وَأَثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا معشر الأنصار ؛ إن شئتُم أن تقولوا إنَّا آويناكم في ظِلَالِنا ، وشَاطَرْناكُم في أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم ، وإنّ لكم من الفضل مالا يُحْصِيه العدد ، وإن طال به الأَمد ، فنحن وأنتم كما قال طُفيل الغنوى [٤] :

جزى الله عنّا جعفراً حين أُزْلِقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزَلَّتِ [٥]
أَبَوْا أن يملُّونا ولو أنّ أمنَّا ... تُلَاقِي الذى يَلْقَوْنَ منا لملَّتِ
هُمُ أسكنونَا في ظلالِ بيوتهم ... ظلال بيوتٍ أدفأَتْ وأظلَّتِ

فِقر من كلامه رضى الله عنه

صنائعُ المعروف تقِي مصارعَ السوء . الموت أهونُ مما بعده ، وأَشَدّ مما قبله . ليست مع العزاء مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة . ثلاث من كن فيه كنَّ عليه : البَغْى ، والنكث ، والمَكر . إنّ الله قرَن وعده بوعيده ، ليكون العبدُ راغباً وراهبا .

ولما توفى رضى الله عنه وقفت عائشة على قبره فقالت [٦] : نضَّر اللهُ وجْهَكَ رثاء عائشة له

---

(١) في العقد ٤ — ٦٠ ورغبه فيما في يدى غيره . (٢) وجبت نفسه : فاضت روحه ، وضحا ظله : مات . (٣) في ط : وأقل الأنصار عنه عقوبة .
(٤) المختار من شعر بشار : ١٩٩ . (٥) زلت : سقطت ، وفي ت : أزلفت .
(٦) العقد الفريد : ٢ — ٧ ، نهاية الأرب : ٥ — ١٦٧ .

يا أبَت، وشكر لك صالحَ سَعْيك ، فلقد كنتَ للدنيا مُذِلاً بإدْبارك عنها ؛ وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها ؛ ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤُك ، وأعظمَ المصائب بعدَه فقدُك ؛ إن كتاب الله ليَعِد بحُسْنِ الصبرِ عنك حُسْنَ العِوَضِ منك ، وأنا أستنجزُ موعودَ الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك ، أمالئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمتَ بأمرِ الدين لما وَهَى شَعْبُه(١) وتفاقَم صَدْعه(٢) ورجفت جوانبه(٣) ؛ فعليك سلام الله توديعَ غير قاليةٍ لحياتك ، ولا زاريةٍ على القضاء فيك(٤) .

وقال أبو بكر لبلال لما قُتل أمية بن خلف وقد كان يسومُه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمْضاء(٥) فيلقى عليه الصخرة العظيمة ليفارق دين الإسلام فعصمه الله من ذلك :

هَنيئاً زادك الرحمنُ خيراً ... فقد أدركت ثارك يابلالُ
فلا نِكْسا وُجِدْتَ ولا جَبَاناً ... غداة تَنُوشُكَ الأَسَل الطوالُ(٦)
إذا هاب الرجالُ ثبتَّ حتى ... تخالِطَ أَنْتَ ما هابَ الرِّجالُ
على مضض الكُلوم بمشرفيٍّ ... جلا أطراف متنيه الصِّقال

[من كلام عمر]

وكتب عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله : أمّا بعد ، فإنه من اتّقَى الله وَقَاه ، ومن توكّل عليه كَفَاه ، ومن شكر له زَادَه ، ومن أقْرَضه جزَاه ؛ فاجْعَلْ التقوى عمادَ قلبك ، وجلاءَ بصرك ؛ فإنه لا عملَ لمن لا نيّةَ له ، ولا أَجْرَ لمن لا خشيةَ له ، ولا جديدَ لمن لا خَلَق له(٧) .

---

(١) وهى شعبه : تفرق شمله . (٢) تفاقم صدعه : اتسع كسره .
(٣) رجفت : اضطربت . (٤) زارية : عائبة . (٥) الرمضاء : هى الحجارة التى اشتد عليها وقع الشمس فحميت . (٦) النكس : الضعيف ، والأسل : الرماح .
(٧) الخلق : القديم البالى .

ودخل عدىّ بن حاتم على عمَر ، فسلّم وعمرُ مشغول ؛ فقال: ياأميرَ المؤمنين ! أنا عدىّ بن حاتم ! فقال : ما أعْرَفَنى بك ! آمنتَ إذ كفروا ، ووفيتَ إذ غدَروا ، وعرفتَ إذ أنكروا ، وأقبلْتَ إذ أدْبَرُوا !

وقال رجل لعمر : مَن السيد ؟ قال : الجواد حين يُسأَل، الحليم حين يُسْتَجْهَل ، الكريم المجالسةِ لمن جالَسه ، الحسَن الخُلُق لِمَنْ جاوَره .

وقال رَضِيَ الله عنهُ : ما كانتِ الدنيا همَّ رجلٍ قطُّ إلا لزم قلبَه أربعُ خصال : فقرٌ لا يُدْرَكُ غناه ، وهمٌّ لا ينقضى مَدَاه ، وشُغُلٌ لا ينفَدُ أُولاه[١] ، وأَمل لا يبلغُ مُنْتَهاه .

فصول قصار من كلامه رضى الله عنه

من كتم سره كان الخِيارُ فى يده . أَشقى الوُلَاة من شقِيَتْ به رعِيَّتُه . أَعقلُ الناس أَعذرُهم للناس . ما الخمر صِرْفا[٢] بأَذْهَب لعقولِ الرجالِ من الطمع . لا يكن حُبُّك كَلَفا ، ولا بُغْضُك تَلَفا . مُرْ ذوى القرابات أن يتزَاوَرُوا ، ولا يتجَاوَرُوا . قلَّما أَدْبر شىء فأقبل . أَشكو إلى الله ضَعْفَ الأمين ، وخيانةَ القوىّ . تكثَّروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن تُرْزَقون . لو أنَّ الشكر والصبر بعيران ما باليت أيّهما أركب . من لا يعرفُ الشرّ كان أَجدر أَن يقع فيه .

وقال معاوية بن أبى سفيان لصعصعة بن صوحان : صِفْ لى عُمَرَ بن الخطاب ؛ فقال : كان عالمًا برعيّته ، عادلًا فى قضيَّته ، عارياً من الكِبْر ، قبولًا للعُذْر ، سهل الحِجَاب ، مَصُونَ الباب ، متحرّياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير مُحَابٍ للقريب ، ولا جافٍ للغريب[٣] .

(١) فى ط : أوله . (٢) الخمر الصرف : الخالصة .

(٣) فى ت : غير عاب ولا مجاف .

وروى أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه حجَّ فلما كان بضَجْنان[1] قال : لا إله إلا الله العلىّ العظيم ، المعطى مَنْ شاء ماشاء ، كنت فى هذا الوادى فى مِدْرَعة صوف أَرْعَى إبل الخطّاب ، وكان فظًّا يُتعِبنى إذا عملت ، ويَضربنى إذا قصّرت . وقد أمسيت الليلةَ ليس بينى وبين الله أحد ، ثم تمثل[2] :

لا شىء مما ترى تَبْقَى بشاشتُهُ ... يبقى الإله ويُودِى[3] المالُ والولدُ
لم تُغن عن هُرْمُز[4] يوماً خزائنُهُ ... والخلد قد حاولتْ عادٌ فما خلدُوا
ولا سليمان إذْ تجرى الرياحُ لهُ ... والجنُّ والإنسُ فيما بينها تَرِدُ
أين الملوكُ التى كانت نوافلها ... من كل صَوْبٍ إليها وافِدٌ يَفِدُ
حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كدر[5] ... لابدَّ من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوم فتح مكة :

ألم تر أن اللهَ أظهرَ دِينَهُ ... على كل دينٍ قبل ذلك حائدِ[6]
وأمكنه[7] من أهل مكة بعد ما ... تداعَوْا إلى أمرٍ من الغىِّ فاسدِ
غداةَ أجالَ الخيلَ فى عَرَصاتها ... مسوَّمةً بين الزبير وخالد
فأمسى رسولُ الله قد عَزَّ نَصْرُهُ ... وأمْسَى عِدَاه مِنْ قتيل وشَارِدِ

يريد الزبير بن العوام حوارِىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالد بن الوليد سيف الله تعالى فى الأرض .

ولما قتله أبو لُؤْلُؤَة غلام المغيرة بن شُعْبة ، قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوجته ترثيه[8] :

عَيْنُ جُودِى بِعَبْرَةٍ ونَحِيبِ ... لا تَمَلِّى على الأمين النّجيبِ

---

(١) ضجنان : جبيل بناحية مكة . (٢) العمدة : ١ — ٢٠ . (٣) فى العمدة : ويفنى .
(٤) الهرمز : الكبير من ملوك العجم . (٥) فى ط ، ق : بلا كذب .
(٦) حائد : مائل ، وفى ت : جاحد . (٧) فى ط ، ق : وأسلبه .
(٨) شاعرات العرب : ١٦٨ .

فجعتنى المنون بالفارس المُعْ ... لِمِ يوم الهياج والتثويب[1]
عِصْمَةُ الناس والمُعِينُ على الدّهـ ... ـرِ وغيثُ المحروم والمحروب[2]
قل لأهْلِ الضراءِ والبؤس موتوا ... قد سقته المَنُونُ كأسَ شَعُوب[3]

وقالت أيضاً ترثيه[4] :

وفجّعنى فَيْرُوزُ لا درَّ درُّهُ[5] ... بأبيضَ تالٍ[6] لِلْكِتابِ مُنِيبِ
رءوف على الأدنى غليظ على العِدَا ... أخِى ثقـة فى النائبات نجيب
متى ما يَقُلْ لايكذب القولَ فِعْلُهُ ... سريع إلى الخيرات غير قَطوبِ

وعاتكة هذه هى أُخت سعيد بن زيد أحد العشرة الذين شهدَ لهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وكانت تحت عبد الله بن أبى بكر ، فأصابه سَهْمٌ فى غَزْوَة الطائف فمات منه ، فتزوّجها عمر رضى الله عنه فقُتِل عنها، فتزوجها الزبير بن العوام فقُتِل عنها ؛ فكان علىٌّ رضى الله عنه يقول : من أحبَّ الشهادة الحاضرة فليتزوّج بعاتكة !

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

ما يزَعُ الله بالسلطانِ أكثرُ مما يزَعُ بالقرآن[7] . سيجعلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يسرا ، وبعد عِىٍّ بيانا ؛ وأنتم إلى إمام فعَّال ، أحوجُ منكم إلى إمام قوَّال ، قاله فى أول خلافته وقد صعد المنبر وأُرْتِجَ عليه .

وكتب إلى على رضى الله عنه وهو مَحْصُور[8] : أمَّا بعد ، فقد بَلَغ السَّيْلُ الزُّبَى ، وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن[9] ، وطمِع فىَّ من كان لا يَدْفَع عن نفسه ، ولم يُعجزك

---

(١) التثويب : الدعاء . (٢) المحروب : المسلوب . (٣) شعوب : هى المنية.
(٤) شاعرات العرب : ١٦٨ . (٥) لا در دره : لا كثر خيره .
(٦) فى ت : قار . (٧) يزع : يكف . (٨) الكامل : ١١ .
(٩) الزبى : جمع زبية وهى الرابيـة لا يعلوها ماء ، وبلوغ السيل الزبى كناية عن اشتداد الأمر. الطبى : بالضم والكسر: حلمات الضرع، وبلوغ الحزام الطبيين كناية عن الشدة .

كلثيم ، ولم يَغلِبْكَ كمُغَلَّب[1] ؛ فأَقبِلْ إلىّ ، معى كنت أو علىّ ، على أىّ أمرَيْك أحببت .

فإن كنتُ مأْكولاً فكُنْ أنت آكِلى[2] وإلّا فأَدْرِكْنى ولَمّا أُمَزَّقِ

وهـذا البيت للممزِّقُ العبدى ، وبه سمى الممزّق[3] واسمه شأس ، وإنما تمثل به عثمان رضى الله عنه ؛ وحُذّاق أهل النظر يدفعون هـذا ، ويستشهدون على فساده بأحاديث تناقِضُه ليس هذا موضعها .

قالوا : وكان عثمان رضى الله عنه أتقَى لله أن يَسْعى فى أمره علىّ ، وعلىّ أتقى لله أن يسعى فى أمرِ[4] عثمان ، وهـذا من قوله عليه السلام : أشقَى الناس مَنْ قتله نبى أو قتل نبيًّا .

[ومن كلام عثمان رضى الله عنه وأكرم نزله ، وقد تنكر له الناس : أمرُ هؤلاء القوم رعاع عير . تطأطأت لهم تطأطأ الدلاء وتلددت لهم تلدد المضطر . رأيتهم الحفَ إخوانا ، وأوهمنى الباطل لهم شيطانا . أجررت المرسون رسنه ، وأبلغت الراتع مسماته، فتفرقوا علىّ فرقاً ثلاثاً ، فصامتٌ صمتُه أنفذ من صَوْلِ غيره ، وشاهد أعطانى شاهدَه ومنعنى غائبَه ، ومتهافت فى فتنة زينت فى قلبه ، فأنا منهم بين ألسن لداد، وقلوب شداد ، عذيرى الله منهم ألا ينهى عالم جاهلا ، ولا ينذر حليمٌ سفيهاً ، والله حسبى وحسبُهم يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

سئل الحكم بن هشام فقال : كان والله خيار الخيرة أمير البررة قتيل الفجرة ، منصور النصرة ، مخذول الخذلة، مقتول القتلة :

ونظير البيت الذى أنشد قول صخر الجعد :

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى فإن منايا القوم أكرم من بعض

(١) المغلب : الذى يغلب كثيراً . وهو من الأضداد . اللسان ــ مادة غلب .

(٢) فى اللسان : فكن خير آكل . (٣) اللسان ــ مادة مزق.

(٤) فى ط ، ق : أمر دم عثمان.

قال المتوكل : أتيت بأسارى فسمعت امرأة منهم تقول :

أمير المؤمنين سما إلينـا ... سمو الليث أخرجه العريف
فإن نسلم فعونُ الله نرجو ... وإن نقتل فقاتلنا شريف[(١)]

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا يُعرف لعثمان شعر، وأنشد له بعضهم(٢) :

غِنَى النفسِ يُغْنِى النفسَ حتى يكُفَّها ... وإنْ عَضَّها حَتَّى يضرَّ(٣) بهـا الفقرُ
وما عُسْرةٌ ـ فاصْبِرْ لها إن تَتَابَعَتْ ـ ... بباقيـةٍ إلاَّ سيتبعها يُسْرُ

وقول عثمان رضى الله عنـه فيما روى : « ولم يغلبك كمغلّب » من قول امرئ القيس(٤) :

فإنكَ لم يَعْجَزْ عليك كفاجر(٥) ... ضعيف ولم يغلبك مثل مغلَّبِ

وقال أبو تمام وذكر الخمر(٦) :

وضَعيفةٌ فإذا أصابَتْ فُرْصةً ... قَتَلَتْ كَذَلك قُدْرَةُ الضُّعفاء

ومن كلام علىّ بن أَبى طالب قولُه رضى الله عنه

لا تَكُنْ ممن يرْجُو الآخرة بغير عمل ، ويؤخّرُ التوبةَ لطولِ الأمَل . ويقولُ فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعملُ فيها بعمل الراغبين ، إنْ أُعْطِىَ منها لم يشبع ؛ وإن مُنِع لم يَقْنَع ، يعجز عن شُكْرِ ما أُوتى ويبتغى الزيادة فيما بَقِى ، يَنْهى ولا يَنْتَهى ، ويأمرُ بما لا يَأْتى ، يحبُّ الصالحين ولا يعملُ أعمالهم ، ويُبْغِض المسيئين وهو منهم ؛ يكره الموتَ لـكثرة ذنوبهِ ويقيمُ على ما يكرهُ الموت له ، إن سقم ظَلَّ نادما وإن صحّ أَمِنَ لَاهِيا ، يُعجَب بنفسه إذا عُوفى ، ويَقْنَطُ إذا ابتلى ، تغلِبُه نفسهُ على ما يظنّ ، ولا يَغلِبُها على ما يستيقن ، ولا يَثِقُ من الرزق بما ضمن له ، ولا يَعْمَل من العمل

---

(١) زيادة من ت . (٢) العمدة : ١ ـ ٢١ ، المختار من شعر بشار : ٢١٣ .
(٣) فى ت : يظن . (٤) ديوانه : ٧٠ ، واللسان ـ مادة غلب .
(٥) فى الديوان : لم يفخر ... كفاخر . (٦) ديوانه : ٣ .

بمافُرِض عليه، إن استغنى بَطِرو فُتن، وإن افتقر قنَط وحَزِن، فهو من الذّنب والنعمة موقَر، يبتغى الزيادة ولا يَشْكر، يتكلَّف من الناس ما لم يُؤْمر، ويضيع من نفسه ماهو أكثر، ويُبَالغ إذا سأل، ويقصّر إذا عمل! يخشى الموتَ، ولا يبادِر الفوت، يستكثِر من معصية غيره ما يستقلّ أكثره من نفسه؛ ويستكثِرُ من طاعته ما يستقلّه[1] من غيره، فهو على الناس طَاعِن، ولنفسه مداهن، اللّغْو[2] مع الأغنياء أَحَبّ إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيرِه لنفسه، ولا يحكمُ عليها لغيره، وهو يُطَاع ويَعْصِى؛ ويستوفِى ولا يُوفى.

وسُئِل رضى الله عنه عن مسألة فدخل مبادراً، ثم خرج فى حذاء ورداء، وهو يتبسّم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سُئِلْت عن مسئلة كنت فيها كالسِّكة المُحْمَاة[3]! فقال: إنى كنتُ حاقنا ولا رَأْىَ لحاقن[4]، ثم أنشأ يقول:

إذا المشكلاتُ تصدَّين لى ... كشفتُ حقائِقَها بالنَّظَرْ
وإن برقت فى مخيل[5] الصوا ... ب عَمْيَاء لا تجتليها الذكر[6]
مقنعةً بأُمور الغيوب ... وضعت عليها صَحِيحَ الفِكَرْ
لساناً كشقشقة الأرحبىّ ... أو كالحسام اليمانِى الذَّكَرْ[7]
وقلباً إذا استنطقته العيون[8] ... أمرَّ عليها بواهى[8] الدرر
ولستُ بإمّعة فى الرّجال ... أُسائل عن ذَا وذَا ما الخبرْ[9]
ولكننى ذَرِب[10] الأصغرين ... أبيِّن مع ما مضى ما غبر

وصف ضرار لعلى — وقال معاوية رضى الله عنه لضرار الصدائى: يا ضرار، صِفْ لى عليّا، فقال[11]:

---

(١) فى ت: ما يحقره. (٢) فى ت: اللهو. (٣) السكة: الحديدة.

(٤) الحاقن: هو الذى احتبس بوله. (٥) فى ت: محل.

(٦) فى ت: لا تهتدى بالفكر. (٧) أرحب: بطن من همدان تنسب إليها النجائب الأرحبية. (٨) فى ت: الفنون أبر عليها بواه درر. (٩) الإمعة: الرجل الذى لاخطر له.

(١٠) فى ت: مضرب. وفى ق: مدرب. ذرب الأصغرين: حديد القلب واللسان.

(١١) الأمالى: ٢ — ١٤٧.

أَعْفِني ياأميرَ المؤمنين، قال: لتصفنّه ، فقال : أما إذ أذنت فلا بدَّ من صفته : كان والله بعيدَ المدَى ، شديدَ القُوى، يقولُ فَصْلا ، ويحكمُ عَدْلا ، يتفجرُ العلمُ من جوانبه، وتنطقُ الحِكمةُ من نواحيه، يستَوْحِشُ من الدنيا وزَهْرَتِها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزيرَ الدَّمْعَة ، طويلَ الفِكْرة يقلِّبُ كفَّه ، ويخاطب نفسَه ، يُعجِبُه من اللِّبَاس ما قَصُر ، ومن الطعام ما خشُن ، وكان فينا كأحدِنا ، يُجيبُنا إذا سألناه ، ويُنبئُنا إذا استَنْبَأْناه ، ونحن مع تَقْرِيبه إيَّانا وقُرْبه منا لا نكادُ نكلِّمه لهيبته ، ولا نَبْتَدئُهُ لعظمته ، يعظِّمُ أهلَ الدين ، ويحبُّ المساكينَ ، لا يَطْمَعُ القويُّ في باطِلِه، ولا يَيْأَسُ الضعيفُ من عدلِه ، وأشهدُ لقد رأيْتُه في بعضِ مواقفه وقد أرخَى الليلُ سُدُوله ، وغارت نجُومُهُ ، وقد مَثَل في مِحْرَابه ، قابضاً على لحيته، يتمَلْمَلُ تململَ السليم[(١)]، ويبكي بُكاءَ الحزين ، ويقول: يادُنْيَا إليكِ عَنّى ! غُرّي غَيْرِي ! ألي تعرّضْتِ، أم إليّ تشوّفت ، هيهات ! قد بَايَنْتُك ثلاثاً لارَجْعَة لِي عليك[(٢)] ؛ فعُمْرُكِ قصير ، وخَطَرُكِ حَقِير، وخَطْبُكَ يسير ؛ آهِ من قِلَّةِ الزاد، وبُعْدِ السَّفَرِ ووَحْشَةِ الطريق !

فبكى معاوية حتى أخضلت دموعُه لحيتَه، وقال: رحِمَ الله أبا الحسن فلقد كان كذلك ، فكيف حُزْنُكَ عليه يا ضِرَار ؟ قال : حُزْنُ من ذُبِح وَاحِدُهَا في حِجْرِها !

وقال عليّ رضوان الله عليه : رَحِم اللهُ عبداً سَمِع فوعَى ، ودُعِى إلى الرشاد فدَنا ، وأخذ بحُجْزَةِ هادٍ فنجا[(٣)] ، وراقب ربَّه ، وخاف ذَنْبَه ، وقدّم خالصاً ، وعَمِل صالحا ، واكتسب مَذْخُوراً ، واجتنب مَحْذُوراً ، ورَمَى غَرَضاً[(٤)] ، وكابر هَوَاه ، وكذّب مُنَاه ، وحذِر أجَلًا ، ودَأَب عَمَلًا ، وجعل الصبر رغبةَ حياته ، والتُّقَى عُدَّةَ وفاته ، يُظْهِرُ دون ما يَكْتُمُ ، ويكتفي بأقلّ[(٥)] ممـا يعلم ، لزم الطريقةَ الغرّاء ، والمحجّةَ البيضاء ، واغتنم المهل ، وبادَر الأجَل ، وتزوّدَ من العمل .

---

(١) السليم : الملدوغ ، سمى بذلك تفاؤلا . (٢) فى الأمالى : لا رجعة فيها .

(٣) أخذ بحجزة فلان : استظهر به واستعان . (٤) فى ت : وذم عرضا .

(٥) فى ت : بما قل .

ولما رجع رضى الله عنه من صِفّين فدخل أوائل الكوفة إذا قبرٌ ، فقال[1] : قَبْرُ مَنْ هَذا ؟ فقيل : خَبّاب بن الأرت ، فوقف عليه وقال : رحم الله خَبّابا ! أسلم رَاغِبا ، وهاجر طائِعا ، وعاش مُجاهداً ، وابْتُلى فى جسمه أحوالا ، ولن يضيع اللهُ أجْرَ مَنْ أحسن عملا .

ومضى فإذا هو بقبور ، فوقف عليها وقال: السلامُ عليكم أهلَ الديار المُوحِشة، والمحال المُقْفِرة ، أنتم لنا سَلَف ، ونحن لكم تبَع ، وبكم ـ عما قليل ـ لَاحِقون ؛ اللهم اغْفِرْ لنا ولهم ، وتجاوَزْ عنا وعنهم بعَفْوِك ! طُوبَى لمن ذكر المَعَاد ، وعَمِل للحساب ، وقَنِع بالكَفَاف . ثم التفت رضى الله عنه إلى أصحابه فقال : أما إنهم لو تكلَّموا لقالوا : وجدنا خيرَ الزّادِ التَّقْوَى .

وذم رجلٌ الدنيا بحَضْرَةِ على رضى الله عنه فقال[2] : دارُ صِدْقٍ لمن صدقها ، ودارُ نَجَاةٍ لمن فهم عنها ، ودارُ غِنًى لمن تزوَّد منها ، مَهْبط وَحْىِ الله ، ومُصلَّى ملائكته، ومَسْجِد أنبيائه ، ومَتْجَر أوليائه ، رَبِحُوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنَّة ، فمن ذا يذمّها ، وقد آذَنَتْ ببَيْنِها ، ونادت بفِراقها ، وذكرت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً ؛ فيأيّها الذامّ لها ، المعلّل نفسَه بغرورها ، متى خدعَتْكَ الدنيا ؟ أم بمـاذا استَدنَتْ إليك[3] ؛ أبِمَصْرَعِ آبائك فى البِلَى ؟ أم بِمَضْجَع أُمهاتك فى الثَّرى ؟ كم مرَّضت بكفّيك ، وكم عللت[4] بيديك ، تَطْلُب له الشفاء ، وتستوصف الأطباء ، غَدَاة لا يَنْفَعُه بكاؤك ، ولا يغنى دواؤك .

---

(١) أيام العرب فى الإسلام : ٣٩٦ . (٢) البيان والتبيين : ٢ ـ ١٠٢ .
(٣) فى ط ، ق : استذمت . (٤) فى ت : تعللت .. تطلب له الدواء .

فِقر من كلامه رضى الله عنه

[البشاشة فخ المودة . والصبر قبر المغبون . والغالبُ بالظلم مغلوب . والحجر المغصوب بالدار رهن بخرابها . وما ظفر من ظفرت به الأيام . فسالِمْ تَسْلَم][1] . رَأْيُ الشيخ خيرٌ من مَشْهدِ الغلام[2] . الناس أعداءُ ماجهلوا . بقيةُ عمر المؤمن لا ثمَن لها، يدرك بها ما أفات [ويحيى ما أمات][1] .

نقل هذا الكلام بعضُ أهلِ العصر وهو أبو الفتح علىّ بن محمد البستى :

بقيةُ العمرِ عندى مالها ثمن ... وإن غدًا وهو محبوبٌ[3] من الثمنِ
يستدرك المرءُ فيها ما أفات ويحـ ... ـيى ما أمات ويَمْحُو السوءَ بالحسَنِ

الدنيا بالأموال ، والآخرةُ بالأعمال. لا تخافنّ إلا ذنبك ، ولا ترجوَنَّ إلا ربك. وجِّهُوا آمالكم إلى مَنْ تحبه قلوبكم . الناسُ من خَوْف الذل فى الذل . مَنْ أيْقَنَ بالخُلْفِ جاد بالعطية . بقيَّةُ السيفِ أنمَى عَدَدًا وأنْجَبُ ولداً ــ وقد تبينت صِحَّة ما قال فى بنيه وبنى المهلب ــ إنَّ من السكوت ما هو أبْلَغُ من الجواب[4] . الصبرُ مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو ، وسَيْفٌ لا يَنْبُو . خَيْرُ المالِ ما أغْنَاك ، وخيرٌ منه ما كَفاك ، وخير إخوانك مَنْ وَاساك ، وخيرٌ منه من كفاك شره .

وقال بعضُ أهل العصر مايشاكِل هذا وهو أبو الحسن محمد بن لنكك البصرى:

عَدِمْنا فى زماننا ... عَنْ حَديثِ المكارمِ
مَنْ كفى الناسَ شرَّهُ ... فهو فى جُودِ حاتم

---

(١) زيادة من ت . (٢) مشهد الغلام : ما يشهده ويراه رأى العين .

(٣) فى ت : خير محبوب . (٤) بعده فى ت :

وقال أبو العباس الناشىء :

إنى ليهجرنى الصديق تجنيا ... فأريه أن لهجره أسبابا
وأخاف إن عاتبته أغريته ... فأرى له ترك العتاب عتابا
وإذا دهيت بجاهل متجاهل ... يدع الأمور من المحال صوابا
أوديته منى السكوت تفهما ... كان السكوت عن الجواب جوابا

أبو الطيب[١] :

إِنَّا لَفِى زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بِهِ   من أكْثَرِ الناسِ إِحْسَانٌ وإِجْمَالُ

إذا قدرت على عدوّك فاجْعَلْ العفوَ عنه شكرا للقُدْرَةِ[٢] عليه . قيمةُ كلِّ امرىء ما يُحْسِن .

ذكر أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ هذه الكلمة فى كتاب البيان فقال : فلو لم نَقِفْ من هذا الكتاب إلاَّ على هذه الكلمة لوجدناها شافية ، كافية ، ومُجْزِيَة مُغْنِيَةً ؛ بل لوجدناها فاضلة عن الكِفاية ، غير مقصِّرة عن الغاية ؛ وأَفضلُ الكلامِ ما كان قليلُه يُغنِيك عن كثيره ، ومعناه ظاهراً فى لَفْظِهِ ، وكأَنّ الله قد ألْبَسه من ثيابِ الجلالة ، وغشَّاه من نُورِ الحكمة ، على حَسَب نِيَّةِ صاحبه ، وتَقْوَى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيحَ الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزَّها عن الاختلال ، مَصُوناً عن التكلّف صَنَع فى القلوب صنيع الغَيْثِ فى التُّرْبَةِ الكريمة ، ومتى فصِّلَت الكلمةُ على هذه الشريطة ، و نَفَذَت من قائلها على هذه الصِّفة ، أصحبها الله عز وجل من التوفيق ، ومَنَحَها من التّأْييد ، مالا يمتنعُ من تعظيمها به صدورُ الجبابرة ، ولا يذهل[٣] عن فَهْمِها معه عقولُ الجهلة .

ومن دُعَائِه رضى الله عنه فى حروبه

اللهم أَنْتَ أَرْضَى للرضا ، وأَسْخَط للسُّخط ، وأَقدر على أن تغيِّر ما كرهت ، وأَعلم بما تقدر ، لا تُغْلَب على باطل ، ولا تعجز عن حَق ، وما أنت بغافل عما يعمل الظالمون .

---

(١) ديوانه : ٣ ــ ٢٨٧ .   (٢) فى ت : شكر القدرة .

(٣) فى ت : ولا يذهب .

وقال على رضى الله عنه : (١)

لِمنْ رايةٌ سَوْدَاءُ يَخْفِق ظلُّها ... إذا قيـل قَدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّما

فيوردها فى الصَّفِّ حتى تردها ... حِياضُ المنايا تقطُرُ الموتَ والدَّمَا

جزى الله قوماً قاتلوا فى لقائهم ... لدى الروعِ قوماً ماأعز وأَكْرَما

وأطيب أَخْباراً وأَفضلَ شِيمةً ... إذا كان أصواتُ الرجال تَغَمْغُما (٢)

حضين الذى ذكره هو أبو ساسان الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة (٣) الرقاشى وكان صاحبَ رايَتِه يوم صفّين .

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها :

أرى عِلَلَ الدنيا علىَّ كثيرةً ... وصاحبها حتى المماتِ عليلُ

لكلِّ اجتماعٍ من خليلين فُرْقةٌ ... وإنّ الذى (٤) دُونَ المماتِ قليل

وإنَّ افتقادى فاطماً بعد أحمدٍ (٥) ... دليـلٌ على ألا يدومَ خَليلُ

ولما قتل عمرو بن عبد ودّ سقط فانكشفَتْ عَوْرَتُه ، فتنحَّى عنه وقال :

آلى ابنُ عبد ـ حين شدَّ ـ أليّةً ... وحلفت فاستمعوا من الكذّابِ

ألّا يفرَّ ولا يملل فالتقى ... أسَدَان يَضْطرِبان كلَّ ضراب

اليـوم يمنعنى الفرارَ حفيظتى ... ومُصَمِّمٌ (٦) فى الرَّأْسِ ليس بنَابِ

أعرضت حـين رأيتُه متقطِّراً ... كالجذع بين دَكادِكٍ ورَوَابى (٧)

وعففتُ عن أثوابه ولو اننى ... كنت القطِّرَ بزَّنِى أثوابى (٨)

نصر الحجارة من سفاهة رَأْيِهِ ... ونَصَرْتُ دينَ محمـد بصواب

لا تحسبُنَّ اللهَ خاذلَ دينـهِ ... ونَبيه يامعشر الأحزاب

فى أبيات غير هذه ، وبعض الرواة يَنْفِيها عن على رضى الله عنه .

---

(١) العمدة : ١ ــ ٢١ . (٢) التغمغم : الصوت عند القتال .

(٣) رعلة فى ت . (٤) فى ت : وكل الذى . (٥) فى ت : واحداً بعد واحد .

(٦) المصمم : السيف لا ينبو . (٧) متقطر : صريع ، والدكادك : جمع دكداك وهو الرمل المتلبد بالأرض . (٨) بز : سلب .

وعمرو هذا هو ابن عبد وُدٍ بن نضر بن مالك بن حسل [(١)] بن عامر بن لؤى ، وكان قد جزع المذاد [(٢)] ، وهو موضع حفر فيه الخندق يوم الأحزاب ، وفى ذلك يقول الشاعر :

عمرو بن ودّ [(٣)] كان أولَ فارس جزَع المذاد وكان فارسَ يَلْيَلِ [(٤)]

ولما صار مع المسلمين فى الْخَندَق دعا البراز وقال :

ولقد بَحِحْتُ من النداء بجمعهم هل من مُبارِزْ
ووقفت إذ نكل الشجاع بموقفِ البطَلِ المُناجِزْ [(٥)]
إنى كذلك لم أزَلْ متسرِّعاً نحو الهزاهز [(٦)]
إنَّ السماحةَ والشجاعةَ فى الفتى خيرُ الغرائز

فبرز علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : ياعمرو ! إنك عاهدتَ الله لقريش ألاّ يدعوك أحدٌ إلى خلّتين إلاّ أخذت إحداهما ، فقال : أجل ! قال : فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لاحاجَةَ لى بذلك . قال : فإنى أدعوك إلى المبارزة. فقال: يا بن أخِى ماأُحِبُّ أنْ أقتُلَك ! قالَ على : لكنى واللهِ أُحِبُّ أن أقتلك . فحمِى عمرو فاقتحم عن فرسه وعَرْقبَه [(٧)] ثم أقبل إلى على :

فتجاوَلاَ كغمامتين تكنّفت مَتْنَيْهما رِيحا صَباً وشَمالِ
فى موقف كادت نفوسُ كُماتهِ تُبتزّ قَبلَ تورُّدِ الآجالِ

وعلت بينهما غبرة سترتْهُما فلم يَرُع المسلمين إلا التكبير ؛ فعلموا أن عليًّا قتله . ولما قُتِلَ عمرو جاءت أُخته فقالت : مَنْ قتلَه ؟ فقيل : على بن أبى طالب فقالت: كفءٌ كريم ! ثم انصرفت وهى تقول [(٨)] :

---

(١) فى ت : حسان . (٢) سيرة ابن هشام : ٣ — ٢٩٨ . (٣) فى ابن هشام ومعجم ما استعجم : بن عبد . (٤) فى ط : المزاد ، ويليل : واد ببدر .
(٥) نكل : نكص ، والمناجز : المبادر إلى القتال . (٦) الهزاهز : الشدائد والحروب لأنها تهزهز الرجال . (٧) عرقبه : قطع عرقوبه . (٨) شاعرات العرب : ١٢٦ .

لو كان قاتلَ عمرو غيرُ قاتلهِ ... لكنت أبكى (١) عليه آخرَ الأبد
لكنّ قاتلَه من لا يُعابُ بهِ ... وكان يُدْعَى قديماً بَيْضَةَ الْبَلَدِ
من هاشمٍ فى ذُراها وهى صَاعِدةٌ ... إلى السماء تُميتُ الناسَ بالحسَدِ
قومٌ أبَى اللهُ إلا أن يكونَ لهم ... مكارمُ الدِّينِ والدُّنيا بلا أمَدِ (٢)
يا أم كلثوم بَكِّيهِ (٣) ولا تدعى ... بكاءَ مُعْولةٍ حَرَّى على وَلَدِ (٤)

أم كلثوم بنت عمرو بن عبد وُدّ . و « بيضة البلد » تُمْدَحُ به العربُ وتُذَمّ (٥)، فمن مَدَح به جعله أصلا ، كما أن البيضة أصل الطائر ، ومن ذمّ به أراد أنْ لا أصل له. قال الراعى يهجو عدىّ بن الرقاع العاملى :

يامن توعَّدنى (٦) جَهْلًا بكثرتهِ ... متى تهددنى بالعزِّ والعدَدِ
أنت امرؤٌ نال من عِرْضِى وعزتُه ... كعزة العير يَرْعَى تلعة الأَسَدِ (٧)
لو كنتَ من أحدٍ يُهْجَى هجوتكُم ... يا ابنَ الرّقاع ولكن لَسْتَ من أحدِ (٨)
تأبى قُضَاعة أن ترضى (٩) لكم نسباً ... وابنا نزار فأَنتُم بَيْضَةُ البلدِ (١٠)

وقال أبو عبيدة: عاملة بن عدى بن الحارث بن مرة بن أد [بن زياد] (١١) بن يشجب يطعن فى نسبه من قحطان ، ويقال هو عاملة بن معاوية بن قاسط (١٢) بن أهيب ؛ فلذلك قال الراعى هذا . ويقال : إن جندل بن الراعى قالها . وقد قال يحيى بن أبى حفصة الأموى فى عاملة :

---

(١) فى الشاعرات : لقد بكيت . (٢) فى شاعرات العرب : بلا لدد .
(٣) فى ط، ق: ابكيه . (٤) فى ت : على كبد . (٥) قال فى اللسان : إذا مدح بها فهى التى فيها الفرخ لأن الظليم حينئذ يصونها ، وإذا ذم بها فهى التى قد خرج الفرخ منها ورمى بها الظليم، فداسها الناس والإبل . (٦) فى ت : يأيها الموعدى . (٧) وفى ت : وغرته كغرة العير يرعى بلغة الأسد . والعير : الحمار ، وتلعة الأسد : الرابية التى يحميها .
(٨) اللسان — مادة بيض . (٩) فى اللسان : لم تعرف . (١٠) أراد أنه لا نسب له .
(١١) زيادة ليست فى ت . (١٢) فى ت : واسط وفى ق : قاسط بن هنب .

ولسنا نُبَالى نَأْى (١) عاملة التى ... أجَدَّ بها من نحو بُصرى انحدارُها
تدافعَها الأحياء حتى كأنها ... ثيابٌ بدا للمشترين عَوَارُها
قذفنا بها لمَّا نأت قَذْفَ حاذف (٢) ... بسودِ حصًى خفَّت عليه صِغَارُها

ويشبه قــولُ على رضى الله عنه « وعففت عن أثوابه » قولَ عنترة بن شداد العبسى (٣) :

هلاَّ سألت الخيلَ يابْنَةَ مَالِكٍ ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمِى
يخبّرْك مَنْ شهد الوقيعــةَ أننى ... أغْشَى الوغَى وأعِفّ عند المغنم

وقال حبيب بن أوس الطائى (٤) :

إنّ الأَسودَ أسودَ الغابِ هِمَّتُها ... يومَ الكريهة فِى المَسْلُوبِ لا السلَبِ (٥)

* * *

قد علقت بذيل ما أوْردته ، وألحقت بطرف ما جردته ، من كلام سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين، قطعــة من كلام الخلفاء الراشدين ، قدمتها أمام كلّ كلام ، لتقدمهم على الخَلْق ، وأخذهم بقصَبِ السَّبْقِ (٦) ، وهم كما قال بعضُ المتكلّمين ــ يصف قوما من الزهاد الواعظين . جَــلَوْا بكلامهم الأبصار العليلة ، وشحذوا بمواعظهم الأذهانَ الكليلة ، ونَبَّهُوا القلوبَ من رَقْدَتِها ، ونَقَلُوها عن سوء عادَاتِها ، فشَفَوْا من داء القسوة ، وغَبَاوة الغَفْلَةِ، وداووا من العىِّ الفاضح ، ونهجُوا لنا الطريقَ الواضح . وآثرت أن ألحق بمدذلك جملةً من سليم كلام سائر الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم أجمعين ، وأدرج فى دَرَج كلامهم، وأثناء نَثْرهم ونظمهم، ماالتفَّ عليه والتفت إليه، وتعلَّق بأغصانه،

---

(١) فى ت : رأى .   (٢) فى ت : حاذق .   (٣) ديوانه : ١٢٦ .
(٤) ديوانه : ١٠ .   (٥) السلب : الغنيمة .   (٦) أخذ قصب السبق كناية عن الفوز .

وتشبَّثَ بأَفْنَانِه ، كما تقدّم ، وأخرج إلى صفات البلاغات ، وآخُذ بعد ذلك فى نظم عقود الآداب ، ورَقْمِ برود الألباب .

من كل معنًى يكاد الميْتُ يَفْهَمُهُ حُسناً ويعْبُدُه القِرْطَاسُ والقلمُ

[من كلام الصحابة والتابعين]

من كلام معاوية

قال معاوية (١) بن أبى سفيان رحمه الله : أَفْضَلُ ماأعطى الرجلُ العقلُ والحلمُ ؛ فإذا ذُكِّرَ ذكر ؛ وإذا أساء استغفر ، وإذا وَعَد أنجز .

وصف معاوية الوليد بن عتبة فقال : إنه لبعيد الغَوْر ، ساكن الفور (٢) ، وإن العود من لِحَائه (٣) ، والولد من آبائه ، والله إنه لنبات أصل لا يخلف ، ونجل فَحْلٍ لا يقرف .

ومرض معاوية مرضاً شديداً فأرجف به مَصقلة بن هبيرة وسَاعَده قَوْمٌ على ذلك ، ثم تماثل وهم فى إرجافهم (٤) فحمل زياد مَصقلة إلى معاوية وكتب إليه (٥) : « إنه يجْمَعُ مُرَّاقاً من مُرّاق العِراق (٦) فيُرْجِفُون بأمير المؤمنين . وقد حملتُه إليه ليرَى رأيه فيه » .

فقدم مَصْقَلة وجلس معاويةُ للناس ؛ فلما دخل عليه قال : ادْنُ منى ! فدنا منه فأخذَهُ بيده فجذَبه فسقط مَصْقَلة ؛ فقال معاوية :

أبقى الحوادثُ من خليلك مِثْلَ جَنْدَلَةِ المَرَاجِمْ

(١) فى ت : عبد الله بن أبى سفيان .   (٢) بعد الغور كناية عن أصالة الرأى . الفور : الغضب . وسكون الفور : كناية عن الحلم .   (٣) اللحاء : القشر .
(٤) الإرجاف : الخوض فى أخبار الفتن .   (٥) الأمالى : ٢ — ٣١١ ، اللآلى : ٩٥٩ .
(٦) مراق : جمع مارق ، وهو الخارج على الجماعة .

صُلباً إذا خارَ الرجا لُ أبلَّ ممتنعَ الشكائم (٧)
قد رامني الأعداء قَبْ لك فامتنَعْتُ عن المظالم

قال مصقلة : يا أمير المؤمنين ؛ قد أبقى الله منكَ ماهو أعْظمُ من ذلك [بطشا] (٢) وحِلماً [راجحا] (٢) وكلأً ومرعًى لأوليائك ، وسمّا ناقعاً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أبوك سيدَ المشركين ، وأصبح الناس مسلمين ؛ وأنت أميرُ المؤمنين . وقام .

فوصله معاويةُ ، وأذن له فى الانصراف إلى الكوفة . فقيل له : كيف تَرَكْتَ معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه لما به (٣) ، والله لقد غَمزنى غمزة كاد يَحْطِمُنى ، وجذبنى جَذْبَة كاد يكسر عُضْواً منى !

ودخل الأحنفُ بن قيس على معاوية وافداً لأهلِ البصرة ، ودخل معه النَّمر ابن قُطْبة ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانيَّة (٤) ، وعلى الأحنف مِدْرَعَةُ (٥) صوف وشَملة ، فلما مثلا بين يدى معاوية اقتحمَتْهُمَا عينُه ؛ فقال النمر : يا أميرَ المؤمنين ! إنَّ العباءة لا تكلِّمك ، وإنما (٦) يكلمك مَنْ فيها ! فأومأ إليه فجلس ، ثم أقبل على الأحنف فقال : ثم مَهْ ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ؛ أهلُ البصرة عددٌ يسير ، وعَظْمٌ كسير ، مع تتابع من المُحُول (٧) ، واتصالٍ من الذُّحول (٨) فالمُكْثِرُ فيها قد أطرق ، والمُقِلُّ قد أَمْلَق (٩) ، وبلغ منه المَخْنَق (١٠) . فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن ينعشَ الفقيرَ ، ويَجْبُرَ الكسير ، ويسهّل العسير ، ويَصْفَح عن الذُّحول ، ويُدَاوِى المُحُول ، ويأمر بالعَطَاء ؛ ليكشف البَلَاء ، ويُزيل اللأْواء (١١) . وإنَّ السيدَ من يعمّ ولا يَخُصّ ،

---

(١) الأبل : الجرئ الغالب فى كل شىء ، وقيل : هو الشديد الخصومة .

(٢) الزيادة من الأمالى . (٣) فى الأمالى أنه كبر وضعف. (٤) نسبة إلى قطوان وهو موضع بالكوفة . (٥) المدرعة : ثوب ولا يكون إلا من صوف . (٦) فى ط : وإن .

(٧) فى ت : النحول . (٨) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر . (٩) أملق : افتقر .

(١٠) فى ت : وبلغ منه الضر المحقق . (١١) اللأواء : الشدة .

ومَنْ يدعو الجَفَلى ، ولا يَدْعُو النَّقَرى (١) ، إنْ أُحْسِنَ إليه شكر ، وأن أُسِيء إليه غَفر ، ثم يكون وراء ذلك لرعيته عِمَاداً يرفع عنها المُلِمّاتِ ، ويَكْشِف عنهم المعضلات .

فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بحر ! ثم تلا : (ولتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القَوْل) .

ومن جميل المحاورات مارواه المدائنى قال : وفَدَ أَهْلُ العِرَاق على معاوية رحمه الله، ومعهم زيادٌ ، وفيهم الأَحنف فقال زياد : يا أميرَ المؤمنين ؛ أَشْخَصتْ إليك أَقْوَاماً الرغبة ، وأقعدَ عنك آخرين العُذْرُ ، فقد جعل الله تعالى فى سعة فضلك ما يُجْبَرُ به المتخلف ، ويُكَافأُ به الشاخص . فقال معاوية : مرحباً بكم يامعشرَ العرب، أما والله لئن فرَّقَتْ بينكم الدعوة لقدجمعتكم الرَّحِم؛ إن الله اختاركم من الناس ليختارَنا منكم، ثم حفظ عليكم نَسَبَكم بأن تخيَّر لكم بلاداً تُجتازعليهاالمنازل، حتى صفّاكم من الأُمم كما تصفَّى الفضةُ البيضاء من خَبَثِها ؛ فصونوا أَخلاقكم ، ولا تُدَنِّسُوا أنسابَكم وأعراضَكم ، فإنّ الحسَنَ منكم أحْسَنُ لقُرْبكم منه ، والقبيح منكم أَقبح لبعدكم عنه .

فقال الأحنف : والله يا أمير المؤمنين ، ما نَعْدَم منكم قائلا جزيلا(٢) ، ورأيا أصيلا ، ووعْداً جميلا ؛ وإنّ أخاكَ زياداً لمتَّبعٌ آثارَكَ فينا ، فنستمتع الله بالأمير والمأمور ، فإنكم كما قال زهير ، فإنه ألقى على المدَّاحين فصول القول(٣) :

ومايكُ من خَيْرٍ أَتوْهُ فإنَّما ... توَارَثَهُ آباءُ آبائِهم قَبْلُ
وهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلاّ وَشِيجُهُ ... وتُغْرَسُ إلاّ فى مَنَابِتِها النَّخْلُ(٤)

وهذان البيتان لزهير بن أبى سلمى المزنى فى قصيدة يقول فيها(٥) :

---

(١) الجفلى : الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة . (٢) الجزيل : العاقل الأصيل الرأى . وفى ت : نائلا جزيلا . (٣) ديوانه : ١١٥ ، المختار من شعر بشار ٤٤ .

(٤) الخطى : نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين وتنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيج : شجر الرماح . (٥) ديوانه صفحة ١١٣ .

وفِيهِمْ مَقاماتٌ حِسانٌ وجُوهُها ... وأنْدِيَةٌ يَنْتابُها القَوْلُ والفِعْلُ
على مُكْثِرِيهم رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وعند المُقِلِّينَ السَّماحَةُ والبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُم قومٌ لِكَىْ يُدْرِكُوهُمْ ... فلم يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا[1] ولَم يَأْلُوا

قال بعض أهـــل العلم بالمعانى : أعْجِبْ بقوله : « ولم يألوا » ، لأنه لما ذكر السَّعْىَ بعدهم ، والتخلُّف عن بلوغ مساعيهم جاز أن يتوهَّمَ السامع أنّ ذلك لتقصيرِ الطالبين فى طلبهم ؛ فأخبر أنهم لم يَأْلُوا ، وأنهم كانوا غيرَ مقصّرين ، وأنهم — مع الاجتهاد — فى المتأخرين ؛ ثم لم يَرْضَ بأن يجعل مَجْدَهم طارفا فيهم ، ولا جديدا لديهم ، حتى جعله إرْثاً عن الآباء ، يتوارَثُه سائرُ الأبناء ، ثم لم يَرْضَ أن يكونَ فى الآباء حتى جعله موروثا عن آبائهم ، وهذا لو تكلَّفه متكلف فى المنثور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار .

وكانت قريشٌ معجبةً بشعر زهير ، وقالوا [2] النبى صلى الله عليه وسلم . إنّا قد سمعنا كلامَ الخطباء والبلغاء وكلامَ ابن أبى سلمى فما سمعنا مثلَ كلامه من أحد ؛ فجعلوا ابن أبى سلمى نهايةً فى التجويد ، كما ترى .

وذكر أن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه قال : إن من أشعر شعرائكم زهيرا ، كان لا يُعاظِل بين الكلام ولا يتبع حُوشِيَّه ، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون فى الرجال .

وأخذ معنى قولِ زهير : * سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم * طُرَيح بن إسماعيل الثقفى ، فقال لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على السفاح :

قد طلب الناسُ ما بلغتَ ولَمْ ... يَأْلُوا فما قاربُوا وقد[3] جهِدوا
فهم ملوكٌ ما لم يرَوكَ ، فإنْ ... لاح لهم مِنْكَ بارقٌ خَمَدُوا

---

(١) فى ط : أو لم يلموا . (٢) فى ط : وقال للنبى .

(٣) فى ت : ولو . جهدوا : تعبوا .

تعروهُمُ رِعْدةٌ لديْكَ كما قُرقِفَ[١] تحت الدجُنَّة الصَّرِدُ
لاخوفَ ظُلْمٍ ولا قِلَى[٢] خُلُقٍ لكن جلالًا كساكَهُ الصَّمَدُ
ما يُبقِك اللهُ للأنام[٣] فما يفقد من العالمين مفتقد

وقال معاوية رحمه الله : المروءةُ احتمالُ الجريرة[٤]، وإصلاحُ أمرِ العشيرة ؛ والنبلُ الحلم عند الغضب ، والعفوُ عند المقدرة .

فِقَر من كلامه رضى الله عنه

ما رأيتُ تبذيراً قطُّ إلاَّ وإلى جَنْبه حقٌّ مُضَيَّع . أنْقصُ الناس عقْلا مَنْ ظلَم مَنْ هُو دونَه . أولى الناس بالعَفْوِ أقدرُهم على العقوبة . التسلُّط على المماليك مِنْ لُؤْمِ المقدرة وسوء الملكة .

وقال يحيى بن خالد : ما حَسُنَ أدبُ رجلٍ إلّا ساء أدبُ غِلْمانه .

وقال معاوية : إصلاحُ ما فى يدك أسْلَم من طلب ما فى أيدى الناس . غَضَبى[٥] على مَنْ أَمْلِك ، وما غضبى على مَنْ لَا أَمْلِك[٦] .

***

الجمع بين التهنئة والتعزية

ولما تُوُفِّى معاويةُ رحمه الله واستُخْلِف يزيدُ ابنه اجتمع الناسُ على بابه ، ولم يقدروا على الجَمْع بين تهنئة وتعزية حتى أتى عبدُ الله بن همّام السَّلُولى ، فدخل عليه فقال[٧] : يا أميرَ المؤمنين ، آجرَك اللهُ على الرَّزِيّة ، وبارك لك فى العطيّة ، وأعانك على الرعيّة ، فلقد رُزِئْتَ عظيما ، وأُعْطِيتَ جسيما ، فاشْكُرِ اللهَ على ما أُعْطيت ، واصبر له على ما رُزِيت ؛ فقد فقدتَ خليفة الله ، ومُنِحْتَ خِلافة الله ؛ ففارقتَ جليلا ، ووُهِبتَ جزيلا ؛ إذْ قضى مُعَاوِيةُ نَحْبه فغفر الله ذَنْبَه ؛ ووُلِّيت الرياسة

(١) فى ت : تهتز ، وقرقف : أرعد ، والدجنة : الظلمة وإلباس الغيم وتكاثفه ، والصرد : من وجد البرد سريعا . (٢) القلى : البغض . (٣) فى ت : ما يبعك الله الأنام .
(٤) الجريرة : الجناية ، واحتمال الجريرة كناية عن دفع الدية . (٥) فى ت : ما غضبى .
(٦) فى ت : من أهلك . (٧) البيان والتبيين : ٢ — ٦٧ ، نهاية الأرب : ٥ — ٢١٥ .

فأُعطيت السياسة ؛ فأوردك الله مواردَ السرور ، ووفَّقك لصالح الأمور ، وأنشده :

اصبِرْ يَزِيد فقد فارقْتَ ذا ثقــةٍ واشكر حِبَاء الَّذى بالمُلْكِ أَصْفَاكا[1]
لا رُزْءَ أَصْبَح فى الأقوام نَعْلَمه كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كَعُقْبَاكا
أَصْبَحْتَ والىَ أمرِ الناسِ كلّهم فأَنْتَ تَرْعَاهُمُ واللهُ يَرْعَاكا
وفى معاويةَ الباقِى لنـــا خَلَفٌ إذا نُعيتَ ولا نسمعْ بِمَنْعاكا

يريد أبا ليلى معاوية بن يزيد ، ووُلِّى بعد أبيه شهوراً ، ثم انخلع عن الأمر ، فقال القائل :

* والملك بعد أَبى ليلى لمن غلبا *

وأول مَنْ فَتَح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية عبد الله بن همام فَولجه النـاس .

من جيدما قيل فى ذلك

ومن جيِّد ما قيل فى ذلك قصيدة أبى تمام الطائى يمدح الواثق ويرثى المعتصم يقول فيهـا[2] :

إِن أَصبحَتْ هضباتُ قدس أزالها قدرٌ فما زالت هِضابُ شَمامِ[3]
أو يُفْتقد[4] ذوالنون فى الهَيْجا فقد دَفَعَ الإلهُ لنـا عن الصَّمصام
أو كنت منا غاربا غدوا فقـد رُحْنَا بأَسمى غَارِبٍ وسنام[5]
تلك الرزيّةُ لا رزيَّة مثلها والقَسْم ليس كسائرِ الأقسام

وهذا المعنى كثير .

وكان معاوية رحمه الله قد ترك قولَ الشعرِ فى آخر عمره ، فنظر يوماً إلى جاريةٍ فى داره ذات خَلْق رائع ، فدعاها فوجدها بِكراً فافترعها ، وأنشأ يقول :

سئمت غوايتى فأَرَحْتُ حلمى وفىَّ على تحملىَ اعتراضُ
على أنى أُجيب إذا دعتنى ذواتُ الدَّل والحَدَق المِراضُ

---

(١) الحباء : العطاء . أصفاه : آثره . (٢) ديوانه : ٢٧٦ . (٣) شمام : اسم جبل لباهلة .
(٤) فى الديوان : أو تفتقد ذا النون . (٥) رواية الديوان : رحنا بأتمك ذروة وسنام ،
وفى ت : أوجب منا غارب عدواً فقد عدنا بأتمك غارب وسنام .

فِقر لجماعة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

ابن عباس : الرخصة من الله صدقة ، فلا تردُّوا صدقته . لكل داخلٍ هيبة[١] فابدءوه بالتحية ؛ ولكل طاعم حشمة فابدءوه باليمين .

ابن مسعود رحمه الله : الدنيا كلها همومٌ ، فما كان منها فى سرور فهو ربح .

عمرو بن العاص : مَنْ كثر إخوانه كَثُرَ غُرَماؤه . وقال : أكرموا سفهاءَكم ، فإنهم يكفونكم العارَ والنار .

المغيرة بن شعبة : العيشُ فى بقاءِ[٢] الحِشْمَة . فى كل شىء سَرَف إلا فى المعروف. هذا كقول الحسن بن سهل — وقد أَنْفَق فى دخول ابنته بوران على المأمون أموالا عظيمة — فقيل له : لا خيرَ فى السَّرف . قال : لا سَرَف فى الخير . فرد اللَّفْظَ واستوفى المعنى .

معاذ بن جبل : الدَّين هَدْم الدين .

زياد : ارْضَ من أخيك إذا وُلِّىَ ولايةً بعُشْر وُدِّه قبلها .

مصعب بن الزبير : التَّواضع من مصايد الشرف .

الأحنف بن قيس : من لم يَصْبِرْ على كلمة سَمِعَ كلمات ! وقيل له : مَن السيد ؟ قال : الذى إذا أَقْبَل هابوه ، وإذا أَدْبَر عابُوه[٣] . وله : سرَّكَ مَنْ ذَمّك . وله : مَنْ تَسَرَّع إلى الناس بما يَكْرَهون قالوا فيه مالا يَعْلَمون . وله : الكاملُ مَن عُدَّت هفواته .

وقال يزيد بن محمد المهلبى :

ومن ذا الذى تُرضَى سَجَايَاه كلُّها ... كفى المرء نُبْلًا أن تُعَدَّ مَعايبُه

---

(١) فى ت : دهشة . (٢) فى ت : إلقاء . (٣) فى ت : اغتابوه .

الحسن البصرى : ألَا تَسْتَحْيُونَ من طول مالا تستحيون ! ابن آدم راحِلٌ إلى الآخرة كل يوم مرحلة . ما أَنْصَفَك مَنْ كلَّفك إجلالَه ، ومنعك مالَه . بدن لا يشتكى مثل مالٍ لَا يزكى[(١)] . إن امرأً ليس بينه وبين آدم أب حى لَمُعرِق فى الموتى .

قال الطائى[(٢)] :

تأمَّل رويداً هل تُعَدّنَّ سالمًا إلى آدمٍ أو هل تُعَدُّ ابنَ سالمِ

وقال أبو نواس[(٣)] :

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ وذو نسبٍ فى الهالكين عريقِ
إذا اُمتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

وكان المأمون يقول : لو قيل للدنيا : صِفِى نفسك ما عدَت هذا البيت ؛ وهو مأخوذ من قول مزاحم العقيلى[(٤)] :

قضين الهوى ثم ارتَمَيْنَ قلوبَنا بأَسْهُمِ أعداء وهُنَّ صديقُ

عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما الجَزَعُ مما لا بدَّ منه ؟ وما الطمعُ فيما لا يرجى ؟ لا تَكُنْ ممَّنْ يلْعَن إبليس فى العلانية ويُواليه فى السرّ .

الشعبى : إنى لأَسْتَحْيِى من الحقّ إذا عرفته أَلاَّ أرجعَ إليه .

قطعة من كلامٍ لبنى على بن أبى طالب أهل البيت رضى الله عنهم

[أهل الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونبعة الإيمان، وصوام شهر رمضان][(٥)]

ولهم كلامٌ يعرض فى حَلْى البيَانِ، ويُنْقَش فى فصّ الزمان ، ويُحْفَظُ على وَجْهِ الدهر ،

---

(١) فى ط : مثل مالا يزكى . (٢) ديوانه : ٣١٨ .

(٣) ديوانه : ١٩٢ ، الوساطة : ٢٠٠ . (٤) الوساطة : ٢٠٠ ، وهو هناك منسوب إلى جرير وقد روى فى ديوانه : ٣٩٨ : دعون الهوى . وفى ت : نصبن .

(٥) زيادة من ت .

ويَفْضَحُ قلائدَ الدُّر ، ويُخْجِل نورَ الشمس والبدر ، ولِمَ لا يطئون ذيولَ البلاغة ، ويجرّون فضولَ البراعة ، وأبوهم الرسولُ ، وأمُّهم البتول[1] ، وكلُّهم قد غُذِّى بدَرِّ الحكم ، ورُبِّىَ فى حِجْر العلم :

ما منهُمُ إلا مُرَبّى بالحِجَى ... أو مُبْشَرٌ بالأَحْوَذِيَّة مُؤْدَمُ[2]

آخر :

نَمَتْهُ العرانين مِنْ هاشِمٍ ... إلى النسب الأصْرَح الأوْضَحِ[3]

إلى نَبْعَة فَرْعُها فى السماء ... ومَغْرسُها فى ذُرَى الأبْطَحِ[4]

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدى ـ وقد قيل له : خطب جعفرُ بن سليمان[5] خطبةً لم يُرَ أحسن منها ، فلا يُدرى أَوَجْهه أحسن أم خُطْبَته ؛ فقال : أولئك قوم بنور الخلافةِ يُشرِقون ، وبلسان النبوّةِ ينطِقُون ، وفيهم يقول القائل :

لو كانَ يوجَدُ عرْفُ مَجْدٍ قبلَهُمْ ... لوجدتَه منهم على أميالِ

إن جئتَهم أبصرتَ بين بيوتهم ... كَرَماً يَقيك مواقفَ التَّسْآلِ

نورُ النبوّة والمكارم فيهمُ ... متوقّد فى الشِّيبِ والأطفال

وسُئِل سعيد بن المسيب : مَنْ أَبلغُ الناسِ ؟ فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. فقال السائل : إنما أَعْنى مَنْ دونه . فقال : معاوية وابنُه ، وسعيد وابنُه ، وإنّ ابنَ الزبير لحسَنُ الكلام ، ولكِنْ ليس على كلامِه ملح . فقال له رجل : فأين أنتَ من علىّ وابنه ، وعباس وابنه ؟ فقال : إنما عَنَيت من تقارَبَتْ أشكالُهم ، وتدانَتْ أحوالُهم ، وكانوا كسِهَامِ الجَعْبَةِ[6] ؛ وبنو هاشم أعلامُ الأنامِ ، وحُكَّامُ الإسلام .

---

(١) البتول : فاطمة بنت النبى سميت بذلك لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسنا، والمنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى . (٢) الأحوذية : الإسراع فى كل شىء . رجل مؤدم مبشر وهو الذى جمع ليناً وشدة مع المعرفة بالأمور . وفى الصحاح : فلان مؤدم مبشر إذا كان كاملا من الرجال . وفى ت : ومبشر . (٣) العرانين : الأوائل ، وفى ت : العرائس .

(٤) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . (٥) فى ت : جعفر بن على بن عبد الله ابن العباس بن سليمان . (٦) الجعبة : الكنانة .

فصل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى ذكر قريش وبنى هاشم

قد علم الناسُ كيف كَرَمُ قريش وسخاؤها ، وكيف عقولُها ودهاؤُها ، وكيف رأْيُها وذكاؤها ، وكيف سياسَتُها وتدبيرُها ، وكيف إيجازُها وتحبيرها[1] ، وكيف رجاحةُ أَحلامها إذا خفَّ الحليم، وحِدَّةُ أذهانِها إذا كَلَّ الحديد[2] ، وكيف صَبْرُها عند اللقاء ، وثباتُها فى اللَّأْوَاء ، وكيف وفاؤُها إذا استُحسن الغَدْرُ ، وكيف جودُها إذا حُبّ المـال ، وكيف ذِكْرُها لأحاديث غد ، وقلةُ صدودِها عن جهة القَصْدِ ، وكيف إقرارُها بالحق ، وصَبْرُها عليـه ، وكيف وصْفُها له ، ودعاؤُها إليه ، وكيف سماحةُ أَخلاقها ، وصَوْنُها لأَعْرَاقِها ، وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم ، وطريفَهم بتَليدِهم ، وكيف أَشْبَه علانيتهم سرّهم ، وقولهم فِعْلهم . وهل سلامةُ صَدْرِ أحدِهم إلّا على قدر بُعْدِ غَوْرِه ؟ وهل غَفْلَتُه إلّا فى وزن صِدْقِ ظنّه ؟ وهل ظنُّه إلّا كيقين غيرِه ؟

وقال عمر : إنك لا تنتفع بعقله حتى تنتفع بظنّه . قال أوس بن حَجَر[3] :

الأَلْمَعِىّ[4] الذى يظنُّ لك[5] الظَّـ نَّ كأَنْ قد رأَى وقَدْ سَمِعَا

وقال آخر[6] :

مَليحٌ نَجيحٌ أَخُو مَازِنٍ[7] فصيحٌ يحـدِّثُ بالغائبِ

وقال بلماء بن قيس :

وأَبْغِى صَوَابَ الرَّأْىِ أَعْلَمُ أَنَّهُ إذا طَاشَ ظَنُّ المرءِ طَاشَتْ مَقَادِرُهْ

---

(١) فى ط : وتحسيرها . (٢) الحديد : القوى الذهن .

(٣) اللسان ــ مادة لمع . (٤) فى اللسان : نصب الألمعى بفعل متقدم .

(٥) فى ط : بك . (٦) فى اللسان ــ مادة نجح بيت لأوس روايته :

نجيح جواد أخو ما قط نقاب يحـدث بالغائب

ورجل نجيح : منجح الحاجات . (٧) وفى ت : أخو ماقط .

بل قد علم الناس كيف جمالُها وقَوامُها ، وكيف نماؤُها وبهاؤُها ، وكيف سَرْوُها ونَجابتها[١] ، وكيف بيانُها وجَهارتها ، وكيف تفكيرُها وبَداهتُها ، فالعَرب كالبَدَن وقريشٌ روحُها ، وقريش روحٌ وبنو هاشم سرُّها ولُبُّها ، وموضعُ غاية الدينِ والدنيا منها ، وبنو هاشمٌ مِلح الأرض وزينةُ الدنيا ، وحلى[٢] العالم ، والسنام الأَضخم ، والكاهل الأَعْظَم ، ولُبَابُ كلّ جوهر كريم ، وسِرُّ كل عُنْصُرٍ شريف ؛ والطِّينة البيضاء ، والمَغْرسُ المبارك ، والنِّصَاب الوثيق ، ومَعْدِن الفَهْم ، وينبوع العِلْم ، وثَهْلَان ذُو الهضاب فى الحِلْم ، والسيفُ الحُسام فى العَزْم مع الأناة والحَزْم ، والصفح [عن الجرم ، والقصد عند المعرفة، والعفو][٣] بعد المقدرة ، وهُم الأَنْفُ القدّم ، والسَّنام الأَكْرم ، وكالماء الذى لا ينجِّسه شىء ، وكالشمس التى لا تَخْفَى بكل مكان ، وكالذّهب لا يُعْرَفُ بالنقصان ، وكالنجم للحَيْرَان ، والبارد للظْمآن ، ومنهم الثَّقَلَان[٤] ، والشهيدان ، والأطيبان ، والسِّبْطَان[٥] ، وأَسد الله ، وذو الجَنَاحَيْن ، وذو قَرْنَيْها[٦] ، وسَيِّدُ الوادى ، وساقِى الحَجِيج[٧] ، وحَليم البَطْحَاء ، والبَحْر والحبر ، والأَنصار أَنْصارهم، والمهاجرُون من هاجر إليهم أومعهم ، والصِّدِّيق مَنْ صدقهم ، والفاروق من فَرَّق بين الحق والباطل فيهم ، والحوارى حواريّهم ، وذو الشهادتين لأَنه شهِدَ لهم ، ولا خيرَ إلا لهم أو فيهم أو معهم أو يُضَاف إليهم ، وكيف لا يكونُون كذلك ومنهم رسولُ رب العالمين ، وإمامُ الأولين والآخرين ، ونجيبُ المرسلين ، وخاتَمُ النبيين ، الذى لم يتم لنبى نبُوَّةٌ إلا بعد

---

(١) السرو : الشرف . (٢) فى ط : وحى . (٣) زيادة من ت .

(٤) إشارة إلى قول النبى فى آخر عمره : إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى .

(٥) يشير إلى قول النبى : الحسن والحسين سبطا رسول الله أى طائفتان وقطعتان منه .

(٦) يشير بذلك إلى قول النبى لعلى بن أبى طالب : إن لك لبيتاً فى الجنه وإنك لذو قرنيها — أى طرفيها أو ذو قرنى الأمة (وارجع إلى اللسان — مادة قرن) .

(٧) الذى كانت له السقاية والرفادة عبد المطلب بن هاشم . الحجيج : جماعة الحجاج .

التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذى عمّ برسالته ما بين الخافِقَين ، وأظهره الله على الدّين كلّه ولو كره المشركون .

من كلام الحسن

قال الحسن بن على عليهما السلام لحبيب بن مسلمة الفهرى : ربَّ مَسِيرٍ لك فى غيرِ طاعة الله ! قال : أمّا مَسِيرى إلى أبيك فليس من ذلك ! قال : بلى ! [ولكنك أطعت فلانا على دنيا يسيرة، ولعمرى لئن كان قام بك فى دنياك] (١) لقد قعد بكَ فى دينِك ، فلو أنّك إذْ فعلتَ شرًّا قلت خيراً كنت كمن قال الله عزّ وجل : خَلَطُوا عملاصالحا وآخر سيّئا عسى الله أن يتوب عليهم . ولكنك كما قال : ﴿ كلاّ بَلْ رَانَ على قُلوبهم ما كانوا يَكْسِبُون ﴾ .

وكان الحسن عليه السلام جواداً كريما لا يردُّ سائلاً ولا يَقْطَع نائلا ، وأَعْطَى شاعراً مالا كثيراً فقِيل له : أَتُعْطِى شاعراً يَعْصِى الرَّحْمن ، [ويطيع الشيطان] (١) ، ويقول البُهْتَانَ ؟ فقال : إنَّ خَيْرَ ما بَذَلْتَ من مالك ما وَقَيْتَ به عِرْضَك ، وإنَّ من ابتغاء الخيرِ اتِّقاءَ الشر .

وقد روى مثلُ ذلك عن الحسين رضى الله عنه ، وقيل : إنّ شاعراً مدحه فأَجْزَل ثوابَه ، فلِيمَ على ذلك فقال : أترانى خِفْتُ أن يقولَ : لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ولا ابن على بن أبى طالب ! ولكنى خِفْتُ أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كعلىّ رضى الله عنه ؛ فيُصدَّق ويُحْمَل عنه ويبقى مخلداً فى الكتب ، محفوظاً على ألسنة الرُّواة . فقال الشاعر : أنت والله يابْن رسول الله أعرفُ بالمدح والذمِّ منى .

رثاء الحسن

ولما تُوفِّى الحسن أدخله قَبْرَه الحسين ومحمد بن الحنفيّة وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، ثم وقف محمدٌ على قبره وقد اغْرَوْرَقَت عَيْناه بالدموع وقال (٢) : رَحِمَكَ اللهُ أبامحمد ! فلئن عَزَّتْ حياتك ، لقد هَدَّتْ وفاتُك ، ولَنِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ تضمّنه

(١) الزيادة من ت . (٢) العقد الفريد ٢ — ٧ ، مروج الذهب ٢ — ٥١ .

بدَنك؛ ولنعم الجسَدُ جسَدٌ تضمّنه كَفَنُك ، ولنِعْمَ الكَفَنُ كفنٌ تضمّنَه لَحْدُك ، وكيف لا تكونُ كذلك وأنت سليلُ الهُدى ، وخامِسُ أصحابِ الكِسَاء (١) ، وخَلَفُ أَهْلِ التقى ؛ جدُّك النبيُّ المُصْطَفى ، وأبوك عليّ المرتضَى ، وأُمُّك فاطمةُ الزَّهراء ، وعمّك جعفر الطَّيار (٢) فى جنَّةِ المَأْوَى ، وغَذتْكَ أَكُفُّ الحقّ (٣) ، ورُبِّيتَ فِي حِجْرِ الإسلام ، ورَضَعْتَ ثَدْيَ الإيمان ، فطِبْتَ حيًّا وميتا ؛ فلئن كانت الأَنْفُس غيرَ طيبةٍ لفراقك؛ إنها غيرُ شاكَّةٍ أنَّ قد خِيرَ لَك ، وإنك وأَخاك لسيدا شَبَابِ أهل الجنة ، فعليكَ يا أبا محمد منا السلام .

وقام رجلٌ من ولد أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قَبْرِه فقال : إنَّ أقدامَكم قد نقلَتْ ، وإنَّ أعناقَكم قد حَمَلَتْ إلى هذا القبر وَليا من أولياء الله يبشر نبيّ الله بمقدمه ، وتفتَّحُ أبوابُ السماء لروحه ، وتبتهجُ الحورُ العِينُ بلقائه ، ويَأْنَسُ به سادةُ أهل الجنة من أُمَّتِه (٤) ، ويوحِش أهلَ الحِجَا والدين فقده ، رحمة الله عليه، وعنده تُحْتَسبُ المصيبةُ به .

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر المصيبة بأبناء النبوة

قد نُعِيَ سليلٌ من سُلَالة النبوة ، وفَرْعٌ من شجرة الرسالة، وعضوٌ من أعضاء الرسول، وجزءٌ من أجزاء الوصِيِّ والبَتُول . كتبت وليتني ما كتبت وأنا ناعِي الفضل من أقطاره، وداعى المجدِ إلى شَقِّ ثوبِه وصِدَاره ، ومخبر أَنَّ شمسَ الكرم وَاجِبة (٥) والمآثر مودِّعة ، وبقايا النبوّة مرتفعة ، وآمالَ الإمامة منقطعة ، والدينَ منخذِلٌ واجم ، وللتقوى دَمْعَان هامٍ وساجم . كتابى وقد شلَّتْ يمينُ الدَّهر ، وفُقِئت عينُ المجد ،

---

(١) أصحاب الكساء هم : النبي وعلى وفاطمة ، والحسن والحسين .

(٢) هو جعفر بن أبي طالب، وسمى الطيار لقول النبي صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة البارحة فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة .

(٣) فى ت : النهى .

(٤) فى ت : من أمهاته .

(٥) غاربة .

وقَصُرَ باعُ الفَضْل ، وكُسِفَت شمسُ المساعى ، وخُسِفَ قمر المعالى ، وتجدَّدَ فى بيت الرسالة رُزْءٌ جدَّد المصائب ، واستعاد النَّوائب ؛ كل هذا لفقْدِ من حَطَّ الكرمُ برَبْعِه ، ثم أدرج فى بُرْدِه ، وامتزج المجدُ به ، فدفِنَ بدَفْنه ، إنها لمصيبةٌ عمَّت بَيْتَ الرسالة، وغضَّت طَرْف الإمامة ، وتحيَّفَتْ [١] جانبَ الوَحْى المنزَّل، وذكَّرت بموت النبى المرسل . كتبت والدهرُ ينعى مُهْجَتَه ، والمجدُ يَنْدُب بَهْجَتَه ، ومهابط الوَحْىِ والرسالة تحنى ظهورَها أَسفا ، ومآقى الإمامةِ والوصية والرسالة [٢] تذرى دموعها لهفاً ؛ وذلك أن حادثَ قضاءِ الله استأثر بفَرْعِ النبوة ، وعنصر الدين والمروءة .

[رجـع إلى كلام أهل البيت]

ووقع بينَ الحسنِ ومحمد بن الحنفيّة لِحاء ، ومَشَى النـاسُ بينَهما بالنَّمائم ، فـكتب إليه محمدُ بنُ الحنفية : أمَّا بعد فإن أَبى وأَباكَ علىُّ بنُ أبى طالب ؛ لا تفضُلنى فيه ولا أَفضُلك ، وأُمى امرأةٌ من بنى حَنيفة ، وأُمُّك فاطمةُ الزَّهراء بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فلو مُلِئَت الأرضُ بمثل أُمى لـكانت أُمُّك خيراً منها ؛ فإذا قرأتَ كتابى هذا فأَقْدم حتى تترضَّانى ، فإنك أحقُّ بالفضل منى .

وخطب [٣] الحسينُ بنُ على رضوان الله عليهما غداةَ اليوم الذى استُشهِدَ فيه ، من كلام الحسين
فحمدَ الله تعالى وأثنى عليـه ؛ ثم قال : يا عبادَ اللهِ ، اتَّقُوا اللهَ ، وكونوا من الدنيا على حَـذَر ؛ فإنّ الدنيا لو بقِيَتْ على أحد [أو بقى عليها أحد] [٤] لـكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء ، وأوْلَى بالرِّضاء ، [وأرْضَى] [٤] بالقضاء ؛ غيرَ أنَّ الله تعالى خَلَقَ الدنيا للفناء ، فجديدُها بالٍ ، ونعيمُها مُضْمَحِلٌّ ، وسرورُها مُكْفَهِرّ ، والمنزلُ تَلْعة [٥] ،

---

(١) تحيفت الشيء : تنقصته من حافاته . (٢) فى ت : والخلافة بدل : والوصية والرسالة.
(٣) الطبرى ٦ — ١٨٨ ومروج الذهب ٢ — ٨٦ . (٤) الزيادة من ت ومن الطبرى .
(٥) التلعة : مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . وفى ت : بلغة .

والدارُ قُلْعَةٌ(١) ؛ فتزوّدوا فإنّ خيرَ الزادِ التقوى ، واتّقوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُون .

وكان لمعاوية بنِ أبى سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه : إنّ الحسين بنَ على أَعْتق جاريةً له وتزوّجها ؛ فكتب معاويةُ إلى الحسين : مِنْ أَمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علىّ . أمّا بعد ، فإنّه بلغنى أنك تزوجْتَ جاريتَك ، وتركْتَ أَكْفاءَك من قريش ، ممَّنْ تَسْتَنْجِبُه(٢) للولد ، وتمجد به فى الصِّهْر ، فلا لِنفْسك نَظَرْت ، ولا لوَلدِك(٣) انْتَقَيْت .

فكتب إليه الحُسَيْن بن على : أمّا بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وتَعْييرُك إيّاى بأنى تزوّجْتُ مولاتى ، وتركتُ أَكْفَائى مِنْ قُرَيش ، فليس فَوْقَ رسولِ الله مُنْتَهًى فى شَرَف ، ولا غايةٌ فى نسب ؛ وإنما كانت مِلْكَ يمينى ، خرجت عن يدى بأمر التمستُ فيه ثوابَ الله تعالى ؛ ثم ارتجعتُها على سنةِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع اللهُ بالإسلام الخسيسةَ ، ووضع عنّا به النقيصةَ ؛ فلا لَوْمَ على امرئٍ مُسْلم إلاّ فى أَمْرِ مأثم ، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية .

فلما قرأ معاويةُ كتابَه نبذه إلى يزيد فقرأَه وقال : لَشدَّ ما فَخَر عليك الحسين ! قال : لا ، ولكنها ألسنةُ بنى هاشم الحِداد التى تَفْلِقُ الصَّخْر ، وتَغْرِفُ من البحر !

والحسين رضى الله عنه هو القائل :

لعَمْرُك إنّنى لَأُحِبُّ دارًا ... تحُلُّ بها سُكَيْنَةُ والرَّبابُ
أُحِبُّهما وأبْذُل كلَّ مَالِى ... وليس لِلائمٍ عِنْدِى عِتَابُ

سُكينة ابنته ، والرباب أُمّها ، وهى بنت امرئ القيس [بن الجرول](٤) الكلبية .

---

(١) الدنيا دار قلعة : أى انقلاع . (٢) فى ط : تستحسنه . (٣) فى ت : ولاعلى ولدك أبقيت . (٤) ليست فى ت

وفى سُكينة يقول عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى كذباً عليها[١] :

قالت سُكَيْنَة والدموعُ ذَوارِفٌ   تَجْرِى على الخدَّيْنِ والجِلْبَابِ
ليتَ المُغِيرِىَّ الذى لم أَجْزِهِ   فيما أطال تَصَيُّدِى وطِلابِى
كانت تردُّ لنا المُنَى أيامنا   إذ لا نُلَامُ على هوًى وتَصَابِ
خُبِّرْتُ ما قالَتْ فبتُّ كأنما   يُرْمَى الحشى بنوافِذِ النُّشَّابِ
أَسُكَينَ ما ماءُ الفراتِ وطيبُهُ   منى على ظمأٍ وفَقْدِ شرابِ
بألذَّ منكِ وإن نأيتِ وقلَّما   ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّابِ
إنْ تَبْذُلِى لى نائلًا أشْفِى بهِ   داءَ الفؤادِ فقد أطَلْتِ عذابى
وعصيتُ فيكِ أقاربى وتقطعتْ   بينى وبينهمُ عُرَى الأسبابِ
فتركتِنى لا بالوصالِ مُمتَّعاً[٢]   منهم ولا أسْعَفْتِنى بثوابِ
فقعدت كالمُهرِيق فَضْلَةَ مائِهِ   فى حرِّ هاجرةٍ لِلَمْعِ سَرَابِ

وكانت سكينة من أجمل نساء زمانها وأعقلهنّ ، وكان مُصْعب بن الزبير قد جمع بينها وبين عائشة بنت طلحة بن عبد الله ؛ فلما قتل مصعب قالت سكينة[٣] :

فإنْ تَقْتُلوهُ تَقْتُلوا الْمَاجِدَ الذى   يَرَى الموتَ إلّا بالسيوفِ حَرَاما
وَقَبْلَكَ ما خاضَ الحسينُ منيّةً   إلى القومِ حتى أَوْرَدُوه حِمَاما[٤]

وقال على بن الحسين رحمه الله : لو كان النـاسُ يعرفون جُمْلَةَ الحالِ فى فَضْل الاستِبانة وجُمْلةَ الحال فى فضـل التبيين لأعربوا عن كل ما يتلَجْلَجُ فى صدورهم ، ولوجدوا من بَرْدِ اليقين ما يُغنِيهم عن المنازعة إلى كل حالٍ سوى حالِهم . على أنَّ إدراكَ[٥] ذلك كان لا يعدمهم فى الأيامِ القليلةِ العـدّةِ ، والفِكْرَةِ القصيرةِ المدّة ، ولـكنهم من بين مغمورٍ بالجهل ، ومفتونٍ بالعُجْب ، ومعدولٍ بالهـوى عن باب التثبّت ، ومصروفٍ بسوء العادة عن فَضْلِ التعلم .

---

(١) الأغانى ١ ــ ١٦٢ .   (٢) فى ت : ممسكا.   (٣) شاعرات العرب : ١٧١
(٤) فى ت : خصاما .   (٥) فى ت : درك.

وقال رضى الله عنه : المِرَاءُ يُفْسِدُ الصداقةَ القديمة ، ويَحُلّ العقدةَ الوَثيقة ، وأَقلّ ما فيه أن تكونَ به المغالبة ، والمغالبةُ من أَمْتن أسباب القطيعة .

ومن دعائه : اللهم ارْزُقْنى خوفَ الوعيد ، وسرورَ رجاءِ الموعود ، حتى لا أَرْجُو إلا ما رَجّيت ، ولا أخاف [إلا][1] ما خَوّفت .

الفرزدق يمدح على ابن الحسين

وحجّ هشام[2] بن عبد الملك ، أو الوليد[3] أخوه ، فطافَ بالبيتِ وأرادَ استلامَ الحَجَرِ فلم يقدر ، فنُصِب له مِنْبَرٌ فجلس عليه ؛ فبينا هو كذلك إِذْ أَقْبلَ علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى إِزار ورِدَاء ، وكان أحسنَ الناس وَجْهاً ، وأعطرهم رائحة ، وأكثرَهم خشوعاً ، وبين عينيه سَجَّادة ، كأنها رُكْبة عنز[4] ، وطاف بالبيت ، وأتى ليَسْتَلم الحجرَ ، فتنحَّى له الناسُ هيبةً وإجلالا ، فغاظ ذلك هشاما ؛ فقال رجلٌ من أهل الشام : مَن الّذى أكرمه الناسُ هذا الإكرام ، وأعظموه هذا الإعظامَ ؟ فقال هشام : لا أعْرِفه ، لئلا يَعْظُمَ فى صدور أهل الشام ؛ فقال الفرزدق وكان حاضراً[5] :

هذا ابنُ خير عبادِ الله كلّهم ... هذا النقيُّ التقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا الذى تَعرِفُ البَطْحاءُ[6] وطأتهُ ... والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هذا ينتهى الكَرَمُ
يكاد يُمْسِكُه عِرْفانَ راحتِهِ ... رُكْنُ الحطيم إذا ما جاء يستلمُ[7]
فى كفِّهِ خيزران رِيحُهُ عَبِقٌ ... فى كفِّ أروَعَ فى عِرْنينه شَمَمُ[8]

(١) من ت . (٢) الأغانى : ١٤ ــ ٧٥ ، المحاسن والمساوئ : ٢٣١ ، طبع ليبزج .
(٣) فى ت : وأخوه الوليد . (٤) المراد بالسجادة أثر السجود .
(٥) الجزء الرابع من ديوان الحماسة : ١٦٧ . (٦) البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
(٧) الحطيم : حجر الكعبة أو جدارها أو ما بين الركنين وزمزم والمقام .
(٨) أروع : ذكى الروع ، بضم الراء ، وهو الفؤاد . والعرنين : الأنف . والشمم : الارتفاع .

يُغضِي حَياءً ويُغضَى من مَهابتِه … فما يُكلَّمُ إلا حين يَبتَسِم
مُشتقةٌ من رسولِ الله نَبعتُه … طابت عناصِرُه والخِيمُ والشِّيَمُ(١)
يُنمَى إلى ذِرْوة العزّ التي قصُرت … عن نَيْلِها عَرَبُ الإسلامِ والعجَمُ(٢)
يَنْجابُ نورُ الهدى عن نورِ غُرّتِه … كالشمس يَنْجابُ عن إشراقِها القَتَمُ(٣)
حمَّالُ أثقال أقْوام إذا افترحوا … حُلو الشمائل تَحْلُو عنده نَعَمُ
هـذا ابنُ فاطمة إن كنتَ جاهِلَهُ … بجـدّه أنبياء الله قد خُتِموا
اللهُ فضّـلهُ قِدْماً وشرّفَهُ … جرى بذاك له فى لَوْحِهِ القَـلَمُ
مَنْ جدُّهُ دانَ فَضْلُ الأنبياء لهُ … وفَضْـلُ أُمته دانَتْ له الأُمَمُ
عمَّ البريةَ بالإحسان فانقشعتْ … عنهـا الغيابةُ والإملاقُ والظُّـلَمُ
كِلْتا يديه غِياثٌ عَمَّ نفعُهُما … تَسْتَوكِفانِ ولا يَعْرُوهما العُدُمُ(٤)
سَهْلُ الخليقـة لا تُخْشَى بوادِرُهُ … تَزينـه الإثنتان الحِلْمُ والـكَرَمُ
لا يُخلِفُ الوَعْدَ ميمونٌ بغرّته … رَحْبُ الفناء أَرِيبٌ حين يعتزم(٥)
ما قال لا قَطُّ إلا فى تَشَهُّدِه … لولا التشهُّد كانت لاءَه نَعَمُ
مِنْ مَعْشَر حبُّهم دِينٌ وبغضهم … كُفرٌ وقُرْبُهُم مَنْجًى ومُعْتَصَمُ
يُسْتَدْفَعُ السـوءُ والبَلْوى بحبهمُ … ويستربُّ به الإحسانُ والنِّعَمُ(٦)
مقـدَّمٌ بعد ذِكْرِ الله ذكرهُمُ … فى كل بَدْءٍ ومختـومٌ به الكَلِمُ
إن عُدَّ أهلُ التقَى كانوا أئمتَهمْ … أو قيلَ مَنْ خيرُ أَهْلِ الأرضِ قيل هُمُ
لا يستطيعُ جَوادٌ بُعْدَ غايتِهم … ولا يُدانيهم قومٌ وإنْ كرُموا
همُ الغيوثُ إذا ما أَزْمةٌ أَزَمَتْ … والأُسْدُ أُسْدُ الشَّرى والبأسُ مُحْتَدِمُ
يَأْبَى لهم أَنَّ يَحلّ الذَّمُّ ساحتَهم … خِيمٌ كريمٌ وأيدٍ بالنَّدَى هُضُمُ(٧)

---

(١) الخيم : الأصل . (٢) من هذا البيت إلى آخر القصيدة ليس فى ت .

(٣) القتم والقتام : الغبار . (٤) العدم : الفقر .

(٥) الأريب : وافر العقل . (٦) يسترب : يصلح . (٧) هضم : كثيرة العطاء .

لا ينقصُ العسرُ بَسْطاً من أكفهمُ ... سِيّان ذلك إنْ أثْرَوْا وإن عدموا
أيّ الخلائق لَيْسَتْ فى رِقَابِهم ... لأوليَّة هــذا أو له نِعم
مَنْ يَعْرف اللهَ يَعْرِف أوليَّته ... فالدينُ من بيت هـذا ناله الأُمم
وليس قولك مَنْ هـذا بضائرِه ... العُرْبُ تَعْرِف من أنْكَرْتَ والعَجَمُ

وقد روى أن الحزين الكنانى وَفَد على عبد الله بن عبد الملك بن مروان وهو أميرٌ على مصر فأنشده قصيدة منها [1] :

لمّا وقفتُ عليه فى الجُموع ضُحًى ... وقد تعرَّضت الحُجَّابُ والخـدم
حيّيته بسلامٍ وهو مُرْتَفِقٌ [2] ... وضَجَّةُ القومِ عند الباب تَزْدَحِمُ

فى كفه خيزران ... ... ـ والبيت الذى يليه .

ويقال : إنها لداود بن سلم فى قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وهو الذى يقول فيه الأخطل [3] :

ولقد غدوت على التِّجار بِسَمْحٍ ... هَرَّت عَوَاذِلُه هَرِيرَ الأَكْلُبِ [4]
لَذٍّ يُقَبِّله [5] النعيم كأنما ... مُسِحَتْ تَرَائِبُه بماء مُذْهَبِ
لبّاسِ أرْدِيةِ الملوكِ تَرُوقُهُ ... من كل مُرْتَقَب عُيونُ الرَّبْرَبِ [6]
يَنْظُرْنَ من خَلَلِ السُّتُور إذا بَدَا ... نظرَ الهجان إلى الفَنِيق المُصْعَبِ [7]

ويقال : بل قالها فى على بن الحسين، اللعين المنقرى [8]، وسمى اللعين ؛ لأن عمر سمعه يُنْشد شعراً والناس يصلون ، فقال : مَنْ هذا اللعين ؟ فعلق به هذا الاسم ولْيَقُلْه مَنْ شاء ، فقد أحسن ما شاد وأجاد وزاد .

---

(١) ارجع إلى الشعراء : ٩ ، والأغانى : ١٤ ـ ٧٤ ، والحماسة : ٤ ـ ١٦٧ .
(٢) مرتفق : متكئ على مرفقه . (٣) الشعراء : ٤٧٠ . (٤) هرت : صاحت .
(٥) فى ط : لدن تقبله . (٦) الربرب : الظباء ، والمراد بها النساء .
(٧) الهجان : البيض ، والمصعب : الجمل لا يركب ، والفنيق : كذلك . وفى ط : الفتيق .
(٨) فى ط : الشنفرى .

استطراد فيما قيل فى الهيبة

وقال ذو الرمة فى بلال ابن أبى بردة بن أبى موسى الأَشْعَرِى [١] :

مِنَ آلِ أبى موسى تَرَى الناسَ حَوْلَهُ ... كأنهم الكِرْوَان عَايَنَّ بازِيا [٢]

فما يعرفون الضِّحْكَ إلاّ تَبَسُّماً ... ولا ينبسون [٣] القوْلَ إلاّ تَنَاجيا

وما الفُحْشُ منه يرهبون ولا الخَنَا ... عليه ولكِنْ هَيْبَةٌ هِىَ مَاهِيَا

فَتى السِّنِّ ، كَهْلُ الحِلْمِ ، يُسْمَعُ قولُهُ ... يُوازِنُ أدناهُ الجبال الرَّوَاسِيا

للبحترى فى الفتح

ومن أجود ما للمحدَثين فى ذلك قول أبى عبادة البحترى فى الفتح بن خاقان [٤] :

ولما حضرنا سُدَّةَ الإذنِ أُخِّرَتْ ... رجالٌ عن الباب الذى أنَا دَاخِلُهُ

فأفضيتُ من قُرْبٍ إلى ذى مَهَابةٍ ... أقابِلُ بدر التِّم [٥] حين أقابلُهُ

بَدَا لىَ محمودَ السجيَّةِ شُمِّرَت ... سَرَابيلُهُ عنهُ وطالت حَمَائِلُهْ

كما انتصب الرُّمْحُ الرُّدَيْنِىُّ ثُقِّفَتْ ... أنابيبُهُ واهتزَّ للطعن [٦] عامِلُهْ

وكالبدر وافَتْه لتِمٍّ سُعوده ... وتمَّ سناه واستهلت منازِلُه

فسلَّمتُ فاعتاقَتْ جَنَانِىَ هَيْبَةٌ ... تُنَازِعنى القولَ الذى أنا قائلُهْ

إلى مُشْرِفٍ فى الجود لو أنَّ حاتماً ... لَدَيْهِ لأضْحَى حاتِمٌ وهو عاذِلُهْ

فلما تأمَّلتُ الطَّلاقَةَ وانثَنَى ... إلىَّ بِبِشْرٍ آنستنى مَخَايِلُهْ

دَنَوْتُ فقبَّلتُ النَّدَى من يَدِ امرئٍ ... جميلٍ مُحيّاهُ سِبَاطٍ أناملُهْ

صَفَتْ مِثْلَ ماتصفو المدامُ خِلالُهُ ... ورقَّتْ كما رقَّ النَّسيمُ شَمائِلُهُ

ووقعت حرب بالجزيرة بين بنى تَغْلِب فتولى الإصلاح بينهم الفتحُ بن خاقان ، فقال البحترى فيما تعلّق بعضه بذكر الهيبة [٧] :

---

(١) ديوانه : ٩٣ . وفى ت : واسم أبى موسى عبد الله بن قيس وذكر جلساء بلال .

(٢) فى الديوان : أبصرن ، والبازى : الصقر . (٣) ينبسون : ينطقون .

(٤) ديوانه : ٢ ــ ١٦٣ . (٥) فى الديوان : الأفق .

(٦) فى الديوان : للطعن واهتز . (٧) ديوانه : ٢ ــ ١٦٤ ، يمدح ويذكر حرب ربيعة وعفو المتوكل عنهم .

بنى تَغْلِبٍ أعْزِزْ علىَّ بأَنْ أرى ... ديارَكمُ أمْسَتْ وليس لها أهْلُ
خلَتْ دِمْنة[١] من ساكِنيها وأَوْحشَتْ ... مرابعُ من سنجار يَهْمى بها الوَبْلُ[٢]
إذا ما الْتقَوْا يومَ الهيَاج تحاجزُوا ... وللموتِ فيما بينهم قِسْمَةٌ عَدْلُ
كَفِىٌّ من الأحياء لاقَى كَفِيَّهُ ... ومِثْلٌ من الأقوام راجَعَهُ[٣] مِثْلُ
إذا ما أخٌ جرَّ الرماحَ انتهى[٤] لهُ ... أخٌ لا بليدٌ فى الطِّعان ولا وَغْلُ[٥]
تحوطُهم[٦] البيضُ الرِّقاقُ ، وضُمَّرٌ ... عِتاقٌ ، وأَنسابٌ[٧] بها يدركُ التَّبْلُ[٨]
بطَعْنٍ يكبُّ الدَّارِعين دِرَاكُهُ ... وضَرْبٍ كما تَرْغُو المخزَّمةُ البُزْلُ[٩]
تَجَافَى أميرُ المؤمنين عَنِ التى ... علمتم ، وللجَانِينَ فى مِثْلِها الثُّكل
وكانت يدُ الفتح بن خاقان عندكم ... يدَ الغَيْثِ عندَ الأرْضِ أجدبها[١٠] المَحْلُ
ولولاهُ طُلَّتْ بالعُقُوق دِمَاؤكم ... فلا قَوَدٌ يُعْطَى الأذلُّ ولا عَقْلُ[١١]
تلافَيْتَ يا فَتْحُ الأراقمَ بعد ما ... سقَاهم بِأَوْحَى سُمِّهِ الأرْقَمُ الصِّلُّ[١٢]
وهَبْتَ لهم بالسِّلْم باقى نفوسهم ... وقد أشرَفُوا[١٣] أَنْ يستتمَّهم القتلُ
أتاك[١٤] وفودُ الشكْرِ يَثْنُون بالَّذى ... تقدَّم مِنْ نُعماكَ عندهم قَبْلُ
فلم أرَ يَوْماً كان أكثر سُودداً ... من اليوم ضَمَّتْهم إلى بابك السُّبْلُ

---

(١) فى الديوان : خلت بلد . (٢) سنجار : مدينة فى نواحى الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، والوبل : المطر الشديد ، ويهمى : ينسكب . وفى ت : سيحان .
(٣) فى الديوان : زاحفه ، وفى ت : زاحمه . (٤) فى الديوان ، وفى ت : انبرى له .
(٥) الوغل : الضعيف النذل . (٦) فى الديوان : تخصهم .
(٧) فى الديوان : وأحساب . (٨) البيض الرقاق : السيوف المرهفة ، والضمر العتاق : الخيول الضامرة الكريمة ، والتبل : الثأر . (٩) الدارعون : لابسو الدروع ، ودراكه : تتابعه ، وترغو : تصيح ، والمخزمة : التى وضع فى شدقها الخزام ، والبزل : جمع بازل ، وهو البعير يبلغ تسع سنين . (١٠) فى الديوان : حرقها . (١١) طلت : هدرت ، والعقل : الدية . (١٢) أوحى : أسرع . والأرقم الصل : الحية التى لا تنفع فيها الرقى .
(١٣) فى الديوان : وقد شارفوا . (١٤) فى الديوان : أتوك .

تراءوْكَ مِنْ أَقصى السِّمَاطِ فقصَّروا ... خُطاهم، وقد جازُوا السُّتُورَ وهم عُجْلُ
ولمَّا قضَوْا صَدْرَ السلام تهافتُوا ... على يَدِ بَسَّامٍ سجيَّتُه البَذلُ[1]
إذا شرَعُوا فى خُطْبَةٍ قطعتهمُ ... جلالةُ طَلْقِ الوَجْهِ جانبُه سَهْلُ
إذا نكسوا أَبْصَارهُمْ من مَهَابَةٍ ... ومالوا بلَحْظٍ خِلْتَ أنهُمُ قُبْلُ[2]
نصبتَ لهم طَرْفاً حديداً ، ومَنْطِقاً ... سديداً ، ورَأْياً مثل ما انتُضِىَ النَّصْلُ
وسَلَّتْ سخيماتِ الصدور فعالُكَ الـ ... ـكريم ، وأَبْرَا غِلَّها قولُك الفَصْلُ
بك الْتَأَم الشَّعْبُ الذى كان بَيْنَهم ... على حين بُعْدٍ منه واجتمع الشَّمْلُ
فما بَرِحوا حتى تعاطَتْ أَكُفُّهُم ... قِرَاكَ فلا ضِغْنٌ لديهم ولا ذَحْلُ
وجَرُّوا ذيولَ[3] العصب تَضْفُو ذيولُها ... عطاء كريمٍ[4] ما تَكاءَدَه بُخْلُ[5]
وما عمَّهم عمرو بن غنم بنِسْبَةٍ ... كما عمَّهم بالأَمْسِ نائِلُكَ الجزل
فمهما رَأَوْا من غبطة فى اصطلاحهم[6] ... فمنك بها النُّعمى جَرَتْ ولَكَ الْفَضْلُ

عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط .

عاقبة الحرب للبحترى

وللطائيين [أبا تمام والبحترى][7] فى ذلك أشعارٌ كثيرةٌ مختارة ، منها قول البحترى يحذِّر عاقبة الحرب[8] :

أمَا لربيعـةَ الفَرَس انتهاء ... عن الزلزال فيها والحُروبِ[9]
وكانوا وقَّعُوا[10] أيامَ سِلْمٍ ... على تلك الضغَائنِ[11] والندُوب[12]
إذَا ما الجرْحُ رُمَّ على فسادٍ ... تبيَّنَ فيـه تَفْرِيطُ الطبيبِ

(١) فى الديوان : رسل . (٢) قبل : جمع أقبل ، وهو الذى ينظر بانحراف كأنما ينظر إلى أنفه . (٣) فى الديوان : برود . (٤) فى الديوان : جواد .
(٥) فى الديوان : البخل . وتكاءده : منعه . (٦) فى الديوان : صلاحهم .
(٧) من ت . (٨) ديوانه : ١ — ٨٤ . (٩) ربيعة الفرس : أبو قبيلة .
(١٠) فى الديوان ، وفى ت : رقعوا . (١١) فى الديوان : القوارح .
(١٢) الندوب : آثار الجروح على الجلد .

رَزِيّةُ هالكٍ جلبَتْ رَزايا ... وخَطْبٌ باتَ يَكْشِفُ عن خطُوبِ
يُشَقّ الجَيْبُ ثم يجئ أمرٌ ... يُصغّرُ فيـه تشقيقُ الجُيوبِ
وقبرٍ عن أيَامنِ برقعيد(١) ... إذا هي ناحرت(٢) أُفقَ الجَنُوبِ
يسحُّ ترابُهُ أبداً عليهـا ... عِهاداً من مُراقِ دَمٍ صَبيبِ
فهل لِا بْنَىْ عَدِىٍّ من رشيدٍ ... يَرُدُّ شريد حلمِهما العزيبِ(٣)
أخافُ عليهما إمرارَ مَرْعًى ... من الـكلإ الذى عُقبـاه تُوبى(٤)
وأعـلمُ أنْ حَربَهُمَا خَبالٌ ... على الدّاعى إليها والمُجيبِ
لعـــلّ أبا المعمّر يَتّلِيهَا ... ببُعْدِ الهمِّ والصَّدْرِ الرَّحيبِ(٥)
فـكم من سُؤدُدٍ قد باتَ يُعْطِى ... عطيةَ مُكثرٍ فيهـــا مُطيبِ
أهيثم(٦) يا بنَ عبـدِ الله دعوى ... مشيرٍ(٧) بالنصيحة أو مُهيبِ
تناسَ ذنوبَ قومك إنَّ حفظ الذ ... نوب إذا قَدمْنَ من الذّنوب
فَللسَّهْمُ السديد أحبُّ غِبًّا ... إلى الرامى من السهم المُصيبِ
متى أحرزتَ نَصْرَ بنى عبيـدٍ ... إلى إخلاص وُدِّ بنى حبيب
فقـد أصبحت أغلبَ(٨) تغلبيٍّ ... على أيدى العشيرة والقـلوبِ

يناسب قولُه : * إذا ما الجرح رمَّ على فَسادٍ * قول أبى الطيب المتنبى لعلىّ ابن إبراهيم التنوخى أحد بنى القصيص(٩) :

فلا تَغرُرْكَ ألسِنَةٌ مَوالٍ ... تقلّبهن أفئدةٌ أعادى
وكُنْ كالموت لا يرْثِى لباكٍ ... بكى منه ويرْوى(١٠) وهو صادِ
فإنّ الجُرْحَ ينفِر(١١) بعدحينٍ ... إذا كانَ البِناَء على فَسادِ

---

(١) برقعيد : بلدة قرب الموصل . (٢) فى ت : نازحت ، وفى ط : فاخرت .
(٣) فى ط . حملهما الغريب . (٤) فى الديوان : الذى علفاه موب . وتوبى : تهلك ، وفى ت : عقباه موب . (٥) فى الديوان : والبلد الرحيب ، ويتليها : يتبعها . (٦) فى ت : أهنثم . (٧) فى الديوان : مشيد . (٨) فى ت : تغلب . (٩) ديوانه : ٢ — ٣٦٣ .
(١٠) فى الديوان : ليروى . (١١) جرح نغار : يسيل منه الدم .

وفى هذه القصيدة[١] :

كأنَّ الهامَ فى الهَيْجَا عُيُونٌ وقد طُبِعَتْ سيُوفُك مِنْ رُقَادِ
وقد صُغْتَ الأسنَّةَ من هُمُومٍ فما يخطُرْنَ إلاَّ فِى فؤَادِ

كأنّ البيت الأول من هذين ينظر إلى قول مسلم بن الوليد من طرف خفىّ :

ولو أن قَوْماً يَخْلقون مَنيّةً من بأْسهم كانوا بَنِى جبريلا
قومٌ إذا احْمَرَّ الهجيرُ من الوَغَى جعَلُوا الجماجمَ للسيوفِ مَقِيلا

وإنما أخذه [أبو الطيب][٢] من قول منصور النميرى[٣] وذكر سيفاً :

ذَكَرٌ[٤] برَوْنَقِه الدِّماء كأنما يَعْلُو الرجالَ بأرجُوانٍ نَاقِعِ[٥]
وترى مَسَاقِطَ شَفْرَتَيْه كأنَّها مِلْحٌ تبَدَّدَ من وراءِ الدَّارِعِ
وتراه مُعْتَمًّا إذا جرَّدْتَهُ بدم الرجالِ على الأديم الفاقعِ
وكأنَّ وقعتَهُ[٦] بجُمْجُمَةِ الفَتَى خَدَرُ[٧] المُدَامة أو نُعاسُ الهاجعِ

أردت هـذا البيت ، وقول النميرى : * وتراه مُعْتَمًّا إذا جردته * يُشير إليه قول أبى الطيب ، وذكر سيفاً[٨] :

يَبِسَ النَّجِيعُ[٩] عليهِفهْوَ مجرَّدٌ مِنْ غِمْدِهِ وكأنما هُوَ مُغْمَدُ
رَيَّان لوقَذَفَ الذِى أسقَيْتَه لَجَرَى مِنَ المهَجَاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

وبنو عبيد ، وبنو حبيب ، اللذان ذكرهما البحترى هم بنو عبيد بن الحارث بن بكربن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب[١٠] ، وحبيب بن الهجرس بن تيم بن سعد بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وفيهم حبيب بن حرقة بن تغلب بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم ، فلا أدرى أيهما أراد !

---

(١) ديوانه : ١ ــ ٣٦٠ . (٢) من ت . (٣) فى ت : اليمنى .
(٤) سيف قاطع . (٥) فى ط : فاقع . (٦) فى التبيان : ١ــ ٣٦٠ : موقعه .
(٧) فى التبيان : سكر ، وفى ت : خدر المنية . (٨) ديوانه ١ ــ ٣٣٧ .
(٩) النجيع : دم الجوف . (١٠) فى ت : بن تيم بن سعد بن جشم بن بكر الخ .

وقال البحترى (١) :

أسيت لأَخْوَالِى ربيعةَ أنْ عَفَتْ ... مَصَانِعُها منها وأقْوَتْ ربُوعُها (٢)

بِكُرْهِىَ أَنْ باتَتْ خَلاءً دِيارُها ... ووَحْشًا مَغَانِيهاَ وشتَّى جميعُها

إذا افترقُوا من وَقْعَةٍ جمعتهُمُ ... دِماءٌ لأُخْرَى ما يُطل نَجِيعُها

تذمُّ الفتاةُ الرُّودُ (٣) شيمةَ بَعْلِهاَ ... إذا باتَ دون الثَّأْرِ وهو ضَجِيعُها

حَمِيَّةُ شَعْبٍ جاهلىّ وعِزَّة ... كلابية (٤) أعْيَا الرجالَ خُضُوعُها

وفرسان هيجاءٍ تَجِيشُ صدورُهم ... بأَحْقَادِها حتى تَضِيقَ دُرُوعُها

تُقَتِّلُ من وِتْرٍ أعزَّ نفوسِها ... عليها بأَيْدٍ ما تكادُ تُطِيعُها

إذا احْتَرَبَتْ يوماً ففاضت دِماؤُها ... تذكَّرَتِ القُرْبَى ففاضت دموعُها

شواجِرُ أَرْماحٍ تقطِّع بينها ... شواجر أَرْحَامٍ مَلومٌ قَطوعُها

فكنتَ أمينَ الله مَوْلَى حياتِها ... ومولاكَ فَتْحٌ يوم ذاكَ شَفِيعُها

وقال أبو تمام الطائى (٥) : ولأبى تمام

مَهْلًا بَنِى مَالِك لا تجلُبنّ إِلَى ... حىٍّ الأَراقِمِ دُؤْلولَ ابنة الرقَمِ (٦)

لم يَأْلُكُمْ مَالكٌ صَفْحًا ومغفِرَةً ... لو كان ينفخُ قَيْنُ الحىِّ فى فَحَمٍ

أَخْرَجتموه بِكُرْهٍ من سَجِيَّتِهِ ... والنار قد تُنْتَضَى من ناضِرِ السلَمَ (٧)

أو طأْطأْتموهُ على جَمْرِ العقوقِ ولو ... لم يُحْرَج الليثُ لم يخرج من الأَجَمِ

لولا مناشدةُ القُرْبَى لغادَرَكم ... حصائدَ المرهَفَيْنِ السيفِ والقلم

لا تجعلوا البَغْىَ ظَهْراً إنهُ جَمَلٌ ... من القطيعة يَرْعَى وادىَ النِّقَمِ

---

(١) ديوانه : ٢ — ٣١٧ . (٢) فى الديوان : مصايفها ، وأقوت : خلت .

(٣) الرود : الجميلة . (٤) فى الديوان : كليبية .

(٥) ديوانه : ٢٦٩ . (٦) فى الديوان : دؤلون ، وقال شارحه : الدؤلول والرقم من أسماء الداهية . (٧) السلم : شجر .

وقال أيضاً[١] :

مهلاً بنى عمرو بن غُنْمٍ[٢] إنكم هدَفُ الأَسِنَّةِ والقَنَا تتحطَّم
ما منكمُ إلا مردًّى بالحجى أو مُبْشَرٌ بالأحوذيَّةِ مُؤدَمُ
عمرُو بنُ كلثوم بن مالك بن عتَّاب بنِ سعدٍ سهمكم لا يُسهمُ
خُلِقت ربيعةُ من لَدُنْ[٣] خُلِقت يدا جُشَم بنِ بكرٍ كفُّها والمِعصمُ
تغزو فتغلب تغلبٌ مثل اسمها وتسيح غنمٌ فى البلاد فتغنمُ
وستذكرون غداً صنائعَ مالكٍ إنْ جَلَّ خطبٌ أو تُدُوفِعَ مغرمُ
مالى رأيتُ ثراكُمُ يَبسالَه[٤] مَالِى أَرَى أطْوَادَكم تتهدَّمُ
ما هذهِ القُرْبَى التى لا تُصطفى[٥] ما هذه الرحِمُ التى لا تُرْحَم
حَسَدُ القرابة للقرابة[٦] قرحةٌ أعْيَت عَوَائدها[٧] وجرح أقدمُ
تلكم قريشٌ لم تكن آباؤها[٨] تَهْفُو ولا أحْلامها تتقسَّم
حتى إذا بُعِثَ النبيُّ محمدٌ فيهم غَدت شَحْنَاؤُهم تتضرَّم
عَزبت عقولهمُ وما مِنْ مَعْشَرٍ إلاَّ وهم منه[٩] ألبُّ وأحْزمُ
لما أقام الوحىُ بين ظهورهم ورأوا رسولَ الله أَحْمَدَ منهمُ
ومن الحزامةِ لو تكون حَزَامةٌ[١٠] الاّ تؤخّرَ مَنْ بهِ تتقدَّمُ

ومالك هو ابن طوق بن مالك[١١] بن عتاب بن زفر[١٢] بن مرة بن شريح

---

(١) ديوانه : ٢٧٣ . (٢) فى الديوان: مهلا بنى غنم بن ثعلب . (٣) فى الديوان : مذ لدن . (٤) فى ط : بيسالة ، وهذا من الديوان و ت . (٥) فى الديوان : لا تتقى .
(٦) فى الديوان : حسد العشيرة للعشيرة . (٧) فى الديوان : تلدت وسائلها .
(٨) فى الديوان : آراؤها ، وفى ت : أقدامها . (٩) فى ط : وهم منهم .
(١٠) فى الديوان : ومن الحزامة أيها النطف . والحزامة : الحزم .
(١١) ليست فى ت . (١٢) فى ت : بن فزارة وفى ق : زافر .

ابن عبدالله بن عمرو بن كلثوم بن مالك [بن عتاب](١) بن سعد بن [زهير بن](١) جشم بن بكر [بن وائل](١) بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وفيه يقول دعبل يهجوه :

الناسُ كلُّهُم يَغْدُو لحاجتِهِ ... من بين ذى فَرَحٍ منها ومَهْمُومِ
ومالكٌ ظل مشغولا بنسبتِهِ ... يَرُمُّ(٢) منها بناءً غير مَرْمُومِ
يبنى بيوتا خرابا لا أنيس بها ... ما بين عمرو إلى طوق ابن كلثوم(٣)

والتكثير من المعنى المُعْتَرَض يزيح عن ثُغرة الغرض ، لكنى أُجرِى منه إلى حلبة الإجادة ، وأَقْصِد قصدَ الإفادة ، ثم أعود حيثُ أُريد .

وقال ابن الخياط(٤) المكى واسمه عبد الله بن سالم فى باب الهيبة فى مالك بن أنس الفقيه رحمة الله عليه وقيل : إن هذا من قول ابن المبارك : لابن الخياط فى الهيبة

يَأْبَى الجوابَ فما يُراجَعُ هَيْبَةً ... والسائلون نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ
أَدَبُ الوقار وعِزُّ سلطانِ التّقى ... فهو المهيب وليس ذَا سُلْطَانِ

* * *

وقول الفرزدق : * يكادُ يمسكه عرفان راحته(٥) * قد تجاذبه جماعةٌ من الشعراء ؛ فى معنى قول الفرزدق

قال أشجع بن عمرو السلمى لجعفر البرمكى :

حبَّذَا أنت قادماً ترد الشـا ... م فتختال بين أرحُل عيرِكْ(٦)
إن أرضاً تسرى إليها لو اسْطَا ... عت لسارت إليك من قبل سيْرِكْ

وإليه أشار أبو تمام الطائى فى قوله(٧) :

دِيمةٌ سَمْحَةُ القِيـادِ سكوبُ ... مُستغيثٌ بها الثَّرَى المكروبُ
لو سعَتْ بقعةٌ لإعظامِ نُعْمَى ... لسَعَى نحوها المكانُ الجديبُ

(١) من ت ، ق . (٢) يرم : يصلح ، وفى ت : يؤم . (٣) ليس فى ت
(٤) فى ت : الخياط . (٥) صفحة . (٦) فى ط : غيرك ، وفى ق : أرجل غيرك .
(٧) ديوانه : ٥٧ .

وفى هذه القصيدة فى وصف الديمة ومدح محمد بن عبد الملك الزيات :

لَذَّ شُؤْبوبُها وطابَ فلو تسـ طيعُ قامت فعانقتها القـلوبُ
فهو[1] ماءٌ يجرى وماءٌ يَليه وعزال[2] تنشا وأُخرى تصُوب[3]
أيُّهـــا الغيثُ حيِّ أهلًا بمغدا ك وعندَ السُّرى وحين تَؤُوبُ
لأَبى جَعْفَرٍ خــــلائق تحـ كيهنَّ قد يشبه النجيبَ النَّجِيبُ

وأَنشدها أبا جعفر بن الزيات ، فقال : يا أبا تمام ؛ والله إنك لتحلِّى شِعْرَك من جواهر لَفْظِك وبَدَائِع مَعَانيك مايزيد حُسناً على بهىّ الجواهر فى أجياد الكواعب؛ وما يُدَّخَرُ لك شىءٌ من جزيل المكافأة إلا يَقْصُر عن شِعْرِك فى الموازنة[4] . وكان بحضرته رجلٌ من الفلاسفة فقال : هذا الفتى يموتُ شابا! فقيل له : مِنْ أينَ حكَمْتَ عليه بهذا ؟ فقال : رأيتُ فيه من الحِدَّة والذكاء والفِطْنَة مع لطافة الحِسّ ما علمتُ به أن النفسَ الروحانية تأكلُ عمره كما يأكلُ السيف المهنَّد غِمده ! قال الصولى : مات وقد نَيَّف على الثلاثين .

وقال فى أبى دلف العجلى القاسم بن محمد بن عيسى[5] :

تَكادُ عطَايَاهُ يُجَنُّ جُنونُها إِذَا لَمْ يُعَوِّذْهَا بنَغْمَةِ طَالِبِ
تكادُ مَغَانِيه تهشُّ عِراصُها فتركبُ من شَوْقٍ إلى كُلِّ رَاكِبِ

وقال البحترى[6] :

لو أنَّ مشتاقاً تكلَّفَ فوق ما[7] فى وُسْعِه لمشى إليكَ المِنْبَرُ

وقال أبو الطيب المتنبى لبدر بن عمار[8] :

طَرِبَتْ مَرَا كِبُنَا فخِلْنَا أَنَّهَا لولا حَيَاءٌ عَاقَهَا رقَصَتْ بِنَا
لو تَعْقِلُ الشَّجَرُ التى قابَلْتَهَا مَدَّتْ محيِّيَةً إِلَيْكَ الأَغْصُنَا

(١) فى الديوان ، وفى ت : فهى . (٢) عزال : جمع عزلاء وأصله مصب الماء من الراوية، والمراد بها السحابة . (٣)تصوب : تنسكب . فى الديوان : تذوب (٤) فى ت،ق : فى الموازاة .
(٥) ديوانه : ٤١ . (٦) ديوانه : ٢١٢ . (٧) وفى الديوان : فلو.. غير ما .
(٨) ديوانه : ٣-٢٠٣ .

رَجع ما انقطع

من كلام محمد ابن على

قال أعرابى لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين رضى الله عنه : هل رأيت الله حين عَبَدْتَه ؟ فقال : لم أَكُنْ لأَعْبد مَنْ لم أَره. قال: فكيف رأيته ؟ قال : لم تره الأَبصارُ بمشاهدة العِيان ، ورَأَتْهُ القلوبُ بحقائق الإيمان ، لا يُدْرَكُ بالحواسّ ، ولا يُشبَّه بالناس ، معروفٌ بالآيات ، منعوتٌ بالعلاماتِ ، لايجورُ فى القضيّات ، ذلك اللهُ الذى لا إله إلا هو . فقال الأعرابى : الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالته .

قال الجاحظ : قال محمد بن على: صلاحُ شأنِ الدنيا بحذافيرها فى كلمتين؛ لأنَّ صلاحَ شأن جميع الناس [فى التعايش و] [1] التعاشر وهو مِلء مِكْيَال : ثلثاه فِطْنَة وثلثه تَغَافل .

قال الجاحظ : لم يجعل لغير الفِطْنَةِ نصيباً من الخير ، ولا حظاً من الصلاح ؛ لأن الإنسان لا يتغافلُ عن شىء إلا وقد عرفه وفَطِن له ، قال الطائى [2] :

ليس الغبىُّ بسيِّدٍ فى قَوْمِهِ　　لـكنَّ سيدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِى

وقال ابن الرومى لأبى محمد بن وهب [3] بن عبيد الله بن سليمان [4] :

تظلّ إذا نامت عيونُ ذوى العمى　　وإن حدّدوا زُرقاً إليك جواحظا

تَغاضى [5] لهم وَسْنَانَ بل متواسِنا　　وتوقظهم يقظان بل متياقظا

كلام زيد ابن على

[وأبو جعفر هذا هو الباقر [6]] ، وكان أخوه زيد بن على رضى الله عنه ديِّنا شجاعا ناسكا من أَحْسَنِ بنى هاشم عبارة ، وأَجملهم إشارة .

وكانت ملوك بنى أمية تكتُب إلى صاحب العراق أَنِ امنعْ أهلَ الـكوفة من حضور زيد بن على ، فإنّ له لسانا أَقطَـع من ظُبَةِ السيف وأَحَدّ من شَبَا الأسِنة ، وأَبلغ من السحر والـكهانَة ؛ ومن كل نفث فى عُقْدَة [7] .

(١) من ت .　(٢) ديوانه : ٢٠ ، المختار من شعر بشار : ١٣٠ .
(٣) فى ت : لأبى محمد بن عبيد الله بن سليمان بن وهب .　(٤) ليسا فى الديوان الذى بين أيدينا .　(٥) تتغاضى .　(٦) من ت .　(٧) النفث : النفخ. والنفاثات فى العقد: السواحر.

وقيل لزيد بن على : الصمتُ خيرٌ أم الكلام ؟ فقال : قبّح الله المساكتة ، ما أفسدها للبيان وأجلبها للعِيِّ والحَصَر ! والله للمُمارَاة أسرع فى هَدْمِ[1] الفتى من النار فى يَبَس العرفَج ، ومن السيل إلى الحدور[2] .

وقال له هشام بن عبد الملك : بلغنى أنَّك ترومُ الخلافة وأنت لا تصلُحُ لها لأنك ابنُ أمَة ؟ قال زيد : فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن أَمة ، وإسحاق بن حُرَّة ؛ فأخرج الله من صُلب إسماعيل خيرَ ولد آدم ! فقال له : قم ! فقال : إذاً والله لا ترانى إلاّ حيثُ تكْرَه ! فلما خرج من الدار قال : ما أحبَّ أحدٌ الحياةَ قط إلاّ ذلَّ . فقال له سالم مولى هشام : لا يسمعنَّ هذا الكلام منك أحدٌ . وكان زيد كثيراً ما ينشد :

شرّده الخوفُ وأزْرَى بهِ ... كذاك من يكْرَهُ حرَّ الجِلَادْ[3]
منخرق الخفَّين يشكو الوجَى[4] ... تنكُبُهُ أطرافُ مَرْوٍ حِدَادْ[5]
قد كان فى الموت له رَاحَةٌ ... والموتُ حَتْمٌ فى رقاب العباد

وقد رُوِيت هذه الأبيات لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ، وقد رُوِيت لأخيه موسى .

قال عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد : حدثنى رجل من بنى هاشم قال : كنا عند محمد ابن على بن الحسين وأخوه زيد جالس فدخل رجلٌ من أهل الكوفة فقال له محمد بن على : إنك لترْوِى طرائفَ من نوادر الشعر ، فكيف قال الأنصارى لأخيه ؟ فأنشده[6] :

لَعمْرُكَ ما إنْ أبو مالكٍ ... بِوَانٍ ولا بضَعيفٍ قُوَاهُ

---

(١) فى ت : من هذا . (٢) كان ينحدر منه . (٣) الجلاد : الحرب .
(٤) الوجى : الحفا أو أشد منه . (٥) المرو : حجارة بيض براقة تورى النار أو أصل الحجارة ، ونكبه : نحاه . (٦) المختار من شعر بشار : ١٨٨ ، الخزانة : ٢ ـ ١٣٥ ، ونسب الشعر فيه للمتنخل الهذلى .

ولا بألدَّ لهُ نَازِعٌ يُعَادِى أَخَاه إذا ما نَهَاهُ
ولكنه غـيرُ مِخلافةٍ كريم الطبائع حلو ثناهْ(١)
وإن(٢) سُدْتَه سدتَ مِطوَاعةً ومهما وكَلْتَ إليه كَفاه

فوضع محمد يده على كَتِفِ زيد ، فقال : هذه صِفَتُك يا أخى ؛ وأُعيذُك بالله أَنْ تكون قتيلَ أهل العراق !

وكانت بين جعفر بن الحسن(٣) بن الحسين بن على وبين زيد رضوان الله عليهم منازعةٌ فى وصيّة ، فكانا إذا تنازعا انثالَ الناسَ عليهما ليسمعُوا محاوَرَتَهما ؛ فكان الرجلُ يحفظ على صاحبه اللَّفظة من كلام جعفر ، ويحفظُ الآخرُ اللفظةَ من كلام زيد. فإذا انفصلا وتفرّق الناس عنهما قال هذا لصاحبه : قال فى موضع كذا وكذا، وقال الآخر: قال فى موضع كذا وكذا ؛ فيكتبون ما قالا ثم يتعلّمونه كما يتعلّم الواجب من الفَرْض ، والنادرُ من الشعر ، والسائرُ من المثل ؛ وكانا أعجوبةَ دَهْرِهما وأُحْدُوثَة عصرهما .

من كلام عبدالله بن الحسن

ولما قتل زيداً(٤) يوسف بن عمر وصلب جُثّته بالكُناسة وبعثَ برأسه مع شَبَّة ابن عقال ، وكلّف آل أبى طالب البراءة من زيد ، وقام خطباؤهم بذلك ؛ فكان أول مَنْ قام عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على رحمة الله عليه فأَوْجز فى كلامه ثم جلس، وقام عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فأطْنب ، وكان شاعراً خطيباً لسِناً ناسباً ، فانصرف الناسُ وهم يقولون : ابن الطيار مِنْ أَخْطَبِ الناس ، فقيل لعبد الله بن الحسن فى ذلك ؛ فقال : لو شئت أن أقولَ لقلت ، ولكن لم يكن مقامَ سرور ، وإنما كان مقام مُصيبة !

---

(١) رواية البيت فى المختار من شعر بشار :
ولكنه هين لين كعالية الرمح عود نساه
(٢) فى المختار : إذا سدته . (٣) فى ت : جعفر بن الحسين .
(٤) فى ط : ولما قتله يوسف .

وعبدُالله هذا هو أبو محمد وإبراهيم الخارجين على أبي جعفر المنصور، وهو القائلُ لابنه محمد أو إبراهيم[١] : أىْ بنى ! إنى مؤدٍّ حقَّ اللهِ فى تأديبك ، فأدِّ إلىَّ حقَّ اللهِ فى الاستماع منى ؛ أى بنىّ ! كُفَّ الأذى ، وارفُضِ البَذَا[٢] واستَعِنْ على الكلام بطول الفِكْر فى المواطن التى تَدْعُوكَ فيها نفسُك إلى الكلام ، فإنّ للقول ساعاتٍ يضرُّ فيها الخَطأُ ، ولا يَنْفَعُ فيها الصَّوابُ ، واحذَرْ مشورةَ الجاهلِ ، وإنْ كان نَاصِحاً ، كما تَحْذَر مشورةَ العاقِل إذا كان غاشّا ؛ لأنه يُرْدِيكَ بمَشورته ؛ واعلم يا بنىّ أن رَأْيك إذا احتجتَ إليه وجدتَه نائما ، ووجدتَ هواكَ يَقْظَانَ ، فإياكَ أن تستبدَّ برَأْيك ؛ فإنه حينئذ هَواكَ ؛ ولا تفعَلْ فِعْلا إلا وأنْتَ على يقين أنَّ عاقبتَه لا تُرْدِيك ، وأن نتيجتَه لا تَجْنى عليك .

وهو القائل : إياكَ ومُعَاداة الرجال فإنك لن تعدَم مَكْر حليم ، أو مُعَاداة لئيم .

وكتب إلى صديق له : أُوصيك بتقوى الله تعالى فإنَّ اللهَ تعالى جعل لمن اتَّقاه المخرج من حيث يَكْرَه ، والرزق من حيث لا يحتسب .

وعبد الله هو القائل :

أُنُسٌ حرائرُ ما هَمَمْن بريبةٍ كظباء مكّةَ صيدُهنَّ حرامُ
يُحسَبْنَ من لِينِ الحديث دوانيا[٣] ويصدّهنَّ عن الخَنَا الإسلامُ[٤]

قال : وهذا كما روى أنَّ عبد الملك بن مروان استقبل عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى فقال له : قد علِمَتْ قريشٌ أنّك أطولُها صَبْوَة ، وأبْعَدُها تَوْبة؛ وَيْحَك ! أمَالَكَ فى نساء قريش ما يَكْفِيك من نساء بنى عبد مناف ؟ ألست[٥] القائل :

نظرتُ إليها بالمحصَّب من مِنًى ولى نظرٌ لولا التحرُّجُ[٦] عارمُ

---

(١) البيان والتبيين : ١ — ١٨٠ ، ٢ — ٨٨ . (٢) البذا: السفه والإفحاش فى المنطق.
(٣) فى ط : زوانيا . (٤) الخنا : الفحش . (٥) الأغانى : ١ — ١٥٧،
ديوانه ٤٣ . (٦) فى ط : عازم — بالزاى ، والعارم : الشديد

فقلت أصبح[1] أم مصابيح راهبٍ ... بدت لك خلف السَّجف[2] أم أَنْتَ حالم

بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إِمَّا لنوفلٍ ... أَبوها وإمَّا عبدُ شمس وهاشم

فقال : يا أمير المؤمنين ، فإنّ بَعْدَ هذا :

طلبن الهوى حتى إذا ما وجدنَهُ ... صَدرْنَ وهُنَّ المسلماتُ الكرائمُ[3]

فاستحيا منه عبدُ الملك وقضى حوائجه ووصله .

وقال آخر فى هذا المعنى :

تَعطَّلن إلاّ مِنْ محاسنِ أَوْجهٍ ... فهنّ حَوالٍ فى الصفات عَوَاطِلُ[4]

كواسٍ عوارٍ صامتات نواطقٌ ... بعفِّ الكلام باخِلاتٌ بَوَاذل

بَرَزْنَ عَفافاً واحتجَبْنَ تستُّراً ... وشِيبَ[5] بحقِّ القولِ منهنَّ بَاطِلُ

فذو الحلم مرتادٌ وذو الجهل طامعٌ ... وهنَّ عن الفحشاء حِيدٌ نوا كل

وقال العُدَيل بن الفَرْخِ فيما يتطرف طرفا من هذا المعنى :

لعبَ النعيمُ بهن فى أطلاله[6] ... حتى لبسن زمانَ عَيْشٍ غافلِ

يأخذن زينتهنّ أحسن ما ترى ... فإذا عَطِلْنَ فهنَّ غيْرُ عَوَاطلِ

وإذا خبأْنَ خدودهن[7] أَرَيْنَنِى ... حدَق[8] المها وأخذن نَبْل القاتل

يرميننا لا يستَتِرْنَ بِجُنَّةٍ ... إلا الصِّبا وعلمن أَيْنَ مقاتلى

يلبسن أَرْدية الشباب لأهلها ... ويجرّ باطلهنَّ ذَيْل[9] الباطلِ

---

(١) فى الأغانى والديوان : أشمس أم مصابيح بيعة . (٢) السجف : الستر .

(٣) رواية هذا البيت فى الديوان :

طلبن الصبا حتى إذا ما أصبنه ... نزعن وهن المسلمات الظوالم

(٤) حوال : جمع حالية ، والعواطل : جمع عاطل ، وهى التى تعطلت من الحلى .

(٥) شيب : مزج . (٦) فى ط : أظلاله . (٧) فى ت : وجوهن .

(٨) المها : واحدها مهاة ، وهى الظبية . (٩) فى ت : حبل .

وتعرَّضَ لعبد الله بن الحسن رَجُلٌ بما يَكْرَهُ فقال فيما أنشده ثعلب :

أظَنَّتْ سَفاها من سَفَاهَةِ رأيِها أن اهْجوَها لما هَجَتْنِى محاربُ(١)

فلا وأبيها إننى بعشيرتى ونفسىَ عن ذاكَ المقام لَرَاغِبُ

وأنشد هذين البيتين أبوالعباس المبرّد لرجل لم يسمِّه فى رجلٍ يُعْرَفُ بابن البعير وقبلهما :

يقولون أبناء البَعير وما لَهمْ سَنامٌ ولا فى ذِرْوَةِ المجدِ غارِبُ

وسايَرَ عبد الله بن الحسن أبا العباس السفاح بظَهْر مدينةِ الأنبار وهو يَنْظُرُ إلى بناءٍ قد بناه أبو العباس ويدور به ، فأنشد عبدُ الله :

ألم تَرَ جوشنا لما تبنَّى بناءً نفعه لبنى بُقَيْلَه

يؤمِّل أنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نوحٍ وأمْرُ الله يَحْدُثُ كلَّ لَيْلَه

وكان أبو العباسِ له مُكْرِماً ، ولحقِّه معظِّما ؛ فتبسَّم مغضَباً وقال : لو عَلِمْنَا لاشترطنا حقَّ المُسَايرة ! فقال عبدُ الله : بوادِرُ الخواطر ، وأغفال المسانح ؛ واللهِ ما قلتُها عن رَوِيَّة ، ولا عارضَنى فيها فكر (٢) ؛ وأنْتَ أجلُّ من أقال ، وأوْلَى مَنْ صَفَح . قال : صدقت ؛ خُذْ فى غير هذا .

ولما قتل المنصور ابنه محمدا ، وكان عبدُ الله فى السجن بعث برأسه إليه مع الربيع حاجبه ؛ فوُضع بين يديه فقال : رحمك الله أبا القاسم فقد كنتَ من « الَّذِين يُوفُون بعَهْدِ الله ولا يَنقُضُونَ الميثاقَ ، والَّذين يَصِلُونَ ما أمَرَ اللهُ به أنْ يُوصَل ، ويَخْشَوْنَ ربَّهم ويَخَافُونَ سُوءَ الحساب » ! ثم تمثل :

فتًى كان يَحْميه من الذلِّ سَيْفُهُ ويكفيه سوءاتِ الأمورِ اجتنابُها

ثم التفتَ إلى الربيع فقال له : قلْ لصاحبكِ قد مضَى من بُؤْسنا مدة ، ومن

---

(١) محارب : اسم قبيلة . (٢) فى ط ، ق: ذكر .

نعيمك مثلُها، والموعدُ الله تعالى ! قال الربيع : فما رأيت المنصور قطّ أكثر انكساراً منه حين أبلغتُه الرسالة .

أخذ العباس بن الأحنف هذا المعنى وقيل عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير فقال :

فإن تلحظى حالى وحالك مرةً بنظرة عين عن هوى النفس تُحْجبُ
تَجِد كلّ يوم مرّ من بُؤْسِ عيشتى يمرّ بيوم من نعيمكِ يُحْسَبُ

من كلام امرأة من بنى هاشم

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله اعترضته امرأةٌ معها صبيان ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين، أنا امرأةُ محمد بن عبد الله ؛ وهذان ابْنَاه ، أيتَمهُما سيفُك ، وأضْرَعهما(١) خوفُكَ . فناشدتُك اللهَ يا أمير المؤمنين أن تُصَعِّر لهما خدَّك ، أَوْ ينأى عنهما رِفدك؛ ولتَعْطِفْك عليهما شَوَابِكُ النسب ، وأَوَاصِرُ الرّحِم (٢) . فالتفَتَ إلى الربيع ، فقال: اردُدْ عليهما ضِياع أبيهما ، ثم قال : كذا واللهِ أحبُّ أن تكونَ نساء بنى هاشم .

من كلام جعفر بن محمد

وكان أَهلُ المدينة لما ظهر محمد أَجْمَعُوا على حربِ المنصور ، ونصر محمد ؛ فلما ظفر المنصور أَحضر جعفر بن محمد بن على بن الحسين الصادق ، فقال له : قد رأيتَ إطباقَ أهلِ المدينة على حَرْبِى ، وقد رأيتُ أَن أَبعثَ إليهم من يُعَوِّر عيونهم ، ويُجَمِّر نخلَهم (٣) . فقال له جعفر: ياأميرَ المؤمنين ؛ إنَّ سليمانَ أُعْطِى فشكر ، وإنّ أيوبَ ابتُلِى فصبَرَ ، وإنّ يوسف قدَرَ فغفَر ؛ فاقْتَدِ بأَيِّهم شئت ، وقد جعلك الله من من نَسْلِ الذين يَعْفُونَ ويَصْفَحُون ، ؛ فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يُعَلِّمُنا الحِلْمَ ، ولا يعرِّفُنَا العلم ، وإنما قلت هَمَمْت ، ولم ترنى فعلت ؛ وإنكَ لتعلمُ أن قدرتى عليهم تمنَعُنِى من الإساءةِ إليهم .

وعزَّى جعفرُ بن محمد رجلاً ، فقال : أَعْظِمْ بنعمةٍ فى مصيبة جَلَبَتْ أجرا وأَفْظِعْ بمصيبةٍ فى نعمةٍ أكسبت كُفراً ؛ هذا كقول الطائى (٤) :

---

(١) أذلهما . (٢) أواصر : جمع آصرة ، وهى من الرحم والقرابة .
(٣) جمر النخلة : قطع جمارها . (٤) ديوانه : ٣١٦ .

قد يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإن عظمت ... ويَبْتَلِى اللهُ بَعْضَ القَوْمِ بالنِّعَمِ

وكان جعفرُ بنُ محمد يقولُ : إنّى لأُمْلِقُ أحيانًا فأُتاجر الله بالصدقة فيُرْبِحنى.

وقال جعفر رضى الله عنه: من تَخَلَّق بالخلقِ الجميل وله خُلقٌ سوء أَصِيل فتخلُّقه لا محالةَ زائل ، وهو إلى خُلُقه الأوّل آيل ، كطلى الذهب على النحاس يَنْسَحِق وتظهر صُفْرَتُه للناس . وهذا كقول العرجى (١) :

يأيها المتحلِّى غيرَ شيمتِهِ ... ومن خلائقه الإقصارُ والمَلق
ارجع إلى خلقك المعروف وارْضَ بِهِ ... إنَّ التخلقَ يَأْتِى دُونه الخُلُقُ

وكان يقول : ما توسَّلَ إلىَّ أحدٌ بوسيلة هى أقرب إلىَّ من يدٍ سبقَتْ منى إليه أُتْبِعها أختها لتحسن ربَّها وحِفْظَها (٢) ؛ لأَنَّ مَنْعَ الأَوَاخر يقطعُ لِسانَ الأوائل .

وقيل لجعفر رحمه الله: إنَّ أَبا جعفر المنصور لا يلبسُ مذ صارت إليه الخلافةُ إلاّ الخشِن ، ولا يأكلُ إلا الجَشِب (٣) . فقال : ياوَيْحَه ! مع ما مُكِّن له من السلطان، وُجبى إليه من الخراج ! قالوا: إنما يَفْعَل ذلك بُخْلًا وجمعاً للمال . فقال : الحمد لله الذى حَرَمه من دُنْياه ما ترك له من دينه . انتهى .

قال : ومن دعاء جعفر رضى الله عنه: اللهم إنك بما أنت أهلٌ له من العفو أَوْلى بما أنا أهْلٌ له من العقوبة .

من كلام عبد الله ابن معاوية

وكان عبدُ الله [بن معاوية بن عبد الله] (٤) بن جعفر عالمًا، ناسِبًا، وكان خطيباً مُفَوَّهاً ، وشاعراً مُجيداً ، كتب إلى بعض إخوانه : أما بعدُ فقد عاقَنِى الشكُّ فى أَمْرِك عن عزيمة الرَّأْىِ فيك ، وذلك أنك ابتدَأْتَنِى بلُطْفٍ عن غير خِبْرَة ؛ ثم أَعْقَبْتَنِى جفاءً عن غير جريرة ؛ فأَطْمَعَنِى أَوَّلُك فى إخائك ، وأَيأَسَنِى آخِرُك عن

---

(١) المختار من شعر بشار : ١٨١ ، الكامل : ١١ ، الحماسة : ٣٤١ ، وهى منسوبة فى الكامل والحماسة إلى سالم بن وابصة الأسدى . (٢) رب الشىء : أصلحه .
(٣) الجشب : هو الطعام الغليظ، أو الذى لا أدم فيه . (٤) ليست فى ت .

وفائك ؛ فلا أنا فى غير الرجاء مجمعٌ لك اطّراحاً ، ولا أنا فى غَد (١) وانتظاره منك على ثقةٍ ؛ فسبحان من لوشاء كشف بإيضاح الشكّ فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك؛ فاجتَمَعْنَا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

وهو القائل (٢) :

رأيت فُضَيلا كان شيئاً مُلفّماً ... فكشّفه التّمحيص حتى بَدَا ليا (٣)

فأنت أخى ما لم تكن لىَ حاجةٌ ... فإن عَرَضَت أيقنتُ أن لا أخاليا

كلانا غنىٌّ عن أَخيه حياتَه ... ونحن إذا متْنَا أشدُّ تَغانيا

فلا زادَ ما بينى وبينكَ بعدما ... بلوتك فى الحاجاتِ إلاَّ تماديا (٤)

فعين الرضا عن كل عَيبٍ كليلةٌ ... كما أنّ عين السخط تُبدى المساوِيَا

والقائل أيضاً (٥) :

لَسْنَا وإنْ أَحْسابُنَا كَرُمَتْ (٦) ... يوماً على الأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنى كما كانَتْ أوائِلُنَا ... تَبْنى ونَفْعَلُ مِثْلَ مافعلوا

وهذا كقول عامر بن الطفيل ، قال أبو الحسن على بن سليمان الأخفش : أنشدنى محمد بن الحسن بن الحرون لعامر بن الطفيل (٧) :

تقول ابنــةُ العَمرِىّ مالَك بَعْدَما ... أراكَ صحيحاً كالسّليم المعذَّبِ (٨)

فقلتُ لهــا هَمِّى الذى تَعرفينــهُ ... من الثّأْرِ فى حَىّ زُبَيْدٍ وأَرْحَبِ (٩)

إن أَغْزُ زُبيداً أَغْزُ قوماً أَعِزَّةً ... ومركبهم فى الحىّ خير مركب (١٠)

وإنْ أغزُ حَيّىْ خَثْعَم فدماؤُهم ... شِفَاءٌ وخيرُ الثّأْر للمتأَوّبِ (١١)

---

(١) فى ط،ق : عدم . (٢) الكامل : ١ — ١٢٥ . (٣) ملفعا : مغطى . والتمحيص : الاختبار . وفى ت : ملفقا . (٤) فى ت : تنائيا . (٥) الأمالى : ٣ — ١٣ .

(٦) فى الأمالى : لسنا وإن كرمت أوائلنا . (٧) الشعر والشعراء : ٢٩٥ ، والكامل : ١ — ٩٥ ، ذيل اللآلى: ٥٥ . (٨) السليم : الملدوغ . (٩) زبيد وأرحب : حيان من اليمن.

(١٠) فى الكامل وفى ت : « مركبهم فى الحى خير مركب » .

(١١) المتأوب : الذى يأتيك لطلب ثأره عندك .

فما أدركَ الأَوْتَارَ مِثْـلُ محقّقٍ ... بأَجْرَدَ طاوٍ كالعَسيب المُشَذَّبِ (١)
وأسمَرَ خَطِّىٍّ وأبيضَ بَاتِرٍ ... وزَغْفٍ دِلَاصٍ كالغدير المُثَوَّبِ (٢)
وإنى وإن كنت ابنَ سيدِ عامر ... وفى السرِّ منها والصريح المهذَّب
فما سوَّدتنى عامر عن وراثةٍ ... أبَى الله أن أسمو بأُمٍّ ولا أب
ولـكننى أحمى حمـــاها ، وأتقى ... أذاها ، وأرمى مَنْ رماها بمنكب (٣)

وقال أيضاً يهنِّىء بعضَ الهاشميين بإملاك (٤) : زاد الله فى نعمته ، وبارك لـكم فى فوَاضِله وجميل نوافِلِهِ ؛ ونسألُ اللهَ ـ الذى قسم لـكم ما تحبُّون من السرور ـ أن يجنبِّـكم ما تـكرهون من المحذور ، ويجعل ما أحدثه لـكم زينا ، ومتاعاً حسنا ، ورشداً ثابتا ، ويجعل سبيلَ ما أصبحت عليه تماما لصالح ما سَمَوْت إليه ؛ من اجتماع الشَّمْل ، وحُسْن موافقةِ الأهْلِ ؛ ألَّف اللهُ ذلك بالصلاح ، وتمَّمه بالنجاح ، ومَدَّ لك فى ثروة العدد ، وطِيب الولد ، مع الزيادة فى المال ، وحُسْنِ السلامةِ فى الحال ، وقُرة العين ، وصلاح ذات البَيْن .

بين الأسلمى والحسن بن زيد

وهجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمى المدنى الحسن بن زيد بن الحسين (٥) بن على ابن أبى طالب رحمة الله عليه فقال :

له حقٌّ وليس عليـه حَقّ ... ومهما قال فالحسَن الجميـلُ
وقد كان الرسولُ (٦) يَرى حقوقاً ... عليـه لغيره وهو الرسولُ

فلما ولى الحسن المدينة أتاه متنكِّراً فى زى الأعراب فقال :

ستأتى مِدحتى الحسنَ بن زَيْدٍ ... وتشهد لى بصِفِّين القبـورُ (٧)

(١) الأوتار : الأحقاد ، والأجرد : الفرس المتحسر الشعر ، والعسيب : السعفة .
(٢) وخطى . رمح منسوب إلى الخط . والزغف : الدرع الرقيقة النسج . والمثوب : الذى تصفقه الرياح فيذهب ويجىء . والدلاص : اللينة الملساء . (٣) فى ط : من وراها ، وفى الـكامل: بمقنب . (٤) الإملاك : الزواج . (٥) فى ط : بن الحسن ، والذى ولى المدينة : هو الحسن ابن زيد بن على بن أبى طالب . (٦) فى ت : النبى . (٧) صفين : موضع كانت فيه الموقعة بين على ومعاوية .

قبورٌ لم تزل مُذْ غاب عنها   أبو حسن تُعَادِيهـا الدهور
قبـور لو بأحمـد أو علىٍّ   يلوذُ مجيرُها حُمِىَ المُجير
هما أبواكَ مَنْ وَضَعَا فضَعْهُ   وأنت برَفْعِ مَنْ رَفَعا جديرُ

فقال : من أنت ؟ قال : أنا الأسلمى . قال : ادْنُ حيَّاكَ الله ! وبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

بين الحسن ابن زيد وداود بن سلم

وكان الحسن بن زيد قد عوَّد داود بن سلم مولى بنى تيم أن يَصِلَه ، فلما مدح داود جعفر بن سليمان بن على ، وكان بينه وبين الحسن بن زيد تباعدٌ أَغضبه ذلك ، وقدم الحسن من حجٍّ أو عُمرة فدخل عليه داود بن سلم مهنّئاً ، فقال: أنتَ القائل فى جعفر ابن سليمان بن على :

وكنَّا حديثاً قبل تأمير جَعْفرٍ   وكان المنى فى جعفر أن يُؤَمَّرا[1]
حوى المنبرين الطاهرين كليهما   إذا ما خَطَا عن منبر أَمَّ منبرا
كأنّ بنى حَوّاء صُفُّوا أمامهُ   فخُيِّرَ فى أنسـابهم فتخيَّرا

فقال داود : نعم ، جعلنى اللهُ فِدَاكَ ، فكنتم خيرة اختياره ! وأنا القائل :

لعمرى لئن عاقبتَ أو جُدْتَ مُنْعِماً   بعَفْو عن الجانى وإن كان مُعْذِرا[2]
لأَنت بما قدّمت أوْلى بمـدحهِ   وأكرم فخراً إن فخرت وعُنصرا
هو الغُرَّة الزَّهْراء من فَرْع هاشم   ويدعو عَلِيًّا ذا المعـالى وجعفرا
وزيد النـدى والسِّبط سبط محمدٍ   وعمك بالطفّ[3] الزكىّ المطهَّرا
وما نال منهـا جعفر غير مجلس   إذا ما نفاه العَزْل عنـه تأخرا[4]
بحقـكمُ نالوا ذُراها وأصبحوا   يرون به عزًّا عليـكم ومظهرا[5]

---

(١) يؤمر : يولى الإمارة .
(٢) معذر : قدم العذر .
(٣) فى ط و ت : باللطف .
(٤) العزل : الضعف .
(٥) فى ت : ومفخرا .

فعاد له الحسنُ بنُ زيد إلى ما كان عليه ، ولم يَزَلْ يَصِلهُ ويُحْسِنُ إليه إلى أن مات.

وقوله : « وإن كان معذراً » لأنَّ جعفراً أعطاه على أبياته الثلاثة ألف دينار[1] .

بين ابن هـرمة والحسن ابن على

ولما ولى الحسن بن زيد المدينة دخل عليه إبراهيمُ بن على بن هرمة ، فقال له الحسن : يا إبراهيم ؛ لستُ كمن بَاعَ لك دِينَه رجاءَ مَدْحِك ، أو خَوْفَ ذمِّك ؛ فقد رزقنى اللهُ تعالى بولادة نبيّه صلى الله عليه وسلم المَادِح ، وجنّبَنى القَابِح ، وإنَّ من حقّه علىّ ألاَّ أُغْضِى على تقصيرٍ فى حقٍّ وَجَب ؛ وأنا أُقسم لئن أُتيتُ بكَ سكرانَ لأضربنَّك حدًّا للخمر ، وحدًّا للسكر ؛ ولأزيدنَّ لموضع حُرْمَتك بى ؛ فليَكُن تَرْكُكَ لها للهِ عزَّ وجل تُعَنْ عليه ، ولا تدَعْها للناس فتُوكَل إليهم .

فنهض ابن هرمة وهو يقول[2] :

نهانى ابنُ الرسولِ عن المُدامِ ... وأدَّبنى بآدابِ الكرامِ
وقال لىَ اصطبر عنها ودَعْها ... لخوفِ الله لا خوف الأَنامِ
وكيف تَصَبُّرى عنها وحُبى ... لها حُبٌّ تَمَكَّنَ فى عظامى
أرى طيفَ الخيال علىَّ خُبثاً ... وطيب العيشِ فى خبث الحرَامِ

وكان إبراهيم منهوماً فى الخمر ، وجَلَده خَيْثَم[3] بن عِرَاك صاحبُ شُرْطة المدينة لرباح بن عبد الله الحارثى فى وِلاية أبى العباس .

ولما وفد على أبى جعفر المنصور ومدحه استحسن شعره ووصله ، وقال له : سَلْ حاجتك . قال : تكتبُ لى إلى عامل المدينة ألاَّ يَحُدّنى إذا أُتِىَ بى سَكْرَان . فقال أبو جعفر : هذا حدٌّ من حدود اللهِ تعالى لا يجوزُ أن أُعطِّله . قال : فاحْتَلْ لى يا أميرَ المؤمنين ! فكتب إلى عامل المدينة : « من أتاكَ بابْنِ هرمة سكران فاجْلِده مائة ، واجلد ابن هرمة ثمانين » .

---

(١) فى ط : على أبياته ثلاثة ألف دينار !
(٢) المختار من شعر بشار : ١٠٥ ، العقد الفريد : ٣ — ٣٩٩ .
(٣) فى ت : عثيم .

فكان الشُّرَط يمرُّون به مطروحاً فى سِكَكِ المدينة ، فيقولون : مَنْ يشترى مائة بثمانين !!

من كلام موسى بن عبد الله

وقال موسى بن عبد الله[١] بن على بن أبى طالب :

إذا أنا لم أَقبل من الدهر كلَّ ما ... تكرَّهْتُ منه طال عَتْبى على الدَّهرِ
إلى اللهِ كلُّ الأمر فى الخلق كلهم ... وليس إلى المخلوق شىءٌ من الأمر
تعودت مَسَّ الضرّ حتى أَلِفتُهُ ... وأَسلمنى طولُ[٢] البلاء إلى الصبرِ
ووسَّع صدرى للأذى الأنسُ بالأَذى ... وإن كنت أحياناً يضيقُ به صدرى
وصيَّرنى يَأْسِى من الناس راجياً ... لسُرْعَةِ لطف الله من حيثُ لا أدرى

وموسى بن عبد الله هو القائل :

تولَّت بهجةُ الدنيا ... فكل جديدها خَلَقُ[٣]
وخان الناسُ كلُّهمُ ... فما أدرى بمَنْ أَثِقُ
رأيت معالمَ الخيرا ... تِ سُدَّت دونها الطرُق
فلا حسَبٌ ولا نَسَبٌ ... ولا دِينٌ ولا خُلُق
فلست مصدق الأقوا ... م فى شىء وإن صدقوا

وكان المنصورُ حبَسَه لخروجه عليه مع أَخَوَيْهِ ، ثم ضربه أَلْفَ سَوْطٍ فما نطقَ بِحَرْفٍ واحد ؛ فقال الربيع : عذرت هؤلاء الفسّاق فى صَبْرِهم ؛ فما بَالُ هذا الفتى الذى نشأ فى النعمة والدَّعة ؟ فقال :

إنِّى من القومِ الذين يَزِيدُهم ... جَلَداً وصَبْراً قسوةُ السلطانِ

وولدت هند بنت أبى عبيدة بن عبد الله بن زَمعة موسى ، ولها ستُّونَ سنة ، ولا يعلم امرأةٌ ولدت بنت ستين سنة إلا قرشيّة .

---

(١) فى ت : بن الحسن بن الحسين بن على .   (٢) فى ت : حسن العزاء .
(٣) الخلق : البالى .

من كلام علی بن محمد

اجتاز علی بن محمد العلوی بالجسر بحِدْثان (١) قَتْلِ عمر بن يحيى بن عبد الله بن الحسين ، وقاتلُه الحسينُ بن إسماعيل هناك قد جرَّد رجلا للقتل ، فلما رأت أمُّ الرجل عليا سألَتْه أن يشفع فيه فمال علىٌّ إلى الحسين (٢) فأنشده :

قتلت أبرَّ من رَكِبَ المطايا ... وجئتُك أَسْتَلِينُك بالكلامِ
وعزَّ علىَّ أن أَلقاكَ إلا ... وفيما بيننا حَدُّ الحُسَامِ
ولكنَّ الجناحَ إذا أُصِيبت ... قَوَادِمُه يُرِف على الإِكَام (٣)

فقال له : وما حاجَتُكَ ؟ قال : العفوُ عن ابنِ هذه المرأة ! فتركه .

من كلام العباس بن الحسين

وسُئِل العباسُ بن الحسين (٤) عن رجلٍ . فقال لجليسه : أطرب من الإبل على الحُدَاء ، ومن الثَّمِل على الغِنَاء .

وذكر العباس رجلا فقال : ما الحِمام على الأَحْرار ، وطول السقم فى الأَسْفار ، وعِظَم الدين على الإقتار ، بأشدَّ من لقائه .

وقال العباسُ بن الحسين (٤) للمأمون : يا أمير المؤمنين ؛ إن لسانى يَنْطَلِق بمدْحِكَ غائبا ، وقد أحببتُ أن يتزَيَّدَ عندك حاضرا ، أفتأذنُ لى يا أمير المؤمنين فى الكلام؟ فقال له: قل؛ فوالله إنك لتقولُ فتُحْسِن ، وتحضر فتزيِّن ، وتغيب فتؤْتَمَن.
فقال : ما بعدَ هذا كلام ياأميرَ المؤمنين ! أفتأذن بالسكوت ؟ قال : إذا شئت .

وذكر رجلا بليغا فقال : ما شَبَّهْتُ كلامَه إلا بثعبان ينهالُ بين رِمَال ، وماء يتغلغل بين جِبَال .

وسمِعَ المنتجع بن نبهان كلامَ العباس بن الحسين فقال: هذا كلامٌ يدلّ سائره على غابِرِه وأوله على آخره .

(١) حدثان الأمر : أوله وابتداؤه . (٢) فى ت : إلى الحسن .
(٣) الإكام : جمع أكمة ، وهى التل ، وفى ت : يكب على الإكام .
(٤) فى ت : الحسن .

وسأل المأمونُ العباس بن الحسين عن رجل ، فقال : رأيتُ له حِلْماً وأَناة ، ولم أسمع لَحْناً ولا إحالة[١] ؛ يحدِّثك الحديثَ على مَطَاوِيه ، ويُنْشِدُك الشعرَ على مَدارجه .

وكان المأمون يقولُ : من أراد أن يسمعَ لَهْوًا بلاحَرَج فليسمعْ كلاَمَ العباسِ . والعباس بن الحسين من أَشْعَرِ الهاشميين؛ وهو يُعَدّ فى طبقة إبراهيم بن المهدى، وهو القائل :

أتاح لك الهوى بِيضٌ حسانٌ ... سَبَيْنَك بالعيون وبالشعورِ[٢]

نظرت إلى النحور فكدت تقضِى ... وأَوْلى لو نظرت إلى الخصورِ

وهو القائل أيضاً[٣] :

صادَتْك من بعض القصور[٤] ... بِيضٌ نواعمُ[٣] فى الخدورِ

حُورٌ تحور إلى صِبَا ... كَ بأعيُنٍ منهن حُورِ

وكأنما بثغورهنّ ... جَنَى الرُّضاب[٥] من الخمور

يصفين تُفّاحَ الخدو ... دِ بماء رُمّانِ الصّدور

وهو العباسُ بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأم عبيد الله جدّة بنت عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب عم محمد بن على أبى الخلفاء[٦] .

وكان الرشيدُ والمأمونُ يقرِّبانِ العباسَ غايةَ التقريب ؛ لِنَسَبِه وأدبه ؛ قال أبودلف : دخلتُ على الرشيد وهو فى طارمة[٧] على طنفسة ومعه عليها شيخٌ جميلُ النظر ؛ فقال لى الرشيد : يا قاسم ؛ ماخَبَرُ أرْضك ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين ، خَرَابٌ

---

(١) الإحالة : التكلم بالمحال . (٢) فى ت : وبالثغور . (٣) المختار من شعر بشار : ٢٤١ ، الأغانى٤ — ١٦٦ . (٤) فى المختار : من عين ... أوانس .

(٥) فى ت : جنى للرضاب على . وفى المختار : وكأنما برضابهن جنى الرحيق .

(٦) فى ت : عم الخلفاء . (٧) الطارمة : بيت من خشب كالقبة .

يَبَاب ، أَخْرَبَهَا الأَكراد والأعراب. فقال قائل: هذا آفةُ الجبل، وهو أفسده . فقلت أَنا أُصْلِحه . قال الرشيد : وكيف ذلك ؟ قلت : أفسَدتُه وأنت علىّ وأُصْلِحه وأنتَ معى ! فقال الشيخُ (١): إن همّته لترمِى به من وراء سنِّه مَرْمًى بعيداً ؛ فسألت عن الشيخ فقيل : العباس بن الحسين . وكان أبو دلف ذلك الوقت صغيرَ السنّ .

من كلام موسى بن جعفر

ولقى موسى بن جعفر رضى الله عنه محمد بن الرشيد الأمين بالمدينة وموسى على بَغْلَة ، فقال للفضل بن الربيع : عاتِبْ هذا . فقال له الفضلُ : كيف لقيت أمير المؤمنين على هذه الدابة التى إن طَلَبْتَ عليها لم تَسْبِق ، وإن طُلبت عليها تُلحق ، فقال : لست أحتاجُ أَنْ أطلب ، ولا إلى أن أُطلب ؛ ولكنها دابّةٌ تنحطّ عن خُيلاء الخيلِ ، وترتفع عن ذِلة العَيْر (٢) ، وخيرُ الأمورِ أوسطُها .

على بن موسى

أُصِيب على بن موسى بمصيبة ، فصار إليه الحسنُ بن سهل ، فقال : إنا لم نأْتِكَ معزِّين ؛ بل جئناكَ مُقْتَدِين؛ فالحمدُ لله الذى جعل حياتكم للناس رَحْمَة ، ومصائبكم لهم قدوة .

وكان علىّ بن موسى الرضا رحمه الله قد ولاّه المأمون عَهْدَه ، وعقد له الخلافةَ بعده ، ونزع السّواد عن بنى العباس ، وأمرهم بلباس الخضرة ، ومات على بن موسى فى حياةِ المأمون بطُوس ، فشقّ [المأمونُ] (٣) قبر الرشيد ودُفِن فيه تبرّكا به ، وكان الرشيد قد مات بطوس فدفن هناك ؛ ولذلك قال دعبل بن على الخزاعى :

من شعر دعبل فى آل البيت

اربَعْ بطوس على قَبْرِ الزكىِّ بها (٤) ... إن كنت تربع من دِين على وَطَرِ (٥)
ما ينفع الرِّجس من قُرْب الزكى ولا ... على الزكىّ بقرب الرجْسِ من ضَرَرِ
هيهات كلّ امرئ رَهْنٌ بما كسبت ... له يداه فخُذْ من ذاك أو فذَرِ
قبران فى طُوس خَيْرُ الناس كلهم ... وقبر شرّهم هـذا من العِبَرِ

---

(١) فى ط، ق : فقال الرشيد . (٢) العير : الحمار . (٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت : له . (٥) تربع : تقيم ، والوطر : الحاجة .

وكان دعبل مداحاً لأهلِ البيت ، كثير التعصُّب لهم ، والغلوُّ فيهم .

وله المرثية المشهورة وهى من جيد شعره وأولها [١] :

مَدَارِس آياتٍ عَفَتْ من تِلاَوةٍ   وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقفرُ العَرَصَاتِ [٢]

لآلِ رسولِ الله بالخَيف من مِنًى   وبالبيتِ والتَّعْرِيفِ والجَمَرَاتِ

دِيَارُ عليٍّ والحسينِ وجَعْفَرٍ   وحمزة والسَّجَّاد ذِى الثَّفِنَاتِ [٣]

قِفا نَسْأَلِ الدَّارَ التى خفَّ أهلُها   متى عَهْدُها بالصَّوْمِ والصلوَاتِ

وأينَ الأُلى شَطَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوَى   أفانينَ فى الآفاق مُفْتَرِقات

أُحِبُّ قَصِيَّ الدارِ من أجل حُبِّهم   وأهْجُرُ فيهم أُسْرَتِى وثِقَاتِى

وهى طويلة [٤] .

بين المأمون وبين دعبل

ولما دخل المأمونُ بغداد أحْضَر دِعبلا بعد أن أعْطَاه الأَمان ، وكان قد هجاه وهجَا أباه ، فقال : يادعبل ؛ من الحضيض الأَوهد ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد عفوت عمن هو أشدُّ جُرْماً منى ! أراد المأمون قول دعبل يهجوه [٥] :

إنِّى من القوم الذين سيوفُهم [٦]   قتلَتْ أخَاكَ وشرفتك بمقعَدِ

شادُوا بذكرِكَ بعدطولِ خُمُولِه   واستنقذوكَ منَ الحَضِيضِ الأَوْهَدِ

يفتخِرُ عليه بقَتْلِ طاهر بن الحسين بن مصعب ذى اليمينين أخاه محمداً ، وطاهر مولى لخزاعة ، فاستنشده هذه القصيدة الثانية فاستعفاه ، فقال : لا بأسَ عليك ، وقد رويتُها ، وإنما أحببت أن أسمعَها منك . فأنشدها دعبل ؛ فلما انتهى إلى قوله :

ألَم تر أنى مذ ثلاثين حِجَّةً   أروح وأغْدُو دائمَ الحَسَرَاتِ

---

(١) معجم الأدباء : ١١ — ١٠٣ .   (٢) العرصة : وسط الدار .

(٣) فى ط : والنفثات. والثفنة من البعير : مالاصق الأرض منه إذا استناخ .

(٤) تجدها فى معجم الأدباء : ١١ — ١٠٣ .   (٥) معجم الأدباء : ١١ — ١٠٠ .

(٦) فى ت : الذين هم قتلوا أخاك وشرفوك .

أرى فَيْئَهم فى غـيرِهم مُتَقَسَّماً وأيديهمُ من فيئِهم صفِرات (١)
إذا وُتِروا مدّوا إلى أهل وِتْرِهم أكُفًّا عن الأَوتار مُنْقَبِضاتِ
وآلُ رسول الله نُحْفٌ جسومهم وآل زياد غُلَّظُ القَصَرَاتِ (٢)
بناتُ زيادٍ فى القصورِ مَصُونةٌ وبنت (٣) رسول الله فى الفَلَوَاتِ

بكى المأمون وجدَّد له الأمان وأَحْسَن له الصِّلة :

ومن شعر سليمان بن قتيبة

والشيء يستدعى ماقرَع بابه ، وجذبَ أَهْدَابَه (٤) ، قال سليمان بن قتيبة :

مررت (٥) على أبيات آل محمـدٍ فلم أرَها عَهْدِى (٦) بهـا يوم حُلّتِ
فلا يبعـد الله الديارَ وأهلَها وإن أصبحَتْ من أهلها قد تخلّتِ
وكانوا رجاءً ثم عادوا رَزِيّةً ألا عظُمَت تلك الرزايا وجلّتِ
وإن قتيـل الطَّفِّ من آلِ هاشم أذلَّ رقابَ المسلمين فَذَلّتِ (٧)

ويشبه قوله : « وكانوا رجاء ثم عادوا رزية » قولَ امرأةٍ من العرب مرَّت بالجسر بجثَّة جعفر بن يحيى البرمكى مَصْلُوبا ؛ فقالت : لئن أصبحت نهايةً فى البلاء لقد كنت غايةً فى الرجاء .

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف الأشراف

لها فى هذا الموضع مَوْقع

فلان من شرَفِ العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم . أَصلٌ راسخ ، وفرع شامِخ ، ومَجْدٌ بَاذِخ ، وحَسَبٌ شَادخ (٨) .

---

(١) صفرات: خاليات . (٢) فى معجم الأدباء : حفل القصرات . والقصرات : جمع قصرة: أصل العنق . (٣) فى الأدباء ، ت : وآل رسول . (٤) فى ت : هداله ، والهدال : ما تهدل من الأغصان . (٥) فى ت : صدرت (٦) فى ت : كعهدها .
(٧) قتيل الطف : الحسين . (٨) شادخ : من قولهم غلام شادخ : شاب . وفى ط: شاذخ.

فلان كريمُ الطرَفين ، شريف الجانبَين ، قد ركّبَ الله دَوْحَتَه فى قرارةِ المَجْدِ ، وغرس نَبْعَتَه فى محلّ الفضـل ، أَصْلٌ شريف ، وعِرْق كريم ، ومَغْرِس عظيم ، ومَغْرِز صميم . المجد لسانُ أَوصافه ، والشرفُ نَسَبُ أَسلافِه . نسبٌ فَخم ، وشرفٌ ضخم. يستوفى شرفَ الأرومة[١] بكرم الأُبوّةوالأمومة ، وشرف الخؤولة والعمومة. ما أَتَتْه المحاسِنُ عن كَلَالَة[٢] ، ولا ظَفِر بالهدى عن ضلالة ، بل تناول المجدَ كابراً عن كابر ، وأَخذ الفَخْرَ عن أَسِرّة ومنابر :

شرفٌ تَنقَّل كابراً عن كابر ‏ ‏ ‏ ‏ كالرمح أُنبوبا على أُنبوبِ

استحق عِرْقُه من مَنْبع النبـوة ، ورضعت شجَرَتُه من ثَدْيِ الرسالة ، وتهدَّلَت أغصانُه عن نَبْعَة الإمامة ، وتبحبحَتْ أطْرَافُه فى عَرْصَةِ الشَّرَفِ والسيادة ، وتفقّأَت بيضته عن سُلالةِ الطّهارة ، قد جَذَبَ القرآنُ بضَبْعِه[٣] وشقّ الوَحْيُ عن بصره وسَمْعِه ، مختار من أَكْرَمِ المناسب ، منتَخَبٌ من أشْرَفِ العناصر ، مُرْتَضَى من أعْلَى المحاتد[٤] ، مُؤْثَر من أعظم العشائر ، قد وَرِث الشرفَ جامعاً عن جَامعٍ ، وشهد له نداء الصوامع . هو من مُضَر فى سُوَيداء قَلْبِها ، ومن هاشم فى سَـوَاد طَرْفِها ، ومن الرسالة فى مهبط وَحْيِها ، ومن الإمامةِ فى موقف عزِّها . ينزع إلى المحامِدِ بنفس وعرق ، ويَحِنُّ إلى المـكارم بوراثة وخلق ؛ يتناسب أصْلُه وفَرْعُه ، ويتناصف نَجْرُه[٥] وطَبْعُه، وهو الطيِّبُ أصْلُه وفرْعُه ، الزَّاكى بذره وزَرْعُه . يجمع إلى عزّ النّصاب مَزِيّةَ الآداب ، لا غَرْو أن يجرىَ الجوادُ على عِرْقِه ، وتلوح مخايلُ الليثِ فى شِبْله ، ويكون النجيبُ فَرْعاً مشيداً لأَصْله . له مع نباهة شَرَفِه نزاهةُ سَلَفِه ، ومع كرم أرومته وحَزْمه[٦] مزيةُ أدبه وعلمه . لن تخلف ثمرة غَرْس ارْتيدَ

(١) الأرومة : الأصل . ‏ ‏ ‏ (٢) الـكلالة : الإعياء ، أو ما خلا الولد ، والولد .

(٣) الضبع : وسط العضد بلحمه يكون للإنسان وغيره ، والمراد جذبه .

(٤) جمع محتد : الأصل . ‏ ‏ ‏ (٥) فى ط : بحره .

(٦) فى ت : وجرمه .

لها من المنابت أزْكاها ، ومن المغارس أطْيبها وأغذاها وأنماها ؛ قد جمع شرفَ الأخلاق ، إلى [شرفِ الأعراق ، وكرم الآداب إلى][1] كرم الأنساب ؛ له فى المجد أولٌ وآخِر ، وفى الكرم تليدٌ وطَارِف ، وفى الفضل حديثٌ وقديمٌ ؛ لا غَرْوَ أنْ يغمر فضلُه ، وهو نَجْلُ الصِّيد الأكارم ، أو يغزر علمه وهو فَيْضُ البحور الخضارم. دَوْحةٌ رسب عِرْقُها ، وسَمَق فَرْعها[2] ، وطاب عُودُها ، واعتـدل عمودُها ، وتفيَّأَتْ ظِلالُها ، وتهدَّلَتْ ثمارُها ، وتفرَّعَتْ أغصانُها ، وبرد مَقِيلُها . مَجْدٌ يلحظ الجوْزَاء من عَال ، ويطول النجم كلَّ مطال . شَرَفٌ تضع له الأفلاكُ خدودَها وجِباهَها ، وتَلْثَم[3] النجومُ أرضَه بأفواهِها وشِفَاهِها . نسبُ المجدِ به عَرِيق ، ورَوْضُ الشرفِ به أنِيق ، ولسانُ الثناء بفَضْله نَطوق ؛ فَلَكُ المجدِ عليـه يَدُور ، ويدُ العُلَا إليه تُشِير ، محلّه شاهق ، ومَجْدُه بَاسِق .

---

(١) من ت ، ق . (٢) سمق : ارتفع . (٣) تقبل .

[بدء الكتاب]

حمد الله

قد تمَّ ما استفتحت به التأليف ، وجملته مقدمة التصنيف ، مع ما اقترن به وانضافَ إليه ، والتفَّ به ، وانعَطَفَ [١] عليه ، ورأيتُ أنْ أَبتدئ مقدّمات البلاغات بغُرَر التحاميد وأَوْصافها ، وما يتعلَّق بأثنائها وأَطْرافها .

وقدقال سهل بن هارون فىأول كتابٍ عمله[٢] : يجب على كلّ مبتدئ مقالةً أن يبتدىءَ بحَمْدِ الله قبل استفتاحها ، كما بُدِىء بالنعمة قبل استحقاقها .

ولأهل العصر : أَوْلَى ما فَغَر به الناطقُ فمه [٣] وافتتح به كَلِمه حمدُ اللهِ جلَّ ثناؤُه ، وتقدَّست أَسماؤُه . حَمْدُ الله خيرُ ما ابْتُدِئ به القول وخُتم ، وافْتُتِحَ به الخطابُ وتُمِّم .

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله : إنَّ الله جلَّ ثناؤه لا يمثَّل بنظير ، ولا يُغْلَب بظهير [٤] ، جلَّ عن موقع تحصيل أدوات البشر ، ولطُفَ عن ألحاظ خطرات الفِكَر ، لا يُحْمَدُ إلا بتوفيقٍ منه يَقْتَضِي حمداً ، فمتى تُحْصَى نعماؤه ، وتُكافأ آلاؤه [٥] ؟ عَجزَ أقْصَى الشكرِ عن أداءِ نعمته ، وتضاءل ما خلق فى سَعَةِ قُدْرَتِه ؛ قَدَر فقَدَّر ، وحَكَم فأحكم ؛ وجعل الدِّين جامعا لشَمْلِ عباده ، والشرائع مَنَاراً على سبيل طاعته ؛ يَتْبَعُها أهل اليقين به ، ويَحِيدُ عنها أهلُ الشك فيه .

أخذ أبوالعباس قوله: « ولايحمد إلا بتوفيق منه يقتضى حمداً » من قول محمود ابن الحسن[٦] الوراق :

---

(١) فى ت : وعطف . (٢) فى ت : علمه . (٣) فغر : فتح .
(٤) الظهير : المعين . (٥) فى ت : وتكفى بلاؤه ، وفى ق : ويكافأ بلاؤه .
(٦) فى ط ، ق : بن الحسين .

إذا كان شُكْرِى نعمةَ اللهِ نِعْمَةً على لهُ فى مِثْلها يَجِبُ الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشُّكْرِ إلاَّ بفضلِهِ وإن طالت الأيامُ واتَّصَلَ العمرُ
إذا عمَّ[1] بالسراء عَمَّ سرورُها وإن مَسَّ بالضراء أعْقَبَها الأَجْرُ
فما منهما إلا له فيه نِعْمَةٌ تَضيقُ بها الأوهامُ والبَرُّ والْبَحْرُ

وإنما أخذه محمود من قول أبى العتاهية[2] :

أحمدُ اللهَ فهْوَ ألهمنى الحمـ ـدَ على الحمد[3] والمزيدُ لَدَيْهِ
كم زمانٍ بكيتُ فيه فلمَّا صِرْتُ فى غيره بكيتُ عليهِ[4]

وقد اضطربت الراويةُ فى هذين البيتين وقائلِهما ، وهذا البيت الثانى كثير ، قال إبراهيم بن العباس[5] :

كذاك أيّامُنا لا شكَّ نَنْدُبها إذا تقَضَّت ونحنُ اليَوْمَ نَشْكُوهَا

آخر :

وما مرّ يوم أرتجى فيه راحةً فأَفْقِدُهُ إلاّ بكيتُ على أمسِ

ومحمود هو القائل أيضا :

تَعْصِى الإلهَ وأنْتَ تُظْهِرُ حبَّهُ هذا محالٌ فى القياسِ بديعُ
لو كان حبُّك صادقا لأَطَعْتَهُ إنَّ المحب لمن أحَبَّ مُطِيعُ

وكان كثيراً ما ينقلُ أخبارَ الماضين ، وحِكَم المتقدِّمين ، فيحلّى بها نظامَه ، ويُزَيِّنُ بها كلامَه ، وهو القائل[6] :

إنى وَهَبْتُ لظالمى ظُلْمِى وشكرتُ ذَاكَ له على عِلْمِى
ورأيته أسْدَى إلَىَّ يداً لَمَّا أبان بجَهْلِهِ حِلْمى

---

(١) فى ت : إذا مس . (٢) ديوانه : ٢٨٨ . (٣) فى الديوان : على المن .
(٤) رواية الديوان :
كم زمان بكيت منه قديما ثم لما مضى بكيت عليه
(٥) الطرائف : ١٥٢ . (٦) هذه الأبيات ساقطة فى ت .

رَجَعَتْ إساءته عليه وَلِي — فَضْلٌ فعادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ (١)
فكأنما الإحْسانُ كانَ لهُ — وأنا المسىءُ إليه فى الزَّعم
مازال يَظْلِمُنى وأرحمُهُ — حتى رَثَيْتُ له من الظلم

وهو القائل :

أرانى إذا ما ازددتُ مالاً وثَرْوَةً — وخَيْرًا إلى خَيْرٍ تزيدتُ فى الشرِّ
فكيف بشُكْرِ اللهِ إنْ كنت (٢) إنما — أقومُ مقامَ الشُّكْرِ للهِ بالكُفْرِ
بأىِّ اعْتِذارٍ أوْ بأيَّةِ حُجَّةٍ — يقولُ الذى يدرى من الأمر ماأَدْرِى
إذا كان وجهُ العُذْرِ ليس بِبَيِّنٍ — فإن اطِّرَاحِ العُذْرِ خيرٌ من العُذْرِ

[البيان والبلاغة]

البيان عند ابن المعتز

ولابن المعتز : البيان ترجمان القلوب، وصَيْقَل العقول ، ومُجَلِّى الشبهة، وموجب الحجَّة ، والحاكمُ عند اختصام الظنون ، والمفرِّقُ بين الشَّكّ واليقين ، وهو من سلطان الرُّسُل الذى انْقَاد به المستصعَب ، واستقام الأصْيَد (٣) ، وبُهت الكافر ، وسلم المتمنع ، حتى أَشِب الحقُّ بأنصاره (٤)، وخَلَا (٥) رَبْعُ الباطلِ من عُمَّارِه ؛ وخيرُ البيان ما كان مصرِّحاً عن المعنى ؛ ليُسْرِعَ إلى الفهم تلقّيه (٦)، وموجَزاً يخفّ على اللفظ تعاطيه .

فضل القرآن

وفَضْل القرآن على سائر الكلام معروف غيرُ مجهول ، وظاهرٌ غيرُ خفىّ؛ يشهدُ بذلك عَجْزُ المتعاطِين ، وَوَهن (٧) المتكلّفين ، وتحيّرُ الكذّابين ، وهو المبلِّغ الذى لا يمل، والجديد الذى لا يخْلَق (٨)، والحق الصادع، والنورُ الساطع، والماحِى لظُلَمِ الضلال ،

(١) الجرم : الذنب. (٢) فى ت: إن كان إنما . (٣) الأصيد : من يرفع رأسه كبرا.
(٤) أشب الشجر : التف ، والمراد قوى . (٥) فى ط : وخلى .
(٦) فى ت : تلقينه . (٧) فى ط : ورهن . (٨) لا يخلق: لا يبلى .

ولسانُ الصِّدق النافِي[١] للكذب ، ونذيرٌ قدَّمَتْه الرحمةُ قبل الهلاك ، ونَاعِي الدنيا المنقولة ، وبَشِيرُ الآخرةِ المخلَّدَة ، ومِفْتَاح الخير ، ودليل الجنة . إنْ أَوْجز كان كافيا، وإنْ أَكثر كان مُذَكِّرًا ، وإن أَوْمَأَ كان مُقْنِعاً ، وإن أَطال كان مُفْهِماً ، وإن أمر فناصِحاً ، وإن حكم فعادِلا، وإن أَخبر[٢] فصادقا ، وإنْ بيَّن فشافيا، سَهْلٌ على الفهم، صَعْبٌ على المتعاطى ، قريبُ المَأْخَذ ، بعيدُ المرام ، سِرَاجٌ تستضِىءُ به القلوب ، حُلْوٌ إذا تذوَّقَتْه العقول ، بَحْرُ العلوم ، وديوانُ الحِكَمِ ، وجَوْهَرُ الكلِمِ ، ونُزْهَةُ المتوسِّمِين، ورَوْحُ قلوب المؤمنين، نزل به الرُّوحُ الأَمِينُ على محمد خاتم النبيين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، نَخَصَمَ[٣] الباطل ، وصَدَع بالحق ، وتَأَلَّف من النُّفْرة ، وأنْقَذَ[٤] من الهلَكَة ، فوصل الله لَه النصر ، وأضرع به خَدَّ الكفر .

قال على بن عيسى الرمانى : البلاغةُ ما حُطَّ[٥] التكلُّفُ عنه ، وبُنِى على التبيين ، وكانت الفائدةُ أغْلب عليه من القافية ، بأَنْ جمع مع ذلك سهولةَ المخرج ، مع قُرْب المتناوَل ؛ وعذوبةَ اللفظ ، مع رشاقةِ المعنى ؛ وأن يكون حُسْنُ الابتداء كحُسْن الانتهاء، وحُسن الوَصْل ، كحُسْنِ القَطْع ، فى المعنى والسمع . وكانت كلُّ كلمة قد وقعَتْ فى حقِّها ، وإلى جَنْب أُخْتِها ، حتى لا يقالَ : لو كان كذا فى موضع كذا لكان أَولى ! وحتى لا يكونَ فيه لفظٌ مختلف، ولا معنى مُستَكرَه ؛ ثم أُلِبس بَهْجة الحِكمة ، ونورَ المعرفة ، وشرفَ المعنى ، وجَزالةَ اللفظ ، وكانت حِلاوتُه فى الصدر وجلالَتُه فى النفس تفتِّقُ الفهم ، وتنثر دقائقَ الحِكم ، وكان ظاهرَ النفع ، شريف القَصْد ، معتدلَ الوَزْنِ ، جميل المذهب ، كريمَ المطلب ، فصيحاً فى معناه ، بَيِّناً فى فَحْوَاه ؛ وكلُّ هذه الشروط قد حواها القرآن ، ولذلك عَجَزَ عن مُعارَضَتِهِ جميع الأنام .

(١) فى ت : لسان الصدق الباقى المبين للكذب . (٢) فى ت : أجد .
(٣) غلب . (٤) فى ت : وانتاش . (٥) فى ت : ما سقط .

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر القرآن

القرآن حَبْلُ اللهِ الممدود ، وعَهْدُه المعهود ، وظلّه العميم ، وصِراطُه المستقيم ، وحُجَّته الكبرى ، ومحجته(١) الوُسْطَى ، وهو الواضح سبيلُه ، الراشدُ دليلُه ، الذى من استضاء بمصابيحه أبصرَ ونجا ، ومَنْ أعرض عنه ضَلَّ وهَوَى ؛ فضائل القرآن لاتُسْتَقْصَى فى ألفِ قَرْن ، حجةُ الله وعَهْدُه ، ووعيدُه ووعده ، به يعلمُ الجاهلُ ، ويعملُ العاملُ ، ويتنبه الساهى ويتذكّر اللّاهى ، بَشيرُ الثواب ، ونَذيرُ العقابِ ، وشفاء الصدور ، وجَلاء الأُمورِ ؛ من فضائله أنه يُقْرَأُ دائما ، ويُكْتَبُ ، ويملى ، ولاَ يملّ . ما أهْون الدنيا على مَنْ جعل القرآن [إمامه ، وتصوَّر الموتَ أمامه ، طوبى لمن جعل القرآن](٢) مصباحَ قَلْبِه ، ومفتاح لُبِّه . من حق القرآن حِفْظُ ترتيبه ، وحُسْنُ ترتيله .

قال بعض الحكماء : الحكمة مُوقِظَةٌ للقلوب من سِنَة الغَفْلة ، ومُنْقِذَةٌ للبصائر من سَكْرَةِ الحَيْرَة ، ومُحْيِيَةٌ لها من مَوْتِ الجهالة ، ومُسْتَخْرِجَةٌ لها من ضيقِ الضَّلاَلة ؛ والعلمُ دواء للقلوب العليلة ، ومِشْحَذٌ(٣) للأذهان الكليلة ، ونورٌ فى الظلمة ، وأُنْسٌ فى الوَحْشَةِ ، وصاحبٌ فى الوَحْدَة ، وسَميرٌ فى الخَلْوَةِ ، ووصْلةٌ فى المجلس ، ومادَّةٌ للعقل ، وتَلْقِيحٌ للفهم ، ونَافٍ للعِيِّ المُزْرِى بأَهْلِ الأَحْسابِ ، المقصِّرِ بذوى الألباب ؛ أَنطق الله سبحانه أهلَه بالبيان الذى جعله صفةً لكلامه فى تنزيله ، وأَيَّدَ به رُسُلَه إيضاحاً للمشكلات ، وفَصْلاً بين الشبهات ؛ شَرَّفَ به الوضيعَ ، وأعزَّ به الذليلَ ، وسوَّد به المسوَّد ، من تحلَّى بغيره فهو معطَّل(٤) ، ومن تعطَّل منه فهو مغفّل(٥) ، لا تُبْلِيه الأيام ، ولا تَخْتَرِمُه(٦) الدهور ، يتجدَّدُ على الابتذال ، ويزْكو(٧) على الإنفاق ؛ للهِ على ما منَّ به على عبادِه الحمدُ والشُّكْرُ .

---

(١) المحجة : الطريق . (٢) ساقط من ت . (٣) فى ت : وشحذ .
(٤) فى ت : عطل (٥) فى ت : غفل . (٦) من اخترمته المنية : أخذته ، واختطفته .
(٧) ينمو .

[أقوال فى البلاغة]

البلاغة عند عمرو بن عبيد

قيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلَّغك الجنّة ، وعَدَلَ بكَ عنِ النار ، وبصَّركَ مَوَاقعَ رُشْدِكَ ، وعواقبَ غَيِّك[١] . قال السائل : ليس هذا أُريد . قال : من لم يُحْسِنْ أنْ يسكُتَ لم يُحْسِنْ أن يَسْتَمِع ، ومن لم يُحْسِن الاستماعَ لم يُحْسِن القولَ . قال : ليس هذا أُريد . قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّا معشرَ الأنبياء فينا بَكْءٌ[٢] ؛ أى قِلّةُ كلام ؛ وكانوا يكرهون أنْ يزيدَ منطقُ الرجل على عَقْله . قال السائل : ليس هذا أُريد . قال : كانوا يخافون من فِتْنَةِ القولِ ومن سقَطَاتِ الكلام مالا[٣] يخافون من فِتْنَةِ السكوت ، وسقَطَاتِ الصَّمْت . قال : ليس هـذا أُريد . قال عمرو : يا هذا ؛ فكأنك تريدُ تخيّر[٤] اللفظ فى حسن الإفهام . قال: نعم . قال : إنَّك إنْ أردتَ تقريرَ حُجَّةِ الله عزَّ وجل فى عقول المكلَّفين ، وتخفيف المؤونة عن المستمعين ، وتَزْيين تلك المعانى فى قلوب المُرِيدين ، بالألفاظ المستحسنة[٥] فى الآذانِ ، المقبولةِ فى الأذهان ، رغبـةً فى سُرْعَةِ إجابتهم ، ونَفْىِ الشواغلِ عن قلوبهم ، بالموعِظَة الحسنة على الكتاب والسنة ـ كنت قد أُوتيت الحكمةَ وفَصْلَ الخطابِ ، واستوجَبْت من الله جزيلَ الثواب . فقيل لعبد الكريم بن روح الغِفارى : مَنْ هذا الّذى صبر له عَمْرٌو هذا الصبر ؟ قال : سألتُ عن ذلك أبا حفص الشمرى ، فقال : ومن يَجْتَرِئُ عليه هذه الجرأةَ إلاَّ حفص بن سالم ؟[٦]

وعمرو بن عبيد بن باب هو رئيسُ المعتزلة فى وَقْته ، وهو أَوَّلُ من تكلَّم على المخلوق ، واعتزلَ مجلسَ الحسن البصرى ، وهو أول المعتزلة[٧] .

ودخل عمرو بن عبيد على أبى جعفر المنصور فقال[٨] : عِظْنى . فقال : يا أميرَ

---

(١) فى ط ، ق : عملك . (٢) أصل البكء قلة اللبن . (٣) فى ت : كما يخافون .
(٤) فى ط ، ق : تخمير . (٥) فى ط : الحسنة . (٦) عيون الأخبار : ٢ — ٠٧ .
(٧) فى ت : وبه سميت المعتزلة . (٨) عيون الأخبار : ٢ ـ ٣٣٧ .

المؤمنين ؛ إنَّ اللّهَ أعطاكَ الدنيا بأَسْرِها، فاشْتَرِ نفسَك منه ببعضها ؛ ياأميرَالمؤمنين ؛ إنّ هذا الأمرَ لو كان باقياً لأَحَدٍ قبلَك ما وصل إليك، أَلَم تَرَ كيف فعلَ ربُّك بعادٍ إرمَ ذات العماد ! قال : فبكى المنصور حتى بَلَّ ثوبه . ثم قال : حاجتَك يا أبا عثمان ! وكان المنصور لَمَّا دخل عليه طَرح عليه طَيْلساناً . فقال : يُرْفَعُ هذا الطيلسان عنى! فرُفع . فقال له أبو جعفر : لا تَدَعْ إتياننا ! قال : نعم ، لا يضمُّنى وإياك بلدٌ إلّا دخلتُ إليك ، ولا بَدَتْ لى حاجة إلاّ سألتُك ، ولكن لا تُعطِنِى حتى أَسأَلك ، ولا تَدْعُنى حتى آتيك ، قال : إذاً لا تأتينا أبداً !

وقد رُوى مثل هذا لابن السماك مع الرشيد ، وقوله : لو كان هـذا الأمر باقياً لأَحدٍ قبلَك ماوصل إليك؛ كقول ابن الرومى :

لعمرُكَ ما الدُّنيـا بدارِ إقامةٍ　　　إذا زال عن عَيْنِ البصيرِ غِطاؤها
وكيف بقاءُ النـاسِ فيها وإنما　　　يُنال بأَسْـبابِ الفَنَاءِ بقاؤها

ووعظ شبيب بن شَيْبَة المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الله لم يجعل فوقك أحداً ، فلا تَجْعَلْ فوق شكره شكراً .

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده المهدى فقال له : هذا ابنُ أَخيك المهدى، ولىُّ عهد المسلمين ، فقال : سمَّيْتَه اسماً لم يستحقّ حمله ، ويفضى إليكَ الأمر وأنت عنه مشغول (١) .

وكان عمرو بن عبيـد يقول : اللهم أَغْنِنى بالافتقارِ إليك ، ولا تُفقِرْنى بالاستغناء عنك .

وقال له المنصور : يا أبا عثمان ؛ أَعِنِّى بأَصْحابك . قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أَظْهِرِ الحقَّ يَتْبَعك أهلُه .

وقال عمر الشمرى : كان عمرو بن عبيـد لا يكادُ يتكلَّم ، وإنْ تـكلَّم لم يَكَدْ

---

(١) فى ت : لم يستحقه عمله ، وتقضى إليه بالأمر وأنت عنه مشغول .

يُطيل ؛ وكان يقول : لا خيرَ فى المتكلِّم إذا كان كلامُه لمن يَشْهَدهُ دونَ قائله ، وإذا طال الكلامُ عرضَتْ للمتكلم أَسبابُ التكلُّف ، ولا خيرَ فى شىء يأْتيك به التكلُّف .

البلاغة عند أهل الهند

قال معمر[١] بن الأشعث[٢] قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباءَ الهند : ما البلاغةُ عند أهلِ الهند ؟ قال بهلة : عندنا فى ذلك صحيفةٌ مكتوبة، ولكننى لا أُحسِن ترجمتَها ، ولم أُعالجْ هذه الصناعة ، فأَثِقَ من نفسى بالقيام بخصائصها ، ولطيفِ معانيها . قال ابنُ الأشعث[٢] : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة[٣] فإذا فيها: أولُ البلاغة اجتماعُ آلة البلاغة ، وذلك أن يكونَ الخطيب رابطَ الجأْش ، ساكنَ الجوارحِ ، قليل اللَّحْظِ ، متخيّر اللفظ ، لا يكلّم سيدَ الأمّة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السُّوقة ، ويكون فى قُوَاهُ فَضْلُ التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقّق المعانى كلَّ التدقيق، ولا يُنَقِّحُ الألفاظ كلَّ التنقيح، ولا يصفِّيها[٤] كل التصفية ، ولا يهذّبها[٤] غايةَ التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادفَ حكيما أو فيلسوفا عليما ، ومن[٥] قد تعوّد حذْفَ فضول الكلام ، وإسقاطَ مشتركات الألفاظ ؛ وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة التصفُّح[٦] والاعتراض ، ووجه التظرُّف والاستظراف .

البلاغة عند المقفع

قال إسحاق بن حسان بن قوهى: لم يفسر أحد البلاغة تفسيرَ عبدالله بن المقفع[٧] إذ قال : البلاغةُ اسمٌ لمعانٍ تَجْرِى فى وجوهٍ كثيرة ، فمنها ما يكونُ فى الاستماع ، ومنها ما يكونُ فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكونُ فى الحديث ،

---

(١) البيان والتبيين : ١ — ٥١ ، الصناعتين : ١٩ ، عيون الأخبار : ٢ — ١٧٣ .

(٢) وفى ت، ق : أبو الأشعث . (٣) فى ط : فتلقيت تلك الصحيفة المترجمة .

(٤) فى الصناعتين : ويصفيها ، ويهذبها . وفى ت : ولا يصفيها ويهذبها .

(٥) فى ت : ومن تعود صرف فضول الكلام .

(٦) فى الصناعتين : التفصح . (٧) الصناعتين : ١٤ ، والبيان : ١ — ٦٤ .

ومنها ما يكونُ فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكونُ جوابا ، ومنها ما يكون سَجْعاً ، ومنها ما يكون خُطَباً ، ومنها ما يكون رسائلَ ؛ فغايةُ هذه الأبواب الوحىُ فيها والإشارةُ إلى المعنى ؛ والإيجازُ هو البلاغة، فأما الخطب فيما بين السِّماطين[١] وفى إصلاح ذات البين، فالإكثارُ فى غير خَطَل[٢]، والإطالةُ فى غير إملال ، ولكن ليَكن فى صَدْرِ كلامِك دليلٌ على حاجتك ، كما أَنَّ خيرَ أَبياتِ الشعر البيتُ الذى إذا سمعتَ صَدْرَه عرفتَ قافيته ؛ كأنه يقول فرِّق بين صدر خطبة النكاح ، وخطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة التَّوَاهُب ، حتى يكونَ لكل فنّ من ذلك صَدْرٌ يدل على عَجُزه ؛ فإنه لا خيرَ فى كلامٍ لا يدلُّ على معناك ولا يشيرُ إلى مَغْزَاك ، وإلى العمود الذى إليه قَصَدْت ، والغرض الذى إليه نَزَعْت .

فقيل له : فإن ملَّ المستمعُ الإطالة التى ذكرت أنها أحقُّ بذلك الموضع ؟ قال : إذا أعطيت كلَّ مقامٍ حقَّه ، وقمتَ بالذى يجب من سياسة الكلام ، وأرضيتَ من يعرف حقوقَ ذلك ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ ؛ فإنهما لا يَرْضَيَان بشىء ؛ فأماالجاهِلُ فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شئٌ لا يُنَال .

[الإطالة والإيجاز]

وقد مدحوا الإطالةَ فى مكانها كما مدحوا الإيجازَ فى مكانه . قال أبو داود [ابن جرير][٣] فى خطباء إياد[٤] :

يَرْمون بالخطب الطوال وتارةً ... وحْىَ الملَاحظِ خِيفَة الرقباءِ

قال أبو وَجْزة[٥] السعدى يصف كلام رجل :

يَكْفِى قليلُ كلامِه وكثيرُهُ ... ثبتٌ إذا طَالَ النِّضالُ مُصِيبُ

---

(١) السماطان : الصفان . (٢) الخطل : الفساد ، وفى ت : إقلال .

(٣) ليست فى ت . (٤) الصناعتين : ٥٨ . (٥) فى ط ، ق : وجرة .

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ولم يسمّ قائلَه وهو مولّد ولم ينقصه توليده من حظّ القديم شيئاً (١) :

طَبيبٌ بداء فُنُونِ الـكلا م لم يَعْيَ يوماً ولم يَهْذِرِ (٢)
فإنْ هـو أَطْنَبَ فى خُطْبَةٍ قَضَى للمُطِيل على المُنْزِرِ (٣)
وإن هو أَوْجَزَ فى خُطْبَةٍ قَضَى للمُقِلِّ على المُكْثِرِ

وقال آخر يصف خطيباً :

فإذا تكلَّم خِلْتَهُ متكلّماً بجميع عِدَّةِ أَلْسُنِ الخطباءِ
فكأن آدم كان علّمه الّذى قد كان عُلِّمَهُ مِنَ الأسماءِ

وكان أبو داود (٤) يقول : تلخيص (٥) المعانى رِفق ، والاستعانة بالغريب عَجْزٌ ، والتشدق فى الإعراب نَقْصٌ (٦) ؛ والنظرُ فى عيون الناس عِىّ ، ومسُّ اللحيـة هُلك (٧) ، والخروجُ عما بُـنِى عليه الـكلام إسهاب .

وقال بعضهم يهجو رجلا بالعىّ :

مَلِىءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسعلةٍ ومَسْحَةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابعِ (٨)

وصف العتابى رجلا بليغاً فقال (٩) : كان يُظْهِر ماغَمض من الحجّة ، ويصوِّر الباطلَ فى صورةِ الحق ، ويُفْهِمُك الحاجةَ من غيرِ إعادة ولا استعانة . قيل له : وما الاسْتِعَانة ؟ قال. يقول عند مقاطع كلامه ياهناة ، واسْمَع ، وفَهِمت ! وما أشبهَ ذلك . وهذا من أَمَارَاتِ الْعَجْزِ ، ودلائل الحصَرَ ! وإنما ينقطعُ عليه كلامه فيحاولُ وصْلَه بهذا ، فيكون أَشدَّ لِانْقِطَاعِه .

البليغ عند العتابى

---

(١) العمدة : ١ — ٢١٤ . (٢) فى ت : ولم يعذر . (٣) المنزر : المقال .
(٤) الصناعتين : ٣ ، وفى ت : أبو دلف . (٥) فى ظ : تخليص ، وهذا من س .
(٦) فى الصناعتين : والتشادق من غير أهله . (٧) فى الصناعتين : هلل . وهو الخوف والإحجام . وفى ت : نوك . (٨) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء . والعثنون: اللحية. وفى ق: مكى ببهد (٩) البيان : ١ : ٦٢ .

وكان أبو داود يقول : رَأسُ الخَطَابة الطَّبْع ، وعمودُها الدُّربة وجَناحَاها رِوَايةُ الكلام ، وحَلْيُها الإعراب ، وبهاؤُهَا تَخيُّرُ اللفظ ؛ والمحبةُ مقرونةٌ بقلة الاستِكْرَاه .

[البيان عند الجاحظ]

المعانى

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(١) : قال بعض جهابِذَةِ الألفاظ ، ونُقّاد المعانى : المعانى القائمةُ فى صدور الناس ، المختلجة فى نفوسهم ، والمتصوَّرة فى أذهانهم المتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورةٌ خفيَّة، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة، وموجودة فى معنى(٢) معدومة ، لا يعرفُ الإنسانُ ضميرَ صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمره ، وعلى مالا يبلغه من حاجاتِ نفسه إلاّ بغيره ، وإنما يحيى تلك المعانى ذِكْرهم لها(٣) ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها .

وهذه الخصالُ هى التى تقرّبها من الفهم ، وتجلِّيها للعقل ، وتجعل الخفىّ منها ظاهرا، والغائب شاهدا ، والبعيد قريبا . وهى التى تلخِّص(٤) الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مُقَيَّدا ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفا ، والوحشىّ مألوفا ، [والغفل موسوما ، والموسوم معلوما](٥) ؛ وعلى قَدْرِ وضوحِ الدلالة ، وصواب الإشارة، وحُسْنِ الاختصار ، ودقة المدْخَلِ ، يكون ظهورُ المعنى . وكلما كانت الدلالةُ أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أَبْيَنَ وأنور، كانت أنفع وأنجع فى البيان . والدلالةُ الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله يَمْدَحه ، ويَدْعُو إليه ، ويحثُّ عليه ؛ بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم .

---

(١) البيان والتبيين : ١ ــ ٤٢ . (٢) فى ت : ومحجوبة فى القلب معدومة ، وفى ت : ومحجوبة مكنونة فى القلب . (٣) فى ت : تجنى تلك المعانى بذكرهم .
(٤) فى ت : تخلص (٥) الزيادة من البيان .

البيان

والبيان اسمٌ لكل شىء كشف لك عن قِناع المعنى ، وهَتَك لكَ الحُجُبَ دون الضمير ، حتى يُفضى السامعُ إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ؛ لأَنَّ مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائلُ والسامع إنما هو الفهم والإفهام ؛ فبأىّ شىء بلغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

المعانى والألفاظ

ثم اعْلَمْ حَفِظَك اللهُ أنَّ حُكْمَ المعانى خلافُ حكم الْأَلفاظ؛ لِأَنَّ المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدّة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى محصورة [(١)] معدودة ، ومحصَّلة محدودَة .

الدلالات على المعانى خمسة

وجميعُ أَصْنَافِ الدلالات على المعانى من لفظٍ أو غيره خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد : أوّلها اللَّفظ، ثم الإشارة ، ثم العَقْد، ثم الخطّ ، ثم الحال التى تسمى نُصبة. والنِّصْبَة هى الحالُ الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تَقْصُرُ عن تلك الدلالات .

ولكل واحدةٍ من هذه الدلائل الخمسة صورةٌ بائنةٌ من صورةِ صاحبتها ، وحِلْيَةٌ مخالفةٌ لِحِلْيَةِ أختها ؛ وهى التى تكشف لك عن أَعْيَان المعانى فى الجملة ، وعن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأَقْدَارِها ، وعن خاصّها وعامِّها ، وعن طبقاتها فى السّارّ والضار ، وعما يكون منها لَغْواً بهرجا [(٢)] ، وساقطا مطَّرحا .

المعانى غير مقصورة ولا محصورة

وفى نحو قول أبى عثمان « إنّ المعانى غير مقصورةٍ ولا محصورة » يقول أبو تمام الطائى لأبى دلف القاسم بن عيسى العجلى [(٣)] :

ولو كان يفنى الشعرُ أَفْنَتْهُ ما قَرَتْ [(٤)] ... حِيَاضُك منه فى العصورِ الذَّوَاهِبِ
ولكنه فيضُ [(٥)] العقولِ إذا انجلَتْ ... سحائبُ منه أعْقِبَتْ بسَحَائبِ

---

(١) فى البيان ، وفى ت : مقصورة . (٢) بهرج : ردىء . (٣) ديوانه : ٤٣ .
(٤) قرت : جمعت . (٥) فى الديوان ، وفى ت : صوب .

كما أشار إلى قول أَوْس بن حَجر الأَسدى :

أقول بمـا صَبّت علىّ غمامتى وجهدى َفى حبل العشيرة أحطِبُ(١)

***

في اللسان عشر خصال

وقال بعضُ البلغاء : فى اللسان عشرُ خصالٍ محمودة ، أداةٌ يظهر بها البيان ، وشاهدٌ يخبر عن الضمير ، وحاكمٌ يفصل الخطاب ، وواعظ يَنْهَى عن القبيح ، وناطق يردُّ الجواب، وشافع تُدْرَك به الحاجة ، وواصفٌ تعرف به الأشياء ، ومعرب يشكَر به الإحسان(٢)، ومُعِزّ تذهب به الأَحْزان، وحامِدٌ يُذْهِبُ الضغينةَ ، ومونق يلهى الأسماع .

وقال أبو العباس بن المعتز : لحظةُ القلب أسرعُ خطرةً من لحظة العين ، وأبعدُ مجالا ، وهى الغائصة فى أعماق أوْدِيةِ الفكر ، والمتأمّلة لوجوه العواقب ، والجامعةُ بين ماغاب وحضر ، والميزانُ الشاهدُ على ما نَفَع وضَرّ ، والقلب كالمُمْلِى للكلام على اللسان إذا نطق ، واليد إذا كتبت ؛ والعاقل يكسو المعانى وشْىَ الكلام فى قلبه، ثم يُبْدِيها بألفاظ كواسٍ فى أحسن زينة ، والجاهل يستعجلُ بإظهار المعانى قبل العناية بتزيين مَعَارضها ، واستكمال محاسنها .

البيان عند جعفر بن يحيي

وقيل لجعفر بن يحيي البرمكى : ماالبيان(٣) ؟ قال: أن يكونَ الاسمُ يحيط بمعناك، ويَكْشِف عن مَغْزاك، ويخرجه من الشركة . ولايُسْتَعان عليه بالفكر ، ويكون سليما من التكلُّف ، بعيداً من الصَّنعة ، بَرِيئاً من التعقيد ، غَنيًّا عن التأويل(٤) .

وذكر سهل بن هارون ، وقيل ثمامة(٥) بن أشرس جعفر بن يحيي فقال : قد جَمَع فى كلامه وبلاغته الهَذَّ والتمهل(٦) والجزالة والحلاوةَ ، وكان يُفهم إفهاما

(١) يحطب فى حبل العشيرة أى يستعين بها كما يستعين الحاطب بالحبل .

(٢) فى ت : ومعرب بشكر الله عز وجل والإخوان ، وفى س : ومعرب يشكر به الإخوان ومعز . (٣) الصناعتين : ٤٢ . (٤) فى الصناعتين : التأمل .

(٥) الصناعتين : ٢٣ ، ٤٣ . عيون الأخبار : ٢ ـ ١٧٣ . (٦) الهذ : السرعة .

يُغْنيه عن الإعادة للكلام . ولو كان يَسْتَغنى مستغنٍ عن الإشارة بمنطقه لاستغنى عنها جعفر. كما استغنى عن الإعادة فإنه لا يتحبَّسُ ولا يتوقَّفُ فى منطِقِه ولا يتلَجْلَجُ ، ولا يتسعّل ، ولا يترقّب لفظا قد استدعاه من بُعْد ، ولا يلتمس معنًى[1] قد عصاه بعد طلبه له .

* * *

بم فاق بشار أهل عصره؟

وقيل لبشَّار بن بُرْد : بِمَ فُقْتَ أهل عمرك ، وسبقتَ أَهْلَ عصرك ، فى حسن معانى الشعر ، وتهذيب ألفاظه ؟ فقال : لأنى لم أقبل كلَّ ما تُورِدُهُ علىَّ قريحتى ، ويُنَاجينى به طَبْعِى ، ويبعثه فكرى ، ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق،ولطائف التشبيهات ، فسرت[2] إليها بفهمٍ جيد ، وغريزة قوية ، فأحكمت سَبْرَها ، وانتقيت[3] حُرّها ، وكشفتُ عن حقائقها ، واحترزتُ من متكلَّفها ، ولا والله ما ملك قِيادى قطّ الإعجاب بشىء مما آتِى به .

وكان بشارُ بن برد خطيباً ، شاعراً ، راجزاً ، سجّاعاً ، صاحب منثور ومزدوج . ويلقب بالمرعّث لقوله :

مَنْ لِظَبْىٍ مُرعّثٍ ساحر الطرف والنظَرْ[4]
قال لى لن تنالنى قلت أو يغلب القَدَرْ

وليس هذا موضع استقصاء ذكره، واختيار شعره . وسأستقبل ذلك إن شاءالله.

[وصية أبى تمام للبحترى]

وقال الوليد بن عبيد البحترى[5] : كُنْتُ فى حَدَاثتى أَرُوم الشِّعْرَ ، وكنتُ أرْجع فيه إلى طَبْعٍ[6] ، ولم أَكُنْ أقِف على تَسْهِيل مَأْخَذِه ، ووجوه اقتضابه[7] ،

---

(١) فى ت : كلاما (٢) فى ت : فصرت . (٣) فى ت : وابتغيت .
(٤) مرعث : يلبس الرعث وهو القرط . (٥) العمدة : ٢ ــ ١٠٩ .
(٦) فى ط : إلى طبعى . (٧) فى العمدة : اقتضائه .

حتى قصدتُ أبا تمام وانقطعت فيه إليه، واتّكلْتُ فى تعريفه عليه ؛ فكان أول ماقال لى: يا أبا عبادة ؛ تخيّر الأوقاتَ وأنت قليلُ الهمومِ ، صِفْرٌ من الغموم ، واعلم أن العادةَ جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسانُ لتأْليفِ شيء أو حِفْظِه فى وَقْتِ السَّحَر ؛ وذلك أن النَّفْسَ قَدْ أخذَتْ حظَّها من الراحة ، وقِسْطَها من النـوم ، وإن أردتَ التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً ، والمعنى رقيقاً ، وأَكْثِر فيه من بيان الصبابة ، وتوجُّع الـكآبة ، وقلق الأشواق ، ولَوْعَة الفراق ، فإذا أخذت فى مديح سيّد ذى أيادٍ فأَشْهِر مناقبَه ، وأظهر مناسبه ، وأبِنْ معالمه ، وشرف مقامه[1] ، ونضِّد المعانى [2] ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تَشين شِعْرَك بالألفاظ الرديئة[3] ، ولتكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجساد . وإذا عارضك الضجر فأَرِحْ نفسَك ، ولا تعمل شعرك إلّا وأنْتَ فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقولِ الشعر الذَّريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملةُ الحال أنْ تعتبر شعرَك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

قال : فأعملت نفسى فيما قال فوقفت على السياسة[4] .

***

صفة البليغ وقالوا : البليغ من يَحُوك الـكلام على حسب الأمانى ، ويخيط الألفاظ على قدُود المعانى .

فضل الليل ولذكر الطائى الليـل[5] ذكر بعض أهل العصر وهو أبو على محمد بن الحسن بن المظفَّر الحاتمى الليل فقال: فيه تَجُمُّ الأذهان، وتنقطع الأشغال ، ويصح النظر، وتؤلّف الحـكمة ، وتدرّ الخواطر ، ويتّسع مجال القلب . والليل أَضْوأُ فى مذاهب الفكر ،

---

(١) فى ت : مقاومه . (٢) فى العمدة ، ت : وتقاض المعانى .

(٣) فى العمدة : الزرية ، وفى ت : الردية . (٤) فى ت : على سياسة قول الشعر .

(٥) لعله يشير إلى قول البحترى : وقت السحر، فى كلامه السابق .

وأَخْفى لعمل البر ، وأَعون على صَدَقة السرّ ، وأصح لتلاوة[١] الذكر ؛ ومدبرو الأمور يختارون الليلَ على النهار ، فيما لم تصف[٢] فيه الأناة لرياضة التدبيرِ وسياسة التقدير ، في دَفْع الملمّ ، وإمضاء المهمّ ، وإنشاء الكتب ، وتصحيح المعانى ، وتقويم المبانى ، وإظهار الحُجَج ، وإيضاح المَنْهج ، وإصابة نَظْمِ الكلام ، وتقريبه من الأفهام .

وقال بعض رؤساء الكتّاب : ليس الكتابُ[٣] فى كل وقتٍ على غير نسخة لم تحرّر بصواب ؛ لأنه ليس أحدٌ أولى بالأناة وبالروّية من كاتب يَعْرِض عقله ، وينشرُ بلاغته ؛ فينبغى له أن يعمل النسخ[٤] ويرويها ، ويقبل عَفْوَ القريحة ولا يستكرهها ، ويعمل على أن جميعَ الناس أعداء له ، عارفون بكتابه منتقدون عليه ، متفرغون إليه .

لابتداء الكلام فتنة

وقال آخر : إنّ لابتداء الكلام فتنةً تروق ، وجِدةً تعجب ، فإذا سكنت القريحة ، وعدل التأمّل ، وصَفَت النَّفس ، فليعد النظر ، وليكن فَرَحُه بإحسانه ، مساوياً لغمِّه بإساءته ؛ فقد قالت الخوارج لعبد الله بن وهب الراسبي : نبايعك الساعة فقد رأينا ذلك . فقال : دَعُوا الرأى حتى يبلغ أَناته ، فإنه لا خيرَ فى الرأْى الفَطير ، والكلام القضيب[٥] .

الأناة

وقال معاوية بن أبى سفيان رحمه الله لعبد الله بن جعفر : ماعندك فى كذا وكذا؟ فقال : أريد أن أُصْقل عقلى بنَوْمَة القائلة[٦] ، ثم أروح فأقول بعد ما عندى[٧] ، قال الشاعر :

إن الحديث تغر القومَ جَلْوَتُه[٨] حتى يغيِّرَه[٩] بالوَزْنِ مضمارُ

---

(١) فى ظ : وتلاوة ، وهذا من ت ، س . (٢) فى ت ، س : تضق فيه الأناة عن الرياضة والتدبير . (٣) الكتابة ، وفى ت : الكتب . (٤) فى ت : ما ينسخ .

(٥) الرأى الفطير : الذى لم ينضج . (٦) القائلة : نصف النهار .

(٧) فى ت : فأقول بعد بما . (٨) فى س : خلوته .

(٩) فى ت : حتى يعيره .

فعند ذلك تستكفى بلاغتهُ أو يستمرُّ به عِىٌّ وإكْثارُ

وقالوا : كل مُجْرٍ بالخَلَاء يُسَرّ[١] . وقال أبو الطيب المتنبي[٢] :

وإذا ما خَلَا الجَبَانُ بأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه والنِّزالَا

* * *

وكان قلم ابن المقفع يَقِفُ كثيراً فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الكلام يَزْدَحِمُ فى صدرى ، فيقف قلمى ليتخيّر .

الكتاب والخطاب

وقالوا : الكِتَاب يُتصفَّح أكثر مما يتصفَّح الخطاب ؛ لأنّ الكاتب متخيِّر ، والمخاطب مضطرّ ، ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أأَسْرَعْتَ فيه أم أبطأت ؛ وإنما ينظر أأخطأتَ أم أَصبتَ ؛ فإبطاؤكَ غيرُ قادح فى إصابتك ، كما إن إسراعَك غير مُغَطٍّ على غَلَطِك .

النسخ

ووصف بعض الكتّاب النسخ فقال : ينبغى أَن يصحَبها الفكر إلى استقرارها ، ثم تُستبرأ[٣] بإعادة النظر فيها بعد اختيارها ، ويوسَّع بين سُطُورِها ، ثم تحرّر على ثقةٍ بصحتها ، وتُتأمل بعد التحرير حَرْفاً حرفاً إلى آخرها .

فقد كتب المأمون مُصْحفاً اجتمع عليه ؛ فكان أوله : بسم الله الرحيم ، فأغفلوا الرحمن ؛ لأنّ العينَ لا تَعتبرُ ذلك ؛ ثقة أنه لا يُغْلَط فيه ، حتى فَطِنَ المأمون له .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات للحسن بنِ وهب : حرِّر هذه النسخة وبكِّر بها ، فتصبَّح الحسن[٤] ، فقال له : لم تصبّحت ؟ قال : حتى تصفحت ![٥]

وقال أحمد بن إسماعيل بَطَاحَة : كان بعض العلماء الأغبياء ينظر فى نسخِه بعد نفوذ كُتُبه ، فقال بعض الكتاب :

---

(١) يريد أن الذى يجرى فرسه بالخلاء يسر بظفره حيث لا مناضل ، وهو مثل فى التهكم .
(٢) ديوانه : ٣ ــ ١٤٣ . (٣) تستبرأ : المراد يتبين حالها .
(٤) التصبح : النوم بالغداة ، والمراد تأخر . (٥) فى ت : قال : ما تصبحت .

مُسْتَلَبُ اللُّبِّ غَوِىٌّ(١) الشبابْ عذَّبه الهَجْر أشد العذاب
يؤمل الصبر وأنّى لَهُ به وقد مُكّن منه التصابْ
كناظرٍ فى نسخةٍ يبتغى إصلاحَها(٢) بعد نفوذِ الكتاب

أوصاف بليغة فى البلاغات على ألسنةِ أقوام من أهل الصناعات

قال بعضُ من ولَّد عقائل هذا المنثور ، وألَّف فواصل هذه الشذور : تجمَّع قوم من أهل الصناعات فوصفوا بلاغاتِهم ، من طريق صناعاتِهم :

فقال الجوهرى : أَحسنُ الكلام نِظاماً ما ثقبته يَدُ الفكرة ، ونظمته الفِطْنة ، ووُصِلَ جَوْهَرُ معانيه فى سُموط(٣) أَلْفَاظه ، فاحتملته نحورُ الرواة .

وقال العطار : أَطيبُ الكلامِ ما عُجِنَ عَنْبَرَ ألفاظه بمِسْك مَعانيه ، ففاح نسيمُ نَشَقِه(٤) ، وسطعت رائحة عَبَقِه ، فتعلقت(٥) به الرُّوَاة ، وتعطَّرت به السّراة .

وقال الصائغ : خيرُ الكلام ما أَحْمَيْتَه بكِير الفِكر ، وسبَكْتَه بمشَاعِل النّظر ، وخلَّصته من خَبَث الإطناب ، فبرز بروزَ الإبريز ، فى معنى وَجيز .

وقال الصيرفى : خيرُ الكلام ما نقَدَتْهُ يدُ البصيرة ، وجَلته عينُ الرويَّة ، ووزنَتَه بمِعْيَار الفصاحة ، فلا نظر يُزَيّفه ، ولا سماعَ يُبَهْرِجُه .

وقال الحداد : أحسن الكلام ما نصبت عليه مِنْفَخة القريحة(٦) ، وأشعلْتَ عليه نارَ البصيرة ، ثم أخرجتَه من فحم(٧) الإفحام ، ورقَّقته بفطِّيس(٨) الإفهام .

وقال النجار : خيرُ الكلام ما أحكمتَ نَجْرَ معناه بقَدُوم التقدير ، ونَشَرْتَه بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارِضة لسَقْفِ اللسان .

---

(١) فى س : معى ، وفى ق : مغى الثبات. (٢) فى ت : صلاحها . (٣) السمط : خيط النظم ، وجمعه سموط . (٤) نشقه : شمه . (٥) فى ت : فتغلغلت . (٦) فى ت : الروية .
(٧) فى ت : محم الأفهام . (٨) الفطيس : المطرقة العظيمة .

وقال النجاد : أحسنُ الكلام ما لطُفت رَفارِف ألفاظه ، وحسُنت مَطارِح معانيه ، فتنزهت فى زَرَابىِّ محاسنه عيونُ الناظرين ، وأصاخت لنمارِقِ بَهْجته آذان السامعين .

وقال الماتح : أبْيَن الكلام ما علقت وَذَمُ ألفاظه ببكرة[١] معانيه ، ثم أرسلته فى قَلِيب الفطن فمتحت به سقاء يكشِفُ الشبهات ، واستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات .

وقال الخياط : البلاغة قميص ؛ فجُرُبَّانه البيان ، وجَيْبُه المعرفة ، وكُمَّاه الوجازة ، ودَخَارِيصه الإفهام[٢] ، ودُرُوزُه الحلاوة[٣] ، ولابس جَسَدُه[٤] اللفظ ، و روحه المعنى .

وقال الصّباغ : أحسنُ الكلام مالم تنْضَ بهجة إيجازه[٥] ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، قد صَقَلَتْه يَدُ الروِيّة من كُمُود[٦] الإشكال ، فَرَاعَ كواعِبَ الآداب ، وألَّف عَذَارى الألْبَاب .

وقال الحائك : أحسنُ الكلامِ ما اتَّصَلت لُحمة ألفاظه بسَدَى معانيه فخرج مفوَّفا مُنيرا ، وموشَّى محبَّرا .

وقال البزاز : أحسن الكلام ما صدقَ رقم ألْفَاظه ، وحسن نَشْرُ معانيه ، فلم يستَعْجِمْ عنك نَشر[٧] ، ولم يستبهم عليك طَىٌّ[٨] .

وقال الرائض : خيرُ الكلام ما لم يخرج عن حَدِّ التَّخْليع ، إلى منزلة التَّقْرِيب[٩] إلا بعد الرياضة ، وكان كالمُهرِ الذى أطمع أوَّلُ رياضته فى تمام ثقافته .

---

(١) فى ت : بكرب ، والوذم : السيور بين آذان الدلو .

(٢) الجربان للقميص : جيبه . والدخريص معرب أصله فارسى وهو عند العرب : البنيقة ، واللبنة والسبجة (لسان — دخرص) . والدخاريص : ما يوصل به البدن ليوسعه .

(٣) الدرز : زئبر الثوب وماؤه وجمعه دروز . (٤) فى ت ، و س : ولابسه جسد اللفظ وروح المعنى . (٥) لم تنض : لم تمح . (٦) الكمدة : تغير اللون وذهاب صفائه .

(٧) فى ت : نشره . (٨) فى ت : حله . (٩) التقريب : ضرب من العدو ، وتخلع فى مشيته : هز منكبيه ويديه ، وتخلع : تفكك فى مشيته .

وقال الحمَّال : البليغُ من أخذ بخِطام كلامه ، فأناخه فى مَبْرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقالا ، والإيجاز له مجالا ، فلم يَنِدّ عن الآذان ، ولم يشذَّ عن الأذهان .

وقال المخنّث : خيرُ الكلام ما تكسَّرت أطرافُه ، وتثنَّت أعطافه ، وكان لفظه حُلَّة ، ومعناه حلْية .

وقال الخمار : أبلغُ الكلام ماطبَخَتْه مَرَاجِلُ العلم ، وصفَّاه[1] رَاوُوق الفَهْم ، وضمَّتْه دِنَان الحكمة ، فتمشَّت فى المفاصل عُذُوبَتُه ، وفى الأفكار رِقَّته ، وفى العقول حِدَّته .

وقال الفقاعى[2] : خيرُ الكلام ما رَوَّحَتْ[3] ألفاظه غَبَاوة الشكّ ، ورفعت رِقَّته فظاظةَ الجهل ، فطاب حِساءُ فطنته ، وعذُب مَصّ جُرعه .

وقال الطبيب : خيرُ الكلام ما إذا باشر [دواء][4] بيانه سقم الشّبهة استطلقت طبيعةُ الغباوة ؛ فشُفِى من سوء التفهم[5] ، وأورث صحة التوهّم[6] .

وقال الكحَّال : كما أن الرّمد قَذَى الأبصارِ ، فكذا الشبهة قَذَى البصائر ، فاكْحَل عَيْنَ اللُّكنة بمِيل[7] البلاغة ، واجْلُ رَمَص الغَفْلة بِمِرْوَدِ اليقظة . ثم قال: أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما إذا أشرقت شَمْسُه ، انكشف[8] لَبْسه ، وإذا صدقت أنواؤه اخضرت أحماؤه[9] .

فِقر فى وصف البلاغة لغير واحد

قال أعرابى[10] : البلاغةُ التقرب من البعيد ، والتباعد من الكُلْفَة ، والدلالةُ بقليل على كثير .

---

(١) فى ت : وكان صفاؤه . (٢) فى ط الفقاع . (٣) فى ط : ما أزاحت.
(٤) ليست فى ت . (٥) فى ت : التوهم . (٦) فى ت : التلوم .
(٧) الميل : المكحال . (٨) فى ت ، س : كشف .
(٩) الأحماء : جمع حمى، وهو المكان يحميه الرجل ويمنعه . (١٠) الصناعتين : ٤٧ .

قال عبد الحميد بن يحيى : البلاغةُ تقريرُ المعنى فى الأفهام من أَقْرَب وجوه الكلام .

ابن المعتز : البلاغةُ البلوغ إلى المعنى ولم يطل سَفَر الكلام .

سهل بن هارون : البيان ترجمان العقول ، ورَوْض القلوب ، وقال(١) : العقل رائدُ الروح ، والعلم رائدُ العقل ، والبيان تَرجمان العلم .

إبراهيم بن الإمام : يكفى من البلاغة ألا يُؤْتَى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتَى الناطق من سوء فهم السامِع .

العتابى : البلاغة مدّ الكلام بمعانيه إذا قَصر ، وحُسن التأليف إذا طال .

أعرابى(٢) : البلاغة إيجاز فى غير عَجْز ، وإطناب فى غير خَطَل .

[وكتب إبراهيم بن المهدى إلى كاتب له ورآه يتبع وحشى الكلام : إياك وتتبع الوحشى طمعاً فى نَيْلِ البلاغة ؛ فإن ذلك العىّ الأكبر ، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل .

وقال الصولى : ووصف يحيى بن خالد رَجُلًا فقال : أخذ بزمام الكلام ، فقاده أَسهل مقاد ، وساقه أجمل مساق؛ فاسترجع به القلوب النافرة ، واستصرف به الأبصار الطامحة .

وسمع أعرابى كلامَ الحسن البصرى رحمه الله ، فقال : والله إنه لفصيح إذا نطق، نصيح إذا وعظ .

قال الجاحظ : ينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى الكلام ، عذب ينابيع اللسان ؛ إذا حاور سدّد سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يكلم الخاصة بكلام العامة، ولا العامة بكلام الخاصة .

وقال أبو العباس المبرد : قال الحسن بن سهل لسالم الحرارى : ما المنزلة التى إذا

---

(١) البيان : ١ — ٤٣ . (٢) البيان : ١ — ٥٤ .

نزل بها الكاتب كان كاتباً فى قوله وفعله واستحقاقه ؟ قال : أن يكون مطبوعاً على المعرفة مُحْتَنِكا بالتجربة ، عارفاً بحلال الكتاب وحرامه ، وبالدهور فى تصرفها وأحكامها ، وبالملوك فى سِيَرِها وأيامها ، وأجناس الخط ، وبادية الأقلام ، مع تشاكل اللفظ وقرب المأخذ . قال الحسن : فليس فى الدنيا إذاً كاتب][1] .

وقيل لليونانى[2] : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيل للرّومى[3] : ما البلاغة ؟ قال: حسنُ الاقتضاب عند البداهة[4] ، والغزارة يوم الإطالة .

وقيل للهندى : ما البلاغة ؟[5] قال : وضوح الدلالة ؛ وانتهاز الفرصة ، وحُسْن الإشارة .

وقيل للفارسى[6] : ما البَلَاغَة ؟ قال : مَعْرِفَة الفَصْل من الوصل .

وقال على بن عيسى الرمانى : البلاغةُ إيصال المعنى إلى القَلْبِ فى أحسن صورةٍ من اللفظ .

ومن كلام أهل العصر فى صفة البلاغة والبلغاء

[قال على بن عيسى الرمانى][7] : أبلغ الكلام ما حَسُن إيجازه ، وقلّ مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدورُه وأعجازه .

أبلغُ الكلام ما يُؤْنس مُسْمِعه ، ويُؤْنِس مضيّعه[8] .

البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارَها ، ومن المعانى ثمارها .

ليست البلاغةُ أن يُطال عنان القلم أو سِنَانه ، أو يُبْسَط رِهان القول ومَيْدَانه ، بل هى أنْ يبلغ أَمَد المراد بألفاظ أَعْيَان ، ومعان أَفْرَاد ، من حيث لا تزيدُ على الحاجة ، ولا إخلال يُفْضِى إلى الفاقة .

---

(١) زيادة من ت . (٢) البيان : ١ ــ ٤٩ . (٣) الصناعتين : ٣٩ .
(٤) فى ت : على البداهة . (٥) الصناعتين : ٤٩ . (٦) الصناعتين : ٤٩ .
(٧) من ت . (٨) فى ت : مصنعه .

البلاغة ميدانٌ لا يقطع إلا بسوابق الأذهان ، ولا يُسْلَك إلا ببصائر البيان .

فلان يعبث بالكلام، ويقوده بألين زمام، حتى كأنّ الألفاظ تتحاسدُ فى التسابق إلى خواطره ، والمعانى تتغايرُ فى الانثيال على أنامله . هذا كقول أبى تمام الطائى (١) :

تغاير الشعرُ فيه إذ سهرتُ (٢) لَهُ ... حتى ظننتُ قوافيهِ ستقتتِلُ

فلان مشرفى المشرق ، وصَيْرَفىّ المنطق . البيانُ أصغر صفاته ، والبلاغةُ عَفْوُ خطراته ، كأنما أوحى بالتوفيق إلى صَدْره ، وحسن الصواب بين طَبْعه وفكره .

فلان يحزّ مَفَاصِل الكلام، ويسبق فيها إلى دَرك المرام، كأنما جمع الكلام حولَه حتى انتقى منه وانتخَب ، وتناول منه ما طَلَب ، وترك بعد ذلك أَذْنابا لا رءوسا ، وأَجْسادا لا نفوساً .

فلان يَرْضَى بعفو الطَّبْع ، ويقنع بما خفَّ على السمع ، ويُوجز فلا يخلّ ، ويُطْنِب فلا يُمِلّ . لله فلان أخذ بأزمّة القول يقودُها كيف أراد ، ويَجْذِبُها (٣) أَنَّى شاء ، فلا تعصيه بين الصَّعب والذلول، ولا تسلمه عند الحزونة والسّهول، كلامُه يشتدّ مرَّة حتى تقول الصَّخْر الأملس ، ويلين تارةً حتى تقولَ الماء أو أَسْلَس ، يقول فيَصُول ، ويُجيب فيُصِيب ، ويَكْتبُ فيطبِّقُ المَفْصِل أو يُنَسِّق الدرَّ المفصَّلَ ، ويردُ مشارِعَ الكلامِ وهى صَافِيَة لم تطرق ، وجَامّة لم تُرَنَّقْ (٤) ، خاطِرُهُ البَرْقُ (٥) أو أَسْرَع لمعا ، والسَّيْفُ أو أَحدُّ قَطْعا ، والماء أَو أَسْلَس جَرْيا ، والفلك أو أَقْوَم هَدْيا ؛ هو ممن يسهل الكلام على لفظه ، وتتزاحَمُ المعانى على طَبْعِه ، فيتناول المَرْمَى البعيدَ بقريب (٦) سَعْيِه ، ويستَنْبطُ المشرع العميق بيسيرِ جَرْيِه ، لسانه يَفلِقُ الصُّخُور ، ويغيض البحور ، ويُسْمِع الصُّم ، ويستنزل العُصْمَ (٧) ، خطيبٌ

---

(١) ديوانه : ٢٢٧ . (٢) فى ت : رقيت . (٣) فى ت : ويجريها .
(٤) لم ترنق : لم تكدر . (٥) فى ت : البراق . (٦) فى ط : بقليل .
(٧) العصم : جمع أعصم وهو من الوعول والظباء : ما فى ذراعيه أو فى إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

لا تناله حبْسة ، ولا ترتهنه لُـكْنَة ، ولا تتمشّى فى خطابه رتة [١] ، ولا تتحيَّف بيانه عُجْمَة ، ولا تعترض لسانه عقْدة .

فلان رقيق الأسَلة ، عذب العذَبة [٢] لووُضِع لسانُه على الشعر حلقه ، أَوْ على الصَّخْر فلَقه ، أو على [الجمر أحرقه ، أو على][٣] الصَّفَا خرقه؛ قد أحسن السّفارة ، واستوفى العبارة ، وأدَّى الألفاظ ، واستغرق الأغراض ، وأصاب شوا كِلَ المراد ، وطبَّق مَفاصِلَ السّداد، وبسط لسانَ الخطاب، ومدَّ أَطناب الإطناب ، وطلب الأَمدَ فى الإسهاب، قالَ حتى قال الـكلامُ لوأُعفيت ! وكتَب حتى قالت الأقلامُ قد أُحفيت، قد اتَّسع له مَشْرَعُ الإطناب ، وانفرجَ له مَسْلَكُ الإسهاب ، أرسل لسانَه فى مَيْدَانِه وأرخى له من عنانه [٤] ، قال وأَطال ، وجَالَ فى بَسْطِ الـكلام كلَّ مجال ، إذا اسْحَنْفَرَ [٥] فى الـكلام طَفَح آذِيُّه ، وسَال أَتِيُّه [٦]، وانثال عليه الـكلام كانثِيَال الغمام ، واستجاب له الخطاب كصوب الرَّباب [٧] . ألفاظٌ كغمزات الألْحاظ ، ومَعَانٍ كأنها فكُّ عَانٍ[٨] ! ألفاظ كما نوَّرت الأَشجار ، ومَعَانٍ كما تنفَّست الأَسْحَار ألفاظ قد استعارت حلاوةَ العِتَابِ بين الأَحباب ، واستلانَتْ كتشكِّى العُشَّاق [٩] يوم الفراق . كلامٌ قريب شَاسِع ومُطمع مَانِع ، كالشمس تَقْرب ضياءً ، وتبعد علاءً ؛ أو كالماء ، يَرْخُص موجوداً ، ويغلو مفقوداً . كلامٌ لا تمجُّه الآذان ، ولا تُبليه الأزمان، كالبُشْرَى مسموعة[١٠]، أوأزاهير الرياض مجموعة ، ومعان كأَنْفَاس الرياح ، تَعْبَق بالريحان والراح .

كلام سَهْل متسلسل ، كالمدام بماء الغمام ، يقرب إذنه على الأَفهام .

---

(١) الرتة : العجمة ، وفى ط ، س : رثة (٢) العذبة : أصلها طرف كل شىء ، والمراد طرف اللسان . (٣) من ت ، والصفا : الحجر . (٤) ساقط من ط .

(٥) اسحنفر : مضى مسرعا . (٦) الآذى : الموج ، والأتى : السيل .

(٧) الرباب : السحاب . (٨) عان : أسير . (٩) فى ت ، س : واستغاثت بتشكى .

(١٠) فى ت : محمودة .

كلام كبرد الشراب ، على الأكباد الحِرَار ، وبُرْد الشباب فى خلع العِذار .

كلام كثيرُ العيونِ ، سَلِسُ المتون ، رقيقُ الحواشى ، سَهْل النواحى .

كلامٌ هو السِّحْرُ الحلالُ والماء الزُّلال ، والبُرُود والحِبَر ، والأمثال والعِبَر ، والنعيم الحاضر ، والشباب النَّاضر .

نظرت منه إلى صورةِ الظَّرف بَحْتاً ، وصورة البلاغة سَبْكا ونحتاً . ألفاظ هى خدَع الدهر، وعُقَد السحر .

كلامٌ يسرّ المحزون ويُسهِّل الحُزون (١) ، ويعطل الدرّ المخزون . كلامٌ بعيد من الكُلَف ، نقى من الكَلَف (٢) .

كلام كاتنفس السحر عن نسيمه، وتبسم الدرّ عن نظيمه . ألفاظ تأنَّق الخاطر فى تَذْهيبها ، ومعانٍ عُنِى الفهمُ بتهذيبها . ألفاظ حسبتها من رِقّتها منسوخة فى صحيفة الصَّبا ، وظننتها من سلاستها مكتوبةً فى نَحْر الهوى .

كلامٌ كالبُشْرَى بالولد الكريم ، قُرِعَ به سَمْعُ الشيخ العقيم .

كلام قرُب حتى أَطْمع ، و بَعُد حتى امتنعَ ، وقَرُب حتى صار قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى ، ثم [سما و] (٣) علا حتى صار بالمنزل الأَعْلى . رقيق المزاج ، حُلْو السّماع ، نقيّ السَّبْك ، مقبول اللفْظ . قرأت لفظاً جليًّا ، حَوى معنًى خفيّا ، وكلاماً قريبا ، رَمَى غرضاً بعيداً . لو أنَّ كلاماً أُذِيبَ به صَخْر ، أو أُطْفِئ به جَمْر ، أو عُوفِى به مريض ، أو جُبِر به مَهِيض (٤) لكان كلامُه الذى يقودُ سامعيه إلى السجود ، ويجرى فى القلوب كجَرْىِ الماء فى العود . أَلفاظُه أَنوار ، ومعانيه ثِمار. كلامُه أُنْسُ المقيم الحاضر ، وزادُ الراحلِ المسافر. كلامُه يُصْغِى إليه المقبور، وينتفِضُ له العُصفور.

---

(١) الحزون : جمع حزن ، بفتح الحاء وهو ما غلظ من الأرض . (٢) الكلف : نمش فى الوجه . (٣) زيادة من ت . (٤) مهيض : مكسور .

كلامٌ يقضى حقَّ البيان ، ويملك رِقّ الحُسْنِ والإحسان ، كلامٌ منه يجتنى الدُّر ، وبه يُعقَدُ السِّحْر ، وعنده يُعْتِب الدّهر (١) ، وله يَنْشَرِحُ الصدر .

ومن ألفاظهم فى وصف النظم والنثر والشعر والشعراء

نَثْرٌ كنثر الورد، نَظْمٌ كنظم العِقد. نثر كالسِّحر أو أَدَقّ ، ونظمٌ كالماء أو أَرَقّ. رسالة كالرَّوْضة الأنيقة ، وقصيدة كالمخدَّرة الرشيقة . رسالة تَقْطُر ظَرْفا ، وقصيدة تمزجُ بماء الرَّاح لطفاً . نثره سِحْرُ البيان ، ونَظْمه قِطَعُ الجمان (٢) . نَثْرٌ كما تفتَّح الزهَر ، ونظم كما تنفَّس السَّحَر . نَثْرٌ ترقُّ نواحيه وحَوَاشِيه ، ونَظْمٌ تروقُ ألفاظه ومعانيه . نَثْرٌ كالحديقة تفتَّحت أَحْدَاق وَرْدِها ، ونظم كالخَرِيدة تورَّدَتْ أسرارُ خَدِّهَا . رسالة تَضْحَك عن غُرَر وزَهَر ، وقصيدة تنطوى على حِبَر ودُرَر . لم تَرْضَ فى بِرِّك بأخوات النَّثْرَة (٣) من نَثْرك ، حتى وصلتها ببنات الشِّعرى من شِعْرك . كلام كما هبَّ نَسيمُ السحر ، على صفحات الزَّهر ، ولذَّ طعمُ الكَرَى بعد بَرْحِ السَّهر (٤) . وشِعْرٌ فى نفسه شاعر ، تُوسَم به المواسم والمشاعر . كلام أنسَى حلاوة الأولاد بحلاوته ، وطلاوةَ الربيع بطلاوته، وشِعْرٌ من حلَقِ الشباب مسروق، ومن طِينَة الوِصال مَخْلُوق . قصيدةٌ فى فنِّها فَرِيدة ، هى عروسٌ كُسْوَتُها القوافى ، وحِلْيَتُهَا المعانى . شِعْرٌ يترقْرَقُ فيه ماء الطبع ، ويرتفع له حجابُ القَلْب والسمع . شعر لا مزية الإعجازِ أَخْطَأَتْه ، ولا فضيلة الإيجازِ تخطَّته . شعرٌ رَوَيْته لما رأَيْته ، وحفِظْتُه لما لحظته . أبياتٌ لو جُعلت خِلماً (٥) على الزمان لتحلَّى بها مُكَاثِرا ، وتجلَّى فيها مُفَاخِراً . شِعْرٌ رَاقَنِى حتى شاقنى ، فإنه مع قُرْبِ لفظه بعيدُ المرام ، مستمرّ النظام ، قوىّ الأَسْر ، صافِى البَحْر. نظمٌ قد ألبس من البداوة فَصَاحتها ،

---

(١) يعتب : يرضى . (٢) فى ت : الجنان . (٣) النثرة : كوكبان بينهما قدر شبر .
(٤) برح السهر : شدته . (٥) فى ت : حلية .

وغُشِّيَ من الحضارة سَجَاحتها (١) ؛ فإن شئت قلت عبيد ولَبيد ، وإن شئتَ حَبيب والوليد . قصيدته رَوْضَة تجتنى بالأفكار ، ونَقَل (٢) يتناول بالأسماع والأبصار ، ونَقْلُ العلم والأدب أَلَذُّ من نَقْل المأكل والمشرب ، وفاكهةُ الكلام أطيبُ من فاكهة الطعام . نظمٌ كنظم الجُمَان ، ورَوْضٌ كالجنان وأمنِ الفؤاد وطيبِ الرُّقاد . قصيدةٌ لم أرَ غيرها بِكْراً ، استوفتْ أقسامَ الحُنْكة ، واستكملتْ أحكامَ الدُّرْبة ؛ فعليها رونَقُ الشباب ، ولها قُوَّةُ المُذْكِيَات الصِّلاب (٣) ، روحُ الشعر وتاجُ الدهر ، ومقدمة عساكر السحر . كل بيت شعر خيرٌ من بيت تِبْر . شعر يُحكم له بالإعجاز والتَّبْريز ويشبَّه فى صفاء سَبْكه بالذَّهب الإبريز . شعرٌ تَأْتلف القلوب على دُرَرِه ائتلافا ، وتصير الآذان له أصدافا . لله دَرُّه ما أحْلى شعره ! وأنقى دُرَّه ، وأعْلَى قدْره ، وأعجبَ أمْره ! قد أخذ برِقَاب القوافى ، ومَلك رِقّ المعانى ، فَضْله بُرْهَان حق ، وشعره لِسَان صدق . فلان يُغرب بما يَجْلِب ، ويُبْدِعُ فيما يصنع ، حَسَنُ السبك ، مُحْكَم الرَّصْف ، بديع الوَصْفِ ، مرغوب فى شِعْرِه ، مُتَنَافس فى سحره . هو ضارِب فى قِدَاحِ الشعر بأعْلَى السهام ، آخِذٌ فى عيون الفضل بأوْفَى الأقسام ، شِعَاره أشعارُه ، ودأبه آدابه ، هو ممن يَبْتَدِهُ فيبتدع ، طبعه يُمْلى عليه مالا يُمَلّ الاستماعُ إليه . قَرِيحة غير قَرِيحة ، وطَبْعٌ غير طَبِع (٤) ، وخِيم (٥) غير وَخِيم ، لبيد عنده (٦) بَليد ، وعَبيد لديه من العبَيد ، والفرزدقُ عنده أقل من فرزدقة خَمير (٧) ، وجرير يُقاد إليه بجَرير (٨) قد نسج حُلَلًا لا يُبْلِى جدَّتَها الجديدان ، ولا تزداد إلا حُسْناً على تردُّدِ الأزْمَان . نَظْمُه قد نظم (٩) حاشيتى البَرِّ والبَحْر ، وأدركَ ناحيتى الشَّرْقِ

---

(١) من سجح الخد : سهل ولان وطال فى اعتدال . (٢) النقل : ما يتنقل به على الشراب .
(٣) المذكيات والمذاكى من الخيل : التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .
(٤) الطبع : السجية . وهو طبع طمع : دنىء الخلق لئيمه دنس لا يستحى من سوأة .
(٥) الخيم : الطبع . (٦) فى ت : غير . (٧) الفرزدقة : القطعة من العجين .
(٨) الجرير : الحبل . (٩) فى ت : كنظم .

والغرب . أشعارٌ قد وردَتِ المياه ، وركِبَت الأَفواه ، وسارت فى البلاد ولم تَسِرْ بِزَاد ، وطارَتْ فى الآفاقِ ولم تَمْشِ على ساق . شعرُه أسْيَرُ من الأمثال ، وأسْرَى من الخيال ، سار مسيرَ الرياح ، وطار بغير جَناح . أشعارُه سارت مَسيرَ الشمس ، وهبَّتْ هبوبَ الريح ، وطبّقت تُخُومَ الأرض ، وانتظمت الشرقَ إلى الغرب . قد كادت الأيامُ تنشدها ، والليالى تَحْفَظها ، والجنّ تدرسها ، والطير تتغنَّى بها . أبياتٌ أَسْفَر عنها طَبع المَجْدِ ، فعلمت كيف يتكسّر الزَّهر على صفحاتِ الحدائق ، وكيف يغرس الدرّ فى رياض المَهارق[١] . شِعْرٌ قد أَحْسَن خِدْمَته بكمال فِكْره ، ووقف كيف شاء عند عَالِى أَمْره . شعرٌ يُعلَّق فى كَعْبَةِ المجد ، ويتوّج به مَفْرِق الدهر جاءت القصيدة ومعها عِزّة المُلك ، وعليها رُواءُ الصدق ، وفيها سِيماء العلم ، وعندها لِسانُ المجد ، ولها صِيَال الحقّ ، لا غروَ إذا فاضَ بَحْرُ العلم على لسانِ الشِّعْرِ أن ينتج مالاعين وقعَتْ على مثله ولا أذن سمِعَتْ بشبهه . شعر يكتب فى غُرّة الدهر ، ويشرح[٢] فى جَبْهَة الشمس [والبدر][٣] .

وهذه جملة من فصول أهل العصر تليق بهذا الموضع

كتاب لابن العميد

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى محمد خلاد[٤] الرامهرمزى القاضى « وصل كتابُكَ الذى وصلت جَناحَه بفنون صِلَاتك وتفقُّدك ، وضروبِ بِرِّك وتعهُّدك ؛ فارتَحْتُ لـكلِّ ما أَوْلَيْت ، وابتهَجْتُ بجميع ما أَهْدَيت ، وأَضَفْت إحسانَك فى كلِّ فصل إلى نظائره التى وكات بها ذِكرى ، ووقفت عليها شُكْرى ، وتأمّلت النظم فملكنى العجب به ، وبَهَرَنِى التعجُّب مِنه ، وقد رمت أن أجْرى على العادة فى تشبيهه بمستَحْسَنٍ من زهر جَنِىّ ، وحُلَلٍ وحُلِىّ ، وشذور الفرائد ، فى نُحُور الخرائد .

وبالمذارى غَدَوْنَ فى الحلل البيـ ض وقد رُحنَ فى الخطوط السُّودِ

---

(١) المهارق : جمع مهرق ، الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، فارسى معرب .

(٢) فى ت : ويشدخ جبهة . (٣) من ت . (٤) فى ت : أبى خلاد .

فلم أره لشيء عِدْلا(١) ، ولا أرْضى ما عددته له مثلا ؛ والله يزيدك من فضله ولا يخلّيك من إحسانه ، ويلهمك مِنْ برِّ إِخوانِك ما تتمّم به صنيعَك لديهم ، ويُرَبُّ معه إحسانُك إليهم .

كتاب للصاحب

وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب إلى أبي سعيد الشبيبي(٢) :

« قد رأى شيخُ الدولتين كيف الْكَلَف بسادَتي من أهل ميكال أيدهم الله بين ودّ أُضْمِره على البُعْد ، وإيثارٍ أُظهره على تراخي المَزار ، وتقريظٍ يمليه عليَّ المَلَوان(٣) ، ومَدْحٍ أنْطِقُ فيه بلسان الزَّمَان ، حتى إن ذِكْرَهم إذا جَرَى على لساني اهتزَّتْ له نَفْسِي ، وفَضْلَهم إذا جرى على سَمْعِي انفرج له صَدْرِي ، فتلك عصبةُ خيرٍ فَضْلُها باهِر ، وشرفُها على شرف النماء زاهِر ، وشجرةٌ طيبة أصلُها ثابت وفَرْعُها في السماء [ناظر](٤) ، والله يتمِّمُ أعدادها ، ولا يعدمني وِدَادها ، وإذا كان إكباري لهم هذا الإكبار فكلّ منتسب إلى جنبهم أثيرٌ لديَّ ، كثير في يديَّ . وطرأ عليَّ فلانٌ منتسباً إلى جملتهم ، وحبذا الجملة ، ومُعتزِياً إلى خدمتهم ، ونِعْمَت الخدمة ، ففررناه عن طَبْعٍ سَمْحٍ(٥) ، ولَفْظٍ عَذْب ، وصلةِ نثرٍ بنظم ؛ فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ؛ ولم أعظِم بمن خرَّجته تلك النعمة ونتجته تلك السُّدّة أنْ يأخذَ من كلِّ حسنة بعُرْوة ، ويقدح في كل نارٍ بجَذْوَة ؛ وآنَسنا بالمقام مُدّة ، أكّدتها شوافِع عِدّة ، إلى أن تذكّر مَعاهدَ رَأى فيها الدَّهْرَ طَلْقا ، والزمان غُلَاما ، والفضلَ رهنا ، والإفضال لِزاما ؛ فحنّ حنينَ الرِّكاب ، ورَكبَ عَزِيم الإياب(٦) .

كتاب للميكالي

فصل [من كتاب](٧) كتبه الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي إلى

---

(١) العدل — بفتح العين وكسرها : المثل والنظير . (٢) في ت : الشعبي .

(٣) الملوان : الليل والنهار . (٤) من ت .

(٥) فررناه : اختبرناه ، والفر في الأصل : اختبار أسنان الدابة ليعرف ماسنها .

(٦) العزيم : العدو الشديد ، وفي ت : وعزم عزيم الإياب ، وفي س : غريم الإياب .

(٧) من ت .

أبى القاسم الداوودى(١) جوابا عن كتاب له ورد عليه . وأبو الفضل رئيس نيسابور(٢) وأعمالها فى وقتنا هذا ، وسيمرّ من كلامه ونثره ونظامه ما يغنى عن التنويه ، ويَكْفِى عن التنبيه ، ويجلّ عن التشبيه ، ويكون كما قال أبو الحسن الأخفش على بن سليمان : « استهدى إبراهيم بن المدبِّر(٣) أبا العباس محمد بن يزيد جليساً يَجْمَعُ إلى تأديب ولده الإمتاعَ بإينَاسِه ؛ فندَبَنى لذلك ، وكتب إليه معى : قد أنفذت إليك — أعزّك الله — فلانا ، وجملة أمره أنه كما قال الشاعر :

إذا زُرت الملوك فإن حسبي شفيعاً عنـدهم أن يَخبرُونى

وفصل لأبى الفضل : وقفتُ على ما أتحفنى به الشيخ : من نَظْمِه الرائق البديع، وخَطِّه المُزْرِى بزهر الربيع ، مُوشَّحاً بغُرَرِ ألفاظه ، التى لو أُعيرت حِلْيتُها لعطّلت قلائد النّحور ، وأبكارِ معانيه التى لو قُسِّمت حَلَاوتها لأَعْذَبَتْ مَوَارِدَ البحور ، فسرّحت طَرْفى منها فى رياضٍ جادَتْها سحائبُ العلوم والحِكَم ، وهبَّ عليها نسيمُ الفضل والكرَم ، وابتسمَتْ عنها ثغورُ المعالى والهِمَم ، ولم أدرِ — وقد حيّرَتْنى أصنافُها ، وبهرتنى ثغورُها(٤) وأوصافها . حتى كسَتْنى اهتزازاً وإعجاباً ، وأنشأت بينى وبين التماسك سِتْراً وحجاباً ، ولم أَدرِ أدهَتْنى(٥) لها نَشْوةُ راح ، أم ازْدَهَتْنى نغمة(٦) ارتياح ، وانتظم عندى منها عِقد ثَناء وقَرِيض ، أم قَرَع سَمْعِى منها غناء مَعْبد وغَرِيض ، وكيفما كان فقد حَوَى رتبة الإعجاز والإبداع ، وأصبح نُزْهَةَ القلوب ولهأيضاً

---

(١) فى ت : الروادى .   (٢) فى ت : كان أمير نيسابور قبـل إنشائى لهذا التأليف ، وإحكامى لهذا التصنيف ، إلا أن يكون اخترمه المقدار ولم تأتنا بموته الأخبار لبعد المحلة ونأى الدار، وكان ابتداء إخراجى لهذا الـكتاب من القوة إلى الفعل ، وإظهاره من العدم إلى الوجود فى شهر الله المعظم سنة خمس وأربعمائة . وأبو الفضل الإصابة والإجابة وبيت المملـكة والسيادة .

وله الفضل قدم وقدم ، وفى جده يقول أبو بكر بن دريد القصيدة المشهورة :

إن ابن ميكال الأمير انتاشنى من بعد ما قد كنت كالشىء اللقا

(٣) فى ت : إبراهيم بن المهدى .   (٤) فى ت : نعوتها .

(٥) هكذا فى ت ، ق . وفى ط : أدهمتنى .   (٦) فى ت : نخوة .

والأَسماع ، فما من جارِحةٍ إلاَّ وهى تودُّ لو كانت أذنا فتلتَقِط دررَه وجواهره ، أو عينا تَجْتَلى مطالعَه ومناظره ، أو لسانا يَدْرُس محاسِنَه ومفاخره .

كتابه إلى الثعالبى

وله فصل من كتاب إلى أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى : « وصل كتابُ مولاى وسيدى ، أبدَع الكتب هَوَادِىَ وأعجازا[١] ، وأبرعها بلاغةً وإعجازا ، فحسِبْت ألفاظَه دَرَّ السحاب ، أو أصفى قطراً ودِيمة ، ومعانيه دُرّ السِّخاب[٢] ، بل أوفى قَدْرًا وقيمة . وتأملت الأبياتَ فوجدتها فائقةَ النَّظْمِ والرَّصْفِ ، عبِقَة النسيم والعَرْف ، فائزة بقِدَاح الحُسْن والظَّرْف ، مالكة لِزِمام القَلْبِ والطَّرْف[٣] ؛ ولا غَرْوَ أن يصدر مثلُها عن ذلك الخاطر ، وهو هَدَف الفِقَر والنوادر ، وصَدَف الدرر والجواهر ، والله يمتِّعُه بما منحه من هذه الغُرَر والأوضاح ، كما أطلق فيه ألسنة الثناء والامتداح .

* * *

الثعالبى وبعض مؤلفاته

وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا [على طريق التخمين لا على حقيقة اليقين][٤] وهو فريدُ دهره ، وقريع عصره ، ونسيجُ وحدِه ، وله مصنفات فى العلم والأدب ، تشهدُ له بأعلى الرتب ، وقد فرَّقْت ما اخترته منها فى هذا الكتاب ، مع ما تعلّق بشاكلته من الخطاب ؛ منها من كتاب سماه «سحر البلاغة» قال فى صدر هذا الكتاب: « أخرجتُ بعضه من غُرَر نجوم الأرض ، ونُكَت أعيان الفضل ، من بُلَغاء العصر ، فى النثر ، وحلّلت بعضه من نظم أمراء الشعر[٥] ، الذين أوردت مُلَح أشعارهم فى كتابى المترجم بيتيمة الدهر ، فلفقْت[٦] جميع ذلك وحرّرته[٧] ، وسقته ونسَّقته ، وأنفقت عليه ما رُزِقته ، وعملته بكدّ الناظر ، وجهد الخاطر ، وتعَبِ اليمين ، وعرق الجبين ،

---

(١) أصل الهادى : العنق والجمع الهوادى ، والمراد الأوائل . والأعجاز ، جمع عجز : مؤخر الشىء . (٢) السخاب : قلادة من قرنفل ، ومحلب بلا جوهر (هامش ق) .

(٣) الطرف العيْن . (٤) من ت . (٥) فى ق : أمراء الشعراء .

(٦) فى ط : فلففت . (٧) فى ت : وجردته .

وتعمدْتُ فيه لَذَّةَ الجِدّة ، ورَوْنَق الحداثة ، وحلاوة الطَّراوة ، ولم أشُبْهُ بشيء من كلام غير أهل العصر ، إلا فى قلائل وقلائد من ألفاظِ الجاحظ وابن المعتز ، تخلّلت أثناءه ، وتوشّحت[١] تضاعيفه ، ولم أُخْل كلماته — التى هى وسائط الآداب ، وصياقل الألباب ، وما تستمْتِعُه[٢] أنفسُ الأدباء ، وتلذّ أعين الكتاب — من لفظ صحيح[٣] ، أو معنًى صريح ، أو تجنيس أنيس ، أو تشبيهٍ بلا شبيهٍ ، أو تمثيل بلا مَثِيل ولا عَديل ، أو استعارةٍ مُخْتَارة أو طِباق ، ذى رَوْنق باق ؛ فمن رَافَقَ هذا الكتاب قَرُبَ تناوُله من الكتَّاب ، إذا وشَّوا ديباجةَ كلامهم بما يقتبسونه من نُوره ، وسماحة قيادِه لأفراد الشعراء إذا رصّعوا عقودَ نظامِهم بما يلتقطونه من شذُوره ، فأمّا المخاطبات والمحاورات ، فإنها تتبرّج[٤] بغرّة من غُرره ، وتتُوّج بدرة من دُرَرِه .

وقد ذكر جملة مَنْ أخرج معظم كتابه من نثرهم ونظمهم ، وهم الصابيان ، والخالدّيان ، وبديع الزمان ، وأبو نصر [٥] بن المرزبان [وعلى بن عبد العزيز القاضى ، وأبو محمد القاضى ، وأبو القاسم الزعفرانى ، وأبو فراس الحمدانى] [٦] ، و ابن أبى العلاء [٧] الأصبهانى ، وأبو الطيب المتنبي ؛ وأبو الفتح البستى ، وأبو الفضل الميكالى ، وشمس المعالى ؛ والصاحب بن عباد ، وجماعة يكثر بهم التعداد ، قد ذكرهم فى كتابه ، فكل ما مرّ أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نَقَلْتُ ، وعليه عوَّلت .

وفى أبى منصور يقول أبو الفتح على بن محمد البستى [٨] :

قلبي رهينٌ بنيسابورَ عند أخ ... ما مثلُهُ حين تُسْتقرَى البلادُ أخُ

له صحائف أخلاَق مهذبةٍ ... من[٩] الحِجَا والعُلَا والظرف تُنتسخُ

---

(١) فى ت : وتوسطت . (٢) فى ت : وما تشتهى . (٣) فى ت : فصيح .

(٤) فى ت : تبرج . (٥) فى ت : وأبو نصر المرزبان .

(٦) زيادة من ت . (٧) فى ت : وأبو العلاء الأصبهانى

(٨) يتيمة الدهر ٤ — ٢٩٩ (٩) فى ت : منها الحجا .

وأما الذين ذكر أسماءهم فى كتابه فسأظهر من سرائر شعرهم الرصين ، وأجلو من جواهر نثرهم الثمين ما أخذ من البلاغة باليمين .

***

بعض رسائل الميكالى

فصل لأبى الفضل: وصل كتابُ الشيخ المبشر من خبر سلامته التى هى غُرَّة الزمان البهيم [١] ، وعذر الدهر المليم [٢] ، بما أشرقت له آفاقُ الفَضْلِ والكرم ، وتمّت به [٣] نفائِسُ الآلاء والنعم ، فسرَّحْتُ طَرْفى من محاسن ألفاظه ، فى أنوار تَرُوق أزَاهِرُها ، وقلائِدَ تروعُ دُرَرُها وجواهرها ، ومَبارّ يسترقُّ الرّقابَ باطنُها وظاهرها .

رسالة منه إلى أبى سعيد

وله إلى أبى سعيد بن خلف الهمدانى :

وصل كتابُكَ متحملا من أخبار سلامته [٤] وآثارِ نعمِ اللهِ بساحته [٤] ، ما أدّى روحَ البرِّ ونسيمه ، وجمع فنونَ الفضل وتقاسيمه ، ومجدِّداً عندى من عمر [٥] مواصلته ، ومعسول كلامه ومحاوَرته ما ترك غُصْن المِقَة [٦] غضًّا تروق أوْراقه ، ووَجْهَ الثقة طَلْقاً يتهلّلُ إشراقه ، فكم جنيت عنه من ثمر مَسَرة كانت عوائقُ الأيام تجاذِبُنيه ، وحويت به من عِلْق مَضَنَّة [٧] قلما يجود الدهر بمثله لبنيه .

رسالة منه إلى بعض الحكام

وله فصل إلى بعض الحكام بجوين :

« وصل كتابُ الحاكم وقد وشَّحه بمحاسن فِقَره ، ونتائج فِكَره ، من لفظ شهِىٍّ أعطته القلوبُ فَضْلَ المقادَة ، ومعنى سنِىٍّ جاده صوبُ الإصابة والإجادة ، وبِرٍّ هنِىٍّ اتَّفقَتْ على الاعترافِ بفضله ألسنةُ الثناء والشهادة ، فسرَّحتُ طَرْفى فيما حواه

(١) البهيم : الأسود . (٢) المليم : الذى يأتى بما يلام عليه . (٣) فى ت : وطمت به تفايض ، وفى س : نقائص الآلاء . (٤) فى ت : كتابه . وفى ط : سلامتك .. بساحتك . (٥) فى ت : من عهد . (٦) المقة : الحب . (٧) وهذا علق مضنة : نفيس يضن به .

من بدائع وطُرَف، قدجمعت فى الحسن والإحسان بين واسطة وطَرَف ، حتى لم تبقَ فى البلاغـة يتيمة إلا نظمتها ، ولا فى الظَّرف غنيمةٌ إلا اقتسمتها ، ولا فى البر نقيصة إلاجبرتها وتممتها .

رسالة منه إلى أبيه

وله إلى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم :

كتبت وأنا بمنزلة من ارتدَّ إليه شبابُه بعد المشيب ، وارتدى برداء مِنَ العمر قشيب ، والحمد لله رب العالمين ، وصل كتابُ مولاى مبشِّرًا من خبر عَوْده إلى مقرّ عزّه وشرَفه ، محروسا فى حفظ اللهِ وكَنَفه ، بما لم تزل الآمال تتنسَّم روائحه ، وتترقّب غادىَ صُنْع الله فيه ورائحَه ، واثقةً بأنّ عادةَ الله الكريمة عنـده تُسايره وتُرافقه ، وتلزم جنابه فلا تُفارقه ، حتى تخرجَه من غَمْرة الغَماء (١) خروجَ السيف من (٢) الغِمْد ، والبدر بعد السِّرار (٣) إلى الانجلاء ، فعددتُ يوم وُرودِه عِيداً أعاد عهد السُّرور جَدِيداً ، وردّ طَرْفَ الحسود كليلا وقد كان حَدِيدا ، ولم أُشَبِّهْه فى إهداء الرَّوح والشفاء ، وتلافى الرُّوح بعـد أَنْ أشْفَى على المـكروه كل الإشفاء (٤) إلاّ بقميص يوسف حين تلقّاه يعقوبُ عليه السلام من البشير، وألقاه على وجهه فنظر بعَيْنِ البصير ، فكم أوسعتُه لَثْماً واستلاما ، والتقطت منه بَرْداً وسلاما ، حتى لم تبق غُلَّة فى الصدر إلا بَرَدْتُها ، ولا غُمّة فى النفس إلا طَرَدْتها ، ولا شريعة من الأنس إلا وردْتها .

فصل من رسالة له

وله فصل من رسالة :

وكان فرطُ التعجب مَرّةً وعِظَمُ الإعجاب تارةً يقفُ بى عند أول فصل من فصوله، ويثبّطنى عن استيفاء غُرَره وحُجُوله، ويُوهمنى أنَّ المحاسنَ ما حوته قلائدُه ، ونظمته

---

(١) الغماء : الداهية . (٢) فى ت : خروج السيف من يد الجلاء .

(٣) السرار من الشهر: آخر ليلة منه . (٤) أشفى على المـكروه : أشرف عليه .

فرائده ؛ فليس فى قوس إحسان وراءها منزع (١) ، ولا لاقتراح جنان فوقها مُتطلَّع (٢) ، حتى إذا جاوزته إلى لفه (٣) وتزيينه ، وأجلْتُ فكرى فى نُكته وعيونه ، رأيتُ مايُحيِّر الطَّرْف، ويُعجز الوصف ، ويعلو على الأول محلاً ومكاناً ، ويفوقه حسناً وإحساناً ، فرتعتُ كيف شئتُ فى رياضه وحدائقه ، واقتبست نورَ الحِكَم من مطالعه ومشارقه ، وسلّمت لمعانيه وألفاظه فضيلةَ السَّبق والبراعةِ ، وتلقَّيتها بواجبها من النشر والإذاعة ؛ فإنها جمعت إلى حُسْنِ الإيجاز درجةَ الإعجاز ، وإلى فضيلة الإبداع جلالةَ الموقع فى القلوب والأسماع .

وفصل من رسالة له

وله من فصل :

« وصل كتابُ الشيخ فنشر عندى من حُلل إفضاله وإكرامه ، ومحاسن خطابه وكلامه ، مالم أشبِّهه إلا بأنوار النجود (٤) ، وحبر البرود (٥) ، وقلائد العُقود .

ذكر الثعالبى للميكالى

وذكر أبو منصور الثعالبى الأمير أباالفضل فى كتاب الفقه (٦) فقال فى بعض فصوله: مَنْ أراد أن يسمعَ سِرَّ النظم ، وسِحْرَ الشعر ، ورُقيةَ الدهر ؛ ويرى صَوْب العقل، وذَوْب الظَّرف ، ونتيجة الفضْل فليستنشد ما أسْفرَ (٧) عنه طبعُ مَجْدِه ، وأثمرَه عالى فكره ، من مُلَحٍ تمتزجُ بالنفوس لنفاستها ؛ وتُشْرَبُ بالقلوب لسلاستها :

قوافٍ إذا ما رَوَاها المشو ... ق هزَّت له الغانيات القُدُودا

كسَوْنَ عبيداً ثيابَ العَبيد ... وأضحى لَبيد (٨) لديها بَليدا

وايمُ الله ما مرّ يومٌ أسعفنى فيه الزمانُ بمواجهة وَجْهه ، وأسْعَدنى بالاقتباس من نوره والاغتراف من بَحْرِه ، فشاهدت ثِمَارَ المجد والسؤود تَنْتَثِرُ من شمائله ؛

(١) منزع ، على وزن منبر، السهم الذى ينتزع به ، ويقولون : لم يبق فى قوس الصبر منزع، يريدون أن الصبر نفدت أسبابه . (٢) فى ت: ولا اقتراح إنسان فوقها مطلع .
(٣) فى ت، س: لفقه وقرينه . (٤) أنوار : أزهار ، والنجود: جمع نجد : المرتفع من الأرض . (٥) الحبر : الوشى . (٦) فى ط : فقه اللغة ، وفى ق : اللغة ! وهذا من ت ، س . (٧) فى ت : ما استفرغه . (٨) يشير إلى عبيد بن الأبرص، ولبيد الشاعر الجاهلى .

ورأيت فضائلَ الدَّهرِ عيالاً على فضائله، وقرأتُ نسخة الفَضْلِ والكرم من ألحاظِه، وانْتَهبْتُ فضائل الفوائد من ألفاظه ، إلاَّ تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرُّومى (١) :

لولا عجائبُ صُنْعِ اللهِ (٢) ما ثبتت تلك الفضائلُ فى لَحْمٍ ولا عَصَبِ

وقول الطائى (٣) :

فلو صوَّرْتَ نفسَك لم تَزِدْهَا على ما فيك من كَرَمِ الطِّبَاعِ

وقول كُشاجم :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عَيْبٍ يُوَقيه من العَيْنِ

وربّعت بقول أبى الطيب (٤) :

فإنْ تَفُقِ الأَنَامَ وأَنْتَ مِنْهُمْ فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ثم استعرت فيه بيانَ أبى إسحق الصابى حيث يقول للصاحب « ورّثه الله أعمارها كما بلّغه فى البلاغة أنوارها » ـ شعر (٥) :

اللهُ حسبى فيك من كل ما تعوّد العبد على المولى (٦)
فلا تزل ترْفُل فى نعمةٍ أَنْتَ بها من غَيْرِك الأَوْلَى

فصل للثعالبي فيه

وقال فى فصل منه : « وما أنسَ لا أنسَ أيامى عنده بفيروزاباد إحدى قُرَاه برستاق جُوين ، سقاها الله ما يحكى أَخْلاقَ صاحبها من سَيْل القَطْرِ ، فإنها كانت ـ بطَلْعَتِه البَدْرِية ، وعِشْرَتِه العِطْرِيّة ، وآدابه الملوية ، وألفاظه اللُّؤلؤية ، مع جلائل نِعَمِه المذكورة ، ودقائق كرمه المشكورة ، وفوائد مجالسه المعمورة ، ومحاسنِ أقواله وأَفعاله التى يَعْيَا بها الواصفون ـ أنموذجات من الجنة ، التى وُعِد (٧) المتقون ، وإذا

---

(١) ديوانه : ٢١٤ . (٢) فى الديوان : لطف الله ما نبتت ، وقال شارحه : إن للبيت رواية أخرى هى رواية هذا الكتاب . (٣) ديوانه : ١٩٥ . (٤) ديوانه : ٣ ـ ٢٠ .
(٥) ساقط من ت . (٦) فى ط : تعوذ ، وفى ت : يعوذ العبد به المولى .
(٧) فى ت : وعد بها .

تذكرتها فى تلك المَرابع التى هى مَرَاتِع النَّوَاظر ، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر ، والبساتين التى إذا أخذَتْ بدائعَ زخارفها ، ونشرت طرائفَ مطارفها ، طُوِى لهـا الديباج الخُسْرُوَانى(١) ، ونُفِى معها الوَشْى الصّنعانى ، فلم تُشبَّه إلا بشِيَمِهِ ، وآثار قلمه ، وأزهارِ كلمه ، تذكرت سِحراً وَسِيما ، وخيراً عميما ، وارتياحاً مُقيما ، وروحا ورَيْحانا ونعيما .

وكثيراً ما أَحْكِى للإخوان أنى استغرقتُ أربعة أشهر بحضرته ، وتوفّرت على خِدْمَته ، ولازَمْتُ فى أكثر أوقاتى عَالِي مَجْلسه ، وتعطَّرت [عنـد ركوبه](٢) بغُبَار مَوْكبه ؛ فبالله يميناً كنتُ غنيّا عنها لو خفت حنثاً فيها(٣) إنى ما أنـكرت طَرَفا من أخلاقه ؛ ولم أشاهد إلا مَجْداً وشرفاً منْ أحواله ، وما رأيتُه اغْتَابَ غائباً ، أو سبَّ حاضِرًا ، أو حَرَم سائلا ، أو خيَّب آملا ، أو أَطاع سلطانَ الغَضَبِ فى الحضَر ، أو تَسَلَّى(٤) بنار الضَّجَر فى السَّفَر ، أو بطش بَطْشَ المتجبِّر ؛ ولا وجدت المآثرَ إلا ما يتعاطاه ، والمآثمَ إلا ما يتخطَّاه .

وقال فى فصل منه يصفه : « وأما فنونُ الأدب فهو ابن بَجْدتها(٥) ، وأَخُو جملتها ، وأبو عُذْرتها(٦) ، ومَالِك أَزِمَّتها ، وكأنما يُوحَى إليه فى الاستئثار بمحاسنها ، والتفرُّد ببدائعها ، ولله هو إذا غرس الدُّرَّ فى [أرض](٧) القراطيس ، وطرَّزَ بالظلام رِدَاءالنهار ، وألقت بِحَارُ خواطره جواهر البلاغة على أنامله ، فهنالك الحُسْنُ برُمَّته ، والحُسْنُ(٨) بكلِّيته .

ذكر المطوعى للمكيالى

وذكر عمر بن على المطوعى فى كتابٍ ألّفه فى شعر أبى الفضل ومنثوره والشعراء فقال : رأيتُ أهل هذه الصناعة قدتشعّبوا على طُرُق ، وانقسموا(٩) على ثلاث فِرق،

(١) الخسروانى : نوع من الثياب . (٢) من ت . (٣) هكذا فى ت ، وفى ط : إثمها ، وفى ق : حسامها . (٤) فى ت ، ق : تصلى . (٥) ابن بجدتها : هو الخبير بها . (٦) هكذا فى ت ، ق ، وفى ط : أبو عذرها . (٧) زيادة من ت . (٨) فى ق : والحسنى . (٩) فى ت : وتقسموا .

فمنهم من اكتسى كلامُه شرفَ الاكتساب دون شرف الانتِساب ، كالمكتسبين من الشّعراء بالمدائح ، المترشّحين بها لأَخْذِ الجوائز والمنائح(١) ، وهم الأكثرون من أهل هذه الصناعة ؛ ومنهم من شَرُفَت بناتُ فكره عند أهل العقول ، وجلبت لديهم فضائلَ القَبُول(٢) ، لِشَرَفِ قائلها لا لِكَثْرَةِ عقائلها ، وكرم وَاشيها لا لرِقّة حواشيها ، كالعدد الكثير ، والجمّ الغفير ، من الخلفاء والأمراء والجِلّة والوزراء . ومنهم من أخذ بحبل الجَوْدَة من طرَفَيْهِ ، وجمع رداءَ الحُسْنِ من حاشِيَتَيْه ، كامرىء القيس ابن حُجْر الكندى فى المتقدّمين ، وهو أميرُ الشعراء غير مُنازع ، وسيدُهم غير مجاذَب ولا مدافع ، وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين فى المولّدين ، وهو أشعر أبناءِ الخلافة الهاشمية وأَبْرع أنشاء الدولةِ العباسية ؛ ومَنْ جلَّ كلامه فى التشبيه، عن أن يُمثَّل بنظير أو شبيه ، وغلَت(٣) أشعاره فى الأوصاف عن أن تتعاطاها ألسنةُ الوُصَّاف ؛ والأمير أبى فراس بن حمدان فارس البلاغة ، ورَجل الفصاحة ، ومن حكمت له شعراءُ العصر قاطبةً بالسيادة ، واعترفت لكلامه بالإحسان والإجادة ، حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب : بُدِىءَ الشعرُ بملك وخُتِم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبا فراس ؛ وهذه الطائفة أشهرُ الثلاثة تقدّماً ، وأثبتها فى مواطن الفَخْر ومواطىءِ الشرف قدَما ، وأسبق الشعراء فى مَيْدَان البلاغة ، وأرجَحهُم فى ميدان(٤) البَرَاعة ؛ فإنّ الكلامَ الصادرَ عن الأَعيان والصدور أقرُّ للعيون وأشفى للصدور ، فشرف القلائد بمن قلّدها ، كما أن شرف العقائل بمن ولّدَها :

وخَيْرُ الشِّعْرِ أكْرَمُه(٥) رِجالًا وشَرُّ الشِّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ

وإذا اتفق من اجتمعت فيه هذه الشرائط ، وانتظمت عنده هاتيك المحاسن كان خليقاً بأن تُخلَّد فى صحائف القلوب أشعارُه ، وتُدوَّن فى ضمائر النفوس آثارُه ،

---

(١) العطايا . (٢) فى ت ، س : وحليت لديهم . (٣) فى ت : وعلت.

(٤) هكذا فى ت ، ق . وفى ط : ميزان . (٥) فى ت : أشرفه .

وتكتب على الأحداق والعيون أخباره ، وجديراً[١] بأن يختص بسرعة المجال في المجالس ، وخِفّة المدار في المدارس ، كالأمير الجليل السيد مولانا :

أبى الفضل مَنْ نال السماءَ بفضلِهِ ... ومن وعَدَتهُ نفسه بمزيدِ
تودّ عقودُ الدرّ لو كُنَّ لفظَهُ ... فينظمها من تَوْأمٍ وفريدِ

وهذه مقطعات لأهل العصر في وصف البلاغة

قال أبو الفتح البُسْتى[٢] :

مدحْتُك فالتامت قَلَائدُ لم يفُزْ ... بأمثالها الصِّيدُ الكِرَامُ الأعاظمُ
لأنك بحرٌ والمعانِى لآلِئٌ ... وفكرِىَ غوّاصٌ وشعرِىَ[٣] ناظمُ

وقال أيضاً[٤] :

ما إن سمعت بنُوّارٍ له ثمرٌ ... فى الوقت يُمتع سَمْعَ المرءِ والبَصَرا
حتى أتانى كتابٌ منك مبتسِمٌ ... عن كل لفظٍ ومعنى يشبه الدُّررا
فكان لفْظك فى لألائه زهراً ... وكان معناه فى أثنائه ثمرا
تسابقَا فأصابَا القَصْدَ فى طَلَقٍ ... للهِ من ثمرٍ قد سابقَ الزَّهَرَا

وقال أيضاً[٥] :

لمّا أتانى كتاب منك مبتسمٌ ... عن كلّ بِرٍّ ولفظ[٦] غيْرِ محدودِ
حكَتْ معانيه فى أثناء أسطرِهِ ... آثارك البيض فى أحوالىَ السُّودِ

كأنه ألمّ بقول الطائى[٧] :

يرى أقبحَ الأشياءِ أوْبَةَ آملٍ ... كَسَتْهَا[٨] يَدُ المأمولِ حُلّةَ خائبِ
وأحسن من نَوْرٍ تُفَتِّحهُ الصَّبا ... بياضُ العَطَايا فى سَوَادِ المَطَالِبِ

---

(١) أى وكان جديرا . (٢) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩٧ . (٣) فى اليتيمة : وقولى .
(٤) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩١ . (٥) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٩١ .
(٦) فى اليتيمة ، و ت : وفضل. (٧) ديوانه : ٤٢ . (٨) فى ت : كسته .

وقال أبو الفتح البستى فى أبى نصر أحمد بن على الميكالى[١] :

جمع الله فى الأمير أبى نصـ ـرٍ خِصالًا تَعْلو بها الأقدارُ
راحةً بَرّةً[٢] وصدراً فَضاءً وذكاءً تبـدو له الأسرار
خَطُّهُ روضةٌ وألفاظُه الأز هار يَضْحكن والمعانى ثِمارُ

وقال عمر بن على المطوعى يَمْدَحُ أَبا الفضل الميكالى من قصيدة :

والى الأمير ابن الأمير المعتلى بكمال سُـؤدده على الأمراءِ
وطِئت بىَ الوَجْنَاءُ وَجْنَةَ مَهْمَهٍ متقاذفِ الأَكْنَافِ والأَرْجَاء[٣]
كيما ألاحظَ منـه فى أفق العُـلَا فَلَـكاً يُدِيرِ كواكبَ العَلْيَاءَ
كالْبَدْرِ غير دَوَامِه مُتَـكامِلًا كالْبَحْر غـير عذوبةٍ وصفاءِ
بالفضلِ يُـكنَى وهو فيه كامنٌ[٤] كالرِّى يَـكْمُنُ فى زُلال المـاءِ
يا من إذا خَطَّ الـكتابَ يمينهُ أهْدَى إلينا الوشْىَ من صَنْعَاءَ
لم تجر كفُّك فى البياض مُوقِّعاً إلّا تجلَّتْ عن يَدٍ بيضـاءِ
قَرْمٌ يَدَاه وقَلْبُه ما منهما فى النظم والإعطاء إلا الطائى[٥]

وقال فيه أيضا :

كلامُ الأميرِ النَّدْب[٦] فى ثِنْى نَظْمِهِ يَنُوبُ عن الماءِ الزلال لمن يَظْمَا
فنَرْوَى متى نَرْوِى بَدَائِعَ نَظْمه ونَظْمَا إذا لم نَرْوِ يوماً له نَظْما[٧]

وكتب إليه أيضاً :

أقول وقد جادت جُفونى بأَدْمُعٍ كأَنى قد استَمْلَيْتهنَّ من السُّحْبِ

---

(١) اليتيمة : ٤ ــ ٢٩٨ . (٢) فى ت : ثرة ، وهذا من س .
(٣) الوجناء : الناقة الصلبة . المهمه : القفر . متقاذف الأكناف : متباعد الأطراف .
(٤) فى ت : كامل . (٥) القرم : السيد . الطائى الـكريم : حاتم ، والطائى الشاعر : أبو تمام . (٦) الندب : الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب .
(٧) نظما : الأولى هى نظمأ ، والثانية : النظم .

وقد عَنِقَتْ بى للنزاع نَوَازِعٌ كتَبْنَ مُعاناةَ العناءِ على قلبى
إلى سيِّدٍ أوفى على الشَّمْسِ قدرُهُ وزادت معاليه ضياءً على الشُّهب
أبى الفضل من راحت فواضلُ كفِّه وراحَتُه تُربى (١) على عَددِ التربِ
سقى اللهُ أرضاً حلّ فيها سحائبا كنائله الفيّاض أو لفظه العـذْبِ
سحائبَ يَحْدُوها نسيمٌ كخُلْقِهِ ويقدمها بَرْقٌ كصارمه العَضْبِ (٢)
ولا زال أَفْلَاكُ السعود مُطِيفةً بحضرته تنتابها وهو (٣) كالقُطْبِ

وقال أبو منصور الثعالبى للأمير أبى الفضل (٤) :

لك فى الفضائل (٥) معجزات جَمّة أبداً لغيرك فى الوَرى لم تُجْمَعِ
بَحران بحرٌ فى البلاغة شابَهُ شِعْرَ الوليد وحُسْنَ لفظِ الأصمعى
كالنَّورِ أو كالسِّحر أو كالدُّرِّ أو كالوَشْيِ فى بُرْدٍ عليـه مُوشَّعِ (٦)
شكرا فكم من فَقْرَةٍ لك كالغِنَى وافى الكريمَ بُعَيْدَ فقرٍ مُدْقِع
وإذا تفتّق نَوْرُ شِعرِك ناضراً فالحسنُ بين مُرَصَّعٍ ومصَرَّعِ
أَرْجَلْتَ فُرْسانَ الكلام ورُضْتَ أفْـ راسَ البديع وأنت أمْجَد مُبدِع (٧)
ونقشت فى فصِّ الزمان بدائعاً تُزْرِى بآثارِ الربيع المُمْرِعِ (٨)

[وقال فى وصف فرس أهداه إليه ممدوحه] (٩) :

يا مُهْدِىَ (١٠) الطِّرْفِ الجوادِ كأنما قد أنعلوه بالرياح الأربع
لا شىءَ أسرعُ منـه إلّا خاطرى فى شكرِ نائلك اللطيف المَوْقِع
ولو أنَّنى أنصفت فى إكرامه لجلال مُهْدِيه الكريم الأروَعِ (١١)

---

(١) تربى : تزيد . (٢) الصارم العضب : السيف القاطع . (٣) فى س : وهى .
(٤) يتيمة الدهر : ٤ــ٢٢٧ ، والمقدمة : ٣٥٥ . (٥) فى اليتيمة ، س : فى المحاسن.
(٦) توشيع الثوب : أعلامه . (٧) فى اليتيمة : وأنت أفرس مبدع .
(٨) الممرع : المملوء بالكلأ . (٩) الزيادة من اليتيمة . (١٠) فى اليتيمة : يا واهب.
(١١) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته ، وفى اليتيمة: الكريم الألمعى.

أنظمتهُ[١] حَبَّ القــلوب لحُبّهِ ... وجعلت مربطه سَوادَ المَدْمعِ
وخلعت ثم قطعت غير مضيّقٍ[٢] ... بُرْد الشبــابِ لأجْلِه والبُرقع

وكتب إليه فى جواب كتاب ورد عليه :

أنسيمُ الرياض حَوْلَ الغــدير ... مازَجَتْه رَيًّا[٣] الحبيب الأثيرِ
أم وُرُود البشير بالنُّجْح من فـ ... ـك أسيرٍ أو يُسْر أمرٍ عســيرِ
فى مُلاءٍ من الشبــاب جديدٍ ... تحت أيك من التَّصابى نضير
أم كتاب الأمير سيدنا الفرْ ... د فيــا حبذا كتاب الأميرِ
وثمــار الصدور[٤] ما أجتنيه ... من سُطورٍ فيهــا شفاء الصدورِ
نمّقتْها أناملٌ تفتقُ الأنْـ ... وارَ والزهر فى رياض السطورِ
كالمُنى قد جُمِعْنَ فى النِّعم الغُـ[٥] ... ـرّ مع الأمن من صروفِ الدهور
يا أبا الفضل وابنــه وأخاهُ ... جلَّ بارِيك من لطيف خبير[٦]
شِيَمٌ يرتَضِعْنَ دَرَّ المعــالى ... ويُعبّرْن عن نسيم العبــير
وسجايا كأنهنّ لدى النشْـ ... ـرِ رُضابُ الحيا بأَرْى مَشُور[٧]
ومُحيًّا لدى المــلوك محيًّا ... صادق البشر مُخْجِل للبــدورِ

فأجابه أبو الفضل بأبيات يقول فيها فى صفة أبياته :

وهَدِيٍّ زُفَّتْ إلى السّمْع بِكْرٍ ... تَتَهَادَى فى حِلْيَةٍ وشذُورِ[٨]
عجب النــاس أنْ بدَتْ مِنْ سَوَادٍ ... فى بياضٍ كالمِسْك فى الـكافورِ
نُظِمت فى بلاغةٍ ومعــانٍ[٩] ... مثــل نظم العقود فَوْقَ النحورِ
كم تذكّرت عنــدها من عُهُودٍ ... للتلاقى فى ظلّ عَيْشٍ نَضِــيرِ

---

(١) فى اليتيمة : أفضمته . (٢) فى اليتيمة : غير مضيع . (٣) فى ت : رى .
(٤) فى ت : السرور ، وفى س : السطور . (٥) فى س : العز . (٦) فى س : قدير .
(٧) الأرى : العسل المصفى . (٨) الهدى : العروس ، والشذور : قطع الذهب أو خرز يفصل بها النظم ، أو هو اللؤلؤ الصغار . (٩) فى ط : من معان ، وهذه من ت ، س .

فذممْتُ الزمانَ إذْ ضَنَّ عنـا ... باجتماعٍ يضمّ شمْلَ السرورِ[١]

ولئن رَاعَنَـا الزمانُ ببيْنٍ ... أَلْبَس الإنس ذِلَّة المهجورِ

فعسى اللهُ أنْ يُعيـدَ اجتماعاً ... فى أمانٍ من حادثاتِ الدُّهورِ

إنه قادرٌ على ردِّ ما فا ... ت وتيْسير كلِّ أمْرٍ عَسيرِ

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى فى الوزير المهلبى[٢] :

قل للوزير أبى محمـد الذى ... قد أعجزت كلَّ الورَى أوصافُهُ

لك فى المجالس مَنْطِقٌ يَشْفِى الجوَى ... ويَسُوغُ فى أُذُنِ الأديب سُلافُهُ

وكأنَّ لفظَك جَوْهرٌ متنخَّلٌ[٣] ... وكأنمـا آذانُنا أَصـدافُهُ

* * *

والمهلبى هـذا هو أبو محمد الحسن بن هارون[٤] بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد ابن حاتم بن قبيصة بن المهلب ، وزر لأحمد بن بويه الديلمى ، وكانت وزارته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وكان أبو محمد من سَرَوات النـاس وأدبائهم وأجوادهم وأعِفّائهم ؛ وفيه يقول أبو إسحاق الصابى[٥] :

كلمة عن المهلبى

نِعَمُ اللهِ كالوحوش فما تأ ... لَفُ إلا الأخيارَ[٦] النُّسّاكا

نَفَّرَتْها آثامُ قوم وصيّرْ[٧] ... ن لها البرّ والتُّقَى أشْراكا

وكان قبـلَ اتِّصاله بالسلطان سائحاً فى البلاد ، على طريق الفقْرِ والتصوّف ، قال أبو على الصوفى : كنت معه فى بعض أوقاته أُماشِيه فى إحـدى طرقاته فضَجر لضيقِ الحال فقال :

ألَا موتٌ يُبَاعُ فأشتريهِ ... فهذا العيشُ مالا[٨] خيْرَ فيهِ

---

(١) ليس هذا البيت فى ت . (٢) يتيمة الدهر : ٢ — ٢٤٨ .

(٣) فى اليتيمة : لؤلؤ بدل جوهر، ومتنخل : مختار . (٤) فى ت : بن محمد بن هارون.

(٥) اليتيمة : ٢ — ٢٧٥ . (٦) الأخيار . (٧) فى ت : فصيرت .

(٨) فى ت : لاما .

ألا رَحِمَ المهيمن نفس حرٍّ ... تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيـهِ

ثم تصرَّف بما يُرْضِيه الدهر ، وبلغ المهلبى مَبْلغه . قال أبو على : دخلت البصرة فاجتزت بسُرَّ مَنْ رأى ، وإذا أنا بنا شطيات وحَرَّاقات(١) وَزَيارب(٢) وطَيَّارات فى عُدَّةٍ وعُدَد فسألتُ لِمَنْ هذا ؟ فقيل : للوزير المهلبى ، ونعتوا لِى صاحبى ؛ فوصلتُ إليه حتى رأيته ، فـكتبتُ إليه رقعة وتوصّلت حتى دخلتُ فسلّمت، وجلستُ حتى خلا مجلسه، فدفعتُ إليه الرقعةَ وفيها :

ألَا قُلْ للوزير بلا احْتِشَام ... مقال مُذَكِّرٍ ما قد نَسِيـهِ
أتذكر إذ تقول لضيق عيشٍ(٣) ... ألا مَوْتٌ يُبَاعُ فأشْتَرِيهِ

فنظر إلىَّ وقال: نعم ، ثم نهض وأنْهَضَنى معه إلى مجلس الأُنس ، وجعل يُذَاكِرنى ما مَضَى ، ويَذْكُرُ لى كيف ترقّت حاله ، وقدِّم الطعام فطَعِمْنَا ، وأَقبل ثلاثةٌ من الغلمان على رأسِ أَحدِهم ثَلَاثُ بِدَر(٤) ، ومع الآخر تخوتٌ وثِيَاب ، ومع الآخر طِيبٌ وبخور ، وأقبلت بَغْلَة رائعة بسَرْجٍ ثقيل ؛ فقال : يا أَبَا علىّ ؛ تفضَّلْ بقبول هذا ، ولا تتخلَّف عن حاجةٍ تَعرِضُ لك . فشكرته وانصرفت ، فلما هَمَمْتُ بالخروج من الباب استردّنى وأنشدنى بديها :

رقَّ الزمانُ لفاقتى ... ورَثَى لطول تحرُّقى
وأنالنى ما أرْتجى(٥) ... وأجارَ ممَّا أتَّقى
فلأغفرنَّ له الـكثيـ ... ـرَ من الذنوب السُّبَّقِ
إلّا جنايَتَـه التى ... فعلَ المشيب بمَفْرَقى

* * *

(١) الحراقات : سفن بالبصرة وفيها مرامى نيران يرمى بها العدو . والطيارات : فرس ضار: حديد الفؤاد ماض كأنه يطير . (٢) هكذا فى ط ، ق . وفى ت : وزنارات . وفى هامش س: أنواع من السفن . (٣) فى ت ، س : لضيق حال .
(٤) البدر: جمع بدرة، وهى كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم. (٥) فى س: ما أشتهى.

العقول

قال بعض العلماء : العقول لها صُوَرٌ مثل صورِ الأجسام ، فإذا أَنْتَ لم تسلُكْ بها سبيلَ الأدب حارَتْ وضلَّت ، وإن بعثْتَها فى أَوْدِيتها كلّت وملّت ، فاسلُكْ بعقلك شِعَاب المعانى والفهم ، واستبقه بالجِمَام (١) للعلم ، وارْتَد لعقلك أَفْضلَ طبقاتِ الأدب ، وتَوَقَّ عليه آفةَ العَطَب ؛ فإنَّ العقلَ شاهدُك على الفَضْل ، وحارسُك من الجهل .

واعْلَمْ أنَّ مغارِسَ العقول كمغارس الأشجار ، فإذا طابت بِقَاعُ الأرض للشجر زكا (٢) ثمرُها ، وإذا كَرُمَت النفوسُ للعقول طاب خَيْرُها ، فاغْمُرْ نفسَك بالكرم تَسْلَمْ من الآفةِ والسقم .

واعلَمْ أَنَّ العقلَ [الحسن] (٣) فى النفسِ اللئيمة بمنزلة الشجرةِ الكريمة فى الأرض الذميمة ينتفع بثمرها عَلَى خُبْثِ المَغْرِس ؛ فاجْتَنِ ثمرَ العقول وإن أتاك من لِئَام الأنفس . [وقال النبي عليه السلام : رب حامل فقه إلى من هو أوعى له . وقيل: رب حامل فقه غير فقيه . ورب رمية من غير رام] (٣) .

الحكمة ضالة المؤمن

وقيل : الحِكْمَةُ ضالَّةُ المؤمن ، أينما وجدها أَخذها . وسمع الشعبى الحجاج بن يوسف وهو على المنبر يقول : أمّا بعد ، فإنّ الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناءَ لما كُتِب عليه البقاء ، ولا بَقَاء لما كُتِبَ عليه الفناء ، فلا يغرّنكم شاهدُ الدنيا عن غائبِ الآخرة ، وأَقْصِرُوا من الأمل ، لِقِصَرِ الأجل . فقال : كلامُ حكمة خرج من قلبٍ خراب ! وأخرج ألواحَه فكتب . وقد روى ذلك عن سفيان الثورى .

وقد سُمع إبراهيم بن هشام وهو يَخْطُب على المنبر ويقول : إن يوماً أشاب الصغير ، وأَسْكَر الكبير ، ليومٌ شرُّه مُسْتَطِير !

---

(١) الجمام : الراحة . (٢) زكا : نما . (٣) من ت .

[وصف الكتب]

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ[1]: الكتاب وعاءٌ مُلِئ عِلْما ، وظَرْف حُشِي ظَرْفا ، وبُسْتَان يحمل في رُدْن[2]، ورَوْضَةٌ تقلب في حِجر ، ينطق عن الموتى ، ويُتَرْجِمُ كلامَ الأحياء .

وقال : من صنَّف كتابا فقد استهدف[3]؛ فإن أَحسن فقد استعطف ، وإن أساء فقد استقذف[4] .

وقال: لا أعلم جاراً أبرّ ، ولاخليطاً أنْصَف، ولا رفيقا أطوع، ولا مُعَلِّما أخضع، ولا صاحبا أظْهَر كفاية ، وأقلّ جناية ، ولا أقلّ إملالا وإبراما ، ولا أقلّ خلافا وإجراما ، ولا أقلّ غِيبةً ، ولا أبعد من عَضِيهة[5] ولا أكثر أعجوبة وتصرّفا ، ولا أقل صَلَفا وتكلّفا ، ولا أبعد من مِرَاء ، ولا أترك لِشَغَب ، ولا أزهد في جِدال، ولا أكفّ عن قتال، من كتاب. ولا أعلم قرينا أحْسَن مُواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحْضر معونة ، ولا أقلّ مئونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أجمع أمْراً ؛ ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مُجْتَنًى ، ولا أسرع إدْرَاكا في كل أوَانٍ ، ولا أوجد في غير إبّان ، من كتاب . ولا أعلم نِتَاجاً في حداثة سنِّه ، وقُرْبِ ميلاده ؛ ورِخَص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمودِ الأخبارِ عن القرون الماضية، والبلاد المُتَرَاخية ، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يَجْمَع الكتابُ .

وصف المأمون للكتاب

ودخل الرشيد على المأمونِ وهو يَنْظُر في كتابٍ ، فقال : ما هذا ؟ فقال : كتاب يَشْحَذ الفِكْرَة ويُحْسِنُ العِشْرة . فقال : الحمدُ لله الذى رزَقَنِى من يرى بعَيْن قلبه أكثرَ مما يرى بعين جسمه .

وصف الكتب لبعض الأدباء

وقيل لبعض العلماء : ما بَلغَ من سرورك بأدبك وكُتُبك ؟ فقال: هى إن خَلَوْت لذَّتى ، وإن اهتممتُ سَلْوَتى ، وإن قلتَ :إنَّ زَهْرَ البستان، ونَوْر الجِنان، يَجْلُوَان

---

(١) النويرى : ٧ ـ ١٧ . (٢) الردن : الكم . (٣) استهدف : صير نفسه هدفا.
(٤) استقذف : عرض نفسه للقذف . (٥) العضيهة : الإفك والبهتان .

الأبصار ، ويُمتِعان بحسنهما الألحاظ ، فإنّ بستانَ الكتب يجْلُو العقل ، ويَشْحَذُ الذِّهْن ، ويُحْيِي القلب ، ويقوِّى القريحة ، ويُعِينُ الطبيعةَ ، ويَبْعَثُ نتائج العقول، ويستَثِير دَفَائِنَ القلوب ، ويُمتِعُ فى الخَلْوَةِ ، ويُؤنِسُ فى الوَحْشَةِ ، ويُضحِكُ بنوادره ، ويَسُرُّ بغرائبه ، ويفيد ولا يَسْتَفيد ، ويُعْطِى ولا يأخذ ، وتَصِلُ لذّته إلى القلب ، من غير سآمة تُدْرِكُك ، ولا مشقةٍ تعرض لك .

للمتنبى

وقال أبو الطيب المتنبى (١) :

وللسِّرِّ منِّى مَوْضِعٌ لا يَنالُهُ … نديمٌ ولا يُفْضِى إليه شَرَابُ
ولِلْخَوْدِ منى ساعةٌ ثم بَيْنَنا … فَلَاةٌ إلى غَيْرِ اللقاء تُجَابُ (٢)
وما العِشْقُ إلاّ غِرَّةٌ وطَمَاعَةٌ … يُعَرِّض قَلْبٌ نفسَه فيُصَابُ
وغَيْرُ فؤَادِى لِلْغَوَانِى رَمِيَّةٌ … وغَيْرُ بَنَانِى للرِّخَاخِ رِكَابُ (٣)
تَرَكْنا لِأَطرافِ القَنا كلَّ لَذّةٍ (٤) … فليس لنا إلاّ بهنَّ لِعاب (٥)
نُصَرِّفُه للطَّعْنِ فَوْقَ سَوَابِحٍ (٦) … قد انقَصَفَتْ فيهنَّ مِنْهُ كِعَابُ
أَعَزُّ مكانٍ فى الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ … وخَيْرُ جَلِيسٍ فى الزّمَانِ كِتَابُ

فِقر فى الكتب

إنفاق الفِضَّة على كُتب الآداب يُخلفك عليه ذهب الألباب. إنّ هذه الآداب شَوَارد، فاجعلُوا الكتبَ لها أزِمَّة . كتاب الرجل عُنوان عقله ، ولسانُ فضله . ابن المعتز — مَن قرأ سَطْراً من كتاب قد خطّ عليه فقد خان كاتِبَه؛ لأنّ الخطَّ يحرز ما تحته. بزرجمهر — الكتبُ أَصْدَاف الحِكم ، تنشقُّ عن جواهر الكلم . بعض الكتاب —

(١) ديوانه : ١—١٩٢ ، المختار من شعر بشار: ١٥٤ . (٢) الخود : الجارية الناعمة . والفلاة : الأرض المنقطعة البعيدة عن الماء . تجاب : تقطع . (٣) الرخاخ : من أدوات الشطرنج . (٤) فى الديوان : كل شهوة . (٥) اللعاب : الملاعبة .
(٦) فى الديوان : حواذر .

إعجام الخطّ يمنع من استعجامه ، وشَكْله يؤمن من إشكاله . كأن هذا الكاتب نحا إلى قول أبى تمام (١) :

ترى الحادثَ المستعجِم الخطب معجَماً لديه ومشكولاً إذا كان مُشْكِلاَ (٢)

ما كُتب قرَّ ، وما حُفِظ فرَّ . الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة .

وقال ابن المعتز يصف كتابا (٣) :

وذى نكَت (٤) موشَّى نمقتَه (٥) وحاكَتْه الأنامل أىَّ حَوْكِ

بشكل يرْفَع الإشكالَ عنهُ كأنّ سطورَه أغْصانُ شَوْكِ

جملة من ألفاظ أهل العصر

فى صفةِ الكتب وتهاديها ، وما يتعلق بأسمائها ومعانيها

حضرة مولاى تَجلُّ عن أنْ يُهْدَى إليها غيرُ الكتب، التى لا يترفَّع عنها كبير، ولا يَمْتَنِعُ منها خطير ، وقد فكّرت فيما أنفذت (٦) به مقيما للرَّسْم فى جملة الخدَم، وحافِظا للاسم فى غمارِ الحَشم ، فلم أجِدْ إلا الرِّقَّ الذى سبق ملْكُه له والمال الذى مَنَحه وخوَّله ، فعدَلْتُ إلى الأدبِ الذى تَنْفُقُ سوقُه (٧) بباب سيدنا ولا تكسد (٨) ، وتهبّ ريحُه بجانبه ولا ترْكُد. وأنفذت كتابى هذا راجياً أن أشرف بقبوله، ويوقّع إلىَّ بحصوله ؛ ولمَّا وجب على ذوى الاختصاص لسيدنا إهداء ما جرت العادةُ بتسابق الأولياء إلى الاجتهاد (٩) فى إهدائه ، وجب العدول فى إقامة رسم الخدمة إلى اتباع

---

(١) ديوانه : ٢٥٣ . (٢) فى الديوان : وإن . المشكول : المعلم بالشكل ، والمشكل: المشتبه . (٣) ديوانه : ٢ـ١٢٦ ، ورواية البيتين فى الديوان :

ودونك موشى نمته ...

بشكل يأخذ الحرف المحلى

(٤) هكذا فى س ، ط ، وفى ق : وذونكت ، وفى ت : ودونك .

(٥) فى س ، ت : نمنمته (٦) فى ت : فيما أتقرب به

(٧) نفقت السوق : قامت (٨) فى ط : تكد ، وفى ت : ولا ينسد ، وهذه رواية س

(٩) فى ت ، س: الاحتشاد .

ما صدر عنه من الرخصة فيما تسهل كلفته ، وتجلّ عند ذوى الألباب قيمتُه ، وتحلو ثمرتُه ؛ وهو علمٌ يُقْتَنَى ، وأدبٌ يُجْتَنَى . قال أبو الحسن بن طباطبا العلوى :

لا تُنْكِرَنْ إهداءنَا لك منطقا منك استفدنا حُسْنَه ونظامهُ
فاللهُ عزَّ وجلّ يشكرُ فِعْلَ مَنْ يتلو عليه وَحْيَه وكلامهُ

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم مهْرَجان هدية قيمتُها ألف ألف درهم ، وكتب :

على العبد حقٌّ فهو لابدَّ فاعله وإن عظُم المَوْلَى وجَلَّتْ فضائلُه
ألَمْ ترنا نُهْدِى إلى الله مالَهُ وإن كان عنه ذَا غنًى وهو قابِلُه

وقال أبو الفتح البستى (١) :

لا تُنْكِرَنَّ إذا أهديت نحوك مِن علومك الغرّ أو آدابك النّتَفا
فقيِّم الباغِ (٢) قد يُهْدِى لمالكه برسم خدمته من باغِه التُّحَفا

الإهداء إلى الموالى للصابى

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى عضد الدولة فى هذا المعنى : العبيد تُلاطِف ولا تُكاثر الموالِى فى هدَاياها، والموالى تَقْبَل الميسور منها قبولا هو محسوبٌ فى عطاياها . ولما كان — أدام الله تعالى عزّه — مبرِّزًا على ملوك الأرض فى الخطر الذى قصَّروا عنه شديداً ، والسّعى (٣) الذى وقفوا منه بعيداً ، والآداب التى عَجزوا عن استعلامها فَضْلًا عن عِلْمها ، والأدوات التى نَكِلُوا (٤) عن استفهامها فضلا عن فَهْمِها ، وجب أن يُعْدَل عن اختياراتهم فيما تحظَى به الجسومُ البهيمية ، إلى اختيارِه فيما تحظَى به النفوسُ العليّة ، وعما يَنْفُق فى سوقهم العامية ، إلى ما يَنْفُق فى سوقه الخاصية ، إفراداً لرُتْبَتِه العليا،

(١) يتيمة الدهر : ٤ — ٣٠٧ (٢) الباغ : الطيب .
(٣) فى ط : والمدى ، وهذه من ت ، س . (٤) نكل : نكص وجبن .

وغايته القصوى ، وتمييزاً له عمن لا يَجْرِى معه فى هذا المضمار ، ولا يتعلقُ منه بالغُبَار؛ وقد حملت إلى الخِزانة ـ عمرها الله ـ شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم ، فإنْ رأى مولانا أن يتطوّل على عَبْدِه بالإذن فى عَرْضِ ذلك عليه مشرفا له وزائدا فى إحسانِه إليه فعل إنْ شاءَ الله تعالى .

للمتنبي

وأَهْدى أبو الطيب المتنبى إلى أبى الفضل بن العميد فى يوم نوروز قصيدة مدحه فيها يقول فى آخرها [1] :

كَثُرَ الفِكْرُ كيفَ نُهْدِى كما أهـــدى[2] إلى ربِّهــا الرئيسِ عِبَادَهْ
والّذى عندَنا من المالِ والْخَيْـــلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وقِيَادَهْ
فبعثنا[3] بأرْبَعين مِهَار كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُه إنْشَادُهْ
فارْتَبِطْهَا فإنَّ قَلْباً نَمَاهَا[4] مَرْبَطٌ تَسْبِقُ الجيادَ جِيَادُهْ

وفى هذه الكلمة يقولُ وقد احتفل فيها ، واجتهد فى تجويد ألفاظها ومعانيها ، فتعقّب عليه أبو الفضل فى مواضع وقف عليها فقال [5] :

هل لِعُذْرِى إلى الهُمَام أبى الفضـــل قَبُولٌ سَوَادُ عَيْنِى مِدَادُهْ
أَنَا من شدَّةِ الحياءِ عَلِيلٌ مَكْرُمَاتُ المُعِلّهِ[6] عُوَّادُهْ
ما كَفَانِى تَقْصِيرُ ما قُلْتُ فِيهِ عَنْ عُلاهُ حتى ثَنَاه انْتِقَادُهْ
ما تَعَوَّدْتُ أن أرَى كأَبى الفضْـــل وهَذَا الّذى أتَاهُ اعْتِيَادُهْ[7]
غَمَرَتْنِى فوائدٌ شاءَ منها[8] أن يكونَ الكلامُ ممَّا أفادَهْ
ما سَمِعْنَا بمن أحَبَّ المطايا فاشتهى أن يكونَ مِنْها فؤادُهْ

وقد كان مدحه بقصيدته التى أولها[9] :

بادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أم لم تَصْبِرا وبُكَاكَ إن لم يَجْرِ دَمْعُكَ أوْجَرَى

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ٥٦ . (٢) فى الديوان : كما أهدت . (٣) فى الديوان : قد بعثنا .
(٤) نماها : صنعها . (٥) ديوانه : ٢ ـ ٥٣ . (٦) المعله : المعل له .
(٧) فى ت : وهذا الذى أنا اعتاده . (٨) فى الديوان ، س : فيها .
(٩) ديوانه : ٢ ـ ١٦٠ .

وفيها معان مخترعة ، وأبيات مبتدعة ، يقول فيها (١) :

مَن مُبلِغُ الأَعْرابِ أنّى بعدَها ... جالَسْتُ رَسْطَالِيسَ والإسْكَنْدرا (٢)
ومَلِلتُ نَحْرَ عِشَارِها فأَضافَنِي ... مَنْ يَنحرُ البدرَ النُّضَارَ لمن قَرَى (٣)
وسمِعْتُ بطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... متملِّكًا متَبَدِّيًا متحَضراً
ورأيت (٤) كلَّ الفاضلينَ كأنّما ... رَدَّ الإلهُ نفوسَهم والأَعْصُرا
نُسِقُوا لنا نَسقَ الحسابِ مقدّماً ... وأتى فذلكَ إذْ أتيتَ مُؤَخَّرا

وفيها يقول (٥) :

فدعاكَ حُسَّدُكَ الرئيسَ وأَمْسَكُوا ... ودَعَاكَ خالقُك الرئيسَ الأَكْبَرَا
خَلَقَت صِفَاتُك فى العيونِ كَلامَهُ ... كالخَطِّ يَمْلأُ مِسْمَعَىْ مَنْ أبْصَرَا

أخذه من قول الطائى يصف قصائده (٦) :

بِقُربٍ (٧) يراها مَنْ يرَاها بسمعهِ ... ويَدْنُو إليها ذوالحِجَا وهوشَاسِعُ

[فقر فى وصف الكتب]

كتابٌ كتب لى أماناً من الدّهر، وهنّانى أيام العمر . كتاب أوجب من الاعتداد فوق الأعداد ، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد . كتابٌ النظر فيه نعيمٌ مقيم ، والظفَرُ به فَتْح عظيم . كتابٌ ارتحت لِعيانه (٨) ، واهتززت لِعُنْوانِه . كتابٌ هو من الكتبِ الميَامِين، التى تَأْتِى من قِبَل اليمين. كتاب عددته من حُجول العُمْر وغُرَرِه (٩) ، واعتدَدْتُه من فُرَصِ العيش وغرَره . كتابٌ هو أنفَس طالع ، وأكْرَم متطلَّع ، وأحْسَن واقع ، وأجلّ متوقع . كتاب لو قُرِئ على الحجارة لانفَجرت ، أو على الكواكب لانتَثرت . كتابٌ كِدت أُبْليه طَيًّا ونَشْرًا ، وقبّلته أَلْفا ، ويدَ حامله

(١) ديوانه : ٢ ـ ١٧٠ . (٢) رسطاليس : حكيم روى ، وأصله أرسطاطاليس .
(٣) البدر : جمع بدرة وهى الكيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .
(٤) فى الديوان : ولقيت . (٥) ديوانه : ٢ ـ ١٦٨ . (٦) ديوانه : ٤٨٠ .
(٧) فى الديوان و ت : بغر ، ويريد بها قصائده الغراء . (٨) لمشاهدته .
(٩) جمع غرة ، وفى ت : من حجول الدهر وغرره .

عشراً . كتابٌ نسيت لحسنه الرَّوْضَ والزَّهر ؛ وغفرتُ للزمان ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر . كتاب أمْلَتْه هِزَّة المَجْدِ على بنانك، ونَطَقَ به لسانُ الفضْل عن لسانك. أنا أَلْتَقِط من كلِّ حَرْف تُدِيرُه [١] أناملُك تُحْفَة ، وآخُذُ من كلِّ سَطْرٍ تتجشَّم تخطيطه نُزْهة . إذا قرأت من خطِّك حَرْفا وجدتُ على قلبي خِفًّا [٢] ، وإذا تأمّلت من كلامك لَفْظا ازددت من أُنْسِي حَظّا . كتاب كتبَ لى أماناً من الزمان ، وتوقيعٌ وقع منِّى مَوْقِع الماء من العطشان . كتاب هو تَعِلَّة المسافر [٣] وأُنْسَةُ المستوحش ، وزبدة الوصال ، وعُقْلة المستَوْفِز [٤] . كتاب هو رُقية القلب السليم [٥] ، وغرّة العيش البهيم [٦] . كتاب هو سَمَر بلا سَهَر ، وصَفْوٌ بلا كَدَر . كتاب تمتّعت منه بالنعيم الأبيض ، والعيش الأَخْضر ، واستلمته اسْتِلَام الحجر الأسود ، ووكلت طرفى من سُطُوره بوَشْيٍ مهلّل ، وتَاج مُكَلَّل ، وأَوْدَعْت سَمْعِى من محاسنه ما أَنْسَانى سماعَ الأغانى من مطربات الغوانى . نشأت سَحَابة من لفظك غَيْمُها نِعْمةٌ سابغَة [٧] ، وغَيْثُها حِكْمَةٌ بالغة ، سقَتْ رَوْضَةَ القلب ، وقَدْ جهدتها [٨] يَدُ الجَدْبِ ؛ فاهتزَّتْ ورَبَتْ ، وا كتست ما ا كتَسَبت . كتابٌ حسبته ساقطاً إلىّ من السماء ، اهتزازاً لمَطْلَعه ، وابتهاجاً بحُسْنِ مَوْقِعه ، تناولتُه كما يُتناول الكتابُ المرقومُ ، وفضَضْتُه كما يُفضُّ الرحِيقُ [٩] المختوم . كتابٌ كالمشترى شَرُف به المسير ، وقَميص يوسفَ جاء به البشير . كتابٌ هو من الحسن رَوْضَة حَزْن [١٠] ، بل جَنَّة عَدْن ، وفى شَرْحِ النفس وبَسْطِ الأُنس بَرْدُ الأكباد والقلوب وقميص يوسف فى أجفان [١١] يعقوب .

---

(١) فى ت : تدبره . (٢) الخف : الارتياح . (٣) تعلة المسافر : مايتعلل ويتلهى به المسافر . (٤) استوفز فى قعدته : انتصب فيها غير مطمئن ، أو استقل على ركبتيه ولما يستو قائما وقد تهيأ للوثوب . (٥) السليم: الملدوغ . (٦) البهيم : المظلم .

(٧) فى ت : عينها نعمة متتابعة . (٨) فى ق ، ت : جهد بها . (٩) الرحيق : الخمر .
(١٠) الحزن : المرتفع . (١١) فى ت : إذ وافى .

قد أهديت إليّ محاسنَ الدنيا مجموعةً فى ورقه، ومباهج الحلى والحُلَل محصورة فى طبقه . كتابٌ ألصقته بالقَلْبِ والكبد ، وشممته شمَّ الولد [١] . وردَ منْكَ المِسْكُ ذكيا ، والزَّهر جَنِيًا ، والماء مريًا [٢]، والعيش هنيًّا ، والسحر بابليًّا . كتاب مَطْلَعه مطلع أَهِلَّة الأعياد ، وموقعه مَوْقع نَيْلِ المراد . كتاب وجدته قصيرَ العمر ، كليالى الوِصال بعد الهَجْر، لم أبدأ به حتى استكمل ، وقارَب الآخِر منه الأوّل .

كتاب منتقض الأطراف ، منقطع الأكتاف ، أبْتَر الجوارح ، مُضْطَرِب الجوانح. كتابٌ كأنه توقيع متحَرِّز، أو تعْرِيض مُتَبرِّز [٣]، كاد يلتقى طَرَفاه، ويتقارب مُفتَحه ومُنْتَهاه . كتاب التقَتْ طرَفاه صِغَرا ، واجتمعت حاشيتاه قِصرا . ما أظننى ابتدَأْتُه حتى ختَمْتُه ، ولا استفتحْتُه حتى أتممته [٤] ، ولا لمحته حتى استوفَيْتُه ، ولا نشرتُه حتى طويته ، وأَحْسبنى لو لم أجوِّد ضبطه [٥] ولم أُلْزِم يَدِى حِفْظَه ، لطار حتى يختلطَ بالجوّ فلا أَرى منه إلا هباءً منثورا ، وهواءً منشوراً . كتاب حسبته يطيرُ من يدى لخفّته، ويلطف عن حِسِّى لقلّته، وعجبت كيف لم تحمِلْه الرّياح قبل وصوله إلىّ، وكيف لم يختلط بالهواء عند حصوله لدىَّ . كتاب قصَّ الاقتصارُ أَجنحته ، فلم يدعْ له قوادمَ ولا خَوَافِى [٦]، وأخذ الاختصار جثته [٧] ، فلم يبق أَلْفاظاً ولا معانى . طلعَ كتابُك كإيماء بطرْف ، أو وَحْىٍ بكفّ .

وقال أبو العباس عبدالله بن المعتز : استعرت من على بن يحيى المنجم جُزْءاً فيه أخبار معبد بخط حماد بن إسحاق الموصلي ، وكان وعدنى به ، فبعث إلىّ بستّ ورقات لِطَاف، فرددتها وكتبت إليه : « إن كنتَ أردتَ بقولك جُزْءاً الجزء الذى لا يتجزَّأ فقد

---

(١) فى ت : الوالد للولد . (٢) المرى : المرىء الهنىء .

(٣) برز الرجل : فاق أصحابه فضلا أو شجاعة ، وفى ت ، س : تعريض متحرز ، وتوقيع متبرز . (٤) فى ت : استتممته . (٥) فى ت : لفظه .

(٦) القوادم : ريشات فى مقدم الجناح . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت .

(٧) فى ت : جدته .

أصبت ، وإن كنت أردتَ جُزْءًا فيه فائدةٌ للقارئ ، ومُتْعَةٌ للسامع ، فقد أحَلْتَ [١]؛ وقد ردَدْتُه عليك بعد أن طار اللَّحْظ عَلَيْهِ طِيرة .

فأجابنى : إذا كان السِّفر عِنْدَكَ منْجاة فما أصْنع ؟

[المحادثة والمجالسة]

وقال أبو العباس : دخل رجلٌ على الحسن بنِ سهل بعد أن تأَخَّر عنه أياما ، فقال: ما يَنْقَضِى يومٌ من عُمْرِى لا أراكَ فيه إلا علمت أنه مبتورُ القَدرِ ، منحوس الحظّ ، مَغْبُون الأيام .

فقال الحسن: هـذا ؛ لِأنّك توصل إلى بحضورك سُروراً لا أجِدُه عند غيرك ، وأتَنَسَّم من أرواح عِشْرَتك ماتجدُ الحواسُّ به بُغْيَتَها ، وتستوفى منه لذَّتَها ، فنفسُك تألف منى مثل ما آلفه منك .

وكان يقال : محادثة الرِّجال تَلْقِيح الألباب .

وقال ابن الرومى [٢] :

ولقد سَئِمْتُ مَآرِبى فـكأَنَّ أطيبَهَا خَبِيثُ
إلاَّ الحديثَ فإنّهُ مِثْلُ اسْمِهِ أبداً حَدِيثُ

قال مخارق : لقينى أبُو إسحاق إسماعيل بن القاسم قبل نسكه ، فقال : أنَا والله صَبٌّ بك ، ولُوع [٣] إليك ، مغمورُ القلب بشكرك واللسانِ بذِكْرك ، متشوِّف إلى رُؤيتك [٤] ومفاوضتك ، وقدطالتِ الأيامُ على ماأعد به نَفْسِى من الاجتماع معك ، ومن قضاء الوَطَرِ منك؛ فما عندك ؟ أنا الفِدَاء لك ، أتزورنى أم أزورك ؟

قلت: جعلنى الله فِدَاكَ ، ما يكونُ عند مَنْ هو منك بهذا الموضع وفى هذا المحلّ إلا

---

(١) أحال : أتى بالمحال . (٢) ديوانه : ٢ ـ ١٦ ، المختار من شعر بشار : ١٤٥ ، النويرى : ٢ ـ ٧٠ . (٣) فى ت : هلوع . (٤) فى ت : متشوف إلى قربك ، وفى س : متشوق .

الانقيادُ إلى أمرك ، والسمعُ والطاعةُ لك ، ولولا أن أسيء الأدبَ في أمرٍ بدأْتَ فيه بالفضل لقلت: إن كثيرَ ما ابتدأتَ به من القول يقل فيما عندي من الشوقِ إليك ، والشَّغَف بك دون ماحرَّك هذا القولُ مني، فوجبت لك به المنَّة عليّ، وأنا بين يديك؛ فاثْنِ عِنَاني إلى ما أردْت ، وقدْنِي كيف شئت ، تجدني كما قال القائل :

ما تَشْتَهِيهِ فإنّي اليوم فاعلُهُ والقلبُ صَبٌّ فما جَشَّمتَه جشِما

وذكر سهل بن هارون رجلا ، فقال : لم أرَ أحسن منه فَهْماً لجليل ، ولا تفهماً لدقيق ـ أشار إليه أبو تمام فقال [1] :

وكنت أعزّ عزًّا من قنوع تعرَّضَه صَفوح من مَلول [2]

فصرت أَذلّ من معنًى دقيقٍ به فَقْرٌ إلى ذِهنٍ [3] جليلِ

وقال سعيد بن مسلم للمأمون : لو لم أَشْكُرِ الله تعالى إلّا على حُسْنِ ما أَبْلانِي من أَمير المؤمنين من قَصْدِه إليَّ بحديثه ، وإشارته إليّ بطَرْفِه لقد كان في ذلك أَعظمُ الرِّفْعة ، وأرفعُ ما توجبه الحرمة . فقال [4] : يفعل أميرُ المؤمنين ذلك ؛ لأن أمير المؤمنين يَجِدُ عندك من حُسْنِ الإفهام إذا حَدّثت وحسن الفهم إذاحُدّثت مالايجدُه عند أحدٍ ممن مضى ، ولايظنُّ أنه يجده عندأحدٍ ممن بَقِي ، فإنك لتَسْتَقْصِي حديثي ، وتقفُ عند مقاطع كلامي ، وتُخْبِرُ بما كنت أغفلته منه .

وقال المتوكل لأبي العيناء : ما تحسنُ ؟ قال : أفهَم وأُفهِم .

وقال بعض الحكماء لتلميذه ، وقد ضَرب الموسيقى : أَفهمت ؟ قال: نعم . قال: بل لم تفهم ؛ لأَني لا أَرى عليك سرورَ الفهم ! وقد قيل : من نظر إلى الربيع وأنواره ، والروض وأصْبَاغه ولم يبتهج كان عديمَ حِسّ أو سقيم نَفْس .

(١) ديوانه : ٥٠٣ . (٢) في الديوان : تعوضه صفوح عن جهول .

(٣) في الديوان : إلى فهم جليل . (٤) أي المأمون ـ هامش س .

شجى الصوت

ومرّ أبو تمام باير شهر (١) من أَرْض فارس فسمِعَ جارية تغنّى بالفارسية فشاقه شجىّ الصوت فقال(٢) :

ومُسْمِعَةٍ تروقُ السَّمْعَ حسناً (٣) ولم تُصْمِمْهُ لا يصمم صَدَاها
لوت(٤) أوتارها فشجتْ وشاقت(٥) فَلَوْ يَسْطِيعُ حاسدُها فدَاهَا
ولم أَفْهَم معانيهَا ولكن وَرَت كبدى فلم أَجْهَل شَداها (٦)
فكنت (٧) كأنّنِي أَعمى معنًّى يُحِبُّ الغانياتِ ولا يَرَاهَا

عشق الآذان

قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر : قلت لأبي تمام : أَأخذت هذا المعنى من أحد ؟ قال : نعم ، أخذتُه من قول بشار بن برد :

ياقومِ أذنى لبعض الحىِّ عاشقةٌ والأذن تَعْشَق قبلَ العينِ أحيانا
قالوا بِمَنْ لاترى تَهْذِى؟ فقلت لهم الأذن كالْعَيْن تُوفِى القلبَ مَا كانَا

وقال بشار أيضا فى هذا المعنى :

قالت عَقِيل بن كعب إذ تعلّقَها قَلْبِي فأَضْحَى به من حُبِّها أثَرُ
أَنَّى ولم ترها ! تَهْذِي ! فقلت لهم إنّ الفؤادَ يرَى مالا يَرَى البصَرُ

وقال :

يزهِّدنى فى حُبّ عَبْدَةَ معشرٌ قلوبُهُم فيها مخالِفَةٌ قلبى
فقلت دَعُوا قلبي وما اختارَ وارْتَضَى فبالقَلْبِ لا بالعين يُبْصِر ذو اللُّبِّ (٨)
وما تُبصِرُ العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

---

(١) فى ت ، س : بأبرسهر . (٢) ديوانه : ٤٦٧ .
(٣) فى الديوان : ومسمعة يحار السمع فيها . وفى س : تفوق .
(٤) فى ت: مرت . (٥) فى الديوان : مرت أوتارها نشفت وشاقت .
(٦) فى الديوان ، ت ، س : فلم أجهل شجاها . (٧) فى الديوان : فبت ...
(٨) فى ت ، س : ذو الحب .

وقد قال أبو يعقوب الخريمي في هذا المعنى ، وكان قد عوِر ثم عَمِي ، وقيل إنها للخليل بن أحمد :

قالت أَنهزأً بي غَدَاة لقيتها | يا للرِّجَالِ لصَبْوة العميانِ
فأَجبتها : نفسِي فداؤك إنما | أُذْني وعيني في الهـوى سِيَّانِ

وقريب من هذا قول الحكم بن قنبر (١) وإن لم يكن منه : (٢)

إن كنتَ لستَ معي فالذكر منك معي | يَرْعاكَ قلبي وإن غُيِّبتَ عن بَصَرِي
العينُ تُبْصِرُ من تَهْوَى وتفقدهُ | وناظرُ القلب لا يَخْلو من النظر

وقال آخر (٣) :

أَمَا والَّذِي لوشاءَ لم يَخْلُقِ الهَوَى (٤) | لئِن غِبْتَ عن عَيْنِي فما غِبْتَ عن قلبي
تُرِينيك عَيْنُ الوهم (٥) حتى كأَنني | أُنَاجِيك من قُرْبٍ وإِن لم تكن قُرْبِي (٦)

وقال أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم (٧) :

لئن كانَ عن عينيَّ أحمـدُ غائبا | فما هو عن عَيْن الضمير بغائبِ
له صورةٌ في القلب لم يُقْصِها النوى | ولم تتخطَّفْها أكفُّ النوائب
إذا ساءني منه شحوط (٨) مَزاره | وضاقت بقلبي في نَوَاهُ (٩) مَذَاهبي
عطفتُ على شخصٍ له غيرِ نازحٍ | مَحَلَّتُه (١٠) بين الحَشَا والتَّرائبِ

---

(١) في ت : قتيبة . (٢) المختار من شعر بشار : ٥٠ .
(٣) عيون الأخبار : ٤ — ٨٦ ، المختار من شعر بشار : ٥٠ . وهما لأبي العتاهية .
(٤) في عيون الأخبار : النوى . (٥) في س : عين الذكر .
(٦) في عيون الأخبار :

يوهمنيك الشـوق حتى كأنني | أناجيك عن قرب وما أنت في قربي

(٧) المختار من شعر بشار: ٥٣ ، معجم الأدباء : ٤ — ٢٣١ . (٨) الشحوط : البعد . وفي ت ، س : نزوح زيارة . (٩) في ت ، س : عليّ في نواه .
(١٠) المحلة : المنزل .

طرفة

وذكر أبو عبيدة كَيْسَان مُسْتَمْلِيهفى بعض الأمرفقال : مافَهِم ، ولوفهم لوَهِم[١]. وكان كيسان يوصف بالبَلادة والغَفْلة .

قال الجاحظ : كان يكْتُبُ غيرمايَسْمَع ، ويستفتى[٢] غير ما يَكْتب ، ويَقْرَأ غير ما يَسْتَفتى ، ويُمْلِى غيْرَما يقرأ ، أمليت عليه يوما :

عجبت لمعشرٍ عدلوا بمعتمرٍ أبا عمرو

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستَفْتَى أبَا زَيْد .

أدب الحديث والسماع

قال أبو عباد : للمحدِّثِ على جليسه السامع لحديثه أنْ يجمع له بَالَه ، ويُصغِى إلى حديثه ، ويَكْتُم عليه سِرَّه ، ويَبْسُط له عُذْره . وقال : ينبغى للمحدّث إذا أنكر عينَ السامع أن يستَفْهمه عن مَعْنَى حديثه ، فإن وجدَه قد أَخلص له الاستماع أتمَّ له الحديث ، وإن كان لاهياً عنه حرمه حُسْنَ الإقبال عليه ، ونَفْعَ المؤانسة له ، وعرَّفه بسوء الاستماع والتقصير فى حقّ المحدث .

وقال : نَشَاطُ المحدّث على قَدْر فهم المستمع .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : حدِّث الناس ما حَدَّجُوك[٣] بأسماعهم ، ولحظوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فُتُورا[٤] فأمسك .

وقال أبو الفتح البستى[٥] :

إذا أحْسَسْت فى لَفْظى فتوراً وحفظى والبلاغة والبيانِ
فلا تَرْتَبْ بفَهْمِى إنّ رَقْصِى[٦] على مقدار إيقاعِ الزّمَانِ

وقال عامر بن عبد قيس : الكلمةُ إذا خرجَتْ من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوِز الآذان .

---

(١) وهم : غلط . (٢) فى ط ، س ، ق : ويستقى ، وهذا عن ت .
(٣) التحديج: التحديق. وفى ط ، ق : جدحوك . (٤) فى ت ، س : فترة .
(٥) المختار من شعر بشار : ٢١٥ ، ولابن المعتز فى ديوانه : ٣٢٦ .
(٦) فى ت : حفظى .

وقال الحسن ـ وقد سمع متكلّماً يَعِظُ فلم تَقَعْ مَوْعِظَته من قَلْبه ولم يرقّ لها : يا هذا ؛ إن بقلبك لشرًّا أو بقلبى !

إعادة الحديث

وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك لجاريته : كيف ترين ما أَعِظُ الناس به؟ قالت : هو حَسَن ، إلا أنك تكرّره ، قال : إنما أُكرِّره ليفهمه مَنْ لم يكن فَهِمه . قالت : إلى أن يفهمه البطىء يَثْقُل على سَمْع الذكى .

واستعيد ابن عباس حديثاً فقال : لولا أنى أخافُ أن أَغُضّ من بهائه ، وأُرِيق من مائه ، وأُخْلِق من جِدَّة رُوَائِه ، لأَعدته .

وقال أبو تمام الطائى يصف قصائده[1] :

مُنَزَّهة عن السَّرَق المؤدّى[2] مكرَّمة عَنِ المعنَى المُعَادِ

أخذه البحترى فقال[3] :

لا يعمل اللّفظُ[4] المكرَّ رَر فيه واللفظُ[5] المردَّدْ

والإطالةُ مَمْلُولة كما يُمَلّ التكرير .

مقطعات الحديث والسمر

وقد قال الحسن بن سهل: الآدابُ عشرة ؛ فثلاثةٌ شهرجانية ، وثلاثة أَنُوشروانية، وثلاثة عَرَبيَّة ، وواحدة أَرْبَتْ عليهن . فأما الشهرجانية فضربُ العُود ، ولعب الشطْرَنج ، ولعب الصَّوَالج . وأما الأنوشروانية فالطّب ، والهندسة ، والفروسية . وأما العربية فالشِّعْر ، والنَّسب ، وأَيام النـاس . وأما الواحدة التى أرْبَتْ عليهنّ : فقطعات الحديث ، والسّمر ، وما يتلقّاه الناسُ بينهم فى المجالس .

وكان يُقال : خُذ من العلوم نُتَفَها ، ومن الآداب طُرَفها . وكان يقال : مقطّعَات الأدب قُراضَاتُ الذهب .

---

(١) ديوانه : ٨١ . (٢) رواية الديوان : الورى .

(٣) ديوانه : ١ ـ ١٤٣ . (٤) فى الديوان : القول المكرر .

(٥) فى الديوان : والرأى .

وحضر بشارُ بن بُرْد مجلسا فقال: لا تجعلوا مَجالِسَنا غِناءً كلّه ، ولا شعراً كله، ولا سَمراً كله ، ولـكن انتهبوه انْتِهَابا .

وقال الحسن رحمه الله : حادِثُوا هـذه القلوب فإنها سريعةُ الدُّثور ، واقْدَعُوا هذه الأنفسَ فإنها طلعة(١) ؛ وإنـكم إلاّ تقْدَعُوها(٢) تَنزعْ بكم إلى شرِّ غاية .

وقال ازدشير بن بابك : إن للأذهان كلالا ، وللقلوب مَلالا(٣) ، ففرِّقوا بين الحـكمتين يكن ذلك استجماما .

ويروى فى حكمة آل داود : لا ينبغى للعاقل أنْ يُخْلِىَ نفسه من أربع : عُدّة لِمعَادِه ، وصلاحٌ لِمعَاشه ، وفِـكْرٌ يقفُ به على ما يُصْلِحُه من فساده ، ولذة فى غير محرّم يستعينُ بها على الحالات الثلاث . وما أحسن ما قال أبو الفتح بن كشاجم :

عَجَبِى ممَّن تَنَاهَتْ حالُهُ ... وكفاه اللهُ ذِلاَّتِ الطلَبْ
كيف لا يَقْسِم شَطْرَىْ عمرهِ ... بين حالَيْن نَعيم وأَدَبْ
ساعة يُمتِع فيهـا نَفْسَهُ ... من غذاء وشرابٍ منتخَب
ودُنُوٍّ من دُمًى هُنَّ لَهُ ... حين يشتاقُ إلى اللّعب لعَب
فإذا ما نالَ مِنْ ذَا حَظَّه ... فحديثٌ ونشيـد وكُتب
مرة جِدٌّ وأخرى راحة ... فإذا ما غَسَقَ(٤) الليلُ انْتَصَبْ
فقضى الدنيا نَهاراً حقَّها ... وقضى لِلّه ليلًا ما وَجَبْ
تلك أَقسامٌ متى يَعْمَلْ بها ... دَهْرَهُ يَسعد ويَرشد ويُصِبْ

تقسيم الأيام عند كسرى

وقال أبو العباس محمد بن يزيد : قسّمَ كسرى أيامه فقال : يَصْلُح يوْمُ الريح للنوم ، ويوم الغَيْم للصيد، ويومُ المَطَر للشرب واللّهو ، ويوم الشمس لقضاءِ الحوائج .

قال الحسن بن خالَوَيْه : ما كان أَعْرَفهم بسياسة دُنْيَاهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهُمْ عن الآخرة هم غافلون ، ولـكن نبيَّنا صلى الله عليه وسلم قَدْ جزَّأَ نهاره

---

(١) طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء . قدعه كمنعه : كفه كأقدعه . (٢) فى ت : تنزعوها ، وفى ق ، س : إلا تطيعوها . (٣) فى ت : مللا . (٤) غسق : أظلم.

ثلاثة أجزاء : جُزْءٌ لله، وجزءٌ لأهله ، وجزءٌ لنفسه ، ثم جُزْءٌ جزءأه بينه وبَيْنَ الناس؛ فكان يستعين بالخاصَّة على العامة ، وكان يقول : أبْلِغُونِى حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغى ؛ فإنه من أبلغَ [ذا سلطان] (١) حاجةَ مَنْ لايستطيع إبلاغَها آمنه اللهُ تعالى يَوْمَ الفزَعِ الأكبر . جزأ النبى نهـاره

[رجع إلى الإطالة والإيجاز]

وقال شبيب بن شيبة : إن ابتُلِيتَ بمقام لابد لك فيه من الإطالة فقدِّم إحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخَطَلِ قبل التقدّم من إحكام البلوغ فى شَرَفِ التَّجْوِيد؛ ثم إياك أنْ تعدل بالسلامة شَيْئاً ، فقليلٌ كافٍ خَيْرٌ لك من كثير غير شاف . رأى شبيب ابن شيبة

وكان جعفر بن يحيى يقول لكُتّابه (٢) : إن استَطَعْتُم أن يكون كلامُكم كلُّه مثل التوقيع فافعلوا . رأى جعفر ابن يحيى

وقال ثمامة بن أشرس : رأى ثمامة

لم أرَ قط أنطَقَ من جعفر بن يحيى بن خالد ، وكان صاحبَ إيجاز .

وكان أبو وائلة إياس بن معاوية على تقدُّمه فى البلاغة ، وفَضْلِ عقله وعلمه بالإكثار مَعِيبا ، وإلى التطويل مَنْسوبا ، وقال له عبد الله بن شبرمة : أنَا وأنْتَ لا نتفّق ، أنْتَ لا تشتهى أن تسكت ، وأنا لاأشتهى أن أسْمَع. وقيل له (٢) : مافيك عيبٌ إلا كَثْرة كلامك ، قال : أفتسمعون صواباً أم خطأ ؟ قالوا : بل صوابا . قال فالزيادةُ فى الخير خيرٌ . غيرهم

قال الجاحظ: وليس كما قال ، بل للكلامِ غايةٌ ، ولنشاط السامعين نِهاية ، وما فَضَل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والكَلال فذلك هو الفِضَالُ (٣) والهَذَر والخَطَل والإسهاب الذى سمِعْتُ الخطباَء يَعِيبونه . رأى الجاحظ فى التطويل

(١) من ت . (٢) البيان : ١ — ٦٣ . (٣) البيان : ١ — ٥٥ . (٤) فى ت : الفاضل.

وذكر الأصمعى (١) أن ابن هُبيرة لما أراد إياساً على القضاء قال: إنى والله لا أصْلُح له . قال: وكيف ذلك؟ قال : لأنى دَميم، ولأنى حَدِيد، ولأنى عَيِىّ . قال ابنُ هبيرة : أما الحِدّة فإن السَّوْط يقوِّمك . وأما العِىّ فقد عبَّرْتَ عما تريد ؛ وأما الدَّمامة فإنى لا أريد أن أحاسِن بك . ولم يصفه أحدٌ بالعىّ وإنما كان يُعَابُ بالإكثار ، ولكنه أراد المدافعة عن نَفْسه .

بعض الملح

والحديث ذو شجون :

قال أبو العيناء: ذُكِرْتُ لبعض القِيَان فعشقتنى على السماع، فلما رأتْنى استقبحتنى، فقلت :

وشاطرةٍ (٢) لما رَأتْنى تنكَّرَتْ   وقالت : قبيحٌ أحْوَلٌ مالَه جِسمُ

فإن تُنْكرى منى احْوِلالاً فإننى   أديب أريب لا عَيِىٌّ ولا فَدْمُ (٣)

[فاتصل بها الشعر،] (٤) فكتبَتْ إلىّ : إنا لم نرد أن نولّيك ديوانَ الزّمام !

وكان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إلى عدى بن أرطاة (٥) : إنّ قِبَلك رَجُلَيْن من مُزينة ـ يعنى بكر بن عبد الله (٦)، وإياس بن معاوية ؛ فَوَلِّ أحَدَهما قضاءَ البَصْرَة ؛ فأحضرهما . فقال بكر: واللهِ ما أحْسنُ القضاء ؛ فإن كنتُ صادقاً فما تَحِلُّ تَوْلِيَتِى ، وإن كنتُ كاذباً فذلكَ أوْجَبُ لِتَرْكِى . فقال إياس : إنكم وَقَفْتُمُوه على شَفِيرِ جهنَّم ، فافْتَدَى منها بيَمِينٍ يكفرها ، ويستَغْفِرُ الله تعالى منها . فقال له عدىّ : أما إذا اهتديت لها فأنْتَ أحقُّ بها ، فولّاه .

ودخل إيَاس (٥) الشام وهو غلامٌ صغير ، فقدّم خَصْماً له إلى بعض القضاة ، وكان الخَصْمُ شَيْخاً ، فصالَ عليه إياس بالكلام ، فقال له القاضى : خَفِّض عليك ، فإنه

---

(١) البيان : ١ ـ ٥٥ .   (٢) فى ت : وناظرة .

(٣) الفدم : العى عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم .   (٤) من ت .

(٥) البيان ١ ـ ٥٦ .   (٦) فى ت : بن عبيد الله .

شَيْخٌ كبير ، قال : الحقُّ أكْبَر منه . قال : اسكت ! قال : فمَنْ يَنْطِقُ بحُجَّتى ؟ قال : ما أراكَ تقولُ حقّا ، قال : لا إله إلا الله ! فدخل القاضى على عبد الملك فأخبره؛ فقال : اقْضِ حاجتَه الساعة وأخْرِجه من الشام لا يُفْسِد أهْلَها !

* * *

الضجر من التطويل

وقال أحمد بن الطيب السَّرْخَسِى تلميذ يعقوب(١) بن إسحاق الكندى : كنتُ يوماً عند العباسِ بن خالد ، وكان ممن حبَّب الله إليه أن يتحدَّث ، فأَخذ يحدّثنى ، وينتقلُ من حديثٍ إلى حديث ، وكنا فى صَحْنٍ له ، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا إلى موضع آخر ، حتى صار الظلُّ فيئا . فلما أكْثَر وأضْجَر ، وملت حُسْنَ الأدبِ فى حُسْنِ الاستماع ، وذكرت قول الأوزاعى : إن حسنَ الاستماع قوةٌ للمحدث ، قلت له : إذا كنتُ وأنا أسمعُ قد عَيِيتُ مما لا كُلْفَةَ علىَّ فيه ، فكيف أراك وأنْتَ المتكلم ؟ فقال : إنَّ الكلام يحلِّلُ الفضولَ اللَّزجة الغليظة التى تعرض فى اللَّهواتِ ، وأصْلِ اللسان ومنابت الأسنان ، فوثبْتُ وقلت : لا أرانِى معك اليوم إلا « إيارج الفَيْقرا »(٢)؛ فأنت تتغرْغَرُ بى !(٣) فاجْتَهد فى أنْ أجْلِسَ فلم أفعل .

قال أحمد بن الطيب : كنا مرَّةً عند بعض إخواننا(٤) فتكلَّم وأعْجَبه من نفسه البيان ، ومِنَّا حسنُ الاستماع ، حتى أفْرَطَ ، فعرض لبعض مَنْ حَضَر مَلَلٌ ، فقال: إذا باركَ الله فى الشيء لم يَفْنَ ؛ وقد جعل الله تعالى فى حديث أخينا البركة !

ولعبد الله بن سالم الخياط فى رجل كثيرِ الكلام :

لى صاحبٌ فى حديثه البركه ... يزيدُ عند السكونِ والحَرَكَهْ

لو قال لَا فى قليلِ أحْرُفِها ... لردَّها بالحروفِ مُشْتَبِكه

ومن طرائف التطويل ما أنشأه البديع ، وسيمرّ من كلامه ما هو آنَق من زَهْر الربيع .

---

(١) فى ت : أبى يعقوب . (٢) الإيارجة : معجون مسهل ، وجمعه إيارج ، معرب إياره وتفسيره الدواء الإلهى . والفيقرا : الداهية . (٣) الغرغرة : ترديد الماء فى الحلق كالتغرغر. (٤) فى ت : بعض إخوانه فتكلم ذلك الأخ .

[الملح]

قال الأصمعى : بالعلم وصَلْنا وبالمُلَح نِلْنا . وقال الأصمعى أيضاً : أنشدت محمد ابن عمران قاضى المدينة ، وكان أعْقلَ مَنْ رَأيْتُه :

يأيها السائلُ عن مَنْزِلى ... نزلت فى الخانِ على نَفْسِى
يغدو علىَّ الخُبْزُ من خابزٍ ... لا يقبل الرَّهن ولا يُنْسِى(١)
آكُلُ مِن كِيْسِى ومن كِسْرتى(٢) ... حتى لقد أوجعنى ضِرْسِى

فقال : اكتب لى هذه الأبيات . فقلت : أصلحك الله ، هذا لا يُشْبِهُ مثلَك ، وإنما يَرْوِى مثل هذا الأحداثُ . فقال : اكتُبْها فالأشرافُ تُعْجِبُهم المُلَح .

وقد قال أبو الدّرداء رحمه الله تعالى : إنى لأستَجِمُّ(٣) نَفْسِى ببعض الباطل ، ليكونَ أقْوَى لها على الحقّ .

[وقال ابن مسعود رحمه الله : القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فاطلبوا لها طرائف الحكمة](٤) .

وقال ابن الماجشون : لقد كنَّا بالمدينة وإن الرجلَ ليحدّثنى بالحديث من الفِقْه فيُمْلِيه علىّ ، ويذكر الخبرَ من المُلَح فأستعيدُه فلا يفعل ، ويقول : لا أُعطيك مُلَحِى ، وأهَبُك ظَرْفى وأدبى .

وقال ابن الماجِشُون : إنى لأَسْمَع بالكلمة المَلِيحة ومالى إلّا قميصٌ واحد ؛ فأدْفَعه إلى صاحبها ، وأستَكْسِى اللهَ عزّ وجلّ .

وقال الزبير بن بكار : رؤى الغاضرىّ يُنازِعُ أشعب الطمع عند بعض الوُلَاة ، ويقول : أَصْلَح اللهُ الأمير ! إنّ هذا يدخلُ علىّ فى صناعتى ، ويطلبُ مشاركتى فى بِضاعتى ، وهيْأتُه هيئةُ قاضٍ ، والأمير يضحك . وكانا جميعاً فرسَىْ رِهان ورضيعَىْ ملح الغاضرى

(١) ينسى : ينسئ ، أى يؤخر . (٢) الكسرة : القطعة من الشىء المكسور .
(٣) عبارة اللسان فى هذا المعنى : إنى لأستجم قلبى بشىء من اللهو لأقوى به على الحق .
(٤) من ت .

لبان فى بيانهما ؛ إلّا أنّ الغاضرى [كان][١] لا يتخلّق بالطّمع تخلّقَ أشعب .

وأتى الغاضرىّ يوماً الحسنَ بن زيد فقال : جُعلتُ فِداك ؛ إنى عصيت اللهَ ورسوله . قال : بئس ما صنَعْتَ ! وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يُفلِحُ قومٌ ولّوْا أمرَهم امرأة ، وأنا أطعتُ امرأتى ، فاشتريتُ غلاماً فهرب . قال الحسن : فاختر واحدةً من ثلاث : إن شئتَ فثمنُ الغلام ، قال : بأبى أنتَ ! قِفْ عند هـذه ولا تتجاوزْهَا ! قال : أعرِضُ عليك الخصلتين . قال : لا ، حَسْبى هذه .

وقد رُوِى نحوُ هذا عن أشعب أنه قال له بعضُ إخوانه : لو صرتَ إلىّ العشيّة تتفرج ؟ قال : أخاف أنْ يجىء ثقيل . قلت : ليس معنا ثالث . فمضى معى ، فلمّا صلينا[٢] الظهر ودعوتُ بالطعام ، فإذا بداقٍّ يدقّ البابَ ، قال : ترى أنْ قد صِرْنا إلى ما نكره ، قلت له : إنه صديق ، وفيه عشرُ خصال إن كرِهْتَ واحدةً منهن لم آذَنْ له . قال : هات . قلت : أولها أنه لا يأكل ولا يَشرب . فقال : التسعُ لك ! قل له يدخل ! من ملح أشعب

ورأى سفيان الثّوْرى الغاضرى وهو يُضْحِكُ الناس ؛ فقال : ياشيخُ أوَ ماعلمْتَ أن لله يوماً يخْسرُ فيه المُبْطِلون ؟ فوجَم[٣] الغاضرى، وما زَال ذاك يُعْرَفُ فيه حتى لَقِىَ الله عزّ وجلّ .

وأشعب الطّمِع هو أشعب[٤] بن جبير مولى عبد الله بن الزبير ، وكان أحْلَى الناسِ . قال الزبير بن أبى بكر : كان أهلُ المدينة يقولون : تغيّرَ كلُّ شىء إلا مُلَح أشعب ، وخُبْز أبى الغيث ، ومِشية برّة ؛ وكان أبو الغيث يعالج الخُبْز بالمدينة ،

---

(١) ساقطة من س . (٢) فى ط : وصلنا . (٣) وجم : سكت على غيظ .

(٤) ارجع إلى ترجمة له فى نهاية الأرب : ٤ — ٢٦ .

وبرّة بنت سعيد بن الأَسود كانت مِنْ أجْمَلِ النساء وأحسنِهن مِشْيَة ، وأشعب يضربُ به المثلُ فى الطَّمع ، وكان(١) أشْعَبُ قد نشأ فى حِجْر عائشة بنت عثمان رحمها الله مع أبى الزناد . قال أشعب : فلم يزَلْ يعلو وأنْحطّ حتى بلغْنَا الغايةَ .

وقال أشعب : أسلمتنى أمى إلى بَزَّاز فسألتنى بعد سنة أين بلغْت ؟ فقلت : فى نصف العمل . قالت : وكيف ؟ قلت : تعلمت النَّشْر وبقى الطَّىّ ، قالت : أنتَ(٢) لا تفلح .

وسألتْه صديقةٌ له خاتما ، فقالت : أذْكُرُكَ به . قال : اذْكُرِى أنك سألِتنى ومَنَعْتُك ! وقيل له : كم كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر ؟ قال : ثلثمائة وثلاثة عشر درهما ! ثم تنسَّك(٣) فى آخر عمره ، وغزا ومات على خَيْرٍ ، رحمه الله تعالى .

وقيل لأشعب : أرأيتَ أطمع منك ؟ قال : نعم كلبة آل فلان ، رأتْ رجلين يَمْضُغَان عِلْكا(٤) ، فتبعَتْهُمَا فَرْسخين تظنُّ أنهما يأكلان شيئاً .

وأهدى رجلٌ من ولد عامر بن لؤى إلى إسماعيل الأعرج فالوذجة وأشْعَبُ حاضر ، فقال : كُلْ يا أشعب . فأكل منها ؛ فقال : كيف ترَاها ؟ فقال : عليه الطلاق إن لم تكن عُمِلَت قبل أنْ يُوحِىَ ربُّك إلى النَّحْل ! أى ليس فيها حَلَاوة .

بديهة أبى نواس

وروى أبو هفان قال : دخل أبو نواس الحسن بن هانىء على يحيى بن خالد فقال له : أنشدنى بعض ما قُلْتَ ، فأنشده :

إِنى أنا الرجلُ الحكيمُ بطبعِه ... ويَزِيد فى علمى حِكايَةُ مَنْ حَكَا

أتتبَّع الظّرفاء أكتبُ عنهمُ ... كيما أحدِّث مَنْ أُحِبُّ فيضْحَكا

---

(١) نهاية الأرب : ٤ — ٢٦ .   (٢) فى ط : إذن .   (٣) فى س : نسك .

(٤) العلك : ما يمضغ .

فقال له يحيى [بن خالد](١) : إن [أول](١) زَنْدك ليُورى بأوّلِ قَدْحةٍ (٢) ،

فقال ارتجالا فى معنى قول يحيى :

أما وزَنْدُ أبى علىّ إنه زَنْدٌ إذا استَوْرَيْتَ سهل قَدْحَكا
إنّ الإلهَ لِعِلْمِهِ بعبادهِ قد صَاغَ جَدَّكَ للسماح ومَنْحَكا
تَأْبَى الصنائعَ هِمَّتى وقَريحتى من أَهْلِها وتَعافُ إلاَّ مَدْحَكا (٣)

ظرف أبى نواس

ووصف أبوعبد الله الجماز أبا نواس فقال : كان أظْرَفَ النَّاسِ منطقاً ، وأغْزَرهم أدبا ، وأقْدَرَهم على الكلام ، وأسْرَعَهم جوابا ، وأكثرهم حياءً ، وكان أبيضَ اللَّوْنِ جميل الوَجْهِ ، مليح النغمة والإشارة ، ملتفَّ الأَعْضاء ، بَيْنَ الطَّوِيلِ والقصير ، مَسْنُونَ الوَجْهِ (٤) ، قَائِم الأَنف ، حَسَن العينين والمَضْحَك ، حُلْوَ الصُّورَة ، لَطِيفَ الكَفّ والأطراف ؛ وكان فصيحَ اللسان ، جيِّدَ البيان ، عَذْبَ الألفاظ ، حُلْوَ الشمائل ، كثيرَ النوادر ، وأعْلَمَ الناس كيف تكلّمت العرب ، رَاوِيةً للأشعار ، علاّمة بالأخبار ، كأن كلامَه شعرٌ موزون (٥) .

وأقبل أبو شَرَاعة العبسى ، والجَمّازُ فى حديثه ، وكان أقبح الناسِ وجها ، وكانت يدُ أبى شراعة كأنها كَرَبةُ(٦) نخلٍ ؛ فقال الجماز : فلو كانت أطرافه على أبى شراعة لتمَّ حُسْنُه ؛ فغَضِب أبو شراعة وانصرفَ يَشْتِمه .

الجماز

والجماز(٧) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر ، وكانوا يزعمون أنّهم من حِمْيَر ، نالَهُمْ سِبَاء فى خِلَافَةِ أبى بكر رضى الله عنه وهم مَوَالِيه ، وسَلْم الخاسر عمّه ، وكان الجماز من أحْلَى الناسِ حكاية ، وأكثرِهم نادرة .

---

(١) من س . (٢) فى س: قدحته . (٣) رواية س : تأبى من الأوصاف إلا مدحكا .
(٤) رجل مسنون الوجه : مملسه حسنه سهله ، أو فى وجهه وأنفه طول .
(٥) فى س : كان كلامه شعرا موزونا . (٦) كرب النخل : أصول السعف الغلاظ العراض التى تيبس فتصير مثل الكتف واحدتها كربة . (٧) اللآلى — ذيل ٢٤ .

قال بعضُ جلساءِ المتوكّل : كنا نُكْثِر عند المتوكل ذكر الجماز حتى اشتاقه ، فكتبَ فى حَمْلِه إليه ، فلما دخل أُفْحِم . فقال له المتوكل : تكلَّمْ فإنى أُريدُ أن أستبْرِئَكَ ، فقال : بحَيْضَةٍ أو بحَيْضَتَين يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال له الفتح : قد كلَّمتُ أميرَ المؤمنين يُوَلِّيكَ على القرود والكلاب! قال: أفلستَ سامِعاً مطيعاً ؟ فضحك المتوكل وأمَر له بعَشْرَةِ آلاف درهم. وكان لا يُدْخِلُ بيته أكثر من ثلاثةٍ لضيقه[1] ؛ فدعا ثلاثةً فجاءه ستّة ، وقرَعوا الباب ، ووقفوا على رِجل رِجل فعدَّ أرجُلَهم من خَلْفِ الباب ؛ فلما حصلوا عنده[2] ، قال : اخرجُوا عنى ، فإنما دعوتُ ناساً ولم أدعُ كَرَاكِيَّ[3] .

خلط الجد بالفكاهة

وقال الطائى فى عمرو[4] بن طوق التغلبى[5] :

الجِدُّ[6] شيمَتُه وفيه فكَاهةٌ ... سجحٌ[7] ولا جِدّ لمن لم يَلْعَبِ
شرِسٌ ويتبع ذاك لِينُ خَليقةٍ ... لاخيرَ فى الصَّهباء مالم تقطَبِ[8]

وقال فى الحسن بن وَهْبٍ[9] :

لِلّهِ أيامٌ خَطَبْنا لِينَها ... فى ظلِّهِ بالخندريس السَّلْسَلِ[10]
بمدامةٍ نَغَمُ السماع خفيرُها ... لا خيرَ فى المعلولِ غيرَ معلّلِ
يغشى عليها[11] وهو يَجْلُو مُقلَتَيْ ... بازٍ ويغفلُ وهو غيرُ مُغفّلِ
لا طائشٌ تَهْفُو خلائقُه ولا ... خَشِنُ الوَقَارِ كأنَّه فى محفلِ
فَكِهٌ يجمُّ الجدّ[12] أحياناً وقد ... ينضى ويهزلُ عَيْشُ مَنْ لم يهزلِ

---

(١) فى س : ممن يضيفه . (٢) فى س : فلما جعلوا فى بيته .
(٣) الكراكى مفرده كركى : طائر . (٤) فى س : عمر بن طوق الثعلبى .
(٥) ديوانه : ١٣ . (٦) فى الديوان : المجد . (٧) فى الديوان : سمح .
(٨) قطب الشراب : مزجه . (٩) ديوانه : ٢٣٤ . (١٠) الخندريس : الخمر .
(١١) فى الديوان : يعشو إليها . (١٢) فى ق ، س : يجد الجم .

وقال فيه[1] :

ولقد رأيتك والكلامُ لآلئٌ تُومٌ فبِكْرٌ فى النِّظَامِ وثيِّبُ[2]
وكأن قُسًّا فى عُكاظٍ يَخْطبُ وابن المقفّع فى اليتيمةِ يُسْهِبُ
وكأنّ لَيْلَى الأخيلية تَندُبُ وكُثَيِّر عزةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسِب
يَكْسُو الوقار ويستخفّ موقرا طَوْرًا فيُبْكِى سامِعيه ويُطْرِبُ

وقال أبو الفتح البستى[3] :

أفِد طَبْعَكَ المكدود بالهمِّ راحةً بِرَاحٍ وعَلِّلْهُ[4] بشىء مِنَ المَزْحِ
ولَكِنْ إذا أعطيْتَه المَزْحَ فَلْيَكُنْ بمقدار ما تُعْطِى الطعامَ من المِلْحِ

وما زال الأشراف يَمْزَحُون ، ويسمحون بما لَا يَقْدَحُ فى أديانهم ، ولا يغضّ من مُرُوءاتِهم . المزاح

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : بعثت بالحنيفية السَّمْحَة . وقال : إنِّى لأَمْزَح ولا أَقُول إلاَّ حقًّا .

وقيل لسعيد بن المسيّب : إنَّ قوماً من أَهل العراق لايَرَوْن إنشادَ الشعر . فقال: لقد نَسَكُوا نِسْكا[5] أعْجَمِيًّا . رواية الشعر

وقيل لابن سيرين : إنّ قوماً يزعمون أن إنشادَ الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد :

لقد أصبحَتْ عِرسُ[6] الفرزدق نَاشزاً ولو رضيت رَشح استِهِ لاستقرَّتِ

وقام يُصَلِّى ! وقيل : بل أنشد :

أُنْبِئْتُ أنَّ عجوزاً جِئْتُ أَخْطبها عُرقوبُها مِثْلُ شهرِ الصَّوم فى الطُّولِ

---

(١) ديوانه : ٣٩ ، وفيه اختلاف فى ترتيب الأبيات وأجزائها .
(٢) التومة : اللؤلؤة ، والقرط فيه حبة كبيرة ، وجمعه توم وتوم .
(٣) نهاية الأرب : ٤ : ٧٤ . (٤) فى س : وروحه . (٥) الفعل كنصر وكرم والنسك : العبادة . (٦) العرس : امرأة الرجل .

[من النسيب]

وقيل لأبى السائب المخزومى : أترى أحداً لا يَشْتَهِى النسيب ؟ فقال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

وروى مصعب بن عبد الله الزبيرى عن عروة بن عبيد الله بن عروة الزبيرى قال :

لعروة بن أذينة

كان عُرْوَة بن أُذَينة نازلًا فى دارِ أَبى بالعقيق فسمعته يُنْشِدُ لنفسه :

إنَّ التى زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها ... خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

فيكَ الذى(١) زَعَمَتْ بها وكلاكُما ... أبْدَى لِصَاحِبِه الصَّبابَةَ كُلَّها

ولعمرُها لو كان حبُّك فَوْقَها ... يوماً وقد ضَحِيَتْ إذَنْ لأظَلَّها(٢)

فإذا وجَدْت لها وَسَاوِس سَلْوَةٍ ... شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسَلَّها

بيضاء باكَرَها النَّعيمُ فصاغَها ... بلَباقةٍ فأَدَقَّها وأجَلَّها

لَمَّا عَرَضْتُ مُسلِّما ، لِىَ حاجةٌ ... أخْشَى صُعُوبتها وأرجُو ذُلَّها

منعَتْ تَحِيَّتَها فقُلْتُ لصاحبى ... ما كانَ أكْثَرَها لنَا وأقلَّها

فدَنا وقال لعلّها مَعْذورةٌ ... فى بعْضِ رِقْبَتِها فقلت لَعَلَّها

قال : فأتانى أبو السائب المخزومى فقلتُ له بعْدَ التَّرْحيب به : أَلَكَ حاجة ؟ فقال : نعم أبياتٌ لعُروة بلغنى أنك سمعتَه يُنْشِدُها . فأنشدته الأبيات ، فلما بلغت قوله : * فدنا وقال لعلها معذورة ... ... * البيت طرب ، وقال : هذا والله الدائمُ الصَّبابة، الصادق العَهْد ، لا الذى يقول :

إن كان أهلُك يمنعونك رَغْبَةً ... عنى فأَهْلى بى أَضَنُّ وأَرْغَبُ

لقد عَدا هـذا الأعرابى طَوْرَه ، وإِنى لأَرجو أن يغفر [الله](٣) لصاحب هذه الأبيات لحُسْنِ الظنّ بها ، وطَلَبِ العُذْرِ لها ؛ قال : فعرضت عليه الطعام فقال : لا والله ما كنتُ لأَخْلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل ، وانصرف .

---

(١) فى ط : التى . (٢) ضحيت : أصابتها الشمس . (٣) من س .

أبو السائب وكان أبو السائب غَزِيرَ الأدب ، كثيرِ الطَّرَب ، وله فُكاهاتٌ مذكورة ، وأخبارٌ مشهورة ، وكان جَدّه يكنى أَبا السائب أيضاً ، وكان خليطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا ذكره قال: نِعْمَ الخليط كان أبو السائب! لا يُشَارِى ولا يمارى (١) .

واسمُ أبى السائب عبدُ الله ، وكان أشرافُ أهلِ المدينة يستظرفونه ويقدّمونه لشَرَفِ منصبه ، وحلاوة ظَرْفِه .

وكان عروة بن أذينة على زُهْدِه ، ووَرَعه ، وكَثْرةِ علمه وفَهْمِه ، رقيقَ الغزَل كثيره ، وهو القائل (٢) :

ومن شعر عروة

إذا وجَدْتُ أُوارَ الحب فى كَبِدى ... أقبلْتُ نحوَ سِقاءِ القومِ أبْتَرِدُ
هَبْنِى (٣) بَرَدْتُ ـ ببرد الماء ـ ظَاهِرَهُ ... فَمَنْ لِنـارٍ على الأحْشاء تَتَّقِدُ

وقد رُوِى هذانِ البيتان لغيره .

ومرّت به سكينةُ بنتُ الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فقالت له : أنتَ الذى تزعم أنّك غيرُ عاشق ، وأنت تقول:

قالتْ وأبثثْتُهَا سِرّى (٤) فَبُحْتُ به ... قد كنتَ عندى تحبُّ السترَ فاسْتَتِرِ
ألسْتَ تُبْصِر مَنْ حَوْلى؟ فقلتُ لها ... غطَّى هواكِ وما أَلْقَى على بَصَرى

والله ما خرج هذا من قَلْبٍ سليم قطّ .

أبو السائب ينشد للأحوص

وروى الزّبير عن رجل لم يسمّه قال : قال لى أبو السائب : أنشدنى لِلْأَحْوَص فأنشَدْتُه (٥) :

قالت وقلت تحرَّجى وَصِلِى ... حَبْلَ امرئٍ بوصالِكم صَبِّ

(١) يشاريه : يجادله ، وأصله يشارره فقلبت الراء . وماراه : جادله .
(٢) الشعراء : ٥٦١ . (٣) فى الشعراء : هذا بردت ...
(٤) فى الشعراء : وجدى . (٥) الأغانى: ٤ ـ ٢٦٤ ، اللآلى: ١٨٩ ، الأمالى ١ ـ ٤٦ .

صاحب[١] إذَنْ بَعْلِي؟ فقلت لها : الغدرُ شيءٌ ليس من ضَرْبِي
شيئان[٢] لا أدنو لوَصْلِهما عِرْس الخليل وجارةُ الجنبِ[٣]
أمّا الخليلُ فلستُ فاجعَهُ والجــارُ أوصانى به رَبّى
عُوجا[٤] كذا نذْكُرْ لغانيــةٍ بعضَ الحديثِ مَطيَّكم صَحْبِي
ونَقُلْ لهــا فيمَ الصّدُودُ ولم نُذْنِبْ بل انْتِ بدَأْتِ بالذَّنْبِ
إن تُقْبِلى نُقْبِل ونُنْزلِكم مِنّا بِدارِ السَّهْلِ والرُّحْبِ
أو تَهْجُرِى[٥] تــكْدُرْ معيشتُنَا وتُصَدِّعى مُتَلَائم الشَّعْبِ

فقال : هذا والله المحبُّ حقا[٦] لا الذى يَقُول :

وكنت إذا حبيبٌ رَامَ هَجْرِى وجدت وَرَاىَ مُنفَسحاً عريضاً

ثم قال : اذْهَب ، فلا صَحِبك الله ، ولا وسَّع عليك !

رقة أهل الحجاز

وخرج أبو حازم يوماً يَرْمِى الجمار ، فإذا هو بامرأة حاسِر[٧] قد فتَنَتِ الناسَ بحُسْنِ وجهها ، وألهتْهم بجمالها ، فقال لها : ياهذه ، إنك بمَشْعَر حرام[٨]، وقد فتنت الناس وشغلْتِهم عن مَناسِكهم ، فاتقى الله واستَترى ؛ فإنّ الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز : ﴿ وليَضْرِبْنَ بخُمرِهنّ على جُيُوبهن ﴾ ؛ فقالت : إنى من اللاتى قيل فيهن :

أماطَتْ كِساء الخزِّ عن حُرِّ وَجْهها[٩] وأرْخَتْ على المتنين بُرْدًا مهلهلا
من اللّائى لم يحججْن يَبْغِين حِسبةً ولــكن ليَقْتلنَ البرئَ المُغَفّلا

الشعر للحارث بن خالد المخزومى . فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا نَدْعُ اللهَ لهذه الصورة الحسنة ألاَّ يعذبها الله تعالى بالنار ! فجعل أبو حازم يَدْعُو وأصحابه يؤمّنون ،

---

(١) فى الأغانى : واصل ، وفى ط : صاحت . (٢) فى الأغانى : ثنتان .
(٣) جار الجنب : اللازق بك إلى جنبك . (٤) فى الأغانى : عوجوا، وعوجا : قفا .
(٥) فى الأغانى : أو تدبرى . (٦) فى س : عينا . (٧) امرأة حاسر : ليس على وجهها قناع . (٨) المشعر الحرام ، وتــكسر ميمه : بالمزدلفة .
(٩) حر الوجه : ما بدا منه ، وخيار كل شيء .

فبلغ ذلك الشعبي فقال : ما أَرَقّكم يأهلَ الحجاز وأَظرفكم ! أما والله لو كان من قُرى العراق لقال : اعزبى عليك لَعْنَةَ الله !

أبو حازم

وكان أبو حازم من فضلاء التابعين ، وله مقاماتٌ جميلة من[1] الملوك ، وكلامٌ محفوظ يدلُّ على فضله وعقله ؛ وهو القائل : كل عملٍ تَكْرَهُ من أجله الموت فاتركه ، ولا يضرك متى متّ . وكان يقول : ما أحببت أن يكون معك غدا فقدّمه اليوم . وكان يقول : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، وأنا وإياهم من غد على وَجل ؛ وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ؟ وقال أبو العتاهية[2] :

حتى متى نحنُ فى الأَيام نحسَبُها ... وإنما نحْنُ فيها بين يومَيْنِ
يومٌ تولّى ويومٌ نحن نأمله ... لعلّه أَجلَب اليومين للحَيْنِ[3]

من نسيب الفقهاء

وروى الزبير بن أبى بكر قال : قدمت امرأة من هُذَيل المدينة ، وكانت جميلةً ومعها ابن لها صغير ، وهى أَيِّم[4] ، فخطبها الناس وأكثروا ، فقال فيها عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[5] :

أحِبك حبًّا لا يحبّك مثلَهُ ... قريبٌ ولا فى العالمينَ بعيدُ
أحبّك حبًّا لو علمت ببعضه ... لَجُدْتِ ولم يصعُبْ عليك شديد
وحبك يا أم العلاء مُتَيِّمِى[6] ... شهيدى أبو بكر فذاك شهيدُ
ويعلم وَجْدِى القاسم بن محمدٍ ... وعروةُ ما أَلْقَى بكم وسعيدُ
ويعلم ما أُخفِى سليمانُ كلّه[7] ... وخارجةٌ يبدى لنا[8] ويعيدُ
متى تسألى عما أقول فتخبَرى ... فللحبُّ عندى طارفٌ وتليدُ

---

(١) فى س : مع . (٢) ديوانه : ٢٧٢ . (٣) فى الديوان : لعله أجلب الأيام . والحين : الهلاك . (٤) أيم : من لا زوج لها . (٥) الأغانى : ٩ ـ ١٤٨ . (٦) فى الأغانى : يا أم الصبي مدلهى . (٧) فى الأغانى : علمه . (٨) فى ط ، ق : بنا.

فقال له سعيد بن المسيِّب : قد أَمِنْتَ أن تسأَلنا ، ولو سأَلتنا ما شهدنا لك بزُور.

وكان عبيد الله أحد الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علمُ المدينة ، وقد ذكرهم عبيد الله فى هـذه الأبيات ؛ وهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى . والقاسم بن [محمد بن] [1] أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب بن حزن ، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى .

وقيل لعبيد الله : أتقول الشعر على شرفك؟ فقال : لابد للمصدور أن يَنْفُث ؛ وعبيد الله هو القائل [2] :

شَقَقْتِ القلب ثم ذَرَرْتِ [3] فيـه ... هَوَاكِ فَلِيم والتأم الفُطُورُ [4]

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ [5] فى فُؤَادِى ... فبَادِيه مع الخَافى يَسيرُ

تَغَلْغَلَ حيث لم يبلُغ شرابٌ ... ولا حُزْن ولم يبلغ سرور

أخذه سَلم بن عمرو الخاسر فقال :

سقتنى بعينَيْها الهوى وسقَيْتُها ... فدَبَّ دَبيبَ الخَمْرِ فى كل مَفْصِلِ

وقال أبو نواس [6] :

أَحِبُّ اللومَ فيهـا ليس إلاَّ ... لترداد اسمها فيها [7] أَلاَمُ [8]

ويَدْخُل حبُّها فى كل قَلْبٍ ... مَدَاخِلَ لا تغلغلها المُدَام

ومنه قول المتنبى [9] :

وللسرِّ منّى مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ ... نَديمٌ ولا يُفْضِى إليه شَرَابُ

وقال بعض المحدَثين : لبعض المحدثين

مازلت تغوينى وتطلب خُلّتى [10] ... حتى حللت بحيثُ حَلَّ شرابى

(١) ساقط من ط . (٢) الأمالى : ٣ ــ ٢١٧ ، المختار من شعر بشار : ١٥٤ ، التبيان : ١ ــ ١٩٢ ، الأغانى : ٩ ــ ١٥١ . (٣) فى س ، ق : دررت .

(٤) الفطر : الشق ، وجمعه فطور . وفى الأغانى : صدعت القلب .

(٥) فى س ، ق : غنمة . (٦) ديوانه : ٣٩٢ . (٧) فى س ، ق : فيما .

(٨) فى الديوان : لذكرهمو اسمها فيما ألام . (٩) ديوانه : ١ ــ ١٩٢ .

(١٠) الخلة : الخليلة ، والصداقة المختصة لا خلل فيها تكون فى عفاف وفى غيره .

ثم انصرفت بغير جُرْم كان لى ما هكذا الأَحْبَابُ للأَحْبَابِ

من نسيب أبى نواس

أخذ أبو نواس قوله : «أحب اللوم فيها» ... البيت من قول [أبى محمد][1] بن أبى أمية :

وحدَّثنى عن مَجْلِسٍ كُنْت زينَهُ رسولٌ أمينٌ والنساءُ شهودُ

فقلت له رُدَّ الحديث الذى مضى وذِكْرُكِ من بيْنِ الحديث أُريدُ

أُناشدُهُ بالله إلاّ أعَدْتهُ كأنى بطىءُ الفهم عنه بَعيدُ

وقول أبى نواس فى البيت الأول كقوله [2] :

إذا غاديتنى بصبوح لَوْمٍ [3] فممزوجاً بتَسْمِيَةِ الحبيبِ

فإنى لا أعدّ اللَّوْمَ فيها [4] عليك إذا فعلت من الذنوب

ولا أَنَا إن عمدت[5] أرى جَنَانا وإن ضنت بمبخوس النصيب [6]

مقنعة بثَوْبِ الحسن ترعى بغير تكلُّف ثمر القُلوبِ

من شعر أبى نواس فى جنان

وفى جَنان هذه يقول أبو نواس :

ياذا الذى عن جَنان ظَلَّ يُخْبِرُنا بالله قُلْ وأعد ياطيِّب الخبرِ

قالوا اشتكتك وقالت ما ابتليتُ به أراه من حيث ما أقبلتُ فى أثَرِى

ويرفع الطَّرْفَ نحوى إن مررت بهِ حتى ليخجلنى من شِدةِ النظر

وإن وقفت له كيما يُكَلّمنى فى الموضع الخِلو لم ينطق من الحصَرِ [7]

مازال يفعل بى هـذا ويُدْمِنُهُ حتى لقد صار من همّى ومن وَطَرِى [8]

وفى جنان أيضا يقول أبو نواس وكان بها صبًّا ولها محبّا [9] :

جنان تسبّنى[10] ذَكِرَتْ بخير وتزعم أننى رجلٌ خبيث

---

(١) من ق ، س . (٢) ديوانه : ٣٦١ . (٣) فى الديوان ، وس : عذل فشوبيه

(٤) فى الديوان : العذل فيه . (٥) فى الديوان : عمرت.

(٦) فى الديوان : وإن بخلت بمحبوس النصيب، وفى ق : بمحسوس .

(٧) الحصر : العى فى المنطق . (٨) أدمن الشىء : أدامه ، الوطر : الحاجة ، أو حاجة لك فيها هم وعناية . (٩) ديوانه : ٣٦٩ . (١٠) فى س : تسوءنى .

وأن مودّتى كَذِبٌ ومَيْنٌ ۝ وأنى للذى تطوى[١] بثوث[٢]
وليس كذا ولا ردٌّ عليها ۝ ولكنّ الملول هو النّكوثُ[٣]
ولى قلبٌ يُنازِعنى إليها ۝ وشوقٌ بين أضلاعى حَثيث[٤]
رَأَتْ كَلَفى بها وقديمَ وَجْدِى ۝ فملّتنى كذا كان الحديث[٥]

[وكانت جنان مولاة لبعض الثقفيين][٦] .

وفى معنى قول ابن أبى أمية يقول العباس بن الأحنف[٧] :

وحدثتنى يا سعد عنها فزدتنى ۝ جنوناً فزِدْنِى من حديثك ياسَعْدُ

ظرف أهل المدينة

وأهل المدينة أكثر الناس ظَرْفاً ، وأكثرهم طِيبا ، وأحلاهم مزاحا ، وأشدهم اهتزازاً للسماع ، وحسن أدب عند الاستماع . وقال عبد الله بن جعفر[٨] : إن لى عند السماع هِزّة لو سُئلت عندها لأَعْطَيْتُ ، ولو قاتلت لأَبْلَيت .

وروى أبو العيناء قال : قال الأصمعى : مررت بدار الزبير بالبَصْرَة فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبَا ريحانة جالسٌ بالباب عليه شَمْلة[٩] تَسْتُرُهُ ، فسلّمتُ عليه ، وجلستُ إليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعَتْ علينا سويداء تحمل قِرْبة ، فلما نظر إليها لم يتمالَكْ أن قام إليها ، فقال لها : بالله غَنّى صوتاً . فقالت : إن موالىَّ أَعْجَلونى ، فقال : لا بدّ من ذلك ، قالت : أما والقِرْبَة على كتفى فلا . قال : فأنا أَحْمِلها فأخذ القربة منها فاندفعت تُغَنِّى :

فُؤَادِى أسيرٌ لا يفكّ ومُهْجَتى ۝ تفيضُ وأحْزَانِى عليك تَطُولُ
ولى مُقْلَةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها ۝ إليك وأجْفَانى عليك هُمُولُ

---

(١) فى الديوان : أهوى . (٢) بث الخبر : نشره . (٣) نكث العهد : نقضه .
(٤) الحثيث : السريع . (٥) ليس هذا البيت فى ديوانه الذى بأيدينا .
(٦) ساقط من س . (٧) ديوانه : ٥٨ . (٨) فى س : بن هفوان .
(٩) كساء يشتمل به .

فديتك ، أعدائى كثيرٌ وشُقّتى بعيدٌ وأشياعى لَدَيْك قليل

فَطرِب وصرخ صَرْخَةً وضرب بالقِرْبة إلى الأرض فشقّها؛ فقامت الجارية تبكى، وقالت : ما هذا بِجَزائى منك ؛ أَسْعَفْتُك بحاجتك فعرّضْتَنى لما أكره من موالىّ . قال : لاتغتمى فإنّ المصيبة علىّ حصلت ، ونزع الشَّملة ووضع يَدًا من خلف ويدا من قُدّام ، وباع الشَّمْلة وابتاع لهاقِرْبةً جديدة ، وقعد بتلك الحال ؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فعرف حاله فقال : يا أبا ريحانة ! أحسبك من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فما رَبِحت تجارتهم وَمَا كَانُوا مهتدين ﴾ . قال : لا يَابْنَ رسُولِ الله ، ولكنى من الذين قال [1] الله تعالى فيهم : ﴿ فبشِّر عبادى الذين يستمعون القَوْلَ فيتبعون أحسنه ﴾ ؛ فضحك وأمر له بألفِ درهم .

ومرّ بالأوقص المخزومى ، وهو قاضى المدينة، سكرانُ [وهو][2] يتغنّى بليل ، فأشرف عليه وقال : يا هذا ، شَرِبت حَرَاما ، وأيقَظْتَ نياما ، وغنّيت خطأ ؛ خذه عنى ، وأصلح له الغناء .

طرب الفقهاء للنسيب

وسمع سعيد بن المسيب منشداً ينشد [3] :

فلم ترَ عينى مثل سِربٍ [4] رأيتهُ خرجن من التنعيم مُعْتَمِراتِ

مَرَرْنَ بِفخ [5] ثم رُحنَ عَشيّةً يلبين للرّحْمن مؤتجراتِ

ولما رأتْ ركْبَ النميرى أعرضَتْ وكُنَّ مِن انْ يلْقَيْنَهُ حَذِرات

دعت نسوة شُمَّ العرانين بُزّلاً [6] نواعم لا شُعْثاً ولا غبرات

فأبرزن لما قمن يحجبنَ دونها حِجَاباً من القَسِّىّ [7] والحبراتِ

(١) فى س : الذين يقول لهم . (٢) ساقطة من س .

(٣) المختار من شعر بشار : ١١٦ ، النويرى : ٤ــ٢٧٢ ، والأغانى ٥ ــ ٧ ، ٦ ــ ٢٤ ، والأمالى : ٢ ــ ٢٤ . (٤) أصل معنى السرب : القطيع من البقر والظباء ، والمراد به هنا جماعة من النساء . (٥) فخ: موضع بمكة دفن فيه ابن عمر، وفى س : بفجر . (٦) فى س: بدنا أوانس.

(٧) فى ط ، ق ، س : القيسى ، والقس : موضع بين العريش والفرماء من أرض مصر منه الثياب القسية ــ وقد يكسر .

تَضَوَّع طيباً بَطْنُ نَعْمان إذ مشَتْ ... به زينبُ فى نسوةٍ عَطِرات [١]
يُخَبِّئن أطرافَ البنَان من التُّقَى ... ويَخْرُجْنَ شَطرَ الليل مُعْتَجِرات [٢]

فقال سعيد : هذا والله مما يلذّ استماعه ، ثم قال :

وليست كأُخْرَى وسَّعَتْ جيب دِرْعِها ... وأبدت بَنانَ الكَفّ للجَمَرات
وغالَتْ ببان المسك وَحْفاً [٣] مُرَجّلا ... على مِثْلِ بَدْرٍ لَاحَ فى الظُّلُمات
وقامت تَرَاءَى بين جَمْع فأفتَنَتْ ... برؤيتها مَنْ راحَ مِن عَرَفات

الحجاج يطرب للنسيب

قال: فكانوا يرون [٤] أنّ الشعرَ الثانى له ، والأول لمحمد بن عبد الله [٥] بن نمير الثقفى يقوله فى زينب بنت يوسف أخت الحجاج ؛ [وطلبه الحجاج] [٦] حتى ظَفِر به فقال : أنت القائل ما قلت ؟ قال : وهل قلت أصلح الله الأمير إلّا :

يخبّئن أطرافَ البَنان من التقى ... ويخرجن شطْر الليل مُعْتَجِراتِ

قال له : كم كُنْتُم إذ تقول : * ولما رأت رَكْبَ النّميرى أعْرَضت * قال: والله ما كنت إلا أنا وصاحب لى على حمارٍ هَزِيل ! فضحك وعَفا عنه ، وهو القائل :

أهَاجَتْكَ الظَّعَائِنُ يوم بَانُوا ... بذِى الزِّىّ الجميلِ من الأثاثِ
ظَعَائِن [٧] أسْلَكَتْ فى بطْنِ قوّ ... تحثّ إذا رنت [٨] أى احْتِثاث
كأنَّ على الهوادج يَوْمَ بانوا ... نِعَاجاً تَرْتَعِى بَقل البِراث [٩]
يهيِّجك الحمَام إذا تغنّى ... كما سجع النَّوَادِب بالمَرَاثِى

---

(١) فى المختار والأمالى : خفرات . (٢) الاعتجار : لبسة للمرأة .
(٣) الوحف: الشعر الكثير الأسود الحسن، وفى الأمالى: وعالت فتات. (٤) فى س : يروون الشعر (٥) فى س : لعبد الله بن محمد . (٦) ساقطة من ط .
(٧) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى المرأة فى الهودج . (٨) فى س : ونت ...
(٩) البرث : الأرض السهلة ، والجمع براث .

[من أدب ابن المعتز]

وقال ابن المعتز : وعْدُ الدنيا إلى خَلَف ، وبقاؤها إلى تَلَف ، وبَعْدَ عَطَائِها المنع، وبعد أمانها الفَجْع[١] ، طوّاحه طرّاحة ، آسِيَة جرّاحة ، كم راقد فى ظلها قد أيقظته، وواثق بها قد خَانَته ، حتى يلفظَ نفسَه ، ويودّع دُنياه ، ويسْكُن رَمْسَه ، وينقطع عن أمله ، ويشرف على عمله ، وقد رَجَح الموتُ بحياته[٢] ، ونقضَ قُوَى حَركاته ، وطَمَس البِلَى جمالَ بَهْجته ، وقطع نظامَ صُورته ، وصار كَخَطٍّ من رَماد تحت صفائح أنْضَاد[٣] ؛ وقد أسلمه الأَحباب، وافترش التُّراب ، فى بيت نَجرَتْه المَعَاوِل ، وفرشتْ فيه الجَنادل ؛ ما زال مضطرباً فى أمَلِه ، حتى استقرَّ فى أجَله ، ومحت الأيامُ ذِكْرَه ، واعتادتِ الأَلْحَاظُ فَقْدَه[٤] . — من نثره

وكتب وهو ممتقل إلى أستاذه أبى العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب[٥] يتشوّقه[٦] : — من شعره

ما وَجْدُ صادٍ بالحبال مُوثَقِ ... بماء مُزْنٍ باردٍ مُصَفَّقِ[٧]
بالرِّيح لم يَكْدُرْ ولم يُرَنَّقِ ... جادت به أَخْلافُ دَجْنٍ مُطبِق[٨]
بصخرةٍ إن تَرَ شمْسًا تَبْرُقِ ... مَادَ[٩] عليها كالزُّجاج الأزرقِ[١٠]
صَرِيحُ غَيْثٍ خالصٍ لم يُمْذَقِ[١١] ... إلّا كوَجْدِى بك لكنْ أتقى
يا فاتحاً لكل بابٍ[١٢] مُغْلَقِ ... وصَيْرَفِيًّا ناقداً للمنطِقِ[١٣]

---

(١) الفجع : أن يوجع الإنسان بشىء يكرم عليه فيعدمه . (٢) رجح : مال .
(٣) النضد : ما نضد ، والجمع الأنضاد . (٤) فى ط ، ق : فقره .
(٥) فى المختار : أحمد بن يحيى ثعلبا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتاً فكتب إليه .
(٦) ديوانه : ١٢٤ ، المختار من شعر بشار : ٥٤ . (٧) التصفيق : التقليب ، وتحويل الشراب من إناء إلى إناء ممزوجا ليصفو . وفى المختار : كماء مزن .
(٨) الأخلاف : الأثداء يفيض منها اللبن ، والدجن المطبق هو السحاب المتراكم .
(٩) فى ت : فهو علينا . (١٠) هذا البيت والذى قبله ليسا فى الديوان المطبوع بأيدينا ، وفى المختار : فهو عليها كالزجاج الأزرق . (١١) لم يمذق : لم يخلط .
(١٢) فى الديوان : علم . (١٣) فى المختار : عالما بالمنطق .

إنْ قال هـذا بَهْرَجٌ لم ينفُق ِ إنَّا على البعـاد والتفرُّق ِ
لنلتقي[١] بالذكر إن لم نَلْتَق ِ

فأجابه : أخذتَ أطال الله بقاءك أولَ هذه الأبيات ممـا أمليته عليك من قول جميل[٢] :

وما صادِياتٌ حُمْنَ يوماً وليلةً على الماء يخشين[٣] العِصِيَّ حوانى
كواعبُ[٤] لم يصدُرْن عنه لِوِجْهَةٍ ولا هنَّ من بَرْدِ الحيـاض دَوَانى
يرَيْنَ حَبابَ المـاء والموتُ دونهُ فهنَّ لأصواتِ السُّقاةِ رَوَانى
بأكثرَ منى غُـلةً وَصَبابةً إليكِ ولـكنَّ العدوَّ عرانى[٥]

وأخذت آخرها من قول رُؤْبَة بن العجاج[٦] :

إنِّى وإنْ لَمْ تَرَنى فإننى أَخوكَ والرَّاعِى إذا[٧] اسْتَرْعَيْتَنى
أَراكَ بالوُدّ وإنْ لم تَرَنِى

قال : فاستخفَّنى[٨] فى ذلك ونسب إلىّ سوءَ الادب .

ابن المعتز وكان أبو العباس عبد الله بن المعتز فى المنصب العالى من الشعر والنثر ، وفى النهاية فى إشراق ديباجَةِ البيان، والغاية من رقَّةِ حاشية اللسان . وكان كما قال ابن المرزبان: إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيق ِ النَّثْر أتى بحلال السحر ، وليس بعد ذى الرُّمة أكثرُ افتنانا وأكبرُ تصرّفا وإحسانا فى التشبيه منه . وإنما فرقتُ جُمْلة ما اخترتُ من شعره ونَثْره فى جملة هذا الـكتاب ؛ لئلّا أُخرج عما تقدّم به الشرط فى البسط ، وآتى ههنا ببعض ما أختاره له . قال : بعض المختار له

وفِتيَانٍ سَرَوْا والليلُ داج ٍ وضوءُ الصبح متَّهمُ الطّلوع ِ
كأن بُزاتهم أُمراءُ جيشٍ على أكتافهم صدَأُ الدروع ِ

(١) فى الديوان : نلتقى . (٢) ديوانه : ٦٢ ، المختار من شعر بشار : ٥٤ .
(٣) فى المختار : يحيين العصى حرانى ، وفى ق : يغشين . (٤) فى المختار : لواغب لا يصدرن
(٥) فى المختار : عدانى . (٦) المختار من شعر بشار : ٥٤ . (٧) فى المختار : الذى
(٨) فى س : فاستجفنى .

من شعره أيضا

وقال أيضاً(١) :

في ليلةٍ أَكَل المحاقُ هِلالَها … حتى تبدَّى مِثْلَ وقف العاجِ(٢)
والصبحُ يَتْلُو المشترى فكأنَّهُ … عُرْيان يَمْشِي فى الدُّجا بسِرَاجِ

وقال أيضا يصف فرسا(٣) :

ولقد غدوت على طِمِرٍّ سابحٍ(٤) … عقدتْ سنا بكه عَجاجَةَ قَسْطَلِ
متلثِّم لجُم الحديد يَلُوكُها … لوكَ الفتاة مساوِكاً من إسْحِلِ(٥)
ومُحجَّل غير اليمين كأنَّه … متبختر(٦) يَمْشِي بكمٍّ مُسْبَلِ

وقال(٧) :

قد أغتَدِي بقَارِحٍ … مُسَوّمٍ يَعْبُوبِ(٨)
ينفى الحَصَى بحافرٍ … كالقَدَح المكبوب
قد(٩) ضحكت غُرَّتُهُ … فى موضع التَّقطيبِ

وقال أيضاً :

ولقد وطِئْتُ الغيثَ يحملُنى … طِرْفٌ كلَوْنِ الصبح حين وَفَدْ(١٠)
جمَّاع أَطْرَاف الصُّوار(١١) فما الْـ … أُخرى عليه إذا جَرَى بأشَدّْ
يمشى فيعرض فى العِنان كما … صدف المعشَّق ذو الدَّلالِ وصَدّْ
فكأنه موجٌ يذوب إذا … أطلقتهُ فإذا حبست جَمَدْ

(١) ديوانه : ٢ — ٧٤ . (٢) الوقف : السوار .
(٣) ديوانه : ٢ — ١٢٦ . (٤) فى الديوان : قارح رفعت حوافره غمامة ...
(٥) الإسحل بالكسر : شجر يستاك به . (٦) فى س : متجشم .
(٧) ديوانه : ٢ — ٩٦ . (٨) اليعبوب : الفرس السريع الطويل ، أو الجواد السهل فى عدوه . (٩) فى الديوان : وضحكت . (١٠) فى س : وقد .
(١١) الصوار : القطيع من البقر .

وقال أيضاً يصف سيفاً(١) :

وَلِي صارمٌ فيه المنايا كَوَامِنٌ ... فما يُنتضى إلاّ لسَفْكِ دِماءِ

ترى فَوْقَ متْنَيْه الفِرِنْد كأنهُ ... بقيــةُ غَيْمٍ رَقّ دُونَ سَماءِ

وقال يَصِفُ ناراً(٢) :

مشهَّرةٌ لا يحجب النخلُ ضوءَها ... كأنّ سيوفا بين عيـدانها تُجْلى

يفرّج أَغصان الوقود اضطرامُها ... كما شقّت الشقراء(٣) عن متنها جلاّ(٤)

* * *

من كلام أهل العصر فى النار

وقال بعض أهل العصر وهو السَّرى الموصلى(٥) :

يوم رذاذ مُمسَّك الحجُبِ ... يَضْحَكُ فيه السرورُ من كَثَبِ

ومجلسٍ أُسبِلت ستائرُهُ ... على شموسِ البهاء والحسبِ

وقد جرت خيلُ راحنا خَبَبًا ... فى حَلْيِها(٦) أو همن بالحَبَبِ

والتهبت نارنا فمنظَرُها ... يُغْنِيك عن كل منظَرٍ عجب

إذا ارتمت بالشرار فاطّردت ... على ذُرَاها مطارد اللَّهَب

رأيت ياقوتةً مشبــكةً ... تطيرُ عنهــا قُراضَةُ الذهب

فانهض إلى المجلس الذى ابتسمت ... فيـــه رياضُ الجمالِ والأدبِ

وقال بعض أهل العصر وهو أبو الفرج الببغا :

فحماً قدّم الغلام فأَهْدَى ... فى كوانينه حياةَ النُّفُوسِ

كانَ كالآبنوس غَيْر محلَّى ... فغدا وهو مُذْهب الآبنوسِ

لقى النــارَ فى ثيابِ حِدَادٍ ... فــكسته مُصبَّغاتِ عَرُوسِ

---

(١) ديوانه : ٢ ــ ١٠٥ . (٢) ديوانه : ٢ ــ ١٢٧ .

(٣) الشقراء : اسم فرس ، وارجع إلى القاموس ــ مادة شقر .

(٤) رواية البيت فى ديوانه : تفرج أغصان الوقود إذا التقت ... إذا شقت الشقراء عرفتها حلا

(٥) يتيمة الدهر : ٢ ــ ١٥٩ . (٦) فى اليتيمة : فى جريها .

وقال أبو الفضل الميكالى :

كأن الشَّرارَ على نارِنا ... وقد راقَ مَنْظَرُها كلّ عَيْن
سُحَالَةُ تِبْرٍ إذا ماعلا[1] ... فإمّا هَوَى فَفُتات اللُّجَيْن

* * *

رجع إلى ابن المعتز

وقال ابن المعتز يصف سحابةً[2] :

ومُوقرةٍ بثِقل الماء جاءتْ ... تَهَادى فوق أعناقِ الرياحِ
فباتت[3] ليلها سَحًّا ووَبْلًا ... وهطلا مثل أفواه الجِرَاحِ
كأن سماءها لمــــا تجلّتْ ... خِلالَ نجومها عند الصباحِ
رياضُ بَنَفْسَج خَضِلٍ[4] ثراهُ ... تفتّح بينــه نَوْرُ[5] الأقاحِ

وقال :

ولُجةٍ للمنايا خُضْتُ غمرتها ... بصارم ذكرٍ صَمْصامَةٍ خَذِمِ[6]
وقارحٍ صبغ الخِيلانُ دُهْمَتَهُ ... بشُهْبَةٍ كاختلاط الصّبْحِ بالظُّلَمِ

وقال[7] :

وليلٍ كــكُحْل العين خُضْتُ ظلامَه ... بأزرقَ لمّاعٍ وأبيضَ صارمِ
ومَضْبورةِ الأعضادِ[8] حَرْفٍ كأنها[9] ... تصافح رَضْراض الحصى بمَناسِمِ[10]

وقال يصف حيّة :

نَعتٌ رقطاءَ لا يُحيى لِرُقْيتها ... لو قدّها السَّيف لم يعلق به بَلَلُ
تلقى إذا انسلخت فى الأرض جلدتها ... كأنها كُمّ دِرعٍ قدَّهُ بَطَلُ

---

(١) فى س : ما بدا . (٢) ديوانه : ٢ ــ ١١٠ . (٣) فى الديوان : فجاءت

(٤) فى الديوان ، س : نداه ، وخضل : ندى . (٥) فى الديوان : ورد .

(٦) خذم : قاطع . (٧) ديوانه : ٢ ــ ١٢٨ . (٨) فى الديوان : وطيارة بالرحل .

(٩) فى س : كأنما . (١٠) فى الديوان : بجماجم .

وقال أيضاً(١) :

وأسأرَ(٢) منى الدهرُ عَضْباً مُهَنّدًا ‏ ‏ يفُلُّ شَبا حَظِّى(٣) وقلباً مشيَّعا

ورأيا كمرآة الصَّناع أرى به ‏ ‏ سرائرَ غَيْبِ الدهر من حيث ماسعى(٤)

***

بعض النقد ‏ أخذه من قول المنصور لابنه المهدى : لا تُبْرِمنّ أمراً حتى تفكّر فيه ، فإن فِكْرة العاقلِ مرآته ، تريه قبحه وحسنه .

ولما دُفِنَ المنصور وقف الربيعُ على قبره فقال : رَحِمَك اللهُ يا أَمير المؤمنين ، وغفر لكَ ؛ فقد كان لك حِمًى من العقل لا يطيرُ به الجهل ؛ وكنت ترى باطنَ الأمر بمرآةٍ من الرأى ، كما ترى ظاهره . ثم التفت إلى يحيى بن محمد أخى المنصور فقال: هذا كما قال أبو دَهْبل(٥) الجمحى :

عُقِمَ النساء فما يَلِدْن شَبيهه ‏ ‏ إنّ النساءَ بمثـلهِ عُقْمُ

وبعده :

متهلِّلٌ بنَعَمْ بِلَا متباعدٌ ‏ ‏ سِيَّان منـه الوفْرُ والعدمُ

نَزْر الـكلامِ من الحياء تخالهُ ‏ ‏ ضَمِناً(٦) وليس بجسمه سقمُ

أخذ البيت الأَخير من قول ليلى الأخيلية(٧) :

لا تقْرَبَنَّ الدهرَ آل مُطرِّفٍ ‏ ‏ إنْ ظالمًا يوماً وإنْ مظْلوما

قومٌ رِباطُ الخيلِ حَوْلَ بُيُوتهم ‏ ‏ وأسنةٌ زرقٌ(٨) يُخَلْنَ نُجُوما

وممزَّق(٩) عنهُ القميص تَخَالهُ ‏ ‏ وسطَ البيوت من الحياءِ سقيما

حتى إذا رُفِع اللواءُ رأيتـهُ ‏ ‏ يوم الهياج على الخميس زعيما(١٠)

---

(١) ديوانه : ١ــ٤٠ . (٢) فى الديوان : وغادر . (٣) فى الديوان : خصمى .
(٤) هذا البيت ليس فى الديوان . (٥) فى ط ، ق : دعبل .
(٦) ضمن: مريض. (٧) قالت هذه الأبيات فى مدح آل مطرف ــ شاعرات العرب:١٥١
(٨) فى ط : وأسنة زرقا . (٩) فى الشاعرات ، س : ومخرق .
(١٠) اللواء : الراية ، والخميس : الجيش ، والزعيم : الرئيس .

وقال :

يُشَبَّهون ملوكا فى تجلّتهمْ وطول أَنْصِبَةِ(١) الأَعْنَاق واللِّمَم

إذا بَدا المسك يَجْرِى فى مفارقهم راحُوا كأنهم مَرْضى من الكرم

وقال أبو على الحاتمى : وما أحسن أبياتا أنشدها أبو عمر(٢) المطرز غلام ثعلب يعترض فى أثنائها هذا المعنى :

تخالُهُم للحلم صُمًّا عن الخنَا وخُرْساً عن الفَحْشَاءِ عند التَّهَاتُرِ

ومَرْضَى إذا لاقوا حيـاءً وعِفّةً وعند الحروب كالليوث الخَوَادرِ

لهم عزٌّ إنصافٍ وذلُّ تواضع بهم ولهم ذَلَّتْ رِقابُ العشائر

كأنَّ بهم وَصْماً يخافون عارهُ وليس بهم(٣) إلاَّ اتقاءُ المَعَايِرِ

وأنشد :

أحْـلام عادٍ لا يخَافُ جَليسهُم وإنْ(٤) نطَق العَوْراءَ عَيْبَ(٥) لسانِ

إذا حُـدّثوا لم يُخْشَ سوءُ استماعهم وإن حَدَّثوا أدَّوْا بحُسْن بيان

* * *

رجع إلى قول ابن المعتز

وقال ابن المعتز(٦) :

وعاقد زُنَّارٍ(٧) على غُصُن الآس دقيق المَعَانِى مُخْطَفِ(٨) الخصر ميَّاس

سقانى عُقاراً صَبَّ فيها مِزَاجها(٩) فأَضْحَكَ عن ثغْرِ الحباب فَمَ الكاس

وقال(١٠) :

يا ليـلةً نَسِيَ(١١) الزمانُ بها أَحْدَاثه ، كُونِى بلا فَجْرِ

(١) الأنصبة : جمع نصاب وهو الأصل ، وفى ق : منصبة . (٢) فى ط : أبو عمرو .
(٣) فى س : لهم . (٤) فى س : إذا . (٥) فى س ، ق : عذب .
(٦) ديوانه : ٢ — ٤٩ . (٧) أصل الزنار : ما على وسط النصارى والمجوس .
(٨) فى الديوان : رقيق ، ومخطف الخصر : ضامره . (٩) مزاج الشراب : مايمزج به .
(١٠) ديوانه : ٢ — ١٢١ . (١١) فى س : ينسى .

فاح المساء[١] ببدرها وَوَشَتْ فيها الصَّبا بمواقع القَطْرِ
ثم انقضت والقَلْبُ يَتْبَعُها فى حيث ماسقطَتْ مِنَ الدَّهْرِ

وقال[٢] :

يا رُبَّ إخوانٍ صحبتهمُ لا يملـكون لِسَـلْوَةٍ قَلْبا
لو تستطيع قلوبُهم نفرَتْ أجسامهم[٣] فتعانقت حُبّا

هذا كقول ابن الرومى[٤] :

أعانقه[٥] والنفسُ بَعْدُ مَشُوقةٌ إليه وهل بَعْدَ العِناق تَدانى
وألثم فاه كى تَزُولَ حَرَارَتى فيشتدّ ما ألقى من الهَيَمان
ولم يكُ مِقْدارُ الذى بى مِنَ الْهوَى[٦] ليروِيَهُ ما تَرشُفُ الشَّفتان[٧]
كأنّ فؤادى ليس يشفى غليلَهُ سوى أن يُرَى الروحان[٨] يمتزِجانِ

ومن نثره

ومن منثوره: لا يزالُ الإخْوَانُ يسافرون فى المودَّة ، حتى يبلغوا الشُّقة ، فإذا بلغوها أَلْقَوْا عَصَا التَّسيار ، واطمأنّت بهم الدار ، وأقبلت وفودُ النصائح ، وأمنت خَبايَا الضمائر ، فحلُّوا عُقَد التحفّظ ، ونزعوا ملابسَ التَّخلُّق .

وله : سار فلان فى جيوشٍ عليهم أَرْدِيَة السيوف ، وأَقْمِصَةُ[٩] الحديد ، وكأنَّ رِماحَهم قرونُ الوُعُولِ، وكأنّ دُروعَهم[١٠] زَبَدُ السيولِ ، على خيل تَأْكُل الأرضَ بحوافرها ، وتمدّ بالنَّقْـعِ سُرادقها ، قد نُشرت فى وجوهها غُرَر كأنها صحائف الرّق ، وأمسكها تحجيلٌ كأنه أسورة اللّجين ، وقُرِّطت عُذُراً كأنها الشَّنف ، تتلقّف الأعداء أوائله ولَم تَنْهَضْ أواخره ، قد صُبَّ عليهم وقارُ الصبر ، وهبَّت معهم ريح النَّصر .

(١) فى الديوان : راح الزمان . (٢) ديوانه : ١ـ ١٠٥ . (٣) فى الديوان : فقدت أجسادها وتعانقت . (٤) ديوانه : ٢٧ . (٥) فى الديوان : أعانقها . (٦) فى س : الجوى . (٧) فى الديوان : وما كان مقدار الذى بى من الجوى ليشفيه ما تلثم ... وفى ق ، س : ما قد ترشف الشفتان . (٨) فى الديوان : الروحين . (٩) فى س : قمصان .
(١٠) فى س : أدراعهم .

وله فى عليل : آذنَ اللهُ فى شفائك ، وَتَلَقَّى داءَك بدوائك ، ومسحَ بيدِ العافيةِ عليك ، ووجَّه وَفْدَ السلامة إليك ، وجعل عِلَّتك ماحيةً لذنوبك ، مضاعِفَةً لثوابك .

وكتب إلى عبيد الله بن سليمان بن وَهب فى يوم عيد : أَخَّرَتْنى العِلَّةُ عن الوزير أعزَّه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى لِيَنُوبَ عنى ، ويَعْمُر ما أَخْلَتْه العوائِقُ منى ، وأنا أسألُ الله تعالى أن يجعلَ هذا العيدَ أَعْظَمَ الأَعيادِ السالفةِ بركةً على الوزير ، ودون الأعيادِ المستقبَلة فيما يُحِبُّ ويُحَبّ له ، ويَقْبل ما توسّل به إلى مَرْضَاته ، ويضاعفُ الإحسانَ إليه ، على الإحسان منه ، ويمتّعه بصحبةِ النعمة ، ولباسِ العافية ، ولا يُريه فى مسرَّةٍ نقصاً ، ولا يقطع عنه مَزِيدا ، ويجعلنى من كل سوء فِدَاه ، ويصرف عيون الغير عنه ، وعن حظّى منه.

وله إلى بعض الرؤساء : لاتَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبحِ الانتقامِ ، وتجاوز عن كل مُذْنِب لم يَسْلُكْ من الأقدار [1] طريقا حتى اتَّخذ من رجاء عَفْوِكَ رفيقا .

وله اعتذار إلى القاسم بن عبيد الله : ترفّع عن ظُلْمِى إن كنتُ بريئاً ، وتفضَّل بالعفو إن كنتُ مسيئاً، فوالله إنى لأَطْلُبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لم أَجْنِه ، وأَلْتَمِس الإقالةَ مما لا أعرفه ؛ لتزدَاد تطوّلا وأزداد تذَلّلا ؛ وأنا أُعِيذُ حالى عندك بكرمك من واشٍ يكيدها ، وأحْرُسها بوفائك من باغٍ يحاوِلُ إفسادها ، وأسأل الله تعالى أنْ يجعلَ حظِّى منك بقدر وُدِّى لك ؛ ومحلّى من رجائك بحيث أسْتَحقُّ منك .

وله إليه : لو كان فى الصمتِ مَوضعٌ يَسَعُ حالى لخففْت عن سَمْعِ الوزيرِ ونَظَرِه، ولم أشغل وَجْهاً من فِكْره ؛ وما زالت الشكوى تُعْرِبُ عن لسانِ البَلْوَى ، ومن اختلّت حالته كان فى الصَّمْتِ هَلَكَتُه ، وقد كان الصبرُ ينصرُنِى على سَتْرِ أمْرِى حتى خذلنى .

---

(١) فى ط : الأعذار .

وهذا كقول أحمد بن إسماعيل : فصاحةُ الشكوى على قَدْرِ البلوى ، إلا أن يكونَ بالشاكى انقباضٌ ، وبالمشكوِّ إليه إعْراض .

[وصف الماء وما يتصل به]

وقد أحسن أبو العباس بن المعتز فى صفة الماء فى أرجوزته التى أنشدتها آنفاً .

وقد قال فى قصيدة له وذكر إبلا (١) :

فتبدَّى لهن بالنَّجف المد ... ر ماءٌ صافى الجمام عَرِىٌّ (٢)

يتمشّى على حصى يسلب (٣) الما ... ء قَذَاه فَمتْنُه مَجْلِىٌّ (٤)

وإذا داخلته دُرّةُ (٥) شَمْسٍ ... خِلْته كُسِّرت عليه الحلىّ

وقال (٦) :

لا مثل منزلة الدُّوَيرة منزلٌ ... يادارُ جادكِ وَابِلٌ وسَقَاكِ

بُؤساً لدَهْرٍ غيرتكِ صروفهُ ... لم يَمحُ من قلبى الهوى ومَحاكِ

لم يَحْلُ للعينين بعدك منظرٌ (٧) ... ذُمَّ المنازل كلّهنَّ سِوَاكِ

أىّ المعاهد منك أَنْدُبُ طِيبَهُ ... مُمْساك بالآصال (٨) أم مَغْدَاكِ

أم بَرْدُ ظِلّك ذى الغصون وذى الجنى (٩) ... أم أرضك الميثاء أم رَيّاكِ (١٠)

وكأنما سطعت (١١) مجامرُ عنبرٍ ... أو فُتَّ فأْرُ المسكِ فوق ثراكِ

وكأنما حَصْبَاءُ أرضك جَوْهَرٌ ... وكأَنَّ ماءَ الوردِ دَمْعُ نداكِ

---

(١) ديوانه : ١ — ٦١ . (٢) فى الديوان : فتبدى لهن بالنجف المقفى .

(٣) فى ق : يسكب . (٤) فى الديوان : يتمشى على حصى سلب الريح .

(٥) فى الديوان : ضاحكته ، وفى س : غرة . (٦) ديوانه : ٢ — ٨٨ ، المختار من شعر بشار : ٢٦٤ ، ديوان المعانى : ٢ — ١٠ . (٧) فى المختار : منزل .

(٨) فى الديوان والمختار ، س : ذا الآصال . (٩) فى الديوان : الحيا ، وفى المختار: وذى الندى . (١٠) فى الديوان : أم صرباك ، والميثاء : اللينة .

(١١) فى الديوان : سقطت .

[وكأنما أيدى الربيع ضُحَيَّةً ... نشَرتْ ثيابَ الوَشْى فوق رُباكِ](١)
وكأنّ دِرْعاً مُفْرغا من فِضَّةٍ ... ماءُ الغدير جرَتْ عليه صَبَاكِ

وعشقت عاتكة المرية ابنَ عمٍّ لها فراودها عن نفسها فقالت (٢) :

فما طَعْمُ ماءٍ أىّ ماء تَقولُهُ ... تحدَّر عن غُرٍّ طوالِ الذوائبِ
تَنَمرَج من بَطْنٍ وَادٍ تقابلتْ ... عليه رياحُ الصيفِ من كل جانبِ
نَفَتْ جَرْيَةُ الماء القَذَى عن متونه ... فما إن به عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَاربِ
بأطيبَ ممن يقصر الطّرْف دونَهُ ... تُقَى اللهِ واستحياءُ بَعْضِ العواقبِ

وأنشد الأصمعى قال : أنشدنى أبو عمرو بن العلاء لجابر بن الأرق (٣) وقال : هو أحْسَنُ ما قيلَ فى معناه :

أيَا وَيْحَ نَفْسِى كلما الْتَحتُ (٤) لوحةً ... على شَرْبَةٍ من ماءِ أحْوَاضِ مَأْربِ
بقايا نِطَافٍ (٥) أوْدَعَ الغيمُ صَفْوها ... مصقَّلة الأرْجاءِ زُرْق المَشَارِبِ
ترقرق دَمْعُ المزن فيهنَّ والْتَوَتْ ... عليهن أنفَاسُ الرياح الغرائب

وأنشد إسحاق بن إبراهيم للأُبَيْرِد اليربوعى ورويت لمضرِّس بن رِبعى الأسدى (٦) :

فألقَتْ عَصَا التَّسْيَارِ عنها وخَيَّمت ... بأَرْجاءِ عَذْبِ الماءِ زُرْقٍ (٧) مَحَافِرُهْ
أزَال الْقَذَى عن مائه وَافِدُ الصَّبا ... يروحُ عليه ناسماً ويُبَاكِره

واول من أتى بهذا زهير بن أبى سلمى فى قوله (٨) :

فلمَّا وردْنَ الماءَ زُرقا جِمامُهُ ... وَضَعْنَ عِصىَّ الحاضرِ المتخيِّمِ (٩)

(١) من س ، ق . (٢) شاعرات العرب : ٢٠١ . (٣) فى س : رالاق .
(٤) التاح : عطش . (٥) النطفة : الماء الصافى، وجمعه نطاف .
(٦) فى شرح ديوان زهير: منسوب إلى الأول صفحة ١٤ .
(٧) فى شرح ديوان زهير : بيض ، وفى س : زرق الماء عذب . (٨) ديوانه : ١٣ .
(٩) الجمام : ما اجتمع من الماء . وضعن عصى : أقمن . المتخيم: المقيم .

وقال ابن الرومى :

وماءٍ جَلَتْ عن حُرِّ صفحته الْقَذَى ... من الريح مِعْطَارُ الأَصَائِلِ والبُكَرْ
به عَبَق مِمَّا تَسَحَّبَ فوقَهُ ... نسيم الصبا يَجْرِى على النَّوْرِ والزَّهَرْ

[وصف الدور والقصور]

بركة الجعفرى للبحترى

ويتعلق بهذا الباب قولُ البحترى يصف بركة الجعفرى وهو قصر ابتناه المتوكل فى سُرَّ من رأى [1] :

يامَنْ رَأى البركةَ الحسناءَ رونقها [2] ... والآنسات إذا لَاحَتْ [3] مَغَانيها
مابالُ دجلة كالغَيْرَى تُنَافِسُها ... فى الحُسْنِ طَوْراً وأَطْوَارا تُبَاهِيها !
إذا عَلَتْهَا الصَّبا أبْدَت لها حُبُكا ... من الجواشِنِ [4] مَصْقولاً حَوَاشِيها
فحاجبُ الشمسِ أحيانا يُغَازِلُها [5] ... وريِّقُ الغيث أحياناً يُبَاكِيها
إذا النجومُ تراءَتْ فى جوانبها ... ليلًا حسِبْتَ سماءً رُكِّبَتْ فيها
كأنما الفِضَّـــةُ البيضاءُ سائلةً ... من السَّبائك تَجْرى فى مَجَارِيهَا
تنصبُّ فيها وفودُ الماء مُعْجَلةً ... كالخيل خارجةً من حَبْل مُجْرِيها
كأنَّ جنَّ سليمان الذين وَلُوا ... إبداعهَا فأدَقُّوا فى مَعَانيهـا
فلو تمرُّ بهـا بِلْقيسُ معرضةً [6] ... قالت : هى الصَّرْحُ تمثيلًا وتشبيها
[لا يبلغ السمكُ المقصور غايتها ... لبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها] [7]
يَعُمْنَ فيها بأَوْسَاطٍ مُجَنّحةٍ ... كالطَّيْر تنشر [8] فى جوٍّ خَوَافِيها

---

(١) النويرى : ١ — ٢٨٥ ، المختار من شعر بشار : ٣١٩ ، ديوانه : ٢ — ٣١٩ .

(٢) فى الديوان : الحسناء رؤيتها . (٣) فى النويرى : التى لاحت .

(٤) الحبك من الماء : الجعد المتكسر ، والجوشن : الصدر ، والدرع .

(٥) فى الديوان : يضاحكها . (٦) فى الديوان والنويرى : عن عرض .

(٧) من ق ، س . (٨) فى الديوان : تنقض .

دور المتوكل لعلى بن الجهم

ولم يُنفِقْ أحدٌ من خلفاء بنى العباس فى البناء ما أنْفَقَه المتوكل ؛ وذلك أنه أنفق فى أبنيته ثلثمائة ألف ألف . وفى أبنيته يقول على بن الجهم[١] :

وما زِلتُ أَسْمَع أنَّ الملو ... كَ تَبْنِى على قَدْرِ أَخْطَارِها
وأعلمُ أنَّ عقولَ الرجا ... ل يُقضَى عليها بآثارها
صُحونٌ تسافر فيها العُيون ... فتَحْسِر[٢] من بُعْد أقطارِها
وقُبَّةُ مُلْكٍ كأنَّ النجو ... م تُفضى إليها[٣] بأسْرارها
إذا أُوقِدَت نارُها بالعراق ... أضاءَ الحِجازَ سَنَا نارِها
لها شُرُفات كأنّ الربيع ... كساها الرّياض بأنْوَارِها
فهنّ كمصطحباتٍ خَرَجْنَ ... لِفصْح[٤] النّصارى وإفطارها
نظمن القِسِيَّ كنظم الحلى ... بعُونِ النساءِ وأبْكارِها
فمن بين عاقصةٍ شَعْرَها ... ومُصلحة عَقْد زُنَّارها[٥]

للبحترى

وللبحترى فيها شعرٌ كثير منه[٦] :

أرى المتوكليّة قد تعالَتْ ... مصانعها[٧] وأكملت التّماما
قصور كالكواكب لامِعَاتٌ ... يكدن يُضِئن للسارِى الظّلاما
وروض[٨] مثل بُرْدِ الوَشْى فيه ... جنى الحَوْذان ينشر والخُزَامى[٩]
غرائب من فنون النَّور[١٠] فيها ... جَنَى الزهر الفُرادى والتّؤاما
يضاحك نورها[١١] طوراً وطوراً ... عليه الغيم[١٢] ينسجمُ انسجاما

---

(١) ديوان على بن الجهم : ٢٨ ، الأغانى : ١٠ — ٢٣٣ .
(٢) حسر البصر : كلّ وانقطع من طول مدى ، وفى س : عن بعد. (٣) فى ق : إليه .
(٤) فصح النصارى : عيدهم . (٥) الزنار : ما على وسط النصارى والمجوس .
(٦) ديوانه : ٢—٢٢٥ . (٧) فى الديوان : محاسنها . (٨) فى الديوان : وبر .
(٩) الحوذان والخزامى : من النباتات . (١٠) فى الديوان : النبت .
(١١) فى الديوان : تضاحكها الضحى . (١٢) فى الديوان ، س : عليها الغيث .

ولو لم يستهلّ لها غمامٌ ... بريّقه لكنت لها غماما[1]

وقال أيضاً[2] :

قد تمّ حُسْن الجعفرىّ ولم يكن ... ليتمّ إلاّ للخليفة جعفرِ
ملكٌ تبوّأَ خيرَ دارٍ أُنشئت ... [فى خير مبدى[3] للأنام ومحضرِ][4]
[فى رأس مشرفة حَصاها لُؤلؤٌ][4] ... وترابُها مِسْكٌ يُشَابُ بعَنْبرِ
مخضرّة والغيثُ ليس بساكبٍ ... ومضيئة والليلُ ليس بمُقْمرِ
رفعت بمُنْخرق الرياح وجاورت ... ظِلَّ الغمام الصيِّب المستعبر[5]

وبعده :

ورفعت بُنْيانا كأن زُهاءَه[6] ... أعلامُ رَضْوَى أو شواهق ضَبْير[7]
عالٍ على لَحْظِ العيونِ كأنما ... ينظرنَ منه إلى بياضِ المشترى
ملأت جوانبُه الفضاءَ وعانقتْ ... شُرفاته قِطَعَ السحابِ المُمْطِر
وتسيل[8] دجلة تَحْتَه ففِناؤُهُ ... من لُجة فُرِشت[9] ورَوْض أَخْضر
شجرٌ تُلاعِبه الرياحُ فتنثنى ... أعطافُه فى سائحٍ متفجِّرِ

الصنوبرى يصف موضعا

أخذ أبو بكر الصنوبرى قولَ البحترى فى صفة البركة فقال يصف موضعا[10] :

سقى حلباً سافكٌ دمعهُ ... بَطِئ الرُّقُوءِ[11] إذا ماسَفَكْ
مَيادِينُه بُسطهنّ[12] الرياض ... وساحاتُه[13] بينهن البِرَكْ

---

(١) ريق الشباب : أوله وأصله . (٢) ديوانه : ١ — ٢١٣ . (٣) فى ق : بدو .
(٤) من س ، ق . (٥) رواية هذا البيت فى الديوان :
ظهرت لمخترق الشمال وجاورت ... ظلل الغمام الصائب المستغزر
(٦) فى الديوان : مناره . (٧) فى ط ، ق : مثبر ، وفى الديوان : صبير ، وفى س : مسبر ، وصنبر ، وأرجح ما أثبت عن معجم ماالستعجم : ٨٨٤ . (٨) فى الديوان : وتسير .
(٩) فى الديوان ، س : من لجة غمر . (١٠) المختار من شعر بشار : ٢٦٤ .
(١١) رقأ الدمع : جف وسكن . (١٢) فى المختار : ميادينها وسطهن .
(١٣) فى المختار : وساحاتها وسطهن .

ترى الريح تَنْسِج من مائه(١) ... دُرُوعاً مضاعَفةً أو شَبَكْ
كأن الزجاجَ عليهــا أذيبَ ... وماء اللُّجَيْنِ بها قد سُبِكْ
هى الجوُّ من رِقَّة غير أنَّ ... مكانَ الطيورِ يَطِيرُ السَّمَكْ
وقد نُظِمَ الزهر نظام النجوم ... فمفترق النَّظم أو مشتبك
كما درَّج الماءَ مرُّ الصَّبا ... ودبَّجَ وجهَ السماءِ الحُبُكْ
يُبَاهِين أعــلام قُمص القِيان ... ونَقْشَ عَصَائِبها والتِّــكَكْ(٢)

وأخذ قوله : * إذا النُّجوم راءتْ فى جوَانبها * فقال :

ولمــا تعالى البدرُ وامتدَّ ضوءُهُ ... بدجلة فى تشرين فى الطّولِ والعرْضِ
وقد قابل المــاء المفضض نورهُ ... وبعضُ نجوم الليل يَقْفُو سَنَا بَعْضِ
توهَّم ذُو العين البصيرة أنهُ ... يرى باطنَ الأفلاكِ مِنْ ظَاهِرِ الأرضِ

ولأهلِ العصر فى هــذا النَّحوِ كلامٌ كثير : قال الأمير أبو الفضل الميكالى ، يصف بركة وقع عليها شعاع الشمس فألقته على مَهْو(٣) مطلّ عليها يقول :

أما ترى البركة الغراء قد لبسَتْ ... نوراً من الشمس فى حافاتها سطَعَا
والمَهْو من فوقها يُلْهِيك منظَرُهُ ... كأنهُ ملكٌ فى دَسْتِه ارتفعَا(٤)
والمـــاء من تحته ألقى الشعاع على ... أعلى سماواته فارتَجَّ مُلْتَمِعا
كأنه السيفُ مصقولًا تُقلِّبُه ... كفُّ الكميِّ إلى ضَرْبِ الكميِّ سَعَى

الإيادى يصف دار البحر

وقال على بن محمد الإيادى يمدح المعزّ ويصف دار البحر بالمنصورية :

ولمــا استطال المَجْدُ واستولت البُنى ... على النَّجْم واشتدّ الرواق المروَّقُ(٥)
بنى قبــةً للملك فى وَسْطِ جَنَّةٍ ... لها منظرٌ يُزهى به الطَّرْف مُونِقُ
بمشوقة الساحات أمَّا عِراصُها ... فخضرٌ وأمَّا طيرها فهى نُطَّقُ

---

(١) فى المختار ، س : من مائها . (٢) القمص . جمع قميص ، والتكة : رباط السراويل ، وجمعها تــكك . (٣) فى ط : بهو ، وهذا من ق ، س . والمهو : الحصى الأبيض .
(٤) فى ط : والمهو ، والدست : صدر البيت . (٥) بيت مروق : له رواق.

تحفّ بقَصْرٍ ذى قُصُورٍ كأنما … ترى البحر فى أرجائه وهو مُتْأَقُ(١)
له بِرْكَةٌ للماء مِلْءُ فضائِهِ … تَخُبُّ بقصريْهَا العيون وتَعْنقُ(٢)
لها جَدْولٌ يَنْصَبُّ فيها كأنهُ … حُسَامٌ جَلَاه القَيْن بالأَرْضِ مُلْصَقُ
لها مَجْلِسٌ قد قام فى وَسْط مائِها … كما قام فى فَيْضِ الفراتِ الخَوَرْنَقُ(٣)
كأنَّ صفاءَ الماءِ فيها وحُسْنَهُ … زُجاجٌ صَفَتْ أرجاؤه فهو أزرقُ
إذا بثّ فيها الليلُ أشْخاصَ نَجْمِهِ … رأيتَ وجوهَ الزنج(٤) بالنارِ تُحْرَقُ
وإن صافَحَتْها الشمسُ لاحَتْ كأنها … فِرِندٌ على تاج المُعِزِّ ورَوْنَقُ
كأن شُرافات المَقَاصر حولها … عَذارى عليهنّ المُلاءُ المُمَنْطَقُ
يذوب الجفاء الجَمْد عن وَجْهِ مائها … كما ذاب آلُ الصَّحْصَحانِ(٥) المُرَقْرَقُ

النهشلى يصف موضعا

وقال عبد الكريم بن إبراهيم :

يا ربَّ فتيان صِدْقٍ رُحْتُ بينهمُ … والشمسُ كالدَّنِف المشوقِ(٦) فى الأُفُقِ
مَرْضَى أصائِلُها حَسْرَى شمائِلُها … تروّح الغُصُن المَطْور فى الوَرَقِ
مُعَاطِيا شمسَ إبريقٍ إذا مُزِجَتْ … تقلَّدَتْ عِقْدَ مرجان من النَّزَقِ
عن ماجِلٍ طافحٍ بالماء مُعْتَلِج … كأنما(٧) نَفْسُه صِيغَتْ من الحَدَقِ
تَضُمُّهُ الرِّيحُ أَحيانا وتَفْرِقُهُ … فالماء ما بَيْنَ محبوس ومُنْطَلِقِ
مِنْ أَخضر ناضرٍ والطَّلُّ يلحقهُ … وأبيض تحت قبطىٍّ الضُّحَى يَقَقِ
تَهزُّهُ الريحُ أحياناً فيمنحُها … للزَّجْر خَفْقَ فؤادِ العاشقِ القَلِقِ
كأنَّ حافاتِهِ نُطِّقن من زبدٍ … مَنَاطقاً رُصِّعَتْ مِنْ لؤلؤ نَسَقِ

---

(١) أتأقته : ملأته . (٢) العنق والخبب : من أنواع السير ، والفعل من الأول أعنق : سارع وأسرع . (٣) الخورنق : اسم قصر . (٤) فى س : الماء .
(٥) هكذا فى كل الأصول ، والآل : السراب . والصحصحان : موضع بين حلب وتدمر .
(٦) الدنف : المريض ، وفى س : كالدنف المشغوف . (٧) فى س : كأن نفسه .

كأنَّ قُبَّتَه من سُنْدُسٍ نمطٍ(١) حسناء مجلوَّة اللبَّاتِ والعُنقِ
إذا تبلَّج فَجْرٌ فوق زُرْقتـه حسبته فرساً دهْماء فى بَلقِ
أو لا زَوَرْدًا جَرَى فى مَتْنِه ذَهَب فلاح فى شارقٍ من مائِه شرِقِ
عشية كملت حُسناً وساعدَها ليـلٌ يُمَدِّدُ أطفاباً على الأُفقِ
تجلى بغُرَّةِ وَضَّاح الجَبِين له ماشئتَ من كَرمٍ وافٍ ومن خُلُقِ

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الماء وما يتصل به

ماء كالزُّجاج الأزرق . غديرٌ كعين الشمس . مَوَارد كالمَبارِد ، وماء كلِسَان الشمعة ، فى صفاء الدمْعَة ، يسبح فى الرَّضْرَاض سَبْحَ النَّضْنَاض(٢)، ماء أزرق كعَيْنِ السِّنَّور ، صاف كقضيب البلّور . ماء إذا مسَّته يَدُ النسيم حكى سَلَاسِلَ الفضة . ماء إذا صافحته رَاحةُ الريح لبِسَ الدِّرْع كالمسيح . كأنَّ الغَديرَ بتراب الماء رِدَاء مُصَنْدَل . بركة كأنها مرآة السماء . بِركَة مَفْرُوزة(٣) بالخضرة ، كأنَّها مِرْآة مجلوّة ، على ديباجة خضراء . بِرْكَةُ ماءٍ كأنها مِرْآةُ الصَّنَاع(٤) . غدير ترقرقت فيه دموع السحائب ، وتواتَرَتْ عليه أنفاسُ الرياح الغرائب . ماء زُرق جِمَامُه ، طامية أَرْجَاؤه ، يَبُوحُ بأَسْرَاره صَفَاؤه ، وتلوحُ فى قراره حَصْبَاؤُه . ماء كأنما يفقده مَنْ يَشْهَدُه ، يتَسَلْسَل كالزَّرافين(٥) ، ويرضع أَوْلَاد الرَّيَاحِين . انحلَّ عقد السماء ، ووَهَى عقد الأَنْواء . انحلّ سلكُ القطر عن دُرِّ البَحْر . أَسْعَد السحاب جفونَ العُشَّاق(٦) ، وأَكُفَّ الأجواد ، وانحلّ خَيْطُ السماء وانقطع شُرْيَانُ الغَمَامِ ، سحابة يتجلَّى عليها ماء البحر ، وتفضُّ علينا عقودَ الدّر . سحابٌ

(١) فى س : فى سندس نمط . (٢) حية نضناض : لا تستقر فى مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التى أخرجت لسانها تنضنضه أى تحركه . (٣) ثوب مفروز : له تطاريف.
(٤) الصناع : المرأة الماهرة فيما تصنع . (٥) الزرافين : الحلق .
(٦) أسعد : من الإسعاد وهو المشاركة فى البكاء .

حكى المحبّ فى انسكاب دموعِه ، والتهاب النارِ بين ضُلُوعِه . سحابة تحدو من الغيوم جِمالًا ، وتمدّ من الأمطار حِبالا . سحابة ترسلُ الأَمطارَ أمواجاً ، والأمواجَ أفواجاً . تحلّلت عقد السماء بالدِّيمةِ الهَطْلاء . غيث أَجشّ (١) يروى الهضاب والآكام (٢) ، ويُحيي النبات والسوام . غيثٌ كغزارة فَضْلِك ، وسلامة طبعك ، وسلامة عقدك ، وصفاء وُدِّك . وَبْل كالنبل . سحابة يَضْحَكُ من بُكائها الرَّوْض ، وتَخْضرّ من سَوَادِها الأَرْض . سحابة لا تجفّ جفونُها ، ولا يَخِفّ أنينها . دِيمة روّت أدِيمَ الثرى ، ونبهت عيونَ النَّوْرِ من الْكَرى . سحابةٌ ركبت أعْنَاق الرياح ، وسحّت كأَفْوَاه الجراح . مطر كأَفْوَاه القِرَب ، ووَحل إلى الرّكب ؛ أنْدِيَة مَنّ الله معها على البيوت بالثُّبُوت ، وعلى السقوف بالوُقُوف . أقْبَل السَّيْلُ يَنْحَدِرُ انحدارا ، ويحمل أحجاراً وأشجارا ، كأن به جِنة ، أو فى أحشائه أجِنّة .

وبعض ما مرّ من هذه الألفاظ محلول نظام ما تقدّم إنشاده .

ولهم فى مقدمات المطر

لبست السماء جلبابها ، وسحبت السَّحَائِبُ أذيالها . قد احتجبت الشمسُ فى سُرَادِق الغَيْم ، ولبس الجوُّ مُطْرَفه (٣) الأَدْكَن . باحت الريحُ بأَسْرَارِ النَّدَى ، وضربت خَيْمَة الغمام ، ورشّ جيش النسيم ، وابتلّ جناحُ الهواء ، واغرورقت مُقْلَة السماء ، وبشر النسيم بالنّدَى ، واستعدّت الأرضُ للقطر . هبّتْ شمائِلُ الجَنَائِب لتأليف شَمْل السَّحَائب . تألفت أشتات الغيوم ، وأسبلت الستور على النجوم .

وفى الرعد والبرق

قام خطيبُ الرَّعْدِ ، ونبض عِرْقُ البَرْقِ . سحابة ارتجزت رَوَاعدها ، وأذهبت ببروقها مطاردها . نُطْقَ لسانُ الرَّعدْ ، وخفق قَلْبُ البرق ، فالرَّعْدُ ذُو صخَب

---

(١) الأجش : الغليظ الصوت من الإنسان ومن الخيل ومن الرعد وغيره .

(٢) الآكام : جمع أكمة وهى التل . (٣) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

والبَرْقُ ذو لَهَب. ابتسم البَرْقُ عن قهقهة الرعد . زأرت أُسْد الرّعد ، ولمعت سيوفُ البَرْقِ . رعدت [سيوفُ][١] الغمائم ، وبرَقَتْ ، وانحلّت عَزَالِي [٢] السَّماء فطبقت. هَدَرت رَوَاعدها ، وقربت أبَاعِدها ، وصدقت مَوَاعدها . كأنّ البرق قَلْبُ مَشُوق، بين التهابٍ وخُفُوق .

ويتصل بهذه الأنحاء

ما حكاه عمر بن على المطوعى قال : رأى الأميرُ السيد أبو الفضل عبيد الله بن أحمد ـ أدام الله عزه ـ أيام مقامه بجُوَيْن [٣] أن يطالِع قرية من قرى ضِيَاعه تدعى نَجَاب [٤] على سبيل التنزّه والتفرّج [٥] ، فكنتُ فى جملةٍ من استصْحَبَه إليها من أصحابه ، واتّفق أنّا وصلنا والسماء مُصْحِيَة ، والجوُّ صاف لم يطرّز ثوبه بعلَم الغَمَام ، والأفق فيروزج لم يَعْبَق به كافورُ السحاب ؛ فوقع الاختيار على ظلّ شجرةٍ باسقةِ الفروع ، متَّسِقَة الأَوْرَاق والغصون ، قد سترت ما حواليهَا من الأَرْضِ طولا وعَرْضاً ، فنزلنا تحتها مستظلّينَ بِسَمَاوَةِ [٦] أفنَانِها ، مستَتِرينَ من وَهَج الشمس بِستارة أغصانها ، وأخذْنَا نتجاذبُ أَذْيَالَ المُذَاكرة، ونَتَسالب أَهْدَابَ المُنَاشَدَةِ والمحاورة ؛ فماشعرنا بالسّماء إلا وقد أرْعَدَتْ وأبرقت وأظلمَتْ بعدماأشرقت ، ثم جادَتْ بِمَطَرٍ كأَفْوَاهِ القِرَب فأَجادَتْ ، وحَكَتْ أَنَامِلَ الأَجْوَادِ ومدامِع العُشّاقِ ، بل أَوْفَتْ عليها وزادت ، حتى كاد غيثُها يعودُ عَيْثاً [٧] ، وهمّ وَبْلُها أن يستحيلَ وَيْلاً ؛ فصبرنا على أذاها ، وقُلنا : سَحَابَة صَيْفٍ عما قليلٍ تَقَشَّع ، فإذا نحنُ بها قد أمطرتنا

(١) من س . (٢) العزالى : مصاب الماء . (٣) جوين : كورة بخراسان .
(٤) الضبط من س . (٥) فى س : التفرح . (٦) السماوة : السماء ، والسقف .
(٧) العيث : الإفساد .

بَرَداً كالثُّغُورِ، لـكنها من ثغور العَذَاب ، لامن الثغور العِذّاب، فأيقنّا بالبَلاء وسلّمنا لأسبابِ القضاء ؛ فمامرت إلاساعةٌ من النهار ، حتى سمعنا خَرِيرَ الأنهار ؛ ورأينا السَّيْلَ قد بلغ الزُّبَى، والماءَ قد غَمَرَ القِيعان والرُّبَى⁽¹⁾؛ فبادرنا إلى حِصْن القرية لائذين من السَّيْلِ بأفنيتها ، وعائذين من القطر بأبنيتها ، وأثوابنا قد صَنْدَل كافوريَّها ماء الوَبْل ، وغلَّف طِرازيَّها طينُ الوَحْل ، ونحن نحمدُ اللهَ تعالى على سلامة الأبدان ، وإن فقدنا بياضَ الأكمام والأردان، ونشكره على سلامةِ الأنفس والأرواح ، شُكرَ التاجر على بقاءِ رأسِ المال إذا فُجِع بالأرباح ؛ فبتنا⁽²⁾ تلك الليلة فى سماء تَكِفُ ولا تكُفُّ⁽³⁾ ، وتبكى علينا إلى الصباح بأدمع هَوَام ، وأربعة سِجَام ؛ فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غِمد الظلام ، وصُرِفَ بِوَالى الصحو عَامِلُ الغَمام ، رأينا صوابَ الرأى أن نُوسِع الإقامة بها رفضاً ، ونتخذ الارتحالَ عنها فرْضاً ؛ فما زِلْنَا نطوى الصحارى أرضاً فأرضاً ، إلى أن وافينا المستقر ركضاً ؛ فلما نَفَضْنَا غُبَارَ ذلك المسير ، الذى جمعنا فى رِبْقَة الأسير ، وأفضَيْنَا إلى ساحةِ التيسير ، بعد ما أُصِبْنَا بالأمر العسير ، وتذاكَرْنَا ما لقينا من التعب والمشقّة ، فى قطع ذلك الطريق وَطَىِّ تلك الشُّقة ، أخذ الأمير السيد أطال الله بقاءه القلم فعلق هـــذه الأبيات ارتجالا :

دَهَتْنَا السماءُ غَدَاةَ السَّحَاب ... بغيثٍ على أفْقِه مُسْبِلِ
فجاءَ برَعْدٍ له رَنَّةٌ ... كرَنّةِ ثَـكْلَى ولم تثْـكَلِ
وثَنَّى بوَبْلٍ عَدَا طَوْرَهُ ... فعاد وَبَالاً على المُمْحِلِ⁽⁴⁾
وأشرف أصْحَابُنَا مِنْ أذاهُ ... على خَطَرٍ هائلٍ مُعْضِلِ

---

(١) الزبية : الرابية لايعلوها ماء . والقاع : السهل المطمئن من الأرض ، والربى ، جمع ربوة : المرتفع من الأرض . (٢) فى س : فى تلك . (٣) تكف : تسيل ، وتكف : تمتنع.
(٤) فى س : المعجل .

فمِنْ لائذٍ بِفِنَاءِ الجِدَار   وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهْمَلِ
ومن مستجيرٍ يُنادى: الغريقَ   هناك، ومن صارِخٍ مُعْوِلِ
وجادَتْ علينا سَمَاءُ السقوف   بِدَمْعٍ من الوَجْدِ لم يهمل
كأنّ حَرَاماً لهـا أن تَرَى   يَبيساً من الأرض لم يُبْلَل
وأقبلَ سَيْلٌ له رَوْعةٌ   فأَدْبرَ كُلٌّ عن المُقْبِلِ
يُقلِّعُ ما شاءَ من دَوْحَةٍ   وما يلقَ من صخرَةٍ يحمل
كأنَّ بأَحْشَائِه إذ بَدا   أَجنَّةَ حُبْلَى ولم تحبل(١)
فمِنْ عامرٍ ردَّهُ غامراً(٢)   ومن معْلَمَ عادَ كالمَجْهَل
كَفانا بليَّتَه ربُّنا   فقد وجب الشُكْرُ للمُفضِلِ
فقل للسماء ارعُدى وابْرُقى   فإنّا رجعنا إلى المنزلِ

أخذ المطوعى قوله : « فلمـا سلَّ سيف الصبح من غمد الظلام » من قول أبى الفتح البستى :

رُبَّ ليـلٍ أغمد الأنوار إلّا   نورَ ثَغْرٍ أو مدام أَو ندام
قد نعمنا بدَيَاجيه إلى أن   سُلّ سيفُ الصبحِ من غِمْد الظلام

[وقال بعض أهل العصر ، وهو أبو العباس الناشئ](٣) :

خليلىّ هل للمُزنِ مُقْلةُ عاشقٍ   أم النار فى أحشائِها وهى لا تَدْرى
أشارتْ إلى أرض العراقِ فأصبحتْ   وكاللؤلؤ المنثورِ أدْمُعها تجْرِى
سحاب حكتْ ثَكْلَى أُصيبَتْ بواحدٍ   فعاجَتْ له نحوَ الرياضِ على قَبْرِ
تَسَرْبل وشْياً من حُزونٍ تطرَّزَتْ   مَطارِفُها طرزاً من البَرْق كالتِّبرِ
فوَشْىٌ بلا رقمٍ ورقمٌ بلا يَدٍ   ودمْعٌ بلا عَيْن وضِحكٌ بلا ثَغْرِ

---

(١) فى س : تحمل .   (٢) غامر : خراب .   (٣) ساقط من ط .

وقال آخر :

أرِقْتُ لبَرْقٍ شديد الوَميض ... تَرَامَى غواربه بالشُّهب

كأنَّ تألّقه فى السماء ... سطورٌ كُتِبْنَ بماء الذهب

وقال ابن المعتز[١] :

كأن الرَّباب الجون دون سَحابهِ[٢] ... خليع من الفِتْيان يسحبُ مِئْزَرا

إذا لحقته خيفة من رعودهِ[٣] ... تلفَّتَ واستلَّ الحُسام المُذَكَّرا

وقد قال حسان بن ثابت :

كأن الرَّباب دُوَيْن السَّحاب ... نَعامٌ تعلّق بالأرجل

وقال ابن المعتز[٤] :

باكية يضحكُ فيها بَرْقُها ... موصلة[٥] بالأرض مُرْخاةَ الطُّنُبْ

رأيت فيها برقها منذ بدا ... كمثل طرفِ العين أو قلبٍ يَجب[٦]

جرت بها ريحُ الصَّبا حتى بدا ... منها لى البرق كأمْثَالِ الشُّهب

تحسبه طوراً إذا ما انصدعَتْ ... أحشاؤُها عنه شُجاعاً يضطرب[٧]

وتارةً تحسبه[٨] كأنَّهُ ... أبلق مَالَ جَلُّه حين وَثَب[٩]

وتارةً تحسبه[١٠] كأنَّهُ ... سلاسل مَفصولة[١١] من الذهب[١٢]

---

(١) ديوانه : ١ — ٣٢ . (٢) الرباب : السحاب . والجون : الأسود والأبيض ، وفى ق : سحامه . والسحام : السواد ، وفى س : سحابة. (٣) فى الديوان : روعة من ورائه .

(٤) ديوانه : ١ — ١٢. (٥) فى الديوان : موصولة . (٦) فى الديوان : لما وثب. ويجب : يضطرب ، وفى س: مذ بدت . (٧) رواية البيت فى الديوان :

إذا تعرى البرق فيها خلته ... بطن شجاع فى كثيب يضطرب

(٨) فى الديوان : تبصره . (٩) البلق : سواد وبياض ، وارتفاع التحجيل إلى الفخذين . والجل : ما تلبسه الدابة لتصان به . (١٠) فى الديوان : تخاله إذا بدا .

(١١) فى الديوان ، س : مصقولة . (١٢) رواية هذا البيت فى س :

حتى إذا مارفع الآل الضحى ... حسبته سلاسلا من الذهب

وقال الطائى [1] :

يا سهمُ [2] للبَرْقِ الذى استطارا صار على رغم الدُّجى نَهَارا
آضَ لنا ماء وكان نارا [3]

وينشد أصحاب المعانى :

نارٌ تجدد للعينين نضرتها والنار تلفح عيدانا فتحترق

وقال ابنُ المعتز يَمدح الشُّرْب فى الصَّحْوِ ويذمّه فى المطر :

أنا لا أشتهى سماءً كبطن الْ عَيْرِ والشرب تحتها فى خرابِ
بين سَقْفٍ قد صار مُنخلَ ماءٍ وجدارٍ ملقًى وتَلٍّ تُرابِ
وبيوت يوقِّع الوَكْف فيها نَّ وإيقاعُهُ بغَيْرِ صوابِ
إنما أشتهى الصَّبوحَ على وَجْ هِ سماء مَصقولة الجِلْبَابِ
ونَسيم منَ الصَّبا يتمشّى فوق روْض نَدٍ جديدِ الشَّبابِ
وكأنّ الشمس المضيئة دِينا رٌ جَلَتْه حدائدُ الضّراب
فى غداة وكأسها مثلُ شمسٍ طَلَعَتْ فى مُلاءَة من شَرَابِ
أو عروس قد ضُمِّخت بخَلُوقٍ فهى صفراء فى قميص حَباب
وغناء لا عُذْر للعودِ فيهِ بتَنَدِّى الأَوْتَارِ والمضراب
وبراة البساط من وَضَرِ الطِّي نِ ومَسْحِ الأقدام فى كلِّ بَابِ
ونشاط الغلمان إن عرضَتْ حا جاتنا فى مجيئهم والذّهَابِ
وجفاف الريحان والنَّرجس الغ ضّ بأَيدى الخلان والأصحَابِ
لا تندّى أنوفُهم كلما حَيَّوْا بضغث ندى أُنُوف الكلاب
ذاكَ يومٌ أراه غنما وحظًّا من عَطاء المُهَيْمِنِ الوَهَّابِ

(١) ديوانه : ٤١٨ .
(٢) فى ق : بأسهم البرق ، وفى س : ياسهم البرق .
(٣) آض : رجع وصار .

وقال الصنوبرى :

أنيس ظباءٍ بوحش الظبا وصبغ حَياً مثل صبغ الحيا
ويوم تكلّله الشمس من صَفاء الهوى وصفاء الهوا
بشَمْسِ الدِّنان وشمسِ القِيانِ وشمسِ الجنَانِ وشمسِ السَّما

وشبيه بالأبيات التى كتبها ثَعْلب إلى أبى العباس بن المعتز لجميل[1] قول الآخر :

وما وَجْد مِلْوَاح من الهيم خُلِّيت عن الورد حتى جَوفها يتصَلْصَلُ[2]
تَحُوم وتَغْشاها المصىُّ وحَوْلها أقاطيع أنْعَامٍ تعلُّ وتَنْهلُ
بأكثر مِنِّى لوعةً وصبابةً إلى الوِرْد إلّا أنَّنى أتجمَّلُ

وقال أبو حيّة النميرى :

كفى حَزَناً أنِّى أرَى الماءَ معْرَضا لعينى ولكِنْ لا سبيلَ إلى الوِرْدِ
وما كنت أَخْشَى أن تكون منيتى بكفّ أعزّ الناسِ كلهم عِنْدى

[وصف أخ لابن المقفع]

قال ابنُ المقفَّع : كان لى أَخٌ أعظم الناس فى عينى ، وكان رَأس ماعظَّمه فى عينى صِغَر الدنيا فى عينه ، وكان خارجاً من سلطان بَطْنِه ، فلا يشتهى مالا يجد ، ولا يُكْثِر إذا وجد ، وكان خارجاً من سُلْطانِ فَرْجه ، فلا تدعوه إليه مؤنة[3] ، ولا يستخف له رأيا ولا بدنا . وكان لا يتأثر عند نِعْمَةٍ ، ولا يستكينُ عند مصيبة . وكان خارجاً من سُلْطانِ لسانه ، فلا يتكلَّمُ بما لا يعلم ، ولا يُمارِى فيما علم ، وكان خارجاً من سُلْطانِ الجهالة ، فلا يتقدَّم أبدا إلا على ثقة بمنفعة[4] ، وكان أكثر دَهره صامتا ، فإذا قالَ بَزَّ القائلين[5] ، وكان ضعيفا مستَضْعَفا ، فإذا جدَّ الجدّ فهو اللَّيْثُ

(١) هكذا بكل الأصول . (٢) الملواح : العطشان . والهيم جمع هيماء : وهى التى تهيم فى الأرض . ويتصلصل : يصوت . (٣) فى س : فلا يدعو إليه مؤنة . (٤) فى ط : بنفسه .
(٥) بز : غلب ، بالذال والزاى .

عاديا . وكان لا يدخل فى دَعْوَى ، ولا يُشارِكُ فى مِرَاء ، ولا يُدْلى بحُجَّةٍ حتى يرَى قاضيا فَهِما وشهودا عُدُولا . وكان لا يلومُ أحداً فيما يكونُ العُذْرُ فى مثله حتى يعلمَ ما عُذْرُه .

وكان لا يَشْكُو وجعه إلّا عند مَنْ يرجو عنده البُرْءَ ، ولا يستشيرُ صاحبا إلا أنْ يرجوَ منه النصيحة . وكان لا يتبرّم ولا يتسخَّط ، ولا يتشكّى ولا يتشهّى ، ولا ينتقم من العدوّ ، ولا يَغْفُل عن الولىّ ، ولا يَخُصُّ نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقُوتِه . فعليك بهذه الأخلاق إنْ أطقتها ، ولَنْ تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

وعلى ذكر قوله : «وإن قال بَزَّ القائلين» . قال ابن كناسة ، واسمه محمدبن عبدالله ، ويكنى أبا يحيى ، فى إبراهيم بن أدهم الزاهد :

رأيْتُك لا ترْضَى بما دونه الرضا ... وقد كان يرْضَى دون ذاكَ ابنُ أدْهما
وكان يَرى الدُّنيا صغيراً عَظيمُها ... وكان لِأمْرِ اللهِ فيها مُعَظِّمَا
وأكْثرُ ما تلْقَاهُ فى النـاس صامِتا ... وإنْ قال بَزَّ القائلين فأفْحَمَا
يُشِيعُ الغِنَى فى الناسِ إن مسَّهُ الغِنَى ... وتلق به البأساءَ عيسى بن مريما
أهَانَ الهوى حتى تجنَّبه الهوى ... كما اجتنب الجانِى الدم الطالبَ الدَّما

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر التقى والزهد

فلان عَذْب المَشْرب ، عَفّ المَطْلَب ، نَقِىّ الساحة من المآثم ، بَرِىء الذمة من الجرائم ، إذا رضى لم يَقُلْ غيرَ الصدق ، وإذا سخِط لم يتجاوَزْ جانِبَ الحق ، يرجعُ إلى نفسٍ أمَّارة بالخير ، بعيدةٍ من الشر ، مدلولةٍ على سبيل البِرّ ؛ أعْرَض عن زِبْرِجِ (١) الدنيا وخُدَعها ، وأقبل على اكتساب نِعَم الآخرة ومُتَعِها. كَفَّ كَفَّه

(١) أصل الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر والذهب .

عن زُخْرف الدنيا ونَضْرَتها ، وغضَّ طَرْفَه عن متاعها وزَهْرتها ؛ وأعرض عنها وقد تعرَّضَت له بزينتها ، وصدَّ عنها وقد تصدَّت له فى حِلْيتها .

فلانٌ ليس ممن يَقِف فى ظِلّ الطمع ، فيُسِفُّ إلى حَضيض الطبَع [١] ، نَقِىّ الصحيفة، عَلِىٌّ [٢] عن الفضيحة ، عَفّ الإزار ، طاهرٌ من الأَوْزار ، قد عاد لإصلاح المعاد ، وإعداد الزاد .

* * *

ابن المقفع وكان ابنُ المقفع من أَشراف فارس ، وهو من حكماء زمانه، وله مصنّفات كثيرة، ورسائلُ مختارة ؛ وكان مُحْجِماً عن قول الشعر، وقيل له : لم لا تقولُ الشعر؟ فقال : الذى أَرضاه لا يَجيئنى والذى يجىء لا أَرْضاه .

أخذ هذا بعضهم فقال :

أبَى الشعرُ إلاّ أنْ يَفِىءَ رَدِيُّهُ إلىَّ ويَأْبَى منه ما كانَ مُحْكَما
فياليتنى إِذْ لم أجِدْ حَوْكَ وَشْيِهِ ولم أَكُ من فُرْسانه كنت مُفْحَما

وكان ظريفا [٣] فى دينه ، وذكر أنه مرّ ببيت النار فقال :

يا بيتَ عاتكةَ الّذى أَتعزَّلُ حَذَرَ العِدَا وَبه الفؤادُ مُوَكَّلُ
أصبحت أمنحك الصدودَ وإننى قَسَما إليك مع الصدود لَأَمْيَلُ

البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقْلح [٤] الأنصارى أخى بنى عمرو بن عوف. وعاصم بن ثابت حَمِىّ الدَّبْر [٥] قتله بنو لحيان من هُذيل يوم الرَّجيع فأرادوا أن يَبْعَثُوا برَأْسِه إلى مكة . وكانت سلافة بنتُ سعد نذرت لَتَشْرَبَنَّ فى رأسه الخَمْر، وكان قتلَ بعضَ ولدها من طلحة بن أبى طلحة أحد بنى عبد الدار يوم أُحد ، فلما

(١) الطبع : العيب ، وفى ق ، س : حضيض التصنع . (٢) فى ط : علا .
(٣) فى س : ضنينا . (٤) الأفلح بالفاء فى س ، وهـذا عن اللآلى : ٧٣ ، والشعراء : ٤٩٩ . (٥) الدبر : النحل والزنابير .

رادوا أَخْذَ رأسه حمته الدَّبْر ــ وهى النحل ــ فلم يَجِدُوا إليه سبيلا ، وجعلوا يقولون : إنّ الدّبر لو قد أمسى صِرْنا إلى حَشْوِ استه ، فلما أمسوا بعثَ الله أتيًّا[1] واراه منهم . وعاتكة التى ذكر هى عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية .

[ألطف تعريض]

ولما دخلَ أبو جعفر المنصور المدينة قال للربيع : ابْغِنى رجلا عَاقلا عالما بالمدينة يَقِفنى على دُورِها؛ فقد بَعُدَ عَهْدِى بديار قومى؛ فالْتَمسَ لَه الربيع فتًى من أعقل الناس وأعلمهم ، فكان لا يبتدِئ بإخْبارٍ حتى يسأله المنصور فيجيبه بأَحْسَن عبارة ، وأجودِ بيان ، وأوفى معنى ، فأُعْجِب المنصور به وأمر له بمالٍ فتأخّر عنه ، ودعتهُ الضرورة إلى استنجازِه ، فاجتاز ببيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص : «يابيت عاتكة الذى أتعزّل » . . . البيت . ففكر المنصور فى قوله وقال : لم يُخَالف عادته بابتداء الإخبار دون الاسْتِخبار إلا لأمر . وأقبل يردّد القصيدة ويتصفحها[2] بيتا بيتا حتى انتهى إلى قوله فيها :

وأراكَ تَفْعَلُ ما تقولُ وبعضُهُم ... مَذِقُ اللسان يقولُ مالا يَفْعلُ[3]

فقال : يا ربيع ، هل أوصلت إلى الرجلِ ما أمَرْنَا له به ؟ فقال : أخَّرْتُه عنه لِعلّة ــ ذكرها الربيع ، فقال : عَجِّلْه له مضاعفا . وهذا ألطف تعريض من الرجل، وحُسْنُ فهم من المنصور .

[الحسد والحساد]

ومن كلام ابن المقفع : الحاسِدُ لايزالُ زارِياً على نعمة الله ولا يَجِدُ لها مَزَالاً[4]، ومكدِّرا على نفسه ما به من النعمة فلا يَجِدُ لها طَعْما ، ولا يزالُ ساخطا على مَن لا يترضَّاه، ومتسخِّطا لابن المقفع

---

(١) الأتى : السيل. (٢) فى ط : وينقضها (٣) مذق اللسان : يمزج الجد بالهزل .
(٤) زاله عن مكانه وأزاله .

لما [لا] (١) ينال ، فهو كَظُوم (٢) هَلُوع جَزُوع ، ظالم أشبه شئ بمظلوم ، محروم الطَّلِبَة (٣) ، منغَّص العيشة ، دائم التسخّط ، لا بما قُسِمَ له يَقْنَع ، ولا على مالم يُقْسَم له يغلب ، والمحسودُ يتقلّب فى فَضْلِ نعم الله مباشرا للسرور ، مُمْهَلًا فيه إلى مُدّةٍ لا يقدر الناسُ لها على قَطْعٍ ولا انتقاص ، ولو صبر الحاسدُ على ما به لكان خيراً له ؛ لأنه كلما أراد أنْ يُطفِئ نورَ الله أعْلاهُ ، ويأْبَى اللهُ إلاّ أنْ يتمَّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون .

لبعض الشعراء فى الحسد

قال الطائى (٤) :

لولا التَّخَوُّفُ للعواقِبِ لم تزَلْ ... لِلْحاسِدِ النُّعْمَى على المحسودِ

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاوَرَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

أخذه البحترى فقال (٥) :

ولَنْ تَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ ... إذَا أنْتَ لم تُدْلَلْ عليها بحَاسِدِ

ولقد أحسنَ القائل (٦) :

إنْ يحسدونى فإنى غيرُ لائِمِهِمْ ... قَبْلِى من الناس أهْلُ الفضلِ قد حُسِدُوا

فدام لى ولَهُمْ ما بى وما بِهِمُ ... ومات أكْثَرُنا غَيْظاً بما يَجِدُ

أنا الذى يَجِدُونى فى صدورِهِمُ ... لا أرْتَقِى (٧) صَدَراً عنها ولا أرِدُ

وقال ابن الرومى لصاعد بن مَخْلَد (٨) :

وضِدٍّ لكم لا زَال يَسْفُلُ جَدُّهُ ... ولا برحَتْ أنفاسه تتصعَّدُ

يرَى زِبْرِجَ الدنيا يُزَفُّ إليكم (٩) ... ويُغْضِى عن استحقاقكم فهو يُفْأَدُ (١٠)

(١) زيادة من ق ، س . (٢) فى ق : مكظوم . (٣) الطلبة : ما طلبته .
(٤) ديوانه : ٨٥ ، المختار من شعر بشار : ٦٩ ، النويرى : ٣ — ٩٦ ، ٢٨٨ .
(٥) ديوانه : ١٣٦ ، المختار من شعر بشار : ٧٠ . (٦) المختار من شعر بشار : ٦٧ ، القالى : ٢ — ١٩٨ ، النويرى : ٣ — ٢٨٧ . (٧) فى س ، ق : لا أتقى . (٨) المختار من شعر بشار ٧٠ . (٩) فى الديوان ، س : يرف عليكم . (١٠) فأده : أصاب فؤاده .

ولو قاس باستحقاقكم[١] مامُنِحْتُمُ ... لأطْفَأَ نَاراً فى الحَشَا تَتَوَقَّدُ[٢]
وآنَقُ من عِقد العقيلةِ جِيدُها ... وأحسن من سِربالها المتجرِّدُ

وقال معن بن زائدة[٣] :

إنى حُسِدت فزادَ الله فى حَسَدِى ... لا عاشَ مَنْ عاش يوماً غيرَ محسودِ
ما يُحْسَدُ المرء إلاّ مِنْ فضائله ... بالعلم والظَّرْفِ أو بالبَأْسِ والجُودِ

ألفاظ لأهل العصر فى ذكر الحسد

دبَّتْ عقاربُ الحسَدَة ، وكمنت أفاعِيهم بكلِّ مَرْصَدٍ[٤] . فلان مَعْجُون من طِينَةِ الحسد والمُنَافَسة ، مضروبٌ فى قالب الضِّيق والمناقشة . قد وكلَ بى لَحْظاً يَنتضِلُ بأسْهُمِ الحسد . فلان جَسَدٌ كلُّه حسد ، وعقد كلُّه حِقْد . الحاسدُ أعمَى عن محاسن الصُّبح ، بعين تُدْرِكُ حقائقَ القُبْحِ .

[فضل الملوك والوزراء]

تعريض فى حاجة إلى الواثق

كتب محمد بن حماد يُعرِّض فى حاجةٍ له ببيتى شعر إلى الواثق يقول :

جذبت دَواعى النفسِ عن طلبِ المُنَى ... وقلت لها كُفِّى عن الطَّلَبِ المزْرِى
فإنَّ أَميرَ المؤمنين بكفِّهِ ... مَدارُ رحًى بالرزق دائبة تَجْرِى

فوقَّع تحتهما : جَذْبُك نفسَك عن امتهانها بالمسألةِ دعانى إلى صَوْنِك بسعة فضلى عليك ، فخُذْ ما طلَبْتَ هنيئاً .

على باب الحسن بن سهل

قال على بن عبيدة : أتيت الحسن بن سهل بفم الصلح ؛ فأقَمْتُ ببابه ثلاثةَ أشهر لا أحْظَى منه بطائل ، فكتبت إليه :

مدحت ابنَ سهل ذا الأيادى وما لهُ ... بذاك يدٌ عندى ولا قدَم بَعْدُ

---

(١) فى المختار ، س : باستيجابكم . (٢) فى المختار ، س : فى حشاه توقد .
(٣) المختار من شعر بشار : ٦٦ . (٤) فى س ، ق : مرصدة .

وما ذَنْبُه ، والناس ـ إلا أقلّهم ـ عيالٌ له إن كان لم يَكُ لى جَدُ
سأحمده للنـــاس حتى إذا بَدَا له فىَّ رَأْىٌ عادَ لى ذلك الحمـد

فـكتب إلىّ : باب السلطان يَحْتاجُ إلى ثلاث خِـلال : عقل وصَبْرٌ ومال ؛ فقلت للواسطة : تؤدّى عنى ؟ قال : نعم . قلت : تقول له : لو كان لى مال لأغنانى عن الطلب إليك ، أو صبْرٌ لصبرت عن الذّلّ ببابك ، أو عَقْل لاستدللت به على النزاهة عن رِفْدك ! فأمر لى بثلاثين أَلْف درهم .

* * *

من كلام على ابن عبيدة فى الشوق

وقال على بن عبيـدة الريحانى يوما ، وقد رأى جارية يَهْواها : لولا البُقيا على الضمائر لَبُحْنا بما تُجِنّه السرائر ، لـكن نِيرَان الحُبّ تُتَدَارك بالإخفاء ، ولا تُعاجَل بالإبداء ؛ فإن دوامَها مع إغلاق أبواب الـكِتْمان ، وزوالَها فى فَتْح مصارِع الإعلان. وقد قال محمد بن يزيد الأموى :

لا وحبِّيك لا أُصا فِح بالدَّمع مدمعا
من بكى حبَّه اسْتَرَا ح وإن كان مُوجَعا

ومن[1] كلام علىّ بن عبيدة : اجعَل أُنْسَك آخرَ ما تَبْذُل من وُدِّك ، وصُن الاسترسال منك ، حتى تجدَ له مستحقّا ؛ فإن الأُنس لِباسُ العِرض ، وتُحْفَة الثّقة، وحِبَاء الأكفاء ، وشِعار الخاصّة ، فلا تُخلق جِدّته إلا لمن يعرف قدْرَ ما بذلتَ له منك .

وقال : لولا حركاتٌ من الابتهاج أَجِد حِسَّها عند رؤيتك فى نفسى لا أَعْرِفُ لها مُثيراً من مظانّها إلّا مُؤَانَستك لى ، أبقَيْت عليك من العناء ، وخفّفت عنك مؤونة اللقاء ؛ لـكنى أَجد من الزيادة بك عنـدى أكْثر من قَدْرِ راحتك فى تأَخُّرك عنى ، فأَضيق عن احْتِمال الخسران بالوَحدة منك .

---

(١) فى ط : ومن .

وقال : لِوجلى من طُلوعِ الملالة بكَرّ اللِّقاء أستخِفُّ التَّجافى مع شدَّةِ الشوقِ ، تبْقَى جِدَّة الحالِ عنـد من أُحِبُّ دوامَه لى ؛ وردُّ طَرْفِ الشوق باطننا أيْسَر من مُعاناةِ الجفاء مع الودّ ظاهراً .

في الشوق لبعض الشعراء

وقال بعض المحدَثين(١) :

كم استراحَ إلى صبر فلم يُرَحِ ... صَبٌّ إليكم من الأشواق فى ترَحِ(٢)

تركتم قَلْبَه من حُزْنِ فُرْقَتِـكم ... لو يُرْزَق(٣) الوصل لم يَقْدر على الفرَحِ

وقال أعرابى :

ألا قُلْ لدارٍ بيْنَ أكْثِبَةِ الحِمَى ... وذاتِ الغَضَى : جادتْ عليك الهواضبُ(٤)

أجِدّك لا آتيك(٥) إلّا تتابعتْ ... دموعٌ ، أضاعت ما حفظتُ ، سَواكِبُ

دِيارٌ تنسَّمْتُ المُنَى نَحْوَ أرْضِها ... وطاوعَنى فيهـا الهوَى والحبائبُ

ليالىَ لا الهجرانُ مُحْتَكِمٌ بها ... على وَصْلِ مَنْ أهْوَى ولا الظنّ كاذِب

[فى مجلس الحكم]

تنازع إبراهيم بن(٦) المهدى وابن بختيشوع الطبيب بين يدى أحمد بن أبى دواد فى مجلس الحـكم فى عقار بناحية السَّواد ، فأرْبَى عليه إبراهيم وأغْلَظَ له ، فأحفظ ذلك ابن أبى دُواد ، فقال : يا إبراهيم ، إذا نازعتَ فى مجلس الحـكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمنَّ أنك رفعْتَ عليـه صَوْتا ، ولا أشَرْتَ بيد ، وليكن قَصْدُك أَمَماً ، وريحُك ساكنة ، وكلامُك معتدِلا ، مع وفاءِ مجالس الخليفة حقوقَها من التَّعْظيم ، والتوقير ، والاستكانة ، والتوجّه إلى الواجب ؛ فإنّ ذلك أشْـكَلُ بك ، وأشْمَلُ لمذهبك فى مَحْتِدِك ، وعظيم خَطرك ، ولا تعجلنَّ ، فرُبَّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثا ، والله يعصمك

(١) المختار من شعر بشار : ٢٥٢ . (٢) فى ط : برح .
(٣) فى المختار : إن يرزق . (٤) الأكثبة جمع كثيب : وهو التل من الرمل . والغضى : شجر . والهواضب : السحب الماطرة . (٥) فى س : لا آتاك .
(٦) العقد الفريد : ١ ــ ٢٧ .

من خَطَلِ (١) القول والعمل ، ويتم نعمتَه عليك كما أتمَّها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : أَصْلَحَك اللهُ تعالى ؛ أَمَرْتَ بسداد ، وحضَضْتَ على رشاد ولسْتُ عائداً لما يَثْلِمُ مُرُوءتى عندك ، ويُسْقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنا معتذرٌ إليك من هذه البادرة اعتذارَ مُقِرٍّ بذنبه مُعْتَرِفٍ بجُرْمِه ، ولا يزال الغضبُ يستفزُّنى بمواده ، فيردّنى مثلُك بحلمه ، وتلك عادةُ الله عندك وعندنا منك ؛ وقد جعلت حقّى من هذا العقار لابن بختيشوع ، فليتَ ذلك يكون وافيا بأَرْش (٢) الجناية عليه؛ ولم يتلف مال أفادَ موعظة؛ وحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيل

[مدح أردشير وحكمته]

لما استوثق أمْرُ أردشير بن بابك وجمع ملوكَ الطوائف ، وتمَّ له مُلْـكه ، جمع الناسَ فخطبهم خطبة حضّ فيها على الأُلفة والطاعة ، وحذَّرهم المعصيةَ ومفارقة الجماعة وصفّ الناسَ أربعةصفوف؛ فخرُّوا له سجّدا وتكلّم متكلِّمهم فقال : لازلت أيها الملك محبوًّا من الله تعالى بعزّ النصر ، ودَرَكِ الأَمل (٣) ، ودوام العافية ، وتمام النّعمة وحُسْن المزيد ، ولا زلت تتَابَعُ لديك المكرمات ، وتَشْفَع إليك الذّمامات ، حتى تبلغَ الغايةَ التى يُؤْمَنُ زوالُها ، وتصل إلى دار القرار التى أعدّها الله تعالى لنظرائك من أَهْل الزُّلْفَى عنده والمكانة منه ، ولا زال ملكك وسلطانك باقيْين بقاءَ الشمس والقمر ، زائدَيْن زيادَةَ النجوم والأَنْهار ، حتى تستوىَ أَقْطارُ الأرض كلُّهافى علوِّ قَدْرِك عليها ، ونفاذِ أَمْرِك فيها ، فقدأَشْرَقَ علينا (٤) من ضياء نورك ماعمَّنا عمومَ ضياء الصبح ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتَّصل بأَنْفُسِنا اتصالَ النسيم ؛ فأصبحت قد جمع اللهُ بك الأيدى بعد افتراقها ، وأَلَّفَ القلوبَ بعد توقُّد نيرانها ، ففضلك الذى لا يُدْرَكُ بوصف ، ولا يُحَدُّ بنَعْت .

---

(١) خطل : فساد . (٢) الأرش : الدية .

(٣) الدرك ـ بالتحريك : اللحاق . (٤) فى س : عليها .

فقال أردشير : طوبَى للممدوح إذا كان للمدح مستَحِقّا ، وللداعى إذا كان للإجابة أهلا .

وقيل لأردشير : أيُّها الملك الرفيع الذى حَلَبَ العصور ، وجرَّب الدُّهور ، أى الكنوزِ أَعْظَمُ قدراً ؟ قال : العلم الذى خفّ محمله ، فثقُلَتْ مفارقته ، وكَثُرَتْ مرافقته ، وخَفِى مكانه ، فأَمِنَ من السرق عليه ؛ فهو فى الملأ جَمَال ، وفى الوَحْدة أنيس ، يُرَأَّسُ به الخَسيس ، ولا يمكن حاسدَك عليه انتقاله عنك . قيل له : فالمال ؟ قال : ليس كذلك . مَحْمله ثقِيل ، والهمُّ به طَويل ؛ إن كنت فى مَلأ شغلك الفِكْرُ فيه ، وإنْ كنتَ فى خَلْوَة أتعبتك حراسَتُه .

أى الكنوز أعظم

[سير الملوك]

قال الجاحظ : حدثنى الفضل بن سهل قال : كانت رسلُ الملوك إذا جاءت بالهدايا يُجْمَلُ اختلافُهم إلىّ ، فتكون المؤامراتُ فيما معهم من ديوانى ، فكنت أسألُ رجلا رجلا منهم عن سِيَرِ ملوكهم ، وأخبار عظمائهم ، فسألتُ رسولَ ملك الروم عن سيرة ملكهم ، فقال : بَذَل عُرفه [١] ، وجرَّد سَيْفَه ، فاجتمعت عليه القلوبُ رغبةً ورهبة ، لا يُنظِر جُنْده ، ولا يُحْرِج رعيَّته ؛ سَهْلُ النَّوال ، حَزْن [٢] النكال ، الرجاء والخوفُ معقودان فى يده .

قلت : فكيف حُكْمُه ؟ فقال : يردُّ الظلم [٣] ، ويرْدَعُ الظالم ، ويُعْطِى كلَّ ذى حق حقّه ؛ فالرعية اثنان : رَاضٍ ومغتبط .

قلت : فكيف هَيْبَتُهم له ؟ قال : يُتصور فى القلوب ، فتُغْضِى له العيون .

قال : فنظر رسولُ ملك الحبشة إلى إصْغَائى إليه ، وإقبالى عليه ، فسأل الترجمان : ما الذى يقوله الرومىّ ؟ قال : يَذْكُرُ ملكهم ، ويَصِفُ سيرتَه ؛ فتكلّم مع الترجمان بشىء ، فقال لى الترجمان : إنه يقول : إنّ ملِكَهم ذو أناة عند القُدْرَة ، وذو حلم عند

---

(١) العرف : المعروف . (٢) أصل الحزن ما غلظ من الأرض . (٣) فى ط : المظالم .

الغضب ، وذو سَطْوَةٍ عند المغالبة ، وذو عقوبةٍ عند الاجْتِرام [(١)] ، قد كسا رعيّته جميلَ نِعْمَتِه، وخوّفهم عَسْفَ نِقْمَتِه ؛ فهم يتراءونه رَأْيَ الهلال خيالا ، ويخافونه مخافةَ الموتِ نكالا، وَسِعَهم عَدْلُه ورَدَعَتْهُم سَطْوَته ، فلا تَمْتَهِنه مَزْحَة ، ولا تؤمّنه غَفْلة ؛ إذا أعطى أَوْسَع ، وإذا عاقب أَوْجَع ؛ فالناسُ اثنان : راج وخائف ، فلا الراجي خَائِب الأمل ، ولا الخائف بعيد الأجل . قلت : فكيف هيبتهُم له ؟ قال : لاترْفَعُ إليه العيونُ أَجْفَانَها، ولا تُتْبِعُه الأبصارُ إنْسَانَها ، كأنّ رعيتَه قَطًا رفرفت عليها صقورٌ صوائد .

فحدّثْتُ المأمون بهذين الحديثين فقال: كم قيمتُهما عندك ؟ قلت : ألفا درهم . قال : يافضل؛ إن قيمتهما عندي أَكْثَرُ من الخلافة ، أما عرفت قول عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه : قيمةُ كلّ امرئ ما يحسن . أفتعرِفُ أحداً من الخطباء البُلغاء يُحْسِنُ أن يصِفَ أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بهذه الصِّفَة ؟ قلت : لا . قال : فقد أَمَرْتُ لهما بعشرين ألف دينار ، واجعل العُذْر مادة بيني وبينهما في الجائزة [على المعوز] [(٢)] ؛ فلولاحقوقُ الإسلام وأَهْله لرأَيْتُ إعطاءَهما مافي بيتِ مال الخاصة والعامة دونَ ما يستحقّانِه .

وقال الجاحظ : حدّثني حميد بن عطاء قال : كنتُ عند الفَضْلِ بن سهل ، وعنده رسولُ ملك الخزَرِ ، وهو يحدّثنا عن أُخْتٍ لملكهم ، قال : أصابتنا سَنَةٌ احتدم شُوَاظُها علينا بحرِّ المصائب ، وصنوفِ الآفات ؛ ففزِع الناسُ إلى الملك ، فلم يَدْرِ ما يُجيبهُم به ، فقالت أخته : أيها الملك ؛ إن الخوفَ لله [(٣)] خُلُق لا يَخْلُق جديدُه، وسببٌ لا يمتهن عزيزه ، وهو دالّ المَلِكِ على استصلاح رَعِيّته ، وزاجرُه عن استفسادها ، وقد فَزِعَتْ إليك رعيّتُك بفضلِ العَجْزِ عن الالتجاء إلى مَن لا تَزيده

(١) ارتكاب الذنب . (٢) ساقط من ط .

(٣) في ط : خوف الله .

الإساءةُ إلى خلقه عِزّا ، ولا يُنقِصه العودُ بالإحسانِ إليهم مُلكا ، وما أحدٌ أَوْلى[1] بحفظ الوصية من الموصِّى ، ولا بركوب الدلالة من الدّال ، ولا بحُسْن الرعاية من الرّاعى . ولم تزل فى نعمة لم تغيرها نِقْمَة ، وفى رِضاً لم يكدّره سُخْط ، إلى أن جرَى القَدَر بما عَمِىَ عنه البَصر ، وذهل عنه الحَذَر ، فسلب الموهوب ، والواهب هو السالب ؛ فعُدْ إليه بشُكْرِ النعم ، وعُذْ به من فظيع النِّقَم ، فمتى تَنْسَه يَنْسَك ، ولا تجعلنّ الحياءَ من التذلّل للمعزّ المذِل سترا بينك وبين رعيتك ، فتستحقّ مذمومَ العاقبة ؛ ولكن مُرْهُم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكُنْهِ القُدْرة ، وبتذلّل الألْسُن فى الدعاء بمَحْضِ الشُّكْرِ له ؛ فإن المالك ربما عاقبَ عَبْدَه ليرجعه عن سَيِّئِ فِعْلٍ إلى صالح عمل ، أو ليَبْعَثه على دائب شُكْرٍ ليحرز به فَضْلَ أجْر .

فأمَرها الملك أن تقومَ فيهم فتنذرهم بهذا الكلام ففعلت ؛ فرجع القومُ وقد علِمَ الله منهم قبولَ الوَعْظِ فى الأمر والنهى ؛ فحال عليهم الحَوْل وما منهم مفتقدُ نِعْمةٍ كان سُلِبها ، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصّنع ؛ فاعترف لها الملك بالفَضْل فقلَّدها المُلْك ؛ فاجتمعت الرعيةُ لها على الطاعة فى المكروه والمحبوب . قال : وهذا وهُمْ أعداء الله تعالى ، وضرائر[2] نِعمته ، ومستوجبو نِقْمَتِه ، أعاد لهم بالشكر ما أرادوا ، وأعطاهم بالإقرار له بكُنْه قدرته ما تمنَّوا ، فكيف بمن يَجْمَعُه على الشكر نوران اثنان : قرآن منزل ونبىّ مرسل ، لو صدقت النيّاتُ ، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات ؛ لكنهم أنكروا ما عرفوا ، وجهلوا ما علموا ، فانقلبَ جدّهم هَزْلا ، وسكوتهم خَبْلا[3] .

---

(١) فى ط : أحق . (٢) الضرتان : الزوجتان ، وكل منهما ضرة للأخرى ، وهن ضرائر .
(٣) الخبل : الفساد فى الأعضاء . أو هو الخبل ــ بالفتح ــ الجنون .

قطعة صادرة من أقوال الملوك دالة على فضل كرمهم وبعد هممهم

غَضِب كسرى أنوشروان على بعض مَرَازِبته[١]، فقال: يُحَطُّ عَنْ مرتبته، ولا يُنْقَصُ من صِلَته؛ فإنّ الملوكَ تؤدِّب بالهجران، ولا تعاقِب بالحِرْمَانِ.

واصطنع أنوشروان رجلا فقيل له: إنه لا قديمَ له. قال: اصطناعُنا إياه شرَّفه.

قال معاوية رضى الله عنه: نحن الزمان من رَفَعْنَاه ارتفع، ومن وضعناه اتّضع. وكان يقول: إنى لآنَفُ مِنْ أن يكونَ فى الأرض جَهْلٌ لا يسَعُهُ حِلْمِى، وذَنْبٌ لا يسَعُهُ عَفْوِى، وحاجة لا يَسَعُهَا جُودِى.

عبدُ الملك بن مروان — أَفْضَلُ الناسِ مَنْ تَوَاضَعَ عن رِفعَـةٍ، وعَفَا عن قُدْرَة؛ وأَنْصَفَ عن قُوَّة.

زياد — استشفعوا لِمَنْ وراءكم؛ فليس كلُّ أحدٍ يصِلُ إلى السلطان، ولا كلُّ من وصل إليه يَقْدِرُ على كلامه.

المهلب — عَجِبتُ لمن يَشْتَرِى المماليكَ بماله، كيف لايشترِى الأحرارَ بمعروفه! وقد روى هـذا لابن المبارك. وقال لبنيه: يا بَنِى؛ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم.

قال أبو تمام الطائى يَسْتَهْدِى فَرْوًا وعرَّض بقول المهلب[٢]:

فهل أنتَ مهديه بمثل شكيره ... من الشُّكْرِ يعلو مُصْعِدًا ويصوِّبُ[٣]

فأنتَ العليمُ الطبّ أى وصيةٍ ... بها كان أَوْصَى فى الثياب المهلَّبُ

يزيد بن المهلب — استَكْثِرُوا من الحمد فإنّ الذمَّ قلَّ من[٤] ينجو منه.

---

(١) المرزبة: رياسة الجيش، وهو مرزبانهم، وجمعه مرازبة. (٢) ديوانه ٥٥

(٣) شكير: شعر، ويعلو ويصوب: يرتفع وينخفض. (٤) فى س: ما.

السفاح ـ ما أقْبَح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالُون من أثرها .

المأمون ـ إنما تُطْلَبُ الدنيا لتُملك ، فإذا مُلِكت فلتوهب . وقال : إنما يتكثَّر بالذهب والفضة من يَقِلاَّن عنده .

الحسن بن سهل ـ الأطراف مَنَازِل الأشْرَاف ؛ يتناولون ما يريدون بالقُدْرَة ، ويتناولهم مَنْ يُرِيدهم بالحاجَةِ . وتعرّضَ له رجل فقال له : من أَنت ؟ قال : أَنا الذى أحسنتَ إلىّ يوم كذا وكذا . فقال : مرحبا بمن توسَّل إلينا بنا .

ولما أراد المعتصم أَنْ يشرّف أشناس (١) التركى بعقب فَتْح الخزمية أمر أصحابَ المراتب بالترجّل إليه ، فترجّل إليه الحسنُ بن سهل ، فنظر إليه حاجبُه يَمْشِى ويتعثّر فى مَشْيه فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ إن الملوكَ شرّفتنا وشرفت بنا .

ومن كلام أهل العصر

للأمير شمس المعالى قابوس بن وَشْمَكير ـ من أَقْعَدته نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام ؛ ومن ألبسه الليلُ ثوب ظلماته نزعَه النهار عنه بضِيَائه .

وله ـ ابتناء المناقب باحتمال المتاعب ، وإحرازُ الذّكر الجميل بالسَّعْى فى الخطب الجليل .

الصاحب بن عباد (٢) :

وقائلةٍ لِمْ عَرَتْكَ الهمومُ ... وأَمْرُكَ مُمْتَثَلٌ فى الأُمَم ؟
فقلت : ذَرِينى لما اشتكى (٣) ... فإنّ الهمومَ بِقدْرِ الهِمَمْ

أبو الطيب المتنبى (٤) :

أفاضِلُ الناسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزمَنِ ... يَخْلُو من الهَمِّ أخْلاهُمْ منَ الْفِطَنِ

---

(١) فى س : استناس . (٢) اليتيمة : ٣ ـ ٢٤٩ .
(٣) فى اليتيمة : فقلت دعينى على غصتى . (٤) ديوانه : ٤ ـ ٢٠٩ .

أبو الفتح البستى :

صاحِبُ السلطانِ لابُدَّ لهُ مِن هُمُومٍ تَعتَرِيهِ وغُمَمْ
والّذِي يَرْكَبُ بحْرا سَيَرى قُحَمَ الأَهْوَالِ من بَعْدِ قُحَمْ (١)

ومن كلام الملوك الجارى مجرى الأمثال (٢)

اردشير ـ إذا رغبت الملوكُ عن العَدْلِ رغبت الرعيَّةُ عن الطاعة .

افريدون ـ الأَيام صحائفُ آجالِكم ، فخلِّدُوها أحْسَنَ أعمالِكم .

وقيلَ للأسكندر : ما بالُ تعظيمك لمؤدِّبك (٣) أكثر من تعظيمك لأبيك ؟ قال : لأنّ أبى سبَبُ حياتى الفانية ومؤدِّبى (٣) سببُ حياتى الباقية .

ودخل محمد بن زياد مؤدّب الواثق على الواثق فأظهر إكرامَه، وأكثر إعظامَه، فقيل له : مَنْ هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا أولُ من فَتق لسانِى بذِكْرِ اللهِ وأَدْنانى من رحمة الله .

وأُشِير على الإسكندر بتَبْييت الفرس (٤) ، فقال : لا أجعل غَلبتى سَرِقة . وقيل له : لو تزوَّجت بنت دارا ؟ فقال : لا تغلبنى امرأة غَلَبت أباها .

أنوشروان ـ الملك إذا كثر مالُه مما يأخذ من رعيّته كان كمن يعمر سَطْحَ بيته بما يَقْتَلِعه من قواعد بُنْيَانه .

ابرويز ـ أَطِعْ مَنْ [فوقك يطعك مَن](٢) دونك .

السفاح ـ إن من أدْنَى الناس ووضعائهم من عدَّ البخل حَزْماً ، والعفو ذُلاًّ . وكان يقول : إذا كان الحلم مفسدة كان العفوُ معجزة ، والصبرُ حَسَن إلا على ما أوقع

---

(١) قحم : مصاعب . (٢) هذا العنوان ساقط من ط . (٣) فى س : لمعلمك ... ومعلمى .
(٤) بيت العدو : أوقع بهم ليلا .

بالدّين ، وأوْهَى السلطان ؛ والأناةُ محمودة إلا عنـــد إمكان الفرصة . وقد قال ابن المعتز :

كم فرصةٍ ذَهَبَتْ فعادَتْ غُصّةً تشجى بطُول تَلَهُّفٍ وتَنَدُّمِ

ولما عزم المنصور على الفَتْك بأبى مسلم فزِع من ذلك عيسى بن موسى فكتب إليه :

إذا كنت ذارَأْيٍ فكن ذا تَدَبُّرٍ فإنّ فسادَ الرَّأْى أَنْ تتعجَّلَا

فأجابه المنصور :

إذا كنتَ ذَا رَأْيٍ فكن ذَا عزيمةٍ فإنَّ فسادَ الرى أَن تتردَّدَا
ولا تُمْهِل الأعداء يوما بغُدْوَةٍ[1] وبادِرْهُمُ أن يملكوا مِثْلها غَدَا

وهذا فى موضعه كقول الإمام على كرّم الله وجهه : من فكَّر فى العواقبِ لم يشجُع .

وقال سعد بن ناشب فأفرط[2] :

عليكم بدارى فاهدموها فإنها تُراثُ كريمٍ لا يَخَافُ العواقبا
إذا همَّ أَلقى بين عينيه عَزْمَهُ ونـكَّبَ[3] عن ذِكْر العواقب جانبا
ولم يَسْتَشِر فى رَأْيه[4] غيرَ نفسِهِ ولم يرضَ إلا قائمَ السيفِ صاحبا
سأغسل عنى العارَ بالسيف جالباً علىَّ قضاءَ الله ما كانَ جَالِبا
ويصغر فى عينى تِلادِى إذا انثنت يمينى بإدْرَاكِ[5] الذى كُنْتُ طَالِبا

وكان سَعْدٌ من مَرَدَةِ العرب وشياطين الإنس، وفيه يقول الشاعر :

وكيف يُفيق الدهرَ سعدُ بن ناشب وشَيْطَانه عند الأَهِلَّةِ يُصرَعُ

---

(١) فى س : بقدرة . (٢) المختار من شعر بشار : ١٠١ ، القالى : ٢ — ١٧٥ ، الشعراء : ٤٣٨ ، اللآلىء : ٧٩٤ . (٣) فى س : وأعرض . (٤) فى س : أمره .
(٥) فى س : لإدراك .

كتب مروان بنُ محمدٍ الجعدى إلى عبد الله بن علىٍّ يسأَلُه حِفْظَ حرمه فقال له : الحقّ لنا فى دمك وعلينا فى حرمك .

وقال الرشيد لإسماعيل بن صبيح : إياك والدالّة[1] فإنها تفسد الحرمة ، ومنها أوتى البرامكة .

وقال المأمون: الملوكُ تَحْتَمِلُ كلَّ شيء إلاّ ثلاثا : إفْشَاء السر، والقدح فى الملك ، والتعرض للحُرَم .

المعتصم ـ إذا نُصِر الهوى بَطل الرَّأى .

المنتصر ـ لَذّةُ العَفْوِ أَطْيَبُ من لذّة التشفى ؛ وذلك أن لذةَ العَفْو يلحقها حَمْدُ العاقبة ، ولذّةُ التشفى يلحقها ذمُّ الندم .

* * *

قتل المتوكل

والمنتصر يقول عن تجربة ، لأنه قتل أباه المتوكل ، والأَمْرُ فى ذلك أَشهر من أن يُذكَرُ ولـكنى أُلْمِعُ منه باليسير :

كان المتوكِّلُ قد عَقَدَ لولدِه المنتصر والمعتزّ والمؤيّد ولايةَ العهد ، ثم تغيّر على المنتصر دون أَخَوَيْهِ ، وكان يسمّيه المنتظِر ، ويقول له : أنتَ تتمـنّى موتى ، وتنتظر وَقْـتِى ! ويأمرُ الندماء أن يعبثوا به إلى أن أوْغَر صَدْره ، وأَقلَّ صبره ؛ فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاثٍ خلَوْنَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكِّلُ يَشْرَبُ مع الفَتْحِ فى قصره المعروف بالجعفرى ، ومعه جماعةٌ من الندماء والمغنّين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرمت[2] ثلاث ساعات من الليل قال لزرافة التركى : الا تسَعُنِى ساعةً حتى أشكو إليك ما يمرُّ بى ؟ قال : بلى ، وجعل يماطله ويطاوله ، وغلّقَ بُغا[3] الشرابى الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوه ، فأوّل مَنْ ضربه باغر التركى ضربةً قطع بها حبل عاتقه ، وتلقّاه الفَتْح بنفسه فأَكبّ عليه،

---

(١) فى ق : والذلة . (٢) فى س ، ق : انصرف . (٣) فى س : بغاء الشرالى .

فقُتِلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته، وكانت مدّة المنتصر فى الخلافة مدة شيرويه ابن كسرى ـ حين قتل أباه ـ ستة أشهر .

رثاء الأسدى للمتوكل

وقال إبراهيم بن أحمد الأسدى يرثى المتوكّل :

هكذا فلتَكُنْ مَنايا الكِرام ِ بين ناىٍ ومِزْهَر [1] ومُدام ِ
بين كأسين أَرْوَتاه جميعاً كأس لذّاته وكأس الحِمام ِ
يقِظٌ فى السرور حتى أتاهُ ـ قَدَّرَ الله ـ حتفه فى المنام ِ
والمنايا مَراتب يتفاضَلْ نَ وبالْمُرْهَفات مَوْتُ الكرام
لم يزر نفسه رسولُ المنايا بصنوفِ الأَوْجاع والأسْقام
هابَه مُعْلِناً فدبَّ إليهِ فى سُتُور الدُّجى بحدِّ الحُسَام

أخذ هذا المعنى عبد الكريم بن إبراهيم التيمى ، فقال يرثى عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب ، وكان قد تناول دواءً فمات بسببه :

منايا سدَدْتَ الطُّرق عنها ولم تَدَع لهـا مِن ثَنَايَا شاهِقٍ مُتَطلَّعا
فلما رأت سُورَ المهابة دونهـا عليك ولما لم تَجِدْ فيك مَطْمَعا
ترقّت بأسبابٍ لِطَافٍ ولم تـكد تُواجِـه موفور الجَلالة أرْوَعا
فجاءتك فى سِرِّ الدواء خَفِيَّةً على حِينَ لم تَحْذَرْ لداء تَوَقُّعا
فلم أَرَ مالاً يُتَّقى مثـل سَهْمِها ولا مثلها لم تَخْشَ كيداً فترجعا

رثاء البحترى للمتوكل

وقد رثاه البحترى ويزيد المهلبى بمرثيتين من أَجْوَدِ ما قيل فى معناهما ، وكانا حاضِرَيْن ليلة قَتْلِه . فاختفى أحدُهما فى طىّ الباب ، والآخر فى قناة الشاذَرْوَان ؛ فمن قصيدة البحترى [2] :

تغيّر حُسْنُ الجَعْفَرِىّ وأُنْسُهُ وقُوِّض بادِى الجعفرىِّ وحاضِرُهْ
تحمَّل عنه ساكنوهُ فُجَاءَةً فآضت [3] سواءً دورُهُ ومقابرُهْ

---

(١) المزهر : العود الذى يضرب به . (٢) ديوانه : ١ ـ ٢١٥ .

(٣) فى الديوان : فعادت . وآضت : رجعت وصارت .

ولم أر مثل(١) القصرِ إذ ريعَ سِرْبُهُ ... وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذرُه
وإذ صِيحَ فيه بالرّحيل فهتّكت ... على عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وستائرُهْ
إذا نحن زُرْناه أَجدَّ لنا الأَسَى ... وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائرُه
فأين عميدُ الناسِ فى كل نَوْبَةٍ ... تنُوب وناهِى الدهر فيهم وآمرُهْ
تخفّى لهُ مُغْتَالُهُ تحتَ غِـرةٍ ... وأولى لمن يَغْتَالُه لو يُجاهِرُه
صريعٌ تقاضاه السيوف حُشاشةً ... يجودُ بها والموت حُمرٌ أظافِرُه
حرامٌ علىَّ الراح بعدك أو أرى ... دماً بدم يجرى على الأرض مائرُه(٢)
وهل يُرْتجَى أن يطلب الدم طالب(٣) ... مَدَى الدهر والموتورُ بالدم وَاتِرُه
فلا مُلِّى الباقى تُرَاثَ الذى مضى ... ولا حمّلت ذاك الدعاءَ مَنَابِره

وهى طويلةٌ ، وكان أبو العباس ثعلب يقول فيها : ما قيلت هاشمية أَحسن منها ، وقد صرّح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب .

ارتياح المتنبى إلى ذكر المتوكل والفتح

وقد كان البحترى يرتاح فى كثير من شعره إلى ذكره وذكر الفتح بن خاقان ، فمن ذلك قوله لبعض من يمدحه(٤) :

تداركَني الإحسانُ منكَ ونالنى(٥) ... على فاقةٍ ذاك النَّدى والتطوُّلُ
ودافعتَ عنى حين لا الفتح يُرتجى ... لدَفْعِ الأَذى عنى(٦) ولا المتوكّلُ

وقال(٧) :

مضى جعفرٌ والفَتْحُ بين مُوَسَّدٍ ... وبين قتيل(٨) فى الدماءِ مضرَّجِ
أَأَطْلُبُ أنْصاراً على الدهر بعدما ... ثوَى منهما فى الترب أَوسِى وخزْرَجى

---

(١) فى الديوان : ولم أنس وحش . (٢) فى ق : ماطره .
(٣) فى الديوان : واتر .. يد الدهر . (٤) ديوانه : ٢ — ٢٠٣ .
(٥) فى الديوان : ومسنى على حاجة ذاك الجدا . (٦) فى الديوان: يبتغى لدفع الذى أخشى.
(٧) ديوانه : ١ — ١٠٦ . (٨) فى الديوان : بين مرمل وبين صبيغ بالدماء .

وقال فى غلام له(١) :

عسى آيِسٌ من رَجْعَةِ الوصل(٢) يوصَلُ ... ودَهرٌ تَوَلَّى بالأحبَّـةِ يُقبلُ
أيا سكناً فات الفِراقَ بنفســهِ(٣) ... وحالَ التَّعادى دونه والتَّزَيُّـلُ
أتعجبُ لمَّا لم يغل(٤) جسمىَ الضَّنا ... ولم يخترم نفسى الحِمامُ المعجَّـلُ
فقبلك بانَ الفتح منى مودّعاً ... وفارقنى شفْعاً له المتوكّـل
فما بلغ الدّمع الذى كنت أرتجى ... ولا فعـل الوجدُ الذى خِلت يفعلُ
وما كلّ نيران الجوى تحرقُ الحشا ... وما كلّ أدواء الصَّبابة تقتــــل

رثاء المهلبى للمتوكل

وقال أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى فى قصيدة أولها(٥) :

لا وجد إلا أراه دون ما أجِدُ ... ولا كمن فقدَتْ عَيْناىَ مفتقَدُ

يقول فيها :

لا يبْعَدَن هالكٌ كانت مَنيَّتُهُ ... كما هوى من عضاهِ الزُّبية الأَسَدُ(٦)
جاءت منيّتُهُ والعينُ هادِيةٌ ... هلاَّ أتتـه المنايا والقنَا قُصُدُ(٧)
خرَّ فوق سريرِ الملك مُنْجدِلًا ... لم يحمه مُلْـكه لمّا انقَضَى الأَمَدُ
لا يدفع النـاس ضَيْماً بعد ليلتهم ... إذ لا يُهَزُّ إلى الجـانى عليك يَدُ
علتك أسيافُ مَنْ لا دونَه أحدٌ ... وليس فوقك إلا الواحدُ الصَّمَدُ
إذا بكيتُ فإن الدمعَ مُنْهَمِلٌ ... وإن رَثَيْتُ فإنَّ الشعرَ مُطَّرِدُ
إنَّا فَقَدْناك حتى لا اصطبارَ لنا ... ومات قَبْلك أقوامٌ(٧) فمـا فقدوا
قد كنتُ أُسْرِفُ فى مالى فتُخْلِفُهُ ... فعلّمَتْنى الليـــالى كيف أقتَصِدُ

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ١٩٨ . (٢) فى الديوان : من رجعة البين .
(٣) فى الديوان : بأنسه . (٤) فى الديوان : فلا تعجبن إن لم يغل .
(٥) العقد الفريد ٣ ـ ٢٨٨ ، الـكامل ٢ ـ ٣١١
(٦) العضاهة : أعظم الشجر ، والجمع عضاه ، وفى العقد : من غطاء . والزبية : الرابية لا يعلوها ماء ، وفى س: الربية. (٧) قصد : متكسرة . (٨) فى س : أملاك .

وقال فيها يذكر الأتراك ويحضّ على اصطناع العرب :

لمـا اعتقدتم أُناساً لا حِفاظَ لهم ضِعتُم وضيعتمُ مَنْ كان يُعتقدُ
ولو جعلتم على الأحرار نِعمتَكم حمتـكم الذّادة المنسوبة الحشُدُ
قومٌ همُ الأصْلُ والأسماء تجمعكم والدّينُ والمجدُ والأرْحامُ والبلدُ
إنَّ العبيدَ إذا أذللتهم صَلَحوا على الهوانِ وإن أكرمتهم فَسَدُوا

* * *

أبو حية يرثى

وقال أبو حيّة النميرى[1] :

رَمَتْهُ فتاةٌ[2] من ربيعة عامرٍ نَؤوم الضُّحى فى مَأْتمٍ أىّ مأتمِ
فقلن لها فى السرِّ نَفْديك لا يَرُح صحيحاً وإلّا تَقْتُليه[3] فألمِمى
فألْقَتْ قِناعاً دونه الشَّمْسُ واتَّقت بأحسن موصولَيْن كفٍّ ومِعْصَم
وقالت فلمّا أفْرَغَتْ فى فؤادهِ وعَيْنَيْه منها السِّحْرَ قالت له نَمِ[4]
فأصبح لا يَدْرِى أفى طلمة الضحى تروّح أم داجٍ من الليـل مُظْلِمِ

أخذ قوله : « فألقت قناعا دونه الشمس » من قول النابغة الذبيانى[5] :

قامت تَراءى بين سَجْفَىْ كِلّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسْعُدِ[6]
سقط النَّصيف[7] ولم تُرِد إسقاطَهُ فتناولَتْه واتّقَتْنا باليـدِ

وقال أبو حية يرثى سلمة بن عياش :

كأنَّ أبا حفْصٍ فتى البأْس لم يجبْ[8] به اللّيْـل والبيض القِلاصُ النّجائبُ
إلى الغايةِ القُصْوَى ولم تهد فتيةً كراما وتخطوه الخطوبُ النوائبُ
ويُعْمِل عتاقَ العيس حتى كأنها إذا وُضِعت عنها الولايا[9] المشاجب

---

(١) الحماسة : ٣ — ٣٠٨ . (٢) فى الحماسة ، س : أناة . (٣) فى س : فاقتليه .
(٤) فى الحماسة : قلن له قم . (٥) ديوانه : ٣٦ . (٦) السجف : الستر الرقيق .
الـكلة : غطاء يخاط كالبيت يتوقى به من البعوض . (٧) النصيف : الخمار .
(٨) فى س : لم يخب . (٩) الولايا ، جمع ولية : البرذعة ، وفى ط ، ق : العلايامشاجب .

بعيد مثانى الهمِّ يُمْسِى وما لهُ ... سوى الله والعضبِ السَّرِيجِىِّ[١] صاحِبُ
يَرُومُ جسيمات العُلا فينَالُها ... فتى فى جسيمات المكارِمِ راغِبُ
فإنْ يُمس وَحْشاً بابه فلرُبَّما ... تَوَاتَرُ أفواجاً إليه المواكب
يحيّون بسّاما كأن جبينه ... هِلالٌ بَدا وانجاب عنه السَّحائِبُ
وما غائب مَنْ غاب يُرْجَى إيابهُ ... ولكنه من ضُمِّنَ اللَّحْدَ غائِب

وزعم الصولى أن أبا حَيَّة إنما قالها فى محمد بن سليمان بن على بن عبيد الله ابن العباس.

وكان أبو حيّة جَيّد الطبع، مألوفَ الكلام، رقيق حواشى الشِّعر.

[الشباب]

وسُئِل الأصمعى عن قيس بن الملوح المجنون، فقال: لم يكن مجنونا، وإنما كانت به لُوثة كلوثة أَبى حية[٢]، وهو القائل[٣]:

رمتنى وسترُ الله بينى وبينها ... عشيةَ أحجار الكِناس رَميم[٤]
رميمُ التى قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكُمْ أَلاَّ يزال يَهيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمتنى رَمَيْتها ... ولكنَّ عهدى بالنصال[٥] قديم
فيا عجباً من قاتلٍ لى أودّهُ ... أشاط دمى شخصٌ علىَّ كريم[٦]
يرى الناسُ أنى قد سَلَوْتُ، وإننى ... لمدمن[٧] إحْناءَ الضلوع سَقيم

وأنشدنى[٨] إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى مثله ولم يسمّ قائله:

هل الأُدْم كالآرام والدهر كالدُّمَى ... معاودتى أيامهنّ الصَّوالِحُ
زمانَ سلاحى بينهن شبيبتى ... لها سائف[٩] من حسنهن ورامِحُ

(١) سريج: قين تنسب إليه السيوف السريجية. (٢) اللوثة، بالضم: مس الجنون.
(٣) الأمالى: ٢ — ٢٨٠، الحماسة: ٣ — ٢٦٩، وقد اختلف فى نسبة هذه الأبيات.
(٤) رميم: اسم امرأة كما استشهد به عليها فى اللسان — مادة — رمم. والكناس: موضع. معجم ما استعجم: ١١٣٥. وفى الحماسة: ونحن بأكناف الحجاز رميم.
(٥) فى ط والحماسة: بالنضال. (٦) أشاط: أحرق. (٧) فى ط: لمدنف.
(٨) فى س: وأنشد. (٩) ساف: ضرب بالسيف، وفى ط: سائق.

فأقسمْنَ لا يسقيننى قَطْرَ مُزْنَةٍ　　لشَيْبى ولو سالَتْ بهن الأباطِحُ

وقال هارون بن على بن يحيى المنجِّم :

الغانيـــات عهودُهـ　　نَّ إلى انصرام وانقضاب
مَنْ شابَ شِبْنَ له المو　　دّة بالخديعة والكِذابِ (١)
فانعم بهنَّ وزَنْدُ سِـ　　نّك فى الشَّبيبة غيرُ خابى
مادُمْتَ فى وَرَقِ الصِّبا　　وَغُصُونه الخُضْرِ الرِّطابِ
فافْخَرْ بأيّام الصبـا　　واخْلَعْ عِذارَكَ فى التَّصابى
واعْطِ (٢) الشبابَ نَصِيبهُ　　ما دُمْتَ تعـذر بالشَّبابِ

وقال أشجع بن عمرو السّلمى :

ومالىَ لا أُعْطِى الشبابَ نصيبهُ　　وغُصْناه يهتزّانِ فى عُودِهِ الرَّطْبِ
رأيْتُ الليالى يَنْتَهِبْنَ شبيبتى　　فأَمْرَعْتُ باللذات فى ذلك النَّهبِ
فإنّ بنات الدّهْرِ يَخْلِسْنَ لَذَّتى　　فقد جُزْنَ سَلْمِى وانْتَهَيْنَ إلى حَرْبى
وقدحوَّلَتْ حالِى الليالى وأسْرَجت　　على الرأس أمثال الفَتِيل من العُطْبِ (٣)
وموتُ الفتى خيرٌ له مِنْ حَياته　　إذا كان ذا حالَيْن يَصْبُو ولا يُصْبِى

وقال آخر :

ماالْعَيش إلا أنْ تُحِبّ　　وأن يحبّك مَنْ تُحِبّهْ

فِقَر تتصل بهذه الأبيات فى وصف الشباب

أطاع الشبابَ وغِرّته ، وأجاب الصبا وشِرّته . جرَّ إزار الصِّبا ، وأذال (٤) ذيُولَ الْهوى ، وركض فى مَيْدان التَّصابى ، وجَنَى ثمرات المَلاهى . هو فى اقتبال شَبابه ، وحَداثة أتْرابه، ورَيْعان عمره، وعُنْفُوان أمْره. هوفى إبَّان شبابِه واعْتِداله،

---

(١) شبن : مزجن ، الكذاب : الكذب .　　(٢) فى س : أعط .
(٣) العطب : القطن.　　(٤) أذال : أرسل .

وريعان إقباله واقتباله. بعثه على ذلك أشَرُ(١) الصبا، ولين الغُصْنِ، وشَرْخ الشبيبة وسكر الحداثة. فتىّ السّن، رَطيب الغُصْن، عمره فى إقْباله، ونشاطُه فى استقباله، وشبابُه فى اقتباله، وماؤُه بحاله. فلانٌ فى حكم الأطفالِ، الذين لم يَعضّوا على نَوَاجِذ الرجال. هو فى عُنْفُوان شبيبةٍ تُخاف سقطاتُها وهَفوَاتُها، ولا يُؤْمن جَيْحاتُها ونَزَواتُها. هوفى سُكْرَى الشباب والشراب، وبين نَزوات الشبان، ونَزَغَات الشيطان. شبابُه أعْمى عن الرشد، أصمُّ عن العَذْل، قد لبّى دَاعِىَ هَواه، وانْغمس فى لُجَّةِ صِبَاه. قد هَجَم بسُكْرِ الحداثةِ على سكرات الحوادث، يَجْرى إلى الصِّبا جَرْىَ الصَّبَا. فلان غُفْلٌ من سِمَةِ التَّجْرِبة، جَامِحٌ فى عِذار الغَفْلة، صَعْبُ الرأس على لِجام العِظَة. هو مِنْ سلطان الصّبا فى النَّوْبَة الأولى، قد خلع عِذاره ومِقْوَده، وألْقَى إلى البطالة باعَه ويَدَه. هو بين خُمار(٢) الغَدَاة وسكر العَشِى لا يعرف الصَّحو، ولا يفارق اللهو. فلان لا يفيق، ولا يذكر التوفيق، هو بين غرَرِ الشباب، وغُرر الأحباب.

ويتعلق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم فى نجابة الشباب وترشحهم للمعالى

قد جمع نَضارةَ الشباب إلى أُبّهة المشيب، وهو على حدوث ميلادِه وقُرْب(٣) إسناده شيخ قَدْرٍ وَهَيْبَة، وإن لم يكن شيخَ سنٍّ وشَيْبة. هو بين شباب مُقْتَبل، وعقل مكْتَمِل، قد لبس بُرْدَ شبابه على عَقْل كهل، ورَأْى جزل، ومَنْطق فصل. للدهر فيه مَقاصد، وللأيام فيه مَوَاعد، أرى له فى فَصل ضمانِ الأيام وَوَدائع الحظوظ والأقسام، تبَاشِيرَ نُجْح، ومَخَايِلَ نَصْرٍ وفتحٍ، قد استكمل قوّة الفَضْلِ، ولم يتكامَلْ له سِنُّ الكَهْل. مازالت مخايلُه وَليدا وناشئا، وشمائله صَغيراً ويافعا، نَوَاطِقَ بالحسن عنه وضَوَامِنَ النُّجْحِ فيه! قد سما إلى مراتبِ أعْيَان الرجال، التى لا تُدْرَك

---

(١) الأشر: المرح. (٢) الخمار: صداع الخمر وألمها، وما خالط من سكرها.

(٣) سند فى الجبل وأسند: صعد.

إلا مع الكمال والاكتهال . حُمِدَتْ عزائمهُ ، قبل أن حُلَّت تمائمه ، وشُهِدَتْ مكرماته ، قبل أن تَدِجّ لِدَاته (١).

وقال البحترى (٢) :

لا تنظرنَّ إلى العباس (٣) من صغر ... فى السّن وانظر إلى المجد الذى شَادَا

إنَّ النجومَ نجومَ الأفق (٤) أصغرها ... فى العين أذهبُها فى الجوّ إصْعَادَا

وقال آخر :

رأيت العقلَ لم يكن انتهاباً ... ولم يُقْسَم على قَدْرِ السنينا

فلو أنّ السنين تقسّمتهُ ... حَوَى الآباءُ أنصبةَ البنينا

وقال الفضل بن جعفر الكاتب :

فإن خلفته السنُّ فالعَقْلُ بالغٌ ... به رُتْبَةَ الكَهْلِ المؤهَّل للمَجْدِ

فقد كان يحيى أُوتِىَ الحُكْمْ قبله ... صَبِيًّا وعيسى كلَّم الناسَ فى المهدِ

[أثر الأيام والليالى]

وكان أبو حيّة كثير الرواية عن الفرزدق ، وعُمِّرَ حتى التقى بابن مناذر فاستنشده شعره ، فأنشده أبو حيّة (٥) :

ألاَ حىِّ من أجل الحبيب المَغَانيا ... لَبِسْنَ البلى مما لَبِسْنَ اللّياليا

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ ... تقاضاه شىءٌ لا يملُّ التّقَاضيا

حَنَتْكَ الليالى بعدما كنت مرةً ... سوِىَّ العصا لو كُنَّ يُبْقِينَ باقيا

فقال ابن مناذر : أوَ شعرٌ هذا ؟ فقال أبو حيّة : ما فى شعرى عيب ، غير أنك تسمعه .

---

(١) فى ق : تدرج لذاته . وتدج : تدب فى السير . (٢) ديوانه : ١ — ٢٠٣ .

(٣) فى الديوان : إلى الفياض . (٤) فى الديوان : نجوم الليل .

(٥) الأمالى : ٢ — ١٨٥ ، اللآلىء : ٨٠٢ .

وفى هذه القصيدة يقول أبو حية :

ولما أبَتْ إلا التواءً بِوُدِّها ... وتكديرَها الشّربَ الذى كان صافيا
شربتُ برَنْقٍ(١) مِنْ هَوَاها مكدَّرٍ ... وكيف يعاف الرنْقَ(٢) من كان صَادِيا

وقد قال عَمْرُو بن قَمِيئَة فى معنى قول أبى حية :

كانت قناتى لا تلين لغَامزٍ ... فألاَنَها الإصباحُ والإمْسَاءُ
ودعوت ربى فى السلامة جَاهداً ... لِيُصِحَّنِى فإذا السَّلَامَةُ دَاءُ

وقال النّمر بن تولب(٣) :

يَوَدُّ الفتى طولَ السلامة والبَقا(٤) ... فكيف يرى طولَ السلامة يفعلُ
يعودُ الفتى من بَعْد حُسنٍ وصحةٍ(٥) ... ينوءُ إذا رَامَ القيام ويُحمَلُ

وقد روى فى الحديث الشريف : كفى بالسلامة داءً .

وقد أحسن حُمَيد بن ثور فى قوله(٦) :

أَرَى بَصَرِى قد رَابنى بعد صحةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أن تَصحَّ وتَسْلَما
ولن يَلْبَثَ العصران يومٌ وليلةٌ ... إذا طلبا أَن يدركا ما تيمّما(٧)

وهــــذان البيتان من قصيدة طويلة وهى أجود شعر حُمَيد ومن أَجْوَد ما فيها :

وما هاجَ هذا الشوقَ إلاَّ حمامَةٌ ... دَعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرْحةً وتَرَنُّما
تَرُوحُ عليه وَالهاً ثم تَغْتَدِى ... مولَّهةً تَبْغِى له الدَّهرَ مَطعَما
تؤمل منه(٨) مُؤْنِسًا لِانفِرادِها ... وتَبْكِى عليه إنْ زَقَا وتَرَنَّما

(١) رنق الماء : كدر، وفى ق ، وس : بريق. (٢) فى س ، ق : الريق .
(٣) جمهرة أشعار العرب : ١٩٩ . (٤) فى الجمهرة : والغنى .
(٥) فى الجمهرة : يود الفتى بعد اعتدال وصحة . (٦) الشعراء : ١٠ ، ٣٤٩، اللآلىء : ٥٣٢ ، ٣٨٢. (٧) فى س : يتمما . (٨) فى ط : فيه .

كأنَّ على إشراقه نورَ خمـرةٍ ... إذا هُوَ مَدَّ الجيدَ منهُ لِيطْعَما
فلمَّا اكْتَسَى الرِّيشَ السُّحامَ(١) ولم تجِدْ ... لهـا مَعَهُ فى ساحةِ الحىّ مَجْثَما
تنحَّتْ قريباً فوْقَ غُصنٍ تَذَأّبَتْ(٢) ... به الريحُ صِرْفاً أىّ وجه تيمَّما
فأَهْوَى لها صَقْرٌ مُسِفٌّ فلم يَدَعْ ... لها وَلَدًا إلا رِماماً وأَعْظُما
فأَوْفَتْ على غُصن ضُحَيًّا ولم تَدَعْ ... لنائحـــةٍ فى نَوْحِها مُتَلوَّما
عَجِبْتُ لهـا أنّى يكونُ غِناؤُها ... فصيحاً ولم تَفْغَرْ بِمَنْطِقِها فما
فلم أرَ مِثْلى شاقَهُ صَوْتُ مثلِها ... ولا عربيًّا شاقَه صَوْتُ أَعْجَما

ومن خبيث الهجاء قولُه فى هذه القصيدة يخاطب رجلين بمُهما :

وقولا إذا جاوزتُما أَرْضَ عامرٍ ... وجاوزتُما الحيّين نَهْدًا وخَثْعَما(٣)
نَزِيعان مِنْ جَرْم بن(٤) زَبَّان أنهم ... أَبَوْا أَنْ يريقوا فى الهَزاهِزِ مِحْجَما(٥)

وما هُجِيت جَرْم بأشدّ من هـذا ، يريد أَنهم لذلّتهم لم يَتِرُوا أحداً فيطالبهم بِذَحْل .

وقال الأصمعى : قيل لبعض الصالحين : كيف حالُك ؟ قال : كيف حالُ من يفنى ببقائه ، ويَسْقَم بسلامَتِه ، ويُؤْتَى من مَأمنه ، وقال محمود الوراق :

يُحِبُّ الفتى طولَ البقاءِ كأنّهُ ... على ثقـةٍ أَنَّ البقاءَ بَقَاءُ
إذا ماطوى يوماً طوى اليومُ بعضَه ... ويَطْويهِ إنْ جَنَّ المساءُ مَساءُ
زيادتُه فى الجسم نقصُ حَيَاتِهِ ... وأنَّى على نَقْصِ الحيـاة نَماءُ
جديدان لا يَبْقَى الجميعُ عليهما ... ولا لهما بَعْـدَ الجميـع بقـاءُ

---

(١) السحام : السواد . (٢) تذأبت الريح : جاءت فى ضعف من هنا وهنا .
(٣) نهد : قبيلة باليمن . وخثعم : أبو قبيلة من معد . (٤) بطن من قضاعة ، وفى س ، ق : بن ربان . (٥) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب بين الناس . والمحجم : ما يحجم به .

وقال المتنبي[١] :

زِيادةُ شَيْبٍ وَهْيَ نقْصُ زِيادَتي   وقُوَّةُ عِشْقٍ وَهيَ مِنْ قُوَّتي ضَعْفُ

وبيت محمود الأخير كقول البحتري[٢] :

أناةً أيّها الفَلَكُ المُدارُ   أنَهْبٌ ماتصرّف أم جُبارُ[٣]

ستَفنى مِثْل ما تُفنِي وتَبْلي   كما تُبْلِي فيُدرِكُ مِنْكَ ثارُ

تُنابُ النائبات إذا تَناهَتْ   ويَدْمُر في تَصَرُّفِهِ الدَّمارُ

وما أَهْلُ المنازِلِ غَيْر رَكْبٍ   مطاياهم رَواحٌ وابْتِكارُ

ويقول فيها :

لنا في الدَّهر آمالٌ طوالٌ   نُرَجِّيها وأَعمارٌ قِصارُ

أما وأبي بني حارِ بْنِ كعبٍ   لقد طرد الزمان بهم فساروا

أصاب الدّهْرُ دولة آل وَهْبٍ   ونالَ الليلُ مِنهم والنهارُ

أعارهُمُ رداءَ العزِّ حتى   تقاضاهم فردّوا ما استعاروا

وقد[٤] كانوا وأَوْجهُهم بدورٌ   لمبصِرها[٥] وأَيديهم بِحَارُ

أخذ قوله : « ستَفْنَى مثل ما تُفْنِي » أبو القاسم بن هانئ فقال :

تَفْنَى النجومُ الزُّهرُ طالِعةً   والنَّيِّرانِ الشَّمْسُ والقمرُ

ولئن تبدَّتْ في مَطالِعِها   منظومةً فلسوف تَنْتَثِرُ

ولئن سعى الفلك المُدارُ بها   فلسوف يُسْلِمُها ويَنْفَطِرُ

---

(١) ديوانه : ٢ ـ ٢٨٣ . (٢) ديوانه : ٢ ـ ٤٦ .

(٣) في الديوان : ماتطرق ، وفي س : ما تطرف ، وجبار : الهدر والباطل ، ومن الحروب: مالا قود فيها . (٤) في الديوان : وما كانوا فأوجههم .

(٥) في الديوان : لمختبط .

وقد استقصى على بن العباس الرومى المعنى الأول فقال[١] :

والدَّهرُ يُبْلِى الفَتى من حيْثُ يُنْشِئُه ... حتى تَكُرَّ عليْه لَيْلةُ القَرَبِ[٢]
يَغْذوهُ فى كلِّ آنٍ وَهو يأكُله ... ويَحْتَسى نُغَباً مِنْهُ على نُغَبِ[٣]
يُودى بحالٍ فَحال من شَبيبتِهِ ... تسرُّبَ الماءِ فى مُسْتَأْنَفِ الكُتَبِ[٤]
حَسْبُ امرئٍ مِنْ خَنَى[٥] دهرٍ تَطاوُلُهُ ... وإنْ أجمَّ فلَمْ يُنْكَبْ ولم يُنَبِ
فى هُدْنَةِ الدَّهْرِ كافٍ من وَقائعِهِ ... والعُمْرُ أقْدَحُ[٦] مِبرَاةً من الوَصَبِ

وقال أيضاً[٧] :

يَا بَانِيَ الحِصْنِ أرْساه وشَيَّدَهُ ... حِرْزاً لِشِلْوٍ من الأعداءِ مَشْجونِ[٨]
انظر إلى الدهر هل فاتته بغيتُهُ ... فى مطمحِ النسرِ أو فى مَسْبَحِ النُّونِ[٩]
ومن تحصَّن مَنْخُوبا[١٠] على وَجَلٍ ... فإنَّما حصنه سِجنٌ لمسجونِ
أَشكو إلى الله جَهْلاً قد أَضَرَّ بنا ... بل ليس جهلا ولكن عِلْمُ مَفْتونِ

وقال الطائى[١١] :

وإن تُبْنَ حيطانٌ عليه فإنما[١٢] ... أُولئك عُقَّالاتُه لا مَعاقِلُه[١٣]

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حالُه فى التغيّر ، فأُخْبِر أنه مشغول ، فرجع فبعث إليه الرشيد : خُنْتَنى فاتَّهمتنى ، فقال : إذا انقضت المُدّة كان الحَتْفُ فى الحيلة ، والله ما انصرفتُ إلا تخفيفا . أخذه ابن الرومى فقال ــ وقد فصده

(١) ديوانه : ١ ــ ١٩٥ . (٢) القرب : سير الليل لورد الغد ، وألا يكون بينك وبين الماء إلا ليلة . (٣) فى ط ، س : تعباً منه على تعب . والنغب : جمع نغبة وهى الجرعة.
(٤) فى ط ، س : الكثب . والكتب جمع كتبة: السير تخرز به القربة .
(٥) فى ط ، س : جنى . (٦) فى ط ، س : أقدح . (٧) ديوانه : ٢٥ .
(٨) فى الديوان : مشحون . والمشجون: المشعوب والمكسور . (٩) النون : التمساح .
(١٠) فى الديوان : محبوسا . (١١) ديوانه : ٢٣١ .
(١٢) فى الديوان : وإن يبن حيطانا . (١٣) العقالات : القيود ، والمعاقل : الملاجئ .

بعضُ الأطباء فزعم أن الفَصْد زاد فى علته(١) :

غلط الطبيب علىَّ غلطة موردٍ … عجزت مَحالَتُه(٢) عن الإصدار
والناسُ يَلْحَوْنَ الطبيب وإنَّما … غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المقدارِ(٣)

[وصف الثغور]

وقال أبو حيَّة النميرى(٤) :

سقتنى بكَأْسِ الحبِّ صِرْفاً مروَّقاً … رِقَاق الثَّنَايَا عَذْبة المُتَرَنَّقِ(٥)
وخُمصانةٍ تَفْتَرّ عن متنشّقٍ … كَنَوْرِ الأقاحى طيِّب المتذوَّقِ(٦)
إذا امتضغت بعد امتناع من الضّحى … أنابيبَ من عود الأَراكِ المخلَّقِ(٧)
سقَتْ شُعَبَ(٨) المِسْواكِ ماءَ غمامةٍ … فَضيضاً(٩) بخُرطوم الرَّحيقِ المُرَوَّقِ

وأنشد الثورى(١٠) :

ترى الدُّر منثوراً إذا ما تكلَّمت … وكالدُّر منظوماً إذا لم تَكلَّمِ
تُعبِّد(١١) أحرارَ القلوبِ بِدَلِّها … وتملأُ عَيْنَ النـاظر المُتوسِّمِ

والبيت الأول من هذين كقول البحترى(١٢) :

فمن لؤلؤ تَجْلُوه عند ابتسامها … ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقِطُه

وقد تقدّم . قال أبو الفرج الرياشى : سمعتُ الأصمعى يقول : أحسن ما قيل فى وصف الثغر قول ذى الرمه(١٣) :

وتَجْلُو بفَرْعٍ من أَراكٍ كأنَّه … من العَنْبَرِ الهِنْدِىِّ والمِسْكِ يُصْبَحُ

(١) ديوانه : ٤٨١ . (٢) المحالة : الحيلة . (٣) فى الديوان : الأقدار .

(٤) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ . (٥) رنق الماء : كدره وصفاه ، والترنيق أيضاً : إدامة النظر . (٦) خمصانة : ضامرة البطن . (٧) فى ط : امتناع . المخلق : المدهون بالخلوق ، وهو ضرب من الطيب . (٨) فى المختار : شعث المسواك.

(٩) الفضيض : ما تناثر من الماء . (١٠) المختار من شعر بشار : ٣٧ .

(١١) فى س : تغير . (١٢) ديوانه : ٢ ـ ٣٣١ ، المختار من شعر بشار : ٣٩ ، النويرى : ٢ ـ ٧١ . (١٣) ديوانه : ١ ـ ٢ .

ذُرَى أُقْحُوانٍ وَاجَه الليل وارْتقَى ... إليـهِ النَّدَى من رامةَ المتروِّحُ
هِجانُ الثَّنايا مُغْرِبٌ[(١)] لو تَبَسَّمَتْ ... لِأَخْرَسَ عنـه كاد بالقول يُفْصِحُ

ومن قديم هذا المعنى وجيّده قولُ النابغة الذبيانى فى صفة المتجردة امرأة النعمان ابن المنذر[(٢)] :

تَجْلُو بقادمتى حَمامة أيكةٍ ... بَرَدًا أُسِفَّ لِثاتُه بالإثْمِدِ
كالأُقْحُوان غداةَ غِبِّ سمائِهِ ... جَفَّتْ أعاليه وأسْفَلُه نَدِى
زَعَم الهُمامُ بأنَّ فاهَا بارِدٌ ... عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شهِىُّ المَوْرِدِ
زَعم الهمامُ ولم أَذُقْه أنه ... يشفى[(٣)] بريَّا رِيقها العَطِش الصَّدِى

ومن قوله : « ولم أذقه » أخـذ كلّ من أتى بهذا المعنى ففتقه الناس بَعْدَه ، قال المتوكل الليثى :

كأنَّ مُدامةً صهباءَ صِرْفاً ... ترقرق بَيْنَ راوُوقٍ ودَنِّ
تُعَلُّ بها الثَّنَايَا من سليمى ... لِفراسةُ مُقْلتى وصحيحُ ظَنِّى

وقال بشَّار[(٤)] :

يا أَطْيَبَ الناس ريقا غير مُخْتَبرٍ ... إلّا شهادة أطرافِ المساويكِ
قد زُرْتِنا مرةً فى الدهر واحدةً ... ثَنِّى ولا تجعليها بيضةَ الدِّيكِ
يا رَحمَـةَ الله حُلّى فى منـازلنا ... حَسْبِى برائحة الفردوس من فِيكِ

وقيل لبشار: يا أبا معاذ ، كم بين قولك، وأنشد هذه الأبيات، وبين أن تقول[(٥)] :

إنمـا عظمُ سُلَيمى خُلّتى[(٦)] ... قَصَبُ السكر لا عَظْمُ الجَمَلْ
وإذا قُرِّبَ[(٧)] منها بَصَلٌ ... غلب المِسْكُ على ريح البَصَلْ

فقال : إنما الشاعر المطبوع كالبحر: مرةً يقذِف صدَفه ، ومرةً يقذف جِيَفه[(٨)] .

---

(١) فى الديوان : مغربا ، وفى س : مغرب . (٢) ديوانه : ٣٧ ، المختار من شعر بشار : ٥٥ . (٣) فى ط : يروى . (٤) الصناعتين : ٢٥٠ ، الوساطة : ٢٣١ ، الأمالى ١ــ٢٢٨ . (٥) الصناعتين : ١١٦ . (٦) فى الصناعتين : حبتى .
(٧) فى الصناعتين : وإذا أدنيت منها . (٨) فى س : حشفه .

[السواد]

وقد تناول هـذا المعنى أبو الحسن علىّ بن العباس الرومى من أَقْرَب متناوَل ، فقال ـ وكشفه بأَوْضح عبارة فى صفته لجارية أبى الفضل عبد الملك بن صالح السوداء بعد أن استوفى جميعَ صفاتها وكان قد اقْتُرِح عليه وصْفُها[1] :

وصَفْتُ فيها الَّذِى هَوِيت على الـ   وهم ولم نَخْتَبِرْ ولم نَذُقِ
إلّا بأَخبـارك التى رُفِعَتْ   منك إلينا عن ظبيـة البُرَقِ
حاشا لسَوْداء منظرٍ سكَنَتْ   ذُراك إلا عَنْ مَخْبرٍ يَقَقِ[2]

وهذه الأبياتُ من قصيدةٍ له وصف فيها السواد ، واحتجّ بتفضيله على البياض ، حتى أَغْلَق فيه الباب بعده ، ومنع أن يَقْصِد فيـه أَحدٌ قصده ، إلّا كان[3] مقصّر السهم عن غَرَضِ الإحسان . وقد نبّه على بن عبد الله بن العباس [المسيب على][4] فضائلها ، وأَجاد التشبيه، وكشف عن وجوه الإبداع ، وضروبِ الاختراع .

وقد مدح الناسُ السوادَ والسُّود فأَكثروا . فمن جيد ماقالوا فيه قول أبى حفص الشطرنجى :

أَشبهَكِ المِسْكُ وأشبهتِهِ   قائمةً فى لَوْنِه قاعِدَهْ
لا شكَّ إذ لَوْنـكما واحدٌ   أَنـكما من طِينـةٍ واحدَهْ

فأخذ ابنُ الرومى هذا المعنى وأضاف إليه أشياء أُخر توسعاً واقتداراً ، فقال :

يذكرك المسك والغَوالى والـ   سُّكّ[5] ذوات النسيم والعَبَقِ

وهذه الأشياء وإن كانت ناقِصةً عن المسك ، فهى ممدوحةٌ بالطيب، غير مستغنى عن ذكرها فى التشبيهِ ؛ فأما زِيادَتُه على جميع من تعاطى مدح السواد فقوله :

سوداء لم تنتسب إلى بَرَصِ الـ   شُّقْرِ ولا كُلْفَةٍ ولا بَهَقِ

---

(١) ليست فى ديوانه المطبوع بأيدينا . (٢) يقق ـ بفتح القاف الأولى وكسرها : شديد البياض ناصعه . (٣) فى س : كل . (٤) هكذا فى كل الأصول ، وما بين القوسين ليس فى س. (٥) السك : نوع من الطيب يركب .

والأبيض الشديد البياض مَعيب ، وقد دلّ عليه قوله :

وبَعْضُ ما فُضِّـلَ السوادُ بِهِ   والحقّ ذو سُلّمٍ وذو نَفَقِ
ألّا يعيبَ السَّوادَ خُلْـكَتُهُ   وقد يُعابُ البياضُ بالبَهَقِ

قوله : « الحق ذو سُلّم وذو نَفَق » أراد أنَّ الحقّ يتصرَّفُ فى جهات ، وضَربَ الصعودَ والنزولَ لذلك مثلا ؛ ثم قصد لوَصْفِ هـذه السوداء بالـكمال فى الصفة ؛ ومن عيب السُّودان أن أكفّهم عابسَة[1] متشقّقة ، وأطرافهم ليست بناعمة لينة ، وكذلك لا يزال الفَلْحُ[2] فى شفاههم ، وهى الشقوق المذمومة الموجودة فى أكثر السُّودان فى أوساط الشفاه ، وأيضاً فإن الأسود مهجوّ بخبث العرَق ، فنفى هـذه الصفاتِ المذمومة الموجودة فى أكثر السودان عنها فقال :

لَيْسَتْ من العُبْسِ الأكُفّ ولا الـ   فلحِ الشِّفاهِ الخبائثِ العْرَقِ

ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة ، فقال :

فى لِينِ مَمُّورةٍ تخيَّرها الْـ   فرَّاء أو لِينِ جيِّد الدّلَقِ[3]

ومن بديع مدح السوداء قوله :

أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ   صِبغة حَبِّ القلوب والحَدَقِ
فانصرفت نحوها الضمائرُ والْـ   أبصار يَعْشَقْنَ أيّما عَشَقِ

فأخبر أنّ القلوب إنما أحبتها بالمجانسة التى بينها وبين حَبِّ القلوب من السواد ، وكذلك الحدَق .

ومن جَيّد تشبيهات أبى نواس وقد نبَّه نديماً للصبوح فأخبر عن حاله وقال :

فقام والليلُ يَجْلوهُ الصباحُ كما   جَلَا التبسُّم عن غُرِ الثَّنيَّاتِ

---

(١) من عبس — كفرح : يبس .   (٢) الفلح : الشق .
(٣) دويبة كالسمور — معربة .

ولعلى بن العباس عليه التقدم بقوله :

يَفْتَرُّ ذاكَ السَّوَادُ عن يَقَقٍ من ثَغْرِهَا كاللآلىء النَّسَقِ [(١)]
كأنها والمزاحُ يُضْحِكُها لَيلٌ تعرَّى [(٢)] دُجاه عَنْ فَلَقِ

وفَضْلُ هذا الكلام على ذاكَ أَنَّ هذا قَدَّمَ لمعناه فى التشبيه مُقَدّمة أَيَّدَتْه، ووطَّأَتْ له الآذان ، وأَصْغَت الأفهام إلى الاستحسان ، وهى قوله :

* يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقَق *

وفى هذه السوداء يقول ، وقد سأله أَبو الفضل الهاشمى أن يَسْتَغْرِقَ صفات محاسنها الظاهرة والباطنة فقال :

لها حِرٌ يَسْتَعِيرُ وَقْدَتَهُ من قَلْبِ صبٍّ وصَدْرِ ذِى حَنَق
كأنما حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ما ألهبتْ فى حَشَاهُ مِنْ حُرَقِ
يَزْدَادُ ضِيقاً على المِراسِ كما تَزْدَادُ ضِيقا أُنْشُوطَةَ الوَهَقِ [(٣)]

ثم فكَّرَ فيما فكَّر فيه النابغة ، وقد أمره النعمانُ بوَصْفِ المتجرِّدة ، فوصف ما يجوزُ ذكره من ظاهر محاسنها ، ثم كَرِه أَنْ يَذْكُرَ من فضائلها مالا يَسُوغُ بمثله أن يَذْكُرَ منها ، فردّ الأَخبار عن تلك الفضائل إلى صاحبها وهو الملك ، فقال [(٤)] :

زَعَمَ الهُمَامُ بأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ إذا قبَّلته قلت ازْدَدِ [(٥)]

فاحتذى علىّ بنُ العباس هذا ، فقال بعد ما سأله أن يستغرِقَ فى وصف فضائلها الظاهرة والباطنة :

خُذْهَا أبا الفَضْل كسوة لك من خَزٍّ الأماديح لا مِنْ الخِرَقِ

---

(١) النسق من الخرز : المنظم . (٢) فى س : تفرى .
(٣) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، والوهق : الحبل المغار يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ، وفى س : الرهق . (٤) ديوانه : ٣٧ .
(٥) فى الديوان : عذب مقبله شهى المورد .

وصفت فيهـا التى هويت على الْـ ... وَهْمِ ولم نَخْتَبِرْ ولم نَذُقِ
إلاَّ بأخبارك التى وَقَعَتْ ... منكَ إلينا عن ظَبْيَةِ البُرَقِ
حاشا لسوداء مَنْظَرٍ سكَنَتْ ... ذُرَاكَ إلّا عَنْ مخبر يَقَقِ

وهذا المعنى أومأ إليه النابغة إيماءً خفيّا تذهبُ معرفتُه عن أَكْثرِ الناس ، ولو آثر النابغةُ تَرْكَ الاختصار وهمَّ بكَشْفِ المعنى وإيضاحِه ما زادَ على هذا الكشف الذى كشفه ابن الرومى .

وأصحاب المعانى ينشدون للفرزدق :

وجفن سلاح قد رُزئت فلم أَنُحْ ... عليه ولم أَبعَثْ عليه البوَاكِيَا
وفى بَطْنِه مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ ... لو ان المَنايا أنسَأَتْه لَيَالِيا [(١)]

ومعناه عندهم أنه رثى امرأة توفِّيت حاملا ، فقال على بن العباس وقد وصف هذه المرأة السوداء :

أخلِقْ بها أن تقـومَ عن ذَكَرٍ ... كالسيف يَفْرِى مُضاعف الحلَقِ
إنَّ جفونَ السيوفِ أكْثَرُهاَ ... أسود والحقّ غـير مُخْتَلقِ

فهذه زيادةٌ بينة ، وعبارة واضحة ، لم تحتج إلى تفاسير أصحاب المعانى ، وقال مما لم ينشده المتنبي :

غصن من الآبنوس ركّب فى ... مؤتزَرٍ مُعجب ومنتطَق
يهتزّ من ناهـديه فى ثمرٍ ... ومن دواجى [(٢)] ذُرَاه فى ورَقِ

وهذا معنى قد بلغ قائلُه من الإجادة ، فوق الإرادة ، وامتثل أبوالفضل الهاشمى ما أشار به ابن الرومى فأولدها فأنجبت .

وفى معنى قول الفرزدق قال الطائى وأحسن وذكر وَلَدَيْن توأمين ماتا لعبد الله ابن طاهر [(٣)] :

---

(١) أنسأته : أخرته . (٢) فى ط ، ق : دواحى . (٣) ديوانه : ٣٨٠ .

إن تُرْزَ فى طَرَفَىْ نهارٍ واحدٍ رُزأيْن هاجاَ لَوْعةً وبَلابلا
فالثقلُ ليس مضاعفا لمطيَّةٍ إلا إذا ما كان وَهْماً بازِلا [1]
لهفى على تلك المشاهد [2] منهما لو أُمهلتْ حتى تكون شمائلا
لغدا سكونُها حِجًى وصباهما حُكما [3] وتلك الأريحيّةُ نائلا
إن الهلالَ إذا رأيت نماءَهُ [4] أيقنت أن سيكون [5] بدرا كاملا

وعلى ذكر التوأمين ألفاظٌ لأهل العصر فى التهنئة بتوأمين

تيسَّرت مِنْحَتَانِ فى وطن ، وانتظمت مَوْهِبتان فى قرَن [6] ، طلع فى أُفُق الكمال [7] نَجْمَا سَعْد، وشِهَابا عِزّ ، وكَوْكَبَا مَجْد، فتأهّلت بهما رُبوعُ المحاسن، ووُطِّئَت لهما أَكْنَافُ المكارم ، واستشرفَتْ إليهما صدورُ الأسرَّةِ والمَنابر. بلغنى خَبَرُ الموهبة المشفوعة بمِثْلِها ، والنِّعْمَة المقرونة بِعدْلها [8] فى الفارسَيْنِ المقبلَيْن ، رضيعى العزّ والرفعة ، وقرِيْنَى المجدِ والمَنَعة ، فشملنى من الاغتباط ما يُوجِبُه ازْدِوَاجُ البُشْرَى ، واقترانُ غَادِيةٍ [9] بأُخْرَى .

والشىء يُذْكَر بماقارب ناحيةً من أنحائه ، وجاذبَ حاشيةً من رِدَائِه .

[من التضمين والهجاء]

وقال بعض أهل العصر يهجو رجلا وضمّن قول النابغة [10] :

* كالأقحوان غَدَاةَ غبَّ سَمَائِه *

---

(١) الوهم : الجمل الضخم القوى ، والبازل : المكتمل السن .
(٢) فى الديوان : الشواهد فيها . (٣) فى الديوان : حلما .
(٤) فى الديوان : نموه . (٥) فى الديوان : سيعود . (٦) القرن : الحبل .
(٧) فى س : الملك . (٨) العدل : النظير . (٩) فى س : عارفة .
(١٠) صفحة ٢٢٨ .

وأزاحه عن بابه ؛ فجاء مليحا فى الطبع ، مقبولا فى السمع :

يا سائلى عن جعفر عهدى بهِ رَطْب العِجَانِ وكفُّه كالجَلْمَدِ (١)
كالأُقْحُوَان غَدَاة غِبّ سمائهِ جفّت أعاليه وأسْفَله نَدِى

ومن مستحسن ما روى فى هـذا التضمين قول الآخر وضمن بيتاً لمهلهل بن ربيعة .

وسائلةٍ عن الحَسَنِ بن وَهْبٍ وعمّا فيه من كَرَمٍ وخِيرِ (٢)
فقلت هو المهذب غـيرَ أنى أراه كثيرَ إرخاء الستورِ
وأكثر ما يغنّيه فتاهُ حُسَيْنٌ حـين يَخْلُو بالسُّرور
فلولا الريحُ أسمعَ من بِحُجْرٍ صَليلَ البيض تُقْرَعُ بالذُّكورِ (٣)

أول كذب العرب

وهذا البيت لمهلهل ممـا يعدّونه من أول كذب العرب ، وكانت قبل ذلك لا تكذبُ فى أشعارها ، وكان بين الموضع الذى كانت فيه هذه الواقعة وهى بالجزيرة وبين حُجْر وهى قَصَبَةٌ باليمامة مسافةٌ بعيدة ، فأخرجَه هذا الشاعر بقوّة مُنَّته ، ونفاذِ فِطْنَته إلى معـنًى آخر مستظرف فى بابه . وهذا المذهبُ أحْسَنُ مذاهب التضمين. ومن مليح ما فى هذا الباب تضمينات الحمدونى فى طيلسان أحمد بن حرب المهلبى، وسيأتى ما أخْتَارُه من ذلك فى غيرِ هذا الموضع .

[رجع إلى وصف الثغور وما يتصل بها]

وقد جاء فى صفةِ الثغور والأفواه والرّيق شعرٌ كثير . قال جميل :

تمنّيْتُ منها نظرةً وهى وَاقِفٌ تُرِيك نقيًّا واضِحَ الثغر أشْنَبا (٤)
كأنّ عَرِيضًا من فَضِيض غمامةٍ هزيمُ الذّرى تمرى له الريحُ هَيْدَبا (٥)

---

(١) العجان: العنق ، وتحت الذقن، والأرداف.   (٢) الخير : الـكرم والشرف والأصل.
(٣) مهذب الأغانى : ١ ــ ١٩٠ .   (٤) الشنب ، محركة : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .   (٥) العريض : السحاب . والفضيض : كل متفرق ، والهزيم : الصوت . والهيدب : السحاب المتدلى .

يُصَفِّقُ بالمسك الذكىِّ رُضابهُ ... إذا النَّجْمُ من بعد الهدوء تَصَوَّبا[١]

وقال[٢] :

وكأن طارقَها على عَلَلِ الكرى ... والنجم وهْناً قد بَدَا لِتَغَوُّرِ

يَسْتافُ ريحَ مُدامةٍ معلولةٍ[٣] ... برُضابِ مسكٍ فى ذكىٍّ[٤] العنبرِ

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى[٥] :

يَمُجّ ذَكِىَّ المِسْكِ منها مُفلَّجٌ ... نقىّ الثنايا ذو عذوب[٦] مُؤَشَّرُ

يَرِفّ[٧] إذا تَفْتَرُّ عنه كأنهُ ... حَصَى بَرَدٍ أو أُقحوان مُنَوّرُ

وقال الهذلى :

وما صَهْباءُ صافيةٌ لصبٍ ... كلون الصِّرف مُنْجابٌ قَذاها

تُشَجُّ بنُطْفَةٍ مِن ماءِ مُزْنٍ ... أحلّته برَضْراضٍ عُراها[٨]

بأطيبَ مشرعاً من طَعْمِ فيها ... إذا ما طار عن سِنةٍ كَراها

وقال آخر :

وشقَّ عنها قِناع الخزِّ عن بَرَدٍ ... كالدُّرّ لا كَسَسٌ فيه ولا ثَعَلُ[٩]

كأنه أُقْحوانٌ باتَ يَضرِبهُ ... طَلٌّ من الدَّجْنِ سَقَّاط النَّدَى هَطِلُ

كأنَّ صِرفاً كُميتَ اللَّوْنِ صافيةً ... شُجَّت بماء سماء شَنَّه جَبَلُ[١٠]

فُوها إذا ما قَضَتْ من نومها سِنَةً ... أو اعتراها سُباتُ النَّوم والكسلُ

---

(١) تصوب : انحدر . (٢) ديوانه : ٢٩ . (٣) فى الديوان : معجونة ، واستاف : اشتم . (٤) فى الديوان : أو سحيق . (٥) المختار من شعر بشار : ٢٣٧ .

(٦) فى ط : غروب . (٧) فى المختار : يرق . (٨) تشج : تخلط وتمزج . النطفة : الماء الصافى . الرضراض : الحصى أو صغارها .

(٩) الكسس: قصر الأسنان أو صغرها ، والثعل: السن الزائدة خلف الأسنان ، أو دخول سن تحت أخرى فى اختلاف من المنبت . (١٠) شنه : صبه ، وبرده .

وقال آخر :

هِجانُ اللَّوْنِ واضحة المحيَّا ... قطيع الصَّوتِ آنِسَةٌ كسولُ

تَبسَّمُ عن أغَرَّ له غُرُوبٌ ... فُرات[1] الرِّيقِ ليس به فُلولُ

كأنَّ صبيبَ غاديةٍ لصبٍّ ... تُشَجُّ به شآميةٌ شمولُ

على فيها إذا الجَوْزاء عالَتْ ... محلِّقة وأرْدَفَها رَعِيلُ[2]

وقال ابن المعتز[3] :

يا نديمىَّ اشربا[4] واسقِيانا ... قد بَدا الصبحُ لنا واستبانا

واقتلا همِّى[5] بصِرْفٍ عُقارٍ ... واتركا الدَّهْرَ فما شاءَ كانا

إن للمكروه لَذْعةَ شرٍّ ... فإذا دامَ على المَرْءِ هانا[6]

وامزجا كأسى[7] بريقةِ ألْمَى ... طاب للعطشان وِردًا وحَانَا

من فمٍ قد غُرِس الدرُّ فيه ... ناصح الريق إذا الرّيق خَانَا

وقال ابن الرومى[8] :

يا رُبَّ ريقٍ بات بَدْرُ الدُّجى ... يمجُّهُ بين ثَنايا كا

يُرْوِى ولا ينهاكَ عن شربِهِ ... والماء يُرْوِيك ويَنْهاكا

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[9] :

وإذا سألْتُك رَشْفَ ريقك قُلْت لى ... أَخْشَى عُقُوبَةَ مَالِكِ الأملاكِ

ماذا عليك ؟ جُعلت قبلك فى الثَّرى ... من أنْ أكُونَ خَليفةَ المِسْواكِ

أيجوزُ عندكَ أَن يكون مُتيَّمٌ ... صَبٌّ بحبِّك دون عُودِ أراكِ

---

(١) الغرب : كثرة الريق وبلله ، وفرات : عذب . (٢) الرعيل : كل قطعة متقدمة من خيل وجراد ونجوم ، وفى س ، ق : وعيل . (٣) ديوانه : ٢ — ٦٦ .

(٤) فى الديوان : لا تملا حثنا . (٥) فى الديوان : همنا .

(٦) ليس هذا البيت فى ديوانه . (٧) فى الديوان : كأسنا .

(٨) الأمالى ١ — ٢٢٨ (٩) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ .

وهـذا المعنى يجاوزُ الإحصاء ، ويفوتُ الاستقصاء ؛ وكلّه مأخوذ من قول امرئ القيس(١) :

كأنَّ المُدامَ وصَوْبَ الغَمام ... وريحَ الخُزامى ونَشْرَ القُطُرْ(٢)
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها ... إذا طرَّبَ الطائرُ المُسْتَحِرْ(٣)

فجمع ما فرّقوه ، وأخذه الجعفرى فقصّر عنه(٤) :

كأن المُدامَ وصَوْبَ الغَمامِ ... وريحَ الخُزامى وذَوْب العَسَلْ
يعلُّ به بَرْدُ أنيابها ... إذا النَّجْمُ وَسْطَ السماء اعْتَدَلْ

ويلحق بهذه المعانى من شعرِ أهل العصر قول أبى على محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى ـ وذكر خمراً :

مِنْ كفِّ ساقٍ أهْيَفٍ حَرَكاتهُ ... فِتَنٌ تقنَّعَ بالمَلاحةِ واعتَجَرْ
ناولتـه كأْسِى وكَسْرُ جُفونهِ ... يوحى إلىَّ أن ارتقبهم واصْطَبِرْ
فثنى لهـا أقلامَ دُرٍّ رَخْصَـةٍ ... تَهْوى إلى أفراد دُرٍّ ذِى أشَر
فتحدّرت من كأسهِ فى ثَغْرِهِ ... كالشمس تَغْرُبُ فى هِلالٍ من قمر

وأهدى أبو الفتح كشاجم لبعض القيان مِسْواكا وكتب إليها(٥) :

قد بعثناه لـكى تَجْـلُو بهِ ... واضحاً كاللؤلؤ الرَّطْبِ أغَرّْ
طابَ منـه العَرْفُ حتَّى خِلتهُ ... كان من ريقِك يُسْقَى فى الشَّجَرْ(٦)
وأمَا وَاللهِ لو يَعْـلمُ مَا ... حَظُّهُ منك لأثنَى وشَـكَرْ
ليتنى المُهدَى فيَرْوِى عَطَشى ... بَرْدُ أنيابك فى كلِّ سَحَرْ

---

(١) ديوانه : ٨ ، المختار من شعر بشار: ٢٣٩ . (٢) النشر: الرائحة ، والقطر بالضم: العود الذى يتبخر به . (٣) استحر الطائر : غرد بسحر ــ اللسان مادة سحر والديوان ٨
(٤) المختار من شعر بشار : ٢٣٩، مع اختلاف . (٥) المختار من شعر بشار : ٢٣٨ .
(٦) فى ط ، س ، ق : فى السحر .

[حديث ابن أبى ربيعة والحارث بن خالد]

وكان ذكر[١] بحضرة ابن أبى عتيق شعرُ عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد المخزوميين ، فقال رجلٌ من وَلد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة : صاحِبُنا الحارث أَشعر ، فقال ابنُ أبى عتيق : دَعْ قولَك يا بْنَ أخى ، فلِشِعْرِ ابنِ أبى ربيعة لَوْطةٌ بالقلب[٢] ، وعَلَقٌ بالنفسِ ، ودَرْكٌ للحاجَة ليس لشِعْرِ الحارث ؛ وما عُصِىَ اللهُ بشعرٍ قطّ أكثر مما عُصِىَ بشعر ابنِ أبى ربيعة ، فخُذْ عنى ما أصِفُ لك : أَشعرُ قريش من رَقّ معناه ، ولَطُف مَدْخَله ، وسَهُل مَخْرجه ، وتعطَّفَتْ حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأَعْرَب عن صاحبه . فقال ـ الذى من ولد خالد بن العاص : صاحبُنا الذى يقول :

إنى وما نَحَرُوا غداةَ مِنًى ... عند الجمار تَئُودها العقْلُ
لو بُدِّلَتْ أَعْلى منـــازلها ... سُفْلًا وأصبح سُفلها يَعْلو
فيكاد يَعرِفُها الخبيرُ بهـــا ... فيردُّه الإقواءُ والمَحْـلُ
لعرفت مغناها بما احتَمَلَتْ[٣] ... منى الضلوعُ لأهلها قَبْـلُ

فقال ابنُ أبى عتيق : يا بنَ أخى ، استُرْ على صاحبك ، ولا تشاهد المحاضر بمثل هـذا ، أما تَطَيَّرَ الحارثُ عليها حين قَلب رَبْعَها فجعل عالِيه سافلَه ، ما بقى إلا أن يسألَ اللهَ حجارةً من سِجِّيل وعذاباً أليماً . ابن أبى ربيعة كان أحسنَ الناسِ للرَّبع مخاطبةً وأجملَ مصاحبةً إذ يقول[٤] :

سائِلَا الرَّبْع بالبُلَىِّ[٥] وقولا ... هِجْتَ شوقاً لِىَ الغَداةَ طويلا

---

(١) المختار من شعر بشار : ٢٠٢ ، الأمالى ٢ ـ ١٥ . (٢) لوطة بالقلب : علوق به .
(٣) فى المختار : لعرفتها بقديم ما احتملت . (٤) ديوانه : ٩٥ ، الأغانى : ١ ـ ١٠٦ .
(١) البلى : تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) ، وفى س ، ق : التلى .

أين أهلٌ[1] حلّوكَ إذ أنْتَ مسرو ... رٌ[2] بهم آهِلٌ أراكَ جميــــلا
قال : سارُوا وأَمْعنوا واستقلُّوا[3] ... وبكُرْهِى[4] لو استطعتُ سَبيلا
سَئِمونا وما سَئِمْنَا مُقاماً ... واستحبّوا دَمَاثةً وسهولا

مزيد يسأل عن معنى قول الحارث

وهاهنا حكاية تَأْخُذُ بطَرَفِ الحديث ، دخل مزيد المدنى على مَوْلًى لبعض أهل المدينة ، وهو جالسٌ على سرير ممهّد ، ورجلٌ من ولد أبى بكر الصديق ، وآخرُ من ولد عمر رضى الله عنهما جالسان بين يدَيْه على الأرض ؛ فلما رأى المولى مزْيدا تجهَّمه وقال : يا مزْيد ، ما أَكْثَرَ سؤالك ! وأشـدّ إلحافك ! جئتَ تسألنى شيئاً ؟ قال : لا والله ، ولـكنى أردتُ أَن أسأَلك عن معنى قول الحارث بن خالد[5] :

إِنّى وما نَحَرُوا غَداة مِـنًى ... عنـد الجمار تَئُودها العقلُ
لو بُدّلَتْ أعْلى منـازلها ... سُفْلًا وأصْبَحَ سُفْلها يَعْلُو

فلمـا رأيتك ورأيتُ هذين بين يديك عرفتُ معنى الذى قال . فقال : اعزُبْ فى غير حِفْظ الله ! وضَحِك أهلُ المجلس .

[الأطلال وبكاء الديار]

وأخذ الحارث قوله[6] :

لعرفت مَغْنَاها بما احتَمَلَتْ ... منى الضلوعُ لأَهْلها قَبْـلُ

من قول امرئ القيس ؛ قال على بن الصباح ورّاق أبى مُحلِم قال لى أبو محلم : أتعرفُ لامرئ القيس أَبياتا سينية قالها عند موته فى قُرُوحه والحلة المسمومة ، غير قصيدته التى أولها[7] : *أَلِمّا على الرّبع القديم بعَسْعَسَا[8]* فقلت : لا أعرف غيرها فقال : أنشدنى جماعة من الرواة :

(١) فى الديوان والأمالى : أين حى . (٢) فى الديوان والمختار : محفوف .
(٣) فى الديوان : قال ساروا بأجمع فاستقلوا . (٤) فى المختار : وبودى .
(٥) الأغانى : ١ — ١٠٩ . (٦) أى قول الحارث بن خالد السابق صفحة ٢٣٨ .
(٧) ديوانه : ١٢٨ (٨) عسعس : موضع .

لِمَنْ طَلَلٌ دَرَسَتْ آيَهُ وغيَّره سالِفُ الأحْرُسِ (١)
تَنكَّره العَيْنُ من حادثٍ ويعرفه شغَفُ الأنْفُسِ

وقد أخذه طريح بن إسماعيل الثقفى فقال :

تَسْتَخبِرُ الدِّمنَ القِفار ولم تكنْ لتردّ أخْبارا على مُستخبِرِ
فظللت تحكم بين قَلْبٍ عارفٍ مَغْنى أحِبَّتِهِ وطَرْفٍ مُنْكِرِ

وقال الحسن بن وهبٍ ، إشارة إلى هذا المعنى :

أبليتَ جِسْمى من بعد جِدَّتِهِ فما تكاد العيونُ تُبْصِرُهُ
كأنَّه رَسْمُ منزلٍ خلقٍ تَعرِفُه العَيْنُ ثم تنكرُهُ

وقال يحيى بن منصور الذهلى :

أما يَسْتفيقُ القلب إلاّ انبرى لَهُ تَذَكُّرُ طَيْفٍ من سعاد ومَرْبعِ
أخادع عن عرفانه العَيْنَ إنّهُ متى تعرف الأطلال عينى تَدْمَعِ

وقال آخر :

هى الدارُ التى تَعْرِ ف لِمْ لاتَعرِفُ (٢) الدَّارَا
ترى منها لأحْبابِبَا لكَ أعْلَاماً وآثارَا
فيبدى القلبُ عِرفاناً وتبدى العَيْنُ إنكارا

وقال أبو نُوَّاس ، وتعلق أولُ قوله بهذا المعنى ، وأنا أنشد الأبيات كلها لملاحتها، إذ كان الغرض فى هذا التصرف هو إرادة الإفادة (٣) :

أَلَا لا أَرَى مثلى امترى اليوم (٤) فى رَسْم تغضّ (٥) به عَيْنِى ويَلْفِظُه وهْمى
أتت صُور (٦) الأشياء بينى وبينه فظنّى كَلاَ ظَنّ (٧) وعِلْمى كَلاَ عِلْمِ

---

(١) الحرس — بسكون الراء — الدهر ، وجمعه أحرس . ورواية البيت فى اللسان :
لمن طلل دائر آيه تقادم فى سالف الأحرس

(٢) فى س : أم لاتعرف . (٣) ديوانه : ٣٢٥ . (٤) فى ديوانه : مثل امترائى فى .
(٥) فى س : تغص . (٦) فى الديوان : صورة . (٧) فى الديوان : فجهلى كلا جهل .

فطِبْ بحديثٍ من حبيبٍ مساعدٍ(١) وساقية بين المُرَاهق والحُلُمِ
ضعيفة كرِّ الطَّرْفِ تحسب أنَّها قريبة(٢) عَهْدٍ بالإفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ
يفرّق(٣) مَالِي من طَرِيفٍ وتَالِدٍ تفوّقَ الصهباء من حلب الـكَرْم
وإني لآتى الوَصْلَ(٤) من حيث يُبْتَغَى وتَعْلَمُ قوسى حِينَ أَنْزِع(٥) من أرْمِي

[حديث عن شعر أبي نواس]

ورَوى أبوهفان قال : كان أبُو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي يطعن على أبي نواس ويَعِيبُ شِعْرَه ، ويضعّفه ، ويستلينه ؛ فجمعه مع بَعْضِ رُوَاةِ شعر أبي نواس مجلس(٦) والشيخُ لا يَعْرِفُه ، فقال له صاحبُ أبي نواس : أتعرفُ ـ أعزَّكَ الله ـ أحْسنَ من هذا ؟ وأنشده : « ضعيفةَ كرّ الطَّرْفِ ... » الأبيات . فقال : لا والله ، فمَنْ هو ؟ قال: للذي يقول(٧) :

رسمُ الـكَرَى بين الجفون مُحِيلُ(٨) عفَّى عليه بكًا عليك طَوِيلُ
يا ناظراً ما أقْلَعَتْ لحظاتُهُ حتى تشحَّطَ بينهنَّ قَتِيلُ

فطرب الشيخُ ، وقال : وَيْحك ! لمنْ هذا ؟ فوالله ما سمِعْتُ أجْوَد منه لقديم ولا لمحدَث ! فقال : لا أُخبرك أو تكتبه ؛ فـكتبه ، وكتب الأول ، فقال : للذي يقول(٩) :

ركبٌ تَسَاقَوْا على الأكوارِ بينهمُ كأْس الـكَرَى فانْتَشَى المَسْقِيُّ والسَّاقِي
كأَنَّ أرْؤُسهم(١٠) والنَّوْمُ وَاضِعُها على المناكب لم تُخْلَق(١١) بأعناق

---

(١) فى الديوان : من نديم موافق . (٢) فى الديوان : حديثة .
(٣) فى الديوان : تفوق ، وتفوق شرابه : شربه شيئا بعد شىء . (٤) فى الديوان : الأمر من حيث يتقى . (٥) نزع فى القوس : مدها . (٦) فى ط ، س : فجلس .
(٧) ديوانه : ٣٨٨ . (٨) فى الديوان : محيل . (٩) ديوانه : ١٢٨ .
(١٠) فى ديوانه : هامهم . (١١) فى ديوانه : لم تدعم ، وفى س : لم تعمد .

ساروا فلم يقطعوا عَقْدًا لراحِلةٍ   حتى أناخُوا إليكم قَبْلَ إشراقِ(١)

من كل جائلةِ الطَّرْفين(٢) نَاجية   مشتاقةٍ حملت أوصال(٣) مُشْتاقٍ

فقال: لمن هذا؟ وكتبه. فقال: للذى تَذُمّه، وتَعِيب شعره، أبى على الحكمى! قال: اكْتُم علىّ، فوالله لا أعود لذلك أبداً.

***

شىء من النقد

أخذ قوله: «كأَنَّ أرؤُسَهم والنوم واضعها» أبو العباس بن المعتز فقال يصف شَرْبًا:

كأنّ أبارِيقَ اللجَيْن لديهمُ   ظِبَاءٌ بأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ قيامُ

وقد شربوا حتى كأن رُءوسهم   من اللّينِ لم يُخْلَقْ لَهُنَّ عِظَامُ

البيت الأول من هذين من قول علقمة بن عبدة(٤):

كأنّ إبريقَهم ظَبْىٌ على شَرَفٍ   مفدَّم بسَبَا الكتَّان مَلْثُوم(٥)

أراد بسبائب، فحذف. وقد أحسن مسلم بن الوليد فى قوله:

إبْرِيقُنَا سَلَبَ الغزالةَ جِيدَها   وحكى المديرُ بمُقْلَتَيْهِ غزالا

يَسْقِيك بالألحاظ كأسَ صَبابةٍ   ويُديرها من كفِّه جِرْيَالا(٦)

وأنشد الحارث بن خالد أبياته(٧): * إنى وما نَحَرُوا غَدَاةَ مِنًى * . . . . لعبد الله بن عمر، فلما بلغ إلى قوله:

لعرَفَتْ مَغْنَاها بمَا احْتَمَلَتْ   مِنّى الضلوعُ لأَهْلِها قَبْلُ

---

(١) فى ق: أشواق. (٢) فى ديوانه: النسعين ضامرة، وفى س: الظفرين.

(٣) فى ديوانه: أنفاس، وفى س: أعباء. (٤) الشعر والشعراء: ١٨٣

(٥) مفدم: مسدود. وسبا الكتان: أراد سبائب فحذف باقى الكلمة، والسبائب: جمع سبيبة، وهى الشقة، وفى المفضليات: مرثوم، وهو الذى قد رُثم أنفه أى كسر.

(٦) الجريال: الخمر أو لونها. (٧) السابقة فى صفحة ٢١٥.

قال له ابنُ عمر : قل إنْ شاء الله ، قال : إذاً يفسد الشعر يا أبا عبـد الرحمن ، فقال : لا خيرَ في شيء يُفسِدهُ إن شاء الله .

[تشبيب الحارث بن خالد]

وكان الحارثُ بن خالد أحدَ المجيدين في التشبيب ، ولم يكن يعتقدُ شيئاً من ذلك، وإنما يقولُه تظرّفاً وتحلّماً ؛ وكان أكثرُ شعره في عائشة بنت طلحة ، فلما قُتِل عنها مصعب بن الزبير قيل له : لو خطبتَها ! قال : إنى لأَكْرَه أَنْ يتوهَّم النـاسُ علىّ أنى كنتُ معتقداً لِماَ أَقُول فيها ، وهو القائل :

يا أمّ عِمرانَ ما زَالَتْ وما بَرِحَتْ ... بنا الصَّبَابَةُ حتى مسَّنَا الشَّفقُ
القلبُ تاقَ إِليـكم كىْ يلاقيَـكم ... كما يتوقُ إلى مَنْجاتِهِ الغَرِقُ
تُوفيك شيئاً قليلا وهى خائفةٌ ... كما يَمَسُّ بظَاهِرِ الحيَّـة الفَرِقُ

أخذ هذا الطائى فحسَّنه فقال[(١)] :

تَأْبَى على التَّصْرِيدِ[(٢)] إلا نَائِلا ... إلاَّ يكنْ ماءً قَراحاً يُمْذَقِ
نَزْرًا كما استكرهت عابرنفحةٍ[(٣)] ... من فَأْرَةِ المِسْكِ التى لم تُفْتَقِ

وحَجّت عائشةُ بنْتُ طلحة ؛ فوجّه إليهـا يستأذنها فى الزيارة ، فقالت : نحن حَرام ، فأخِّر ذلك حتى نُحلّ ، فلما أحلّت أَدْلَجَتْ[(٤)] ولم يعلم ، فـكتب إليها :

ما ضرّكم لو قلتمُ سَدَدًا[(٥)] ... إنَّ المنيَّـةَ عاجلٌ غَدُها
ولها علينا نِعْمةٌ سلفَتْ ... لسنا على الأيام نَجْحَدُها
لو تمّت أسبابَ نِعْمَتِها ... تمّت بذلك عنـدنا يَدُها
إنى وإياها كمفتَتِنٍ ... بالنـار تحْرِقهُ ويَعْبُدُها

---

(١) ديوانه : ٢١١ . (٢) التصريد : التقليل . (٣) فى الديوان : عاثر نفحة .
(٤) أدلج : سار من أول الليل ، وادلج بتشديد الدال : سار من آخره .
(٥) السدد : الاستقامة .

[ابن أبي عتيق]

وابنُ أبي عتيق[١] هذا هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان من أفاضل زَمانه عِلْماً وعَفافاً ، وكان أحْلَى الناسِ فكاهةً ، وأظرفهم مِزاحا[٢] ، وله أخبارٌ مستظرفة سيمرُّ منها ما يُستحسن إن شاء الله .

روى الزبير بن أبي بكر أنه دخل على عائشة ــ يعني بنت طلحة ــ رضى الله عنهما ، وهى لما بها ؛ فقال : كيف أنتِ جُعلت فداكِ ؟ قالت : في الموت ، قال : فلا إذاً ، إنما ظننت في الأمر فُسْحَة ، فضحكت ، وقالت : ما تدَعُ مَزْحَك بحالٍ !

وفيه يقول عمر بن أبي ربيعة القرشي[٣] :

ليت شعرى هل أقولَنْ لِرَكْب ... بفلاةٍ هُمُ لديها خُشُوعُ[٤]
طَالَما عرّستمُ فاستقلّوا[٥] ... حان من نَجْم الثريّا طُلوعُ
إنَّ هَمّى قد نَفَى النومَ عنّى ... وحَديثٌ للنفس مِنّى يروعُ[٦]
قال لى فيها عَتيقٌ مقالًا ... فجرَتْ مما يقولُ الدموعُ
قال لى : ودِّع سليمى ودَعْها ... فأجاب القلب لا أستطيعُ[٧]
لا تَلُمْني في اشتياقي إليها ... وابْكِ لى مما تجنّ الضُّلُوعُ

[تعريض]

الثريا عند الوليد

قال أبو العباس محمد بن يزيد قوله : « حان من نجم الثريا طلوع » كناية ، وإنما يريد الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر ، وكانت موصوفةً بالجمال ،

(١) مضى ذكره في صفحة ٢٣٩ . (٢) في س ، ق : مزاجا .
(٣) ديوانه : ٤٠ ، الأغانى : ١ ــ ١٢٣ . (٤) في الديوان : هجوع .
(٥) في الديوان : فاركبوا بى . (٦) في الديوان : وحديث النفس قدما ولوع ، وفى ق : منى ولوع . (٧) في الديوان : أن لا أطيع .

وتزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فنقلها إلى مصر ، وفى ذلك يقول عمر ، وضرب لهما المثل بالنجمين [(١)] :

أيها المنكح الثريّا سُهَيْلاً ... عَمْرَكَ الله كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هى شاميَّةٌ إذا ما استقلّت ... وسهيلٌ إذا استقَلَّ يَمَانِى

فمات سُهيل عنها ، أو طلَّقها ، فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة دمشق تطْلب فى دَيْن عليها ، فبينا هى عند أمِّ البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليدُ فقال : مَنْ هَذِهِ عندكِ ؟ قالت : الثريا جاءتك تطلُبُ فى دَيْن ارتكبها ، فأقبل الوليد عليها فقال : أَتروِين من شعرِ عُمَرَ بن أبى ربيعة شيئاً ؟ قالت : نعم ، أما إنه رحمه الله كان عفيفاً ، عفيف الشعر ، أروى له قوله [(٢)] :

ما عَلَى الرَّسْمِ بالبُلَيَّيْنِ لو بَيَّـ ... ـنَ رَجْعَ السَّلامِ [(٣)] أَوْلَوْ أَجابَا
فإلَى قَصْرِ ذِى العُشَيْرة بالصا ... ئف [(٤)] أَمْسى من الأَنِيسِ يبَابَا
وبِما [(٥)] قد أَرَى [(٦)] به حَىَّ صِدْقٍ ... ظاهرى العيش نعمةً وشَبَابا
وحِسَاناً جَوَارِيا خَفِرَاتٍ ... حافظاتٍ عند الهوى الأَحْسَابَا
لا يُكَثِّرْنَ بالحديث ولا يَتْـ ... ـبَعْن يَنْعَقْنَ بالبِهَامِ الظِّرَابَا [(٧)]

فلما خلا الوليـد بأم البنين قال : للهِ دَرّ الثّريا ! أتدرين ما أرادَتْ بإنشادها ما أنشدَتْ من شعر عمر ؟ قالت : لا ، قال : فإنّى لما عرّضْت لها بعمر عرّضت لى بأن امى أعرابية ؛ وأم الوليد وَلّادة ابنةُ العباس بن جزء بن الحارث بن زُهير العبسى وهى أمُّ سليمان ، ولا تُعلم امرأة ولدت خليفتين فى الإسلام غيرها ، وغير الخـيزران

---

(١) الأغانى : ١ — ١٢٢ . (٢) ديوانه : ١١٠ ، والأغانى : ١ — ٢٣٧ .
(٣) فى الديوان : التسليم. (٤) فى الديوان : فالصالف ، وفى ط: بالطائف .
(٥) فى ط : ربما ، وهذا عن الديوان والأغانى . (٦) فى ط : ثوى ، وفى ق : أوى .
(٧) فى ط ، ق : ينعقن . والبهام : جمع بهمة وهى الصغير من أولاد الغنم . والظراب : الروابى الصغار .

وهى سبية من خَرْشَنة ، ولدت موسى الهادى وهارون الرشيد ابنى محمد المهدى ، وشاهسفرم [١] بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كِسْرى ابرويز ؛ فإنها ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد بن الوليد الناقص وإبراهيم بن الوليد المخلوع ؛ جلس فى الخلافة بَعْد أخيه يزيد مدةً يسيرة ، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان آخر ملوك بنى أمية نخلعه وولّى بعده .

عزة عند عبد الملك

وشبيه بقول الثريا فى باب التعريض أنه دخلَتْ عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان فقال لها : أَنْتِ عزَّةُ كثير ؟ قالت : أنا أم بكر الضمرية ، قال لها : يا عزَّة ؟ هل تروين من شعر كثيِّر شيئاً ؟ قالت : ما أعرفه ، ولكن سمعت الرواة ينشدون له :

قَضَى كلُّ ذى دَين فوفّى غريمَهُ ... وعَزَّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

قال : فتروين قوله [٢] :

وقد زعمت أنى تغيَّرت بعدَّها ... ومن ذا الّذِى ياعزُّ لا يَتَغَيَّرُ
تغيَّر حالى والخليقة كالذى [٣] ... عَهِدْتِ ولم يُخْبَرْ بسرِّك مُخْبَرُ

قالت : ما سمعت هذا ولكن سمعتُهم ينشدون [٤] :

كأنّى أُنَادى صَخْرةً حين أعرضَتْ ... من الصُّمِّ لو تَمْشِى بها العُصْمُ زَلَّتِ
غضوباً [٥] فما تَلْقَاكَ إلا بَخيلةً ... فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّت

[ابن أبى ربيعة وغزله]

قال : وكل ما ذكر ابنُ أبى ربيعة فى شعره من عتيق ، أو أبى عتيق ، فإنما هو ابنُ أبى عتيق ، وكان عمرُ بن عبد الله بن أبى ربيعة ، واسم أبى ربيعة حذيفة بن

---

(١) فى س : وشاهسقريه . (٢) الأغانى : ٩ — ٢٧ .
(٣) فى الأغانى : تغير جسمى والخليقة كالتى . (٤) الأغانى : ٩ — ٢٧ .
(٥) فى الأغانى : صفوحا ، والصفوح : المعرضة .

المغيرة بن عبد الله [بن عمر](١) بن مخزوم ، ويكنى أبا الخطاب ، أمه أم ولد سبيّة من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن ثم أتاه الغزل ؛ لأنه يقال : « عشق يمانى ، ودَلٌّ حجازى » . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

إن قلبي بالتــل تلِّ عزازٍ ... مع ظَبْي من الظّباء الجوازى(٢)
شادن لم يَرَ العِراقَ وفيــهِ ... من ظَرْفِ العراق دَلُّ الحِجازِ

وقال الطائى وذكر نفسه(٣) :

قد ثقَّفَتْ مِنْه الحجازُ وسهَّلَتْ ... منه العراق(٤) ورققته المشرِقُ

وهجرت الثريا عمر فقال(٥) :

قال لى صاحبي ليعــلم ما بى ... أتحبُّ القتول(٦) أختَ الرَّبَابِ
قلتُ وَجْدى بها كوَجْدِكَ بالما ... ءِ إذا ما فقدت(٧) بَرْدَ الشَّرَابِ
أزهقَتْ(٨) أمُّ نوْفَلٍ إذ دعَتْها ... مُهْجَتى ، ما لقاتلى من مَتَابِ
أبرزوها مثــل المهاة تَهادى ... بَيْنَ خمسٍ كواعبٍ أتْرَابِ
وهى مكنونةٌ تحدَّر(٩) منهــا ... فى أديم الخدَّيْن ماءُ الشباب
ثم قالوا تحبّها ؟ قلت بهراً ... عَدَدَ الرَّمْلِ والحصَى والتُّرابِ

ولما بلغ ابنُ أبى عتيق قوله :

مَنْ رسولى إلى الثريّا فإنى ... ضِقْتُ ذرعاً بهجرها والكِتابِ

قال : إياى أراد ، وبى هَتَفَ ونوّه ، لا جرم ؛ لا ذُقْتُ طعاما أو أشخص إليها ، وأصلح بينهما ؛ فقال مولى لبنى تميم : فنهض ونهضتُ معه ، ثم خرج إلى السوق إلى

---

(١) من ق ، وفى س : من بنى عمر. (٢) الجوازى: هى الظباء التى تجتزئ بالعشب عن الماء.
(٣) ديوانه : ٥٠٠ . (٤) فى الديوان : منه الشآم ، وسهلت منه العراق .
(٥) الأغانى : ١ ــ ٢٤١ ، ديوانه : ١١٧ . (٦) فى الأغانى : البتول .
(٧) فى الأغانى : إذا ما منعت . (٨) فى ط، ق : أرهقت . (٩) فى الديوان : تحير .

الضمرتين[١] فأتى قوماً من بنى الديل بن بكر يكرون النجائب ، فقال : بكم تكرونني راحلتين إلى مكة ؟ قالوا : بكذا وكذا درهما . فقلت لبعض التجار : استوضعوا شيئاً ، فقال ابن أبى عتيق : ويحك ! إنّ المكاس ليس من أخلاق الناس[٢] . ثم ركب واحدة وركبت أخرى وأجدّ السير ، فقلت : ارفق بنفسك . فقال : ويحك ! أبادر حبلَ الوصل أن يتقضبا . وما أملح الدنيا إذا تمّ الوصلُ بين عمر والثريا ! فقدمنا مكة وأتى بابَ الثريا ، فقالت : والله ما كنتَ لنا زوّارا ، فقال : أجل، ولكن جئتُ برسالة ، يقول لك ابن عمك عمر: ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ . فلامه عمر ، فقال ابن أبى عتيق : إنما رأيتك مبادراً تلتمس رسولا ، فخففت فى حاجتك ، فإنما كان ثوابى أن أشكر .

ووصف ابن أبى عتيق لعمر امرأةً من قومه ، وذكر جمالا رائعاً ، وعقلا فائقاً ، فرآها عمر فشبّب بها ؛ فغضب ابنُ أبى عتيق وقال : تشبّبُ بامرأة من قومى ؟ فقال عمر[٣] :

لا تلمنى عتيقُ حسبى الذى بى ... إنّ بى يا عتيقُ ما قد كفانِى
إن بى مضمراً[٤] من الحب قد أبـ ... ـلى عظامى مكنونُهُ وبرانى

* لا تلمنى وأنتَ زينتَها لى *

فقال ابن أبى عتيق :

* أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسانِ *

فقال عمر : هكذا وربّ الكعبة قلت .

فقال ابن أبى عتيق : إن شيطانك وربّ القبرْ[٥] ربما ألمّ بى !

---

(١) فى س : الضمريين . (٢) المكاس : المشاحة .

(٣) ديوانه : ٦٦ ، الأغانى : ١ — ٩٥ . (٤) فى الأغانى والديوان : إن بى داخلا .

(٥) فى الأغانى : من عادة أهل المدينة القسم بالقبر وصاحب القبر — يريدون قبر النبى .

وحجّت رملة بنت عبد الله بن خلف أخت طلحة الطلحات فقال عمر فيها[1] :

أصبح القلبُ فى الحبال[2] رهينا ... مُقْصَداً يوم فارَقَ الظاعينا

ولقد قلت يوم مكة سِرًّا ... قبل وَشْكٍ من بينكم نَوِّلينا[3]

أنت أهوى العباد قرباً وبعداً ... لو تُواتين[4] عاشِقاً محزونا

قاده الحينُ[5] يوم سرنا إلى الحـ ... ـجّ جهاراً ولم يخف أنْ يَحينا

فإذا نعجة تراءى نِعاجا ... ومهاً نجلَ[6] النواظر عِينا

فسبتنى بمقلةٍ وبجيدٍ ... وبوجه يضىءُ للناظرينا

قلتُ من أنتمُ فصدَّت وقالتْ ... أمُبدٌّ[7] سؤالك العالَمينا

قلت بالله ذى الجلالة لما ... أن تبلتِ الفؤادَ أن تصدقينا

أىّ من تجمع المواسم أنتم[8] ... فأبينى لنا ولا تكذبينا[9]

فرأت حِرْصِىَ الفتاةُ فقالت ... أخْبِريه بعلم ما تكتمينا

نحن من ساكنى العراق وكنّا ... قبلها[10] قاطنين مكةَ حينا

قد صدقناك إذ سألت فمن أنـ ... ـت عسى أن يجرّ شأنٌ شؤونا

ونرى أننا عرَّفْناك بالنعْـ ... ـت ظنوناً[11] وما قتَلْنا[12] يقينا

بسوادِ الثَّنِيتَيْنِ ونَعْتٍ ... قد نراه لناظرٍ مستبينا

***

(١) الأغانى : ١ — ٢١٤ ، ديوانه : ٦٩ . (٢) فى ديوانه . الجمال .

(٣) فى ط ، ق : يلوينا . (٤) فى الديوان : أنت أهوى البلاد قربا ودلا لو تنيلين .

(٥) فى الديوان : الطرف يوم مر إلى الحين . (٦) فى الديوان : بهج .

(٧) أمبد : أمقسم أنت سؤالك على الناس واحداً واحداً حتى تعمهم .

(٨) فى الديوان : قولى . (٩) فى الديوان : ولا تكتمينا .

(١٠) فى الأغانى: قبله . (١١) فى الأغانى والديوان : بظن.

(١٢) فى ط : قبلنا .

آخر من نبذ مفتاح الكعبة من خزاعة

قولها[١] : « وكنا قبلها قاطنين مكّة حيناً » أرادت إذ كانت مكةُ لخزاعة . وكان آخرَ من نبذ مفتاح الكعبة من خزاعة أبو غُبشان فباعه من قُصَىّ بِزِقِّ خمر؛ فقيل فى المثل : « أخسر صفقةً من أبى غُبشان » . وكان أبو غُبْشان إذ باع المفتاح قُصيًّا مريضاً قد يئس من نفسه ، فلما أبلّ من مرضه لامَه قومه ، وسألوه اسْتِرْجاعه ، وذلك الذى هاج الحرب بين خُزَاعة وقريش ، فظفر قُصَىّ واستولى على مكة ، وجمع قريشاً بها . ولذلك سمى مجمعا . قال مطرف الخزاعى :

أبوكم قُصَىٌّ كان يُدْعَى مجمِّعاً ... به جمَّع الله القبائلَ من فِهْرِ

وقال الطائى[٢] :

ولما نَضَا ثوبَ الحياةِ وأوْقَعَتْ ... به نائباتُ الدهرِ ما يتوقَّعُ
غدا ليس يَدْرِى كيف يصنعُ مُعْدِمٌ ... ذرى[٣] دَمْعه فى خدِّه كيف يصنعُ
ولم أنسَ سَعْىَ الجودِ خَلْفَ سريرِهِ ... بأكْسَفِ بالٍ يستقلُّ[٤] ويظلَع
وتكبيرهُ خَمْسًا عليه مَعًا لَنَا ... وإن كان تكبيرَ المصلين أرْبَعُ
وما كنتُ أدرى يَعْلَمُ اللهُ قَبْلَها ... بأنّ النَّدَى فى أهْلِه يتشيَّعُ
غدَوْا فى زَوايا نعشِه وكأنَّمَا ... قريشٌ قريشٌ يوم ماتَ مُجمِّعُ

وقال الشاعر فى أمر قصىّ وأبى غُبَشان :

أبو غبشان أظْلَمُ من قصىٍّ ... وأظْلم من بنى فِهرٍ خزاعه
فلا تَلْحوا قُصَيًّا فى شِرَاهُ ... ولوموا شَيْخَكُم إذْ كانَ باعَه

* * *

وكان عمر أسود الثنيَّتين[٥] .

---

(١) أراد قولها السابق الذى حكاه فى البيت الحادى عشر صفحة ٢٤٩ .
(٢) ديوانه : ٣٧٣ . (٣) فى س : مغرم درى .
(٤) فى الديوان : يستقيم . ويستقل ويظلع : ينهض ويسقط ، وفى ق : يطلع .
(٥) الإشارة إلى البيت الأخير فى قصيدة عمر فى الصفحة السابقة .

قال مولى ابن أبي عتيق بلال : أتيتُ الثريّا مسلماً عليها ، فقالت : أنشدني لعمر فأنشدتها * أصْبَحَ القلبُ في الحِبَال رَهِينا * فقالت الثريا : إي والله ، لئن سلمت له لأردّنّ مِنْ شَأْوه ، ولأثنينّ من عِنَانه ، ولأعرفنَّه نفسه ! فمررت فيها حتى انتهيت إلى قوله :

قُلْتُ مَنْ أنتمُ فَصَدَّتْ وقالت ... أمبِدٌّ سُؤَالك العالمينا

فقالت : أو قد أجابته بهذا أي وقت ؟ فلما انتهيت إلى قوله * وترى أننا عرفناك بالنَّعت * قالت : جاءت النَّوْكاءُ[1] بآخِرِ ما عندها في مَوْقِفٍ واحد .

أخو عمر يسأله ترك الشعر

وسأله أخوه الحارث وهو المعروف بالقُبَاع[2] ، وكان من أفاضل أهْلِ دهره أن يترك الشعر ، ورغب إليه في ذلك ووعظه ، فقال : أما ما دمتُ بمكة فلا أقدرُ ، ولكني أخرج إلى اليمن فخرج . فلما سار إلى هناك لم تَدَعْهُ نفسُه وتَرْكَ الشعر فقال[3] :

هيهات من أمة الوَهَّابِ منزلنا ... إذا نزلْنَا بسيفِ[4] البحرِ من عَدَنِ
واحتلَّ أهلُكِ أجياداً[5] وليس لنا ... إلا التذكّر أو حظٌّ من الحَزَنِ
بل ما نسيتُ غداةَ الخَيْفِ[6] موقفها ... وموقفي وكِلَانا ثَمَّ ذُو شَجَنِ
وقولها للثريا وهي مطرقةٌ[7] ... والدمعُ منها على الخدَّين ذُو سَنَنِ[8]
بالله قولِي له في غير مَعْتَبةٍ ... ماذا أردتَ بطُولِ المُكْثِ في اليمن[9]
إن كنتَ حاولتَ دُنْيا أو ظفِرْتَ[10] بها ... فما أخذتَ بترك الحجِّ من ثَمَنِ

فلما بلغ الشعر الحارث قال : قد علمنا أنه لا يَفِي .

---

(١) النوكاء : الحمقاء . (٢) إنما لقب القباع لأن عبد الله بن الزبير كان ولاه البصرة فرأى مكيالا لهم فقال : إن مكيالهم هذا لقباع . وهو الشيء الذي له قعر ، فلقب بالقباع .
(٣) الأغاني : ١ ـ ١١١ ، ديوانه : ٦٤ . (٤) سيف البحر : ساحله .
(٥) أجيادا : موضع بمكة . (٦) في الأغاني : ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها . والخيف : موضع بمنى . (٧) في الأغاني : وهي باكية . (٨) في الديوان : يوم ذي خشب ، وذو سنن : طرائق . (٩) في الديوان : في يمن . (١٠) في الديوان : أو نعمت بها .

إثارة الحنين

وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج قال : لزمنى دَيْن مرّة فضاقَتْ ساحتى وبلادى بى ، فتوجّهت إلى مَعْن بن زائدة باليمن ، فقال : ما أقْدَمك هـــذه البلدة ؟ قلت : دَيْنٌ طردنى عن وطنى ، قال : يُقضَى دَيْنُك ، وتُردّ إلى وطنك محبوًّا مَحْبُورًا ، قال : فأقمت عنده ، ثم رأيتُ الناس يرحَلُون إلى الحج ، فحننت إلى مكة وذكرت قول ابن أبى ربيعة ، وذكر الأبيات ... فأتيتُ باب مَعْن فقلت للحاجب : استأذِنْ لى على الأمير ، فلما دخلت عليه قال : إنَّ لك لحادثَ خَبر ! قلت : أَسْتَوْدِعُ الله الأمير وأستحفظه عليه . قال : وما هاج هذا منك ؟ فقلت : رأيت خروجَ الناس إلى الحج وذكرت قولَ عمر ؛ فحننت إلى مكّة . فقال: أنْتَ وحنينك ، وإن كنتُ بفراقك ضَنينا ، وسيتْبعُك ما تحتاجُ إليه ؛ فسِرْ مصاحَبا . قال : فسِرْتُ إلى رَحْلِى فأتبعنى بمالٍ وثياب ومَطَايا ودوابّ ، وسرت إلى مكّةَ من فَوْرى .

عفة عمر ابن أبى ربيعة

وكان عمر على غَزَله وما يذكره فى شعره عفيفا . حدّث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : دخلت مع أبى مكّةَ ، فجاءه عمر فسلّم عليه ، وأنا غلامٌ شابّ وعلىّ جبّة ، فجعل يَأْخُذُ بخصلة من شَعْرى (١) ، فتمتدّ فى يده ثم يُرْسِلُها فترجع ، فيقول : واشباباه ! فقال لى : يابن أخى ، قد سمعتَ قولى : قُلْت لها وقالت لى ؛ وكلُّ مملوك لى حرّ إن كنت قطّ كشفت عن فرج حرَام ! قال : فقمت وفى نَفْسِى من يمينه شىء ؛ فسألتُ عن رقيقه فقيل لى : أما فى هذا الحول فسبعون .

قول عمر فى المساعدة

ويستحسن قول عمر فى المساعدة (٢) :

وخِلٍّ كنتُ عينَ النّصح منهُ ... إذا نظرَتْ ومستمِعاً مُطِيعا
أطاف بِغَيَّةٍ فنُهِيت عَنْها ... وقلت له أَرى أمراً شنيعا
أَرَدْتُ رشَادَه جهدى فلمّا ... أبى وعَصَى أَتَيْنَاها جميعا

---

(١) فى ق ، س : بخصلة منها . (٢) المختار من شعر بشار ٣٢٨ ، الأغانى ٣-٧٢

وهذا مأخوذ من قول دريد بن الصِّمة الجُشَمى (١) :

أمرتهمُ أمرِى بمُنْعرَج اللِّوى فلم يستبينوا الرُّشْدَ إلاّ ضُحَا الغَدِ
فقلت لهم ظُنّوا بألفَىْ مُدجَّجٍ سَرَاتُهم فى الفارسىّ المسرَّدِ
فلما عصونى كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأننى غَـيْرُ مُهْتَدى
وماأنا(٢) إلّا من غزِيـَّة إنْ غوَتْ غوَيْتُ وإن ترْشُدْ غزِيـَّةُ أرْشُدِ

من جيد شعر عمر

ومن جيد شعره (٣) :

يقولون إنى لستُ أصْدُق فى الهوَى وإنىَ لا أرعاكِ حـين أغِيبُ
فما بال طَرْفِى عفَّ عما تَساقطتْ له أنفسٌ من مَعْشَرٍ وقُلوبُ
عشيةَ لايستنكر(٤) القومُ أن يرَوْا سَفَاهَ حِجًى (٥) ممن يُقال لبيب
ولا فتنةً من ناسكٍ أوْ مَضَتْ لهُ بعَيْنِ الصبا كَسْلَى القيام لعُوبُ
تروَّحَ يرْجُو أن تُحطَّ ذُنوُبه وآبَ وقد زيدَت عليه ذُنُوبُ
وماالنُّسْكُ أسْلانى ولـكِنَّ لِلْهوَى على العين منّى والفؤادِ رَقِيبُ

ونظر عمرُ بن أبى ربيعة إلى فتى من قريش يكلِّم امرأة فى الطّواف ، فعاب ذلك عليـه ، فذكر أنها ابنةُ عمه ، فقال : ذلك أشْنَع لأمرك ، قال : إنى خطبتُها إلى عمى ، وإنه زعم أنه لا يزوّجنى حتى أصدقها أربعمائة دينار ، وأنا غيرُ قادر على ذلك، وذكر مِنْ حالِه وحبّه لها . فأتى عُمَرُ عمّه ، فكلّمه فى أمرها ، فقال : إنه مُمْلِق ، فزوَّجه وساق عُمَرُ عنه المَهر .

أعتق رقبة لكل بيت

وكان عمر حين أسنّ حَلَف ألاَّ يقول بيتا إلا أعتق رقبة ، فانصرف إلى منزله يحدّث نفسَه فجعلت جاريته تكلّمه ولا يجيبُها ؛ فقالت : إن لك لشأنا ، وأراك تريدُ أن تقولَ شعرا ، فقال (٦) :

---

(١) الشعر والشعراء : ٧٢٦ . (٢) فى الشعر والشعراء : وهل أنا .
(٣) الأغانى : ١ــ١٥٠ . (٤) فى الأغانى : لا يستنكف .
(٥) فى الأغانى : سفاه امرىء . (٦) الأغانى : ١ــ١٤٥

تقول وليدتي لما رأتني ... طَرِبْتُ وكُنْتَ قد أقصرتُ حِينا
أراكَ اليوم قد أحدَثْتَ أمْراً(١) ... وهاجَ لكَ الهوى داءً دَفِينا
وكنتَ زعمتَ أنك ذُو عَزَاء ... إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينا
لعمرك هل رأيتَ لها سمِيًّا(٢) ... فشاقَكَ أمْ لقيتَ لها خَدِينا
فقلتُ شكا إليّ أخٌ مُحِبٌّ ... كَبَعْضِ زَمانِنا إذْ تَعْلَمِينا
فقصَّ عليَّ ما يَلْقَى بهندٍ ... فذَكَّرَ بَعْضَ ما كنا نَسِينا
وذُو الشوقِ القديم وإن تعزَّى ... مَشُوق حين يَلْقَى العاشقينا
فكم من خُلَّةٍ أعرضتُ عنها ... لغير قِلىً وكنتُ بها ضَنِيناَ
أردت بِعادَها فصَدَدْتُ عَنْهَا ... وإن جُنَّ الفؤادُ بها جُنُونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعتقهم .

نسكه وتركه الشعر

قال عثمان بن إبراهيم : حججت أنا وأصحابٌ لنا ، فلما رجعنا من مكّة مررنا بالمدينة ، فرأينا عمر بن أبي ربيعة ، وقد نَسَكَ وتَرَكَ قول الشعر ، فقال بعضنا لبعض : هل لكم فيه ؟ فملنا إليه ، وسلّمنا عليه وجلَسْنَا وهو ساكتٌ لا يكلِّمنا . فقال له بعضنا : أيعجبك قول الفرزدق (٣) :

سَرَتْ لعَيْنِكَ سَلْمَى بعد مَغْفَاها ... فبِتّ مُسْتَلهِياً(٤) من بعد مَسْرَاهَا
فقلتُ أَهْلًا وَسَهْلًا مَنْ هَدَاكِ لَنَا ... إن كنتِ تِمْثَالَهَا أو كُنْتِ إيَّاهَا
تأتي الرياح التي من نحو بَلْدتكم ... حتى نقول دَنَتْ منا بَرَيَّاها
وقد تراخت بهم عَنّا نوًى قُذُفٌ ... هيهات مُصْبَحها مِنْ بعْد مُمساها(٥)
من أجلها(٦) أتمنى أن يُلاقيني ... من نحو بَلْدَتِها نَاعٍ فيَنْعَاهَا

---

(١) في الأغاني : شوقا . (٢) في الأغاني : بربك هل أتاك لها رسول .
(٣) الأغاني ١ — ١٧٥ ، وليس هذا الشعر في ديوانه ، ونسب في الأغاني إلى جنادة العذرى ، وارجع إلى الأغاني في هذه النسبة . (٤) في الأغاني : مستنبها .
(٥) نوى قذف : بعيدة . (٦) في الأغاني : من حبها .

كيما أقول افتراقٌ لا اجتماعَ [١] لهُ ... وتُضمِرُ النفسُ يأساً ثم تسلاها

ولو تموتُ لراعتنى وقلتُ لها ... يا بُؤس للدهر ليتَ الدهرَ أبقاها

فلم يهش لذلك ! فقال الآخر : أيعجبك قول العُذْرى [٢] :

لو حزّ [٣] بالسيف رأسى فى مودّتها ... لمرّ يهوِى سريعاً نحوَها راسِى

ولو بَلِى تحتَ أطباق الثَّرَى جسَدِى ... لكنت أبلَى وما قلبى لكم نَاسِى

أو يقبضِ اللهُ رُوحى صارَ ذِكْرُكمو ... رُوحاً أعيشُ به ما عشتُ فى الناس

لولا نسيمٌ لذكراكم يُروِّحنى ... لكنتُ مُحترقاً من [٤] حرِّ أنفاسى

فتحرك ثم قال : يا وَيحَه ! أبعد ما يحزّ رأسه يَميل إليها ؟

ثم أنشأ يحدثنا [٥] فقال: أتانى خالد الدليل [٦] فقال : إن هندا وأترابها بموضع كذا وكذا من الصحراء أيام الربيع . فقلت : كيف الحيلة ؟ فقال: تتلثم وتَكْتَفِل [٧] كأنك طالبُ ضالّة ، ففعلت فدُفعت إليهن ، فقلن : يا أعرابى ، ما تطلب ؟ قلت : ضالّة لى ، فقلن : قد كلِلْتَ يا أعرابى ، فلو جلست فأصبت منْ حديثنا وأصبنا من حديثك ، ولعلك تروح إلى وجود ضالّتك ، فنزلت ؛ فلما امتدّ الحديثُ بنا حسرت هِندٌ لِثَامى ، وقالت : أتُرَاك خدعتنا ؟ نحن والله خدَعْنَاك ، وبعثنا إليك خالدا ، رأينا خلاءً ومنظراً فأرَدْنَاك ، ونظرت فى دِرْعِى [٨] فأعجبنى ما رأَيْت ، فقلت : يا أبا الخطاب ! قال عمر : فقلت : لبَّيْك ، وفى ذلك أقول [٩] :

عمر مع هند وأترابها

ألم تسأَلِ الأَطلالَ والمُتَرَبَّعا ... بِبطْنِ حُليّات دَوَارِسَ بَلْقَعاَ

إلى السَّرْح [١٠] من وادى المغمَّس بُدِّلت ... معالمُهُ وَبلاً ونَكْباءَ زَعْزَعَا [١١]

---

(١) فى الأغانى : فراق لا لقاء له . (٢) الأغانى : ١ — ١٧٤ (٣) فى الأغانى: جذ .

(٤) فى س : فى حر . (٥) الأغانى : ١ — ١٧٥ (٦) فى الأغانى: الخريت.

(٧) اكتفل البعير : جعل له كفلا . (٨) درع المرأة : قميصها .

(٩) الأغانى : ١ — ١٧٦ ، ديوانه : ٣٣ (١٠) السرح : موضع ، وفى الديوان : إلى الشرى ، وفى ق : الصرح . (١١) نكباء زعزع : ريح شديدة .

فيخلُنَ أو يخبرن بالعِلْمِ بعدما ... نَكَأْنَ فؤاداً كان قِدْماً موجعا(١)
لهندٍ وأترابٍ لهندٍ إذِ الهوى ... جميعٌ وإذ لم نَخْشَ أن يتصدَّعا
وإذ لا نطيعُ العاذلين(٢) ولا نرى ... لواشٍ لدينا يطْلُبُ الهَجْرَ(٣) مطمعا
وإذ نحنُ مثل الماء كان مِزاجه ... كما صفَّق الساقى الرحيقَ المُشَعْشَعَا
تُنُوعتن(٤) حتى عاودَ القلب خَبْلَه ... وحتى تذكَّرت الحبيبَ المودَّعا
فقلت لمُطريهن بالحُسْنِ إنما ... ضَررْتَ فهل تَسْطِيعُ نَفْعاً فتنفعا
وأشريت فاستشرى وقد كان قد صحا ... فؤاد بأمْثال المَهَا كان مُولعا
لئن كان ما حدثت حقًّا فما أرى ... كمثل الألى أطْرَيت فى الناس أربعا
فقال فقم فانظر فقلت وكيفَ لى ... أخافُ حديثا أن يشاع(٥) فيشنُعا
فقال اكتفل ثم التثم فأتِ باغيا ... فسلِّم ولا تُكثِرْ بأنْ تتورَّعا
فأقبلت أهْوِى مثل ما قال صاحبى ... لموعدهِ أبْغى قلوصا موقَّعا(٦)
فلما تواقفنا وسلَّمتُ أقبلت ... وجُوهٌ زهاها الحسن أن تتقنَّعا
تبالَهْنَ بالعِرْفان لمَّا رأينني ... وقلنَ امرُؤٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا(٧)
وقرّبن أسباب الهوى لمتيَّمٍ ... يَقِيس ذِراعا كلما قِسْنَ إصْبَعا
فلما تنازعن الأحاديث قُلْن لى ... أخِفت علينا أن نغرّ ونخدَعا
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً ... إليك وَبيَّنَّا له الأمرَ أجمعا
فما جئتنا إلاّ على وفق مَوْعدٍ ... على ملأٍ منَّا خَرَجْنا له معا
رأينا خلاءً من عُيونٍ ومنظراً ... دَمِيثَ(٨) الرُّبى سَهْلَ المحلة مُمْرِعا

---

(١) فى الديوان : مفجعا ، ونكأ الجرح : قشره قبل أن يبرأ فندى .

(٢) فى الأغانى : الكاشحين .   (٣) فى الأغانى والديوان : الصرم موضعا .

(٤) فى ط ، ق : تنوحين .   (٥) فى الديوان : يشيع .

(٦) الموقع : البعير تكثر آثار الدبر عليه . (٧) أكل : أعيا . أوضع : أسرع فى سيره .

(٨) دميث : سهل .

وقلن كريمٌ نال وَصْلَ كرائمٍ   فحقّ له فى اليـوم أن يتمتّمَا

وقوله : « وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا » يقول : هذه الوجوهُ مُدِلّة بجمالها فلا تختمر ، فتستر شيئاً عن الناظرين إليها . وقد أشار إلى هذا المعنى الشماخ بن ضرار يصف ناقته [(١)] :

كأنّ ذِرَاعَيْهَا ذراع [(٢)] مُدلّةٍ   بُعَيْد الشباب [(٣)] حاولت أَن تعذّرا

من البيض أعطافا إذا اتّصلت دعَتْ   فِراس بن غنم أو لَقِيط بن يَعْمُرا

بها شَرقٌ من زعفران وعَنْبرٍ   أَطارت من الحسن الرِّدَاء المحبّرا

[ستر الوجه]

قال : وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله لا تَسْتُر وجهها ، فلما دخلت على مُصْعب بن الزبير قال لها فى ذلك ، فقالت : إن الله تعالى وسَمنى بمِيسَم جمال ، فأحببتُ أن يراه الناس ، والله مابى وَصْمة أسْتَتر لها .

وقال على بن العباس الرومى يصف قينة :

لم يعتصم عودُها بزامرةٍ   ولا انْضَوى وَجْهُها إلى السّترِ

وقد ردّد معنى قوله : « لم يعتصم عودها بزامرة » فقال يصف برعة الكبيرة :

غنّتْ فلم تحوج إلى زَامِر   هل تحوج الشمس إلى شَمْعه

كأنما غنّت لشَمْسِ الضحى   فألبستها حُسْنُها خِلْعه

كأنمـا رَنّةُ مسموعها   رِقّة شَكْوَى سبقَت دَمْعه

تُهْدِى إلى قَلْبك ما يشتهى   كأنَّهَا قد أطْلعت طَلْعه

يجتمع الظَّرْفُ لجلاّسِها   والحسنُ والإحسانُ فى بُقْعه

طَفِّـل على من حصلت عندهُ   فبعض تطفيل الفَتَى رفْعَه [(٤)]

---

(١) ديوانه : ٢٨ . (٢) فى الديوان : ذراعا . (٣) وفى رواية : بعيد السباب .
(٤) التطفيل : غشيان الوليمة من غير دعوة .

ربيع غيثٍ فانْتَجِعْ رَوْضَهُ فلن يُعابَ الحرّ بالنجعه (١)

[الصلع]

وكان ابن الرومى لا يزال معتمًّا وكان يغضب إذا سُئل عن ذلك . وسأله بعضُ الرؤساء لِمَ تَعْتَمّ ؟ فقال بديها :

يأيّها السّائِلِى لِأُخبِرَهُ عَنى لِمْ لا أراكَ مُعْتَجِرا
أستر شيئاً لو كان يمكننى تعريفه السّائِلينَ مَا سُتِرا

وقد بيّن العلة التى أوجبت اعتمامه فى قوله (٢) :

تعمّمت إحصَاناً لرأسى بُرْهةً من القَرّ يوما والحَرُورِ إذَا سَفَعْ
فلما دهى طولُ التّعَمُّمِ لِمّتى وأودى (٣) بها بعد الإطالة والفَرَع (٤)
عزمت على لُبْس العمامة حيلةً لتستر ما جرّتْ علىّ من الصَّلَع
فيالك من جانٍ علىّ جَنايةً جعلت إليه من جنايته الفَزَع
وأعجب شىء كان دائى جعلتهُ دَوَائى على عَمْد وأعِجبْ بأَنْ نَفَعْ

وهذا كقوله، وإن لم يكن فى معناه ، وقد رأيت من ينسبه إلى كشاجم :

طرِبْتُ إلى المرآة فروَّعَتْنِى طوالعُ شيبتين ألمتّا بِى
فأما شَيْبةٌ ففَزِعْتُ منهـا إلى المقراض حُبًّا للتّصَابِى
وأما شَيْبَةٌ فصفَحْتُ عنها لتَشْهَد بالبراءةِ من خِضَابى
فأعِجبْ بالدليلِ على مَشِيبى أقمتُ به الدليل على شَبَابِى

وهو القائل فى صفة رجل أصلع :

يجذب من نقرته طُرةً (٥) إلى مَدى يقصرُ عن ميلهِ

---

(١) أصل النجعة : طلب الكلأ فى موضعه . (٢) ديوانه ٤٥ .

(٣) فى الديوان : فأزرى بها بعد الاصالة . (٤) الفرع : مصدر الأفرع وهو التام الشعر . (٥) الطرة : الناصية .

فوجْهُه يَأْخُذُ من رأسِهِ أَخْذَ نهار الصَّيْفِ من لَيْلِه

وقال أعرابى :

قدترك الدَّهْرُ صَفَاتِى صَفْصَفَا فصار رَأْسِى جَبْهَةً إلى القَفَا
كأنه قد كان رَبْعاً فَعَفَا

[من كلام الأعراب]

أعرابى يعظ سليمان بن عبد الملك

قال أعرابىٌّ لسليمان بن عبد الملك (١) : إنى أُ كلِّمك يا أميرَ المؤمنين بكلام فاحتمِله ، فإنَّ وراءَه إن قبِلتَه ما تحبُّه ، قال : هاتِهِ يا أعرابى ؛ فنحن نَجُودُ بسعَةِ الاحتمال على مَنْ لا نَأْمن غَيْبته ، ولا نرجُو نصيحته ، وأنت المأمون غيبا ، الناصح جَيْبا (٢) . قال : فإنى سأُطْلِقُ لسانى بما خَرِست عنه الأَلسُن ، تأديةً لحق الله تعالى؛ إنه قدا كتنفك رِجَالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم ، وابتاعوا دُنْيَاكَ بدينهم ، ورضاكَ بسُخْطِ ربهم ، وخافوكَ فى اللهِ ولم يخافوا اللهَ فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، وَسِلْمٌ للدنيا ، فلا تأْمَنْهم على ماائتمنك اللهُ عليه ؛ فإنهم لم يَأْلُوا الأمانةَ تضييعا ، والأمة كسفا وخَسْفا (٣) ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمْتَ ؛ فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك؛ فإنأعظَمَالناسِ عندالله غَبْناً مَنْ باع آخِرَتَه بدُنْيا غيره.

فقال سليمان : أما أنتَ يا أعرابى فقد سلَلت لسانك وهو سَيْفُكَ ، قال : أجل يا أمير المؤمنين لكَ لا عليك .

أعرابى يصف المطر

وروى العتبى عن أبيه عن مولى لعمرو بن حريث (٤) قال : شخصتُ إلى سليمان ابن عبد الملك فقيل لى : إنك تَرِدُ على أفصحِ العرب ، وسيسألك عن المطر ، فانظُرْ ما تجيبه . فقلت : ما عندى من الجواب إلاّ ما عنـد العامّة . فقيل لى : ما ذلك

---

(١) عيون الأخبار : ٢ — ٢٣٧ ، العقد الفريد : ١ — ٣٠٧ .

(٢) كناية عن سلامة الطوية . (٣) فى عيون الأخبار : عسفا ، والعسف : الظلم ، والخسف : الذل . (٤) فى س : حارث .

بمُقْنِع عنده ، فلقيني أعرابي فقلت: هل لَكَ في دِرْهمين ؟ فقال: إنّى والله محتاج إليهما ، حريصٌ عليهما ، فماشأنُك[1]؟ قلت : لو سألك سائل عَنْ هذا المطر بِمَ كنتَ تُجيبه؟ قال : أو يَعْيَا بهذا أَحد ؟ قلت : نعم، سَائِلك ! قال : أَتَعْيَا أن تقول: أصابتنا سماء ، عَمِد[2] لها الثَّرَى ، واتَّصل بها العزَى ، وقَامَتْ منها الغُدُر ، وأتتك في مثل وِجار[3] الضَّبُع . فكتبتُ الكلامَ وأعطيتُه درهمين ؛ فكان هِجِّيراى على الرَّاحلة[4]؛ فإذا نزلت أَقْبَلت عليه وأمثل نفسى كأنى واقفٌ بين يديه ، وقد سلَّمت عليه بالخلافة وهو يَسْأَلنى عن المطر !

فلما انتهيتُ إليه سألنى فاقتصَصْت الكلامَ فكَسَر إِحْدَى عينيه ، وقال : إنى لأَسْمَع كلاما ماأنت بأبي عُذْرَته[5]. قلت : صدقت ! وحياتك ياأمير المؤمنين ، اشتريتُه بدرهمين ! فاستغرب ضَحِكا ، ثم أَحْسَن صِلَتى .

أعرابي يمدح رجلا

وقال أعرابي يمدح رجلا :

حَلِيمٌ مع التَّقْوَى شُجَاعٌ مع الجَدا[6] ... نَدِحِينَ لا يَنْدَى السَّحَابُ سَكُوبُ

ويَجْلُو أموراً لو تَضَيَّفْنَ غيرَهُ[7] ... لمات خُفاتاً[8] أو لكادَ يذوبُ

شديد مَنَاطِ الْقَلب في الموقف الذى ... به لقلوبِ العالَمِينَ وَجيبُ

فتًى هو مِنْ غَيْرِ التخلّق مَاجِدٌ ... ومن غَيْرِ تأديبِ الرِّجَالِ أَدِيبُ

* * *

مدح لبعض المحدثين

وقال بعض المحدَثين يَمْدَح :

فتًى يَجْعَلُ المعروفَ قبل سُؤَالِهِ ... ويَجْعل دون العُذْر فضل التكرمِ

أغرّ متى تَقْصِدْ بهِ فَضْل حظهِ ... تُصِب ومتى تطلب به الغُنْم تَغْنَمِ

---

(١) في س : سببك . (٢) عمد الثرى : بلله المطر ، فهو عمد ، تقبض وتجعد وندى وتراكب بعضه على بعض (اللسان ــ مادة عمد) . (٣) الوجار : جحر الضبع وغيرها .
(٤) كان هجيراه على الراحلة : أى دأبه وشأنه . (٥) ليس بأبي عذرته : ليس صاحبه .
(٦) الجدا : العطية . (٧) في س : مثله . (٨) فجأة .

على رأيه ينضمّ منصدع الصّفا ... وينحلُّ من عُقَد العُرى كل مُبْرَمِ
له عَزْمة أغنى من الجيش فى الوَغَى ... وخَطْرَةُ رامٍ كالحُسَام المصمِّمِ

جملة من كلام أبى الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى بديع الزمان

وهذا اسمٌ وافق مُسَمَّاه ، ولفظٌ طابقَ مَعْناه ، وكلام غَضّ المكاسر ، أَنيق الجواهر ، يكادُ الهواء يسرقه لُطْفا ، والهوى يَعْشَقه ظَرْفا ، ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدى أغْرَب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صَدْرِه ، واستنخبها من معادِن فِكْرِه ، وأبداها للأَبصار والبَصَائر ، وأهداها للأَفكارِ والضمائر ، فى معارض أعجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثرُ ما أَظْهر تَنْبُو عن قبوله الطباع ، ولا ترفعُ له حجبَها الأسماعُ ، وتوسّع فيها ؛ إذ صرّف ألفاظَها ومعانيهاَ ، فى وجوه مختلفة ، وضروبٍ متصرّفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكُدْيَة ، تذوب ظَرْفا ، وتقطرُ حُسْنا ، لامناسبةَ بين المقامتين لفظاً ولامعنى ، وعطف مُسَاجلتها ، ووقَفَ مناقلتها بين رجلين سمَّى أَحدهما عيسى بن هشام والآخر أَبا الفتح الإسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدّر ، ويتنافثان السِّحر ، فى معانٍ تُضْحِكُ الحزين ، وتحرّك الرصينَ ، يتطلّع منها كلّ طريفة ، ويوقف منها على كلِّ لطيفة ، وربما أفرد أَحَدهما بالحكاية ، وخصّ أحدهما بالرواية ؛ وسأذكر منها مالا يخل طولُه بالشرط المعقود ، ولا ينافى حصوله الغرضَ المقصود .

مقامات البديع

كتب إلى أبى نصر أحمد بن على الميكالى [1] :

بعض كتبه : كتاب منه إلى الميكالى

كتابى أعزّ الله الأمير ، وبودّى أن أكونه ، فأسعد به دونه ، ولكنّ الحريصَ محروم ، لوبلغ الرزق فاه لولاّه قفاه . فرّق الله بين الأيام تفريقَها بين الكرام ، وألهمها أن تورد [2] بعقل ، وتُصدر بتمييز ، وما ذلك على الله بعزيز ، وأنا فى مفاتحة الأمير ،

(١) يتيمة الدهر : ٤ ــ ٢٤٧ ، رسائل البديع : ١٤٦ . (٢) فى الرسائل : والهمذانى يورد .

بين ثقة تَعِد ، ويد تَرْتعِد ، ولم لا يكونُ ذلك ؟ والبحر وإن لم أره فقد سمعتُ خبرَه ، ومن رأى مِنَ السيف أَثره فقد عاين أكثرَه ، والليث وإن لم أَلْقَه [(١)] فلم أجهل خلقه ، وما وراء ذلك من تالدِ أصْلٍ وحَسَب ، وطارفِ فَضْلٍ وأدب ، وبُعْد همة وصِيت ، فمعلوم تَشْهَد به الدفاتر ، والخبرُ المتواتر ، وتنطق به الأشعارُ ، كما تصدق [(٢)] به الآثارُ ، والعين أقلُّ الحواس إدراكا ، والأذن أكثرها استمساكا ، وإن بعدت الدار فلا ضَيْر ؛ إنّ أَيْسَر البعدين بُعْدُ الدارين ، وخيرَ القربين قُرْبُ القلبين .

كتاب آخر إليه

وكتب إليه فى سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة [(٣)] : الأمير الفاضل ، والشيخ الرئيس، رفيع مناط الهمة ، بعيد منال الحرمة [(٤)] ، فسيح مجال الفضل ، رحيب منخرق [(٥)] الجود ، رطيب [(٦)] مكسر العود .

فلو نظمت الثريا والشِّعرَيَيْنِ قَرِيضا
وكاهل الأرض ضرْبا وشمم رَضْوَى عَرُوضا
وصُغْت للدر ضدّا [(٧)] وللهــواء نقيضا
بل لو جلوت عليــهِ سُود النوائب بِيضَا
أو ادّعيت الثريا لأخمصيه حَضِيضا
والبحر عند [(٨)] لهاه يوم العطاء مغيضا

لما كنت إلاَّ فى ذمة القصور ، وجانب التقصير ، فكيف وأنا قاعدُ الحالة فى المدح ، قاصرُ الآلة عن الشَّرْح؟ ولكنى أقول : الثناء مُنجِحٌ أنى سلك ، والسخىُّ

---

(١) فى الرسائل : وإذا لم ألقه فهل أجهل خلقه ، وفى س : فلم أجهل إلا خلقه .

(٢) فى الرسائل : كما تختلف . (٣) يتيمة الدهر : ٤ — ٢٧٣ ، رسائل البديع : ٦٠ . وفى الرسائل إنه كتبها إلى الشيخ أبى جعفر الميكالى . (٤) فى اليتيمة والرسائل : الخدمة .

(٥) فى الرسائل : مخترق. (٦) فى اليتيمة والرسائل : طيب معجم العود ، وفى ق : رطب.

(٧) فى ق : خداً . (٨) فى اليتيمة : عبد .

جوده بما ملك ، وإن لم تكن غُرَّةٌ لائحة فلَمْحَةٌ دالة ، وإن لم يكن صَدّاء[١] فماء ، وإن لم يكن خمر فخلّ ، وإن لم يُصِبْها وابل فطلّ ، وبَذْلُ الموجود غايةُ الجود ، وبعض الجهد[٢] آخر المجهود ، وماش خير من لاش ، ووجود ماقلّ خيرٌ من عدم ما جلّ . وقليل فى الجيب خير من كثير فى الغَيْب ، وجهد المقل خيرٌ من عذر المخل ، وحمار أيْس خير من فرس لَيْس[٣] ، وكوخ فى العِيان خيرٌ من قصر فى الوهم . وزيت خير من ليت ، وما كان أجود من لَوْ كان ، وقد قيل : عصفور فى الكفّ أجودُ من كركى فى الجوّ ، ولأن تقطف خَيْرٌ من أن تقف ، ومن لم يجد الجميم[٤] رعى الهشيم[٥] ، ومن لم يحسن صهيلا نَهق ، ومن لم يجد ماء تيمَّم ؛ والأمير الرئيس أدام الله نعماه لا ينظر فى قوافى صنيعته[٦] إلى رَكَاكَة ألفاظها ، وبُعْدِ أغراضها ، ولكن إلى كثرة جذرها ، وثقل مهرها ، وقلَّة كفئها ، وإننى منذ فارقت قصبة جرجان ، ووطئت عتبة خراسان ، ما زففتها إلا إليه ، ولا وَقَفْتُها إلا عليه ، هذا على تمرّغى فى أعطاف المحن ، وضرورتى إلى أبناء الزمن ، وإن كان الأمير الرئيس يرفعُ لكلّ لفظٍ حجابَ سمعه ، ويُفسِح لكل شعر فِناء طبعه ، فهاك من النثر ما ترى ، ومن النظم ما يترى[٧] :

أدهق[٨] الكاس فعَرْف الْفَجْرِ قد كادَ يلوحُ
فهو للناس صباحٌ ولذى الرأى صبوحُ
والذى يمرح بى فى حَلْبة اللَّهو جموحُ
فاسقنيها والأمانِىُّ لها عَرف يفوحُ
إنّ للأيام أسرارًا بها سوف تبُوحُ

(١) فى الرسائل : صدر . (٢) فى الرسائل : الحمية .

(٣) الأيس : القهر ، يريد أن حمار الضرورة خير من الفرس المعدوم .

(٤) فى اليتيمة والرسائل : الحميم . (٥) الجميم : النبت الغزير ، والهشيم : اليابس .

(٦) فى الرسائل : صنيعه . (٧) اليتيمة : ٤ ــ ٢٧٧ ، والعبارة فى الرسائل : فهاك من الشعر ما يقرى ، ومن النظم ما ترى . (٨) فى اليتيمة والرسائل : اذهب .

لا يغرنّك جسمٌ صادقُ الحِس[1] وروح
إنما نحن إلى الآ جال نَغْـدُو ونروح
ويْك هذا العمر تبري ـحٌ[2] وهذا الروح ريحُ
بينما أنت صحيح الْ جسم إذ أنتَ طَريحُ
فاسقنيها مثـل ما يلـ فظه[3] الدّيك الذّبيح
قبل أن يضرب فى الدَّهْ رِ[4] بىَ القِدح السنيح[5]
إنمـا الدهرُ غَرورٌ[6] ولمن أَصْغَى نصيحُ
ولسان الدهر بالوَعْ ظِ لواعيهِ فَصيحُ
نستبيح[7] الدهر والأ يّا م منـــا تَسْتبيح[7]
نحن لاهون وآجا ل المنـايا لا تريح[8]
ياغلام الـكأس فاليأ س من الناس مُريحُ
ضاع ما نحميه من أ فسنا وهو مبيح[9]
وقنوعا فمقـام الـ ذّلّ بالمرء قبيح
أنا يا دهر بأبنـــا ئك شِقٌّ وسَطيح[10]
وبأبكار القـوافى لا على كفء شحيح
يا بنى ميـكال والجو د لعِـلّاتى مُزِيح
شرفاً إن مجـال الْ فضل فيـكُمْ لفسيحُ
وعلى قدر سنا الْ ممدوح يَأْتيكَ المديحُ
فهناك الشرف الأَر فع والطَّرْف الطَّمُوح

(١) فى اليتيمة : الحسن . (٢) فى اليتيمة : تفريح . (٣) فى س : ما يلفظها .
(٤) فى ط : فى العمر . (٥) فى الرسائل واليتيمة : السفيح .
(٦) فى اليتيمة والرسائل : عدو . (٧) فى اليتيمة : نستميح .
(٨) فى اليتيمة : المنى لا تستريح . (٩) فى اليتيمة : يبيح ، وفى س : صريح .
(١٠) شق وسطيح : كاهنان .

والنـدى والخُلق الطا هر والخَلْق [١] الصبيح
مرتقى مجد يحـار الـ طّرف فيـه ويطيح
أىُّ هـذا الـكرم الما ثل والخلق السجيح
كان هـذا الجود ميتاً عادَه منـك المسيح

هـذه أطال الله بقاءَ الأمير هدية الوقت ، وعَفْوُ الساعة ، وفَيْضُ البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليدِ للفم ، وجمرات الحدّة ، وثمرات المدّة ، ومجاراة الخاطر للناظر ، ومباراة [٢] الطبّع للسَّمْع ، ومجاذبة الجنان للبيان ، والشعر إذا لم تتقدمه روّية ، ولم تنضجه نيّة ، لم يفتح له السمع بابه ، ولم يرفع له القلب حجابه ، وإذا لبس الأمير هذه على علاتها رجوت أن يكون بعدها ماهو أفتن [٣] وأحسن وأرصن ، فرأيه أيده الله فى الوقوف عليها موفقا إن شاء الله .

عتاب البديع للميكالى

وله إليه معاتبة [٤] :

لَئِنْ سَاءَنى أَنْ نِلْتنى بمَسَاءَةٍ لقـد سرَّنى أنّى خَطَرْتُ ببالك

الأمير الفاضل الشيخ الرئيس ، أطال اللهُ بقاءه إلى آخر الدعاء ، فى حَالِ [٥] بِرّه وجفائه مُتَفضّل ، وفى يومَىْ إبعاده وإدْنائِه متطوِّل . وهنيئا [٦] له من حِمَانا ما يُحِلّه ، ومن عرانا مايحُله ، ومن أَعْرَاضِنا مايستحلُّه ؛ بلغنى أَنه ــ أَدامَاللهُ عِزّه ــ استزاد صنيعته [٧] ، وكنت أظنّنى مَجْنِيًّا عليه ، مُسَاءً إليه ، فإذا أنا فى قرارة الذَنْبِ وبمثابة العتْب ، وليت شعرى أىّ محظور فى العشرة حَضَرْته ، أو مفروض من الخِدْمَة رَفَضْتُه ، أو واجبٍ فى الزيارة أَهْمَلْتُه ؟ وهــــل كنتُ إلا ضيفاً أهداه بلدٌ [٨] شاسع ، وأَدَّاه أملٌ واسع ، وحَدَاه فَضْلٌ وإن قلّ ، وهدَاهُ رَأْىٌ وإنْ

(١) فى الرسائل : والوجه . (٢) فى س : مساراة . (٣) فى الرسائل : مابعد أمتن.
(٤) رسائل البديع : ٦٣ . (٥) فى الرسائل : حالى . (٦) فى ق : وهبنا له .
(٧) فى الرسائل : صنيعه ، وفى ق : استزراء صنيعته . (٨) فى الرسائل : منزع شاسع.

ضَلّ ، ثم لم يُلْقِ إلاَّ فى آلِ مِيكَالَ رَحْلَه ، ولم يَصِلْ إلاَّ بهم حَبْلَه ، ولم يَنْظِم إلاَّ فيهم شِعْرَه ، ولم يَقِفْ إلا عليهم شُكْرَه ؛ ثم ما بَعُدَتْ صحبةٌ إلا دَنَتْ مَهَانَة ، ولا زادت حُرْمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعَفَتْ مِنة ، إلاّ تراجعت[1] مَنْزِلة، ولم تزل الضَّعَة[2] بنا حتى صار وابلُ الإعظام قَطْرَة ، وعاد قميصُ القيام صُدْرَة ، وذلك التقربُ ازوِرَارا، وطويل[3] السلام اختصارا ، والاهتزازُ إيماء، والعبارة إشارة ؛ وحين عاتبته آمل إعتابه ، وكاتبته أَنْتَظِر[4] جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت ، وأَعْتَب بالقُنُوت ، فاازددت إلاَّ له ولاءً ، وعليه ثناءً ؛ لا جَرَم إنى اليوم أبيضُ وَجْهِ العهد ، واضح محجَّةِ الوُدّ ، طويلُ عِنَان القول، رفيع[5] حِكْمَةِ العُذْر؛ وقد حمَّلت فلاناً من الرسالة ما تجافَى عنه القلم ؛ والأمير الرئيس أطال الله بقاءه يُنْعِمُ بالإصغاء لما يورده موفقاً إنْ شاء الله .

رسالة أخرى إليه

وله إليه فى هذا الباب :

أنا فى[6] خدمة الأمير الرئيس ، أطال الله بقاءه، مترجِّحٌ بين أَنْ أَشْرَبها رنقة[7] ولا أُسِيغُها ، وألجلج منها مُضْغة[8] ولا أُجيزها ، وبين أَنْ أَطْوِيهَا على غَرِّها ، ولا أرتضع أَخْلاف دَرِّها .

فلاَ نَفْسِى تُطاوِعُنى لِرَفْضٍ ولا هِمَمِى تُوَطِّنُنِى لخَفْضِ

وبقى أن أقرُصَه بأنامل العَتْبْ ، وأَحْشِمَه[9] بألحاظ العَذْل ، وأعرفه أنى ما أطْوى مسافةَ مزار إلاّ متجشّما ، ولا أطأُ عَتَبَةَ دار إلا متبرِّما ؛ ولستُ كمن يَبْسُط

---

(١) فى ق : همة إلا تواضعت . (٢) فى الرسائل : الصفة . (٣) فى الرسائل : وذلك .
(٤) فى ق : وحين عاتبته وكاتبته أرجو عتابه وأنتظر جوابه وسألته آمل .
(٥) فى الرسائل : حكم . (٦) رسائل البديع : ٦٥ . (٧) رنقة : كدرة .
(٨) ألجلج : أردد . المضغة : قطعة لحم وغيره . وفى ق ، س : وأتلجلج .
(٩) حشمته : أخجلته ، وأحشمته : أغضبته ، وفى بعض الأصول : وأجمشه ، وأصل الجمش المغازلة .

يدَهُ مُسْتَجْدِيا ، أو ينْقُل قدمَه مُسْتَعْدِيا (١) ؛ فإن كان الأميرُ الرئيس ـ أيّده اللهُ ـ يسرح طَرْفَه منّى فى طامح أو طَامِع ، فليُعِد للفِراسةِ نَظرا .

فما الفقْرُ من أرض العشيرة ساقَنا إليك ولـكنّا بِقُرْبَاكَ ننجحُ

وأجِدُنى كلما استفزنِى الشوقُ إلى تلك المحاسن ، أطِير إليها بجناحين عَجِلا ، وأرجع بعَرْجاوَيْن خَجِلا ، ولولا أنّ الرضا بذلك ضربٌ من سقوط الهمّة ، وأن العتابَ نوعٌ من أنواع الخدمة ، لصُنْتُ مجلسه عن قلمى ، كما أَصُونه عن قدَمِى ، ولِمِلْتُ إلى أرْض الدعاء فهو أنْجَع (٢) ، وإلى جانبِ الثناء فهو أوْسَع (٣) ، وسأفعل لتخفّ مؤنتى ، ولا تثقل وَطْأَتِى .

إذا ما عَتَبْتَ فلم تُعْتِبِ (٤) وهُنْتُ عليك فلم تَعنَ بى
سلَوْت ولو كان ماء الحياة لعِفْتُ الورُودَ ولم أشْرَب

قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر فى معان شتى
تجرى مجرى الأمثال

أبو فراس الحمدانى :

إذا كان غيرُ اللهِ للمَرْءِ عُدَّةً أتتْهُ الرّزَايَا من وُجوهِ المَكَاسِبِ

وله :

عَفَافُك عِيٌّ إنما عِفّةُ الفَتى إذا عَفّ عن لَذّاتِه وهو قادِرُ

وقال المتنبى (٥) :

كلُّ حِلْمٍ أَتَى بغَيْرِ اقْتِدار حُجّةٌ لاجِئٌ إليها اللئّامُ

---

(١) فى الرسائل : مستغذيا . (٢) فى الرسائل : أنفع . (٣) فى الرسائل : أوقع .
(٤) أعتبه : أزال عتبه . (٥) ديوانه : ٤ ـ ٩٣ .

وله[١] :

وإذا كانتِ النّفُوسُ كِبارًا تَعِبتْ فى مُرادِها الأجْسامُ

وله[٢] :

وإذا أتتْكَ مَذَمّتى من ناقصٍ فهى الشَّهادَةُ لى بأنى كامِلُ

وله[٣] :

لا يُعْجبنَّ مَضيما حُسْنُ بِزَّتِه وهل تَرُوقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفنِ

وله[٤] :

من أطاقَ الْتِماسَ شَىءٍ غِلابًا واغْتِصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

وله[٥] :

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النفوسِ فإنْ تَجدْ ذا عِفَّةٍ فلِعِلّةٍ لا يَظْلِمُ

وله :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبُه أنى بمـا أنا بَاكٍ مِنْـه مَحْسُودُ

وله[٦] :

ذِكْرُ الْفتى عُمْرُه الثّانِى وحاجَتُه ما قَاتَه وفُضُولُ الْعَيْشِ أشغالُ

والمتنبى أَكْثَرُ المحدّثين افتِناناً وإحساناً فى الإغراب بهذا البابِ ؛ والاستقصاء يخرج عن شرط الكتاب .

وقال السرى الموصلى :

خذُوا من العيشِ فالأعمـار فَائتَة والدهرُ مُنْصَرِمٌ والعيشُ مُنْقَرِضُ

وله :

فإنك كلّما استُودِعْتَ سِرًّا أَنمُّ مِنَ النَّسيمِ على الرِّياضِ

---

(١) ديوانه : ٣ ـ ٣٤٥ . (٢) ديوانه : ٢ ـ ٢٦٠ . (٣) ديوانه : ٤ـ٢١٣ .

(٤) ديوانه : ٣ ـ ١٤٧ . (٥) ديوانه : ٤ ـ ١٢٥ . (٦) ديوانه : ٣ـ٢٨٨ .

وقال أبو إسحاق الصابى :

الضبّ والنّون[1] قد يُرْجَى التقاؤهما   وليس يُرْجَى التقاءُ اللبِّ والذّهبِ

وقال ابن نباتة[2] :

مثَلٌ خلَعْتُ على الزمان رِداءَه[3]   عوَزُ الدّرَاهمِ آفةُ الأَجْوادِ

وله[4] :

يهوى الثناءَ مبرِّزٌ ومُقَصِّرٌ   حبُّ الثنـاءِ طبيعةُ الإنسانِ

وقال أبو الحسن السّلامى :

تبسّطنا على اللّذّات لمّا   رَأَيْنَا العَفْوَ من ثَمَرِ الذُّنوبِ

وقال ابن لنكك البصرى :

وماذا أُرَجِّى من حَياةٍ تـكدّرتْ   ولو قد صَفَتْ كانَتْ كأَحْلامِ نائمِ

وقال أبو طالب المأمونى :

لى فى ضَمير الدهرِ سِرٌّ كامِنٌ   لابدّ أن تستَلّه الأقدارُ

وقال أبوالفضل بن العميد :

الرأى يَصْدَأُ كالحُسام لعارِضٍ   يطْرَا عليـه وصَقْلُه التذكيرُ[5]

وقال أبو الفتح[6] :

بطِرْتم فطِرْتُم والعَصَا زَجْرُ مَنْ عَصَى   وتقويم عَبْـد الهُون بالهُونِ رادِعُ

وله :

إذا بلغ المرءُ آمالَهُ   فليس له بعـدها مُقْتَرَحْ

وقال الصاحب إسماعيل بن عباد[7] :

إن أمّ الصقر فى الودْ   دِ لَمِقْلاتٌ نزورُ[8]

---

(١) النون : الحوت ، اليتيمة : ٢ ـ ٢٦٧ .   (٢) يتيمة الدهر : ٢ ـ ٣٦٤ .

(٣) فى اليتيمة : رواءه .   (٤) اليتيمة : ٢ ـ ٣٦٤ .   (٥) المذكر من السيوف : ذو الماء .   (٦) فى س : وقال ابنه أبو الفتح .   (٧) يتيمة الدهر : ٣ ـ ٢٣٩ .

(٨) المقلات : ناقة تضع واحداً ثم لا تحمل . وامرأة لايعيش لها ولد .

وله :

مَن لم يَعُدْنَا إذا مَرِضْنَا ... إِنْ مات لم نَشْهَد الجنازَه

وله :

حِفْظُ اللسانِ راحةُ الإنسانِ ... فاحْفَظه حِفْظَ الشكر للإحسانِ

وقال إسماعيل الناشى :

وكنتُ أَرَى أنَّ التجاربَ عُدَّةٌ ... فخانتْ ثِقاتُ الناسِ حتى التجارب

وقال أبو الفتح البستى :

لا تَرْجُ شيئاً خالصاً نَفْعُهُ ... فالغيثُ لا يَخْلُو من العيثِ[1]

وله :

ولم أر مثل الشكر جَنَّة غارسٍ ... ولا مثلَ حُسْنِ الصبر جُبَّة[2] لابِسِ

وله[3] :

وطول مُقام[4] الماء فى مستقرِّهِ ... يغيره ريحاً ولوناً ومَطْعَما

وله[5] :

ما استقامت قَنَاةُ رأيِىَ إلاَّ ... بعد ما عوَّجَ[6] المَشِيبُ قَنَاتِى

وقال أبو الفضل الميكالى[7] :

هو الشوكُ[8] لا يُعْطِيك وافرَ منّةٍ ... يدَ الدّهر إلا حينَ تَضْرِبه[9] جَلْدَا

وله[10] :

ذو الفضل لا يَسْلَمُ من قَدْح ... وإنْ غَدَا أقْوَم من قِدْحِ

---

(١) العيث : الإفساد .   (٢) فى س : جنة .   (٣) اليتيمة : ٤ — ٣٠٩ .

(٤) فى اليتيمة : جام الماء .   (٥) اليتيمة : ٤ — ٣٠٦ .

(٦) فى اليتيمة : بعدما قوس .   (٧) اليتيمة : ٤ — ٣٤٦ .

(٨) فى اليتيمة : هو السؤل .   (٩) فى اليتيمة : إلا حين أبصرته .

(١٠) اليتيمة : ٤ — ٣٥٠ .

وقال شمس المعالى :

وفى السماء نجومٌ مالها عددٌ   وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

هذا مأخوذ من قول الطائى(١) :

إنّ الرياحَ إذا ما استعصفت(٢) قَصَفَتْ   عيدانَ نجْدٍ فلم يعبأنَ بالرتَمِ(٣)

بناتُ نعشٍ ونَعْشٌ لا كُسوفَ لهـا   والشمسُ والبَدْرُ منها(٤) الدهر فى الرَّقَم

وقال أبو الحسن على بن عبد العزيز القاضى :

الهجر أَرْوَحُ من وَصْلٍ على حَذَرٍ   والموتُ أَطْيَب من عَيْشٍ على غَرَرِ

وقال أبو بكر الخوارزمى :

لا تغرَّنْك هـذه الأوجه الغرْ   ر فيَارُبَّ حَيَّـةٍ فى رِياضِ

[بعد تبدل الحال]

أبو العيناء وابن فرخان شاه

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فَرْخان شاه يَتِيهُ علىَّ فى ولايته الوَزارَة ، فلما صُرِف رَهِبَنى، فلقينى فسلّم علىّ فأَحْفَى(٥) . فقلت لغلامى: مَنْ هذا ؟ قال: أبوموسى ؛ فدنوتُ منـه وقلت : أعزَّكَ الله ، والله لقد كنتُ أَقْنَع بإيمائك دون بيَانِك ، وبلَحْظِك دون لَفْظِك ، فالحمدُ لله على ما آلَتْ إليه حالُك ، فلئن كانت أَخْطَأَتْ فيك النّعمةُ ، فلقد أصابت فيك النِّقْمَةُ ، ولئن كانت الدنيا أَبْدَتْ مقابِحَها بالإقبال عليك لقـد أظهرَتْ محاسنها بالانصرافِ عنك ، ولله المِنّة إذ أغنانا عن الـكَذِبِ عليك ، ونزَّهَنَا عن قول الزُّورِ فيك، فقد والله أَسأْتَ حَمْلَ النّعم ، وماشَـكَرْتَ حق المُنْعِم، فقيل له : ياأبا عبد الله؛ لقد بالغت فى السبّ ، فما كان الذّنب ؟ قال : سألته حاجةً أقلّ من قيمتِه ، فردّنى عنها بأقبحَ من خِلْقَتِه .

---

(١) ديوانه : ٣١٥ .   (٢) فى الديوان : أعصفت .   (٣) الرتم : نبت ضعيف

(٤) فى الديوان : منه ، والرقم : الداهية .   (٥) بالغ فى إكرامه وإظهار السرور والفرح .

ابن الرومى وأبو الصقر

وقال علىّ بنُ العباس الرومى لأبى الصقر إسماعيل بن بلبل لما نكبه الموفق أبو أحمد وألمَّ فى بعض قوله بقول أبى العيناء :

لا زالَ يومُك عِبرةً لغـدكْ ... وبـكَت بشَجْوٍ عين ذى حَسَدِك
فلئن نـكَبْتَ لطالما نُـكِبَتْ ... بك هِمـةٌ لجأتْ إلى سَنَدِك
لو تسجد الأيّام ما سجدتْ ... إلّا لِيَوْمٍ فتَّ فى عَضُـدك
يا نِعْمَةً ولتْ غضارَتُها[١] ... ما كان أقْبَحَ حُسْنَها بِيَـــدِك
فلقد غدَتْ بَرْدًا على كَبدى ... لمـا غدَتْ حرًّا على كَبِدِك
ورأيتُ نُعْمَى اللهِ زائدةً ... لمـا اسْتَبانَ النّقص فى عَددِك
ولقـد تمنّت كل صاعقـةٍ ... لو أنها صُبّت على كبدك[٢]
لمْ يَبْقَ لى ممـا برَى جسدى ... إلاَّ بقـاء الرُّوح فى جَسَدِك

وله فيه أهاجٍ كثيرة لما نـكب ، منها قوله[٣] :

خَفِّض أبا الصَّقر فـكم طائرٍ ... خرَّ صريعاً[٤] بَعْدَ تَحْليق
زُوّجت نعمى لم تكن كُفْأها ... فَصانهـا اللهُ بتطليق
لا قُدّست نُعْمَى تَسَرْبَلْتَها ... كم حجـةٍ فيها لِزِنْدِيق

وكان أبو الصقر لما ولى الوزارة مدحه ابن الرومى بقصيدته النونية التى أولها[٥] :

أجْنَينَكَ الورد[٦] أغصان وكُثْبان ... فيهن نوعان تُفّاحٌ ورمّانُ
وفوق ذَيْنِك أعنـابٌ مُهَدَّلَةٌ ... سُودٌ لهن من الظلماء ألوانُ
وتحت هاتيك عُنّاب تَلوح به[٧] ... أطرافهن قلوب القوم قِنْوَان

---

(١) الغضارة : النعمة والسعة . (٢) فى بعض الأصول كتدك ، والـكتد : مجتمع الكتفين.
(٣) ديوانه : ١١٠ . (٤) فى الديوان : صريعا . (٥) ديوانه : ٢٠ .
(٦) فى الديوان . أجنت لك . (٧) العناب ثمر ، وفى ق ، س : تلوغ ، ولاغ الشىء : أداره فى فيه ثم لفظه .

غصونُ بانٍ عليها الزهر فاكِهة ... وما الفواكِهُ مما يَحْمِلُ البانُ
ونرجس بات سَارِى الطَّلّ يَضْرِبهُ ... وأقحوان مُنير اللَّون رَيَّانُ
أَلّفن من كل شىء طَيِّبٍ حَسَنٍ ... فهنّ فاكِهةٌ شتّى ورَيْحانُ
ثمار صِدْقٍ إذا عاينت ظاهِرَها ... لـكنهاحين تَبْلُو الطَّعْمَ خُطْبَانُ (١)
ولا يَدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقدٍ ... والغانيات (٢) كما شُبِّهن بُسْتَان
يَميلُ طوراً بحمل ثم يعدمهُ ... ويَكْتَسِى ثم يُلْفَى وهو عُرْيانُ

وهى أكثر من مائتى بيتٍ ، مرَّ له فيها إحسانٌ كثير ، فأنشدها أبا الصقر ، فلما سمع قوله (٣) :

قالوا أبو الصقر من شَيْبَان قلت لهم ... كلاّ لعمرى ولـكِنْ منه شَيْبانُ

قال : هجانى ، قيل له : إنّ هذا من أحسن المدح ؛ ألاَ تسمع ما بعده :

وكم أبٍ قد عَلَا بابْنٍ ذُرَى شَرَفٍ ... كما عَلَتْ برسول الله عَدْنانُ

قال : أنا بشيبان لا شيبان بى . فقيل له : فقد قال :

ولم أقصِّر بشَيْبَان التى بلَغَتْ ... بها المبالغ أَعراقٌ وأغصانُ
لله شيبان قوم لا يَشُوبُهُم ... رَوْع إذا الروع شابَتْ منه وِلْدَانُ

فقال : لا والله لا أُثيبه على هذا الشّعر ، وقد هجانى .

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولى : كنتُ يوما عندعبيد الله بن عبدالله بن طاهر ، وقد ذكروا قصيدةَ ابن الرومى هـذه النونية فقال : هذه دارُ البطيخ ، فاقرءوا تشبيهاتها (٤) تعلَموا ذلك ! فضحك جميع من حضر .

---

(١) الخطبان من الحنظل : ما فيه خطوط خضر ، وهى خطبانة — بالضم ، وجمعها خطبان .
(٢) فى الديوان : أنى وهن . (٣) مختارات البارودى : ١ — ٢٠٢ .
(٤) فى س ، ق : تشبيها .

وفى هذه القصيدة يقول من المختار فى النسيب [١] :

يارُبَّ حُسّانةٍ منهن قد فعلت سُوءًا وقد يفعل الأَسْوَاءَ إحسانُ
تُشكى [٢] المحب وتُلْفى الدَّهْرَ شاكِيةً كالقَوْس تصمى [٣] الرَّمايا وهى مِرْنان

وهذا كقوله فى قصيدة يَصِفُ فيها قوس البندق [٤] :

لها رَنّة أَوْلَى بها من تصيبهُ وأَجْدَر بالإعوال مَنْ كان مُوجَعا

يقول فيها [٥] :

لا تَلْحَيانى وإيّاها على ضَرَعى وزَهْوها ، لجَّ مَفْتُون وفتّانُ [٦]
إنى مُلكت فَبِى للرِّقِّ مَسْكَنةٌ ومُلِّكَتْ فلَها بالمُلْك طُغْيَان
لى مُذْ نأت [٧] وجنةٌ رَيَّا بعشْرَبها [٨] من عَبْرَتى وفمٌ ما عِشْتُ ظمآنُ

وفيها فى مدح بنى شيبان [٩] :

قومٌ سماحتهم غَيْثٌ ونَجْدَتُهُمْ غَوْثٌ وآراؤهم فى الخَطْبِ شُهْبَانُ
تَلْقاهُمُ ورِماحُ الخطّ حولهم كالأُسد ألبسها الآجامَ خَفّانُ [١٠]
صَانُوا النفوسَ عن الفَحْشاء وابتذلوا مِنهنّ فى سُبُل العلياء ما صَانُوا
المنعمون وما منُّوا على أَحَدٍ يَوْماً بنُعْمى ولو منُّوا لما مَانُوا [١١]

يقول فيها فى أبى الصقر :

يَفْديه مَنْ فيه عن مِقْدار فِدْيَتِه عن المُفاداة تَقْصِيرٌ ونُقْصَانُ
قومٌ كأنهمُ مَوْتى إذا مُدِحوا وما لهم من حَبِيرِ [١٢] الشعر أكْفان

(١) ديوانه : ٢٢ . (٢) فى الديوان : تصمى المحب . (٣) تصمى : تقتل وتبيد .
(٤) ديوانه : ٣٠٠ . (٥) ديوانه : ٢٣ . (٦) فى الديوان : فكلا الأمرين ديدان.
(٧) فى الديوان : مذ نأوا . (٨) فى ق : بعشرقها .
(٩) مختارات البارودى : ١ ـ ٤٠٢ .
(١٠) خفان : مأسدة قرب الكوفة .
(١١) مان : كذب . (١٢) الحبير : الناعم الجديد .

صاحى الطباع إذا سالت[١] هَواجسُه ... وإن سألت[٢] يدَيْه فهوَ نَشْوانُ
يُصحيه ذِهنٌ وَيأْبَى صَحْوُهُ كرمٌ ... مُسْتَحْكِمٌ فهو صاح وهو سكْرانُ
فردٌ جميعٌ يرَاهُ كلُّ ذى بَصَرٍ ... كأنه النـــاس طُرًّا وهو إنسانُ

وهذا كقول أبى الطيب[٣] :

ولَقيتُ كلَّ الفاضلينَ كأنَّما ... ردَّ الإلهُ نفوسهم والأعْصُرَا
نُسِقوا لنا نَسَقَ الحساب مُقـدَّما ... وأتى فذلِكَ إذْ أتيتَ مُؤَخَّرَا

وقد تقدم .

وقال[٤] :

فإنْ يكُ سَيَّارُ بْنُ مكْرمٍ انقَضَى ... فإنَّكَ ماءُ الوَرْدِ إن ذهب الوردُ
مَضَى وبَنوهُ وانفرَدْتَ بفَضْلِهمْ ... وأَلْفٌ إذا ما جُمِّعَتْ واحِـدٌ فَرْدُ

وقال البحترى[٥] :

ولم أرَ أمْثَال الرجالِ تفاوتاً ... لدى المجد، حتى عُدَّ ألْفٌ بواحدِ

ومدحه وعاتبه بقصائد كثيرة فما أنجحت ، فمن ذلك قوله فى قصيدة طويلة يمدحه[٦] :

فى وَجْهِه رَوْضَةٌ للحُسنِ مونِقَةٌ ... ماراد[٧] فى مثلها طَرْفٌ ولا سَرَحا
طَلُّ الحياءِ عليها ساقطٌ[٨] أبداً ... كاللؤلؤ الرَّطْبِ لو رَقْرَقْتَه سَفَحا
أنا الزعيم لمكحولٍ بغرَّتهِ ... ألَّا يرى بعدها بُؤْساً ولا ترَحا
مهما أتى الناس من طَوْلٍ ومن كَرَم ... فإنمـا دخلوا البابَ الَّذى فَتَحا
يُعْطِى المُزاحَ ويعطى الجدَّ حقَّهما ... فالموتُ إن جدَّ والمعروفُ إن مَزَحا

---

(١) فى المختارات : إذا ساءلت هاجسه . (٢) فى س : أسالت .
(٣) ديوانه : ٢ ـ ١٧٠ . (٤) ديوانه : ١ ـ ٣٨٠ .
(٥) ديوانه : ١ ـ ١٣٦ . (٦) مختارات البارودى : ١ ـ ٣٣١ .
(٧) راد : ارتاد . (٨) فى المختارات : واقع .

وافى عطاردَ والمرِّيخ مَوْلدهُ ... فأعْطَياه من الحظَّيْنِ ما اقْتَرَحا
إنْ قال : لا ، قالها للآمريه بهـا ... ولم يَقُلْها لمن يستَمْنِح المِنَحا
فى كَفِّهِ قلمٌ ناهيك من قَلمٍ ... نُبْلًا وناهيك من كَفٍّ بما اتَّشَحا
يَمْحُو ويُثبِتُ أرْزاقَ العبادِ به ... فما المقاديرُ إلا ما مَحا ووَحَى[1]
كأنما القلمُ العلوىّ فى يدِهِ ... يُجْرِيه فى أى أنحاءِ البلادِ نَحا
لما تبسّم عنك المَجْدُ قلتَ له ... قَهْقِه فلا نَغَلًا تُبْدِى ولا قَلَحا[2]
أُثنى عليك بنُعْماك التى عَظُمَتْ ... وقد وجدت بها فى القَوْلِ مُنْفَسحا
أمطر بذاك جَنَانى تكسه[3] زَهَرًا ... أنتَ المحيّا بريّاه إذا نَفَحا

أنشدتُها على متوالى[4] الاختيار ، وكذلك أجرى فى كثير من الأشعار .

وقال يعاتبه ويستبطئه[5] :

عَقيدَ النَّدَى أطلِقْ مَدائح جَمَّةً ... حبائسَ حَسْرى[6] قد أبَتْ أن تسرَّحا
وكُنْتَ مَتى تنشد مديحاً[7] ظَلَمْتَهُ ... يُرى لكَ أهْجى[8] مايُرى لك أمدحا
عَذَرْتُكَ لو كانت سماءٌ تقشَّعتْ ... سَحائبُها أو كان رَوْضٌ تَصَوَّحا
ولكنها سُقْيا حُرِمْتَ رَوِيَّها ... وعارِضُها مُلْقٍ كَلاكِلَ[9] جُنَّحا
وأكْلاءُ مَعْروفٍ حرمت[10] مَرِيعَها ... وقد عاد منها السَّهْلُ والحَزْنُ مَسْرَحا
عَرَضْتُ لأورادى[11] وبَحْرُكَ زاخِرٌ ... فلمَّا أرَدْنَ الوِرْدَ ألْفَيْنَ ضحْضَحا[12]
فلو لم تَرِدْ أزواد[13] غَيْرِى غِمارَهُ ... لقُلْتُ سَرَابٌ بالمِتَانِ تَوَضَّحا

---

(١) وحى : أشار ، وكتب . (٢) النغل : الفساد فى الدباغ ، وفى الجرح ، وسوء النية ، والإفساد . والقلح : أصله صفرة الأسنان . (٣) فى المختار : جنابى يكسه .
(٤) فى بعض الأصول: توالى . (٥) ديوانه : ٢ — ٧١ . (٦) فى الديوان : عندى.
(٧) فى الديوان : ينشد مديح . (٨) فى الديوان : يكن لك أهجى كلما كان أمدحا .
(٩) فى الديوان : ملق ، والكلاكل : الصدور . (١٠) فى الديوان : حميت .
(١١) فى الديوان : لأزوادى . (١٢) الضحضح : الماء القليل يكون فى الغدير وغيره، وفى الديوان: صحصحا ، والصحصح: الأرض الجرداء ذات حصى صغار . (١٣) فى الديوان:أوراد.

فيالَكَ بَحْرًا لم أجِدْ فيه مَشْرَباً | وإنْ كان غيرى واجداً فيه مَسْبَحا
مَديحى عصا مُوسى وذلكَ أننى | ضَرَبْتُ به بَحْرَ النَّدى فتَضَحْضَحا
سأمْدَحُ بعضَ الباخِلِينَ لعَلّهُ | إذا اطّرَدَ المِقْيَاسُ أنْ يتَسَمَّحا
فياليْتَ شِعْرِى إن ضرَبْتُ به الصَّفَا | أيَبْعَثُ لى منهُ جَداولَ سُيَّحا
كتِلْكَ التى أبْدَتْ ثَرَى الأرض[1] يابساً | وشَقَّتْ عُيُوناً فى الحِجَارة سُفَّحا
مَلَكْتَ فأسْجِحْ يا أبَا الصَّقْرِ إنهُ | إذا مَلَكَ الأحرارَ مِثْلُكَ أسْجَحا

وما ضرع إلى أحد هذه الضراعة ، ولا فى طَوْقه هذا الاحتمال ؛ وهذه الأبيات الأخيرة إنما ولّد أكثرها من قول أبى تمام الطائى لمحمد بن عبد الملك الزيات[2] :

فلو حاردَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقاحَها[3] | ولكن حرمت الدَّرَّ والضَّرْع حافِلُ
أكابِرَنا عَطْفاً علينا فإنّنا | بنا ظَمأٌ بَرْحٌ وأنتُم مَناهِلُ

وفيه يقول[4] :

هذا مقامى[5] يا بَنى وائلٍ | من مستجيرٍ بكُمْ عائذِ
أنْشَبَ فيه الدهرُ أظفارَهُ | وعَضّه بالنّاب والنَّاجِذِ
فأنْصِفُوا منه أخَا حُرْمَةٍ | لاذَ بكُمْ منه مع اللّائذِ
فما أرى الدهر على جَوْرِهِ[6] | يَخْرُجُ مِنْ حكمكم النافذِ

وقال أيضاً :

يأيُّها السيد الذى وَهَنَتْ | أنْصارُ أمْوالهِ ولم يَهُنِ
فأصْبحَتْ فى يَدِ الضَّعيفِ وذى الْ | قُوّة والبَاقِلِىّ[7] واللّسِنِ
غيرى على أننى مؤملك الْ | أقدم سَائِلْ بذاك وامْتَحِنِ

---

(١) فى الديوان : ثرى البحر . (٢) ديوانه : ٢٥٩ .

(٣) حاردت الإبل : انقطعت ألبانها أو قلت . والشائلة من الإبل : ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، وجمعه شول . (٤) ديوانه : ٢٥٧ .

(٥) فى الديوان : مقام . (٦) فى الديوان : على حكمه .

(٧) باقل : يضرب به المثل فى العى .

مادح عشرين حِجّـة كُمُلا ... محرومُها عنك غَيْرُ مُضْطَغِنِ
فضلك أوْ عَدْلَك الذى ائتمن الـ ... ـلّه عليهِ أَجَـــلَّ مُؤْتَمَنِ
إن كُنْتُ فى الشعْرِ ناقدًا فَطِنا ... فلْتُعْطِنى حَقّ حِصَّةِ الفَطِنِ
وإنْ أكُنْ فيــه ساقطاً زَمِناً ... فلْتُعْطِنى حقّ حِصَّةِ الزَّمِنِ
سِمْ بىَ ديوانك الذى عدلَتْ ... جَدْواه بين الصحيح والضَّمِنِ (١)
كَثِّرْ بشَخْصِى مَن استطعتَ من النـ ... ـناس فإن لم أزِنْك لم أَشِنِ
ماحقّ من لانَ صَدْرُه لكَ بالـ ... ـودّ لقاؤه بجــانبٍ خَشِنِ

وقال أبو العباس الرومى لرجل مدحه فى كلمة :

أبعْدَ لِقاىَ دونك كلَّ قَفْرٍ ... يَدِق الشَّخْصُ فيــه أَنْ يُلاقَى
وإعمــالى إليك به المَطَايا ... وقد ضربَ الظَّلامُ له رِواقا
ورَفْضِى النَّومَ إلّا أَنْ ترانى ... أُعانِق واسط الكُورِ اعْتِناقَا
تسوق بنا الحُدَاة فليس تَدْرِى ... أشوقاً كان ذَلك أَمْ سِيَاقا
أُصادف دِرَّة المعروف شَكْرَى (٢) ... لَدَيك ولا أذوق لهـا ذواقا

يقول فيها :

غَدا يَعْلُو الجيــاد وكانَ يَعْلُو ... ـ إذا ما استفرَه ـ السِّبْتَ الرِّقَاقَا (٣)
أَعنتَّها الشُّسُوعُ فإنْ عَراها ... حَفــاءُ الكَدِّ أَنْعَلَها طِراقا (٤)
فزُوِّج بَعْدَ فَقْرٍ منـــه نعمى ... أرانى اللهُ صُبْحَتَهـا الطَّلاقا

[أبو العيناء وطرف من أخباره]

قال أبو القاسم علىّ بن حمزة بن شمردل : حــدثنى أبى قال : سأَلتُ أبا العَيْناء — نسب أبى العيناء

---

(١) الضمن ، على وزن كتف : المريض . (٢) شكرى : مملوءة .

(٣) استفره : طلب الفاره الفتى من الخيل وهو يستفره الأفراس : يستكرمها ، والسبت ـ بكسر السين : كل جلد مدبوغ . (٤) الطرق : كل خصيفة يخصف بها النعل .

عن نسبه فقال : أَنَا محمدُ بنُ القاسم بن خلّاد بن ياسر بن سليمان ، وأَصْـلُ قومى من بنى حنيفة من أهْلِ اليمامة ، ولَحِقَهم سِباءٌ فى أيام المنصور ؛ فلمَّا صار ياسر فى قَيْدِه أَعْتَقَه ، فولَاؤُنا لبنى هَاشم ؛ وكان أبو العيناء ضَرِيرَ البَصَر ؛ ويقال : إِنَّ جـدَّه الأكبر لقى علىَّ بنَ أبى طالب رضى الله عنه فأَساءَ مُخَاطَبَتَه ؛ فدعا عليـه وعلى ولده بالعَمَى ، فـكلٌّ من عمى منهم صحيحُ النسب !

أبو العيناء والمتوكل

قال الصولى : حدثنى أبو العيناء ، قال : لمـا أُدْخِلْتُ على المتوكِّل فدعوتُ له وكلَّمته استحسنَ كلامى ، وقال لى : بلغنى أنَّ فيكَ شرًّا ! فقلتُ : يا أَميرَ المؤمنين؛ إن يكن الشرُّ ذِكْرَ المحسنِ بإحسانه والمسىء بإساءته فقد زَكَّى الله تعـالى وذَمّ ، فقال فى التزكية : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ . وقال فى الذم : ﴿ همَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ للخيرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .

وقال الشاعر[1] :

إذا أنا لم أمْدَحْ[2] على الخير أهْلَهُ ولم أذمُمِ الجِبْسَ اللئيمَ المذمّما[3]

فقيمَ عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسْمِهِ وشقَّ لىَ اللهُ المسامعَ والفَمَا

وإن كان الشرُّ كفعل العَقْرَبِ التى تَلْسَعُ السَّنِىَّ والدنِىّ بطَبْعٍ لا بتمييز فقد صَانَ اللهُ عبدَكَ عن ذلك !

فقال لى : بلغنى أنك رَافِضىٌّ[4] فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، وكيف أكونُ رافضيًّا وبلدى البَصْرَة ومَنْشَئى فى مَسْجِد جَامِعِها ، وأُستاذِى الأَصْمَعى ، وليس يَخْلُو القومُ أن يكونُوا أَرادُوا الدّين أو الدُّنيا ؛ فإن كانوا أَرادوا الدِّينَ فقد أجمع

---

(١) عيون الأخبار : ٣ — ١٧٩ ، واللآلى — ذيل : ٤٥ . (٢) فى عيون الأخبار : أشكر.
(٣) الجبس : هو الدنىء الجبان . (٤) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن على ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه ، والنسبة رافضى .

الناسُ على تقديم من أَخَّرُوا ، وتأخيرِ من قدَّموا ، وإن كانوا أرادوا الدنيا فأَنتَ وآباؤك أُمراءُ المؤمنين ، لا دِينَ إلاّ بك ، ولا دُنيا إلّا معك .

قال : كيف ترى دَارِى هذه ؟ قال قلت : رأيت الناس بَنَوْا دُورهم فى الدنيا ، وأنت بنيتَ الدنيا فى دارك . فقال لى : ما تقول فى عبيد الله بن يحيى ؟ قلت : نِعْمَ العَبْدُ لله ولك ؛ مُقَسَّمٌ بين طاعته وخدمتك ، يُؤْثِرُ رِضَاكَ على كلِّ فائدةٍ وما عاد بصلاحِ ملكك على كل لذَّةٍ ، قال : فما تَقولُ فى صاحب البريد ميمون بن إبراهيم ؟ وكان قد علم أَنّى واجِدٌ عليه بتقصير وقَعَ منه فى أَمْرِى . فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، يدٌ تَسْرِق واستٌ تضرط ! وهو مثل اليهودىّ سرق نصف جِزْيَته ، فلَهُ إقدامٌ بما أَدَّى ، وإحجام بما أَبْقَى ، إساءتُه طبيعة ، وإحسانه تكلّف !

قال : قد أَرَدْتُك لمجالستى . قلت : لا أُطيق ذاك ، وما أقولُ ذلك جهلًا بمالى فى هذا المجلس من الشرَفِ ، ولكنى محجوب ، والمحجوبُ تختلِفُ عليه الإشارَة ، ويَخفَى عليه الإيماء ، ويجوز أن يتكلّم بكلام غَضْبَان ووَجْهُك رَاضٍ ، أو بكلام راضٍ ووَجْهُك غضبان ، ومتى لم أُمَيِّز بين هذين هلكت . قال : صدقت ، ولكن تلزمنا . قلت : لزومَ الفَرْضِ الواجبِ اللازم . فوصَلَنِى بعشرة آلاف درهم .

مجالسه مع المتوكل

ولأبى العيناء مع المتوكّل مجالسُ أَدْخل الرُّوَاة بَعْضَهَا فى بَعْضٍ ، وسأُورد مستظرفها إن شاء الله :

قال له المتوكل يوماً : يا أبا العَيْناء ؛ لا تُكْثِرِ الوقيعةَ فى الناس ، قال : إنَّ لى فى بَصَرِى [1] لشُغْلًا عن الوقيعة فيهم. قال : ذلك أَشَدُّ لحيفك فى أهلِ العافية !

وقال له يوماً : هل رأيتَ طالبيا حَسنَ الوَجْهِ قطّ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت أحداً قطّ سأل ضريراً عن هذا ؟ قال : لم تكن ضريراً فيما تقدّم ، وإنما سألتك عمّا سلف . قال : نعم ، رأيتُ منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتًى ما رأيت

---

(١) كان أعمى .

أجمل منه . قال المتوكل : تجده كان مؤاجراً (١) ، وتجدك كنت قوّاداً عليه ! فقال أبو العيناء : وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أتراني أدعُ مَوالِيَّ على كثرتِهم ، وأقودُ على الغُرباء ؟ قال : اسكت يامأبون ؟ قال : مولى القوم منهم ! قال المتوكل : أردتُ أن أشتفي به منهم فاشتفى لهم منّى .

وكان أبو العيناء أحدّ الناسِ خاطراً ، وأحضرهم نادرة ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً .

والمتوكلُ أوّلُ من أظهرَ من خلفاء بنى العباس الانهماكَ على شهوته ، وكان أصحابه يتسخّفون (٢) ويستخفّون بحضرته وكان يُهاتِرُ الجلساء ، ويُفاخِرُ الرؤساء ، وهو مع ذلك من قلوب الناس مُحَبَّب ، وإليهم مُقرَّب ؛ إذْ أماتَ ما أحياهُ الواثق من إظهار الاعتزالِ ، وإقامة سوق الجدالِ .

قال محمد بن مكرم الكاتب : من زعم أنّ عبدَ الحميد أكتبُ من أبى العيناء إذا أحسَّ بكرم ، أوشرع فى طمع ، فقد ظلم . كتب إلى أبى عبيد الله بن سليمان وقد نكبه وأباه المعتمدُ ، وهما يُطالَبان بمالٍ يبيعانِ له ما يملكانه من عقار وأثاثٍ وعَبْدٍ وأمَة ، وقد أعطى بخادم أسْوَد لعبيد الله خمسون (٣) دينارا : كتابته

قد علمت أصلحك اللهُ أن الكريمَ المنكوب أجْرَى (٤) على الأحرار من اللئيم الموفور ، لأنّ اللئيمَ يزيدُ مع النّعمةِ لُؤْما ، والكريم لايزيدُ مع المِحْنَةِ إلاَّ كرَما ، هذا مُتّكِلٌ على رازقه ، وهذا يُسىء الظنّ بخالقه ، وعبدك إلى مِلك « كافور » فقيرٌ ، وثمنه على مااتّصلَ بى يَسير؛ لأنه بخدمته السلطان يعرّفنى الرؤساء والإخوان؛ ولستُ بواجدٍ ذلك فى غيره من الغلمان ؛ فإنْ سمحت به فتلك عادَتُك ، وإنْ أمرت بأخْذِ ثمنه فَهالكَ مادّتى ، أدام الله دَوْلَتك، واستقبل بالنعمة نكبتَك. فأمَرَلهُ به .

(١) لعله من آجرت المرأة : أباحت نفسها بأجر . (٢) رجل سخيف : نزق خفيف .

(٣) هكذا بكل الأصول . (٤) فى س : أجدى .

وسمع ابن مكرم رجلا يقول : من ذهب بَصَرُه قلّت حيلته . قال : ما أَغْفَلك عن أبي العَيْناء !

وكتب أبو العيناء إلى عبيدالله بن سليمان: أنا — أعزّك الله تعالى — ووَلَدِي وعيالي زَرْعٌ من زَرعِك ، إنْ سقيتَه راعَ وزَكا(١) ، وإن جفوْتَه ذَبُل وذَوَى ؛ وقد مسّني مِنْكَ جَفَاءٌ بعد برّ ، وإغفالٌ بعد تعاهُد ، حتى تكلَّمَ عدوّ ، وشَمت حاسِد ، ولعبت بي ظنونُ رجالٍ كُنْتَ بهم لاعباً ، ولهم مجرِّساً(٢) ، ولله در أبي الأسود في قوله :

لا تُهِنِّي بعد إذا كرَمْتَني وشديدٌ عادةٌ مُنْتزَعَهْ

فوقّع في رقعته : أنا أَسعدك الله على الحال التي عَهِدْتَ ، ومَيْلي إليك كما علمت ، وليس من أنْسَأْنَاه أهْمَلْناه ، ولا من أخَّرْنَاه تركْناه ، مع اقتطاع الشغْلِ لنا ، واقتسام زماننا . وكان من حقِّكَ علينا أن تذكِّرَنا بنفسك ، وتعلمنا أمرَك ؛ وقد وقّعت لك برزْقِ شَهْرين ؛ لتريح غلّتك ، وتعرفني مبلغَ استحقاقك ، لِأُطْلِقَ لك باقيَ أرزاقك ، إنْ شاء الله ، والسلام .

وكان إذا خرج من داره يقول : اللهم إنّي أعوذُ بك من الرَّكْبِ والرُّكُب(٣) ، والآجرّ والخَشَب ، والزّوَايا والقِرَب .

قطعة من خطابه وجوابه : من خطابه وجوابه

دخل على أبي الصقر بعدما تأخَّرَ عنه ، فقال : ما أَخَّرَكَ عنا؟ قال : سُرِق حماري . قال : وكيف سُرِق ؟ قال : لم أكُنْ مع اللص فأُخبرك ! قال : فلِمَ لم تأْتِنا على غَيْرِه ؟ قال : قعد بي عن الشراء قِلَّةُ يساري ، وكرهتُ ذِلَّةَ المُكارِي ، ومِنّةَ العوَارِي .

وزحمه رجل بالجسر على حِمَاره فضرب بيديه على أُذُنَي الحمار ، وقال : يا فتى ؛ قُلْ للحمارِ الذي فوْقَك يقول : الطَّريق !

---

(١) راع : أعجب . (٢) التجريس بالقوم : التسميع بهم .

(٣) الركب (الأولى) : راكبو الدواب ، والركب (الثانية) : من قولهم طريق ركوب مذلل والجمع ركب .

ودخل على إبراهيم بن المدبر وعنده الفَضْلُ بن اليزيدى وهو يُلْقِى على ابنه مسائل من النَّحو . فقال : فى أىّ باب هـذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به . قال : هذا بابى وباب الوالدة حفظها الله ! فغضب الفَضْلُ وانصرف ؛ وكان البحترىّ حاضراً فكتب بعد ذلك بقصيدته إلى إبراهيم بن المدبّر التى أولها[1] :

ذكّرتنيك روحةٌ للشّمولِ أَوْقَدَتْ لَوْعَتى وهَاجَتْ غَلِيلى
أى شىء ألهاك عن سر من را ءَ وظلٌّ للعيش فيها ظَلِيل[2]

وفيها يقول[3] :

أقتصاراً على أَحاديثِ فَضْلٍ وهو مستكرَهٌ كثيرُ الفضولِ
فعلام اصطفيت مُنْكَسِفَ البا ل[4] مُعادَ المِخْراقِ نَزْر القبول
إن تزُرْه[5] تجِدْه أخْلق من شَنْ بِ الغَوانى ومِنْ تعفِّى الطُّلولِ
مسرِجاً ملجِماً[6] ومامتّع[7] الصُّبْـ ـح ادّلاجاً للشَّحْذِ والتَّطْفيلِ[8]
غَيْرَ أنَّ المعلمين على حاَ لٍ قليلو التميز ضَعْفى العُقُولِ
فإذا ما تَذاكَرَ النَّاسُ معنى مِنْ متين[9] الأشعار والمجهول[10]
قال : هـذا لَنَا ونحن كشفنا غَيْبَه للسّؤال[11] والمسئول
ضرب الأَصمعى فيهم أَم الأَحْـ ـمر أم ألقحوا[12] بأير الخَليل
جُلّ ما عنده التردد[13] فى الفا علِ مِنْ وَالِدَيْهِ وَالْمَفْعُولِ

---

(١) ديوانه : ٢ ــ ٢٠٤ . (٢) سر من راء : هى مدينة سر من رأى .
(٣) ديوانه : ٢ ــ ٢٠٤ . (٤) فى الديوان : منكشف الزيف . (٥) فى س : ترده .
(٦) فى الديوان : رائح مغتد . (٧) متع النهار : ارتفع ، ومتع الضحى : بلغ آخر غايته.
(٨) الطفيلى : الذى يأتى الولائم بلا دعوة ، وقد طفل وتطفل . الشحذ : الإلحاح فى السؤال.
(٩) فى س : مبين . (١٠) فى الديوان :

وإذا ما تنازع النــاس معنى من مبين الفرقان أو مجهول

(١١) فى الديوان : ونحن فتقنا عيبه للمسئول . (١٢) فى الديوان : أم لقحوا .
(١٣) فى الديوان : التعمق .

وعَزَّى بَعْضَ الأمراءِ ، فقال : أيُّها الأمير ؛ كان العزاءُ لك لا بِك ، والفناءُ لنا لا لك ، وإذا كنتَ البقيّةَ فالرزيَّةُ عطية ، والتعزيةُ تَهْنِية .

وسُئل أبو العيناء عن مالك بن طوق ، فقال : لو كان فى زَمَنِ بنى إسرائيل ونَزَل ذَبْحُ البقرةماذُبحَ غيره ! قيل: فأخوه عمر؟ قال: كَسَرَابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُالظَّمْآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لم يَجِدْهُ شيئًا .

وكان موسى بن عبد الملك قد اغتال نجاح بن سلمة فى شرابٍ شَرِبه عنده ، فقال المتوكّلُ بعد ذلك لأَبى العيناء : ما تقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : ما قال الله تعالى : فوكَزَه موسَى فقَضَى عليه ! فاتَّصَل ذلك بموسى ، فلقى الوزير عُبيد الله بن يحيى ابن خاقان ، فقال : أيّها الوزير ، أرَدْتَ قَتْلِى فلم تَجِدْ إلى ذلك سبيلا إلّا بإدخال أبى العيناء إلى أمير المؤمنين مع عَدَاوتِه لى ؛ فعاتب عبيدُ الله أبَا العيناء فى ذلك ، فقال : والله ما استَعْذَبْتُ الوقيعةَ فيه حتى ذَمَمْتُ سريرته لك ؛ فأَمْسَك عنه .

ثم دخل بَعْدَ ذلك أبو العَيْنَاء على المتوكل فقال : كيف كنتَ بعد ؟ قال : فى أَحوالٍ مختلفة ، خَيْرُها رُؤْيتك وشرُّها غَيْبَتُك . فقال : قد واللهِ اشْتَقْتُكَ ! قال : إنما يَشْتَاقُ العَبْدُ ، لأنه يتعذّرُ عليه لقاءُ مولاه ، وأما السيّدُ فمتى أَرادَ عَبْدَه دعاه .

وقال له المتوكل : مَنْ أَسْخَى مَنْ رأيت ؟ قال : ابنُ أبى دواد . قال المتوكّل : تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء ؟ قال : إنّ الصدقَ يا أميرَ المؤمنين ليس فى موضعٍ من المواضع أنْفَق منه فى مجلسك ؛ وإنّ الناس يغلطون فيمن يَنْسبونَه إلى الجود ؛ لأَنّ سخاءَ البرامكة منسوبٌ إلى الرشيد ، وسخاءَ الفضل والحسن ابنى سهل منسوبٌ إلى المأمون ، وجودُ ابن أبى دُواد منسوبٌ إلى المعتصم . فإذا نَسب الناسُ الفَتْحَ وعبيد الله ابنى يحيى إلى السخاء فذلك سَخَاؤُك يا أَميرَ المؤمنين . قال : صدقت ؛ فمن أبخَلُ من رأيت ؟ قال : موسى بن عبد الملك . قال : وما رأيتَ من بُخْله ؟ قال : رأيته يحرم القريب كما يحرم البعيد ، ويَعْتَذِر من الإحسان كما يعتذرُ من

الإساءة . فقال له : قدوَقَعْتَ فيه عندى مرتين، وماأحبّك ذلك؟ فالْقَهُ واعتذر إليه، ولا يعلم أنّى وجهت بك . قال : يا أمير المؤمنين ، من يستكتمنى بحضرة ألف؟قال : لن تخاف . قال : على الاحتراس من الخوف .

فصار إلى موسى فاعتذر كلٌّ واحد منهما إلى صاحبه ، وافترقا عن صلح ؛ فلقيه بعدذلك بالجعفرى فقال : ياأبا عبدالله ؛ قد اصطلحنا، فمالك لا تأْتينا ؟ قال : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفْسًا بالأمس ؟ فقال موسى : ما أرانا إلا كما كُنا .

وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصرانى وَاجِدٌ عليك . قال : ولن ترْضَى عنك اليهودُ ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم ! قال : إن جماعة من الكتاب يلومونك فقال :

إذا رضِيَتْ عَنّى كِرَامُ عشيرتى　　　فلا زال غَضْبَانًا علىّ لِئَامها

قال المتوكل له : أكان أبوك فى البلاغة مِثْلَك ؟ قال : لورأى أمير المؤمنين أبى لرأى عَبْدًا له لايرْضَانى عبداً له .

وقيل لأبى العيناء : إنّ المتوكل قال : لولا أنّه ضرير البصر لنَادَمْتُه ، فقال : إن أعْفانى من رُؤْية الأهلّة ، وقراءة نَقْشِ الفصوص ، فأنا أصْلُح للمنادمة .

ولقيه رجلٌ من إخوانه فى السَّحَر ، فجعل يعجب من بُكُوره ، فقال : أراك تشاركنى فى الفعل وتُفْرِدُنى بالتعجّب !

ووقف به رجلٌ من العامّة فأحسّ به ، فقال : مَنْ هَذا ؟ قال : رجل من بنى آدم ! قال : مرحباً بك ، أطال الله بقاك ، وبقيت فى الدنيا ، ما ظننتُ هذا النَّسْل إلاّ قد انقطع .

ودخل على عبيدالله بن سليمان فقال : اقْرُبْ منّى يا أبا عبد الله . فقال : أعزَّ الله الوزير ، تقريبُ الأولياء ، وحِرْمَان الأعداء . قال . تقريبُك غنم ، وحِرْمانك ظُلْم ؛ وأنا ناظرٌ فى أمرك نظراً يُصْلِحُ مِنْ حالك إن شاء الله .

وقال له يوماً : اعذرنى فإنّى مشغول . فقال له : إذا فرغت من شغلك لم نحْتَجْ إليك ، وأنشده :

فـلا تَعْتَذِرْ بالشّغْلِ عنَّا فإنّما تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصلَ الشُّغْلُ

ثم قال: يا سيّدى قد عذرتك ، فإنه لا يَصْلُحُ لشُكْرك مَنْ لا يَصْلُحُ لعُذْرِك.

وأقبل إليه يوما فقال : مِنْ أين يا أبا عبدِ الله ؟ قال : من مَطَارِحِ الجَفَاء !

وقال له مرة : نحن فى العطلة مَرْحُومُون ، وفى الوزارة محرومون ، وفى القيامةِ كلُّ نَفْسٍ بما كسبَتْ رَهِينة .

وسار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد فقيل : هو مشغولٌ يُصَلِّى ، قال : لكلّ جديدٍ لذّةٌ ! وكان صاعدٌ نصرانيا قبل الوزارة .

ودخل إلى عبيد الله بن سليمان فشكا إليه حالَه ، فقال : أَلَيْسَ قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر ؟ فقال : كتبتَ إلى رجلٍ قد قصّرَ من همّتِه طولُ الفَقْر ، وذُلُّ الأَسْر ، ومعاناةُ مِحَنِ الدّهْرِ ، فأخفقته فى طَلِبَتى ! قال : أنْتَ اخْتَرْتَه ؟ قال : وما علىّ أعزَّ اللهُ الوزير فى ذلك ؟ قد اختار موسى قومه سَبْعين رجلا ، فما كان منهم رَشيد ، واختار النبىُّ صلى الله عليه وسلم ابنَ أَبى سرح كاتباً ، فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار علىُّ بن أبى طالب أبا موسى حاكما له فحَكَمَ عليه !

[البحترى يمدح إبراهيم بن المدبر]

وكان إبراهيمُ بن المدبر أَسَرَهُ صاحبُ الزّنج بالبصْرَة وحبَسه ؛ فاحتال حتى نقب السِّجْن وهرَب ، فلذلك ذكر أبو العيناء ذُلَّ الأَسْر ، وكان قد ضُرِبَ فى وجهه ضَرْبةً بَقِى أثرها إلى أنْ مات . ولذلك قال البحترى(١) :

ومُبِينَة شهَرَ المُنازِلُ وسْمَها والخيلُ تَكْبُو فى العَجاجِ الكابى
كانت بوجهك دون عِرْضِك إذ رَأَوْا أنَّ الوُجوهَ تُصانُ بالأحْسابِ

(١) ديوانه : ١ — ١٥ .

ولئن أُسِرت فما الإسارُ على امرىءٍ ... نَصَرَ الإسارَ على الفرارِ بعابِ[1]
نامَ المضلِّل عن سُراكَ ولم تَخَفْ ... عَيْنَ الرقيبِ[2] وقَسْوَةَ البوَّابِ
فركبتها هَوْلًا متى تُخْبِرْ بها ... يَقُلِ الجبانُ أتيتَ غَيْرَ صوابِ
ما راعَهُمْ إلا استراقك[3] مُصْلَتًا ... فى مِثْلِ بُرد الأَرْقَمِ المُنْساب[4]
تَحْمِى أُغَيْلِمَةً وطائشة الخطى ... تصل التلفّت[5] خَشْيَةَ الطلّاب
قد كان يوم ندى بطَوْلك باهراً[6] ... حتى أَضفْتَ إليهِ يَوْمَ ضِراب[7]
ذِكْرٌ من البأس استعذت[8] إلى الذى ... أُعْطِيت فى الأَخلاقِ والآدابِ
ووحيدة أنتَ انفرَدْتَ بفضلِها[9] ... لولاكَ ما كُتبت على الكُتَّاب

[صاحب الزنج]

قال أبو بكر الصولى : حدثنى محمد بن أبى الأزهر ، وقد ذاكرته خبرَ علىّ صاحب الزنج قال: ادّعى أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين ابن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فنظرتُ مولده ومولد محمد بن أحمد الذى ادّعاه فكان بينهما ثلاث سنين . وكان لمحمد بن أحمد ولدٌ اسمه علىّ مات بعد هذا المدّعى اسمَه ونسبَه بزَمانٍ. ثم رجع عن هذا النسب فادّعى أنه على بن محمد بن عبد الرحيم[10] ابن رحيب بن يحيى المقتول بخُراسان ابن زيد بن على .

قال أبو عبيدة محمد بن على بن حمزة : ولم يكن ليحيى وَلَد يقال له رحيب ولا غيره؛ لأنه قُتِل ابن ثمانى عشرة سنة ولا وَلَدَ له .

---

(١) العاب : العيب . (٢) فى الديوان: سنة الرقيب ونشوة.
(٣) فى الديوان : امتشاقك . (٤) المصلت: السيف ، والأرقم : الحية .
(٥) فى ق : التقلب . (٦) فى الديوان : راهنا. (٧) الضراب : الطعان .
(٨) فى الديوان : ذكرت من البأس استعرت ، وفى س : استعدت . (٩) فى الديوان : وفريضة أنت استننت . (١٠) فى س : عبد الرحمن .

قال بشر بن محمد بن السرى بن عبد الرحمن بن رحيب : هو ابن عم أبى ايحا[1] على بن محمد بن عبــد الرحمن بن رحيب ، ورحيب رجل من العجم من أهل وَرَتين من ضياع الرىّ ، وهو القائل لبنى العباس :

بنى عمنا إنّا وأنتم أناملٌ تضمنها من راحتيها عُقودُها
بنى عمِّنا وَلّيتم الترك أمرَنا ونحن قديماً أصلُها وعمودُها
فما بالُ عُجْم التُّركِ تقسم فيئَنَا ونحن لديها فى البلادِ شُهُودُها
فأُقْسِم لاذُقْتُ القَراح وإن أذُقْ فبُلْغَةُ عَيْشٍ أو يُبَاد عميدُها

وقال أيضاً :

لهف نفسى على قصورٍ ببغدا دَ وما قد حَوَتْهُ مِنْ كلِّ عاصِ
وخمورٍ هُناك تُشْرَبُ جَهْرًا ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ بابْنِ الفواطِمِ الزُّهْرِ إنْ لم أُقْحِم الخَيْلَ بين تِلْكَ العِراصِ

وله فى هذا المعنى شعرٌ كثير قد ناقضَه البغداديون ، وكانت مدَّتُه حين نَجَم[2] إلى أنْ قتل أربع عشرة سنة ، وجملةُ من قتل ألف ألف وخمسمائة ألف .

[رجع إلى حديث أبى العيناء]

وذكر أبو العيناء رجلا فقال : ضَحِكٌ كالبكاء ، وتودّد كالعزاء ، ونوادر كنَدْب الموتى !

وكان يهاتر ابن مكرم كثيراً ، وكتب إليه ابنُ مكرم يوماً : قد ابْتَعْتُ لك غلاماً من بنى ناشر ، ثم من بنى نَاعِط ، ثم من بنى نَهد . فكتب إليه : فأْتِنا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ من الصادقين .

ووُلد لأبى العيناء وَلد[3] فأتى ابنُ مكرم فسلم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف ،

---

(١) أى لاصق النسب . (٢) نجم : ظهر ونشأ . (٣) فى س : مولود .

فأحسّ به فقال : مَنْ وضع هذا ؟ فقيل : ابن مكرم ، قال : لعنه الله! إنما عرّض بقول النبى صلى الله عليه وسلم : الولدُ للفراش وللعاهر الحجر . وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر : مالك لم تُهْدِ إلينا هدية ؟ قال : لم آتِ بشىء وإنما قدمت فى خف . قال : لو قدمت فى خف لخلفْتَ رُوحك !

وأتى إلى باب إبراهيم بن رياح فحُجب فقال : إذا شغل بكأس يمناه ، وبحر يُسْراه ، وانتسب إلى أبٍ لا يعرف أباه ، لا يَحْفِل بحِجاب من أتاه .

وقدّم إليـه أبو عيسى بن المتوكل سِـكْباجة ، فجعل لا تقعُ يده إلا على عظم ؛ فقال : جعلت فِدَاكَ! هذه قِدر أو قبر .

ودعا ضريراً ليعشيه فلم يَدَعْ شيئاً إلاَّ أكله ، فقال : يا هـذا ، دعوتك رحمةً فتركتنى رحمة .

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الطعام ومقدماته وموائده وآلاته

افرشْ طعامَك اسم الله ، وألْحِفْه حمدَ الله . لا يَطِيبُ حضور الخِوان إلّا مع الإخوان. البُخْلُ بالطَّعَام من أخلاق الطَّغَام(١) . الـكريم لا يحْظر تقديمَ ما يَحْضُر؛ قد قامت خطباء القدور . قدورٌ أبكار ، بخواتم النّار . قدْرٌ طار عَرْفُها ، وطاب غَرْفُها . دَهْمَاء تَهْدِرُ كالفَنيق(٢) ، وتَفُوحُ كالمِسْك الفتيق . مائدة كدَارَة البَدْر ، تباعد بين أنفاس الجلاَّس . مائدة مثلُ عروس . مائدة لطيفة ، محفوفةٌ بكل طريفة. مائدة تشتمل على بدائع المأكولات ، وغرائب الطيِّبات . مائدةٌ كأنما عملها صُنّاع صنعاء ، تجمع بين أنوار الربيع ، وثِمَارِ الخريف .

وقال الجماز : جاءنا فلان بمائدةٍ كأنّها زَمَنُ البرامكة على العُفَاة !

وذَمَّ آخر رجلا فقال : لا يَحْضُرُ مائدته إلا أكرمُ الخَلْق والأمهم ـ يريد الملائكة والذباب .

---

(١) الطغام : أوغاد الناس . (٢) الفنيق : الفحل المـكرم لا يؤذى لـكرامته على أهله ولا يركب .

وقال ابن الحجاج لرجل دعاه وأخَّر الطعام :

قد جُنّ أصحابُك من جُوعِهم ْ فاقرأ عليهم سورةَ المائدَه

ولبعض أهل العصر يذم رجلا :

خِوَانٌ لا يُلِمُّ به ضُيوفٌ وعِرْضٌ مثل مِنْديلِ الخِوَانِ

رغفان كالبدور المنطقة بالنّجوم . حَمَلٌ ذهبيّ الدّثار ، فِضيُّ الشعار . أطْيَبُ ما يكون الحَمَلُ ، إذا حلّت الشمس الحَمَل (١) . جَدْى كأنما نُدِف على جَبينه القزّ. زِيرباجة هى للمائدة دِيباجة ، تَشْفِى السّقام ، ولونها لونُ السقيم . سِكْبَاجة تفتقُ الشهوة ، واسفيذباجة تغذّى (٢) القوم ، وطَباهِجَة (٣) يتفكّه بها ، وخَبِيص (٤) يختم بخير . طَباهجة من شرط الملوك ، كأعْرَافِ الديوك ، وقليّة كالعود المُطرَّى . مغمومة تفرج غَمَّ الجائع . هريسة نَفيسة، كأنها خيوط قزّ مشتبكة، كأن المُرِّى (٥) عليها عُصارَةُ المسك على سبيكة الفضة . أرزة مَلْبونة ، فى السكر مدفونة . شواء رشراش (٦) ، وفالوذج رَجْرَاج . طَباهجة تغذى، وفالوذجة تعزى ، واسفيذباجة تصفع قفَا الجوع . لا فِرَاشَ للنبيذ ، كالحمَل الحَنيذ (٧) . دجاجة سميطة (٨) ، لها من الفضة جسم ، ومن الذهب قشرة . دجاجة دِينارِيّة ثمنا ولونا .

وهـذا محلول من قول على بن العباس الرومى يصف طعاماً أكله عند أبى بكر الباقطانى (٩) :

وسَمِيطة صفراء (١٠) دينارية ثمناً ولَوْناً زَفَّها لَك حَزْوَرُ (١١)

---

(١) الحمل : برج فى السماء . (٢) فى ط : تغزو القرم . (٣) الطباهجة : اللحم المشرح . (٤) الخبيص : المعمول من التمر والسمن . (٥) المرى بوزن درى : أدام كالـكامخ (هامش ق ، س) . (٦) الرشراش : السمين من الشواء .

(٧) حنذ الشاة : شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ .

(٨) من سمط الجدى : نتف صوفه بالماء الحار . (٩) ديوانه ٤٧٨ .

(١٠) فى الديوان : وخبيصة بيضاء . (١١) الحزور : الغلام إذا اشتد وقوى وخدم.

عظمت فكادَتْ أن تكونَ أوزَّةً وغلت (١) فكاد إهابُها يتفطّرُ
طفقت تجودُ بذَوْبها جوْذابَة فأتى (٢) لباب اللّوز فيها السكرُ
ظلنا نقشّر جِلْدَها عن لحمها فكأنّ تبراً عن لُجَيْن يُقشرُ
وتقدَّمَتْها قبل ذاك ثرائدٌ مثلُ الرّياض بمثل (٣) ذاك تصدَّرُ
ومرققات كلّهنَّ مزخرفٌ بالبيض منها مُلبَس ومُدثَّرُ
وأتَتْ قطائف بَعْدَ ذاك لطائفٌ ترْضَى اللّهاةُ بها ويرْضى الحنْجرُ
ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها دمع العيان مِنَ الدّهان يُعصَّرُ (٤)

المقامة البغدادية فى وصف الطعام

قال البديع : حدثنى عيسى بن هشام (٥) قال : اشْتَهَيْتُ الأَزَاذَ ، وأنا بِبَغْدَاذَ (٦) ، وليس مَعِي عَقْد عَلَى نَقْد (٧) ، فخرجتُ أنْتَهِزُ محالَّه ، حتى أحَلَّنِى الكَرْخ (٨) ؛ فإذا أنا بسَوَادِيّ يَحْدُو (٩) بالجَهْدِ حمارَه ، ويُطَرِّفُ بالعَقْدِ إزارَه (١٠) ؛ فقلتُ : ظَفِرْنَا والله بصَيْدٍ ، وحَيَّاكَ اللهُ أبا زَيْد ! مِنْ أيْنَ أقبلتَ ، وأينَ نزلتَ ، ومتى وافيتَ ، فهَلُمَّ إلى البيتِ . فقال السَّوَادِى : لستُ بأبِي زَيْد ، وإنما (١١) أنا أبُو عبيد ! فقلتُ : نعمْ لعَنَ اللهُ الشيطانَ ، وأبْعَدَ النِّسيانَ ، أنْسَانِى طُولُ العَهْدِ بكَ (١٢) ، كَيفَ أبُوكَ ، أشابٌّ كعَهْدِى أمْ شَابَ بَعْدِى ؟ قَالَ : قد نَبَتَ الرَّعْى (١٣) على دِمْنَتِه ، وأرْجو أن يُصيِّرَه اللهُ إلى جَنَّتِه (١٤) ، فقُلْتُ : إنّا للهِ (١٥)

---

(١) فى الديوان : وثوت . (٢) فى الديوان : فإذا . (٣) فى الديوان : بمثلهن.
(٤) ليس هذا البيت فى الديوان المطبوع . (٥) المقامات : ٦٦ . (٦) الأزاذ : من أجود أنواع التمر ، وبغداذ : هى بغداد . (٧) ليس معى عقد على نقد : أى ليس معى نقود يعقد عليها الكيس والثوب . (٨) الكرخ : فى الجانب الغربى من بغداد .
(٩) فى المقامات : يسوق . (١٠) السوادى : الرجل من قرى العراق . يطرف بالعقد إزاره : أى يرد أحد طرفيه إلى الآخر . (١١) فى المقامات : ولكنى .
(١٢) فى المقامات : أنسانيك طول العهد واتصال البعد ، فكيف حال أبيك. (١٣) فى المقامات: الربيع . (١٤) الدمنة : آثار الديار ، ولا ينبت الربيع على الدمنة إلا حين يبعد عهدها بالخراب ، يريد أن أباه مات منذ زمن طويل . (١٥) فى المقامات: إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ...

ولا قوةَ إلا بالله ، ومددت يدَ البِدار ، إلى الصِّدَار [١] أريد تمزيقه ، وأُحاول تخريقه؛ فقبض السواديّ على خَصْرى بجُمْعه[٢]؛ وقال : نَشَدْتُك بالله لا مزَّقْتَه ، فقلت : فهلم إلى البيت نُصِبْ غداء ، أو إلى السوق نشترى شِوَاءً ؛ والسوقُ أقربُ ، وطعامه أطيب ، فاستفزّته حُمَةُ القَرَم[٣] ، وعطفَتْه عطفة النَّهم[٤] وطَمِع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شوَّاءً يتقاطرُ شِوَاؤه عَرَقاً ، ويتسايل جُوذَابُه مرقاً[٥] ، فقلت : أبرز[٦] لأبى زيد من هذا الشّواء ، ثم زِن له من تلك الحَلْوَاء ، واختر من تلك الأطباق ، ونضّد عليها أوراقَ الرقاق، وشيئا من ماء السُّمَّاق[٧]؛ ليأ كله أبو زيد هنيا . فأنحى الشَّوَّاء بساطُوره ، على زُبدَة تَنُّورِه ، فجعلها كالكحل سَحْقاً ، وكالطحين دَقّا ، ثم جلس وجلست ، ولا نبَس ولا نبست ، حتى استوفيناه ، وقلت لصاحب الحلواء: زِنْ لأبى زيد من اللُّوزِينج رطلين[٨] ، فإنه أجرى فى الحلوق ، وأسْرَى فى العروق ، وليكن ليليَّ العُمْر، يوميَّ النَّشْر[٩] ، رقيق القِشْر ، كثيف الحَشْو ، لؤلؤيّ الدهن، كوكبى اللون ، يذوب كالصَّمْغ ، قبل المَضْغ ، ليأْكُلَه أبو زيد هنيّا . فوزنه ، ثم قعد وقعدتُ ، وجرَّدَ وجرّدت[١٠]، واستوفيناه ، ثم قلت . يا أبا زيد ، ما أحوجنا إلى ماء يُشَعْشَع بالثلج ، ليقمَع هذه الصَّارة[١١]، ويَفْثَأ هذه اللُّقَم الحارة[١٢]؛ اجلسْ أبا زيد حتى آتيك بسقّاء ، يحيينا بشَرْبَة من ماء ، ثم خرجت ، وجلست بحيث

---

(١) البدار : المسارعة ، والصدار : ثوب يلى البدن . (٢) جمع الكف ، بضم الجيم: قبضته. (٣) استفزته : استهوته . الحمة : إبرة العقرب التى تلسع بها، والمراد الشدة ، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم . (٤) فى المقامات : اللقم : وهو السرعة فى الأكل .

(٥) الجوذاب: خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أولحم، وفى المقامات : جوذاباته .

(٦) فى المقامات : افرز . (٧) السماق : حب أحمر صغير ، وفى المقامات : ورش عليه شيئا من ماء السماق . (٨) اللوزينج : نوع من الحلواء يصنع من نوع من الخبز ويسقى بدهن اللوز ، ويحشى بالنقل . (٩) ليلى العمر : صنع من ليلته ، ويومى النشر : ظهر نهارا.

(١٠) جرد وجردت : يريد أن كلا منهما شمر عن ساعده استعدادا للمائدة .

(١١) الصارة : شدة العطش . (١٢) يفثأ : يسكن .

أراه ولا يرانى ، أنظر ما يُصنع به . فلما أبطأتُ عليه قام السوادىّ إلى حماره ، فاعتلق الشَّوّاء بإزاره . وقال : أين ثمنُ ما أكلتَ ؟ قال : ما أكلتُه إلا ضيفا ! قال الشَّوّاء : هاكَ وآكَ[١] ، متى دعوناك ؟ زِن يا أخا القحبة[٢] عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادىّ يبكى ويمسح دموعه بأردانه ، ويحُلُّ عقدَهُ بأسنانه، ويقول : كم قلتُ لذلك القُرَيْد ، أنا أبو عُبَيْد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! فأنشدت :

اعمَل لرزقك كلَّ آلَهْ ... لا تقعُدَنّ بذُلٍّ[٣] حالَهْ
وانهَضْ بكلِّ عزيمةٍ[٤] ... فالمرء يَعْجزُ لا المحالَه

في وصف القطائف

ومن مليح ما قيل فى القطائف قول علىّ بن يحيى بن أبى منصور المنجم :

قطائِفُ قد حُشِيَت باللَّوْز ... والسكر الماذِىّ حشْوَ الموزِ[٥]
يسبح فى آذِىّ[٦] دُهْنِ الجَوْز ... سررت لما وقعت فى حَوْزى
سرور عبّاسٍ بقُرْب فَوْزِ[٧]

في الحلواء

ومن ألفاظ أهل العصر فى الحلواء : فالوذج بلُبَاب البُرّ ، ولُعابِ النَّحْل ، كأنَّ اللوز فيه كواكب دُرّ ، فى سماء عَقِيق .

ابن الرومى يصف اللوزينج

ولم يقل أحد فى صفة اللوزينج أَحْسن من قول ابن الرومى[٨] :

لا يُخطِئَنّى مِنْك لَوْزِينَجٌ ... إذا بدا أعْجَبَ أو عجَّبا
لو شاءَ أن يَذْهبَ فى صَخْرةٍ ... لسهَّل الطِّيبُ له مَذْهَبا
لم تُغلِق الشَّهْوَةُ أبوابها ... إلاَّ أبَتْ زُلْفَاهُ أنْ يُحْجَبا
يَدور بالنَّفْحَة[٩] فى جامِهِ ... دَوْرًا ترَى الدُّهْنَ له لَوْلبا

---

(١) فى المقامات : فلكمه لكمة . (٢) فى المقامات : القحة . (٣) فى المقامات : بكل حاله . (٤) فى المقامات : عظيمة . (٥) الماذى : العسل .
(٦) الآذى : الموج (٧) فوز : هى معشوقة العباس بن الأحنف .
(٨) ديوانه ١ ـــ ٣٢٤ . (٩) فى الديوان : بالنفخة .

عاوَنَ فيهِ مَنظرٌ مَخبَرا … مُستَحسَنٌ ساعَدَ مُستعذَبا
مُستَكثَفُ الحَشْوِ ولـكنَّه … أرقُّ جِلْدًا[١] من نَسيمِ الصَّبا
كأنما قُدَّتْ جَلابيبُه … من نقطة القَطْرِ إذا حُبِّبا[٢]
يُخالُ من رِقَّةِ خِرْشائه[٣] … شارَكَ فى الأجْنِحَة الجُنْدُبا
لو أنَّه صُوِّرَ من خُبْزِه … ثَغرٌ لـكان الواضحَ الأشْنَبا[٤]
من كلِّ بيضاءَ يَوَدُّ[٥] الفتى … أن يجعلَ الـكفَّ لها مَرْكبا
مَدْهونةٍ زَرْقاءَ مَدْقوقة[٦] … صَهْباء[٧] تحكى الأزْرق الأشْهبا
قرة[٨] عَيْنٍ وفَمٍ حُسِّنَتْ … وطيِّبت حتى صَبا مَنْ صَبا
ديف[٩] له اللوزُ فما مرَّة … مَرَّتْ على الذائق إلا أَبَى
وانتَقَدَ السُّكَّرَ نُقَّادُهُ … وشاوَرُوا فى نَقْدِه المذهبا
فلا إذا العَيْنُ رأَتْه[١٠] نَبَتْ … ولا إذا الضِّرْسُ عَلاه نَبا
لاتُنكِروا[١١] الإدْلالَ من وامِقٍ … وَجَّـهِ تلقاكُمُ المطْلَبا[١٢]

هذه الأبيات يقولها فى قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العباس أحمد بن محمد بن عبد الله ابن بشر المرثدى ويهنيه بابن ولده وأولها[١٣] :

شمسٌ وبدرٌ وَلَدَا كَوْكَبا … أقْسَمْتُ باللهِ لقَدْ أَنْجَبا

قال أبو عثمان سعيد بن محمد الناجم : دخلت على أبى الحسن وهو يعمل هـذه

---

(١) فى الديوان : أرق قشرا . (٢) فى الديوان : من أعين القطر الذى قببا .
(٣) الخرشاء : الجلدة الرقيقة . (٤) الأشنب : من الشنب، وهو رقة وبرد وعذوبة فى الأسنان . (٥) فى الديوان : يحب . (٦) فى الديوان : مدفونة .
(٧) فى الديوان : شهباء . (٨) فى الديوان : ملذ عين . (٩) فى الديوان : ذيق. وديف : خلط . (١٠) فى الديوان : رأتها . (١١) فى الديوان : لا تنكر .
(١٢) فى ط : تلقى بكم . وفى الديوان : تلقاءكم .
(١٣) ديوانه ١ ــ ٣١٤ .

القصيدة ، فقلت : لو تفاءلت فيها لأبى العباس بسبعة من الولد ، لأنّ أبا العباس[1] منكوساً سابعٌ ، لجاء المعنى ظريفاً فقال :

وقد تفاءلْتُ له زاجراً ... كُنْيَتَه لا زاجراً ثَعْلَبا
إنّى تأمّلْتُ له كُنْيَـةً ... إذا بدا مَقْلوبُها أعْجَبا
يَصوغُها العَـكْسُ أبا سابعٍ ... لا كَذَّبَ اللهُ ولا خَيَّبا
بل ذاكَ فَأْلٌ ضامِنٌ سَبْعَةً ... مِثْلَ الصُّقورِ استَشْرَفَتْ مَرْقَبا
يأْتونَ من صُلْبِ فتًى ماجِدٍ ... وذاكَ فأْلٌ لم يَعُدْ مَعْطَبا
وقد أتانا منهمُ[2] واحِـدٌ ... فلْننتظِرهُم[3] سِـتَّةً غُيَّبا
فى مُدّةٍ تَغْمُرُها نعمةٌ ... يجعلُها اللهُ له تُرْتُبا[4]
حتى نراهُ جالساً بينهُمْ ... أجلَّ من رَضْوَى ومن كَبْـكَبا[5]
كالبدرِ وَافَى الأرضَ من نُورِهِ ... بيْنَ نجومٍ سبعةٍ فاجْتَبى[6]
ولْيشكُرِ النَّاجمُ عن هذهِ ... فإنّها من بَعضِ ما بَوَّبا
سَدَّى والْحَمْتُ أخٌ لم أزَلْ ... أشْكُرُ ما أسْدَى وما سَبَّبا

حب ابن الرومى للسمك

وكان ابنُ الرومى منهوما فى المآكل ، وهى التى قتلَتْهُ ، وكان مُعْجَبًا بالسمك ، فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعثَ إليه كلَّ يوم بوظيفة لا تَنْقَطِـع ، فبعث إليـه يوم سَبْتٍ ثم قطعه ؛ فقال :

ما لِحيتَانِنا جَفَتْنَا وأَنَّى ... أخْلَفَ[7] الزائرونَ منتظرِيهِمْ
جاء فى السَّبتِ زَوْرُهم[8] فأتينا ... من حفاظٍ عليـه ما يَكْفيهِم
وجعلناه يوم عيـــد عظيمٍ ... فـكأنَّا اليهودُ أو نحْكيهِم

---

(١) فى س : العباس . (٢) فى الديوان : أتاه ، وفى ط : أتى منهم له .
(٣) فى الديوان : فلينتظر . (٤) الترتب : الشىء المقيم الثابت .
(٥) كبكب : جبل بعرفات . (٦) فى الديوان : فاحتبى . (٧) فى س : خلف .
(٨) الزور : الضيف .

وأراهم مصممين على الهَجْـ ـرِ فلمْ يُسْخِطُون مَنْ يُرْضيهم
قد سبَقْنا وما أَتتنا وكانُوا يوم لا يَسْبتُون لا تأتيهم

فاتَّصل ذلك بالناجم، فكتب إلى ابن الرومى :

أبا حسنٍ أنْتَ مَنْ لا تزَا لُ تحمدُ فى الفَضْلِ رُجْحانَهُ
فكم تُحْسِنُ الظنّ بالمرتدىِّ وقد قلَّلَ اللهُ إحسانَهُ
ألم تَدْرِ أنَّ الفتى كالسرابِ إذا وَعَدَ الوَعْدَ إخوانَهُ
فبَحْرُ السرابِ يَفُوتُ القلوبَ(١) فقلْ فى طِلابك حيتانَهُ

ابن الرومى يصف العنب الرازقى

وخرج ابنُ الرومى إلى بعض المتنزهات وقصدوا كَرْما رازِقيًّا(٢) ، فشربوا هناك عامَّة يومهم ، وكانوا يتهمونه فى شِعْره ، فقالوا : إن كان ما تُنْشِدنا لكَ فقُلْ فى هذا شيئاً ، فقال : لا تَرِيموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته(٣) :

ورازِقىّ مُخْطَفِ الخصُورِ(٤) كأنه مَخَازِنُ البلّورِ
قد ضمِّنت مِسْكاً إلى الشطورِ وفى الأعالى ماء وردٍ جُورى(٥)
بلا فَريد وبلا شُذُورِ له مَذاقُ العَسَلِ المَشُورِ(٦)
وبَرْدُ مَسِّ الخصر(٧) المقْرورِ ونَكْهة المِسْك مع الكافورِ
ورقّة الماء على الصدورِ باكَرْته والطَّيْرُ فى الوُكُورِ
بِفتْيَةٍ من وَلَدِ المنصورِ أملأُ للعَيْنِ من البُدُورِ
حتى أتيْنا خَيْمَةَ النَّاطور(٨) قبل ارتفاعِ الشمسِ للذّرُورِ(٩)
فانحطَّ كالطَّاوِى من الصُّقُور بطاعةِ الرَّاغِبِ لا المقْهُورِ

---

(١) فى س : الطلوب . (٢) فى القاموس : هو العنب الملاحى .
(٣) ديوانه ١٩٥ ، وهناك اختلاف كبير بين الرواية هناك وبين الرواية هنا .
(٤) ضامرها . (٥) جور : مدينة ينسب إليها الورد .
(٦) الفريد : الجوهرة النفيسة . المشور : من شار العسل : استخرجه .
(٧) الخصر : البارد . (٨) الناطور : حافظ الكرم . (٩) ذرت الشمس : طلعت.

والحرُّ عَبْدُ الحلَبِ المشطورِ حتى أتانا بِضُروعٍ حورِ
مملوءةٍ من عَسَلٍ محصورِ والطَّلُّ مثل اللؤلؤ المنثورِ
ثمّ جلَسْنا جِلْسَةَ المحبورِ بين حِفافَىْ جَدْوَلٍ مَسْجورِ[1]
أبيض مثل المُهْرَق المنشورِ أو مثل متن المُنصل المشهورِ[2]
يَنْسابُ مثل الحيَّةِ المذعورِ بَيْنَ سِماطَىْ شَجَرٍ مَسْطُورِ
ناهيك للعقود من ظُهورِ فنيلَت الأَوطارُ فى سُرورِ
وكلُّ ما يُقْضَى مِنَ الأُمورِ تَعِلَّةٌ من يَوْمِنا المنظورِ
ومُتْعةٌ من مُتَعِ الغُرورِ

ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر فى صفات الفواكه والثمار

كَرْم نُسْلِفه[3] الماء القَرَاح، ويَقْضِينا أمّهات الرَّاح. عنقود كالثريَّا، وعِنَبٌ كمخازن البلّور، وضروبِ النُّور، وأوعيةِ السرور. أُمّهات الرحيق، فى مخازن العَقيق. نَخْلٌ نُسْلِفه الماء، ويقضينا العسل. رُطَب كأنها شُهْدَة بالعقيق مقنّعة، وبالعِقْيان[4] مُقَمَّعَة. رُمَّان كأنه صُرَر الياقوت الأَحمر. سَفرجل يَجْمع طيبا، ومنظرا حسنا عجيبا، كأنه زِئْبر[5] الخزّ الأَغبر، على الديباج الأصفر. تفَّاحٌ نفّاح، يجمع وَصْفَ العاشق الوَجِل، والمعشوق الخَجِل، له نسيمُ العبير، وطَعْمُ السكر، رسولُ المحب، وشبيه الحبيب. تِين كأنه سُفَر مضمومة على عَسَل. مشمش كأنه الشّهد فى بَيادِق الذهب.

[وصف الليل]

قال بعضُ الرواة: أنشدت أعرابيا قول جرير بن عطية بن الخَطَفى[6]:

---

(١) مملوء. (٢) المنصل: السيف. (٣) نقرضه. (٤) بالذهب.
(٥) الزئبر: مايظهر من درز الثوب. (٦) ديوانه: ٥٩٥.

أَبُدِّلَ الليلُ لا تَسْرِى كواكبُهُ ... أَمْ طالَ حتى حسبتُ النجمَ حَيْرانا

فقال : هـذا حسَنٌ فى معناه ، وأعوذ بالله من مثله ؛ ولـكنى أنشدك فى ضدّه من قولى ، وأنشدنى :

وليـلٍ لم يُقَصِّرْه رُقادٌ ... وقصَّر طولَه وَصْلُ الحبيبِ
نَعيمُ الحبّ أَوْرَق فيـه حتى ... تناوَلْنَا جَنَاهُ من قريبِ
بمجلس لذَّةٍ لم نقوَ فيـهِ ... على شكْوَى ولا عَدِّ الذُّنوبِ
بَخِلْنا أنْ نقطّعه بلَفْظٍ ... فترْجَمَتِ العيونُ عن القُلوبِ

فقلت له : زدنى، فما رأيت أظرفَ منك شعراً ؛ فقال : أمَّا هذا الباب فحسبك ، ولـكن أنشدك من غيره :

وكنت إذا علِقْتُ حبالَ قومٍ ... صحبتُهُمُ وَشيمَتِىَ الوفاء
فأحسِنُ حين يُحْسِنُ محسنوهم ... وأجتنب الإساءَة إن أساءوا
أَشاء سوى مشيئتهم فآتِى ... مشيئتهم وأترك ما أَشاء

قال الأصمعى : قرأتُ على أبى مُحْرِز خلف بن حيّان الأحمر شعرَ جرير ، فلما بلغت إلى قوله(١) :

ويومٍ كإبْهامِ القَطاةِ محبّبٍ ... إلىّ صباهُ غالبٌ لِىَ باطِلُهْ
رُزِقْنا به الصّيدَ العزيزَ ولم نكن(٢) ... كمَنْ نَبْلُهُ محْرُومةٌ وحَبائلُهْ
فيالك يومٌ خَيْرُه قبل شرِّهِ ... تغيّبَ واشيهِ وأَقْصَرَ عاذِلُهْ

فقال خلف : وَيْحَه ! فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شرّ ؟ فقلت له : كذا قرأته على أبى عمرو بن العلاء . فقال لى : وكذا قال جَرير . وما كان أبو عمرو ليقرئك إلّا ما سمع. قلت : فكيف كان يَجبُ أن يكونَ ؟ قال : الأَجْوَد أن يقولَ : خـيرُه دون شرِّه ،

---

(١) ديوانه : ٤٨٠ ، ديوان المعانى : ١ — ٣٥٢ . (٢) فى الديوان : ولم أكن .

فأرْوِه كذلك ، فقد كانت الرواةُ قديما تُصْلِحُ أشعارَ الأوائل ، فقلت : والله لا أَرويه بعدها إلاَّ كذا .

ومن أجود ماقيل فى قِصَرِ الليل قول إبراهيم بن العباس[(١)]:

وليـلةٍ من الليـالى الغُرِّ ... قابلتُ فيهـا بَدْرَها ببَدْرِى

لم تَكُ غيرَ شفَقٍ وفَجْرِ ... حتى تَقَضَّت وهى بِكْرُ الدَّهر

وقال محمد بن أحمد الأصبهانى فيما يتعلق بهذا المعنى وإن كان فى ذكر النهار[(٢)] :

كيف يُرْجى لمقلتىَّ هدُوّ ... ورُقادى لطَرْفِ عَيْنى عَدُوٌّ

بأبى مَنْ نَعِمْت منه بِيَومٍ ... لم يزَلْ للسرورِ فيـه نُمُوٌّ

يوم لَهْوٍ قد الْتَقَى طرفاهُ ... فـكأنَّ العَشِىّ فيه غُدُوٌّ

إذْ لشَخْصِ الرقيب فيه تَنَاءٍ ... ولبَدْرِ السَّماءِ مِنّى دُنُوٌّ

وقال ابن المعتز[(٣)] :

يا رب ليلٍ سَحَرٌ كلّهُ ... مفتضَح البَدْرِ عَليل النَّسيمْ

تلتقطُ الأنفاسُ بَرْد النَّدَى ... فيـه فتهديه لِحَرِّ الهُمومْ

لا أعرفُ الإصباحَ لما بدا[(٤)] ... فى ضوئه إلا بِسُكْرِ النَّديمْ

لبست فيـه بالتذاذ الهوى ... ولذةِ الرَّاح ثيابَ النعيم[(٥)]

***

شىء من النقد

أخـذ قوله : « سحر كله » من قول عبد الملك بن صالح بن علىّ ـ وقد قال له الرشيد لما دخل منبج : أهَذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولِى بك يا أميرَ المؤمنين ، قال: كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهْلى، وفوق منازلِ الناس . قال: وكيف ذلك وقَدْرُك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُق أميرِ المؤمنين أتأسَّى به ، وأَقْفُو أَثَره ، وأَحْذُو حَذْوَه ، قال : فكيف طِيبُ منبج ؟ قال: عَذْبَة الماء ، طَيِّبةُ الهواء ، قليلة الأَدْوَاء،

(١) ديوانه ١٤٥ ديوان المعانى ١ ـ ٣٥١ . (٢) ديوانى المعانى : ١ ـ ٣٥٣ ، ونسبت فيه إلى ابن طباطبا . (٣) ديوانه ٦٤ . (٤) فى ديوانه : فى ضوئه لما بدا .

(٥) هذا البيت ليس فى ديوانه المطبوع بين أيدينا .

قال : فكيف لَيْلُها ؟ قال : سحر كله ؟

وأخذ هذا الطائى فقال (١) :

أيامنا مصقولةٌ أطرافها　　　بك والليالى كلها أسحارُ (٢)

* * *

ولأهل العصر : قال أبو على محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمى :

يا ربّ ليل سُرور خِلْته قِصَراً　　　كعارضِ البرق فى أفق الدُّجا بَرَقا
قد كَادَ يعثر أُولاَه بآخرهِ　　　وكادَ يسبق منه فَجْرُه الشَّفَقا
كأنَّما طَرَفَاه طَرْفٌ اتفق الْ　　　جَفْنَانِ مِنْهُ على الإطْبَاق وافْتَرَقَا

ألفاظ فى هذا المعنى لأهل العصر

ليلةٌ من حسنات الدهر ، هواؤها صحيح ، ونسيمُها عليل . ليلة كبُرْدِ الشباب ، وبَرْدِ الشراب . ليلة من ليالِى الشباب ، فضِيّة الأَديم ، مِسْكيّة النسيم . ليلة هى لُمْعَةُ العمر ، وغُرَّةُ الدهر . ليلة مِسْكيّة الأديم، كافوريّة النجوم . ليلة رقد الدّهر عنها ، وطلعت سعودُها ، وغابت عُذَّالُها . ليله كالمسك منظرُها ومَخْبَرُها . ليلة هى باكورةُ العُمْر ، وبِكْرُ الدهر . ليلة ظلماتها أَنوار ، وطِوال أوقاتها قِصَار .

[الصلة بالوزراء]

كان سببُ اتصال سعيد بن هُرَيْم لذى الرياستين الفضل ـ وسمى ذا الرياستين ؛ لأنه جمع بين رياسة القلم ورياسة التدبير للمأمون ـ أَنه دخل عليه يوماً فقال : « الأَجَل آفَةُ الأمل ؛ والمعروف ذُخْرُ الأَبد ، والبِرُّ غنيمةُ الحازم ، والتفريط مصيبةُ أَخِى القدرة ، وإنّا لم نَصُنْ وجوهَنا عن سؤالك ، فصُنْ وجهك عن ردِّنا ،

---

(١) ديوانه ١٤٨ .　　(٢) مصقولة : مجلوة . الأسحار : أوقات الصباح .

وضَعْنَا من إحسانك بحيث وضَعْنَا أنفسنا من تأميلك » .

فأمر أن يُكْتَب كلامُه ، وسماه سعيدا الناطق، ووصله المأمون نخصّ به ، فلحقته فى بعض الأوقات جَفْوَة من الفضل ، فكتب إليه : « ياحافظَ مَنْ يَضع نفسَه عنده ، ويا ذاكرَ مَنْ نَسِى نصيبه منه ، ليس كتابى إذا كتبتُ استبطاءً ، وما إمسا كى إذا أمسكتُ استغناء ؛ فكتبت مذكِّرا لا مستقصراً (١) فِعْلَك » .

فوصله وأَحْسَن إليه ، وقد روى بعضُ هذا الكلام المنسوب إلى سعيد بن هريم لأبى حفص الكرمانى مع ذِى الرِّياستين .

ويقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمى :

لَعَمْرُكَ ماالأَشْرافُ فى كل بَلْدَةٍ وإن عَظَّموا لِلفَضْل إلاّ صَنَائعُ
تَرَى عظماءَ الناس لِلفَضْل خُشَّعاً إذا ما بدا ، والفَضْلُ لِلّه خاشعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زاده اللهُ رِفعةً وكلٌّ جليل عنده مُتواضِعُ

وقال إبراهيم بن العباس (٢) :

لفضل بن سَهْلٍ يدٌ تقاصرَ عَنْهَا المثلْ
فباطِنُها للندَى وظَاهِرُهَا للقُبَلْ
وبَسْطَتُها لِلْغنَى وسَطْوَتُها لِلأَجلْ

ابن الرومى وابن المدبر

أخذه ابن الرومى فقال لإبراهيم بن المدبر :

أصبحتُ بين ضراعة وتجمُّل والمرء بينهما يموتُ هزيلا
فامدد إلىَّ يداً تعوَّدَ بَطْنُها بَذْلَ النوالِ وظَهْرُها التقبيلا

وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وزاد فى هـــذا المعنى تشبيها ظريفا (٣) :

لهـا راحةٌ فيها الحطيم وزَمْزَمُ مُقبَّل ظَهْرِ الكف وهّابُ بَطْنِها

---

(١) فى بعض الأصول : لا مستصغرا . (٢) ديوانه ١٣٦ . (٣) فى س : طريفا .

فظاهِرُها للناسِ رُكْنٌ مقبَّلٌ   وباطنُها عَيْنٌ من العُرْف عَيْلَمُ[1]

***

ذوالرياستين

وكان ذو الرياستين يَقْبَلُ صوابَ القائلين بما فى قُوّته من صفاءِ الغريزة ، وجَوْدة النَّحيزة[2] ؛ فهو كما قال أبو الطيب[3] :

ملِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لَدَيْه   يضعُ الثَّوبَ[4] فى يدَىْ بزّازِ

وكانت مخايلُ فَضْلِه ودلائلُ عَقْلِه ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دِين المجوسية، فقال له : أَسْلِم أَجِد السبيلَ إلى اصْطِناعِك . قال : فأسلم على يَدِ المأمون ، ولم يزل فى جَنَبَتِه[5] إلى أن رقى إلى رُتْبته .

وذكره يحيى عنـد الرشيد فأَجْمَل الثناء فأمر بإحضاره ، فلما رآه أُفْحِمَ؛ فنظر الرشيد إلى يحيى كالمستفهم ؛ فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ من أدلّ دليل على فَرَاهَةِ[6] المملوك أن تَمْلِكَ هَيْبَةُ مولاه لسانَه وقلبَه . فقال الرشيد : لئن كنت سكتَّ لكى تقولَ هـذا فقد أحْسَنْت ، ولئن كان هـذا شيئاً اعتراكَ عند الحَصَر لقد أجَدْتَ ؛ وزاد فى إكرامه وتقريبه ، وجعل لايسْأله بعد ذلك عن شىء إلا أجابه بأفْصَحِ لسان، وأجود بَيانٍ .

من كلامه

قال سهل بن هارون : وممـا حُفِظ من كلام ذى الرياستين مما رأينا تَخْلِيدَه فى الـكتب ليُؤْتَمّ به ويُنْتَفع بمقْول حكمته ، قوله : مَن تركَ حقًّا فقد غبن حظًّا ، ومَن قضَى حقًّا فقد أحْرَزَ غُنْماً ، ومَن أتَى فَضْلاً فقد أوْجَب شكراً ، ومن أحْسَن توكّلا لم يعدم مِنَ اللهِ صُنْعاً ، ومَن تركَ لله شيئاً لم يَجِدْ لِما تركَ فَقْدًا ، ومَنِ التمسَ بمعصية اللهِ حَمْدًا عادَ ذلك على مُلْتَمِسه ذمًّا ، ومن طلب بخلاف الحقِّ له دَرَكاً[7] عاد ماأدرك من ذلك له مُوبِقاً ؛ وذلك أَوْجَب الفَلاح للمحسنين ، وجعل سوءَ العاقبة للمسيئين المقصِّرينَ .

---

(١) العيلم : البحر .   (٢) النحيزة : الطبيعة .   (٣) ديوانه ٢–١٨٣ .

(٤) فى الديوان : واضع الثوب . (٥) جانبه. (٦) الفراهة : الحذق . (٧) الدرك: اللحاق.

ووقّع فى رُقْعة ساعٍ : نحن نرى قبولَ السعاية شرًّا منها ؛ لأنَّ السِّعاية دلالةٌ ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دلّ على شىء وأخْبَر به كمن قَبِله وأجازه ؛ فاتّقُوا السَّاعِىَ ؛ فإنّه لو كان فى سعايته صادِقا لـكان فى صِدْقِه آثما ؛ إذْ لم يحفَظْ الحُرْمة ، ولم يستر العَوْرَة .

***

استطراد فى السعاية

والشىء يقرن مع جِنْسِه : كتب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان واليا على أرمينية للرشيد : إنّ قوماً صارُوا إلى سبيل النُّصْحِ فذكروا ضِيَاعا بأرمينية قد عَفَت ودَرَسَتْ ، يرجع منها إلى السلطان مالٌ عظيم ، وإنى وقفتُ عن المطالبة حتى أعْرف رأيك .

فكتب إليه : قرأتُ هذه الرقعةَ المذمومة ، وفهِمْتُها ، وسُوقُ السعاية بحَمْد الله فى أيامنا كَاسِدَة ، وألْسِنَة السُّعاةِ فى أيامنا كَلِيلة خاسئة ؛ فإذا قرأْتَ كتابى هذا فاحْمِل الناسَ على قانونك ، وخُذْهُم بما فى ديوانك ؛ فإنّا لم نولِّك الناحية ، لتتبّع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعْلام الداثرة ، وجنبنى وتجنَّب بيتَ جرير يخاطب الفرزدق (١) :

وكنتَ إذا حللتَ بدارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وتركْتَ عَارَا

وأجْرِ أُمورَك على ما يكسب الدُّعَاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدّةٌ تنتهى ، وأيامٌ تنقضى ، فإمَّا ذِكْرٌ جميلٌ ، وإما خِزْىٌ طَوِيل .

وقال رجلٌ للمهدى : عندى نصيحةٌ يا أمير المؤمنين . فقال : لمَنْ نَصيحتك هذه ؟ لَنا ، أَمْ لِعامَّةِ المسلمين ، أم لنفسك ؟ قال: لك يا أَميرَ المؤمنين ، قال : ليس الساعى بأعظم عورةً ولا أقبَحَ حالاً ممن قَبِل سِعَايته، ولا تخلو من أن تكونَ حاسِدَ نعمة، فلا نشفى غَيْظَك ، أَوْ عَدُوًّا فلا نعاقب لك عدوَّك ! ثم أقبل على الناس فقال : لا يَنْصَحُ لنا نَاصِحٌ إلا بما فيه لله رضاً ، وللمسلمين صَلَاح ؛ فإنما لنا الأَبدانُ وليس

(١) ديوانه ٢٨١ .

لنا القلوبُ ؛ ومن استترَ عنّا لم نكشفه ، ومن بادَانا [١] طلبنا توْبته ، ومن أخطأ أقلْنا عثْرَته ؛ فإنى أرى التأديب بالصَّفْحِ أبلغَ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكْثر منها مع المُعاجلة ، والقلوب لاتبقى لِوالٍ لا يَنْعَطِف إذا استُعْطِفَ ، ولا يعفو إذا قَدَر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يَرْحَمُ إذا استُرحم .

***

رجع إلى كلام ذى الرياستين

ووقّع ذو الرياستين إلى تميم بن خزيمة : الأمورُ بتمامها ، والأعمالُ بخَوَاتمها ، والصنائعُ باستدامتها ، وإلى الغاية يَجْرِى الجواد؛ فهناك كشفَت الْخِبْرَةُ قِناعَ الشّكّ؛ فحمد السابق ، وذمّ الساقط ـ وذو الرياستين هو القائل :

أَنضيتِ أَحرف «لا» مما لفظت بها فحوّلى رَحْلَها عنّا إلى نَعَمِ
أَوْ صيِّريها إليها [٢] منك منعمةً إن كنتِ حاولت فيها خِفة الْكَلِم
قِسْتُمْ علينا فعارَضْنَا قياسَكُمُ يا أَحْسَن الناسِ من قَرْن إلى قدَم

ولما قتل ذُو الرياستين دخَل المأمونُ على أُمّه فقال : لا تَجْزَعِى فإنّى ابْنُك بعد ابنك . فقالت : أفلا أَبكى على ابنٍ أَكسَبنِى ابناً مِثْلك ؟

[وصف الخيل]

ووصف ابن القِرِّيَّة [٣] فرساً أَهْدَاه الحجاجُ إلى عبد الملك بن مروان فقال : حَسَنُ القَدِّ ، أسيلُ الخَدِّ ، يسبق الطَّرْفَ ، ويستَغْرِقُ الوَصْفَ .

وأَهدى عبد [٣] الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه : قد بعثتُ إلى أميرِ المؤمنين بفرسٍ يلحق الأرانب فى الصَّعْدَاء ، ويجاوِزُ الظِّبَاءَ فى الاستواء ، ويسبق فى الحَدُور [٤] جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبّط شرا :

---

(١) بادى العداوة : جاهر . (٢) فى ط : إلينا .
(٣) النويرى ١٠ـ٦٩ . (٤) الحدور : المكان الذى ينحدر منه .

ويَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيث يَنْتَحِي ... بمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المُتَدَارِكِ [1]

وقال رجل لبعض النخاسين: اشْتَرِ لى فرساً جَيِّدَ القَمِيص، حسَنَ الفُصوص [2]، وثيق القَصَبِ، نقيّ العَصَب، يُشيرُ بأُذُنيه، ويَنْدِسُ برِجْلِيه [3]، كأنه موجٌ فى لُجَّة، أو سَيْلٌ فى حَدُور.

جمع محمد بن الحسين هَذَيْنِ الكلامين وزاد فقال يصف فرساً [4]: هو حَسَنُ القميص، جيّد الفصوص، وثيق القَصَب، نقيّ العَصَب، يُبْصِرُ بأذنيه، ويتبوّع [5] بيديه؛ ويُدَاخِلُ برجْلَيه، كأنه موجٌ فى لجّة، أو سيلٌ فى حَدُور، يناهب المشى قبل أن يُبْعث، ويلحق الأرانب فى الصعداء، ويجاوزُ جوارى الظباء فى الاستواء، ويسبق فى الحَدُور جَرْىَ الماء، إنْ عُطِف جَارَ، وإن أرسِل طار، وإنْ كلّف السير أمْعَن وسار، وإن حُبس صَفَن [6]، وإن استوقف قطن [7]، وإنْ رعَى أبَنَ [8]؛ فهو كما قال تأبّط شرًّا وذكر البيت.

وأول هذه الأبيات [9]:

وإنى لَمُهْدٍ من ثَنائى فَقَاصِدٌ ... به لابْنِ عمّ الصِّدْقِ شَمْسِ بن مالك
أهزُّ به فى نَدْوَةِ الحىّ عِطْفَهُ ... كما هزَّ عِطْفِى بالهِجَانِ الأَوَارِكِ [10]
قَلِيل التَّشَكِّى لِلْمُلِمِّ [11] يُصِيبُهُ ... كثيرُ الهوَى شتَّى النَّوَى والمَسَالِكِ
يظَلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسِى بغَيْرِها ... جَحِيشاً ويعْرَورى ظُهورَ المَهَالِكِ [12]

(١) منخرق الرياح: مهبها. وفى النويرى: شده المتتابع. (٢) الفص: ملتقى كل عظمين، وجمعه فصوص. (٣) ندس به الأرض: ضربه. (٤) النويرى ١٠ــ٦٩. (٥) التبوع: إبعاد خطو الفرس فى جريه. (٦) صفن الفرس: قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة. (٧) فى النويرى: فطن. (٨) أبن: ترقب. (٩) القالى ٢ــ١٣٨، اللآلئ: ٧٦١، الحماسة ١ــ٩٠. (١٠) الندوة: المجتمع. والهجان: الإبل الكريمة، والأوارك: راعية الأراك. (١١) فى س والقالى: للمهم. (١٢) الموماة: المفازة. جحيش: منفرد. يعرورى: يركب عريا (اللسان ــ مادة عرا).

ويسبقُ وفدَ الرّيحِ من حيثُ ينتحِى ... بمُنخَرِقٍ مِنْ شدِّهِ المُتَدارِكِ
إذا خاطَ عينَيْهِ كرَى النّومِ لم يزَلْ ... له كالِئٌ من قلبِ شَيْحَانَ فاتِكِ (١)
إذا طلعت أُولى العدوّ فنفره ... إلى سَلَّةٍ من صارمِ الغَرْبِ باتِكِ (٢)
ويجْعَلُ عَيْنَيْهِ ربيئةَ قَلْبِهِ ... إلى ضَرْبَةٍ مِنْ حَدِّ أَخْلَقَ صائِكِ (٣)
إذا هَزَّهُ فى عظمِ قِرْنٍ تَهلّلتْ ... نواجذُ أفْواهِ المنايا الضّواحِكِ
يرى الوحشةَ الأُنْسَ الأنيسَ ويهتدِى ... بحيثُ اهتَدَتْ أمُّ النجومِ الشّوابِكِ

سوابق خيل مصر تهدى إلى معاوية

وأهدى عمرُو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سَوابِقِ خَيْلِ مِصْرَ، فعُرِضَتْ عليه، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثى، فقال له معاوية: كيفَ ترَى هدايانا يا أبَا سعيد؟ فإن أخاك عَمراً قد أَطْنَبَ فى وَصْفِها. فقال: أَراها يا أَميرَ المؤمنين على ما وصف، وإنها المُخَيَّلة (٤) بكلّ خير؛ إنها لسامِيَةُ العُيون، لاحِقَةُ البُطون، مُصْغِيَةُ الآذان، قَبّاءُ الأسنان (٥)، ضِخامُ الرُّكبات؛ مُشْرِفاتُ الحجبات (٦)، رحابُ المَناخِرِ، صِلابُ الحَوافر، وَقْعُها تَحْلِيل، ورَفْعُها تَعْلِيل (٧)؛ فهذه إن طُلِبت سَبَقت، وإن طَلَبتْ لَحِقَتْ. قال له معاوية: اصرفها إلى رَحْلك؛ فإنّ بنا عنها غِنى، وبفتيانك إليها حاجة.

وقال النابغة الجعدى (٨):

وإنّا أُناسٌ لا نعوِّدُ خَيْلَنا ... إذا ما التقَيْنا أن تَحِيدَ وتَنْفِرَا

---

(١) الكالئ: الحافظ. الشيحان: الحاد فى الأمر الحازم. وفى س: سبحان.
(٢) فى القالى: أولى العدى. والعدى: الجماعة الذين يعدون فى الحرب. وفى س، ق: من صارم الغر فاتك. وهذه رواية القالى، وارجع إلى اللآلئ: ٧٦١–٧٦٢.
(٣) الربيئة: الرقيب. والصائك: اللازق. (٤) خيل فيه الخير: تفرسه، والسحابة المخيلة بتشديد الياء، والمخيلة — بكسر الخاء بعدها ياء ساكنة: التى تحسبها ماطرة.
(٥) قبت الناب: صوتت وقعقعت. (٦) الحجبتان: حرفا الوركين.
(٧) التحليل والتعليل: من حركات الخيل. (٨) جمهرة أشعار العرب ٣٠٦.

وُنُنْكِرِ يوم الرَّوْعِ ألوانَ خَيْلِنا ... من الطعن حتى نَحسب الجَوْنَ أَشْقَرَا[1]
فليس بمعروفٍ[2] لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا ... صِحَاحاً ولا مُسْتَنْكَرٌ أن تُعقَّرا

وقال بعض العرب :

ولقد شَهِدْتُ الخيلَ يوم طرادها ... بسليم أَوْظِفَةِ القَوَائِم هَيْكَلِ
فدعَوا : نَزالِ ! فكنت أَوَّل نازلٍ ... وعَلَامَ أركبه إذا لم أنزلِ

لبعض الأعراب فى وصف الخيل

ووصف أعرابى فرسا فقال[3] : لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطانٍ فى أَشْطَانٍ ، فأرسلوه ، فلمع لَمْعَ البَرْقِ ، واستهلّ استهلالَ الوَدْقِ[4] ، فكان أَقْرَبهم إليه الذى تقع عينه من بُعْدٍ عليه .

وذكر أعرابى رجلا فقال : عنده فرسٌ طويل العِذَارِ ، أَمِينُ العِثَارِ ؛ فكنت إذا رأيته عليه ظننته بَازِيا على مَرْبأ[5] ، عليه رُمْحٌ طويل يقصّرُ به الآجال .

وقال بعض المحدثين فى هذا التطابق :

لقيناهم بأَرْمَاحٍ طوالٍ ... تبشِّرُهم بأعمارٍ قِصَارِ

ووصف أعرابى خيلا لبنى يربوع فقال : خرجَتْ علينا خيلٌ من مستطير نَقْعٍ ، كأن هواديها أَعْلام ، وآذانَها أقلام ، وفرسانها أُسود آجام .

ولما أنشد العمَّانى الرشيد يصف فرساً :

كأنّ أُذنيه إذا تَشَوَّفا ... قادِمةً أو قَلَماً مُحرّفاً

ولحن، ففهم ذلك أَكْثَرُ من حضر ؛ فقال الرشيد : اجعل مكان « كأن » تَخَالُ ، فعجبوا لسُرْعَة تَهَدِّيه .

ولأبى تمام

وللطائيين فى هذا النوع أشعارٌ كثيرة منعنى من اختيارها كَثْرةُ اشتهارها ؛ وسأنشد بعض ذلك ، قال أبو تمام[6] :

---

(١) الجون : الأسود . (٢) فى الجمهرة : وما كان معروفا .
(٣) النويرى: ١٠ــ٦٨ . (٤) المطر . (٥) ربأ : علا وارتفع .
(٦) ديوانه: ٢١٢

ما مُقْرَبٍ (١) يَخْتَالُ فى أَشْطَانِهِ ... ملآن مِنْ صَلَفٍ به وتَلَهْوُقِ (٢)
بحوافرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ (٣) أَصلتٍ ... وأشاعرٍ شُعْرٍ وخلق أَخْلَقِ
ذو أولقٍ تحْتَ العجاج وإنما ... من صحةٍ إفراطُ ذاكَ الأَوْلَقِ (٤)
صافِى الأديم كأنما ألبسته ... من سُنْدُسٍ بُرْداً ومن اسْتَبْرَقِ
إمْلِيسةٌ إمليدةٌ (٥) لو عُلِّقت ... فى صهوتيهِ العينُ لم تتعلَّقِ
مُسْوَدٌّ شَطْرٍ مثل مااسْوَدَّ الدّجى ... مبيضٌّ شَطْرٍ كابيضاضِ المُهْرَقِ (٦)

للبحترى

وقال أبو عبادة (٧) :

وأغرَّ فى الزّمَنِ البهيم مُحَجَّلٍ ... قد رحْتُ منه على أغرَّ مُحَجَّلِ
وَافِى الضلوع يشُدّ عقد حزامهِ ... يومَ اللقاء على مُعِمٍّ مُخْوِلِ
يَهْوِى كماهَوَتِ العُقابُ إذا (٨) رَأَتْ ... صَيْدًا ويَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الأَجدل (٩)
متوحّش بدقيقتين (١٠) كأنما ... تُرِيَانِ من وَرقٍ عليه مُوَصَّلِ
كالرائحِ النَّشْوانِ أكْثَرُ مَشْيِهِ ... عرض على السَّنَنِ البعيدِ الأَطْوَلِ
ويظنّ رَيْعَانَ الشباب يَرُوعُهُ ... من نَشْوَةٍ أوجنَّةٍ أو أفكل (١١)
هَزِجَ الصهيلِ كأنَّ فى نَبَرَاتِهِ ... نغماتِ (١٢) مَعْبَدَ فى الثَّقِيلِ الأوّلِ
تَتَوَهَّمُ الجَوْزاءَ فى أرْسَاغِهِ ... والبَدْرُ غُرةُ وَجْهِهِ (١٣) المتهلِّلِ
صافِى الأديمِ كأنَّما عُنِيتْ لَهُ ... بصفاءِ نُقْبَتِه مَدَاوِكُ صَيْقَلِ (١٤)

---

(١) المقربة : الفرس التى تدنى وتقرب وتكرم ولا تترك ، وهو مقرب .
(٢) التلهوق : التحسن . (٣) فى الديوان : وصلب . والأصلت : السيف الم
والغبار الشديد الارتفاع . (٤) الأولق : الجنون . (٥) أصل الإمليس : الأرض
بها نبات . والإمليد والأملود : الناعم اللين . (٦) المهرق : الصحيفة .
(٧) ديوانه ٢ — ٢١٧ ، النويرى ١٠ — ٥١ ، ديوان المعانى ٢ — ١٢٥ .
(٨) فى الديوان : وقد . (٩) الأجدل : الصقر . (١٠) فى الديوان : متو
برقيقتين . (١١) الإفكل : الرعدة . (١٢) فى الديوان : كأن فى نفحاته نبرا
(١٣) فى الديوان : فوق جبينه . (١٤) فى الديوان ، ق: مداوس صيقل .

وكأنما كُسِيَ الخدودَ نَواعِماً[1] مهما تلاحظها[2] بلحظ يخْجَل ِ
وكأنما نفضت عليه صِبْغَها صَهْباءُ للبَرَدانِ أو قُطْرُبُّل ِ[3]
مَلَكَ العيون فإن بَدَا أعْطَينَهُ نَظَرَ المحبِّ إلى الحبيبِ المقبل ِ

وقال إسحاق بنُ خلف النهرواني لأبي دُلَف، وكان له فرسٌ أدهم يسميه غرابا:

كم كم تجرِّعه المنون ويسلمُ لو يستطيع شكا إليكَ لَهُ الفمُ
من كل منبت شعرة من جِلْدِهِ خَطٌّ ينمِّقُه الحُسَامُ المِخْذَمُ[4]
ما تُدْرِكُ الأرواح أَدْنَى جَرْيِهِ حتى يَفُوتَ الريحَ وهو مقدَّمُ
رَجَمَتْه أَطْرَافُ الأَسِنَّة أشْقرًا واللون أدْهَم حين ضَرَّجَه الدَّمُ
وكأنما عقد النُّجوم بِطَرْفِهِ وكأنَّهُ بِعُرَى المَجَرَّة مُلْجَمُ

وقال أبو الطيب[5]:

جَفَتْنِي كأنِّي لَسْتُ أنْطَقَ قَوْمِها وأطْعَنَهمْ والشُّهْبُ في صُوَرِ[6] الدُّهْمِ

وقال أبو الفتح كشاجم:

قد راح تحت الصُّبْحِ ليلٌ مظلم إذ لاح في السَّرْج المحلَّى الأَدْهَمُ
ديباجُ أَلْوانِ الجيادِ ولم يكن ليُخصَّ بالديباج إلاّ الأكرمُ
ضَحِكَ اللُّجَيْنُ على سوادِ أديمه وكذا الظلامُ تُنِيرُ فيه الأنجمُ
فكأنه ببنات نَعْش ملببٌ وكأنما هُوَ بالثريَّا مُلجَمُ

قلت: هذا من قول ابن المعتزّ:

أَلاَ فاسقياني والظلامُ مقوّضٌ ونَجْمُ الدُّجا تحت المغارب يَرْكُضُ

---

(١) في س: تواضعا. (٢) في الديوان: تواصلها بلحظ تخجل.
(٣) قطربل: موضعان أحدهما بالعراق تنسب إليه الخمر — معجم ما استعجم ١٠٨٣.
(٤) المخذم: القاطع. (٥) ديوانه: ٤ — ٥٠.
(٦) في الديوان: صورة.

كأنَّ الثريا فى أواخرِ لَيْلِها   تفتّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مفضّضُ

لأبى الفتح

وقال أبو الفتح (١) :

مَنْ شكّ فى فَضْلِ الكُمَيْتِ فبينهُ   فيه وبين يقينِهِ المِضْمَارُ
فى منظَرٍ مستحسَنٍ محمودةٍ   أخْبارُه إذ تُبْتَلَى الأخبارُ
ماءٌ تدفّق طَاعَةً وسَلَاسَةً   فإذا استُدِرَّ الحُضْرُ (٢) فيه فنَارُ
وإذا عَطَفْتَ بهِ على ناوَرْدِه (٣)   لتُدِيرَه فكأنّه بِرْكَارُ
وصف الخَلوقَ أديمُه فكأنّما   أَهْدَى الخَلوقَ لجلده عطّارُ (٤)
قصرتْ قِلَادَةُ نَحْرِهِ وعِذَارِهِ   والرّسغ، وهىَ من العِتَاق (٥) قِصَارُ
وكأنما هاديه جذْعٌ مُشْرِفٌ   وكأنما للضبع فيه وِجارُ (٦)
يَرِدُ الضَّحَاضِحَ غير ثانى سُنْبُكٍ   ويَرُودُ طَرْفُك خَلْفَه فتَحارُ (٧)
لو لم تكن للخيلِ نسبةُ خَلْقِهِ   حَاكَتْه من أشكالِها الأَطْيَارُ

لابن المعتز

وقال ابن المعتز (٨) :

وخَيْلٍ طَواها القَوْدُ (٩) حتى كأنّها   أنابيبُ سُمْرٌ من قَنَا الخط ذُبَّلُ
صببنا عليها – ظالمين – سِيَاطَنا   فطارَتْ بها أيدٍ سِرَاعٌ وأرْجُلُ

قولُهُ: «ظالمين» من أبْدَع حَشْوٍ جرى فى بيت ، وكأنّ ابن المعتز أشار إلى قول أعرابى مولد :

وعَوْدٍ قليلِ الذنب عاوَدْتُ ضربَهُ   إذا هاج شَوْقِى من معاهدها ذِكْرُ (١٠)

---

(١) النويرى ١٠–٥٩ .   (٢) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه .

(٣) ناورد : لفظ فارسى بمعنى القتال وجولان الخيل فى الميدان .

(٤) الخلوق : نوع من الطيب .   (٥) فى النويرى ، س : العتيق .

(٦) هاديه : صدره، والوجار : جحر الضب .   (٧) الضحاضح : الماء اليسير، أو إلى الكعبين ، أو أنصاف السوق . السنبك : طرف الحافر .   (٨) ديوانه ٤٦ ، النويرى ١٠–٥٩

(٩) القود : نقيض السوق، فهو من أمام وذاك من خلف.   (١٠) العود : المسن من الإبل.

فقلت له زلفاء[1] ـ وَيْحَك ـ سَبَبْتَ ... لك الضَّرْبَ، فاصبر إن عادتك الصَّبْرُ

وقال ابن المعتز :

أراجعتى فِداكَ بأعْوَجِىّ ... كقدح النّبع فى الرّيشِ اللُّؤامِ[2]

بأدهمَ كالظّلامِ أغرَّ يَجْلُو ... بغُرّتِهِ دَياجِيرَ الظّلامِ

تَرَى أحْجَاله يصعدنَ فِيـهِ ... صُعودَ البَرْقِ فى جَوِّ الغَمامِ

وقال أيضاً[3] :

قد أَغْتَدِى والصُّبْحُ كالمَشِيبِ ... فى أفق مِثْل مَدَاكِ[4] الطِّيبِ

بقَارِحٍ مُسَوّم يَعْبُوبِ ... ذى أُذن كخُوصَةِ العَسيبِ[5]

أو آسةٍ[6] أَوْفت على قَضِيبِ ... يَسْبِق شَأْوَ النظرِ الرّحِيبِ

أَسْرَعَ من ماء إلى تَصْوِيب ... ومن رُجوع لَحظة المُرِيبِ[7]

وقال[8] :

رُبَّ رَكْبٍ عرّسوا ثم هَبُّوا ... نحـو إسْرَاجٍ وَشَدِّ رِحَال

وعدَونا بأعنّةِ خيل[9] ... تأكُلُ الأرضَ بأيْدٍ عِجَالِ[10]

زينَتْها غررٌ ضَاحِكَاتٌ ... كبدورٍ فى وُجُوهٍ[11] ليال

وقال على بن محمد الإيادى : للإيادى

مسح الظلامُ بعُرفه يدَهُ ... ومَشَى فقبَّل وَجْهَهُ البَدْرُ

---

(١) فى س : ذلفاء . (٢) الأعوجى : أعوج : فرس لبنى هلال تنسب إليه الخيل الأعوجيات ، وريش لؤام : يلائم بعضها بعضا . (٣) ديوانه ٢ ـ ٩٧ .

(٤) المداك : الصلاءة . (٥) القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من الإبل . وفى ديوان المعانى : بقادح . اليعبوب : الفرس السريع . والعسيب : عظم الذنب، وفى س : كخضوة ، وفى ق : كخصوة ، وهذه عن الديوان . (٦) الآسة : الشجرة ، وفى الديوان : أسة .

(٧) تصويب : انحدار . (٨) ديوانه ١٢٦ ، ديوان المعانى ٢ ـ ١١٣ .

(٩) فى الديوان : بأعنة خال تأخذ الأرض ، وفى ديوان المعانى : وغدونا .

(١٠) فى ديوان المعانى : بأيدى ... (١١) فى ديوان المعانى : فى وجوه الليالى .

للناشئ وقال الناشئ أبو العباس عبد الله بن محمد :

أَحْوَى عليه مَسَائِحٌ من لِيطَةٍ ... شُهُبٌ تسيلُ على نَوَاشِرِ سَاقِهِ (١)
فكأنهُ مُتَلَفِّعٌ قُبْطِيَّةً (٢) ... أثناؤُها مشدودةٌ بنطاقِهِ
فَسَوادُه كالليلِ فى إظلامِهِ ... وبَيَاضُه كالصُّبْحِ فى إشراقِهِ
صافى الأديمِ كريمةٌ أنسابُهُ ... أَخْلاقُه عَيْنٌ على أعْراقِهِ

للثعالبى كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى إلى الأمير أبى الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال ، وقد زاره الأميرُ فى داره :

لا زال مَجْدُكَ للسِّمَاكِ رَسِيلا ... وعلوّ جدّك بالخلود كَفِيلا
يا غُرَّةَ الزمنِ البهيم إذا غدا ... أهلُ العُلا لزمانهم تحجيلا
يا زائراً مدّت سَحَائبُ طَوْلِهِ ... ظِلًّا علىَّ مِنَ الجمالِ ظليلا
وأتت بصَوْبِ جواهرٍ من لفظهِ ... حتى انتظمْنَ لمفرِقِى إكليلا
بأبى وغيرِ أبى هِلالٌ نورُهُ ... يستعجِلُ التسبيحَ والتهليلا
نقشت حَوَافِرُ طرْفِهِ فى عَرْصتى ... نَقْشًا محوْتُ رسومَه تقبيلا
ولو استطعت فرشتُ مسقطَ خطوِهِ ... بعيون عِينٍ لا ترَى التكحيلا
ونثرتُ روحى بعدما ملكتْ يدى ... وخررتُ بين يدَىْ هواهُ قتيلا

لابن هانئ وقال أبو القاسم بن هانئ يصف خيل المعز :

له المُقْرَبات الجُرْدُ يُنعِلُها دماً ... إذا فرَعتْ هامَ الكُماةِ السَّنابِكُ (٣)
يُرِيقُ عليها اللؤلؤُ الرطبُ ماءَهُ ... ويَسبِكُ فيها ذائبَ التِّبرِ سابِكُ
صقيلاتُ أجسامِ البروقِ كأنما ... أمرّت عليها بالشموسِ المَداوِكُ

---

(١) الليطة : قشر القصبة ، والقوس والقناة . والمسيحة : الذؤابة والقوس ، وجمعه مسائح .
(٢) القبطية : ثياب تنسب إلى أهل مصر . (٣) المقربة : الفرس التى تدنى وتقرب وتكرم ولا تترك . وأنعل الدابة : ألبسها النعل . وفرعت : علت . والسنابك جمع سنبك : طرف الحافر .

وقال يصف فرساً لجعفر بن على بن حمدون :

تَهلَّلَ مَصْقُولَ النواحى كأنهُ إذا جالَ ماءُ الحُسْنِ فيه، غريقُ
مِنَ البُهْمِ وَرْد اللون شِيبَ بِكُمْتَةٍ كما شِيبَ بالمسكِ الفَتِيقِ خَلوقُ (١)
فلو مِيزَ منه كلٌّ لون بذاته جَرَى سَبَجٌ منه وذَابَ عَقِيقُ (٢)

وقال فى قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشيبانى :

فتَقَتْ لكم ريحُ الجِلَادِ بعَنْبَرٍ وأمدَّ كُم فَلَقُ الصَّبَاحِ المُسْفِرِ
وجنيتمُ ثمرَ الوقائع يانعاً بالنَّصرِ من ورقِ الحديدِ الأخْضَرِ
أبنى العوالِى السَّمْهَرِيّة والسيو فِ المَشْرَفِيَّة والعديدِ الأكْثَرِ
مَنْ مِنكم الملكُ المطاعُ كأنَّهُ تحت السَّوابغِ تُبَّعٌ فى حِمْيَرَ
القائد الخيل العِتاق شوازِباً خُزْرًا إلى لحظ السِّنانِ الأخْزَرِ (٣)
شُعْثَ النَّواصى حَشْرة آذانُها قُبَّ الأياطِل داميات الأنسرِ (٤)
تَنْبُو سنا بكهن عن عَفَرِ الثَّرى فيَطَأْنَ فى خَدِّ العزيز الأصْعَرِ (٥)
فى فتيةٍ صَدأُ الحديدِ عَبِيرُهم وخَلوقُهم عَلَقُ النَّجيع (٦) الأحمرِ
لا يأكل السِّرْحان شِلْو عقيرهم (٧) مما عليه من القَنا المتكسِّرِ

وقال فى قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن على :

نخرٌ لِطرْف أعْوَجىّ أنْتَ فى صَهواتِه والحُسْنُ والتَّطهيمُ
يُبْدِى لعزِّك نَخْوَةً فكأنَّهُ مَلِكٌ تَدينُ له الملوكُ عَظيمُ

---

(١) البهم : ما لاشية فيها من الخيل . الورد من الخيل: بين الكميت والأشقر .
(٢) السبج : السواد . (٣) الشازب : الخشن . والضامر : اليابس . الخزر – محركة – كسر العين بصرها خلقة أو ضيقها وصغرها . (٤) القبب : دقة الخصر وضمور البطن.
والأياطل : الخصور . النسر : لحمة فى باطن الحافر ، أو ما ارتفع فى باطن الحافر من أعلاه .
(٥) العفر : ظاهر التراب .(٦) النجيع : من الدم ما كان إلى السواد، أو دم الجوف .
(٧) الشلو : العضو .

هادٍ على الخيــلِ العِتاقِ كأنهُ ... بين الدُّجُنَّـةِ والصباحِ صَرِيمُ (١)
سامى القَذال بِمِسْمَعيْهِ عيافةٌ ... تحت الدُّجى ولطَرْفِه تَنْجيمُ
أُذُن مُؤَلّلةٌ وقلب أصْمَعٌ (٢) ... وحَشاً أقبُّ وكَلْكَلٌ ملمومُ
فالطَّوْدُ من صَهَواته مُتَزَلْزِلٌ ... والجَيْشُ من أنفاسِه مَهْزُومُ
خَرَقَ العيونَ فضلَّ عنهـا لونُه ... وصفاً فقُلْنَا ما عليـــه أديمُ
فـكأنما جمدت عليه مُزْنَةٌ ... وانجابَ عَنْه عارِضٌ مَرْكوم (٣)
وكأنمـا نُجِرَتْ عليه بَوارِقٌ ... وكأنما كُسِفَتْ عليـه نُجومُ
وكأنّك ابنُ المنـذرِ النعمانِ فو ... قَ سراته وكأنه اليَحْمُومُ (٤)

وقال على بن محمد الإيادى يصف فرس أبى عبد الله جعفر بن أبى القاسم القائم : للإيادى أيضاً

وأَقبَّ من لحق (٥) الجيادِ كأنهُ ... قَصْرٌ تباعَدَ رُكْنُه من رُكْنِهِ
لبستْ قوائمهُ عصائِبَ فضَّـةٍ ... وغدَتْ بسُمْرٍ صفا المسيلِ ودُكْنِه
وكأنما انفجرَ الصَّباحُ بوجههِ ... حُسناً أو احْتَبَس الظلامُ بمتْنِهِ
قيد العيونِ إذا بصرْنَ بشَخْصه ... ورضا القلوب إذا اصطَلَيْنَ بضِغْنِه
متَسيْطِر بالراكبينَ كأنَّهُ ... بازٍ تَرُوح به الجَنوب لوَكْنِهِ (٦)
يستوقف اللحظات فى خَطَرَاته ... بكمال خِلْقَتِه ودِقَّة حُسنه
حُلْوُ الصَّهيل تخـال فى لهَوَاته ... حادٍ يَصُوغُ بدائماً من لحْنِه
متجبِّرٌ ينبى بعِتْقِ نِجارهِ ... إشرافُ كاهِله ودِقَّةُ أُذْنِه (٧)
ذو نَخْوَةٍ شمخت بهِ عن نِدّهِ ... وشهامةٍ طمحت به عن قِرْنِه
وكأنَّه فلكٌ إذا حرّكتَهُ ... جارٍ على سَهْلِ البلادِ وحَزْنه

(١) الصريم : الصبح والليل ضد ، والقطعة منه . (٢) مؤللة : محدودة . والأصمع : القلب الذكى المتيقظ . (٣) مركوم : متراكم . (٤) اليحموم : فرس النعمان .
(٥) لحق : ضمر . (٦) الوكن : عش الطائر ، وفى س ، ق : متسطر .
(٧) عتق النجار : كرم العنصر .

قد راح يحمِلُ جعفرَ بن محمدٍ حَمْلَ النسيم لوابلٍ من مُزْنه

للمتنبي

وما أحسن ماقال أبو الطيب المتنبي(١) :

ويومٍ كلونِ(٢) العاشقينَ كَمَنْتُهُ أُراقِبُ فيه الشَّمسَ أيَّانَ تَغرُبُ
وعَيْنِي إلى أُذْنَيْ أغرَّ كأنهُ مِنَ الليلِ باقٍ بين عينيه كَوْكَبُ
له فضْلَةٌ عن جسمِهِ فى إهَابه تجئُ على صدْرٍ رحيبٍ وتَذهَبُ
شَقَقْتُ به الظَّلْماءَ أُدْنِى عِنانَهُ فيَطغَى وأُرْخيـه مِراراً فيلعَبُ
وأصْرَعُ أىَّ الوَحْشِ قفَّيتُهُ بهِ وأنزِلُ عنـهُ مِثلَه حينَ أرْكَبُ
وما الخيـلُ إلا كالصَّديقِ قليلةٌ وإنْ كَثُرتْ فى عَيْنِ مَنْ لا يُجرِّبُ
إذا لم تُشاهِدْ غيرَ حُسن شِياتِهَا وأعْضائِها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّبُ

المقامة الحمدانية فى وصف الخيل

وينخرط فى سِلْكِ هذا المعنى مقامةٌ من مقامات الإسكندرى فى الكُدْية مما أنشأه بديعُ الزمان وأملاه فى شهور سنة خمس وثمانين وثلثمائة . قال البديع(٣) :

حدثنا عيسى بن هشام قال : حضرنا مجلسَ سيف الدولة يوماً وقد عُرِضَ عليه فرس متى ما ترَقَّ العين فيه تَسهَّل(٤) ، فلحَظَتْهُ الجماعة ؛ فقال سيف الدولة : أيكم أَحسن صفته ، جعلته صِلَتَه ؛ فكلٌّ جَهد جَهْدَه ، وبذل ماعِنْده ؛ فقال أحد خدَمِه: أَصْلَح الله الأمير ؛ رأيت بالأمس رجلا يَطأُ الفَصاحَة بنَعْلَيْه ، وتَقِفُ الأبصارُ عليه ، يسلِّى الناس ، ويشفى الياس(٥) ، ولو أَمر الأميرُ بإحضاره ، لفضَلَهم بحِضَاره(٦) .

فقال سيفُ الدولة : علىّ به فى هيئته ، فصار الخدمُ فى طلبه ، فجاءوا للوقت به ، ولم يُعْلِموه لأىّ حالٍ دُعِىَ به ، ثمَّ قُرِّب واستُدْنِى ، وهو فى طِمْرَيْنِ(٧) قد أكل الدهرُ عليهما وشرب ، وحين حضر السِّماط ، لَثَمَ البساط ، ووقف . فقال سيف

---

(١) ديوانه : ١ــ١٧٩ . (٢) فى الديوان : كليل .
(٣) مقامات البديع ١٩٦ . (٤) يريد أن أعلاه وأدناه مستويات فى الحسن .
(٥) فى ط ، ق : ويشفى البأس . (٦) الحضار بكسر الحاء : سرعة البديهة ، أو القوة وجودة السير . (٧) الطمر : الثوب الخلق .

الدولة : بلغتنا عنك عارضة[1] ، فاعْرِضْها فى هـذا الفرس وصِفْه . فقال : أصلح اللهُ الأمير ، كيف به قبْلَ ركوبه ووُثوبه ، وكَشْفِ عيوبه[2] ؟ فقال : اركَبْه ، فركبه وأَجْراه ، ثم قال : أصلح اللهُ الأميرَ ؛ هو طويل الأُذنين ، قليـل الإثنين ، واسع المراث[3] ، لين الثَّلاث ، غَليظ الأكْرُع ، غامض الأربع ، شَديد النَّفْس ، لطيف الخَمْس ، ضيق القَلْتِ[4] ، رقيق السِّتّ ، حديد السَّمْع ، غليظ السَّبع ، رقيق اللسان ، عريض الثّمان ، شديد الضِّلْع ، قصير التّسع ، واسع السَّحْر ، بعيد العَشْر ، يأخذ بالسّائح[5] ، ويُطلِق بالرَّامح ، ويَطْلُع بلائح ، ويَضْحَكُ عن قَارح ، يحزّ وَجْهَ الـكديد[6] ، بمداقّ الحديد ، يُحْضِر كالبَحْرِ إذا ماجَ ، والسيل إذا هاج .

فقال سيفُ الدولة : لك الفرس مُباركاً فيـه . فقال : لازِلت تأخذُ الأنفاس ، وتَمْنَحُ الأفراس . ثم انصرف ، وتبعتُه ، وقلت : لكَ علىَّ ما يليقُ بهـذا الفرس من خِلْعَةٍ إن فسَّرْتَ ماوصفْتَ ، فقال : سَلْ عما أَحببت . فقلت : ما معنى قولك : بَعيدُ العشر ؟ فقال : بَعيد النظر ، والخَطْو ، وأَعالى الجَنْبَيْن[7] ، وما بين الوَقْبَتَيْن ، والجاعِرَتَيْن ، وما بين الغُرَابين ، والمنخَرَيْن ، وما بين الرِّجلين ، وما بين النقبة[8] والصِّفاق ، وبعيد القامَةِ[9] فى السباق .

فقلت : لا فُضّ فُوكَ ، فما معنى قولك : قصير التِّسْع ؟ قال : هاكَ : قصير الشّعرة ، قصير الأُطْرَة ، قصير العَسيب ، قَصِير القضيب ، قَصير العَضُدَين ، قصير الرُّسْغَيْن ، قصير النَّسَا ، قصير الظَّهْر ، قصير الوَظيفِ .

فقلت : لله أنت ! فما معنى قولك : عريض الثَّمان ؟ قال : عريض الجَبْهَة ، عريض

---

(١) العارضة : البديهة . (٢) فى المقامات : وكشف عيوبه وغيوبه .
(٣) المراث : مبعر الفرس . (٤) القلت : النقرة فى رأس الورك .
(٥) فى المقامات : بالسابح . (٦) فى المقامات : يخد . (٧) فى المقامات : اللحيين : عظمى الحنك اللذين يكون عليهما الأسنان . (٨) فى المقامات : المنقب .
(٩) فى المقامات : الغاية .

الصَّهْوَة ، عريض الـكَتِف ، عريض الجَنْب ، عريض الوَرِك ، عريض العَصَب ، عريض البُلْدَة ، عريض صفْحَة العنق .

فقلت : أحسنت ، فما معنى قولك : غليظ السّبع ؟ قال : غليظ الذراع ، غليظ المحْزم ، غليظ العُـكْوَة ، غليظُ الشَّوَى ، غليظ الرُّسْغِ ، غليظ الفَخِذَيْن ، غليظ الحبال[1] .

فقلت : لله درُّك ! فمـا معنى قولك : رقيق الستّ ؟ فقال : رقيق الجَفْن ، رقيق السَّالِفَة ، رقيق الجَحْفَلة ، رقيق الأَدِيم ، رقيق أَعْلَى الأُذنين ، رقيق الغُرْضَيْن .

فقلت : أجدت ، فما معنى قولك : لطيف الخمس ؟ قال : لطيف الزَّوْر ، لطيف النَّسْر ، لطيف الجُبَّة ، لطيف العُجاية ، لطيف الرُّكْبَة .

فقلت: حياك الله ! فما معنى قولك: غامض الأربع؟ قال : غامض أَعالى الـكَتِفَيْن، غامض المَرْفِقَيْن ، غامض الحِجاجَيْن ، غامض الشَّظَى .

قلت : فما معنى قولك : لَيّن الثلاث ؟ قال : لَيّن المَرْدَغَتَيْن[2] ، لَيّن العُرْفِ ، لَيّن العِنان .

قلت : فما معنى قولك : قليل الإثْنَين ؟ قال : قليـلُ لَحْم الوجه ، قليل لحم المَتْنَين .

قلت : فمن أين نَبَاتُ هذا العلم ؟ قال: من الثغور الأُمَوية ، وبلاد الإسكندرية .

فقلت له : أنت مع هذا الفضل تعرضُ وجهك لهذا البَذْلِ ! فأنشأ يقول :

ساخِفْ زمانك جِـدًّا فالدهر[3] جِدُّ سَخِيف
دَعِ الحمِيَّةَ نِسْياً وعِشْ بخَـيْرٍ ورِيف
وقُلْ لعبـدك هَـذا يَجِئْ لنـــا برَغِيف

---

(١) فى المقامات : الحاذ . (٢) المردغة : ما بين العنق والترقوة .

(٣) فى المقامات : إن الزمان سخيف .

سقط عنا تفسيره فى « ليّن الثلاث » ، وأكثرُ هذا التفسير يحتاجُ إلى تفسير ، ولم يُرِدْ بما أَورد إِفْهام العَوامّ ، والبلاغة لمحة دالة ، وبلاغة النثر أخت بلاغة الشعر ؛ وقد قال البحترى[١] :

والشعر لمح تَـكفى إِشارتهُ وليس بالهَذْر طُوِّلت خُطَبُهْ

تفسيرلغوى وسأقول فى شرحه بكلام وجيز زيادة فى الإفادة : الوَقْبَان : نُقْرتان فوق العينين . والجاعِرتان[٢] من الفرس : موضع الرّقمتين من الحمار ، وهما منتهى ضَرْبه بذنبه إذا حركه . والغرابان : الناتئان من أَعْلى الوركين . وذكر النقبة هنا ، وهو الذى يُعْرف بالمنْقَبِ ، وهو من السّرة حيث ينقب البيطار . والصِّفاق : الخاصرة . وقدقيل: جلد البطن كلّه صفاق ، والذى أراده الخاصرة . وأراد ببُعْد القامة فى السباق امتدادُه إذا جرَى مع الأرض . والأُطْرَة هنا : طرف الأَبْهر ، وهى طِفْطفة[٣] غَليظة . والأَبهر : عِرْق يستبطن الظّهر ، فيتّصل بالقلب ، وقيل هو الأكحل . والعسيب : عظم الذنب . والرّسْغ من الفرس : موضع القيد . والنَّسَا : عرق مستبطن الفخذين، وقِصَره محمود فى جَرْى الفرس ، ولـكنه لا يسمح بالمشى . والوظيف لـكل ذى أربع : ما فوق الرّسْغ إلى الساق . والصَّهوة : الظهر . والبُلْدة[٤] : ما بين عينيه . والعُـكْوَة : مغرز الذّنَب . والشَّوى : الأطراف . والحبال : حبلا العاتق والظَّهْر . والجَحْفَلة من ذوات الحافر : كالشفة[٥] من الإنسان . والغُرْضَان من الفرس : ما انحدر من قَصَبة الأنف من جانبيها . والزور : الصدر . والنَّسْر فى الحافر: لحمة يابسة فى أَسْفَله يشبهها الشعراء بالنَّوى . والجُبَّة : التى فيهـا الحوشب . والحَوْشَب : حشو الحافر . والعُجَاية : عصَب[٦] فى قوائم الفرس والبعير مركّب

---

(١) ديوانه ١ـ٣٨ . (٢) حرفا الورك المشرفان على الفخذين .

(٣) الطفطفة : الخاصرة ، أو أطراف الجنب المتصلة بالأضـلاع ، أو كل لحم مضطرب . أو الرخص من مراق البطن (القاموس) . (٤) فى القاموس : البلد والبلدة : الصدر ، ونقاوة ما بين الحاجبين . (٥) فى س ، ق : وهى الشفة . (٦) فى ق : عظم .

فيه فصوص من عظام كأمثال الكعاب تكون عند الرّسغ . والحِجَاجان : العظمان الُلطِيفان بالعين . والشَّظَى : عظم لاصقٌ بالذراع . والمتنان : جانبا الظهر ؛ وسقط عنّا تفسير الثّلاث من نفس المقامة .

[الوعد وإنجازه]

قال الجاحظ : قال أبو القاسم بن معن المسعودى لعيسى بن موسى : أَيُّها الأمير ؛ ما انتفعتُ بك مُنْذُ عرفتُك ، ولا إلى خيرٍ وصلتُ منك منذ صَحِبْتُك ، فقال : ولم ؟ ألم أُ كلِّمُ لك أميرَ المؤمنين فى كذا وكذا ؟ قال : بلى ! فهل استنجزتَ ما وُعِدْت ، وعاودت ما ابتَدَأْت ؟ فقال : حالَتْ دون ذلك أمورٌ قاطعة ، وأحوالٌ عاذرة . قال : أيُّها الأمير ، فما زِدْتَنِى على أنْ نبَّهْتَ الهمَّ من رَقْدَتِه ، وأثرْتَ الحُزْنَ من رَبْضَتِه ، إنَّ الوعدَ إذا لم يصحَبْه إنجازٌ يحقِّقُه كان كلفظٍ لا مَعْنى له ، وجسمٍ لا روحَ فيه .

وكلَّم منصور [(١)] بن زياد يحيى بن خالد فى حاجةٍ لرجلٍ ، فقال : عِدْه قَضَاءَها . قال فقلت : أصلحك الله ، ومايَدْعُوك إلى العِدَة مع وجود القدرة ؟ فقال : هذا قولُ من لا يعرفُ موضِعَ الصّنائع من القلوب ، إنَّ الحاجةَ إذا لم يتقدّمها مَوْعِدٌ يُنتظر به نُجْحُها لم تتجاذَب الأنفس سرورها ؛ إنّ الوَعْدَ تطعُّم والإنجاز طَعَام ؛ وليس من فَاجأه طعامٌ كمن وجَدَ رائِحته ، وتمطَّق به ، وتطعَّمه ثم طَعِمه ؛ فدَعِ الحاجَةَ تُخْتَمِرُ [(٢)] بالوَعْد ؛ ليكونَ بها عند المصطنع حُسْنُ مَوْقع ، ولُطْفُ مَحَلّ .

ووعد المهدى عيسى بن دَأْب جَارِيةً ، ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مُصْعب الزبيرى معرِّضاً بقول مضرّس الأسدى :

فلا تيأسَنْ مِنْ صالحٍ أَنْ تَنالَهُ ... وإن كَانَ قِدْماً بين أَيْدٍ تُبادِرُه

(١) ديوان المعانى ٢ — ٢٠٤ . (٢) فى ديوان المعانى : تحتم .

فضحك المهدى ، وقال : ادفعوا إلى عبد الله فلانة ، لجاريةٍ أخرى ؛ فقال عبدالله ابن مصعب :

أنجز خَيْرُ الناسِ قبـل وعْدِه　　أراح من مَطْلٍ وطُولِ كَدّه

فقال ابن دَأْب : ما قلت شيئاً ، هلاّ قلت :

حَلاَوَةُ الفضل بوَعْدٍ يُنْجزُ　　لاخَير فى العُرفِ كَنَهْبٍ ينْهز

فقال المهدى :

الوَعْدُ أَحْسنُ ما يكو　　نُ إذا تَقَدَّمَه ضَمَانُ

وقد قال أبو قابوس النصرانى يمدح يحيى بن خالد :

رأيتُ يَحْـيَى ، أتمَّ اللهُ نعمتَهُ　　عليه ، يَأْتِى الَّذى لم يأْتِهِ أحَدُ

يَنْسَى الَّذى كان من معروفه أبداً　　إلى الرجال ولا يَنْسَى الذى يَعِدُ

وقال أبو الطيب المتنبى (١) :

قَوْمٌ بُلوغُ الغُلامِ عندَهُمُ　　طَعْنُ نُحُورِ الكُماةِ لا الْحُلُمُ

كأنَّمَا يُولَدُ النَّدَى معَهُمْ　　لا صِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ

إذا تَوَلَّوْا عداوَةً كَشَفوا　　وإنْ تَوَلَّوْا صنيعَةً كَتَمُوا

تظُنُّ من فَقْدِكَ اعْتِدادَهُمُ　　أنَّهُمُ أنْعَموا وما عَلِموا

ودخل أبو علىّ البصير على الفضل بن يحيى فأنشده :

وُصِفَ الصدُّ لمَنْ أَهْوَى فصدْ　　وبدا يَمْزَحُ بالهَجْرِ فجَدّ

مالَهُ يعـــدل عَنّى وجْهَهْ　　وهو لا يعدِلُهُ عِنْدى أحَـدْ

لا تُرِيدوا غرّةَ الفَضْـل ومنْ　　يطلب الغِرّة فى خِيسِ الأسَدْ (٢)

ملِكٌ نَدْفَعُ ما نَخْشَى بِهِ　　وبه نُصْلِحُ منّا ما فَسَـدْ

---

(١) ديوانه : ٤ — ٦٤ .　　(٢) خيس الأسد : عرينه .

يُنْجِزُ النـاسُ إذا ما وَعَدُوا وإذا ما أُنْجِزَ الفضـلُ وَعَدْ

وقال ابن الرومى فى هذا المعنى :

له مواعدُ بالخـيْرَاتِ بادِرَةٌ لـكنها تَسْبِقُ الميعادَ بالصّفَدِ(١)
يُعْطِيكَ فى اليوم حقَّ اليوم مبتدئاً ولا يضيِّع بَعْدَ اليومِ حقَّ غدِ

[المعرفة بقدر النعمة]

خطب سليمانُ بن عبد الملك فقال : أيهـا الناسُ ، مَنْ لم يعلم أبْوابَ مَدْخَله فى الـكرامة ، وجَهِل طريقتَه التى وقَعَتْ به على النِّعمة كان بعرض رُجوعٍ إلى دارِ هَوَان ، وانقلابٍ بفادحِ خُسْرَان .

فقام إليه أبو وائلة السدوسى وهو حاجِبُه فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ كنا كما قال الله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهْرِ لم يكُنْ شيئاً مذكوراً ﴾ ، ثم صِرنا كما قال زُهير(٢) :

يَدُ الملِك الجليـلِ تناوَلَتْهُمْ بإحسانٍ فليس لهـا مُزيلُ
لأنَّ الخيرَ أَجْمَع فى يَدَيْه ورَبِّى بالجزاءِ له كَفِيـلُ

فقال سليمان : هذه والله المعرِفةُ بِقَدْرِ النّعمة ، والعلمُ بما يَجب للمنعم .

ورؤى يونس بن المختار فى دار المأمون ، ومرتَبَتُه فى أَعْلَى مراتِبِ بنى العباس، قاعدا على الأرض ، فقال الحاجبُ : ارتفِـعْ يا أَبا المعلّى إلى مَرْتَبَتِك . قال: قد رفعنى الله إليها بأميرِ المؤمنين ، وليس لى عملٌ يَفِى بها ، فلِم لا أُكْرِمها عن القعود عنها إلى أن يتهيّأَ لى الشكر عليها ؟ فبلغ الـكلامُ المأمونَ ؛ فقال : هـذا والله غايةُ الشكرِ ، وبمثله تدرّ النِّعَم .

---

(١) الصفد : العطاء . (٢) ليسا فى ديوانه المطبوع بأيدينا .

وقال رجل للمعلّى بن أيوب ـ وقد رَفَعه المعتصمُ إلى مرتَبَة أَهْلِ بيته : مازيدُك التقريبُ إلا تباعُدا . فقال : ياهذا ؛ إنى أَصُون تقريبَه إياى بتباعدِى منه ، لئلا تفسد حُرْمَتِى عنده بقلَّةِ الشكرِ على نعمتهِ .

ولما استمانَ المنصورُ بالحارث بن حسَّان قال له : يا حارث ؛ إنّى قد مكَّنْتُك من حُسْنِ رَأْيى فيك ، فاحفَظْهُ بتَرْكِ إغفال مايجبُ عليك . قال : يا أميرَ المؤمنين ، مَنْ أَغْفَل سببَ حُلولِ النعمة ، وَلَهَا عَنِ الحال التى أصارَتْهُ إليها ، استصحبَ اليأْسَ من نَيْلِ مِثْلِها ، وانقطع رجاؤُه من الزيادة فيها . فقال أبو جعفر : مَنْ كانت عنده هذه المعرفةُ دامَت النعمةُ له ، وبقى الإحسانُ إليه .

ولما قال المأمونُ لعبد الله بن طاهر عند قدومه من مصر : ما سرَّنى اللهُ منذ ولّيتُ الخلافةَ بشىء عَظُم[١] موقعُه عندى ، بعد جميل عافيةِ الله ، هو أكثر من سرورى بقدومك . فقال عبدُ الله : ائْذَنْ لى يا أميرَ المؤمنين فى تفريق أَمْوالى من طَارِفٍ وتالد . قال : ولم ؟ قال : شكراً على هذه الكلمة ؛ وإلاَّ قَصَّر بى الحياء عن النظرِ إلى أمير المؤمنين . فقال المأمون لمَنْ حضر من أهل بيته وقوّاده : ما شىء من الخلافة يَفِى لعبد الله ببعض شكره .

وقال أبو نواس[٢] :

قد قلتُ للعباس معتذراً ... عن[٣] ضعف شكريه ومُعْتَرِفا
أَنتَ امرؤٌ جَلَّلْتَنى نِعماً ... أَوْهَت قُوى شكرى فقد ضَعُفَا
فإلَيْكَ منى اليوم تَقْدِمةً ... تلقاك[٤] بالتّصريح منكشفا
لا تسدينّ إلىّ عارِفةً ... حتى أَقومَ بشكر ما سَلَفَا

عارضه الناشئ واعترض معناه ، فقال :

إنْ أَنْتَ لم تُحْدِثْ إلىَّ يداً ... حتى أقومَ بشُكْرِ ما سَلَفَا

---

(١) فى ق : عظيم . (٢) ديوانه ٧١ . (٣) فى ديوانه : من .
(٤) فى ديوانه : لاقتك .

لم أَحْظَ مِنكَ بنائلٍ أبداً ورجعت بالحِرْمان مُنْصَرِفا

وقال ابن الرومى(١) :

عاقَنا أنْ نَعودَ أَنَّكَ أَوْلَيْتَ أُموراً يَضيقُ عَنْها الجزاءُ

غَمرَتْنا مِنْكَ الأيادى اللَّواتى ما لِمِعْشارِها لَدَيْنَا كِفاءُ

فنَهَانَا عنك الحياءُ طَويلاً ثُمَّ قد رَدَّنا إِلَيْك الحياءُ

ولَما حقَّ إنْ قَرُبْتَ التنائى ولَمَا حقَّ إنْ بَرَزْتَ الجفاءُ

غَيْرَ أَنَّا أَنْضاءُ شُكْرٍ أُرِيحَتْ وقَدِيما أُرِيحَتِ الأَنْضاءُ(٢)

ألفاظ لأهل العصر فى العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبر

عندى من بِرِّه ما ملك الاعتذار بأَزِمَّتِه ، وقبض أَلسِنةَ أمراءِ الكلام وأَئمّته . عندى له مبارّ أَعجزنى شكرُها ، كما أعوزنى حَصْرُها . شُكْرُه شَأْوٌ(٣) بعيدٌ لا تبلغه أشواطى ، ولا أَتَلَافَى التفريطَ فى حقِّه بإفراطى . إحسانُه يُعيد العربَ عُجْما ، والفُصحاءَ بُكْما . قد زحمنى من مكارِمه ما يُحْصَرُ عنه المبين ، ويصحبُه العِىُّ وبئس القَرِين(٤) .

وقال أعرابى :

رهنت يَدِى بالعَجْزِ عن شُكْرِ بِرّهِ وما فَوْقَ شُكْرِى للشكورِ مَزِيدُ

ولو كان شيئاً يستطاعُ استطعتُهُ ولكِنَّ مالا يُستَطاعُ شَدِيدُ

وقال يحيى بن أكثم: كنتُ عند المأمونِ ، فأُتى برجل ترعَد فَرَائِصُه ؛ فلما مثل بين يديه قال المأمونُ : كفرت نعمتى ، ولم تشكر معروفى . فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ وأين يقعُ شكرى فى جَنْبِ ما أنعم اللهُ بك علىّ ، فنظر إلىّ المأمون وقال متمثّلا(٥) :

---

(١) ديوانه ١ — ٣٨ . (٢) النضو : المهزول من الإبل .

(٣) الشأو : الغاية والأمد . (٤) فى س : البكى وبين القرين، ولعلها البكء. وفى ق: العى وبين القرين. (٥) ذيل اللآلئ : ١٠١ .

ولو كان يَستغنى عن الشكر ماجدٌ لرفعةِ قَدْرٍ أو علوِّ مَكانِ
لما أمر اللهُ العبادَ بشكرهِ فقال : اشكروا لِى أيُّها الثقَلانِ

ثم التفت إلى الرجل فقال : هلّا قلت كما قال أصرم بنُ حميد :

ملكت حمدىَ حتى إننى رَجُلٌ كُلِّى بكل ثناء فيك مشتغلُ
خوّلت شكرى لما خَوّلت من نِعَمٍ فحُرُّ شكرى لما خولتنى خَوَلُ(١)

وقال أبو الفتح البستى :

لئن عجزتْ عن شُكْرِ بِرِّكَ قوّتى وأقْوَى الوَرَى عن شكرِ برِّكَ عاجِزُ
فإنّ ثنائى واعتقادى وطاقتى لأفلاكِ ما أوليتنيها مَراكِزُ

وقال أبو القاسم الزعفرانى :

لى لسانٌ كأنه لى مُعادِى ليس يُنْبى عن كُنْهِ مافى فؤادى
حكم الله لى عليه فلو أنـ ـصف قلبى عرفت قَدْرِ ودادِى

وقال إسماعيل بن القاسم ، أبو العتاهية ، يمدحُ عُمر بن العلاء(٢) :

إنى أَمِنْتُ من الزمان ورَيْبِهِ لما عَلِقْتُ من الأمير حِبَالا
لو يستطيعُ الناسُ من إجلالهِ لحذَوْا له حُرَّ الوجوهِ نِعَالا
ما كان هذا الجودُ حتى كنت يا عمر ولو يوماً تزُولُ لَزَالا
إنَّ المطايَا تشتكيكَ لأنَّها قطعَتْ إليك سَباسِباً ورِمالا
فإذا ورَدْنَ بنا ورَدْنَ مُخِفَّةً وإذا صدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقالا

وهى قصيدة سهلةُ الطبع ، سلسلة النظام ، قريبة المتناول .

أبو العتاهية يمدح عمر بن العلاء

وروى أنَّ عمر بن العلاء وصلَه عليها بسبعين ألف درهم فحسدته الشعراء ، وقالوا: لنا بباب الأميرِ أعوامٌ نَخْدِمُ الآمالَ ، ما وصلنا إلى بعض هذا ! فاتصل ذلك به فأمر بإحضارهم ، فقال : بلغنى الذى قلْتم ؟ وإنَّ أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبِّب فيها

---

(١) الخول : العبيد والإماء . (٢) اللآلئ ٥٥١ ، القالى ١ — ٢٤٣ .

فلا يَصِلُ إلى المدح حتى تذهب لذّةُ حلاوته ، ورائقُ طلاوته ؛ وإنّ أبا العتاهية أتى فشبَّب بأبياتٍ يسيرة ، ثم قال : إنَّ المطايا تشتكيك لأنَّها . . . وأنشد الأبيات .
وكان أبو العتاهية لمّا مدحه بهذا الشعر تأخَّر عنه بِرُّه قليلا فكتب إليه يستبطئه :

أَصابت علينا جودَك العينُ يا عُمر ... فنحن لها نَبْغِى التمائمَ والنُّشَرْ(١)
أصابتك عَيْنٌ فى سخائك صُلبةٌ ... ويارُبّ عين صُلْبَةٍ تَفْلِقُ الحَجَرْ
سنَرْقيكَ بالأَشعارِ حتى تملَّها ... فإن لم تفقْ منها رَقَيْنَاكَ بالسُّوَرْ

وقال(٢) :

يا بْنَ العَلاءِ ويا بْنَ القَرْمِ(٣) مرداسِ ... إنى مَدَحْتُكَ فى صَحْبِى وجُلّاسى
أُثْنِى عليك ولِى حالٌ تُكَذِّبُنى ... فيما أَقول فأَسْتَحْيِى مِنَ النّاسِ
حتى إذا قيل : ماأَوْلاكَ من صَفَدٍ ... طَأْطَأْتُ من سُوءِ حالِى عندها رَاسِى

فأمر حاجبه أن يدفع إليه المال . وقال : لا تُدْخِلْه علىّ ، فإنى أَسْتَحْيِى منه .

وذكر بعضُ الرواةِ أنَّ المهدى خرج متصيّدًا ، فسمِعَ رجلا يتغنَّى من القصيدة التى مرَّت منها الأبيات فى عمر بن العلاء آنفا :

يامَنْ تفرَّدَ بالجمال فما تَرَى ... عينى على أَحــدٍ سِوَاهُ جَمَالا
أكثرت فى قولى عليك من الرُّقَى ... وضرَبْتُ فى شِعْرِى لك الأَمْثالا
فأَبَيْت إلاَّ جَفْوةً وقَطِيعةً ... وأَبيت إلاَّ نَخْوَةً ودَلَالَا
باللهِ قولِى إنْ سأَلتك واصْدُقى ... أوجدت قَتْلِى فى الكتاب حَلَالَا
أَمْ لاَ ، ففِيمَ جَفَوتِنى وظَلَمْتِنى ... وجعلتنى للعالمين نَكَالَا
كم لائم لو كنت أَسْمَعُ قَولَه ... قد لامنى ونَهَى وعَدَّ وَقَالَا

---

(١) النشر ، جمع نشرة : رقية يعالج بها المجنون والمريض . (٢) القالى ١ — ٢٤٣ .
(٣) القرم : السيد .

فقال المهدىّ : علىَّ به . فجاءه فقال : لِمَنْ هذا الشعر؟ قال: لإسماعيل بن القاسم- أبى العتاهية ، قال : لمن يقوله ؟ قال : لعُتْبة جارية المهدى ، قال : كذبت ، لو كانَتْ جاريتى لوهَبْتُها له ، وكانت عُتبة لرَيطة بنت أبى العباس السفاح ، وكان أبو العتاهية قد بلغ من أمرها كل مبلغ ، وكلّ ذلك فيما زعم الرواةُ تصنُّع ، وتخلّق ؛ ليُذْكَر بذلك .

[نسيب أبى العتاهية فى جارية المهدى]

قال يزيد [بن][1] حوراء المغنى: كلّمنى أبوالعتاهية أَنْ أُكَلِّمَ له المهدى فى عتبة؛ فقلت: إِنَّ الكلام لا يمكننى ، ولـكن قل شعراً أُغنيه إياه ، فقال :

نفسى بشىء من الدنيا مُعَلَّقَةٌ ‏ ‏ ‏ اللهُ والقائمُ المهدىُّ يَكْفِيهَا
إِنِّى لأَيْأَسُ منها ثم يُطْمِعُنى ‏ ‏ ‏ فيها احتقارُكَ للدنيا وما فِيهَا

فعملت فيه لَحْناً وغنَّيْتُه المهدى ؛ فقال : لِمَنْ هذا ؟ فأخبرته خَبرَ أَبى العتاهية، فقال : ننظرُ فى أَمره ، فأخبرت بذلك أَبا العتاهية ؛ فمكث أَشهراً ، ثم أتانى فقال : هل حدَثَ خبر ؟ فقلت : لا ، فقال: غَنِّه بهذا الشعر :

ليت شَعْرِى ما عندكم ليت شعرى ‏ ‏ ‏ إنّما أُخِّرَ الجوابُ لِأَمْرِ
ما جوابٌ أَوْلَى بكلِّ جميلٍ ‏ ‏ ‏ من جوابٍ يُرَدّ من بَعْدِ شَهْرِ

قال يزيد : فغنَّيْتُ به المهدى ، فقال : علىَّ بعُتبة ، فأحضرت ، فقال : إنَّ أبا العتاهية كلَّمنِى فيك ، وعندى لكِ وله ما تحبَّانِ ؛ فقالت له : قد علم مولاى أَمير المؤمنين ماأَوْجَبه من حقِّ مولاتى، فأُريد أنْأَ ذْكُرَ لها ذلك ؛ قال : فافعلى ؛ فأَعْلَمْتُ أَبا العتاهية بما جرى ومضت الأيامُ ؛ فسألنى معاودةَ المهدى ، فقلتُ له : قد عرفْتَ الطريقَ فقل ما شئت حتى أُغنيه ، فقال :

أشربت قَلْبِى مِنْ رَجائك مالَهُ ‏ ‏ ‏ عَنَقٌ إليكَ يَخُبُّ بى ورَسِيمُ[2]

---

(١) من س .   (٢) العنق والرسيم : من أنواع السير .

وأمَلْتُ نحو سماءِ صوْبِك نَاظِرِى أرْعَى مَخَايِل برْقِها وأَشِيمُ(١)

ولقد تنسَّمْتُ الرياحَ لحاجتى وإذا لها من راحَتَيْك نَسِيمُ

ولربما استيأست ثم أَقولُ : لا إنَّ الذى ضَمِنَ النجاحَ كريمُ

فغنيته بالشعر فقال : علىَّ بعُتبة ، فأَتت ؛ فقال : ما صنعت ؟ قالت : ذكرت ذلك لمولاتى فأَبَتْه وكرِهَتْه ، فليفعَلْ أميرُ المؤمنين ما يريد . فقال : ما كنتُ لأَفعل شيئاً تكرهه ، فأعلمت أبا العتاهية بذلك ، فقال(٢) :

قطَّعتُ منك حبائِلَ الآمالِ وأَرَحْت من حلٍّ ومن ترحَالِ(٣)

ما كان أشأمَ إِذْ رجاؤك قَادَنِى(٤) وبناتُ وعدك يَعْتَلِجْنَ بِبالِى

ولئن طَمِعْتُ لرُبَّ برقٍ(٥) خُلَّبِ مالَتْ بذِى طَمَعٍ ولُمْعَةِ آلِ(٦)

وقد نُقِلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه ، والله أعلم بالحقّ فى ذلك .

وضرب المهدى أبا العتاهية مائة سوط لقوله :

ألا إِنَّ ظَبْيًا للخليفة صادَنِى ومالى على ظَبْىِ الخليفة من عَدْوِ

وقال : أَبى يتمرَّسُ ، وبحرمى يَتَعَرَّضُ ، وبِنِسَائى يَعْبث ؟ ونَفَاهُ إلى الكوفة.

وفى ضربه يقول أبو دُهان :

لولا الَّذِى أحْدَثَ الخليفةُ للعشا ق من ضَرْبِهِمْ إذا عشقوا

لبُحْتُ باسمِ الذى أُحِبّ ولكنّى امرؤٌ قد ثنانِىَ الفرَقُ(٧)

وكان أبو العتاهية بالكوفة لما نفى يَذْكُرُ عُتبة ، ويكنّى باسمها، فمن ذلك قوله :

قل لمن لَسْتُ أسمّى بأَبى أنْت وأُمّى

بأبى أنْت لقد أصـ بَحْت من أكبرِ همِّى

---

(١) أشيم : أنظر . (٢) ديوانه ١٩٤ .

(٣) رواية هذا الشطر فى الديوان: وحططت عن ظهر المطى رحالى. (٤) فى الديوان : قاتلى.

(٥) فى الديوان : برقة . (٦) البرق الخلب : مالا مطر فيه . والآل : السراب .

(٧) الفرق : الخوف .

ولقد قلت لأَهْلى إِذْ أذاب الحبُّ لَحْمِى
وأرادوا لى طبيباً فاكتَفُوا مـنّى بعلمى
من يكن يَجْهَـلُ ماأَلْقَى فإن الحبَّ سُقْمِى
إنّ رُوحِى لببغـدا دَ وفى الـكوفةِ جِسْمِى

وقوله :

أَمسى ببغدادَ ظَـبْىٌ لستُ أَذْكُرهُ إلّا بكَيْت إذا ما ذِكْرُه خَطَرا
إِنَّ المحبَّ إذا شطَّتْ مَنازِلُهُ عن الحبيب بكى أَوْ حَنَّ أو ذَكَرا
يَاربّ لَيْـلٍ طويل بِتُّ أَرْقُبهُ حتى أضاءَ عمودُ الصُّبْح فانْفَجَرا
ما كنتُ أحسِبِ إلّا مُذْ عرفتكُمُ أنَّ المضاجعَ مما تُنْبِتُ الإِبَرا
والليلُ أَطْوَلُ من يوم الحسابِ على عَيْنِ الشَّجِيِّ إذا ما نَوْمُه نَفَرا

ولـما قدمت عُتبة ببَغْداد قدِم معها أبو العتاهية وتلطَّف حتى اتّصـل بالرشيد فى خلافة أبيـه المهدى ؛ وتمـكّن منه ، وبلغ المهدىَّ خبرَه فأحضره ؛ فقال : يا بائس ؛ أنت مستقتل ، وسأله عن حاله ؛ فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

أنْتَ المقابلُ والمُدا بِر فى المناسب والعَدِيد
بين العمومةِ والخُئو لة والأُبوّة والجـدود
فإذا انتمَيْت إلى أبيـ ـك فأنت فى المَجْدِ المَشيد
وإذا انتمى خالٌ فما خالٌ بأَكْرَمَ مِنْ يزَيد

يريد يزيد بن منصور ؛ وكانت أُم المهدى أم موسى بنت منصور الحميرى وأنشده:

عَلِمَ العالَم أَنَّ المنـايا سامعاتٌ لك فيمَنْ عَصاكا
فإذا وجَّهتها نحوَ طاغٍ رجعَت تَرْعُفُ منه قَنَاكا
ولو انَّ الريحَ بارَتْكَ يوماً فى سماحٍ قصَّرت عَنْ نَداكا

وأنشده :

أتَتْهُ الخِلافةُ مُنْقَادَةً إليـه تُجرِّرُ أذيالَها

فلم تكُ تَصْلُحُ إلاَّ لهُ ولم يَكُ يَصْلُحُ إلاَّ لهَا
ولو رامَها أَحدٌ غيرهُ لزُلزِلَت الأرضُ زِلزَالَها
ولو لم تُطِعْه بناتُ القلوبِ لمَا قَبِل اللهُ أعمالَها

فقال له المهدى : إن شئت أدَّبناك بضَرْبٍ وجيع ؛ لإقدامك على ما نُهيت عنه ، وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزةً على مَدْحِك لنا . وإن شئتَ عَفَوْنا عنك فقط .

فقال: بل يُضيف أميرُ المؤمنين إلى كريم عفوه جميلَ معروفه ؛ ومكرُمتان أكثرُ من واحدة ، وأميرُ المؤمنين أولى من شفَع نعمَته وأتمّ كرمه . فأمر له بثلاثين ألف درهم وعَفَا عنه .

ولما قدم الرشيدُ الرَّقَّة[١] أظهر أبو العتاهية الزُّهد والتصوف وترك الغَزل ، فأمره الرشيد أن يتغزّل فأَبى فحبسه فغنّى بقوله :

خَليلَيَّ مَالى لا تزالُ مَضَرَّتى تكونُ على الأقدار حَتْماً من الحَتْم
كفاكَ بحقّ اللهِ ما قد ظلمتَنى فهذا مقامُ المستجيرِ من الظلم
ألا فى سبيل الله جسمى وقُوّتى ألا مُسعِدٌ[٢] حتى أنوحَ على جِسْمِى

فأمر بإحضاره وقال : بالأمس يَنهاك أميرُ المؤمنين المهدى عن الغزَل ، فتأبَى إلا لَجاجا ومَحْكا[٣] ؛ واليوم آمرك بالقول فتأبَى جُرْأة علىّ وإقداما ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئات ، كنتُ أقول الغزلَ ولى شبابٌ وجِدَة ، وبى حَراكٌ[٤] وقُوّة ، وأنا اليوم شيخٌ ضعيف لا يحسن بمثلى تَصابٍ ؛ فردّه إلى حبسه فكتب إليه :

أنا اليوم لى ، والحمدُ لله ، أشهرٌ يرُوح علىَّ الغَمُّ منك ويَبكُرُ
تذكَّرْ ، أمينَ اللهِ، حقّى وحُرْمَتى وما كنتَ تُوليني ، لعلّك تَذْكُرُ

(١) الرقة : بلد على الفرات ، وآخر غربى بغداد . (٢) معين .
(٣) محك كمنع : لج . (٤) الحراك : الحركة .

لياليَ تُدنى منك بالقُرب مجلسى ووجهُك من ماء البشاشة يقطُرُ
فمَنْ لىَ بالعين التى كنتَ مرةً إلىَّ بهـا من سالفِ الدَّهْر تَنْظُرُ

فبعث إليه : لا بأس عليك ؛ فقال :

كأنَّ الخلقَ رَكْبٌ فيـه روحٌ له جَسَدٌ وأنْت عليـه راسُ
أَمين الله إنَّ الحبس بأسٌ وقد وقَّعتَ : ليس عليك باسُ

فأخرجه .

أخذ البيتَ الأول من هذين علىّ بن جبلة وزاد فيه ، فقال لأبى غانم الطوسى :

دجلَة تَسْقى وأبو غانمٍ يُطْعِمُ مَنْ تَسْقى من النَّاسِ
والخلْقُ جِسمٌ ، وإمامُ الهدى رَأْسٌ ، وأنتَ العينُ فى الرَّاسِ

* * *

شىء من النقد

وكان عمر بن العلاء ممدَّحا ، وفيه يقول بشار بن برد[١] :

إذا أَيقَظَتْكَ حُروبُ العِدَى فَنبِّه لها عُمراً ثمَّ نَمْ
دعانى إلى عُمـرٍ جودُهُ وقولُ العشيرة بَحْرٌ خِضَمْ
ولولا الذى ذكروا لم أَكُنْ لأَمْدَح ريحانةً قبـل شَمْ
فـتًى لا يَبيت على دِمْنَـةٍ ولا يشرب المـاءَ إلّا بدَمْ

أخذ هذا البيت أبو سعيد المخزومى ، فقال[٢] :

وما يُريدون لولا الجبن[٣] من رَجُل بالليل مشتَمِل بالجَمْرِ مُكْتَحِلِ
لا يشربُ الماءَ إلا من قَليبِ دمٍ ولا يبيت له جارٌ على وَجَـلِ[٤]

وقال أبو الطيب[٥] :

تعوَّدَ ألاَّ تَقْضَمَ الحبَّ خَيْلُهُ إذا الهامُ لم تَرْفعْ جُنوبَ العَلائِقِ[٦]

---

(١) المختار من شعر بشار ٨٠ ، السمط : ٥٥١ . (٢) اللآلئ : ٥٧٦ ، والأمالى ١ ــ ٢٥٩ مع اختلاف فى الرواية . (٣) فى المختار : الحين ، وفى الأمالى : لولا الحين من أسد . (٤) القليب : البئر . (٥) المختار من شعر بشار ٨١ ، ديوانه : ٢ــ٣٣٠ . (٦) العلائق جمع عليقة : وهى المخلاة ، وجنوبها : نواحيها .

ولا تَرِد الغدران(١) إلاَّ وماؤُها　　من الدَّم كالرَّيحانِ تحتَ الشَّقائقِ

وقال أبو القاسم بن هانئ(٢) :

مَنْ لم يرِ الميْدان لم يرَ معركاً　　أشِباً ويوماً بالأسنة أكْهَبَا(٣)

وكتائبا تَرْدِى غَوارِبُها العِدَى　　وفوارسا تَعْدو صَوالجها الظّبا

لايورِدون الماء سُنْبُكَ سابحٍ(٤)　　أو يكتَسى بدَمِ الفوارس طُحْلُبا

* * *

قال : وبلغ عمر بن العلاء أن أبا العتاهية عاتبٌ عليه فى هناتٍ نالها منه فى مجلس، وكان كثيرَ الانقطاع إليه فتخلّف عنه ، فساء ذلك عمر ، فكتب إليه : قد بلغنى الذى كان من تجنُّبك فيما استخفّك به سوءُ الأدب عن عِلْم حقيقةٍ منى ، فصرت متردّدا من العمى فى يَلامِيع(٥) الشبهة ؛ ولو كان معك من علمك داعٍ إلى لقائى لكشفت لك مَوْرِدَ الأمر ومصدره، لترجع إلى الصِّلة ، فتقال أو تأبى إلا الصَّريمة فتَصْرِم(٦) ؛ وقد قال الأول :

رجع إلى عمر بن العلاء وأبى العتاهية

ومُستعتب أَبْدَى على الظنِّ عَتْبَهُ　　وأخرج منه المحفِظَاتِ غَليلُ

كشفتُ له عذْرًا فأبْصَر وجههُ　　فعاد إلى الإنصاف وهو ذَليلُ

فأجابه أبو العتاهية : لم أجُزْ بعَتْبى الحقيقةَ إلى الشبهة ، ولم أجد سعةً مع عظيم قدرتك إلى حمل اللائمة ، فقصَّر بى الخوفُ من سُخْطِك ، على تَرْكِ معاتبتك ؛ لأنّ المعاتبة لا تجتنى إلّا من المساوِى ، ولو رغبت عن الصلة إلى القطيعة لتقاضيتك ذلك عن طول الصُّحبة وسالف المدّة ، وأنا أقول :

رضيتُ ببعض الذّلّ خَوْفَ جميعهِ　　وليس لمثلى بالملوك يَدانِ

---

(١) فى كل الأصول : الغربان إلا وماؤه .　(٢) المختار من شعر بشار ٨٠ ، ديوانه ١٧

(٣) الكهبة : الدهمة ، أو غبرة مشربة بسواد ، والمراد الظلمة .

(٤) فى المختار : سنبك حافر ، والسنبك: طرف الحافر .　(٥) اليلاميع من السلاح: ما برق .　(٦) تصرم : تقطع .

وكنت امْرَأً أخْشَى العقابَ وأتَّقى مَغَبَّـةَ ما تَجْنى يَدِى ولِسانِى
فهل من شفيع منك يَضْمَنُ تَوْبَتى فإنى امرؤٌ أوفى بكلِّ ضَمانِ

فتراجعا إلى أحسن ما كانا عليه .

وإنمــا ألم أبو العتاهية فى قوله : إنّ المطايا تشتكيك [١] ... وما يليه ، بقول أبى الحجناء نُصَيب الأكبر :

فعاجوا فأثنَوا بالذى أَنْتَ أَهْلُهُ ولو سَكَتُوا أَثْنَتْ عليك الحَقَائبُ

وقال أبو الطيب فى أبى العشائر الحمدانى [٢] :

تُنْشِدُ أثْوَابُنَا مَدَائِحَهُ بِأَلْسُنٍ مَالَهُنَّ أفْوَاهُ
إذا مرَرْنا على الأَصَمِّ بِهَا أَغْنَتْهُ عَنْ مِسْمَعَيْهِ عَيْنَاهُ

وهذا المعنى من النُّصْبَةِ [٣] الدالة بذاتها التى ذكرتها عن الجاحظ فى أقسام البيان.

* * *

الشواهد والدلالات والآيات

وقال بَعْضُ الخطباء : أشهد أن فى السموات والأرض آياتٍ ودلالات ، وشواهدَ قائمات ؛ كلٌّ يؤدى عنك الحجَّة ، ويشهد لك بالربوبية .

أبو العتاهية وأبو نواس

ونظير هذا قول أبى العتاهية ، وروى أنه جلس فى دكان ورّاق ، وأخذ كتابا فكتب على ظهره :

فواعجباً كيف يُعْصَى المَلِيـ ـكُ أَمْ كيف يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
ولله فى كلِّ تحريكةٍ وتَسْكِينةٍ فى الوَرَى شَاهِدُ
وفى كلِّ شىءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أَنَّه وَاحِدُ

وانصرف ، فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبياتَ ، فقال : لِمَنْ هذا ؟ فلوددتُها لى بجميع شِعْرِى ، فقيل : لإسماعيل بن القاسم ، فوقع تحتها :

سبحان مَنْ خَلق الخَلْـ قَ من ضعيفٍ مَهِينِ

(١) فى صفحة ٣٢٤ (٢) ديوانه : ٤ ـ ٢٦٤ . (٣) فى ق ، ط : القضية .

فصَاغه من قَرَارٍ إلى قرار مكينِ
يحـول شيئا فشيئا فى الحُجْب دونَ العيون
حتى بدَتْ حركاتٌ مخلوقةٌ مِنْ سُكُون

وقال الفضل بن عيسى الرَّقاشي : سَلِ الأرض مَنْ غَرس أشْجَاركِ ، وشقَّ أنهاركِ ، وجَنى ثمارِكِ ، فإنْ لم تُجبْك حِوَارا ، أجابَتْك اعتبارا .

وهذا شبيهٌ بقول عدىّ بن زيد ، وقد نزل النعمان بن المنذر تحت سَرْحَة (١) ؛ فقال: أتدرِى ماتقول هذه السَّرْحَة أيها الملك ؟ قال : وما تقول ؟ قال تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخُوا حَوْلَنَا يشربون الخَمْرَ بالماءِ الزُّلال
ثم أضْحوا لَعِبَ الدَّهْرُ بهم وكذاكَ الدَّهْرُ حالاً بَعْدَ حَال

ويروى « عكَفَ الدَّهْرُ بهم فثوَوْا » . فتكدَّرَ حالُ النُّعْمان وما كان فيه من لذَّةٍ .

ألفاظ لأهل العصر فى الشكر بدلالة الحال

لو سكت الشَّاكرُ لنطَقَت المـآثِرُ . لو صَمتَ المُخَاطِبُ لأثْنَت الحقائبُ ، واشهدَتْ شواهِدُ حاله على صِدْقِ مَقَالِه . إن جَحَدْتُ ما أوْلانيه ، وكَفَرْتُ ما أعْطانيه نطقتْ آثارُ أياديه علىَّ ، ولمعت أعلامُ عَوَارِفه(٢) لدىَّ .

ولأبى الفضل الميكالى من رسالة : وردَ فلانٌ فتعاطى من شُكْرِه على نعمِهِ التى ألبسه جمالَها وأسحَبه أذيالَها ، مالولم يتحدّثْ به ناشرا ومُثْنيا ، ومعيداً ومُبْدِياً ، لأثْنَت به حَالُهُ ، وشهِدَتْ بهِ رِحَالُه ، حتى لقد امتلأت بذكرِه المحافلُ ، وسارت بخبره الرُّكْبَان والقوافلُ ، وصارت الألسِنةُ على الشكر والثناء لساناً ، والجماعة على النَّشْرِ والدعاءِ

(١) السرح : شجر عظام ، أو كل شجر لا شوك فيه .

(٢) العوارف : النعم .

أنصاراً وأعوانا ، على أنه وإن بالغَ فى هذا الباب ، وجاوزَ حدّ الإكثار والإسهاب ، نهايتُه القصورُ دون واجبه ، والسقوطُ عن أدنى درجاته ومَرَاتبه .

ومما يقترن لهم بهـذا المعنى من ذِكْرِ الشكر : قال أبو الفتح البستى (١) : الحرُّ نَحْلُ الشكر ، إن أجْناه المرءُ من خيره شكرا أجناه من بِرّه (٢) شهْدًا .

غيره : الشكر ترجمانُ النيّـةِ ، ولسانُ الطَّوِيَّة ، وشاهدُ الإخلاصِ ، وعنـوان الاختصاص . الشكرُ نسيمُ النِّعَمِ ، وهو السببُ إلى الزيادة ، والطريقُ إلى السعادة . الشكرُ قَيْدُ النِّعْمَـة ، ومفتاحُ المزيد ، وثَمنُ الجنةِ . مَنْ شكرَ قليلا استحقّ جزيلا . شُـكْرُ المَوْلَى ، هو الأَوْلَى . الشكر قَيْد النِّعم وشِكالُها ، وعِقالُها ، وهو شبيه بالوحش التى لا تقيم مع الإيحاش ، ولا تَرِيم مع الإيناس . مَوْقِعُ الشكرِ من النعمة مَوْقِعُ القِرَى من الضيفِ ، إنْ وجده لم يَرِم ، وإن فقده لم يُقِم . الشكر غرسٌ إذا أُودِعَ سَمْع الكريم أثمر الزيادةَ ، وحفظَ العادة . الشكرُ تعرّض للمزيد السائغ ، والنِّعم السَّوابغ . شُكْرُه (٣) شكرُ الأسير لمن أطْلَقه ، والمملوكِ لمن أعْتَقَه . أثْنَى عليه ثناءَ الرَّوْضِ المُمْحِلِ ، على الغَيْثِ المُسْبِل (٤) . أثنى عليه ثناء لسان الزّهر على راحة المطر . أثنى عليه ثناءَ العطشانِ الوارد على الزُّلالِ الباردِ . شكْرُه شكر الأَرض للدِّيم ، وزُهَيْر لهَرِم . بَسط لسانَ الثناء والدعاء ، وبلغ عنان الشكرِ عَنَانَ (٥) السماء . شكره شكراً ترتاحُ له المكارم ، وتَهتزّ له المواسِم . لأشكُرَنّه شُكراً تَشيع أنواعُه ، وتنبَسِطُ أبْواعه (٦) ، ويلذّ ذكره وسماعُه . شكرٌ ملأَ القلبَ واللسانَ ، كشكر حَسَّان لآل غَسَّان . أطال عِنانَ الشكرِ ، وفسح مجالَه ، ورفع أَعْمِدتَه ، ومدَّ أرْوِقَته . شكرٌ كأنفاسِ الأحبابِ ، أو أنفاس الأسحارِ ، أو أنفاس الرِّياض غِبَّ القِطَار .

---

(١) فى اليتيمة : ٤–٢٨٨ : الحر نحل السكر ... شكدا ... ، والشكد : العطاء

(٢) فى اليتيمة : من سكره . (٣) فى بعض الأصول : شكر . (٤) أسبلت السماء : أمطرت . (٥) العنان : السحاب . (٦) الباع : قدر من اليدين كالبوع — بفتح الباء وضمها ، وجمعه أبواع .

[من المدح]

رجع ما انقطع :

الفرزدق عندسليمان ابن عبد الملك

كان سببُ قولِ نصيب[1] : * فعاجوا فأثْنوا بالّذى أنْت أهْلُه * أنه كان مع الفرزدق عنـد سليمان بن عبد الملك فقال سليمان بن عبد الملك : يا فرزدق؛ مَنْ أَشعر الناس ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال : لماذا ؟ قال بقولى[2] :

وركْبٍ كأنَّ الريحَ تطلُبُ عندهم ... لها تِرَةً من جـذْبِها بالعصائبِ
سرَوْا وسرَتْ نكْباء[3] وهى تلفّهم ... إلى[4] شُعَب الأكوارِ ذاتِ الحقائبِ
إذا آنسوا ناراً يقولون ليْتَها ، ... وقد خَصِرَتْ[5] أيديهم، نارُ غالبِ

يريد أباه ، وهو غالب بن صعصعة بن ناجيـة بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع. فأعرض عنه سليمان كالمغضَب ، لأنه إنما أراد أن يُنْشِدَ مدحاً فيه؛ ففهم نصيب مرادَه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد قلتُ أبياتاً على هذا الروىّ ليست بدونها ، فقال : هَاتِها ؛ فأنشأ نصيب يقول[6] :

أقولُ لركْبٍ قافلين لَقِيتهم ... قفَا ذات أَوْشَالٍ ومَوْلاك قَارِبُ
فقد[7] أخبرونى عن سليمان أننى ... لمعروفهِ من آل وَدَّانَ طالبُ
فعاجوا فأثْنَوْا بالّذى أنتَ أهلهُ ... ولو سكتوا أثنَتْ عليكَ الحقائِبُ
فقالوا تركْناهُ وفى كلِّ ليْلةٍ ... يطيفُ به من طالبى العُرْفِ راكِبُ
ولو كان فوْقَ الناسِ حىٌّ فِعالهُ ... كفعْلِك أو للفعلِ[8] منكَ يقارِبُ
لقُلْنَا له شِبْهٌ ولـكِنْ تعذَّرَتْ ... سِواك عن المستشفِعين المطالبُ

---

(١) سبق فى صفحة ٣٣٢ . (٢) ديوانه ٨ ، المختار من شعر بشار ١٠٢ ، القالى : ٣ — ٤٠ . (٣) فى الديوان : سروا يخبطون الليل وهى تسفهم .
(٤) فى الديوان : على شعب الأكوار من كل جانب . (٥) فى الديوان : إذا مارأوا ... وفى س ، ق : وقد خسرت . (٦) المختار من شعر بشار : ١٠٢ ، الأمالى : ٣ — ٤٠ ، السمط : ٢٩١ . (٧) فى المختار : قفوا . (٨) فى س : للفضل .

هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حَوْلَهُ   وهل تُشْبِه البدرَ المنيرَ الكواكبُ

فقال سليمانُ : أحسنتَ ، والتفتَ إلى الفرزدق فقال : كيف تسمعُ يا أبا فِراس؟ قال : هو أَشعَرُ أهل جِلْدَته ، قال : وأهل جِلْدَتك ؛ فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخَـيْرُ الشعر أكْرَمُه رجالًا   وشَرُّ الشعرِ ما قَالَ العبيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وهذا بابٌ في المدح حسن متجاوز مُبْتَدع لم يُسْبَق إليه.

سواد الجلد

قول نصيب : « من أهْلِ ودّان » . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : ذكر محمد ابن كناسة والزبيدي[1] أنّ نصيبا من أهل ودّان ، وكان عبْداً لرجل من بني كنانة هو وأهل بيته ، وزعم أبو هفّان أنه عبدٌ لعبد العزيز بن مروان ، وكان نصيبٌ شديدَ السواد ، وهو القائل :

كُسيتُ ـ ولم أملك ـ سَواداً وتحتَهُ   قميصٌ من القُوهيّ[2] بيضٌ بَنائقُهْ

فما ضرَّ أثوابي سَوادِي وإنّني   لـكالمِسْكِ لا يَسْلُو عن المسك ذائِقُهْ

وقال سحيم عبد بني الحسحاس[3] :

أشعارُ عَبْدِ بني الحسْحاس قُمْنَ لهُ   عند[4] الفَخار مَقامَ الأصْلِ والوَرِقِ

إن كنتُ عبْداً فنفسي حُرَّةٌ كَرَماً   أو أسْوَدَ اللَّوْنِ إني أبْيَضُ الخُلُقِ

وقال أبو الطيب المتنبي لـكافور الإخشيدي[5] :

إنَّما الجِلْدُ مَلبَسٌ وابيِضاضُ الخلـ   ـق[6] خَـيْرٌ من ابْيِضاضِ القَبَاءِ

وقال نصيب لبعض ملوك بني أميـة : إن لي بنات نَفَضْتُ عليهن من سوادي . فقال : ما أحسن ما تلطّفت لهنّ ! وأمر له بصلة .

وكان أبو تمام حبيب بن أوس لما مدح أبا جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته التي أولها[7] :

---

(١) في س : والزبيري . (٢) قوهستان : كورة بين نيسابور وهراة ، ومنه ثوب قوهي لما ينسج بها . أو كل ثوب يشبهه ، وهي ثياب بيض . (٣) ديوانه : ٥٥

(٤) في الديوان : يوم . (٥) ديوانه : ١ـ٣٥ . (٦) في الديوان : النفس

(٧) ديوانه ٢٥٢

لهانَ علينا أَنْ نقولَ وتَفعلا ونذكرَ بعضَ الفضل منك وتفضلا

وهى من أحسن شعره ، وقَّع له على ظهرها :

رأيتك سَمْحَ البيع سَهْلًا وإنما يُغَالِى إذا ماضنَّ بالشىء بائعُهْ [(١)]
فأما إذا هانت بضائعُ بَيْعِهِ فيوشك أَنْ تبقى عليه بَضائعُهْ
هو الماء إنْ أَجْمَمته طاب وِرْدُهُ ويفسد منه أَنْ تُبَاحَ مشارِعُه

فأجابه بقصيدة طويلة ، واحتجّ عليه واعتذر إليه فى مدحه لغيره ؛ فقال فى بعض ذلك [(٢)] :

أَمّا القوافى فقد حصَّنْتُ غرّتَها فما يصابُ دَمٌ منها ولا سَلَبُ
مَنَعْت إلاَّ مِنَ الأكفاء أَيّمها [(٣)] وكانَ منكَ عليها العَطْفُ والحدَبُ
ولو عضلْتَ عن الأكفاء أَيِّمَها ولم يكنْ لكَ فى إظهارها أَرَبُ
كانت بنات نصيبٍ حين ضَنَّ بها على المَوالى ولم تحفِلْ بها العَرَبُ

وقدقيل إن أباتمام أجابه بقوله :

أباجعفر إن كنت أَصبحْتَ شاعرا أُسَامح فى بَيْعِى له من أبايعُهْ
فقد كنتَ قبلى شاعراً تاجراً بهِ تساهَلُ من عادَت عليك مَنَافعه
فصِرْتَ وزيراً والوزارة مَكْرَعٌ يَغَصُّ به بعد اللّذاذة كارِعُه
وكم من وزير قد رأينا مسلَّطا فعاد وقد سُدَّت عليه مَطَالِعُه
ولله قَوْسٌ لا تطيشُ سِهَامُها ولله سيفٌ لا تفلُّ مَقَاطِعُه

قال أبوبكر محمد بن يحيى الصولى : ويقال إنهذه الأبيات منحولة لحبيب، وليس مثل أبى جعفر فى جلالةِ قَدْره واصطناعه لحبيب يُعامَل بمثل هذا الجواب ، ولا يَنْتَهى جَهْلُ حبيب أن يقابل مأموله ومن يرْتَجى جليلَ الفائدة منه بهذه الأبيات .

---

(١) فى س : مانعه وفى أخبار أبى تمام ١٢٠ : بالبيع . (٢) ديوانه : ٤٩ .
(٣) الأيم : الحرة والقرابة ، والتى لازوج لها. وفىالديوان : ناكحها.

وقد قيل : بل قالها ، ولم ينشدها أحداً ؛ وإنما ظهرت بعد موته .

وكان ابنُ الزيات كما قال شاعراً ، ومدح الحسنَ بن سهل فى وزارته للمأمون ؛ وأعطاه عشرة آلاف درهم فقال :

لم أَمْتَدِحك رجاءَ المالِ أَطْلُبه ... لكن لِتُلْبِسَنى التَّحْجِيلَ والغُرَرا
ما كان ذلك إلا أنَّنى رَجُلٌ ... لأقرب الوِرْدَ حتى أَعْرِفَ الصَّدَرا

غضب ابن الزيات على أبى تمام

قال الصولى : وكان السببُ الذى أَوْجد أبا جعفر على أبى تمام حتى قال : لقد رأيتك سَهْلَ البيع ... الأبيات ، قولَ أبى تمام قصيدته المشهورة فى ابن أبى دُوَاد التى أولها[1] :

سَقَى عهد الحمى سيلُ العِهادِ ... ورُوِّى[2] حاضر منه وبَادِ
نَزَحت به رَكِىَّ الدمعِ لما[3] ... رأيت الدمعَ مِنْ خَيْرِ العَتَاد

يقول فيها فى مدحه :

هُمُ عظم الأثافِى من نزارٍ ... وأهلُ الهضبِ منها والنِّجَادِ
معرَّسُ كلِّ مُعْضلةٍ وخَطْبٍ ... ومنبتُ كلِّ مكرمةٍ وآدِ
إذا حدَثُ القبائلِ ساجَلُوهم ... فإنهمُ بَنُو المجد[4] التِّلادِ
تُفرِّج عنهم الغمراتِ بِيضٌ ... جِلادٌ تحت قَسْطَلةٍ[5] الجِلاد
وحشو حوادث الأيام منهم ... معاقل مِطْرَدٍ وبنو طِرادِ
لهم جهلُ السباع إذا المنايا ... تمشَّتْ فى الوغى[6] وحُلُوم عادِ
لقد أَنْسَتْ سُلُوّى[7] كلَّ دهرٍ ... محاسنُ أحمدَ بن أبى دُوادِ
متى تَحْلُلْ به تحلُلْ جَنَابا ... رضيعاً للسَّوارى والغَوادِى

(١) ديوانه : ٧٨ ، أخبار أبى تمام : ١٥٠ . (٢) فى الديوان : سيل ... وروض .
(٣) فى الديوان : إنى . (٤) فى الديوان : بنو الدهر .
(٥) قسطلة : غبار . (٦) فى الديوان : فى القنا .
(٧) فى الديوان : مساوى .

وما اشتبهت سبيل[١] المجدِ إلاَّ   هَداكَ لقِبْلَةِ المعروفِ هادِ
وما سافرتُ فى الآفاق إلّا   ومِنْ جَدْواكَ راحِلَتى وزادى
مقيمُ الظنِّ عندكَ والأمانِى   وإن قَلِقَتْ ركابى فى البلادِ

وهذه النكت التى أحْقَدت أبا جعفر ، وأعتبته على أبى تمام ، وفى هذه القصيدة يقول معتذراً إليه فى الذى قُرِّب به عنده من هجاء مضر[٢] :

أتانى عائر[٣] الأنباء تَسْرى   عقاربُهُ بداهيةٍ نآدِ[٤]
نَثَا خَبَراً[٥] كأنَّ القلبَ منهُ[٦]   يُجَرُّ به على شَوْكِ القَتَادِ
بأنِّى نِلْتُ من مُضَرٍ وخَبَّتْ   إليكَ شَكِيَّتى خَبَبَ الجوادِ
وما رَبْعُ القطيعةِ لى برَبْعٍ   ولا نَادى الأذَى مِنِّى بِنَادِ
وأين يجوز[٧] عن قَصْدٍ لسانى   وقَلْبى رائحٌ بِرِضَاكَ غادِ
ومما كانتِ الحُكَماءُ قالَتْ :   لِسَانُ المرءِ من خَدَمِ الفُؤَادِ
وقِدْماً كنتُ معسولَ القوافى[٨]   ومأدومَ المعانى[٩] بالسَّدادِ

وكان ابن أبى دُوَاد غالياً فى التعصُّب لإياد وإلحاقها بنزار ، على مذهب نُسَّاب العَدْنانيين . قال : وكلٌّ من بالعراق من إياد دخلوا فى النَّخَع[١٠] ، وإليهم يُنْسَبون ؛ ومن كان بالشام فلمّ على نسبهم فى نزار ، وابن أبى دُوَاد يرمى بالدعوة ؛ والتكثيرُ من أخباره يُخرِجُ إلى ما أخافهُ من تَطويلِ التصرُّف ، فى مملول التكلُّفِ . ابن أبى دواد

وكان ابن أبى دُوَاد عالماً بضروبِ العِلم والأدب ، متصرّفاً فى صناعة الجدال ،

---

(١) فى الديوان : طريق .   (٢) ديوانه ٧٩ .   (٣) فى الديوان : عاثر .
(٤) نآد : شديدة الأذى .   (٥) فى ق ، س : ثنا خبر .
(٦) فى الديوان : كأن القلب أمسى .   (٧) فى الديوان : يحور .
(٨) فى الديوان : كنت معسول المعانى .   (٩) فى الديوان : ومأدوم القوافى .
(١٠) النخع : قبيلة باليمن .

على مذهب أهل الاعتزال ، وكانت العداوةُ بينه وبين ابنِ الزيَّات بيّنة ، والنفاسة في الرياسة بينهما متمكِّنة ، وقال له بعض الشعراء :

أَكُلّ أَبِي دُواد مِن إيادِ   فكلُّ أَبي ذؤيبٍ من هُذَيلِ

قال مسلم : ما تاه إلّا وضيع ، ولا فاخر إلا سقيط ، ولا تعصَّب إلّا دَخيل . وقال مدني لرجل : ممن أنت ؟ فقال : من قريش ، والحمد لله ، قال : بأبي أنت ! التحميد هاهنا رِيبة ! واسم أبي دُوَاد دُعْمِيّ[1] ، قال أبواليقظان : وهم من قبيلة يُقالُ لها بنو زهرة إخوة بني جدّان ، وقد ذكره الطائي في قوله[2] :

والغيث من زهرٍ سحابةُ رَأْفةٍ   والركنُ من شيبانَ طَوْدُ حَديدِ

ذكر شيبان ، لأن خالدَ بن يزيدَ الشيباني شفع له عند ابنِ أبي دُوَاد فيما ينساقُ الحديثُ إليه من مَوْجدَتِه عليه .

قال محمود الوراق : كنتُ جالساً بطَرَفِ الجِسْر[3] مع أصحابٍ لي ؛ فمرّ بنا أبو تمام ، فجلس إلينا ، فقال له رجل منا : يا أبا تمّام ، أيُّ رجلٍ أنْتَ لو لم تكن من اليَمَنِ ! قال : ما أُحِبُّ أنّي بغير الموضع الذي اختاره اللهُ لي . فمَنْ تحِبُّ أن أكونَ ؟ قال : من مُضَر . قال : إنما شَرُفَتْ مُضَر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك ما قِيسوا بملوكنا وأَذْوائنا ، وفينا كَذَا ، ومِنَّا كذا — يَفْخَر ؛ وذكر أشياءَ عاب بها مُضَر ، ونُمِي الخبرُ إلى ابن أبي دُوَاد وزيدَ فيه ، فقال: ما أُحِبُّ أنْ يَدْخُلَ عليَّ . فقال يعتذر إليه بقصيدة أولها[4] :

سَعِدَتْ غُربةُ النَّوَى بسُعَادِ   في طلوع[5] الإتْهامِ والإنجادِ

يقول فيها :

بعد أن أصْلتَ الوُشَاةُ سُيُوفاً   قَطَعَتْ فِيَّ وَهيَ غيرُ حِدادِ

---

(١) دعمي : من إياد — اللسان — دعم. (٢) ديوانه : ٨٤ . (٣) أخبار أبي تمام: ١٤٧ وفيه : بطرف الخير حير سر من رأى . (٤) ديوانه : ٧٥ ، وأخبار أبي تمام : ١٤٨. (٥) في أخبار أبي تمام : فهى طوع .

فنفى عنكَ زُخْرفَ القولِ سَمْعٌ   لم يكُنْ فرضه[1] لغيرِ السَّدادِ
ضربَ الحِلْمُ والوَقَارُ عليـهِ   دونَ عُورِ الـكلامِ بالأَسْدادِ
ملأتك[2] الأَحْسابُ أَىّ حياةٍ   وحيا أَزْمَةٍ وحيّـةَ وادِ
عاتقٌ مُعْتَقٌ من الرقّ[3] إلّا   من مُقاساةِ مَغْرم أَوْ نِجادِ
للحمالاتِ والحمـائلِ فيـهِ   كلحوب الموارِدِ الأعدادِ

فما رَضِى عنه حتى تشفّع إليـه بخالد بن يزيد بن مزْيد الشيبانى ، فقال فى قصيدة[4] :

أسرَى طَريداً للحياءِ مِنَ التى   زَعَمُوا ، وليس لقوله[5] بطَرِيدِ
كُنتَ الربيعَ ، أمامَهُ ووراءَهُ   قَمرُ القبـائل خَالِدُ بن يزيدِ
وغداً تَبيّنُ ما براءَة ساحَتى   لو قد نفضت تَهائمى ونجودِى
لله درُّك أىُّ[6] بابِ مُلِمَّـةٍ   لم يُرْمَ فيـهِ إليك بالإقليدِ
لـما أظلّتنى غَمامك أَصْبَحَتْ   تلك الشهودُ علىّ وهْى شُهودى
من بعد ما ظنُّوا بأَنْ سيكونُ لى   يومٌ بزَعمِهم[7] كيوم عَبيـدِ

يريد عبيد بن الأبرص الأسدى ، وكان النعمان بن المنـــذر لقيه يوم بُؤْسِه فقتله .

فصاحة ابن أبى دواد

وكان ابن أبى دُوَاد كريما فصيحا جَزْلا . قال أبو العيناء : كنا عند ابن أبى دُوَاد ومعنا محمود الورّاق وجماعةٌ من أهل الأدب والعلم ؛ فجاءه رسول إيتاخ فقال : إن الحاجب أبا منصور يقرأُ على القاضى السلام ، ويقول : القاضى يتَعنّى[8] ويَجِىءُ فى الأوقات ؛ وقد تفاقم الأمرُ بينـه وبين كاتب أمير المؤمنين ، يريد ابن الزيات ،

---

(١) فى الديوان : فرصة .   (٢) فى الديوان : مليتك ، وفى س : متعتك .
(٣) فى الديوان : من الهون .   (٤) ديوانه : ٨٤ ، وأخبار أبى تمام : ١٥٤ .
(٥) فى الديوان : وليس لرهبة بطريد . (٦) فى الديوان : * نفسى فداؤك أى باب ملمة *
والإقليد : المفتاح .   (٧) فى الديوان : يوم ببغيهم كيوم عبيد .   (٨) ينصب .

فصار يضرُّنا عند قَصْدِه القاضى ، وما أحِبّ أن يتعنّى إلىّ لهذا السبب ؛ إذ كنت لا أَصِل إلى مكافأته . فقال : أجيبوه عن رسالته ، فلم نَدْرِ ما نقول ، ونظر بعضُنا إلى بعض ، فقال : أمَا عندكم جواب ! قلنا : القاضى ، أعزّه الله ، أَعلمُ بجوابه منا ، فقال للرسول : اقرأْ عليه السلام ، وقل له : ما أتيتك متكثِّرا بك من قِلّة ، ولا متعزِّزاً بك من ذِلّة ، ولا طالبا منك رُتْبة ، ولا شاكيا إليك كُرْبة ، ولكنك رجلٌ ساعدك زَمَان ، وحرَّكك سلطان ، ولا علم يُؤْلف ، ولا أصل يُعْرَف ؛ فإنْ جئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك ! فعجِبْنا من جوَابه .

[بعد تغيّر الحال]

ذم الحجاج بعد مدحه

صعد خالدُ بنُ عبد الله القسرى المنبر يومَ جمعة ، فخطب (١) وهو إذْ ذاك أميرٌ على مكة ، فذكر الحجَّاج فأحْمَد طاعتَه ، وأَثْنى عليه خيراً ، فلما كان فى الجمعة الثانية وردَ عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك يأمرُه فيه بِشَتْم الحجّاج وذِكْرِ عيوبِه ، وإظهار البراءة منه ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن إبليس كانَ مَلَكاً من الملائكة ، وكان يُظْهِر من طاعة الله ما كانت الملائكة تَرَى له بذلك فضلا ، وكان الله تعالى قد علم من غِشّه ما خَفِى عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه بالسجود لآدم ؛ فظهر لهم ما كان يُخْفيه عنهم فلعنوه ؛ وإن الحجاجَ كان يُظْهِر من طاعة أمير المؤمنين ما كنَّا نرى له بذلك فضلا ، وكان الله عزّ وجل أطلع أمير المؤمنين من غِلِّه وخُبْثه على ما خَفِى عنا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدى أمير المؤمنين ، فالْعَنُوه ، لعنهُ الله . ثم نزل .

أبو تمام يعتذر من مدح الأفشين

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركى ، واسمه خيذر (٢) بن كَاوُس ، وكان من أجلّ قُوَّاد المعتصم ، وأَبْلَى فى أمر بابك الخرمى بلاءً حمده له ؛ فلما سَخِطَ المعتصمُ عليه لِمَّا نُسِبَ إليه من سوء السيرة ، وقُبْح السريرة ، وأنه يخطب درجة بابك ، ويريد التحصّن بموضع يَخْلَعُ فيه يدَه عن الطاعة ، وأظهر القاضى أحمد بن أبى دواد

---

(١) العقد الفريد : ٢ — ١٥٨ ، ٣ — ١١ . (٢) فى س : خيذر ، وفى ق : حيدر .

عليه أنه على غيرِ الإسلام، قال أبو تمام معتذرا للمعتصم من تقديمه واجتبائه، ولنفسه من مدحه وإطرائه [(١)] :

ما كان لولا فحشُ غـدرة خيـذرٍ ... ليكونَ فى الإسلامِ عامُ فِجَارِ
هذا الرسول [(٢)] وكان صفوةَ ربِّهِ ... من خَيْرِ بادٍ فى الأنام وقَارِ
قد خصّ من أهل النفاق عصابةً ... وهمُ أشدُّ أذًى من الـكُفَّارِ
واختار من سعدٍ لعينَ [(٣)] بنى أبى ... سرحٍ لعمر [(٤)] الله غيرَ خيار
حتى استضاءَ بشعلةِ السُّوَرِ التى ... رُفِعت له سترا من الأستارِ [(٥)]

ثم ذكر فى هذه القصيدة أن قتل الأفشين لبابك لم يكن بصِدْق بصيرة ، ولا لصحة سريرة ، فقال [(٦)] :

والهاشمون المستقلة ظُعنهم ... عن كربلاءَ بأثقلِ الأوزارِ [(٧)]
فشفاهم المختارُ منهُ ولم يكن ... فى دينهِ المختارُ بالمختارِ

أما من ذُكر من أهل النفاق ، فقد كانوا يظهرون غَيْرَ ما يسرون ، حتى أطلع الله نبيَّه عليه السلام على أخبارهم ، ونَشَر له مَطْوِىّ أسرارهم ، وأما ابنُ أبى سَرْح فهو عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة ابن نصر بن مالك [بن حسْل] [(٨)] بن عامر بن لؤىّ ، أسلم قبل الفَتْح، واستكتبه النبىُّ عليه السلام فكان يكتبُ موضِعَ « الغفورِ الرحيم » العزيزِ الحكيم ، وأشباه ذلك ؛ فأطْلَع اللهُ عليه النبىّ عليه السلام ، فهرب إلى مكة مرتدًّا ؛ وأُنزل فيه : ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . فأَهْدَر النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دَمَه ، فهرب من

أهل النفاق

ابن أبى سرح

(١) ديوانه : ١٥٢ ، أخبار أبى تمام : ٩٤ .
(٢) فى الديوان : هذا النبى . (٣) فى ق : لقيس بنى أبى سرح .
(٤) فى الديوان : لوحى الله . (٥) فى الديوان : رفعت له سجفا من الأسرار .
(٦) ديوانه : ١٥٢ . (٧) رواية هذا البيت فى الديوان :
والهاشميون استقلت عيرهم ... من كربلاء بأوثق الأوتار
(٨) من ق ، وفى س : جسل .

مكّة ، فاستأْمن له عثمانُ رضى الله عنه ؛ فأمّنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أَخو عثمان من الرضاعة ، وأَسلم فحَسُنَ إسلامُه ، وولّى مصر سنة أربع وعشرين ، فأقام عليها إلى أَنْ حُصِر عثمان ، ومات بقَيْسارية الشام ، ولم يدخل فى شىء من الفِتَن الحجازية فى ذلك الوقت .

المختار — وأما المختارُ الذى ذكره فهو المختار بن أبى عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عَقدة بن عروة بن عَوف بن قَسى[(١)] وهو ثقيف ؛ وكانت لأبيه فى الإسلام آثارٌ جميلة ، وأختُ المختار صفية بنت أبى عبيد زوجُ ابن عمر ، والمختار هو كذّاب ثقيف الذى جاء فيه الحديث ، وكان يَزْعُم أنه يُوحَى إليه فى قَتَلَةِ الحسين ، فقتلهم بكل موضع ؛ وقتل عبيد الله بن زياد ، وله أسْجاع يَصْنَعُها ، وألفاظٌ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتُوحَى إليه . وقيل للأحنف بن قيس : إنّ المختارَ يزعم أنه يُوحَى إليه! فقال : صدق ، وتلا : وإن الشياطين ليُوحِى بعضُهم إلى بعض . وأخبارُه كثيرة ليس هذا موضعها .

بعد هزيمة أمية بن خالد — لما هُزم أمية بن خالد بنُ أُسيد لم يَدْرِ النـاس كيف يقولون له ، فدخل عبدُ الله ابن الأهتم عليه ، فقال: الحمد لله الذى نظر لنا أيُّها الأمير عليك ، ولم ينظُرْ لك علينا، فقد تعرّضت للشهادة بجهدك ، إلّا أن الله علِم حاجةَ أهلِ الإسلام إليك فأبقاكَ لهم بخذلان مَنْ معك . فصدر الناسُ عن كلامه .

ويتعلق بهذه المقامة فصلٌ فى غرائب التكاتب

إلى عامل عزل — كتب حمدون بن نَهْرَان[(٢)] إلى عاملٍ عُزِل عن عمله : بلغنى أعزّك الله انْصِرافك عن عملك ، ورجوعَك إلى منزلك ؛ فسُرِرْت بذلك ، ولم أستَفْظِعْه وأجْزَع له ؛ لعلمى بأَنّ قدرَك أجلُّ وأعْلى من أنْ يرفعَك عملٌ تتولاّه ، أو يضعَك عَزْلٌ عنـه ؛ ووالله لو لم تختَرْ الانصرافَ وتُرِد الاعتزالَ لـكان فى لُطْفِ تدبيرك ، وثقوبِ رَوِيّتك ،

---

(١) فى القاموس : قسى بن منبه أخو ثقيف .   (٢) فى ق : نهراق .

وحُسْنِ تأتّيك ، ما تزيل به السببَ الداعى إلى عَزْلك ، والباعثَ على صَرْفك ؛ ونحن إلى أن نهنئك بهذه الحال أَوْلى بنـا من أن نعزّيك ، إذ أردْتَ الانصرافَ فأوتيته ، وأحببْتَ الاعتزالَ فأُعْطيته ، فبارك اللهُ لكَ فى مُنْقَلَبك ، وهنّاكَ النعمَ بدَوامها ، ورزقك الشُّكْرَ الموجِبَ لها الزائدَ فيها .

إلى نصرانى أسلم

وكتب ابن مكرم إلى نصرانى أسْلَمَ : أمّا بعد فالحمدُ لله الذى وفّقك لشكره ، وعرّفك هدايته ، وطهّر من الارتيابِ قلبَك ، وما زالت مَخايِلك ممثّلةً لنا حقيقةَ[1] ماوهب اللهُ فيك ، حتى كأنّك لم تزَلْ بالإسلام موسوماً ، وإن كنت على غيره مُقيما ، وكنا مؤمّلين لمـا صِرْتَ إليه ، مشفِقين مما كنتَ عليه ، حتى إذا كاد إشفاقُنا أن يَسْتَعْلِىَ رجاءنا أتت السعادةُ بما لم تزَل الأنفسُ تعدّ منْكَ ؛ فأسأل اللهَ الذى أضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك أن يوفّقك لصالح العمل ، وأنْ يُؤْتيك فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً ، ويَقيكَ عذابَ النار .

حسن التأنى

قال بعضُ الكتاب: من الحقّ ما يُستَحسن ترْكُه ، ويستهجَنُ عملُه ، وقد يقع من ذلك فيما يُحِلّه الشرع، ويكرهه الأدباء[2] ؛ وكثيرٌ ممن يغلبُ على طبعه هذا المعنى يراه سموَّ نَفْسٍ ، وعلوَّ همة ، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمته ، ويولّى أمرَها غير نفسه ، ورأينا من يُجاوِز ذلك إلى ألّا ينكح مستنكِحا ؛ وزاد به العلوّ إلى ترْكِ ما ذِكْره أَوْلَى ؛ وكنا عرفْنَا حال إنسان تزوّجَتْ أُمه ؛ فعظُمَ لذلك همُّه ، وانفرد عن أوِدّائه ، وتوارَى عن أصفِيائه ؛ حياءً من لقائهم ، وكُرْها لتهنئتهم له أو عَزائهم ، واضطرّته الوَحْشَةَ إلى قَصْدِ من ظنّ به منهم المُسْكَة فى تحامى خطابه فيما اجتنب لأجله خُلّانَه ، وفارق بسببه إخوانَه ، وتخيّل ذلك المقصودُ أنه إنما لجأَ إليه ليسلّيه ؛ فأفاض معه فيما قدّر أنه قصد له من المعنى الذى جمله وحيداً خوف المفاوضة .

ثم مضت الأيامُ واختلف الحال ، ورجع إلى العِشْرَة وأبناء المودّة ؛ فكان عنده

(١) فى س : لناجبيك . (٢) فى س : الإباء .

من لم يخاطِبْه أحْظَى ، وفى نفسه أوْفَى ، وعلى قلبه أخفّ ، وفى نفسه أشفّ ، ونَقَم على ذلك الصديق وعَتب ؛ إذْ لـكلٍّ من النـاس ، إلّا من طاب مَحْتِده وطالَ سؤدده ، حالٌ من الإلْف والرغبة تحسّن المساوى ، ثم حالٌ من المَلَل والزَّهَادة تقبِّحُ المحاسن ؛ واعتذر المتـكلِّفُ من التسلية بما لم يلزمه ، ولم يُرِدْه صفيُّه ، فإنه فعل ما أوجبته الأخوَّة ، وحقوق الخلطة ، وأسبابُ العِشرة ، وانبساط المفاوضة ؛ ودبَّتْ عقاربُ الظنون والوشاية ، إلى أن خرجا بالمُلاحاةِ إلى المُعَاداة ؛ فلما وقع بعضُ الناس بينهما من معاوَدَة الحسنى ، ومراجعة الأَوْلى ؛ جاهرَ هذا الماقتُ بقَرْعِ سِنِّ الأَسَفِ على تخيّل النهى والوقار من الممقوت ، وظاهر الممقوت بتَقْرِيع الماقت ، بتزويج أمِّه الذى تجشّم من كلامِه فيه فضلًا ، وتـكلّف من خطابه عليه ما من حَسْرة[1] خَلَا ؛ فأفضى الأمرُ بينهما إلى الأَوْتَار ، وطلب الثَّار . فإن اضطرّ إلى القول فى هـذا المعنى أحدٌ بأمر قاهرٍ من السلطان ، أو حوادثِ الأزمان ، أو تطارُحِ الإخوان ، فليقل وليـكتبْ ما مثّلنا إن لم يَجدْ منه بدًّا : أنت بفَضْلِ الله عليك وإحسانِ تبصيره إياك من أَهْل الدّين ، وخلوصِ اليقين ، فـكما لا تتَّبع الشهوة فى محظور تُبيحه ، فـكذا لا تتَّبع الأَنَفَة فى مُباحٍ تحضره ؛ وقد اتّصل بنا ما اختاره اللهُ والقضاء لذات الحقِّ عليك ، المنسوبةِ ، بعد نسبك إليها ، إليك ، ممـا كرهه إباؤك الدُّنيوى لك ولها ، [ورَضِيَه الحلالُ الدينى له ولها][2] ، فنحن نعزّيك عن فائت محبوبك ، ونهنّئك فى الخِيرَةِ فى اختيارِ القَدَرِ لك ، ونسألُ الله أن يجعلَها أبداً معك فيما رضيت وكَرِهْتَ ، وأبَيْتَ وأتَيْت .

لمن تزوجت أمه

فهذا ونحوه أصْوَبُ وأسلم ، إن اضطررت إليـه ، وتَركُهُ أحْسن وأحزم ، إن ملـكت رأيَك فيه ؛ والتلطفُ للـكتابة عما يُستَهْجَن ولا يستحسن التواجهُ به من أحْسنِ الأشياء وأسدِّها .

---

(١) فى س ، ق : ماحسرة .   (٢) ساقط من س .

لابن العميد في هذا الباب

وكتب أبو الفضل بن العميد فى بابه : الحمدُ لله الذى كشف عنا سِتْرَ الحَيْرَة ، وهدانا لسَتْرِ العَوْرَة ، وجَدَعَ بما شرع من الحلال أنفَ الغَيْرَة ، ومَنَع من عَضْلِ الأمهات ، كما منَع من وَأْدِ البنات ، استِنْزالًا للنفوس الأبيَّة ، عن حميَّةِ الجاهلية ، ثم عرَّض للجزيل من الأجر من استسلم لمواقع قضائه ؛ وعوّض جزيلَ الثواب مَنْ صبر على نازلِ بلائه ؛ وهنَّأك الله ، الذى شرح للتقوى صَدْرك ووسَّع فى البَلْوَى صبْرَك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيّته ، ووفّقك له من قضاء الواجب فى أَحد أبويك ، ومن عظم حقّه عليك ؛ وجعل الله تعالى حدَّه ما تجرَّعْته من أنف ، وكَظَمْتَه من أَسَف ، معدوداً يعظّمُ اللهُ عليه أجرك ، ويُجْزِلُ به ذُخْرك ؛ وقَرَن بالحاضر من امتِعاضك لفِعْلها المنتظرَ من ارْتِماضِك[1] لدَفْنِها ، وعوّضك من أسِرَّة فرشها أعوادَ نَعْشِها ؛ وجعل ما يُنْعِمُ به عليك من بعدها من نعمة معرَّى من نِقْمة ، وما يوليك بعد قَبْضِها من منحة مبراً من مِحْنَة .

ألفاظ لأهل العصر فى التهانى بالبنات

هنأ الله سيدى وِرْدَ الكريمة عليه ، وثمّر بها أعداد النّسل الطيِّب لديه ؛ وجعلَها مُؤْذِنَةً بإخوة بررَة ، يعمرون أندِية الفضْل ، ويَغْبُرُون[2] بقيّةَ الدَّهْرِ . اتصل بى خبَرُ المولودة ، كرَّم الله غُرّتها وأنبتها نباتاً حسناً ، وما كان من تغيُّرك بعد اتِّضاحِ الخبَر ، وإنكارك ما اختاره اللهُ لك فى سابقِ القَدَر ، وقد علمت أنهنَّ أقربُ من القلوب ، وأنَّ الله تعالى بدأ بهنّ فى الترتيب ، فقال جل من قائل : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إناثاً ويَهَبُ لمن يشاءُ الذكورَ﴾ . وما سمّاه هبة فهو بالشكر أوْلَى ، وبحُسْنِ التقبّل أحرَى . أهلا وسهلًا بعقيلة النساء ، وأمِّ الأبناء ، وجالبة الأصهار ، وأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخْوَة يتناسقون ، ونُجَباء يتلاحقون .

---

(١) ارتمض من كذا : اشتد عليه وأقلقه ، وارتمض لفلان : حدب عليه .

(٢) غبر : مكث وذهب ، ضد .

فلو كان النساء كمثل هذى (١) لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

والله يعرفك البركة فى مطلعها، والسعادة فى موقعها، فادّرع اغتباطا، واستأنف نشاطا . الدنيا مؤنّثة ، والرجال يخدمونها . والنارُ مؤنثة ، والذكور يعْبُدونها والأرض مؤنثة ، ومنها خُلِقت البرية ، وفيها كثرت الذّرية . والسماء مؤنثة ، وقد حُلِّيت بالكواكب،وزُيِّنت بالنجوم الثواقب. والنفسُ مؤنَّثة ، وهى قِوام الأبدان وملاك الحيوان . والحياةُ مؤنّثة ، ولولاها لم تتصرّف الأجسامُ ، ولا عُرِفَ الأنام والجنّة مؤنّثة ، وبها وُعِدَ المتقون ، وفيها يَنْعم المرسلون ، فهنّأك الله ما أوليت وأوْزَعك شُكْرَ ما أعطيت ، وأطَال اللهُ بقاءك ما عُرِفَ النَّسْل والوَلد، وما بقى العَصْرُ والأبد ، إنه فعال لما يشاء .

[مديح النساء]

والتصرف فىالنساء ضيِّقَ النطاق ، شديدُ الخِنَاق، وأكثرُ ما يُمْدح به الرجال ذمّ لهن ، ووصْمٌ عليهن ، قال ابن الرومى (٣) : ضيق نطاقه

ما لِلْحِسَان مسيئاتٍ بِنا ، ولنا إلى المسيئاتِ طولَ الدّهْرِ تَحْنَانُ
فإن يَمُحْنَ (٤) بعهدٍ قُلْنَ معذرةً إنّا نسينا وفى النسوان نِسْيَان
لا نُلْزَم الذّكْرَ ، إنّا لم نُسَمّ بهِ ولا مُنِحْنَاه ، بل للذّكر ذُكْرَانُ
فَضْلُ الرجالِ علينا أَنْ شيمتَهم جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهان
وأنّ منهم وفاءً لا نقومُ لهُ وهل يكون مع النّقصان رُجْحَان

وقال أبو الطيب المتنبى (٥) :

بنفْسى الخيالُ الزّائِرِى بَعْدَهَجْعَةٍ وقَوْلَتُه لِى بَعْدَنَا الغُمْضَ تطعمُ

---

(١) ديوان المتنبى : ٣ — ١٨ . (٢) فى الديوان : كمن فقدنا .
(٣) ديوانه : ٢١ . (٤) فى الديوان ، س : تبعن . (٥) ديوانه : ٣ — ٨٣

سَلَامٌ فلولا البُخْلُ والخَوْفُ عِنْدَهُ ... لَقُلْنَا أَبو حَفْصٍ عَلَيْنَا المُسَلِّمُ

ألا ترى أنّ الجود ، والوفاء بالعهود ، والشجاعة والفطن (١) ، وما جرى فى هذا السَّنَنِ من فضائل الرجال ، لو مُدِح النساء به لكان نَقْصًا عليهن ، وذمًّا لهنّ ؟

من أمثلة الخطأ فى مدحهن

ولمديح النساء أبواب تفرّقت فى الكتاب : أنشد رجلٌ زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور :

أزُبَيْدة بنة جَعْفرٍ ... طُوبَى لزائرِك المُثَابِ

تُعْطِينَ من رِجْلَيك ما ... تُعْطِى الأكفُّ من الرِّغابِ

فوثب إليه الخدَمُ يضربونه ، فمنعتهم من ذلك ، وقالت : أراد خيراً وأخطأ ، وهو أحبُّ إلينا ممن أراد شراً فأصاب ، سمع قولهم : شِمالك أنْدى من يمين غيرك ؛ فظن أنه إذا قال هكذا كان أبلغ ، أعْطُوه ما أمَّل ، وعرِّفوه ما جهل .

وقال كثير (٢) :

ولما قضَيْنا من مِنًى كلَّ حاجةٍ ... ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هو ماسِحُ

وشُدّت على حُدْبِ المَطَايا رِحالُنا ... ولا يعلم الغادى الذى هو رائحُ

أخَذْنَا بأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بيننا ... وسَالَتْ بأَعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ

نَقَعْنَا قلوباً بالأحاديثِ واشْتَفَتْ ... بذاك صدُورٌ مُنْضجَاتٌ قَرَائِحُ

ولم نَخْشَ رَيْبَ الدَّهْرِ فى كلِّ حالةٍ ... ولا رَاعَنا مِنه سَنِيحٌ وبَارِحُ

وقال :

تفرّق أُلَّافُ الحجيج على مِنًى ... وشتَّتهم شَحْطُ النوى مشى أربعِ

فريقان منهم سالِكٌ بطن نَخْلَةٍ ... وآخرُ منهم جازع ظَهْر تَضْرُعِ (٣)

---

(١) الفطنة والحذق . (٢) ذيل اللآلئ : ٧٧ .

(٣) فى كل الأصول : تصرع بالصاد ، وما أثبتناه عن معجم ما استعجم : ٣١٣ ، وفيه : حزم تضرع .

فلم أرَ داراً مثلها دَار غِبْطَةٍ ... ولَهْوٍ إذا التفَّ الحجيجُ بمجمع
أقلَّ مقيما رَاضياً بمكانِهِ ... وأكثرَ جاراً ظاعناً لم يودع
فأصبح لا تلقى (١) خباءً عَهِدْتَهُ ... بمَضْربه أوْتَادُهُ لم تُنزَّع (٢)
فشاقُوك لما وجّهوا كلَّ وجهةٍ ... فبانُوا وخلّوا عن مَنازِل بَلْقع

خطأ كثير في ذلك

ودخل كثيّر على عزّة يوماً ، فقالت : ماينبغى أن نَأْذَن لكَ فى الجلوس ، فقال : ولم ذلك ؟ قالت : لأَنى رأيت الأحوص أَلْيَنَ جانبا عند الغوانى منك فى شعره ، وأضرعَ خدًّا للنساء ، وأنه الذى يقول :

يأيها اللّائمى فيها لِأَصْرِمَها (٣) ... أكثرْتَ لوكانَ يُغنِى عنكَ إكثار
أكثِرْ فلسْتَ مُطَاعاً إذوشيتَ بها ... لا القَلْبُ سَالٍ ولا فى حُبِّها عارُ

ويعجبنى قولُه (٤) :

أَدُورُ ولَوْلَا أنْ أرى أمَّ جَعْفَرٍ ... بأَبْياتِكُم ما دُرْتُ حَيْثُ أدُورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكنَّ ذاالهوَى ... إذَا لم يُزَرْ لابدَّ أَنْ سَيزُورُ
لقد منعَتْ معروفَهَا أمُّ جعفرٍ ... وإنى إلى معروفِها لفَقِيرُ

ويعجبنى قوله :

كم من دنىّ لها قد كنتُ أتبعهُ ... ولو صحَا القَلْبُ عنها كان لى تبعَا
لا أستطيعُ نُزوعاً عن محبَّتِها ... أو يصنع الحبُّ بى فوق الذى صَنَعا
أَدْعُو إلى هَجْرِها قلبى فيتْبعنى ... حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نزَعا
وزادنى رغبةً فى الحبِّ أن منعتْ ، ... أشهَى إلى المرء من دُنياه ما مُنِعا

وقوله (٥) :

إذاأنت لم تَعْشَق ولم تَدْرِ ماالهوى ... فكُنْ حجَراً من يابِس الصَّخرِ جَلْمَدَا
وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِى ... وإن لام فيه ذو الشّنَانِ وفَنَّدَا

(١) فى س : لا يلقى . (٢) فى س ، ق : لم يبرع .
(٣) فى س : لأصرفها . (٤) الأغانى ٩ — ٦٥ . (٥) الأمالى : ١ — ٣٣ ، اللآلى ١٤٣ .

وإنى لأَهْوَاها وأَهْوَى لقاءَها ... كما يشتهى الصَّادِى الشراب المُبَرَّدَا
علاقة حبّ لجّ فى سنن الصِّبا ... فأَبْلَى وما يزدادُ إلاّ تجدُّدا

هـذان البيتان أَلحقهما العُتبى وغيرُه بشعر الأحوص ، وأنشدها أبو بكر بن دريد لأَعرابى (١) ، فقال كثير : قد والله أجاد فما استقبحت من قولى ؟ قالت : قولك (٢) :

وكنت إذا ما جِئْت أَجْلَلن مَجْلسى ... وأَظْهَرنَ مِنّى هيبة لا تجهُّما (٣)
يحاذِرْن منّى غيرةً قد عَرَفْنها ... قديماً فلا يضحكن إلاّ تبسُّما
تراهنّ إلا أن يخالِسْنَ نظرةً ... بمؤخرِ عَيْنٍ أو يقلّبن مِعْصَمَا
كواظم لا يَنْطِقْنَ إلا مَحُورَةً (٤) ... رَجِيعَةَ قول بعد أن يتفهما
وكنّ إذا ما قُلْنَ شيئاً يسرُّهُ ... أسرّ الرضاَ فى نَفْسِه وتَجرَّمَا (٥)

وقولك (٦) :

وددت وبَيْت اللهِ أنك بَكْرَةٌ ... هِجانٌ وأنى مُصْعَبٌ ثم نَهْربُ
كِلَانا به عُرٌّ (٧) فمَنْ يَرَنا يَقُلْ ... على حُسْنِها جَرْبَاءُ تُعْدِى وأجْرَبُ
نكون لذِى مالٍ كثير مغفَّلٍ ... فلا هو يَرْعَانَا ولا نَحْنُ نُطْلَبُ
إذا ما ورَدْنا منهلا صاح أهْلُه ... علينا فما ننفكّ نُؤْذَى ونُضْرَبُ

وَيْحك ! لقد أردتَ بى الشقاءَ ، أفما وجدت أمنية أوْطأَ من هـذه ؟ فخرج خَجِلا .

وقد تمنّى بمثل هذه الأُمنية الفرزدق .

وأغرب من هذا قول أبى صَخْر الهذلى (٨) :

---

(١) ارجع إلى اللآلئ ١٤٣ فى نسب هذه الأبيات . (٢) الشعراء ٤٩٤ .
(٣) فى س ، ق : لا تحمما . (٤) المحورة : الجواب . (٥) فى الشعراء : وتجرما : أى ادعى عليه الجرم وإن لم يجرم . (٦) الموشح ١٥٥ . (٧) جرب .
(٨) المختار من شعر بشار ٢٠٤ .

تمنّيت من حُبّى عُلَيّة أننّا ... على رَمَثٍ فى البحر ليس لنا وَفْرُ
على دائمٍ لا يعبر الفلكُ مَوْجَهُ ... ومِنْ دوننا الأهوالُ واللُّجَجُ الخُضْرُ
فنقضىَ همَّ النفسِ فى غير رِقْبةٍ ... ويُغرِق مَنْ نَخْشَى نميمتَه البَحْرُ

* * *

الأمانى والآمال

وقيل : الأمل رفيق مُؤْنِس ؛ إن لم يُبلغك فقد ألْهاكَ .

وقال مسلم بن الوليد (١) :

وأكثرُ أفعالِ الليالى إساءةٌ ... وأكثرُ ما تَلْقَى الأَمانِى كَوَاذِبا

وقال آخر :

مُنًى إنْ تَكُنْ حقا تكن أحْسنَ المُنَى ... وإلاّ فقد عِشْنَا بها زمناً رَغدَا
أمانىّ من لَيْلَى حِسَانٍ كأنما ... سقتنى بها لَيْلَى على ظَمَإٍ بَرْدا

وقال آخر :

رفعْت عن الدنيا المُنَى غير حبّها ... فلا أسأل الدنيا ولا أسْتَزِيدُها

وقيل لأعرابى : ماأمتع لذّات الدنيا ؟ فقال : ممازحةُ المحب ، ومحادثةُ الصديق، وأمانىّ تقطَع بها أيامك ، وأنشد :

علِّلِينى بمَوْعِدٍ ... وامطلى ما حييت بِهِ
ودَعِينى أفوزُ مِنْ ... كَ بنَجْوَى تطلُّبه
فعسى يعثر الزَّمَا ... نُ بحظِّى فينْتَبِه

[كثير وعزّة]

وكان كثيّر بن عبد الرحمن بن أبى جُمُعة الخزاعى (٢) ـ ويعرف بعزّة ، على حِدّةِ خاطرِه ، وجَوْدَةِ شعره ـ أحْمقَ الناس .

---

(١) اللآلئ ـ ذيل ٤٨ . (٢) ارجع إلى ما كتب فى صفحتى ٣ ، ٤ من الجزء التاسع من الأغانى عن نسبه .

دخل عليه [١] نفرٌ من قريش وهو عليل يهزءون به ، قال بعضهم : فقلت له : كيف تجدُك ؟ قال : بخير ، هل سمعتُم الناسَ يقولون شيئاً ؟ فقلت : نعم ، سمعتُهم يقولون : إنك الدجال . فقال : والله لئن قلت ذلك إنى لأَجِدُ فى عينى اليمين ضَعْفا منذ أيام . وكان رافضيًّا يَدِين بالرَّجْعَة ، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، والروافض يزعمون أنه دخل فى شِعْب باليمن فى أربعين من أصحابه ، ولا بدَّ من ظهوره ، وفى ذلك يقول [٢] :

أَلاَ إنَّ الأَئمة [٣] مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلاَةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلِىٌّ والثَّلاَثَةُ مِنْ بَنِيهِ ... هُمُ الأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسِبْطٌ سِبْطُ إيمَانٍ وبِرٍّ ... وَسِبْطٌ غَيَّبَتْهُ كَرْبَلاَءُ
وَسِبْطٌ لا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى [٤] ... يَقُودَ الخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ
تَغَيَّبَ لا يُرَى عنهم زَمَاناً ... بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ ومَاءُ

وكان خلفاء بنى أُمية يعلمون ذلك منه ، ويَلْبَسونه [٥] عليه .

دخل يوما [٦] على عبد الملك بن مروان فقال: نشدتك بحقِّ على بن أبى طالب ، هل رأيت أَعْشَق منك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو سألتَنِى بحقِّك لأخبرتُك ، نعم ، بينا أنا أسيرُ فى بعض الفَلَوات إذا أنا برجل قد نَصَب حبائلَه فقلت له : ما أَجْلَسك ها هنا ؟ قال : أَهلكنى وأَهلى الجوع ، فنصبت حَبائلى لأُصِيبَ لهم ولنفسى ما يكفينا سحابة يَوْمِنا. قلت : أرأيت إن أقمت معك فأَصَبْنا صيدا ، أَتَجْعَلُ لى منه جزءًا ؟ قال : نعم ، فبينما نحن كذلك إذْ وقعت ظبية ، فخرجْنا مُبْتدرين ، فأسرع إليها فحلّها وأَطلقها ؛ فقلتُ : ما حملك على هذا ، قال : دخلتنى لها رِقَّةٌ لشبهها بلَيْلَى ، وأنشأ يقول :

---

(١) الأغانى ٩ — ٢٠ . (٢) الأغانى ٩ — ١٤ ، الشعراء ٤٩٨ .
(٣) فى الأصل : اللائمة . (٤) فى الأغانى : لا تراه العين حتى .
(٥) لبس قوما : تملى بهم زمانا . (٦) الشعر والشعراء : ٤٨٩ ، ذيل الأمالى : ٦٣ .

أياشِبهَ لَيْلَى لا تُرَاعِى (١) فإنَّنى ... لكِ اليومَ من وَحْشِيَّةٍ لَصَدِيقُ
أقول وقد أطلقتُها من وِثَاقِها (٢) ... لأَنْتَ ـ لليلى ـ ما حَيِيتَ طليقُ

وروى الكلبى وابن دَأْب أنه لما حلّها قال (٣) :

اذهبى فى كِلاءَة (٤) الرَّحْمٰنِ ... أَنْتِ منى فى ذِمَّةٍ وأمانِ
لا تخافِى بأن تُهاجِى بسوء ... ما تَغَنَّى الحمَامُ فِى الأغصانِ
ترهبينى والجيدُ منك لِلَيْلَى ... والحشَا والبُغَامُ (٥) والعينانِ

وقال قيس بن الملوّح :

راحوا يَصيدون الظِّباء وإننى ... لأَرى تَصَيُّدَها علىَّ حَرَاما
أَشْبَهْنَ منك محاجراً وسوَالِفاً (٦) ... فأَرى علىَّ لهـا بذاك ذِمَاما
أعْزِزْ علىَّ بأَنْ أرُوعَ شبيهها ... أو أَنْ يَذُقْنَ على يَدَىَّ حمَاما

ومن جيد شعر كُثيِّر (٧) :

وكانت لِقَطْعِ الحَبْلِ بينى وبينها ... كناذِرَةٍ نَذْراً فأَوْفَتْ وحَلَّتِ
فقلتُ لها : يا عزُّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يَوْماً لها النَّفْسُ ذَلَّتِ
ولم يَلْقَ إنسانٌ من الحبِّ مَيْعَةً ... تعمُّ ولا غَمَّاء إلاّ تَجَلَّتِ
أبَاحَتْ حِمًى لم يَرْعَهُ الناسُ قبلها ... وحَلَّتْ تِلَاعاً لم تكن قَبْلُ حُلَّتِ
هنيئاً مريئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامرٍ ... لعزَّةَ من أعْرَاضنا ما استحلَّتِ
أسيئى بِنَا أوْ أَحْسِنى لا ملومة ... لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّة إنْ تَقَلَّتِ
ووالله ما قاربت إلا تباعدتْ ... بِهَجْرٍ ولا استكثرت إلاّ أقلت

---

(١) لا تراعى : لا تفزعى . (٢) الوثاق بفتح الواو وكسرها : ما يشد به .
(٣) الشعر والشعراء : ٤٩٠ . (٤) الكلاءة بالكسر مصدر كلأه : حرسه .
(٥) بغمت الظبيه : صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها .
(٦) السالفة : ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوة .
(٧) الأغانى : ٩ـ٢٩٢ ، المختار من شعر بشار : ١٧٠ ، الأمالى : ٢ـ١٠٧ .

وما مرَّ من يومٍ علىَّ كيومها ... وإن عظُمت أيام أخرى وجَلَّتِ
فياعجبا للقَلْبِ كيف اعترافُهُ ... وللنفس لما وُطِّنت كيف ذَلَّت
وإنى وتَهيامى بعزَّة بعد ما ... تخلَّيْتُ مما بيْنَنا وتَخَلَّتِ
لـكالمرتَجِى ظلَّ الغمامة كلَّما ... تبوَّأ منها للمَقِيلِ اضْمَحلَّتِ

وكان كثير قصيرا دميما ، ولذلك قال :

فإنْ أكُ معروقَ العِظَامِ فإننى ... إذا ما وَزنْت القومَ بالقومِ وَازِنُ

ودخل كثير [١] على عبد الملك بن مروان فى أَول خلافته فقال : أَنْتَ كثيّر ؟ فقال : نعم ، فاقتحمه ، وقال : تَسْمَع بالمُعَيْدِىّ لا أنْ تراه ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، كلُّ إنسان عند محله رَحْبُ الفِناء ، شامِخُ البناء ، عَالِى السّناء ، وأنشد يقول [٢] :

ترى الرجل النحيفَ فتزْدَرِيهِ ... وفى أثوابه أسَدٌ هَصُورُ
ويَعْجِبُك الطَّرِيرُ إذا تراهُ ... فيُخْلِفَ ظنَّك الرجلُ الطريرُ [٣]
بُغَاثُ الطير أطولها رِقاباً ... ولم تَطُلِ البُزاة ولا الصّقورُ
خَشَاشُ الطيرِ أكثرُها فِراخاً ... وأُمُّ الباز مِقْلاتٌ [٤] نَزُورُ
ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زئيراً ... وأصْرَمُها اللَّواتِى لا تَزِيرُ
وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ ... فلم يستَغْنِ بالعِظَم البعير
يُنوَّخُ ثم يُضْرَبُ بالهراوَى ... فلا عُرْفٌ لديه ولا نَكِيرُ
يُقوِّدُه الصبىُّ بكلِّ أَرْضٍ ... ويَصْرَعُه على [٥] الجَنْبِ الصغيرُ
فما عِظَم الرجال لهم بِزَيْنٍ ... ولكن زَيْنُهم حَسَبٌ وخِيرُ [٦]

(١) الأمالى : ٤٦ واللآلئ : ١٩٠ . (٢) الأمالى : ١ـ٤٧ ، المختار من شعر بشار : ٢٠٩ ، الحماسة ٣ـ١٥٢ ، اللسان ـ مادة طرر ، مع اختلاف فى نسبة الأبيات . (٣) الطرير : ذو المنظر والرواء . (٤) مقلات : لا يكثر فرخها . (٥) فى الأمالى : وينحره على الترب .
(٦) الخير : الـكرم والشرف والأصل ، وفى الأمالى : كرم وخير .

فقال : قاتله الله : ما أَطْولَ لسانَه ، وأمدّ عِنَانه ، وأَوْسع جَنَانه ؛ إنى لأحسبه كما وصف نفسه .

* * *

استطراد في الطول والقصر

وأنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم (١) :

وعاذلةٍ هبّتْ بليلٍ تَلُومُني ... ولم يغتمرنى قَبْلَ ذاك عَذُولُ

تقول اتئد لا يَدْعُكَ الناس مُمْلِقاً ... وتُزْرِى بمَنْ يابْنَ الكرام تَعُولُ

فقلت : أَبَتْ نفسٌ علىَّ كريمةٌ ... وطارقُ ليل عند (٢) ذاك يَقُولُ

ألم تعلمى يا عَمْرَكِ الله أننى ... كريمٌ على حين الكرامُ قليلُ

وأَنىَ لا أخزى إذا قِيل مُملِقٌ ... سَخِىٌّ وأخْزَى أنْ يُقالَ بخيلُ

فلا تَتْبَعِى النفسَ الغويّةَ وانظُرِى ... إلى عُنْصُرِ الأَحسابِ كيف يئُولُ

ولا تذهبَنْ عيناكِ فى كل شَرْمحٍ (٣) ... له قَصَبٌ جُوفُ العِظامِ أسِيلُ

عسى أن تمنّى عِرْسُه أنّنى لها ... به حين يشتدُّ الزمانُ بديلُ

إذا كنتُ فى القوم الطّوال فطُلْتهم ... بعارِفَةٍ حتى يُقَال طويلُ

ولا خيرَ فى حُسْنِ الجسوم وطولِها ... إذا لم تَزِنْ حُسْنَ الجسومِ (٤) عقولُ

فكائنْ رأينا من فروعٍ طويلةٍ ... تموتُ إذا لم تُحْيِهِنَّ أصولُ

فإلاّ يَكُنْ جسمى طويلاً فإننى ... له بالفِعَال الصالحاتِ وَصولُ

ولم أرَ كالمعروفِ أمّا مَذَاقُه ... فحُلوٌ وأمّا وَجْهُهُ فجميلُ

وقال ابن الرومى :

ونَصيف (٥) من الرجال نَحِيفٍ ... رَاجح الوَزْنِ عند وَزْنِ الرجالِ

(١) الأمالى : ١ـ٣٨ ، اللآلئ : ١٥٩ ، وفى الأمالى أحمد بن عبيد.

(٢) فى الأمالى : غير ذاك . (٣) الشرمح : القوى والطويل .

(٤) فى هامش س : هذا الشعر للفزارى ومثله قول أبى الطيب المتنبى :

وما الحسن فى وجه الفتى شرفا له ... إذا لم يكن فى فعله والخلائق

(٥) النصيف : النصف ، وفى س ، ق : وقصيف ، وهو ما انقصف نصفين .

فى أُناسٍ أُوتوا حُلومَ العَصَافيـ ـرِ فلم تُغْنِهم جُسُومُ البِغَالِ

أخذه من قول حسان بن ثابت ، وقال له بنو الديان الحارثيون : قد كنّا ونحن نطول بأجسامنا على العرب حتى قلت [1] :

دعوا[2] التَّخَاجُؤَ وامْشُوا مِشْيَةً سُجُحاً إنَّ الرجالَ ذوو قدٍّ [3] وتَذْكِير

لا بَأْسَ بالقومِ من طُولٍ ومن عِظَمٍ جِسْمُ البغالِ وأحْلامُ العَصَافِيرِ

فتركتنا لا نرى أجسامَنا شيئاً ، والعربُ تمدح الطول ، وتثنى عليه ، وقال عنترة بن شداد [4] :

بَطَلٌ كأنَّ ثِيَابَه فى سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعالَ السِّبْت لَيْس بتَوْأمِ

قوله : ليس بتوأم ، يريد ليس ممن زُوحم فى الرَّحمِ فضعف ، كما قال الشعبى ، وقد دخل على عبد الملك بن مروان ، فجعل ينظرُ إليه ، وكان الشعبى قد وُلد توأماً مع أخيه ، فكان نحيفاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى زُوحمت فى الرحم ، وقال :

ولما التقى الصفَّان واختلف القَنَا نِهالاً وأَسبابُ المنايا نِهالها

تبيَّن لِى أن القماءَةَ ذِلَّةٌ وأنّ أعزاءَ الرجال [5] طِوالُها

وقال أبو نواس [6] :

وكنا إذا ما الحائن [7] الجَدّ غرّهُ سنى بَرْقِ غادٍ[8] أو ضجيجِ رعَادِ

تَردَّى له الفضلُ بن يحيى بن خالدٍ بماضى الظُّبَى يَزْهاهُ طولُ نجاد

أمام خميس [9] أُرجوانٍ كأنهُ قميصٌ مَحُوكٌ من قناً وجِيَادِ

---

(١) ديوان حسان : ٢١٤ . (٢) فى الديوان : ذروا . التخاجؤ : التباطؤ فى المشى وقيل: التبختر . والمشية السجح : السهلة . (٣) فى الديوان : ذو عصب ، والعصب : شدة الخلق .
(٤) اللسان ــ مادة سبت . (٥) فى س : وأن أشداء الرجال . (٦) ديوانه : ٧٤ ، الكامل ٢ ــ ٩١ . (٧) فى الأصول : الخائن . (٨) فى الديوان : غاو .
(٩) فى ق : خمس .

ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبي قوله (١) :

وَمَلْمُومَةٍ زَرَدٌ ثَوْبُهَا ... وَلَـكِنَّهُ بِالْقَنَا مُخْمَلُ

* * *

رجع إلى كثير عزة

ودخل كثيّر على عبد العزيز بن مروان وهو عَليل ، وأهلُه يتمنَّوْن أَنْ يتبسم ، فقال : لولا أن سرورَكَ لا يتمّ بأَن تَسْلَمَ وأَسقم لدعوتُ اللهَ أن يصرف مابك إلىّ ، ولـكني أَسألُ اللهَ أيُّها الأمير العافيةَ لك ولى فى كَنَفِك ؛ فضحك وأمر له بمال ، فخرج وهو يقول :

ونعودُ سيِّدَنا وسيِّدَ غيرنا ... ليت التشكّى كانَ بالعُوَّادِ

لو كان تُقْبَلُ فِدْيَةٌ لفديتهُ ... بالمصْطَفَى من طارِفى وتِلادِى

نقد شعره

قال محمد بن سلام الجمحى (٢) قال أبى : ذاكَرْتُ مروان بن أبى حفصة شِعْرَ جرير والفرزدق وكثيّر ، فذهب إلى تقديم كثيّر ، وجعل يُطرِيه ويقول : هو أمدحهم للخلفاء . فقلت : أمِنْ جودة مدحه للخلفاء قوله لعبـــد الملك بن مروان :

ترى ابنَ أبى العاصى وقد صُفّ دُونهُ ... ثمانون ألفاً قد تَوافَتْ كُمولها

يقلِّب عينَىْ حيّة بمفَازَةٍ (٣) ... إذا أمكَنَتْه شِدّةٌ لا يُقِيلها

فقال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً ، وجعله يقلّب عينى حية .

وقوله :

وإن أميرَ المؤمنين هو الذى ... غزَا كامناتِ الودِّ منى فنالها

زعم أن أمير المؤمنين استعطفه حتى غَزَا كامناتِ صَدْرِه .

وقوله لعبد العزيز بن مروان (٤) :

---

(١) ديوانه : ٣ـ٧١ (٢) الموشح : ١٤٣ . (٣) فى الموشح : بمحارة .

(٤) الموشح : ١٤٣ .

وما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلّ ضِغْنى   وتخرج من مكامنها ضِبَابى
ويَرْقينى[1] لكَ الحاوون[2] حتى   أجابَك حَيّة تحت الحجاب

زعم أن عبد العزيز ترضّاه[3] واحتال له ورَقَاه، حتى أجابه : أكذا تُمْدَح الملوك؟ فأسْكَته.

فصول قِصار

من كان له من نَفْسِه واعظ كان من الله عليه حافظ. العبد حرّ إذا قَنع، والحرُّ عبدٌ إذا طمع. الأمانى تَخْدَعك، وعند الحقائق تَدَعك. إذا كان الطمعُ هلاكا كان اليأسُ إدراكا. ليس يُعَدُّ حكيما من لم يكن لنفسه خَصِيما. تعزَّ عن الشىء إذا مُنِعْتَه، بقلة ما يصحبك إذا منحته. تجرَّعْ مَضَضَ الصبر تطفئْ نار الضر. الحكمة حِفْظُ ما كلفت، وتَرْكُ ما كفيت. الصَّبْرُ عن محارِم الله أيْسر من الصبر على عذاب الله.

شذور لأهل العصر فى معان شتى

قطعة من كلام الأمير قابوس بن وَشْمَكير[4] شمس المعالى فى أثناء رَسَائله :
بزَنْد الشفيع تُورِى نار النجاح[5]، ومن كف المفيض يُنْتَظر فوز القِداح. الوسائل أقدام ذوى الحاجات، والشفاعات مفاتيح الطلبات. العفو عن المجرم من مُوجباب الكرم، وقبول المعذرة من محاسن الشِّيَم. وبالقوادم والخوافى قُوة النجاح[6]، وبالأسنة والعَوَالى عمل الرماح. الدنيا دار تغرير وخداع، وملتقى ساعةٍ

---

(١) فى ق، س : ويرزقنى.   (٢) فى الموشح : الراقون.
(٣) فى ق، س : تزكاه.   (٤) اليتيمة : ٤ـ٥٧.   (٥) فى اليتيمة : تورى القداح.   (٦) فى اليتيمة : الجناح.

لوداع ، والناس مُتَصرِّفون بين كل وِرد وصدَر ، وصائرون خبَراً بعد أثر . غايةُ كل متحرِّك إلى سكون ، ونهايةُ كل متكون ألاَّ يكون ، وآخر الأحياء فناء ، والجزع على الأموات عناء ، وإذا كان ذلك كذلك فلِمَ التهالك على الهالك . حَشْوُ الدهر أحزان وهموم، وصَفْوُه من غير كدر معدوم . إذا سمح الدهر بالحباء ، فأبْشر بوَشْك الانقضاء، وإذا أعار فاحسبه قد أغار. الدهر طعمان حلو ومرّ، والأيام ضربان عُسْر ويسر. لكل شيء غاية ومنتهى وانقطاع وإن بلغ المدى . ترْكُ الجواب داعيةُ الارتياب ، والحاجة إلى الاقتضاء كسوف فى وجه الرجاء . همّ المنتظر للجواب ثقيل ، والمدى فيه وإن كان قصيرا طويل . النجيب إذا جرى لم يشقّ غباره ، وإذا (١) سرى لم تلحق آثاره . ومن أيْنَ للضباب صَوْب (٢) السحاب ، وللغراب هُوِيُّ العقاب ، وهيهات أن تكتسب الأرض لطافة الهواء ، ويصير البدر كالشمس فى الضياء .

* * *

للثعالبى فى شمس المعالى

وقد ترجم عن شمس المعالى أبو منصور الثعالبى فى كتاب ألّفه له ؛ قال فى أوله : أمّا على أثر حَمْدِ الله الذى هو أوّلُ كتابه ، وآخرُ دعوى ساكنى دارِ ثوابه ، والصلاةِ على خِيرته من بريَّتِه ، وعلى الصَّفْوةِ من ذرِّيته ، فإنَّ خيرَ الكلامِ ماشغل بخِدْمَة مَنْ جمع اللهُ له عِزَّةَ الملك إلى بَسْطَةِ العلم ، ونورِ الحكمة إلى نفوذِ الحكم ، وجعله مميَّزاً على ملوكِ العصر ، ومدبِّرِى الأرض ووُلاة الأمر ، بخصائص من العَدْلِ وجلائلَ من الفضل ، ودقائقَ من الكرمِ المَحْضِ ، لا يدخلُ أيسرُها تحت العادات ، ولا يُدْرَكُ أقلُّها بالعبارات ؛ ومحاسنُ [سِيَر] (٣) الأيام تحرسها أسِنّةُ الأقلام ، وتدرسها ألسنةُ الليالى والأيام ، وهذه صفة تُغْنِى عن تشبيه الموصوف لاختصاصه بمعناها ، واستحقاقه إياها، واستئثاره على جميع الملوك بها ، ولعِلْم سامعها ببديهة السّماع أنها للأميرِ ، شمسِ المعالى ، خالصةً، وعليه مقصورة، وبه لائقة ، وعن

(١) فى اليتيمة : والشهاب إذا سرى . (٢) فى اليتيمة : صوت .

(٣) من س ، ق .

غَيْرِه نَافِرة ؛ إذ هو بمعاينة الآثار ، وشهادة الأخيار ، وإجماع الأولياء ، واتِّفاقِ (١) الأعداء ، كافلُ المجد ، وكافِي الخَلْق ، وواحدُ الدهر ، وغُرَّة الدنيا ، ومفزَع الوَرَى ، وحسَنةُ العالم ، ونُكْتَةُ (٢) الفلَكِ الدائر ؛ فبلّغه اللهُ أقصى نهايةِ العمر ، كما بلّغه أقصى غايةِ الفخر ؛ وملّكه أزِمّة الأمر ، كما ملّكه أعِنَّة الفضل ؛ وأدام حُسْنَ النظرِ للعباد والبلاد ، بإدامة أيامه التى هى أعْيادُ الدَّهْرِ ، ومواسم اليُمن والأَمْن ، ومطالع الخير والسَّعْدِ ، وزاد دولته شباباً ونموًّا ، كما زادهُ فى الشرف عُلوًّا ، حتى تكون السعاداتُ وَفْدَ بابه ، والبشائرُ قِرَى سَمْعِهِ ، والمسارّ غِذَاءَ نفسه ، ويترامَى به الإقبالُ إلى حيث لا يبلُغه أمل ، ولا يَقْطَعه (٣) أجل .

* * *

من النقد

نحا فى قوله ، وهذه صفة تُغْنى عن الموصوف ؛ إلى قول أبى الطيب يَرْثِى أُختَ سيف الدولة (٤) :

يا أُخْتَ خَيْرِ أخٍ يا بنْتَ خَيْرِ أبٍ ... كِنايةً بهما عن أشْرَفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أن تُسْمَى مُؤَنَّثَةً ... ومَنْ دَعاكِ (٥) فقَدْ سمَّاكِ للعَرَبِ

* * *

للميكالى فى شمس المعالى

وفى شمس المعالى يقول الأمير أبو الفضل الميكالى :

لا تعصِيَنْ شَمْسَ العُلَا قابوسا ... فمَن عَصَى قابوسَ لَاقَى بوسَا

وللبديع الزمان فيه

وله يقولُ بديعُ الزمان فى قصيدة نظمها فى تضاعيف رسالةٍ موشحة :

إنَّ مَنْ كنت من مُناه بمَرْأًى ... وتعدّاك سيِّئ الاقتراح
بَيْنَ بِشْرٍ يَرُدُّ غائِضَ جاهى ... وقبولٍ يُمِيد رِيشَ جَناحِى

(١) فى س : وإضعاف . (٢) النكتة : النقطة . (٣) فى س ، ق : ولا يضعهما . (٤) ديوانه : ١ — ٨٦ . (٥) فى الديوان : ومن يصفك .

وبساطٍ وردْتُ مَشْرَعة الأُنْ ... س به واَدَّرعْتُ بُرْدِ النجاحِ
فاقضِ أوْطارًا التقَتْ والمَعالِى ... فى نظامٍ من النُّهى وتَصاحِ(١)
ملك دُونَه تقطّع أبصا ... ر الليالى يَوْمًا ندًى وكِفاحِ
ملك لو يشاء مَدَّ على النَّجْ ... م رواقًا وردَّ وَفْدَ الرِّياحِ
تارةً فى خُشونةِ الدَّهْرِ تَلْقا ... هُوطوراً فى حُسْنِ ذاتِالوِشاحِ
ملك كلَّما بدَا تقفُ الأف ... لاكُ عُجْباً به وفَرْطَ ارْتياحِ
هكذا هكذا تكونُ المعالى ... طُرُق الجدِّ غَيْرُ طرق المزاحِ

وهى طويلةٌ ، كتبتها على طريق الاختيار .

رقعة من البديع إليه

رقعة لبديع الزمان إلى شمس المعالى ، وقد ورد حضرته(٢) :

لم تزَلِ الآمالُ ـ أطال اللهُ بقاء الأمير السيد شمس المعالى وأدام سلطانه ـ تَعِدُنى هذا اليوم، والأيامُ تمطُلنى بألسنةِ صروفِها، على اختلافِ صنوفها، بين حُلْوٍاسترقَّنى، ومرٍّ استخفَّنى(٣)، وشرٍّ صار إلىّ، وخيرٍ صِرْتُ إليه، وأنا فى خلال هذه الأحوال أَذْرَعُ(٤) الآفاقَ فأكون طوراً مَشْرِقاً للمشرق الأقصى ، وطوراً مَغْرِباً للمغرب ، ولا مَطْمَحَ إلّا حضرته الرفيعة ، وسُدَّته المَرِيعة(٥)، ولا وسيلةَ إلا المنزع الشّاسع ، والأَمل الواسع ؛ وقد صرت ـ أطال اللهُ بقاءَ الأمير مولانا ـ بين أنيابِ النوائب ، وتجشّمْت هَوْلَ الموارد ، وركبت أكْتافَ المكارِه ، ورضْتُ أخْلافَ العوائق ، ومسحت أطْراف المراحل ، حتى حضرت الحَضْرَة البهيّة أو كِدْتُ ؛ وبلغت الأُمنية أو زِدْت ، وللأمير السيد فى الإصغاء إلى الجد ، والبَسْطِ من عنان الفَضْل ، بتمكين خادمه من المجلس يَلْقاه بقَدَمه ، والبساط يَلْثِمُه بفمه ، تفضُّله ، فلهُ الرأْىُ العالى إن شاء الله .

للبديع إلى بعض الرؤساء

وله إلى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة وأمره أنْ يزفَّ إليه

---

(١) فى ق : ونصاح، وهذه من س . (٢) الرسائل : ٨٤ . (٣) فى س، ق: استحقنى، واستحقه : استوجبه . (٤) فى س ، ق : أربع. (٥) المريع: الخصيب .

ما أنشأه ، فبعث به وكتب إليه[1] :

مَرْحباً بسلام الشيخ سيّدى ومولاى أطال اللهُ بقاه ، ولا كالمَرْحَبِ[2] بطلْعته؛ وقد وصلت تحيّتُه فشكرتُها ، وعِدَتُه الجميلةُ بالحضورِ غدا فانتظرتُها ؛ ودعوتُ اللهَ أن يَطوِىَ ساعاتِ النهار ، ويزجّ الشمسَ فى المَغَار[3] ، ويُقرِّب مسافةَ الفلكِ الدوار ، ويرْفَع البركةَ من سيره ، ويجهز الحركةَ إلى دوره ؛ ويُسِرّنى بوَفْدِ الظلام وقد نزل ، ثم لم يَلْبَثْ إلّا ريثما رَحَل ؛ وقد بعثتُ بما طلب سمعاً لأمره وطاعة ، والنسخةُ أسقمُ من أجْفَانِ الغضبانِ ، والشيخ سيدى ـ أدام اللهُ عزّه ـ يرْكض قلمه فى إصلاحها ، وحبّذا هو فى غدٍ ، وقد طلع كالصبح إذا سطع ، والبرق إذا لمع :

يا مرحباً بغَـدٍ ويا أهلاً بهِ   إن كان إلمامُ الأحبَّةِ فى غدِ

للبديع إلى سهل بن محمد

وله إلى[4] أبى الطيب سهل بن محمد يسأله أن يصله بأبى إبراهيم إسماعيل بن أحمد : لو كان للكرم عن جَنابِ الشيخ مُنْصَرَفٌ لانصرَفْت ، أو لِلأمل مُنْحَرَف إلى سواه لانحرَفْت ، أو للنُّجْح بابٌ سواه لوَلَجْت ، أو للفضل خاطبٌ غيره لزوّجت ، ولكِنْ أبَى الله أنْ يعقدَ إلا عليه الخنصر ، أو يتحلّى إلا بفواضله الدهر ، ولا يزال كذا يتَّسِم المجدُ بسيمته ، ويجذب العلاءَ بهمّته ، ويُسْعِدُ الدينَ بنظره ، والدنيا بجاهه ، وغلامُه أنالو استعار الدهر لسانا ، واتّخذ الريح ترْجُمَانا ، ليُشِيع إنعامَه حقّ الإشاعة لقَصُرَتْ به يدُ الاستطاعة ، فليس إلا أن يلبس مكارمه ضافيةً سابغة ، ويرد مشارِعه صافيةً سائغة ، ويحيل الجزاء على يد قصور ، والشكر على لسان قَصير ؛ ثم إنَّ حاجتى ، إذا لم يَعْرَ من قلائدِ المجدِ نَحرُها ، ولم يَعْطَلْ من حَلْىِ المجدِ صَدْرُها ، كبر مَهْرُها ، وعَزَّ كفؤها ، ولم أجِد لها إلا واحداً أخْضَر الجلدة فى بيت العرب ، أو ماجداً يملأ الدّلو إلى عقد الكَرَب[5] . وهذه حاجةٌ أنا أزفّها إلى الشيخ الإمام حرس اللهُ

---

(١) رسائل البديع : ٩١ . (٢) فى الرسائل : ولا كالسرور بطلعته .

(٣) المغار والمغارة : الكهف ، وغارت الشمس : غربت . (٤) الرسائل : ٨٤ .

(٥) الكرب : الحبل يشد فى وسط العراقى ليلى الماء .

مُهْجَته ، وأَسْوقها منظومة من الصَّدْرِ إلى العجُز ، كما يساقُ الماء إلى الأرض الجُرُز[١] ؛ وأنا من مفتَتَح اليوم إلى مختَتَمِه ومن قَرْنِ النهار إلى قدمه قاعد كالكركى ، أو الديك الهِنْدى ، فى هذا الأُدْحِىّ[٢] ، يمرُّ بى أُولو الحلى والحلل ، ويجتاز ذوو الخيل والخَوَل[٣] ، وما أنا والنظر إلى ما لا يَليني[٤] ، والسؤال عما لا يَعْنيني ، واليوم ، لما افتضضنا عُذْرَة الصباح ، ملأتُ جفونى من مَنْظَرٍ ما أحوجه إلى عَيْبٍ يَصْرِفُ عَيْنَ كمالِه عن جمالِه ، فقلت لمن حضر : مَنْ هـذا ؟ فأخذوا يحرِّكون الرءوسَ استظرافاً لحالى ، ويتغامزُون تعجُّبا من سؤالى ، وقالوا : هذا الشيخُ الفاضل أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد ، فقلت : حرس اللهُ مُهْجَته ، وأدام غِبْطته ؛ فكيف الوصولُ إلى خِدْمَتِه ، وأنَّى مَأْتَى معرفته ؟ قالوا : إن الشيخ الإمام ـ أدام الله تأييده ـ يضربُ فى مودَّتِه بالقِدْحِ المعلَّى ، ويَأْخُذ فى معرفته بالحظِّ الأَعلى ، فإنْ رأى الشيخ ـ أطال الله بقاءه ـ أن تُجْعَل عنايتُه حَرْفَ الصلة ، وتفضّله لَامَ المعرِفَة ، فعل ، إن شاء الله .

[طرف من أخبار البرامكة]

يحيي وابناه

قال الرشيدُ ليحيي بن خالد : يا أبت ، إنى أردتُ أن أجعـلَ الخاتم الذى فى يد الفضل إلى جعفر ، وقد احتشمت منه فاكْفِنِيه .

فكتب إليه يحيي : قد أمر أميرُ المؤمنين ـ أَعْلَى اللهُ أمره ـ أن يحوِّل الخاتم من يمينك إلى شمالك .

فأجاب الفضل : قد سمعتُ ما قاله أمير المؤمنين فى أَخى ، وقد اطّلعت على أمره ، وما انقلَبَتْ عنى نِعمهٌ صارت إليه ، ولا عَزَبت[٥] عنى رتبةٌ طلعَتْ عليه .

فقال جعفر : لله أَخى ! ما أَنْفَسَ نفسه ، وأَبْيَنَ دلائلِ الفضل عليـه ، وأقوى

---

(١) الجرز ، بضمتين : الأرض لا تنبت شيئا .
(٢) الأدحى : مبيض النعام فى الرمل .
(٣) الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .
(٤) فى الرسائل : إلى ما يلهينى .
(٥) عزبت : بعدت .

مِنَّةَ العَقْل فيه[(١)] ، وأَوْسع فى البلاغة ذَرْعه ، وأَرْحب بها جنابه . يُوجب على نفسه ما يجب له[(٢)] ، ويَحْمِلُ بكرمه فوق طاقته .

بلاغة جعفر ومعرفته

وذُكِر جعفرُ بن يحيى فى مجلس ثمامة بن أشرس فقال : مارأيتُ أحداً من خَلْقِ الله كان أَبْسَط لسانا ، ولا أَلْحَن بحجّة ، ولا أقْدر على كلام، بنَظْمٍ حسنٍ ، وألفاظٍ عذبة ، ومَنْطقٍ فصيح، من جعفر بن يحيى، كان لا يتوقّف ، ولا يتحبَّس ، ولا يَصِلُ كلامَه بحشْوٍ من الـكلام ، ولا يُعِيدُ لفظا ولا معنى، ولا يَخْرُجُ من فنٍّ إلى غيره ، حتى يبلغ آخرَ مافيه ؛ وكان لا يرى شيئاً إلّا حكاه ، ولا يَحْـكى شيئاً إلّا كان أكثر منه ، ولا يمُرُّ بذهنه شىء[(٣)] إلا حفظه ؛ وكان إذا شاء أَضحك الثَّـكْلَى ، وأَذْهَل الزاهد ، وخشَّن قَلْبَ العابد .

قلت: فـكيف كانت معرفته ؟ قال : كان من أَعلم النـاس بالخبر الباهر ، والشعرِ النادر ، والمثل السائر ، والفصاحة التامة ، واللسان البسيط .

بلاغة يحيى وجعفر

قال سهل بن هارون ، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفرا ، فقال : لو كان الـكلامُ متصوّرا دُرًّا ، ويلقيه المنطق جَوْهرا ، لـكان كلامهما ، والمنتَقَى من ألفاظهما . ولقد غَبَرت[(٤)] معهما ، وأدْرَكْتُ طبقةَ المتـكلمين فى أيامهما ، وهم يرَوْن البلاغةَ لم تستَـكْمَلْ إلا فيهما ، ولم تـكُنْ مقصورةً إلا عليهما ، ولا انقادت إلّا لهما . وإنهما لَلُبابُ الـكرم ، عِتْقَ منظر ، وجودَةَ مَخْبَر ، وسهولةَ لفظ ، وجزالةَ منطق ، ونزاهةَ نفس ، وكمالَ خصال ؛ حتى لو فاخرتِ الدنيا بقليلِ أيامهما ، والمأثورِ من خصائصهما جميعَ أيامِ مَنْ سواهما من لَدُنْ آدم إلى أن يُنْفَخَ فى الصور ، ويُبْعَثَ أهلُ القبور ـ حاشا أنبياءَاللهِ الـكرام ، وسَلَفِ عباده الصالحين ـ لمـا باهت إلّا بهما ، ولا عَوَّلت فى الفخر إلا عليهما ، ولقد كانا مع تهذيب أخلاقهما ، ومَعْسُول مذاقهما،

---

(١) المنة : النعمة ، أما المنة ـ بضم الميم فهى القوة . (٢) فى س : ما يجب .

(٣) فى ق ، س : ولا يمر بذهنه شيئا . (٤) مكثت .

وسنا إشْراقهما ، وكمالِ خصالِ الخيرِ فيهما ، فى محاسن المأمونِ كالنُّقْطَة فى البحر ، والخَرْدَلة(١) فى القفْرِ .

من توقيعات جعفر وكلامه

ووقّع جعفرُ بن يحيى لرجلٍ اعتذر عنده من ذنب : قد قدُمت طاعَتُك، وظهرت نصيحتُك ، ولا تَغْلِبُ سيئةٌ حسنتين .

ووقع ــ وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطّه : الخطُّ خَيْطُ الحِكْمة ، يُنْظَمُ فيه منثورُها ، ويفصَّل(٢) فيه شذُورُها .

واختصم رجلان بحضرته ، فقال لأحدهما : أنت خَلِىّ ، وهذا شَجِىّ ؛ فكلامك يَجْرِى على بَرْدِ العافية ، وجوابُه يَجْرِى على حَرِّ المصيبة .

جعفر يثيب مروان بن أبى جعفر

ودخل مروان بن أبى حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده :

أبو الفضل سَبّاقُ الأَضَامِيم(٣) جَعْفَرُ ⠀⠀ أَبَرّ فما تَرْجُو الجِيادُ لَحاقهُ
أشار بما عنه الخلافةَ تَصْدُرُ ⠀⠀ وزيرٌ إذا ناب الخلافةَ حادثٌ

فقال جعفر : أنشدنى مرثيتك فى معن بن زائدة فأَنْشَدَهُ :

أَقَمْنَا باليمامة أو نَسِينا ⠀⠀ مقاماً ما نُرِيدُ به زَوالا
وقلنا أَيْنَ نذهبُ بعد مَعْنٍ ⠀⠀ وقد ذهب النَّوالُ فلا نَوالا
وكان النــاسُ كلُّهم لمَعْنٍ ⠀⠀ إلى أن زار حُفْرَتَهُ ــ عِيالا

حتى فرغ من القصيدة ، وجعفر يُرْسِل دموعَه على خدّيه ، فقال : هل أثابك على هذه المرثية أحدٌ من أهْلِ بيته وولده ؟ قال : لا ، قال : فلو كان معن حيًّا ، ثم سمعها منك ، كم كان يُثيبك عليها ؟ قال : أربعمائة دينار ، قال : فإنّا كنّا نظنّ أنه لا يَرْضَى لك بذلك ، وقد أمرنا لك عن مَعْن ــ رحمه الله ــ بالضّعف مما ظننته ، وزِدْناك مثلَ ذلك ؛ فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تخرج . فقال مروان ــ يذكر جعفراً وما سمح به عن معن :

---

(١) الخردل : حب شجر . (٢) فى س : ويفضل . (٣) الإضامة : الجماعة .

نَفَحْتَ مكافئاً عن جُودِ مَعْنٍ ... لنا فيما تَجُودُ به سِجَالا
فعجَّلْتَ المطيـةَ يابْنَ يحيى ... لناد بهِ ولم تَرِدِ المِطَالا[1]
فكافأ عن صَدَى مَعْنٍ جَوادٌ ... بأَجْوَدِ راحـةٍ بَذَلَتْ نوالا
بَنَى لك خالدٌ وأبوك يحيى ... بناءً فى المـكارمِ لَنْ يُنالا
كأنَّ البرمكىّ لـكلِّ مالٍ ... تجودُ به يداه يُفيد مالا

***

شىء من النقد

أخذ هذا من قول زهير[2] :

تَرَاهُ إذَا ما جئْتَه مُتَهَلِّلاً ... كأنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِى أَنْتَ سائِلُهْ

وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها[3] :

وَذِى نِعْمَةٍ تَمَّمْتَها وشكرتَها ... وخَصْمٍ يكادُ يغلِبُ الحقَّ باطلُهْ
دفعتَ بمعروفٍ من الحقِّ صائبٍ ... إذا ما أَضلَّ القائلين مَفَاصِلُه[4]
وذِى خَطَلٍ فى القول يَحْسَبُ أَنهُ ... مُصِيبٌ فما يُلْمِمْ به فهو قائلُه
عَبَأْتُ له حلما[5] وأكرمتُ غيرَهُ ... وأعرضتُ عنهُ وهو بادٍ مَقاتِلُهْ
وأبيضَ فيّاضٍ يَدَاهُ غَمامَةٌ ... على مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ نَوَافِلُهْ
غَدَوْتُ عليـه غُدْوَةً فرأَيْتُهُ ... قُعُوداً لَدَيْهِ بالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُفَدِّينَهُ طَوْراً وطَوْراً يَلُمْنَهُ ... وأعْيَا فمـا يَدْرِينَ أينَ مَخاتِلُه
فأعْرَضْنَ عنه عن كريم مُرَزَّإٍ[6] ... جَمُوحٍ على[7] الأمرِ الذى هو فاعلُهْ
أَخِى ثِقَةٍ لا يُذْهِبُ الخمرُ مالَهُ ... ولـكنّه قد يُذْهِبُ المالَ نائِلُه

قال أبو الفرج قُدامة بن جعفر ، فى معنى أَبيات زهير الأولى[8] ؛ لمـا كانت فضائلُ الناسِ من حيث هم ناس، لا من طريقِ ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ،

---

(١) المطال : التسويف . (٢) ديوانه : ١٤٣ . (٣) ديوانه: ١٣٨ .
(٤) فى ق : معاضله . (٥) فى الديوان : حلمى . (٦) فى ق : مدرإ .
(٧) فى ق : عن . (٨) العمدة: ٢ـ١٢٥ ، نقد الشعر ٣٩

على ما عليـــه أهلُ الألباب من الاتّفاق فى ذلك ، إنما هى العقلُ والعفةُ والعَدْلُ والشجاعة ، كان القاصد للمَدْح بهذه الأربعة مُصِيبا وبما سواها مخطئاً . وقد قال زهير :

أَخِى ثقةٍ لا يُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ ولـكنه قد يُهْـلِكُ المالَ نَائِلُه

فوصفه بالعفَّة لقلةِ إمعانه فى اللذات ، وأنه لا يُنْفِد فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاك ماله فى النوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العدل ، ثم قال :

تراه إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلا كأنّك تُعْطِيهِ الذى أنتَ سائِلُهْ

فزاد فى وَصْفِ السخاء بأنه يهش ولا يلحقه مضَضٌ ولا تَـكَرُّهٌ لِفِعْله . ثم قال :

فمن مثل[1] حِصْنٍ فى الحروب ومِثْلُه لإنْـكَارِ ضَيْمٍ أو لأمْرٍ يُحَاوِلُهْ

فأتَى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ؛ فاستوفى ضروبَ المدحِ الأربعة التى هى فضائلُ الإنسان على الحقيقة ، وزاد الوفاءَ ، وإن[2] كان داخلا فى الأربعة ؛ فـكثير من الناس لا يعلم وَجْهَ دخوله فيها حيث قال : أخى ثقة ، فوصفه بالوفاء ؛ والوفاء داخلٌ فى هذه الفضائل التى قدّمناها .

وقد يتفنَّنُ الشعراء فيعدّون أنواعَ الفضائل الأربع وأقسامها، وكلٌّ ذلك داخلٌ فى جملتها؛ مثل أَن يذكروا ثقابَةَ المعرفة ، والحياءَ ، والبيانَ ، والسياسة ، والصَّدْعَ بالحجَّة ، والعلم ، والحلم عن سفاهة الجَهَلَة ؛ وغير ذلك مما يَجْرِى هذا المجرى ، وهو من أقسام العقل .

وكذكرهم القناعة ، وقلّة الشَّرَهِ[3] ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك أيضاً من أقسام العفَّة . وكذِكْرِهم الحماية ، والأَخْذَ بالثَّار ، والدفاع ، والنِّـكاية ، والمهابة ، وقَتْلَ

---

(١) فى ط : فذلك حصن ... (٢) فى العمدة : وزادها ما هو وإن .

(٣) فى العمدة : وقلة الشهوة .

الأَقران ، والسير فى المَهَامِه والقفار ؛ وما يشا كلُ ذلك، وهو من أقسام الشجاعة ؛ وكذِ كَرْمِهم السماحة ، والتَّغابن [(١)] ، والانظلام [(٢)] ، والتبرّع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقِرَى الأضياف ؛ وما جانس هذه الأشياء ، وهو من أقسام العدل .

فأمّا تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبرُ على الملمات ، ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعود [(٣)] . وعن تركيب العقل مع السخاء إنجازُ الوعد ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب العقل مع العفة التنزه والرغبةُ عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الإخلاف ، والإتلاف ، وما أشبه ذلك . وعن تركيب الشجاعة مع العفّة إنكارُ الفواحش ، والغيرةُ على الحُرَم . ومن السخاء مع العفة الإسعاف بالقوت ، والإيثارُ على النفس ، وما شاكل ذلك . وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وَسَطٌ بين طرفين مذمومين .

ابن مناذر يمدح البرامكة

وقد قال أبو جعفر محمد بن مناذر لما حجَّ الرشيد مع البرامكة :

أتانا بنو الأملاك مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ... فيا طِيبَ أخْبارٍ ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
لهم رِحْلةٌ فى كلِّ عام إلى العِـدَا ... وأُخْرَى إلى البيتِ العتيقِ المشهّرِ
فتُظْلِم بغدادٌ ويَجْـلو لنا الدُّجَا ... بمكّةَ ما حَجُّـوا ثلاثةُ أقْمُرِ
إذا نزلوا بطحاءَ مكة أشرقَتْ ... بيَحْـيَى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فمـا خُلِقَتْ إلّا لجودٍ أكفُّهم ... وأقدامُهم إلّا لأعْوادِ منْبَرِ
إذا راضَ يحيى الأمر ذَلَّتْ صِعابُهُ ... وحَسْبُك مِن راعٍ له ومدبِّرِ
ترى النـاسَ إجلالًا له وكأنهم ... غَرانِيق ماءٍ تحت بازٍ مُصَرْصِرِ [(٤)]

---

(١) أصل التغابن : أن يغبن بعضهم بعضا . (٢) الانظلام : تحمل الظلم .

(٣) فى س ، ق : بالأوعاد . (٤) الغرانيق ، جمع غرنوق : وهو طائر مائى أسود وقيل أبيض ، والبازى : الصقر . والمصرصر : الصائح صياحا شديدا .

[طرف من التجنيس]

للميكالى قطعة من شعر الأمير أبى الفضل الميكالى فى طَرف أخذ بطرف من التجنيس مستطرف فى ضروب من الغزل(١) ، قال :

لقد راعنى بَدْرُ الدُّجا بصدوده ... ووَكَّلَ أجفانى برَعْىِ كَوا كِبه
فيا جزَعى ، مَهْلًا عساهُ يعودُ لى ... ويا كَبِدى صَبْراً على ما كَواكَ به

وقال :

مواعيدُه فى الفَضْل أحلامُ نائم ... أُشَبِّهُها بالقَفْرِ أو بِسَرابِهِ
فمَنْ لى بوَجْهٍ لو تَحيَّرَ فى الدُّجا ... أخُو سَفَرٍ فى ليلِ غَيْمٍ سَرَى بِهِ

وقال :

صِلْ محبًّا أعياه وَصْفُ هواهُ ... فضَناه يَنُوبُ عن ترجُمانه
كلما راقَهُ سِوَاكَ تصدَّتْ ... مقلتاهُ بدمعه تَرْجُمانِه(٢)

وقال :

ياذا الذى أرسل من طَرْفِهِ ... علىّ سَيْفاً قدَّنى لو فَرَا
شفاء نفسى منك تخميشةٌ ... تَغْرِس فى خدّك نَيْلَوْفَرَا(٣)

وقال :

يا مُبْتَلًى بضناهُ يَرْجُو رحمةً ... من مالكٍ يشفيه من أَوْصَابِهِ
[أوصاكَ سِحْرُ جفونه بتسهُّد ... وتبلّد ، فقبلت ما أَوْصَى به](٤)
اصبر على مضَضِ الهوى فلربّما ... تَحْلُو مرارةُ صبرهِ أو صابهِ

وقال :

كتبت إليه أستهدى وِصالًا ... فعلّلنى بوَعْدٍ فى الجواب

---

(١) اليتيمة ٤ــ٣٤٠ . (٢) فعل مضارع من رجم . (٣) ضرب من الرياحين .
(٤) من س ، ق .

ألَا ليت الجوابَ يكون خيراً　　فيطفئ ما أَحاط من الجوَى بى

وقال :

إنْ كنتَ تأنَسُ بالحبيبِ وقُرْبِهِ　　فاصْبِر على حُكْمِ الرقيبِ ودارِهِ

إنَّ الرقيبَ إذا صبرت لحكمِهِ　　بوَّاك فى مَثْوَى الحبيبِ ودَارِهِ

وقال :

شكوتُ إليه ما أُلاقِى فقال لى :　　رُوَيداً ، ففى حُكْمِ الهوَى أنْتَ مُؤْتَلى

فلو كان حقًّا ما ادَّعيت مِنَ الهوَى　　لقلّ بما تلقى إذاً أنْ تموتَ لى

وقال :

نَوَى لى بعد إِكثارِ السؤال　　حبيبٌ أنْ يُسامحَ بالنَّوَالِ

فلما رُمْتُ إِنجازاً لوعدى　　عليه أَبى الوفاءَ بما نوَى لى

وكان القربُ منه شفاءَ نفسى　　فقد قَضَتِ النوائبُ بالنَّوَى لى

وقال :

سقياً لدهرٍ مضَى والوصلُ يجمَعُنَا　　ونحنُ نحكِى عِناقا شَكل تَنْوِينِ

فصِرْتُ إذ عَلِقَتْ كفّى حَبَائِلكُم　　فسهْمُ هجرك تَرْمِى ثم تَنْوِينى

وقال(١) :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلِهِ　　فجفَا رُقَادِى إذْ صَدَفْ

ونثرت لؤلؤ أدمُعٍ　　أضْحَى لها جَفْنى صَدَفْ

وقال :

يا مَنْ يقولُ الشعرَ غَيْرَ مهذّبٍ　　ويَسُومُنى التعذيبَ فى تهذيبِهِ

لو أنّ كلَّ النَّاس فيك مُساعِدى　　لعجزت عن تهذيبِ ما تَهْذِى بِهِ

وقال :

أراد أنْ يُخْفِى هَوَاه وقَدْ　　نمَّ بما تُخْفِى أَسَارِيرُهُ

---

(١) اليتيمة : ٤–٣٤٣ .

وكيفَ يُخفى داءَه مُدنَفٌ | قد ذابَ من فَرْطِ الأسَى رِيرُه[(١)]

وقال[(٢)] :

ومهفهف تَهْفُو بِلُبْ | بِ المرءِ مِنْه شَمائِلُ
فالرِّدْفُ دِعْصٌ هائلٌ | والقدُّ غُصنٌ مائلُ
والخدّ نورُ شقائقٍ | تنشقُّ عنــه خمائلُ
والعَرْفُ نَشْرُ[(٣)] حَدائقٍ | تمّت بهنَّ شمَائِلُ
والطَّرْفُ سَيْفٌ ماله | إلا العِـذار حَمائِلُ

للبستى

ولأبى الفتح البستى فى هذا المذهب :

إن لى فى الهوى لِسَاناً كَتُوماً | وجَناناً يخفى حَريقَ جَواهُ
غير أنّى أخافُ دَمْعِى عليهِ | ستراه يُفْشِى الذى ستَرَاهُ

ولأبى الفتح البستى فى مذهب هذا البيت الأخير :

نَاظِرَاه فيما جَنَى نَاظِرَاهُ | أَوْدَعانى أَمُتْ بِمـا أَوْدَعانى

وله :

خُـذِ العفوَ وأْمر بعُرْفٍ كما | أُمِرت وأَعْرِض عن الجاهلينْ
ولِنْ فى الـكلام لـكلِّ الأنام | فمستَحسَنٌ من ذوى الجاه لِينْ

وله :

إلى حَتْفِى سَعَى قَدَمِى | أَرَى قَدَمى أراقَ دَمِى
فما أنفَكُّ من نَدَمِى | وليس بنافعى نَدَمِى

وله[(٤)] :

إنْ هزَّ أقلامَه يوماً ليُعْمِلَها | أنساكَ كلَّ كَمِىٍّ هزَّ عامِلَهُ

---

(١) الرير : ذائب المخ . (٢) اليتيمة ٣-٣٤١ . (٣) فى اليتيمة : مثل حدائق.

(٤) اليتيمة : ٤-٢٩١ .

وإن أقرَّ[1] على رَقٍّ أناملهُ ... أقرَّ بالرِّق كتّابُ الأنام له

وقال لمن استدعاه إلى مودّته :

فديتك قلَّ الصديقُ الصَّدُوق ... وقلّ الخليـلُ الخفيُّ[2] الوفى

ولِى راغبٌ فيك إمّا وفيت ... فهل راغبٌ أنت فى أنْ تَفى

وللأمير أبى الفضل : ولَلميكالى

أهلًا بظَـبْى حواهُ قَصْر ... كجنَّةٍ قد حَوَتْ نعيما

طَرَقْته لا أهاب سوءًا ... أباحَـنِى حبّـه الحريما

فجاد مَنْ فيـه لى براحٍ ... تَنفِى حريقًا به قديمًا

أفدِى حريقًا أباح رِيقًا ... لا بَلْ حَرِيمًا أباح رِيمًا

وله[3] :

مَنْ لى بشَمْلِ المُـنَى والأُنْس أجْمَعهُ ... بشادِنٍ حَلَّ فيـه الحسْنُ[4] أجمُعُهُ

ما زال يُعْرِضُ عن وَصْلى وأخدعهُ ... فالآن قد لَانَ[5] بعـد الصدِّ أَخْدَعه

وقال :

بأَبِى غزَالٌ نام عَنْ وَصَبى[6] به ... ومُراقِ دَمْعِى للنَّوَى وصَبيبهِ

يا لَيتـه يرْثِى على وَلَهِى بهِ ... لغرامِ قَلْبِى فى الهوَى ولَهِيبهِ

وله فى هذا الباب من غير هذا النمط يصف غلاماً مخمورا خمش وجهه[7] :

هَبْهُ تَغيَّرَ حائلا عن عَهْدِه ... ورَمى فؤادى بالصدود فأَزْعَجا

ما بالُ نَرْجسِهِ تحوَّلَ وردةً ... والوردُ فى خدَّيه عاد بَنَفْسَجا

وله فى هذا المعنى :

وريمٍ على السُّكْرِ خَمّشته ... بقَرْصٍ بعارضِه أَثَّرا

(١) فى اليتيمة : أمر . (٢) فى س ، ق : الخفى . (٣) اليتيمة : ٤—٣٤٣ .
(٤) فى اليتيمة : الأنس أجمعه . (٥) فى اليتيمة : لى لان .
(٦) الوصب : المرض . (٧) اليتيمة : ٤—٣٤١ .

فأصبح نَرْجِسُه وردةً ووردةُ خدَّيْهِ نَيْلوفرا

وقال فى وصف العِذار :

ظَبْىٌ كَساَ رَأْسَ الشبابِ بِعارضٍ نَمَّ العِـذارُ بحافَتَيْه فَلَاحاَ[١]

فـكأنما أَهْدَى لعارضِ خـدِّهِ شعرى ظَلاماً واستعاضَ صَبَاحا

وقال فى غلام افتصد[٢] :

ومُهفْهفٍ غرس[٣] الجما لُ بخدِّه رَوْضاً مَرِيعا[٤]

فَصَدَ الطبيبُ ذِراعَهُ فجرى له دَمْعِى ذريعا[٥]

وأمسّنى وقعُ الحديـ ـدِ بعِرْقهِ أَلَماً وَجيعاً

فأَريته من عَبْرتى ماسال من دَمِهِ نجيعاَ[٦]

فِقر فى ذكر العلم والعلماء

العلماء ورثةُ الأنبياء . العلماء أعلامُ الإســلام . العلماء فى الأرض كالنجوم فى السماء .

ابن المعتز ــ العلماء غرباء ، لـكَثْرَةِ الجهل . وله : العلمُ جمالٌ لا يخفى ، ونَسَب لا يُجفَى . وله : زَلَّةُ العالم كانـكِسار سفينةٍ تَغْرق ويَغْرق معها خَلْقٌ كثير .

غيره ــ إذا زلّ العالم زَلَّ بزلَّتِه عالَم . غيره : الملوكُ حُـكّامٌ على النـاس ، والعلماء حكام على الملوك . من لم يحتمل ذلَّ التعلم ساعة ، بقى فى ذلّ الجهل أبداً . ماَصِينَ العلمُ بمثل بَذْله لأهله . من كتم علماً فـكأنه جاهلُه . العلمُ يمنعُ أهله أَن يمنعوه أهله .

أبو الفتح كشاجم :

---

(١) لاح : ظهر . (٢) اليتيمة ٤ــ٣٤١ . (٣) فى اليتيمة : أبدى الجمال .
(٤) المريع : الخصيب . (٥) الذريع : الشفيع والسريع . (٦) النجيع : من الدم : ما كان إلى السواد ، أو دم الجوف .

لا تمنع العلم امرءًا والعلمُ يمنعُ جانبَهْ
أما الغبيّ فليس يفـ ـهم لُطْفَهُ وغرائبهْ
وتكون حاضرةُ الفوا ئد عنـده كالغائبه
وأخو الحصافة مُسْتَحِـ ـقٌ أَنْ ينالَ مَطالِبه
فبحقّه أعطيتهُ مِنْ فَضْلِ عِلمك واجبه

ومن رقّ وجهُه عند السؤال ، رقّ عِلمُـه عند الرجال . علم بلا عمل ، كشجرة بلا ثمر . كما لا يُنْبِتُ المطرُ الكثير الصَّخْرَ ، كذلك لا ينفعُ البليدَ كثرة التعلم . من ترفّـع بعلمه وضَعَه اللهُ بعمله . الجاهلُ صغيرٌ وإن كان كبيراً ، والعالم كبيرٌ وإن كان صغيرا . من أكثر مذاكرةَ العلماء ، لم ينس ماعلم ، واستفاد ما لم يعلم .

ابن المعتز : المتواضعُ فى طلاب العلم أكثرهم عِلْما ، كما أن المكان المنخفِضَ أكثر البقاع ماء . إذا علمت فلا تَذْكُرْ مَن دونك من الجهال ، واذكُرْ مَنْ فوقَك من العلماء . النارُ لا يُنْقِصُها ما أُخذَ منها، ولكن يُنْقِصُها ألاَّ تجد حطباً ، كذلك الْعلمُ لا يُفْنِيه الاقتباسُ منه ؛ وفَقْدُ الحاملين له سببُ عدمه . مات خزنة الأموال وهم أحياء ، وعاش خُزّانُ العلم وهم أموات . مثَلُ عِلْم لا ينفع كـكنز لا يُنْفَقُ منه. أزهد الناس فى عالم جيرانُه .

وقيل للصلت بن عطاء وكان مقدّماً عند البرامكة : كيف غلَبت عليهم وعندهم مَنْ هو آدَبُ منك ؟ قال : ليس للقُرَباء ظَرافة الغُرَباء ، وكنت امرءًا بعيدَ الدار ، نائى المَزار ، غريبَ الاسم ، قليلَ الجرم ، كثير الالتِواء ، شحيحاً بالإملاء ؛ فرغَّبهم فىَّ رغبتى عنهم ، وزهّدنى فيهم رغبتُهم فىَّ .

علم لا يَعْبُرُ معك الوادى ، لا يعمر بك النَّادى . لو سكت مَنْ لا يعلم لسقط الاختلاف . إذا ازدحم الجوابُ خَفِى الصواب . الغلط تحت اللَّغط . خرق الإجماع خرق . المحجوج بكلّ شىء ينطق .

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

دخل أبو تمام الطائى على أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس حكمه ، وأنشده أبياتا يستَمْطِرُ نائلِه ، وينشر فضائله ، فقال : سيأتيك ثوابُها يا أبا تمام ، ثم اشتغل بتوقيعات فى يده ؛ فأَحفظ ذلك أبا تمام ، فقال : احضر أيدك الله فإنك غائب ، واجْتَمِعْ فإنك مفترق ، ثم أنشده :

إنَّ حَرَاماً قبـولُ مِدْحَتِنا ... وتَرْكُ ما نرْتَجِى من الصَّفَدِ (١)

كما الدنانيرُ والدراهمُ فى الصَّرْ ... فِ حرامٌ إلا يَداً بِيَدِ

فأمر بتوفير حِبَائه ، وتعجيل عطائه .

ولما ولى طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراء يهنئونه ، وفيهم تمام ابن أبى تمام فأنشده :

هُنَاكَ رَبُّ الناسِ هنّاكا ... ما من جزيلِ الملك أعطاكا

قرَّتْ بما أُعطِيت ياذَا الحجى ... والبأسِ والإنعامِ عَيْنَاكا

أشرقتِ الأرضُ بمـا نِلتَهُ ... وأوْرَقَ العودُ بجَدْوَاكا

فاستضعف الجماعةُ شعره ، وقالوا : يا بُعدَ ما بينه وبين أبيه ! فقال طاهر لبعض الشعراء : أَجبه فقال :

حيّاكَ ربُّ الناسِ حيَّاكا ... إن الذى أمَّلْتَ أخطاكا

فقلتَ قولا فيــه مازانهُ ... ولو رأى مَدْحا لآساكا

فهاكَ إن شئتَ بهــا مدحةً ... مثل الذى أَعطيتَ أَعْطَاكا

فقال تمام : أعز الله الأمير ، إنّ الشِّعْرَ بالشعر رِباً ، فاجعل بينهما صنجاً من الدراهم (٢) ، حتى يحلّ لِى ولك ! فضحك وقال : إلا يكن معه شعرُ أبيه ، فمعه ظرف أبيه ؛ أعطوه ثلاثة آلاف درهم ! فقال عبد الله بن إسحاق : لو لم يعط إلا لقول أبيه

---

(١) الصفد : العطاء .	(٢) هكذا فى كل الأصول .

فى الأمير أبى العباس رحمه الله ــ يريد عبد الله بن طاهر[١] :

يقولُ فى قُومِسٍ[٢] صَحْبِى وقد أخذَتْ ... منّا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ[٣]

أمطلعَ الشمس تبغى أن تَؤُمَّ بنا ... فقلتُ : كلاَّ ، ولكن مطلعَ الجودِ

فقال : ويعطى بهذا ثلاثة آلاف .

[ولاية طاهر خراسان]

وكان سببُ ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدَّث به أبو العيناء قال : كنا عند أحمد بن أبى دواد ، فجاء الخبر أنّ الكتبَ وردت على الواثق من خراسان بوفاة عبدالله ابن طاهر ، وأن الواثق يعزَّى عنه ، وأنه قد ولّى مكانه خراسان إسحاق بن إبراهيم ، وكان عدوًّا له لانخراطِه فى سِلْكِ ابن الزيات ؛ فلبس ثيابَه ومضى ، وقال : لا تبرحوا حتى أعودَ إليكم ؛ فلبث قليلا ، ثم عاد إلينا فحدّثنا أنه دخل على الواثق فعزّاه عن عبد الله وجلس ، قال : فقال لى الواثق : قد وَلّينا إسحاق خراسان ، فما عندك ؟ قلت : وفق الله أمير المؤمنين ولا ندمّه . قال : قلْ ماعندك فى هذا . قلت : أمرٌ قد أُمضِى ، فما عسيت أن أقولَ فيه . قال : لتفعلنّ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، خراسانُ منذ ثلاثين سنة فى يد طاهر وابنه ، وكلُّ مَنْ بها صنائعهم ، وقد خلف عبد الله عشرَ بنين أكثرُهم رجال ، وجميعُ جيش خراسان لهم عبيدٌ أو موال أو صنائع[٤] ، وسيقولون : أمَا كان فينا مُصْطَنَع؟ وكان يجب أن يجرّبَنا أميرُ المؤمنين ، فإن وَفَيْنَا بما كان يَفِى به أبونا وجدُّنَا ، وإلّا استبدلَ منا بعد عذرٍ فينا ؛ ويقدم خراسانَ إسحاق وهو رجل غريب فينافسه هؤلاء ، ويتعصّب أهلها لهم ؛ فينتقض ما أُبْرِمَ ، ويفسد ما أُصلح .

---

(١) أخبار أبى تمام ٢١٢ . (٢) قومس : صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

(٣) المهرية : إبل تنسب إلى مهرة بن حيدان . القود : جمع أقود أو قوداء : الذلول المنقاد .

(٤) فى س : عبد أو مولى أو صنائعه .

قال : صدقت يا أبا عبد الله ، والرأى ما قلت ؛ اكتبوا بعهد طاهر بن عبد الله على خراسان . فكتبت كتبُ طاهر، وحُرقت كتب إسحاق، فخرجت الزنج تطيرُ بها، ثم لقينى إسحاق داخلا فقلت : يا أبا الحسن ، لا عدمت عداوةَ رجلٍ أزال عنك ولاية خراسان بكلمة .

* * *

رجع إلى الاستعارات الفقهية

ومدح ابن الرومى أبا العباس بن ثوابة ، فعارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة يمدح أخاه بها فقال ابن الرومى[1] :

أَلَيْسَ القَوَافِى بَنَاتِ الْفَتَى ... إذا صورَةُ الحقِّ لم تُمْسَخِ
فلا تَقْبَلَنَّ أَمَادِيحَهُ ... حَرامٌ نِكاحُ بَنَاتِ الْأَخِ

قصيدة أبى تمام فى المعتصم

ولما أنشد أبو تمام قصيدته فى المعتصم : * السيف أصدق أنباء من الكتب * قال له : لقد جلوت عروسك يا أبا تمام فأحسنت جلاءها . قال : يا أمير المؤمنين ، والله لو كانت من الحُورِ العِين لكان حُسْنُ إصغائك إليها من أَوْفَى مهورِها .

للميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

أَقول لشَادِنٍ فى الحُسْنِ أضْحَى ... يَصِيدُ بلَحْظِهِ قَلْبَ الكَمِىِّ
ملكت الحسنَ أجمعَ فى قوام ... فأدِّ زكاةَ منظرك البَهِىّ
وذلك أَن تجودَ لمُسْتَهَامٍ ... بريقٍ من مُقَبَّلِك الشَّهِىّ
فقال : أبو حنيفة لى إمامٌ ... فعندى لا زكاةَ على الصَّبِىِّ

وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى فقال :

أقول لشَادنٍ فى الحسن فَرْدٍ ... يصيد بلَحْظِهِ قَلْبَ الجليدِ
ملكتَ الحسن أجمعَ فى قوام ... فلا تَمْنَع وجوباً عن وُجودِ
وذلك أنْ تجودَ لمستهامٍ ... برَشْفِ رُضَابِك العذْبِ البَرودِ

---

(١) ديوانه : ٢ـ١١٩ .

فقال : أبو حنيفة لِي إمامٌ فعندى لا زكاة على الوالِدِ

وقال :

بنفسِي غزالٌ صار للحُسْنِ قبلةً يُحَجُّ من البيت العتيق ويُقصَدُ
دعانى الهوَى فيه فلبَّيتُ طائعا وأحْرَمْتُ بالإخلاص والسَّعْيُ يُشْهَدُ
فطرفىَ بالتسهيد والدمع قارنٌ وقلبى عليهِ بالصبابة مُفْرَدُ

وقال أبو الفتح كشاجم : ا ـ كشاجم

فَدَيْتُ زائرةً فى العيد واصِلةً والهَجْرُ فى غَفْلَةٍ من ذلك الخبرِ
فلم يزل خدُّها رُكْناً أطوف بهِ والخالُ فى خدّها يُغنى عن الحجَرِ

وينضاف إلى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبى نصر ابن المرزبان[1] : للبديع

كتابى أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم[2] ، والحمد لله رب العالمين ، كيف تقلَّبُ الشيخ فى درْع العافية ، وأحوالُه بتلك الناحية ؟ فإنى بِبُعْدِه مُنغَّص شِرْعة[3] العيش ، مقصوص أجنحة الأُنس . ورد كتابهُ المشتملُ من خبر سلامته على ما أرغب[4] إلى الله فى إدامته ، وسكنتُ إليه بعد انزعاجى لتأخُّره ؛ وقد كان رسم أن أعرِّفه سببَ خروجى من جرجان ، ووُقوعى بخُراسان ، وسببَ غضبِ السلطان ؛ وقد كانت القصةُ أنى لما وردتُ من ذلك السلطان حضرتَه ، التى هى كَعْبَةُ المحتاج ، لا كعبةُ الحجّاج ، ومستقرُّ[5] الكرم ، لا مَشْعَر الحرم ، وقِبلَة الصِّلات لا قِبْلَة الصلاة ، ومُنَى الضَّيف ، لا مِنى الخَيْفِ ، وجدت بها نُدَمَاء من نبَات العام[6] ، اجتمعوا قيضَةَ كلْب[7] على تلفيق خَطْب ، أزعجنى عن ذلك الفِناء ، وأشرفَ بى على الفَناء ،

---

(١) رسائل البديع ٩٦ . (٢) فى الرسائل : متألم . (٣) فى الرسائل : شريعة .
(٤) فى الرسائل : ما رغبت . (٥) فى الرسائل : ومشعر الكرام لامشعر الحرام. والمشعر الحرام: بالمزدلفة . (٦) من نبات العام : يريد أنهم حديثو عهد . (٧) قيضة كلب : القيضة بالكسر : القطعة الصغيرة من العظم . والمراد تحقيرهم بوصفهم بعظام الكلب .

لولا ما تَدارَكَ اللهُ بجميل صُنْعه ، وحُسْنِ دَفْعه ؛ ولا أَعلم كيف احتالُوا ، ولا ما الَّذى قالوا ؛ وبالجملة[١] غيَّرُوا رَأْىَ السلطان ، فأشار علىَّ إخوانى بمفارقةِ مكانى ، وبقيتُ لا أَعلم أيَمنةً أضْرِبُ أم شآمة ، ونَجْدا أَقصد أم تِهامة !

ولو كنت فى سَلْمى أَجا[٢] وشِعابها لكان لحجَّاجٍ علىَّ دَلِيلُ

وقد علم الشيخُ أنَّ ذلك السلطانَ سماءٌ إذا تغيّم لم يُرْجَ صَحْوُه ، وماءٌ إذا تغيّر لم يُشْرَبْ صَفْوُه ، وملك إذا سَخِط لم يُنتظر عَفْوُه ، وليس بين رِضاه والسخط عَوْجَة[٣] ، كما ليس بين غَضَبه والسيف فرْجة ، وليس من وراء سُخْطِه مجاز ، كما ليس بين الحياةِ والموت معه حِجاز ؛ فهو سيِّدٌ يُغْضِبه الجُرْمُ الخَفِىّ ، ولا يُرْضيه العذرُ الجَلِىّ ؛ وتكفيه الجناية وهى إرجاف ، ثم لا تَشْفيه العقوبةُ وهى إجحاف ، حتى إنه ليرى الذنبَ وهو أَضيقُ من ظلِّ الرمح ، ويَعْمَى عن العُذْرِ وهو أَبْيَنُ من عمود الصُّبْح ؛ وهو ذو أُذُنَيْن يسمعُ بهذه القولَ وهو بُهتان ، ويحجُبُ عن هذه العذرَ وله برهانٍ ؛ وذو يَدَيْن يبسُط إحداهما إلى السَّفْكِ والسَّفْحِ ويقبِضُ الأخرى عن العفو والصَّفْح . وذو عينين يفتحُ إحداهما إلى الجُرْم ، ويُغمِضُ الأخرى عن الحِلْم ، فمَزْحُه بين القدِّ والقَطْع ، وجِدُّه بين السيف والنِّطْع[٤] ، ومُراده بين الظهور والكُمونِ ، وأمْرُه بين الكاف والنون . ثم لا يَعْرِفُ مِن العقاب غير ضَرْبِ الرقاب ، ولا يهتدى من التأنيب إلا لإزالة النِّعم ، ولا يعلم من التأديب غيرَ إراقة الدّم ، ولا يحتملُ الهَنَة[٥] على حَجْمِ الذرَّة ، ودِقَّةِ الشعرة ، ولا يحلُم عن الهَفْوَة كوَزْنِ الهَبْوَة ، ولا يُغضِى عن السَّقْطَة كجِرْمِ النُّقْطَة ؛ ثم إنّ النقمَ[٦] بين لَفْظِه وقلمه ، والأرضَ تحت يدِه وقدمه ، لايلقاه الولىّ إلا بفمه ولا العدوّ إلا بدَمِه[٧] ؛ والأرواح

---

(١) فى الرسائل : لكن الجملة أن غيروا السلطان . (٢) أجأ وسلمى : جبلان .
(٣) فى الرسائل : عرجة . (٤) النطع — بالكسر ويفتح : بساط من الأديم .
(٥) الهنة : الشىء اليسير . (٦) فى الرسائل : النعم .
(٧) فى ق : إلا بفمه ، ولا العدو إلا بدمه .

بين حَبْسه وإطلاقه ، كما أنّ الأجسام بين حلّه ووَثاقه[1] ؛ فنظرتُ فإذا أنا بين جُودَين : إما أن أَجودَ بيأسى ، وإمّا أن أَجودَ برأسى ؛ وبين رُكُوبَين : إمّا المفازة ، وإمَّا الجنازة . وبين طريقين : إمّا الغُرْبة ، وإمّا التربة . وبين فِراقَين : إمّا أن أُفارق أرْضِى ، أو أُفارق عرضى . وبين راحلتين : إمّا ظهور الجمال ، وإمّا أَعْناق الرجال ؛ فاخترتُ السماح بالوَطَن ، على السماح بالبَدَن ؛ وأنشدت :

إذا لم يكُنْ إلّا المنية مَرْكبٌ فلا رَأْىَ للمحمول إلا ركوبُها

ولّد ما ذكر من كعبة [المحتاج لا كعبة][2] الحُجّاج ، من قول أبى تمام :

بيتان حجَّهُما الأَنام فهذهِ حجُّ الغَنِىِّ وتِلكمُ لِلمُعْدِمِ

[أبو علىّ البصير وشىء من أدبه]

أدبه — وشتم بعضُ الطالبيين أَبا علىّ الفضلَ بن جعفر البصير ، فقال أبو علىّ : والله مانَعْيَا عن جوابك ، ولا نَعْجز عن مَسابّك ؛ ولكنّا نكونُ خيراً لِنَسَبِك منك ، ونحفظ منه ما أَضعْتَ ؛ فاشكُرْ توفيرَنا ما وفَّرْنا منك ، ولا يغُرنَّك بالجهل علينا حِلمُنا عنك .

وسأل أبو على البصير بعضَ الرؤساء حاجةً ولقيه ؛ فاعتذر إليه من تأخّرها ؛ فقال أبو علىّ : فى شُكرِ ما تقدّم من إحسانك شاغلٌ من استبطاء ما تأخَّر منه .

من شعره — وأبو علىّ[3] أحد مَنْ جمع له حظُّ البلاغة فى الموزون والمنثور ، وهو القائلُ :

أَلمَّت بنا يوْمَ الرحيلِ اختلاسة فأَضْرَمَ نيرانَ الهوى النَّظَرُ الخَلْسُ
تأبَّت قليلا وهى تُرعَدُ خيفةً كما تتأبَّى حين تعتَدِل الشمسُ
نخاطبها صَمْتِى بما أنا مُضمِرٌ وأَنبَسْتُ[4] حتى ليس يُسْمَعُ لى حِسٌّ

---

(١) الوثاق — بالفتح ويكسر : ما يشد به . (٢) ساقط من ط .

(٣) اللآلى : ٢٧٦ . (٤) النبس : أقل الكلام ، والذى فى اللسان : نبس ، كضرب ، ونبس بالتشديد أيضا .

وولَّت كما ولَّى الشباب لِطيَّةٍ طوَتْ دونها كَشْحاً على يأسها النفسُ

وقال يصف بلاغةَ الفتح بن خاقان وشعره :

سَمِعْنَا بأشعار الملوكِ فكلُّها إذا عَضَّ مَتْنَيْه الثِّقافُ (١) تأوَّدَا
سوى ما رأينا لِامْرِئِ القيس، إننا نراه متى لم يَشْعُر الفَتْحُ أوْحَدا
أقام زماناً يَسْمَعُ القولَ صامتاً ونحسبه إزراماً أكْدَى (٢) وأصْلَدا
[فلما امتطاه راكبا ذلّ صعبُه وسار فأضحى قد أغار وأنْجَدَا] (٣)

والفتح بن خاقان يقول :

وإنى وإياها لكالخَمْرِ والفتى متى يستَطِع منها الزيادةَ يَزْدَدِ
إذا ازدَدْتُ منها زادَ وَجْدِى بقُرْبِها فكيف احتراسِى مِنْ هوًى متجدّدِ

كتابه إلى عبيد الله بن يحيى

وكتب إلى أبى الحسن عبيد الله بن يحيى : وإن أميرَ المؤمنين لمَّا اسْتخلَصَك لنفسه ، وائْتَمنك على رعيّته؛ فنطق بلسانك ؛ وأخذَ وأعطى بيدك ، وأوْرد وأصْدَر عن رأيك ، وكان تفويضُه إليك بعد امتحانِه إياك، وتَسْليطه الحقّ على الهوى فيك ، وبعد أن مثّل بينك وبين الذين سَمَوْا لمَرْتبتك ، وجرَوْا إلى غايتك ، فأسقطهم مَضَاؤُك، وخَفُّوا فى ميزانك ، ولم يزدك ــ أكرمك اللهُ ــ رفعة وتشريفا إلا ازددتَ له هيبةً وتعظيما ؛ ولا تسليطا وتمكينا ، إلا زِدْتَ نفسك عن الدنيا عُزوفاً وتنزيها ؛ ولا تقريبا واختصاصا ، إلا ازدَدْتَ بالعامة رأفةً وعليها حَدَبا ، لا يخرجك فَرْطُ النصح له عن النظر لرعيّته ، ولا إيثارُ حقّه عن الأخذ بحقّها عنده ، ولا القيامُ بما هو له عن تضمينِ ماهو عليه ، ولا يشغلك مُعَاناة كِبارِ الأمور عن تفقُّد صغارِها، ولا الجدُّ فى صلاح ما يَصْلُحُ منها عن النظر فى عواقبها ؛ تُمْضِى ما كان الرَّشَدُ فى إمضائه ، وتُرْجِئُ ما كان الحَزْمُ فى إرجائه ، وتبذُلُ ما كان الفضلُ فى بَذْله ، وتمنعُ

---

(١) الثقاف : ما تسوى به الرماح . (٢) يقال حفر فأكدى : صادف الكدية وهى الصفاة العظيمة الشديدة . (٣) ساقط من ط .

ما كانت المصلحةُ فى مَنْعِه ، وتَلِين فى غير تـكبُّر ، وتَخصّ فى خير مَيل ، وتعمُّ فى غير تصنّع ، لا يَشقَى بك المحقُّ وإن كان عدوّا ، ولا يَسْعَدُ بك المبطلُ وإن كان وليّا ؛ فالسلطان يعتدّ لك من الغَناء والـكِفَاية ، والذّبّ والحياطة ، والنُّصح والأمانة ، والعِفّة والنزاهة ، والنصَب [1] فيما أدّى إلى الراحة ، بما يراك معه ، حيث انتهى إحسانُه إليك ، مستوجبا للزيادة. وكافةُ الرعية إلا من غَمِطَ [2] منهم النِّعْمة ، مُثْنُونَ عليك بحُسْنِ السيرة ، ويُمْنِ النقيبة ، ويَعُدُّونَ من مآثرك أنك لم تُدْحِض لأَحدٍ حُجَّة ، ولم تدفع حقّا لشُبْهَـة ؛ وهذا يسيرٌ من كثير ، لو قصدنا لتفصيله ، لأَنْفَدْنا الزمانَ قبل تحصيله ، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه .

وله إلى عبيد الله بن يحيى : يقطعنى عن الأَخْذِ بحظّى من لقائك ، وتعريفك ما أنا عليه من شُكرِ إنعامك ، وإفرادى إياك بالتأميل دونَ غيرك ، تخلُّفى عن منزلة الخاصّة ، ورغبتى عن الحلول مَحَلَّ العامة ؛ وأنى لستُ معتاداً للخِدْمَةِ ولا الملازمة ، ولا قويًّا على الغَادَاةِ والمُرَاوَحة ؛ فلا يمنَعْك ارتفاعُ قَدْرِك ، وعلوُّ أمرك ، وماتعانيه من جلائل الأَحوال الشاغلة ، من أَنْ تتطوَّل [3] بتجديد ذِكرى ، والإصغاء إلى مَنْ يحضُّك على وَصْلى وبِرّى ، ويرغّبك فى إسداء حُسْنِ الصنيعةِ عندى . وله إليه أيضا

وله إليه آخر فصل من كتاب : وأنا أسألُ الله الذى رَحِمَ العبادَ بك ، على حين افتقار منهم إليك ، أن يُعيذهم من فَقْدِك ، ولا يُعيدهم إلى المـكاره التى استنقذتَهم منها بيدك . دعاء بليغ

[الباعث على الرحيل]

ولقى رجلٌ رجلا خارجا من مِصْرَ يريد المَغرِب فقال : ياأخى ! أَتَتَّـبِعُ القَطْرَ ، وتَدَعُ مَجْرَى السيول ؟ فقال : أخرجنى من مصر حَقٌ مُضَاع ، وشُحٌّ مُطَاع ، وإقتار

(١) النصب : التعب . (٢) غمط النعمة : كضرب وسمع ــ بطرها وحقرها .
(٣) تطول : امتن .

الـكريم ، وحركةُ اللئيم ، وتغيُّر الصديق ، بين السعة والضِّيق ، والهربُ إلى النَّزْرِ بالعز خيرٌ من طلب الوَفْرِ بذُلِّ العَجْزِ .

[الوصايا فى السفر]

بعض الحـكماء لصديق

وأوصى بعضُ الحـكماء صديقا له وقد أرادَ سفرا فقال : إنك تدخُلُ بلداً لاتَعْرِفُه ولا يعرِفُـك أهلُه ؛ فتمسَّكْ بوصيتى تنفق بها فيه : عليك بحُسْنِ الشمائل ، فإنها تدلُّ على الحرية ؛ ونقاءِ الأطراف فإنها تشهد بالملوكية ؛ ونظافة البِزَّة ، فإنها تنبئُ عن النَّشءِ فى النِّعمة ؛ وطيب الرائحة ، فإنها تظهرُ المروءة ، والأدب الجميل ، فإنه يكسب المحبة . وليـكنْ عقلُك دون دِينك ، وقولُك دون فِعْلك ، ولباسُك دون قَدْرِك ، والزَم الحياءَ والأَنفَة ؛ فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة ، وإن أَنِفْتَ عن الغلبة لم يتقدمْكَ نظيرٌ فى مرتبة .

أعرابى يوصى فى السفر

قال الأصمعى : سمعتُ أعرابيا يُوصِى آخرَ أراد سفراً ؛ فقال : آثِر بعملك مَعَادَك ، ولا تَدَعِ لِشَهْوَتِك رَشادَك ، وليـكُنْ عقلُك وزيرَك الذى يَدْعُوك إلى الهدى ويجنِّبك من الرَّدى ، واحْبِس هواك عن الفواحش ، وأطْلِقه فى المـكارم ؛ فإنك تبرّ بذلك سَلَفك ، وتَشِيد به شرفَك .

أعرابيـة توصى ابنها

وأوصت أعرابية ابنَها فى سفر ، فقالت : يابنى ؛ إنك تجاورُ الغرباء ، وترْحَلُ عن الأصدقاء ، ولعلّك لا تَلْقَى غيرَ الأَعداء ؛ فخالِط الناسَ بجميل البِشْر ، واتَّقِ اللّهَ فى العَلَانية والسرّ .

بعض الملوك لحـكيم

وقال بعضُ الملوك لحـكيم وقد أراد سفراً : قِفْنى على أشياء من حِكْمتك أعْمَلْ بها فى سفرى . فقال :

اجعل تأنّيك أمام عَجَلَتِك ، وحِلْمَك[1] رسولَ شِدَّتك ، وعفوَك مالِكَ قدرتك ،

---

(١) فى س : وحيلتك.

وأنا ضامنٌ لك قلوبَ رعيَّتك، ما لم تُحْرِجْهم بالشـدةِ عليهم، أو تُبْطِرْهم بالإحسان إليهم.

أعرابية توصي ولدها

وقال أبان بن تغلب(١): شهدت أعرابيةً تُوصِي ولداً لها أراد سفرا وهى تقول: أى بنى! اجلس أمْنَحْك وصيتى، وبالله توفيقُك، قال أبان: فوقفت مستمعا لكلامها، مستحسنا لوصيّتها، فإذا هى تقول: أى بنى! إياك والنميمة، فإنها تزْرَعُ الضغينة، وتفرِّق بين المحبّين، وإياك والتعرض للعيوبِ فتُتَّخذ غَرَضاً، وخليقٌ ألاَّ يَثْبُتَ الغرضُ على كَثْرَةِ السهام؛ وقلَّما اعتورَتِ السهامُ غَرَضا إلاّ كَلَمَتْه، حتى يَهِى(٢) ما اشتدَّ من قُوَّته؛ وإياك والجودَ بدينك، والبخلَ بمالك؛ وإذا هزَزْتَ فاهزُزْ كريما، يَلِنْ لِهِزَّتك؛ ولا تَهْزُز اللئيمَ، فإنه صخرةٌ لا يتفجَّرُ ماؤها، ومثِّل بنفسك مثالَ ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه؛ فإن المرءَ لا يرى عَيْبَ نفسه؛ ومن كانت مودَّته بشره، وخالف منه ذلك فِعله، كان صديقُه منه على مِثْلِ الريح فى تصرّفها.

ثم أمسكت، فدنوتُ منها، فقلت لها: بالله يا أعرابية، إلاّ مازِدْته فى الوصية. قالت: أو قد أعجبك كلامُ العرب يا حَضَرى؟ قلت: نعم! قالت: الغَدْرُ أقبح ما تعاملَ به الناسُ بينهم، ومَنْ جمع الحِلْمَ والسخاءَ فقد أجادَ الحُلّة رَيْطتَها وسِرْبالها.

فقر فى مدح السفر

أبو القاسم بن عبـاد الصاحب: الخبر المنقول أنَّ المقبوضَ غريبا شهيد. وفى الحديث: سافروا تَغْنَموا. السفرُ أحدُ أسباب العيش التى بها قِوامه، وعليها

(١) الأمالى ٢ـ٧٩. (٢) يضعف.

نِظَامه[١] . إنَّ اللهَ لم يجمَعْ منافعَ الدنيا فى الأرض ؛ بل فرَّقها وأحوجَ بعضها إلى بعض . المسافرُ يسمعُ العجائب ، ويَكسبُ التجارِبَ ، ويَجْلِبُ المكاسب . الأسفارُ مما تَزِيدك علما بقدرة الله وحِكْمته ، وتدعوكَ إلى شكر نعمته . ليس بينك وبين بلدٍ نَسَب ؛ فخيرُ البلاد ما حملك . السفرُ يُسْفِر عن أخلاق الرجال . أَوحِشْ أَهلَك إذا كان فى إيحاشهم أُنْسُك ، واهْجُرْ وطَنَك إذا نبَتْ عنه نفسك . ربما أَسفر السفر عن الظَّفَر ، وتعذَّر فى الوطن قضاءُ الوطَر ، وأنشد :

ليس ارتحالُك تَرْتَادُ الغِنَى سفراً ... بل المُقام على خَسْفٍ هو السفرُ

وهذا كقول الطائى[٢] :

وما القَفْرُ بالبِيدِ الفضاءِ[٣] بَلِ الّتى ... نَبَتْ بى وفيهَا سا كِنُوهَا هِىَ الْقَفْرُ

أخذه المتنبى فقال[٤] :

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا ... أَلاَّ تُفَارِقَهُم فَالرَّاحِلونَ هُمُ

نقيض ذلك فى ذم السفر والغربة

فى الحديث : إنَّ المسافرَ وماله لعَلَى ، قلت : إِلّا ما وَقى الله ؛ أى على هلاك . شيئان لا يعرِفُهما إلا من ابتُلى بهما : السفرُ الشاسع ، والبناءُ الواسع . السفرُ والسقمُ والقتال ثلاث[٥] متقاربة ، فالسفرُ سفينة الأَذى ، والسقمُ حَرِيقُ الجسد، والقتالُ منْبتُ المنايا . إذا كنت فى غير بلدك فلا تَنْسَ نصيبك من الذّل . الغربةُ كُرْبة . النّقلَةُ مثلة . الغريب كالغَرْسِ الذى زايل أَرْضَه ، وفَقَد شربه ، فهو ذَاوٍ لا يُثْمِر ، وذابلٌ لا ينضر . الغريبُ كالوحْشِ النائِى عن وطنه ، فهو لكل سَبعٍ فَرِيسةٌ ، ولكل رامٍ رَمِيّة ؛ وأنشد :

---

(١) فى الحديث : لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر . إن الله بالمسافر رحيم — هامش س . (٢) التبيان ٣—٣٧٢ . (٣) فى التبيان : القواء .

(٤) ديوانه : ٣—٣٧٢ (٥) فى س : أثلاث .

لَقربُ الدار فى الإقتار خَيْرٌ   من العيش الموسَّع فى اغتراب ِ

وقال أبو الفتح البستى[١] :

لا يعدَم المرءُ شيئاً[٢] يستمينُ بهِ   ومنعة[٣] بين أَهْليه وأصحابهْ
ومن نَأى عنهمُ قلَّتْ مَهَابتهُ   كالليثِ يحقرُ لمّا غاب[٤] عن غابهِ

[بعد العزل والإبعاد والحجب]

كتاب إلى المهدى — كتب أبو عبيد الله إلى المهدى بعد عَزْلِه إياه عن الدواوين : لم يُنْكِر أميرُ المؤمنين حالى فى قُرْبِ المؤانسة وخصوصِ الخلطة وحالِى عنده قَبْلَ ذلك فى قيامى بواجب خِدْمَته ، التى أَدْنَتنى من نِعمته ، فلم أُبدّل — أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين — حال التبعيد ، ويقرّب فى محلّ الإقصاء ، وما يعلمُ اللهُ منى فيما قلت إلاَّ ماعلمه أميرُ المؤمنين ، فإن رأى أكرمه الله أن يُمَارِض قولى بعلمه بدءًا وعاقبةً فعل إن شاء الله .

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه ، فقال : ظلمنا أبا عبيد الله ، فليردّ إلى حاله ، ويعلم ما تجدّد له من حُسْن رأيى[٥] فيه .

كتاب إلى المأمون — ولمـا أمر المأمونُ أن يُحْجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألَّم[٦] قلبُه منه كتب إليه :

يا أميرَ المؤمنين ! لم يُنْسِنِى التقريبُ حالى أيامَ التبعيد ، ولا أغفلتنى المُؤانسةُ عن شكر الابتداء ؛ فعلى أىِّ الحالين أبعد من أمير المؤمنين ، ويَلْحَقنى ذمُّ التقصير فى واجب خدمته ؟ وأميرُ المؤمنين أَعْدَلُ شهودى على الصِّدْق فيما وصَفْت ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين ألّا يكتم شهادتى فَعل إن شاء الله .

بين المنصور وأبى مسلم — وقال أبو جعفر المنصور لأَبى مسلم حين أَزْمَع قَتْلَه : هل كنتَ قبل قيامك

---

(١) اليتيمة : ٤ـ٣٠٨ .   (٢) فى اليتيمة : كنا يستكن به .
(٣) فى اليتيمة : ومتعه .   (٤) فى اليتيمة : إما غاب .   (٥) فى س : رأى .
(٦) فى س : ألم .

بدولتنا جائزَ الأمْرِ على عَبْدين ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين . قال : فلِمَ لَمْ تَعرِضْ حالَىْ عُسْرتك ومَهانتك على أيامنا ، وتعرف لنا مايَعْرِفُ غيرُك من إجلالنا وإعظامنا ، حتى لا ينازعك الحين عِنان الطمأنينة ؟ قال : قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين ، ولكنَّ الزمانَ وإساءته قَلَبا ما كان من حُسْنِ صنيعتى . قال : فلا مرغوبَ فيك ، ولا مأسوفَ عليك ، وفى الله خَلَفٌ منك ! وأمر بقتله .

جملة من شعر أبى الفتح كشاجم فى الأوصاف

وصف أجزاء من القرآن

قال يصف أجزاء من القرآن :

مَنْ يَتُبْ خشيةَ العقابِ فإنى ... تُبْتُ أُنسًا بهذه الأجزاءِ
بَعَثَتْنى على القراءة والنُّسْـ ... ـك وما خِلْتُنى مِنَ القرّاءِ
حين جاءت تَرُوقنى باعتدالٍ ... من قُدودٍ وصيغةٍ واستواءِ
سبعة أَشْبَهَت لىَ السبعةَ الأنـ ... ـجم ذاتَ الأنوار والأضواءِ
كُسيت[1] من أديمها الحالِكِ اللَّوْ ... نِ غِشاءً ، أَحْبِبْ به من غِشاءِ
مشبها صبغة الشَّبابِ ولمّا ... تِ العَذارى ولِبْسة الخطباءِ
ورأت أنها تُحسنُ بالضـ ... ـدِّ فتاهَتْ بحِلْيةٍ بيضاءِ
فهى مسودّةُ الظهور وفيها ... نورُ حقٍّ يَجْلُو دُجى الظَّلْماءِ
مطبقات على صحائفَ كالرَّيْـ ... ـط[2] نُخيِّرْنَ مِنْ مُسوكِ الظِّباءِ
وكأنَّ الخطوطَ فيها رياضٌ ... شاكِراتٌ صنيعةَ الأنواءِ
وكأنَّ البياضَ والنُّقطَ السُّو ... دَ عبيرٌ رشَشْتَهُ فى مُلاءِ
وكأن العشورَ والذَّهب السا ... طع فيها كواكبٌ فى سماءِ
وهى مشكولةٌ بعدَّةِ أشكا ... لٍ ومقروءةٌ على أنحاءِ

(١) فى س : كسبت .

(٢) الريطة : كل ملاءة ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، وجمعه ريط .

فإذا شئتَ كان حمزةُ فيها ... وإذا شئت كان فيها الكِسائى
خُضْرة فى خلالِ حُمرٍ[1] وصُفْرٍ ... بين تلك الأضعاف والأثناء
مثل ما أثّر الدَّبيبُ من الذَّرِّ على جِلْدِ بَضَّةٍ عَذْراء
ضُمِّنت مُحْكَمَ الكتابِ كتاب الله ذى المكرُمات والآلاء
فحقيقٌ علىَّ أنْ أتلوَ القر ... آنَ فيهن مُصْبِحى ومَسائى

وصف تخت

وقال يصفُ التخت الذى يُضْرَب عليه حِساب الهند :

وقلمٍ مِدادُهُ تُرابُ ... فى صُحُفٍ سُطُورُها حِسابُ
يَكْثُرُ فيها المَحْوُ والإضرابُ ... من غير أنْ يسوّد الكتابُ
حتى يبينَ الحقُّ والصواب ... وليس إعجامٌ ولا إعرابُ
فيه ولا شكٌّ ولا ارتيابُ

وصف بركار

وقال يصف بَرْكاراً استهداه :

جُدْ لى ببركارك الذى صنَعَتْ ... فيه يَدَا قَيْنِهِ الأعاجيبا
ملتئم الشُّعبتَيْن معتدلٌ ... ماشِينَ من جانبٍ ولاعِيَبا
شخصان فى شكْلٍ واحد قدرا ... ورُكِّبا بالعقولِ تركيبا
أشبه شيئين فى اشتكالهما ... بصاحبٍ لا يزالُ مصحوبا
أُوثِقَ مسماره وغُيِّب عن ... نواظر الناقدين تغْييبا
فعَيْنُ مَنْ يجتَليه يحسبُهُ ... فى قالب الإعتدال مَصْبوباَ
قد ضَمَّ قُطْرَيْه مُحْكِماً لها ... ضَمَّ مُحِبٍّ إليه محبوبا
يزداد حِرْصا عليه مُبصِره ... ما زاده بالبَنانِ تَقْليبا
ذو مُقْلَةٍ بصّرته مَنسبة ... لم تَألُهُ رِقَّةً وتهذيبا
ينظرُ فيها إلى الصوابِ فما ... بها يزالُ الصوابُ مطلوبا
لولاه ماصحَّ خطُّ دائرةٍ ... ولا وَجَدْنَا الحسابَ محسوبا

---

(١) فى س ، ق : جهد .

[الحقّ فيـه فإن عَدلت إلى ... سواه كان الحسابُ تقريبا][1]
لَوْ عَيْنُ إقليدسٍ به بَصُرتْ ... خرَّ لهُ بالسجودِ مكبوبا
فابعَثْهُ واجْنُبه[2] لى بمِسْطَرةٍ ... تُلْفِ الهوَى بالثنـاءِ مَجْنُوبا

وقال يصف بيكاتا[3] :

وصف بيكات

روحٌ من الماءِ فى جِسْمٍ من الصُّفْرِ ... مولّد[4] بلطيف الحِسّ[5] والنظرِ
مستعبرٌ لم يَغِبْ عن طَرْفِهِ سكَنٌ ... ولم يَبِتْ من ذوى ضِغْنٍ على حَذَرِ
له على الظهرِ أجفان محجّرةٌ ... ومقلةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ
تُنْشَا[6] له حركاتٌ من أسافلهِ ... كأنها حركاتُ المـاءِ فى الشجرِ
وفى أعاليه حسبانٌ يُفصِّـلهُ[7] ... للنـاظرين بلا ذِهْنٍ ولا فـكرِ
إذا بكى دارَ فى أحشائه فلَكٌ ... جافى[8] المسير وإن لم يَبْكِ لم يَدُرِ
مُترجمٌ عن موَاقيتٍ يخبِّرُنا ... بها فيوجَدُ فيهـا صادق الخبرِ
تُقْضَى به الخمسُ فى وَقْتِ الوجوب وإن ... غَطَّى على الشمس سِتْرُ الغَيْمِ والمَطَرِ
وإنْ سَهِرْتُ لأوقاتٍ تؤرِّقنى ... عرفتُ مقـدارَ ما أَلْقَى من السَّهَرِ
مُحَدِّدٌ[9] كلَّ ميقات تخيّرَهُ ... ذَوُو التَّخيُّر للأَسفَار والحَضرِ[10]
ومخرجٌ لكَ بالأجزاء أَلْطَفها ... من النهار ، وقوسُ الليـلِ والسَّحَرِ
نتيجة العـلمِ والتفكير صورَتهُ ... يا حبَّـذا أبْدع الأفـكارِ فى الصورِ

وقال يصفُ اسطرلابا :

وصف اسطرلاب

ومستديرٍ كجِرْمِ البَدْرِ مَسْطوحٍ ... عن كلِّ رافعةِ الأَشكال مَصْفُوحِ

---

(١) ساقط من ط . (٢) أصل جنبه : قاده إلى جنبه . (٣) نهاية الأرب : ١ـ١٥٥ . وفيه انه يصف طرجهارة ، وقال : هى من الآلات التى تعرف بهاالساعات .
(٤) فى النويرى : مؤلف . (٥) فى س ، ق: الحسن . (٦) فى س ، ق : ينشى .
(٧) فى النويرى : حساب مفصلة . (٨) فى النويرى : خافى .
(٩) فى س ، ق : مجدد . (١٠) فى النويرى : للأسباب والسفر .

صُلْب يُدَارُ على قُطْب يثبّتهُ ... تمثالُ طرف بشكر الحذقِ مَكْبُوحِ
ملء البنَان وقد أَوْفَتْ صفَائحهُ ... على الأقاليم من أقْطَارِها الفِيحِ (١)
تُلفى به السبعةَ الأفلاكَ مُحْدِقَةً ... بالمـاء والنارِ والأرْضِين والرِّيحِ
تُنْبيك عن طائح الأبْرَاجِ هيئته ... بالشمس طَوْرًا وطَوْرًا بالمصابيح
وإن مضَتْ ساعة أو بعض ثانيـةٍ ... عرفْتَ ذاكَ بعلمٍ فيـه مَشْرُوحِ
وإنْ تعرّض فى وقتٍ يُقدّرهُ ... لكَ التشكُّكُ جـلاَّهُ بتصحيـحِ
مميز فى قياساتِ الضـلُوع بهِ ... بين المشائم منهـا والمنَاجيح (٢)
له على الظهر عَيْنَا حِكْمةٍ بهما ... يَحْوى الضِّياء وتنجيه من اللوح
وفى الدواوين من أَشْـكاله حِكَمٌ ... تنقّح العقلُ فيهـا أىّ تَنْقِيح
لا يستقلُّ لمـا فيـه بمعرفةٍ ... إلّا الحصيفُ اللطيفُ الحِسّ والرُّوحِ
حتى ترى الغيبَ فيه وهو مُنْغَلِقُ الْـ ... أبْوابِ عمَّنْ سِوَاهُ جدّ مفتوح
نتيجة الذهنِ والتفكير صوّرَهُ ... ذَوُو العقولِ الصحيحاتِ المَرَاجيحِ

***

الصابى يهـدى اسطرلابا

وكان أبو شجاع فنَاخَسْرو عَضُد الدولة قد نـكب أَبا إسحاق الصـابى ، على تقدُّمه فى الـكتابة ، ومكانِه فى البلاغة ، واستَصْفَى أمواله من غير إيقاعٍ به فى نفسه ، فأهدى إليه فى يَوْمِ مهرجان اسطرلابا فى دَور الدرهم ، وكتب إليه :

أَهْدَى إليكَ بنوالحاجاتِ واحتشدوا ... فى مهرجانٍ عظيمٍ أَنْتَ تُعْلِيهِ
لـكنّ عبدَكِ إبراهيم حين رأى ... سُمُوَّ قَدْرِكَ عن شىء يُسَامِيهِ
لَم يَرْضَ بالأرض يُهْدِيها إليكَ فقد ... أَهْدَى لك الفلكَ الأَعْلَى بما فيهِ

***

(١) الفيح : الواسعة ، جمع أفيح أوفيحاء .

(٢) المناجيح : جمع منجح ، أى صار ذا نجح .

[بعض أوصاف النساء]

وقول أبى الفتح[1] : « ملء البنان... ... » البيت نظير قول على بن العباس الرومى يصف هَن امرأة :

يَسَعُ السبعة الأقاليم طُرًّا ... وهو فِى أصبعين مِنْ إقليمِ
كضميرِ الفُؤادِ يَلْتَهِمُ الدُّنْـ ... ـيَا وتَحْوِيه دفّتا حَيْزومِ[2]

وإنما أخذه ابن الرومى من قول بعض الشعراء يذكر كاتباً :

فى كَفِّه أخْرَس ذُو مَنْطقٍ ... بقافهِ واللام والميمِ
شِبْرٌ إذا قِيسَ ولكنهُ ... فى فِعْلِهِ مِثْلُ الأقاليم
محذّف الرَّأْسِ ومسودُّهُ ... كإبرة الرَّوْقِ مِنَ الرِّيمِ[3]

وهذا البيت الأخير مقلوب من قول عدى بن الرقاع العاملى ، وقد وصف قَرْنَ ريم وشبهه بقلم عليه مداد وذكر ظبية[4] :

تُزْجِى أغَنَّ كأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ... قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وقَلْبُ المعنى إذا تمكَّن الشاعرُ من إخفائه يَجْرِى فى السَّرقَةِ[5] .

تشبيه الأوراك

وقد ترى تكثيرَ الشعراءِ من تشبيه أوراكِ النسوان بالرَّملِ والكُثْبَان ، قال الشاعر :

وبيض نَضِيرات الوجوه كأَنما ... تأزَّرْنَ دُون الأُزْرِ رملاتِ عالِجِ[6]
خِدَالَ الشَّوى لا تحتشى غير خَلْقها ... إذا الرُّسْحُ لم يصبرن دون المَنَافِجِ[7]

---

(١) فى القصيدة السابقة صفحة ٣٩١ . (٢) الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أوضلع الفؤاد. (٣) محذف : من حذفه تحذيفا : هيأه وصنعه . والروق : القرن . والريم : الظبى .
(٤) اللسان ــ مادة زجا . (٥) فى ط : لا يجرى مجرى السرقة .
(٦) موضع به رمل ــ كما فى القاموس . (٧) خدال الشوى : ممتلئة الأطراف مستديرتها ، والرسح : جمع رسحاء ، وهى قليلة لحم العجز والفخذين ، والمنافج : حشايا توضع فوق الأرداف .

يَذَرْنَ مُرُوطَ الخزِّ مَلأَى كأنها   قِصَارٌ وإنْ طالَتْ بأَيْدِى النَّوَاسِجِ

وهذا المعنى متداوَل متناقَل فى الجاهلية والإسلام ؛ فأغرب ذو الرمة فى قلبه وأحسن فقال يصف رملا (١) :

ورمل كأَوْرَاكِ العذارى قَطَعْتُهُ   وقد جَلَّلَتْه المُظْلِمَاتُ الحَنَادِسُ

ضمور الكشح ...

وكذلك مدحهم ضُمورَ الكَشْحِ ، وجولان الوُشُح ، وصُموت القُلْب والخلخال ، وامتناع الخِدَام (٢) من المَجَال ؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية ، وذكر رملة بنت الزبير ابن العوام (٣) :

تَجُول خلاخيلُ النساء ولا أَرَى   لرملةَ خلخالاً يجولُ ولا قُلْبا (٤)

أُحِبُّ بنى العوَّام طُرًّا لحبِّها   ومن أجلها أحببتُ أخوالها كَلْبا

وقال النابغة (٥) :

على أنّ حجليها وإن قلت (٦) أوسعا   صموتان (٧) من ملء وقِلَّة منطقِ

وقال الطائى (٨) :

مَهَا الوحشِ إلاَّ أنّ هَاتَا أوَانسٌ   قَنَا الخطِّ إلا أنّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

من الهِيف لو أنَّ الخلاخيلَ صُيِّرَتْ   لها وُشُحاً جالَتْ عليها الخَلاخِلُ (٩)

وقال ابن أبى زُرْعة الدمشقى (١٠) :

استكتمت (١١) خلخالَها ومشَتْ   تحتَ الظَّلام به فما نَطقا

حتى إذا ريحُ الصَّبا نسمَتْ   ملأَ العبيرُ بسيرها (١٢) الطُّرُقا

---

(١) الكامل : ٢ ـ ٧٧ .   (٢) الخدمة محركة : الخلخال ، وجمعه خدام .
(٣) المختار من شعر بشار ١٥١ .   (٤) القلب بالضم : السوار .
(٥) ديوانه ٧٦ .   (٦) فى الديوان : وإن هن .   (٧) فى الديوان : يموتان .
(٨) ديوانه ٢٥٦ .   (٩) الوشح بضمتين : جمع وشاح .   (١٠) المختار من شعر بشار : ٩٨ .   (١١) فى المختار : فاستمسكت .
(١٢) فى المختار : بسرنا .

الخصر

وقال المتنبي (١) :

وخَصْرٍ تَثْبُتُ الأَبْصارُ فيهِ ... كأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

قلب هذا كله أبو عثمان الناجم فقال يهجو قَيْنة :

مسلولة الـكلِّ غَيْرَ بَطْنٍ ... مثقَّلٍ فهى عنـكبوتُ

حُجولها الدّهر فى اصْطِخَابٍ ... ووُشحها كُظَّمٌ صُمُوتُ

الألحان

وقال أبو عثمان يمدح قَيْنة :

محسنة فى كلِّ أَلْحَانها ... لا كالَّتى تحسن فى النُّدْرَه

ثم قلبه فى هجاء فقال :

عجِبْتُ منها وَيْحَها كيف لا ... تُخْطِئُ بالإحْسَان فِى النَّدره

وهذا مأخوذٌ من قول محمد بن مناذر يهجو خالد بن طليق، وكان قد تقلَّد قضاءَ البصرة :

يا عجباً من خالدٍ كيف لا ... يُخْطِئُ فينا مَرّةً بالصوابْ

كان قضاةُ الناسِ فيما مضى ... مِنْ رَحْمَةِ الله وهذا عَذَابْ

قلب المعنى

وهـذا أيضاً من قلب الهجاء مديحا ، والمديح هجاء ؛ كما قال مسلم بن الوليد يهجو قوما :

قُبحت مَنَاظِرُهم فحين خَبَرْتُهُمْ ... حَسُنَتْ مناظرهم بقُبْحِ المخبَرِ

قلبه أبو الطيب المتنبى فقال (٢) :

وأَسْتَـكْبِرُ الأَخْبارَ قَبْلَ لِقَائهِ ... فلمَّا الْتَقَيْنَا صَغَّر الخبرَ الخُبْرُ

وقال أبو تمام (٣) :

عبأَ (٤) الْـكَمِينَ لَه فَضَلّ (٥) لحِينهِ ... وكمينهُ المخفى عليهِ كَمِينُ

قلبه البحترى فقال (٦) :

---

(١) ديوانه ٢ـ٢٩٦ . (٢) ديوانه ٢ـ١٥٥ . (٣) ديوانه:٣٢٧ .

(٤) عبأ : جهز . (٥) فى الديوان : فظل . (٦) ديوانه : ١ـ ٣٢ .

لا ييأس المرء أن ينجيه ... ما يحسب الناسُ أنه عَطَبُه

وقال أبو تمام (١) :

وحشيّة تَرْمِى القلوبَ إذاغَدَتْ (٢) ... وَسْنَى فما تَصْطادَ غَيْرَ الصِّيدِ

قلبه البحترى فقال (٣) :

على أننى أَخْشَى على دارِ أَمْنِها ... فوارس (٤) يصطادالفوارسَ صِيدُها

وقال أبو تمام (٥) :

يُشْنَأُ الغيثُ وهو جِدُّ حبيبٍ ... رُبَّ حَزْمٍ فى بَغْضَةِ الموموقِ

قلبه البحترى فقال (٦) :

يَسُرُّنِى الشىء (٧) قد يسوءكُمُ ... نوَّهَ يَوْماً بِخَامِلٍ لَقَبُه

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر : المعنى فى المصراع الأول أَبْيَنُ منه فى الثانى ؛ ألا ترى أنه لو قال : إنه ليسوءك الشىء قد يسر ، كان مثلُ ذلك المعنى مستويا ، إلا أنه قلبه لحاجته ؛ قال ابْن الرومى يهجو مغنية (٨) :

قينة ملعونةٌ من أجلها ... رفض اللَّهْوَ معاً مَنْ رفضَه

فإذَا غنّت ترى فى حلقها (٩) ... كلَّ عِرْقٍ مثل بَيْتِ الأَرَضَه (١٠)

فقلبها ابن المعتز فقال يصف أرضة أكلت له كتابا :

تَثْنى أنابيبَ لها فيها سبل ... مثل العروق لا ترَى فيها خَلَل

وهذا كثير يُكْتَفى منه باليسير .

ومن المعانى مالا ينقلب : أَلَا تَرَى أنك تقول : نام القوم حتى كأنهم موتى ، ولا يحسن أن تقول : ماتوا حتى كأنهم نيام ؛ وقد أخِذ على أبى نواس قوله يصف داراً وقف بها (١١) : من المعانى مالا ينقلب

---

(١) ديوانه : ٨٢ . (٢) فى الديوان : إذا اغتدت . (٣) ديوانه : ١—١٥٤

(٤) فى الديوان : بنى الروع . (٥) ديوانه : ٢١٩ . (٦) ديوانه : ١—٣٢

(٧) فى الديوان : الأمر . (٨) ديوانه: ٧١ . (٩) فى الديوان: فى جيدها.

(١٠) الأرضة : دويبة . (١١) الصناعتين : ٧١.

كأنها إذ خرِستْ جارمٌ بين يدىْ تفنيدهِ مُطْرِقُ

قالو : إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حجَّتُه بالدار الخالية التى لا تُجِيب .

وأخذوا عليه قوله :

كأن نيراننا فى جَنْبِ حصنهمُ معصفراتٌ على أرْسَانِ قَصَّارِ [1]

وقد تبعه أبو تمام الطائى فقال فى الأفشين لما أحرق [2] :

ما زالَ سرُّ الكفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ حتى اصْطَلَى سرَّ الزِّنَادِ الوَارِى
نارٌ [3] يساورُ جسمَه من حرِّها لَهَبٌ كما عصفرتَ شِقَّ إزار
طارت له [4] شُعَلٌ يهدِّم لفحُها أركانَهُ هَدْماً بغيرِ غُبارِ
فصَّلْنَ منه كلَّ مجمع مَفْصِلٍ وفعلنَ فاقرةً بكُلِّ فقَارِ [5]
صلّى لها حيًّا وكان وقُودَها مَيْتاً ويدخُلها مع الكفارِ [6]
وكذاك أَهلُ النارِ فى الدنيا همُ يومَ القيامة جُلُّ أهْلِ النَّارِ

أردت البيت الثانى ، قالوا : وإنما تشبه الثيابُ المعصفرة بالنار ؛ فهذا وما أشبهه لايتوازنُ انعكاسه ، وتتضادّ قضاياه ؛ وإنما يصح القلبُ فيما يتحقق تضادّه أو يتقارب.

قطعة من شعر أهل العصر فى ذكر النجوم

قال أبو الفتح البستى [7] :

قد غضّ مِن أَملى أنى أَرى عملى أقْوَى من المشترى فى أوّل الحَمَلِ
وأننى راحِلٌ عمّا أُحاولهُ كأننى أَسْتَدِرُّ الحظَّ من زُحَلِ

---

(١) الرسن: الحبل ، وجمعه أرسان . والقصار : محور الثياب . (٢) ديوانه ١٥٢ .
(٣) فى الديوان . نارا . (٤) فى الديوان : لها . (٥) الفاقرة : الداهية ، والفقار : ما انتضد من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب . (٦) فى الديوان : مع الفجار . (٧) اليتيمة : ٤ـ٢٩٥ .

وقال(١) :

إذا غدا ملكٌ باللَّهْوِ مشتغلاً ... فاحكم على ملكه بالوَيْلِ والحرَبِ

ألم(٢) تر الشمس فى الميزان هابطةً ... لما غدا برج نجم اللَّهْوِ والطَّرَبِ

وقال(١) :

وقد تُدْنِى الملوكُ لدى رِضَاها ... وتبعد حين تحتقدُ احتقادا

كما المرِّيخ فى التثليث يُعْطِى ... وفى التربيع يَسْلبُ ما أَفَادا

وقال(١) :

ألا فثقوا بى فإنى كما ... تمدّحت فليمتحن من يُحِبّْ

فما كوكبى راجماً فى الوفاء ... ولا بَرْحُ(٣) قلبىَ بالمنقلبْ

وقال(١) :

لئن كسَفُونا بلا علّةٍ ... وفازت قِداحُهُمُ بالظفرْ

فقد يَكْسِفُ المرءَ مَنْ دونه ... كما يَكْسِفُ الشمسَ جِرمُ القمرْ

وقال(١) :

شرف الوَعد بوغد(٤) مثله ... مثل مافيه بزيغٍ وخَلَل

ودليل الصدقِ فيما قُلْتُهُ ... شرفُ المرّيخ فى بيت زُحَل

وقال(٥) :

قل للذى غَرَّتْه عِزَّةُ مُلْكِهِ ... حتى أَخلَّ بطاعةِ النُّصَحاء

شرفُ الملوكِ بعلمهم وبرأْيهم ... وكذاك أَوْجُ الشمسِ فى الجوزاء

وقال :

وقد يفسدُ المرء بعد الصلاح ... فساد الأماكن والشرُّ يُعْدِى

كما السّعد يَقبل طبع النحوس ... إذا كان فى موضعٍ غَيْر سَعْدِ

---

(١) اليتيمة ٤-٢٩٥ . (٢) فى اليتيمة : أما ترى . (٣) فى اليتيمة : برج .

(٤) فى اليتيمة ، س : الوعد بوعد . (٥) اليتيمة ٤-٢٩٥ ، ٢٩٦

وقال[١] :

ما أُنْسُ ظمآنٍ بماء باردِ   من بَعْدِ طولِ العهد بالمواردِ
إلا كأُنْسِي بكتابٍ وارد   من سيدٍ مَحْضِ النِّجار[٢] ماجدِ

* كأنما استملاه من عُطاردِ *

وقال[١] :

يا معشرَ الكتّاب لا تتعرّضوا   لرياسةٍ وتصاغَرُوا وتَخَادَمُوا
إنّ الكواكبَ كُنَّ فى أشرافها   إلا عطارد حين صُوِّرَ آدمُ

وقال[١] :

دعانى إلى بيتــــه سيّدٌ   له الخُلُق الأَشرفُ الأظرفُ
فلازَمْتُ بيتى ولاطَفْتُهُ   بعذر هو الأظرف[٣] الألطفُ
عطاردُ نَجْمِى ولاشكّ أن   عطاردَ فى بيته أشْرَفُ

وقال :

لئن تنقَّلتُ مِنْ دارٍ إلى دارِ   وصرت بعد ثَوَاءٍ رَهْنَ أسفارِ
فالحرُّ حرٌّ عزيزُ النفس حيث ثَوَى   والشَّمْسُ فى كل بُرْج ذاتُ أنوار

وقال :

لئن صدّع الدهرُ المشتِّتُ شملَنا   وللدهر حكمٌ للجميع صدُوعُ
فلِلنَّجْمِ من بعد الرجوع استقامةٌ   وللشمس من بعد الغروب طلُوعُ

وقال لمحبوس :

حُبِسْتَ ومن بعد الكسوفِ تبلّجٌ   تضىءُ به الآفاقُ للبدر والشمسِ
فلا تعتقدْ للحبس غمًّا ووَحْشَةً   فأَول كونِ المرء فى أضْيَق الحَبْسِ

وقال أيضاً[١] :

---

(١) اليتيمة: ٤ـ٢٩٥، ٢٩٦ .   (٢) النجار: الأصل.
(٣) فى اليتيمة : هو الألطف .

يا من تولّى المشترِى تدبيرَهُ ‏ حاشاك أن تنقادَ للمرّيخ

وقال[١] :

لا تفزعنْ من كل شىء مُفْزِعٍ ‏ ما كلُّ تدبيرِ البروج بضائرِ

وقال يرثى أبا القاسم الصاحب :

فقدناهُ لمـا تمَّ واعتمَّ بالعُلاَ ‏ كذاك كسوفُ البدر عنـد تمامِه

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن درست[٢] لأبى الفضل الميكالى :

إذا ما غاب وَجْهُ البدرِ عنّا ‏ فوجْهُك عنـدنا البدرُ المقيمُ

فإنْ رجعتْ نجومُ السعدِ يوماً ‏ فوجهك نجمُ سعدٍ مستقيمُ

وقال مسكويه الخالدى :

لا يُعْجِبنَّك حُسْنُ القَصْرِ تنزلُهُ ‏ فضيلة الشمس ليسَتْ فى منازِلها

لو زِيدت الشمسُ فى أبراجها مائةً ‏ ما زاد ذلك شيئاً فى فضائلها

وقال أبو بكر الخوارزمى[٣] :

رأيتك إن أَيسرت[٤] خيّمتَ عندنا ‏ لزاماً وإن أَعْسَرت زرتَ لماما

فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوءه ‏ أغبّ وإن زاد الضياء أقاما

وهذا كقول إبراهيم بن العباس الصولى فى محمد بن عبد الملك الزيات[٥] :

أَسَدٌ ضَارٍ إذا ما نَعْتَهُ ‏ وأبٌ برٌّ إذا ما قدرا

يعرف الأبعد إنْ أثرى[٦] ولا ‏ يعرف الأَدْنى إذا ما افتقرا

وقال ابن المعتز[٧] :

---

(١) اليتيمة : ٤ — ٢٩٥ ، ٢٩٦ . (٢) فى س : دوسب . (٣) اليتيمة : ٤—٢٢٤ . (٤) فى اليتيمة : آن الشرب . (٥) ديوانه : ١٣٣ ، المختار من شعر بشار : ١٨٩ ، الأدباء : ١—٢٦٩ ، اللآلئ : ٦١٦ . (٦) فى المختار : يعرف الأقصى إذا استغنى . (٧) ديوانه : ١—٢٩ .

إذا ما أراد الحاسدون انهدامهُ بناهُ إلهٌ غالبُ العزّ قاهرُهْ[١]
وماذا يُريد الحاسدون من امرئٍ تزينهمُ أخلاقهُ ومآثِرُه
إذا ماهو استغنى اهتدى لافتقارهمْ ولا تهتدى يوْماً إليهم[٢] مفاقِرُه
وكانوا[٣] كرَامٍ كوكبا ببُصاقِهِ فرُدَّ عليهم[٤] وَبْلُه ومَوَاطِرُه

وهذا البيت كما قال بعض العرب فى إحدى الروايات[٥] :

رَمانى بأمرٍ كنتُ منه وَوَالدى بريًّا ومِنْ جَالِ الطَّوِىِّ رَمَانى

الجُول والجَال : الناحية ، والطوىّ : البئر ؛ يريد رمانى بما عاد عليه ، والرواية المشهورة : ومن أجل الطَّـوِىّ ، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه وبين قول ابن المعتز .

[الأصمعى وبعض الأعراب]

قال بعضُ الرواة : كنا مع أبى نصر راوية الأصمعى فى رياضٍ من المُذَاكرة نَجْتَنى ثمارَهَا ، ونَجْتَلِى أنْوارَها ، إلى أن أفضنا فى ذكر أبى سعيد عبد الملك بن قَرِيب الأصمعى ؛ فقال : رحم اللهُ الأصمعىّ ؛ إنه لَمَعْدِنُ حِكَم ، وبَحْرُ عِلْم ، غيرَ أنه لم نر قطّ مثل أعرابى وقف بنا فسلّم ، فقال : أيكم الأصمعى ؟ فقال : أنا ذاك . فقال : أتأذنون بالجلوس ؟ فأَذِنّا له ، وعجبنا من حُسْن أَدبه مع جفاء أدب الأعراب .

قال : يا أصمعى ، أنتَ الذى يزعمُ هؤلاء النَّفَر أنك أثقبُهم معرفةً بالشعر والعربية ، وحكايات الأعراب ؟ قال الأصمعى : فيهم منْ هو أعلم منى ، ومَنْ هُوَ دونى . قال : أفلا تنشدونى من بعض شعر أهل الحضَر حتى أقيسَهُ على شعر أصحابنا ؟ فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

---

(١) رواية البيت فى الديوان :

إذا ما أراد الحاسدون من امرئٍ يزينهم أخلاقه ومآثره

(٢) فى الديوان : ولا يهتدى إليه يوما . (٣) فى الديوان : وكنت كرام .

(٤) فى الديوان : عليه . (٥) فى اللسان — مادة جول ، وارجع إلى هذه المادة فى اللسان .

أمسلم أنتَ البحرُ إن جاءَ واردٌ ... وليثٌ إذا ماالحربُ طَارَ عُقَابُها (١)

وأنت كسيفِ الهِنْدُوَانِىّ (٢) إنْ غدَتْ ... حوادثُ من حربٍ يعبُّ عُبابها

وماخُلِقتأُكْرومَةٌ (٣) فىامرىءٍلهُ ... ولا غاية إلاّ إليك مآبُهـا

كأنك ديّانٌ عليها مُوَكَّلٌ ... بها ، وعلى كفّيك يَجْرِى حِسابُها

إليكرحلْنَا العِيس (٤) إذْ لم نجدلها ... أخا ثقة يُرْجَى لديه ثوابُها

قال : فتبسَّم الأعرابى ، وهزّ رأسه ؛ فظنَنّا أنّ ذلك لِاسْتِحْسانه الشعر. ثم قال يا أصمعىّ ؛ هذا شعرٌ مُهَلهل خلق النَّسج، خطؤُه أكثرُ من صوابه ، يغطى عيوبَه حسنُ الرَّوِىّ ، ورواية المنشد؛ يشبّهون الملك إذا امْتُدِح بالأسد، والأسد أبْخَر شَتيم المَنْظَر (٥) ، وربما طارده شِرْذِمَةٌ من إمائِنا ، وتَلَاعَب به صِبْيانُنا ! ويشبّهونه بالبحر، والبحرُ صعبٌ على مَنْ رَكبه ، مُرٌّ على من شربه. وبالسيف، وربما خان فى الحقيقة، ونَبَا عند الضَّريبة ! ألا أَنشدتنى كما قال صبىٌّ من حيّنا !

قال الأصمعى : وماذا قال صاحبكم ؟ فأنشده :

إذا سألت الوَرَى عن كل مكرمةٍ ... لم يُعزَ إكرامُها إلّا إلى الهوْلِ

فتًى جَوادٌ أذاب المالَ نَائِلُهُ ... فالنَّيلُ يشكرُ منه كثْرَةَ النَّيْلِ

الموتُ يكره أَن يلقى منيّتهُ ... فى كَرِّهِ عند لفِّ الخيلِ بالخيـلِ

لو زاحمِ الشمسَ أَبقى الشمسَ كاسِفةً ... أو زاحمَ الصُّمَّ ألْجَاها إلى الميْلِ

أمضَى من النجم إن نابَتْه نَائبةٌ ... وعنـد أعدائه أجْرَى من السَّيْلِ

لا يستريح إلى الدنيـا وزينتِها ... ولا تراه إليهـا ساحبَ الذَّيْلِ

يقصِّرُ المجـدُ عنه فى مكارمِهِ ... كما يقصّر عن أفعاله قولى !

---

(١) طار عقابها : كناية عن اشتدادها .

(٢) سيف هندوانى : منسوب إلى رجال الهند .

(٣) الأكرومة : فعل الكرم .

(٤) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

(٥) شتيم المنظر : كريهه .

قال أبو نصر : فأَبْهَتَنا والله ما سمعنا من قوله . قال : فتأَتّى الأعرابى ، ثم قال للأصمعى : ألَا تنشدنى شعراً ترتاحُ إليه النفس ، ويسكن إليه القلب ؟ فأنشده لابن الرّقاع العاملى :

وناعمةٍ تَجْلو بعود أراكةٍ مؤشَّرَة يَسْبِى المعانِقَ طِيبُها
كأنَّ بهـا خمراً بماء غمامةٍ إذا ارتشفَتْ بعد الرّقاد غُروبُها
أراكَ إلى نَجْدٍ تَحِنُّ وإنّما مُنَى كلِّ نفس حيثُ كان حبيبُها

فتبسّم الأعرابى وقال : يا أَصمعى ، ماهذا بدون الأول ، ولا فوقه . ألا أنشدتنى كما قلت ؟ قال الأصمعى : وما قلت ؟ جُعلت فداك ! فأنشده :

تَعلَّقْتُها بِكراً وعُلِّقْت حبَّها فقلبىَ عن كلِّ الورَى فارغٌ بِكْرُ
إذا احتجبَتْ لم يكفك البدرُ ضوءَها وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِبَ البَدْرُ
وما الصبرُ عنها، إن صبرتَ، وجدتهُ جميلا ، وهل فى مثلها يَحْسُنُ الصَّبْرُ !
[وحسبُك من خمر يفوتُك رِيقُها ووالله مامن ريقها حَسبك الخمر](1)
ولو أنّ جلد الذَّر لامس جِلْدَها لـكان لمسِّ(2) الذَّر فى جِلْدِها أثْرُ
ولو لم يكُنْ للبَدْرِ ضِدًّا جمالُها وتفضلهُ فى حُسْنِها لصفا البَدْرُ

قال أبو نصر : قال لنا الأصمعى : اكتبوا ما سمعتم ولو بأَطراف المُدَى فى رِقاق الأكباد !

قال : وأقام عنـدنا شهراً ، فجَمَع له الأصمعىُّ خمسمائة دينار ، وكان يتعاهدنا فى الحِين بعد الحِين ، حتى مات الأصمعى وتفرّق أصحابنا !

فِقر من كلام الأعراب فى ضروب مختلفة

أثر كلام الأعراب

قال الجاحظ : ليس فى الأرضِ كلامٌ هو أمْتَع ، ولا أنفَع ، ولا آنَقُ ،

---

(١) من س ، ق . (٢) فى ق : للمس .

ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشدّ اتّصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق لِلّسان ، ولا أَجود تقويما للبيان ، من طُولِ استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء .

قال ابنُ المقفع ـ وقد جرى ذِكْرُ الشعرِ وفضيلته : أى حكمة تكون أبلغ ، أو أحسن ، أو أغرب ، أو أعجب ، من غلام بدوىّ لم ير رِيفا[1] ، ولم يشبع من طعام ؛ يستوحشُ من الكلام ، ويَفْزَع من البشر ، ويَأْوِى إلى القَفْر واليرابيع والظِّباء ، وقد خالط الغِيْلَان ، وأنِسَ بالجانِ[2] ؛ فإذا قال الشعر وصف مالم يرَه ، ولم يغذَّ به ولم يعرفه ، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها ، ويمدح ويهجو ، ويذمّ ويعاتب ، ويشبّب ويقول ما يُكتبُ عنه ، ويروى له ، ويبقى عليه .

وقال بعض الأعراب :

وإنى لأهدَى بالأوانس كالدُّمى وإنى بأطراف القنَا لَلَعُوبُ
وإنى على ما كان من عُنْجُهيّتى ولُوثَة أعرابيتى لأَدِيب[3]

كأنَّ الأدبَ غريبٌ من الأعراب ، فافتخر بما عنده منه .

فطنة الأعراب

وقال الطائى فى فطنتهم ، يستعطف مالك بن طوق على قومه بنى تغلب[4] :

لا رِقةُ الحضر اللَّطيف غَذَتْهمُ وتباعدوا عن فِطْنَةِ الأَعرابِ
فإذا كشفتهمُ وجدْتَ لديهمُ كرَم النفوس وقلةَ الآدابِ

من حديثهم

ووصف أعرابى رجلا فقال : هو أطهرُ من الماء ، وأرقُّ طباعا من الهواء ، وأمضى من السيل ، وأَهدى من النّجم .

ووصف أعرابىّ رجلا فقال : ذاك والله من ينفع سلمه ، ويتواصفُ حِلمه ، ولا يُسْتَمْرَأُ ظُلْمه .

وقال أعرابى : جلستُ إلى قومٍ من أهل بغداد فما رأيتُ أَرجَح من أحلامهم ، ولا أَطيَشَ من أقلامهم .

---

(١) فى س : ريفا . (٢) فى س : بالجنان . (٣) العنجهية : الكبر . واللوثة : الحمق ومس الجنون . (٤) ديوانه : ٢٠ .

وذكر أعرابى من بنى كلاب رجلا فقال : كان واللهِ الفهمُ منه ذا أُذنين ، والجواب ذا لِسَانين ؛ ولم أرَ أحداً أرْتقَ لخلَلِ رأى ، ولا أبعد مسافة روِّية ، ومَرادَ طَرْفٍ منه ؛ إنما كان يرمى بهمّته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال يتحسَّى مرارةَ أخلاق الإخْوَان ، ويسقيهم عذوبةَ أخلاقه .

وذكر أعرابىٌّ رجلا فقال : والله لكأَنّ القلوبَ والألْسُن رِيضَتْ له ، فما تُعقَد إلّا على وُدِّه ، ولا تنطق إلّا بحمده .

وقال أعرابى: أقبحُ أعمالِ المقتدرين الانتقامُ، وما اسْتُنْبِط الصوابُ بمثل المشاوَرة، ولا اكتُسِبَت البغضاء بمثل الكبر .

قال الأصمعى : وخطبَنا أعرابى بالبادية فقال : أَيّها الناس ؛ إن الدنيا دارُ مفرّ ، والآخرة دار مقَرّ ؛ فخذوا من مفرِّكم لمقرِّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسرارُكم .

قال المعافر بن نعيم : وقفتُ أَنا ومعبد بن طوق العنبرى على مجلس لبنى العنبرى ، وأنا على ناقةٍ وهو على حِمَار ، فقاموا فبدءونى فسلَّموا علىّ ؛ ثم انكفئوا على معبد فقبض يده عنهم ؛ وقال : لا ، ولا كَرَامة ! بدأتم بالصغير قبل الكبير ، وبالمَوْلَى قبل العربى ، وبالمفْحَم (١) قبل الشاعر . فأسكت القومُ ، فانبرى إليه غلام فقال : بدَأْنا بالكاتب قبل الأُمىّ ، وبالمهاجر قبل الأعرابى ، وبراكبِ الراحلة قبل راكب الحمار .

ووصف أعرابى قومَه فقال : ليوثُ حَرْب ، وغُيوث جَدْب ، إنْ قاتلوا أَبْلَوْا ، وإنْ بذلوا أَغْنَوا .

ووصف أعرابى قوماً فقال : إذا اصطفُّوا سفَرَتْ بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغَرَ فمَه الحِمامُ .

---

(١) فى س ، ق : بالمعجم ، وأعجم : لم يفصح .

وسُئل أعرابيٌّ عن صديق له فقال: صَفِرَت[1] عِيَابُ الودّ بيني وبينه بعدامتلائها، واكفهرّتْ وجوهٌ كانت بمائها.

وقال الأصمعى: وسمعت أعرابيا يقول: إنَّ الآمالَ قطّعت أَعناقَ الرجال، كالسراب غَرَّ من رآه، وأخلف من رَجاه، ومَنْ كان الليلُ والنهار مَطِيَّته أسرعا السير والبلوغ به.

والمرء يفرح بالأيام يقطَعُها ... وكلُّ يوم مضى يُدْنِى من الأَجَلِ

وذكر أعرابيّ مصيبة نالَتْه، فقال: إنها والله مصيبة جعلت سُودَ الرءوس بِيضا، وبيضَ الوجوه سودا، وهوّنت المصائب، وشيَّبَت الذوائب.

وهذا كقول عبد الله بن الزبير الأسدى[2]:

رَمَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آل حَرْبٍ ... بمِقْدارٍ سَمَدْنَ له سُمُودَا[3]

فردَّ شعورهنَّ السُّودَ بِيضاً ... وردَّ وجوههنَّ البيضَ سُودا

وإنك لو رأيت بكاءَ هِنْدٍ ... ورملة إذ تَصُكَّانِ الخدُودَا

بَكَيْتَ بُكاءَ مُعْوِلَةٍ حَزِين ... أصابَ الدهرُ واحدَها الفقيدا

ونظيرُ هذا التطابق بين السواد والبياض، وإن لم يكن من هذا المعنى قول ابن الرومى:

يابَيَاضَ المَشيبِ سَوَّدْتَ وَجْهِى ... عند بِيضِ الوجوهِ سُودِ القرونِ

فلعمرى لأخفينَّك جهْدِى ... عن عِيانى وعن عِيان العيونِ

ولعمرى لأَمنعنَّك أن تَضْ ... حك فى رَأْسِ آسفٍ محزونِ

بسوادٍ فيه ابيضَاضٌ لوجهى ... وسوادٍ لوَجْهِكَ المَلْعُونِ

سأل أعرابيان رجلا فحرمهما، فقال أحدُهما لصاحبه: نزلتَ والله بوادٍ غير

---

(١) صفرت: خلت. (٢) اللسان ــ مادة سمد. الأمالى ٣ــ١١٥.

(٣) سمد: قام متحيرا، والسمود يكون سرورا وحزنا ــ كما فى اللسان.

ممطور ، وأتيتَ رجــلا بك غير مسرور ، فلم تدرك ما سألْت ، ولا نِلْتَ ما أمّلْت ؛ فارتحِلْ بندم ، أو أَقم على عدم .

قال الأصمعى : وسمعتُ أعرابيا يقول : غَفَلنا ولم يَغْفُل الدهرُ عنا ، فلم نتّعظ بغيرنا حتى وُعِظ غيرُنا بنا ، فقد أدركتِ السعادةُ من تنبّه ، وأدركت الشقاوة من غَفَل ، وكفى بالتجربة واعظاً .

وقال أعرابى لرجل : اشكر للمنعم عليك ، وأَنْعم على الشاكر لك ، تستَوْجب من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه .

ومدح أعرابى رجلا فقال : ذلك والله فسيح الأدب ، مستَحْـكِم السبب ، من أىِّ أقطاره أتيته تُثْنى عليه بكرم فعال ، وحُسْن مقال .

وذمّ أعرابى رجلا فقال : أفسد آخِرتَه بصلاح دُنْياه ، ففارق ماأَصْلح غيرَ راجعٍ إليه، وقدم على ماأفسد غَيْرَ منتقلٍ عنه ، ولو صدق رجلٌ نفسه ما كَذَبَتْه ، ولو ألقى زمامه أَوْطأه رَاحِلَتَهُ .

وقال أعرابى : خرجت حين انحدرَتْ أَيْدِى النجوم ، وشَالَتْ أَرجلها ، فما زلت أَصدع الليلَ حتى انْصَدَع الفجر .

وقال أعرابى (١) :

وقد تعَالَلْت (٢) ذَمِيل (٣) العَنْسِ بالسَّوْطِ فى دَيْمُومة (٤) كالتّرسِ
إذ عَرّج (٥) الليلُ بروجَ الشّمْسِ

ومن مليح الاستعارة فى نحو هذا قولُ الحسن بن وهب : شربت البارِحة على وَجهِ الجوْزَاء ؛ فلما انتبه الفَجْرُ نِمْت ، فما عقلت حتى لَحَفَنى قَميصُ الشّمْسِ (٦) .

---

(١) اللسان ــ مادة علل .
(٢) تعاللت الناقة : إذا استخرجت ما عندها من السير.
(٣) الذميل : ضرب من سير الإبل .
(٤) الديمومة : الصحراء البعيدة .
(٥) التعريج : أن تحبس مطيتك مقيما على رفقتك أو لحاجة .
(٦) لحفت الرجل : إذا غطيته .

وقال أعرابى لصاحبه فى شىء ذكره : قل إن شاء الله ، فإنها تُرْضِى الربَّ ، وتُسْخِط الشيطان ، وتُذْهِب الحنث ، وتَقْضِى الحاجة .

وروى العتبى عن أبيه قال : سمعت أعرابياً يقول لأخيه فى معاتبة جرَتْ بينهما : أما والله لرب يوم كتَنُّور الطاهى ، رقّاص بالحمامة ، قد رميتُ نَفْسى فى أَجيج (١) سَمُومِه ، أحْتَمِل منه ما أكره لما أحبّ .

قالَ أبو العباس محمد بن يزيد : وأحسب العتبى صنع هذا الكلام . وأخذه من قول بَشّار :

ويوم كتَنُورِ الإماء سَجَرْنَهُ وأوْقَدْنَ فيه الجزْلَ حتى تَضَرَّما (٢)
رميتُ بنفسى فى أجيج سَمُومِهِ وبالعِيس حتى بَضَّ منخرها دَمَا

أخذ هذا المعنى بعضُ أصحاب أبى العباس ثعلب فقال يهجو المبرد :

ويوم كتَنُّور الطّهاة سَجَرْتَه على أنه منه أحَرُّ وأوقدُ
ظللت به عند المبرّدِ جالساً فما زلت فى ألفاظه أتبرَّدُ

أعرابية ترثى ابنها

قال الأصمعى: حجّت أعرابيةٌ ومعها ابنٌ لها فأصيبت به ، فلما دُفِن قامت على قبره ، وهى موجعة فقالت : والله يابنىّ لقد غذَوْتُك رضيعا ، وفقدتُك سريعاً ؛ وكأنه لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتذُّ بعيشك فيها ، فأصبحتَ بعد النضارة والغَضَارة ، ورونق الحياة والتنسّم فى طِيب روائحها، تحت أطباق الثَّرَى جَسداً هامداً، ورُفَاتا (٣) سحيقا ، وصعيدا جُرُزا ؛ أى بنى ! لقد سَحَبَتِ الدنيا عليك أذيال الفنا ، وأسكنتْك دارَ البِلَى ، ورمتنى بعدك نَكْبَةُ الرَّدَى ، أى بنى ! لقد أسفر لى وجهُ الدنيا عن صباح دَاج ظلامُه .

ثم قالت : أى ربّ ومنك العدل ، ومن خَلْقِك الجَوْر ، وهَبْتَه لى قُرَّةَ عين ،

---

(١) الأجيج : تلهب النار . (٢) سجر التنور : أحماه . والجزل : الحطب اليابس .
(٣) الرفات : الحطام .

فلم تُمَتِّعنى به كثيراً، بل سلبتَنِيه وَشِيكا ؛ ثم أمرتنى بالصبر ، ووعدْتنى عليه الأَجْر، فصدقت وَعْدَكَ، ورضيت قضاءك ، فرحم الله من ترحَّم على من استودَعْتُه الرَّدْم[1]، ووسدته الثَّرَى ؛ اللهم ارحم غربته ، وآنِسْ وحْشَتَه ، واستُرْ عَوْرَتَه يوم تُكْشَف الهَنَات والسَّوءات .

فلما أرادت الرجوعَ إلى أهلها وقفت على قبره ، فقالت ! أى بنىّ ! إنى قد تزوَّدْت لسفرى، فليت شعرى ما زادُكَ لبُعْدِ طريقك، ويوم مَعَادِكَ؛ اللهم إنى أسأَلُكَ له الرضا برضائى عنه . ثم قالت : استودَعْتُكَ مَن استودَعَنِيك فى أَحْشَائى جنيناً ؛ واثُكْلَ الوالدات ! ما أمضَّ حرارةَ قلوبهن ، وأَقْلَق مضَاجعهنّ ، وأطولَ ليلهنَّ ، وأقصرَ نهارهن ، وأقل أنسهن ، وأَشدّ وحشتهنّ ، وأَبعدهنّ من السرور ، وأقربهن من الأحزان ! فلم تزلْ تقولُ هذا ونحوه حتى أَبكتْ كلَّ مَنْ سمِعها . وحمدت الله عز وجل واسترجعَتْ[2] وصلت ركمات عند قَبْره وانطلقت .

وأخرى ترثى ابنا لها

وأنشد المفضل الضبى لامرأةٍ من العرب ترثى ابنا لها[3] :

يا عمرُو مالِى عنكَ من صبرٍ يا عَمْرُو يا أسَفى على عَمْرِو
لله يا عمرُو وأَىُّ فتًى كفنْتُ يوم وُضِعت فى القبر
أحْثُو الترابَ على مَفَارِقهِ وعلى غَضارَةِ وجهه النَّضِرِ[4]
حين استوى وعلَا الشبابُ بهِ وبدا مُنِيرَ الوجهِ كالبدر
ورجا أقَارِبُه منافعَهُ ورأوا شمائل سَيّد غَمْرِ[5]
وأهمَّه هَمِّى فساوَرَهُ وغدَا مع الغادِينَ فى السَّفر
تغدُو به شقراءُ سامِيةٌ مَرَطَى الجِراءِ شَديدةُ الأَسْر[6]

(١) ردم الباب والثلمة : سده ، أو أكثر من السد ، والردم : الاسم .
(٢) قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . (٣) شاعرات العرب ١٠٧ .
(٤) المفارق : مواضع فرق الشعر من الرأس . (٥) الغمر : الكريم الواسع الخلق .
(٦) مرطى : ضرب من العدو . والجراء : الجرى . والأسر : شدة الخلق والخلق .

ثبت الجَنان به ويقدمها ... فَلِجٌ يقلّبُ مُقْلَتَى صَقْرِ (١)

ربَّيْتُه دَهْراً أُفتِّقُهُ ... فى اليُسْر أغْذُوه وفى العُسْر

حتى إذا التأميلُ أمكننى ... فيه قُبَيْلَ تلاحُقِ الثغر

وجملتُ من شغفى أُنقِّلُهُ ... فى الأَرض بين تَنَائفٍ غُبْرِ (٢)

أَدَع المَزارعَ والحصونَ بِهِ ... وأُحلُّه فى المَهْمَهِ القفْرِ

ما زلت أُصْعِده وأُحْدِرُهُ ... من قُتْر مَوْماةٍ إلى قُتْرِ (٣)

هرباً به والمَوْتُ يطلبُه ... حيث انْتَوَيْتُ به ولاأَدْرى (٤)

حتى دفَعْتُ به لَمصْرَعِه ... سوق المعِز تُسَاق للعَتْرِ (٥)

ما كان إلا أن هجمت لهُ ... ورمى فأَغْفَى مطلع الفجر

ورمى الكَرَى رأْسى ومال بهِ ... رَمْسٌ (٦) يُسَاوِر منه كالسُّكْرِ

إذ راعنى صوتٌ هببت بهِ ... وذُعِرتُ منه أيَّما ذُعرِ

وإذا منيّتُه تُسَاوِرهُ ... قد كدَّحت (٧) فىالوَجْه والنَّحْرِ

وإذا له علَق (٨) وحَشْرَجَةٌ ... مما يَجيشُ به من الصَّدْرِ

والموتُ يَقْبِضُه ويَبْسُطه ... كالثوبِ عند الطىِّ والنَّشْرِ

فدعَا لأَنْصُرَه وكنت لهُ ... من قبل ذلك حاضرَ النَّصْر

فعجزتُ عنه وهى زَاهِقَةٌ ... بين الوريد ومَدْفَعِ السَّحْرِ

فمضى وأَىّ فتى فُجِعْتُ بهِ ... جَلَّت مصيبتُه عن القَدْرِ

لو قيل تفديه بذلتُ لهُ ... مالى وما جمَّعت من وَفْرِ

أو كنت مقتدراً على عُمْرِى ... آثرتُه بالشَّطْرِ من عُمْرِى

---

(١) فلج : كثير الظفر والفوز . (٢) التنائف : جمع تنوفة : وهى الصحراء .
(٣) القتر ـ بالضم : الجانب والناحية . (٤) انتويت : قصدت . (٥) العتر : الذبح .
(٦) الرمس : الصوت الخفى . (٧) كدح وجهه : خدشه أو عمل به ما يشينه، مثل كدحه ، أو أفسده . (٨) العلق : الدم عامة ، أو الشديد الحمرة .

قد كنتُ ذا فقرٍ له فَعِدًا ... ورَمَى علىَّ وقد رأى فقْرِى
لو شاء ربى كان متَّعنى ... بِا بْـنِى وشدّ بأَزْرِه أزْرى
بُنِيَتْ عليك بنىَّ ، أحوج ما ... كنّا إليك ، صفائحُ الصَّخْر
لا يبعدنك الله يا عمرى ... إمَّا مضيت فنحنُ بالإثْر
هذى سبيلُ الناس كلّهم ... لابدّ سالكها على سَفَرِ
أوَلا تراهم فى ديارهمُ ... يتوقَّعون وهم على ذُعْرِ
والموتُ يُورِدُهم مواردَهم ... قَسْرًا فقد ذَلّوا على القَسْرِ

أعرابى يمدح رجلا

وقال أعرابى يمدح رجلا (١) :

يمُدُّ نِجادَ السّيف حتَّى كأنهُ ... بأعلى سنامَىْ فالجٍ (٢) يَتَطوَّحُ
ويُدلجُ فى حاجاتِ مَنْ هو نائمٌ ... ويُورِى كريماتِ الندى (٣) حين يقدحُ
إذا اعتمّ بالبُرْدِ اليمانى حسبتهُ ... هلالاً بدَا فى جانب الأفقِ يَلْمَحُ
يزيدُ على فَضْلِ الرجالِ فضيلةً ... ويَقْصُر عنه مَدْحُ مَنْ يتمدَّحُ

وأنشد ابنُ أبى طاهر لأعرابى :

وقبلىَ أبْـكَى كلَّ مَنْ كان ذاهوًى ... هتوفُ البواكى والديارُ البَلاقِعُ
وهنَّ على الأطلال من كل جانبٍ ... نوَائحُ ما تَخْضَلُّ منهـا المَدامِعُ
مُزَبْرَجَةُ الأعناقِ نُمْرٌ ظهورُها (٤) ... مخطّمة بالدُّرِّ خُضْرٌ رَوَائع (٥)
تَرَى طُرُزًا بَيْنَ الخوافى كأنها ... حَوَاشِىّ بُرْدٍ زينتها الوَشَائعُ (٦)
ومن قِطَعِ الياقوتِ صِيغَتْ عُيُونُها ... خواضب بالحِناءِ منها الأصَابِع

---

(١) المختار من شعر بشار ٧٩ . (٢) فى س : سناهى والج ، وفى ق : سناهى دالج ، والفالج : الجمل الضخم ذو السنامين . (٣) فى المختار : كرامات الندى . (٤) مزبرج : مزين . والأنمر : ما فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء — والنمرة : النكتة من أى لون كان .
(٥) أصل خطمه : وضع الخطام على أنفه . وفى س : خصر . (٦) الطراز : علم الثوب . الوشيعة : خشبة يلف عليها ألوان الغزل .

ومن جيد ما قيل فى الحمام قول ابن الرومى [١] :

وَقَفْتُ بِمِطْرَابِ [٢] المشيَّاتِ والضُّحَى   فَظَلْتُ أسُحُّ الدمع منى وأَسْجُمُ [٣]

حليفةَ شَجْوٍ هَاجَ ما بى وما بهـا   تباريحُ شـوق يشتكيها المتيّم

نَبـاحَ به فُوهَا وأَخْفَتْـه عينُها   وباحَتْ به عَيْنى وكتَّمهُ [٤] الفَمُ

ودخل أعرابى على الرشيد فأنشده أُرجوزةً مدحه بهـا ، وإسماعيل بن صبيح بكتبُ كتاباً بين يديه ؛ وكان من أَحسنِ الناسِ خطّا ، وأَسرعهم يداً ؛ فقال الرشيد للأعرابى : صف الـكاتب فقال [٥] : وصف كاتب

رقيقُ حَواشى العلم حينَ تبورهُ [٦]   يُرِيكَ الهُوَيْنا والأُمورُ تَطِيرُ

له قلما بؤسَى ونُعْمَى كلاهما   سحابتُه فى الحالتَيْنِ دَرُورُ

يُنَاجيك عما فى ضميرك خَطّهُ   ويَفْتَحُ بابَ النُّجْحِ وهو عسيرُ

فقال الرشيد : قد وجب لكَ يا أعرابى عليه حق ، كما وجب لك علينا . يا غلام ؛ ادفَعْ له دِيَةَ الحرّ ، فقال إسماعيل : وعلى عبدِكَ دِيَةَ العَبْد .

وقال أعرابى من بنى عقيل [٧] : حنين

أحِنُّ إلى أرضِ الحجـاز وحاجَتى   خِيامٌ بنَجْدٍ دونها الطَّرْفُ يقصُرُ

وما نَظَرِى نحو الحجازِ بنافعى   فتيلاً [٨] ولـكنى على ذَاكَ أنْظرُ

أفى كلِّ يوم نَظْرَةٌ ثم عَبرةٌ   لعينَيْك يجرى ماؤُها يتحَدَّرُ

متى يستريح القلب إمَّا مجاورٌ   حزينٌ وإمَّا نازحٌ يتذَكَّرُ

وقال أعرابى : خلق

وإنى لأُغْضِى مقلتيَّ على القَذَى   وألْبَسُ ثوبَ الصبرِ أبيَضَ أبْلَجا

---

(١) ديوانه ٨٧ . (٢) المطراب : الطروب . (٣) فى الديوان : وهى ترنم . وسجم الدمع : قطر . (٤) فى الديوان: وكاتمه . (٥) ديوان المعانى ٢ــ٧٧ . (٦) تبوره : تختبره . (٧) المختار من شعر بشار ٢٥٢ . (٨) فى المختار : أجل لا ولـكنى .

وإنّى لأَدْعو اللهَ والأمرُ ضَيّقٌ … علىَّ فمـا ينفكُّ أنْ يتفرَّجَا
وكم من فـتًى ضاقَتْ عليه وجوهُهُ … أصاب لها فى دَعْوَةِ اللهِ مخرَجَا

وقال آخر :

ذكرتك ذِكْرى هائمٍ بك تَنْتَهِى … إليك أمانيه وإن لم يكُنْ وَصْـلُ
وليسَتْ بِذِكْرَى ساعةٍ بعد ساعةٍ … ولـكنها موصولةٌ مالَهَا فَصْـلُ

وقال آخر :

أريتُك إنْ شطَّتْ بك العـامَ نيَّـةٌ … وعَالَك(1) مُصْطَافُ الحِمَى ومرابِعُهْ
أترعين ما استودعت أم أنت كالذى … إذا ما نَأَى هانَتْ عليك ودَائِعُهْ
ألا إِن حَسْيًا دونه قُلَّةُ الحِمَى … مُـنَى النفسِ لو كانت تُنَالُ شَرَائِعُهْ(2)

أخذتْ أزدُ العتيك شاعراً من قَيْس بن ثعلبة اسمه المعذَّل(3) فى دَمٍ فأَتَاه البَيْهَس ابن ربيعة فحمله ، وأمره أن يَنْجُوَ بنفسه ، وأَسلم نفسه مكانه ، فقال له المعذل: أُخيِّرك بين أن أمْدَحَك أو أمدح قومَك ؛ فاختار مدحَ قومه فقال(4) :

جزى الله فِتْيَانَ العَتيك ، وإِن نَأَتْ … بِىَ الدَّارُ عنهم ، خيرَ ما كان جازيا
هُم خلطونى بالنفوس وأحسنوا الـ … صّحابة لما حُمَّ ما كان(5) آتيَا
مَتَاعُهم فَوْضى فَضًا(6) فى رحالِهِمْ … ولا يُحْسِنُون الشرَّ(7) إلاَّ تبَادِيَا
كأن دنانيراً على قَسَمَاتِهِمْ … إذا الموتُ فى الأبطال كان تحاميا(8)

وذكرت الرواة أنَّ المهلب بن أبى صفرة عرض جُنْدَه بخراسان ، فعرض جيش بكر بن وائل ، فمرّ به المعذّل فقال: هذا المعذل القيسى الذى يقولُ : وأنشد الأبيات،

---

(١) عالنى الشىء : أعوزنى وأعجزنى ، وفى ط : وغالك . (٢) الحسى : سهل فيه ماء ، ويجمع على أحساء ، والشرائع : الموارد . (٣) أزد العتيك : فخذ من الأزد . وقد جاء فى كل الأصول: المعدل — بالدال ، وهذا عن الحماسة . (٤) الحماسة ٤—٢٧٥ .
(٥) فى الحماسة : ما كنت لاقيا . (٦) فى الحماسة : طعامهم بدل متاعهم . وفوضى فضا: أى مختلط ، يريد أنهم لا يستأثر بعضهم على بعض ، وفى كل الأصول : فوضى قضا ، بالقاف.
(٧) فى الحماسة : السر إلا تناديا . (٨) فى الحماسة : للأبطال كان تحاسيا .

فقالوا : أيها الأمير ؛ احسبه علينا، فانطلق مائةٌ منهم ، فجاءوا بمائة وصيف ووصيفة، فقالوا : أعْطِه هذا وليعذرنا .

قوله : كأنَّ دنانيرا على قسماتهم ... نظيرُ قول أبى العباس الأعمى :

ليت شِعْرِى من أَيْنَ رائحةالمسـ لكِ وماإنإخال بالخَيْف إِنْسى
حين غابت بنو أمية عنـهُ والبهاليلُ من بنى عبـد شمس
خطباء على المنابر فُرْسَا نٌ عليها وَقَالَةٌ غيرُ خُرْسِ
فى حلوم إذا الحلوم استُفِزَّت ووجوه مثـل الدنانير مُلْسِ

[طرف من أخبار أبى نواس]

نهى أبى نواس عن الخمر

ولما خلع المأمونُ أخاه محمد بن زبيدة ووجّه بطاهر بن الحسين لمحاربته ، كان يعملُ كتبا بعيوبِ أخيه تُقْرَأُ على المنابر بخراسان ؛ فكان مماعابه به أن قال: إنه استخلص رجلا شاعرا ماجِناً كافرا ، يقال له الحسن بن هانئ ، واستخلصه ليَشْرَبَ معه الخمر ، ويرتكبَ المـآثم ، ويَهْتِـك المحارم ، وهو الذى يقول (١) :

أَلاَ فاسْقِنى خَمراً وقُل لى هى الخمرُ ولا تسقنى سرًّا إذا أمْـكَنَ الجَهْرُ
وُبحْ باسم مَنْ تهوى ودَعْـنِى عن الكُـنَى فلا خَيْرَ فى اللَّذّاتِ من دونها سِتْرُ

ويذكر أهلَ العراق فيقول : أهل فسوق وخمور ومَاخُور وفجور ؛ ويقوم رَجلٌ بين يديه فيُنْشِد أشعار أبى نواس فى المجون ؛ فاتصل ذلك بابن زبيدة ؛ فنهى الحسنَ عن الخمر ، وحبسه ابنُ أبى الفضل بن الربيع ؛ ثم كلّمه فيه الفضل فأخرجه بعد أن أخذ عليه ألاّ يشربَ خمرا ، ولا يقول فيها شعرا ، فقال (٢) :

مامِنْ يدٍ فى الناسِ واحدةٍ كيَدٍ أبو العباسِ مَوْلاَها
قام (٣) الثقات على مضاجعهم وسَرَى إلى نفسى فأحياها

---

(١) ديوانه ٢٧٣ . (٢) ديوانه ١٠٩ .

(٣) فى الديوان : نام البغاة .

قد كنت خِفتك ثم آمنني[١] من أن أخافك ، خَوْفُكَ اللهَ
فعفوتَ عنى عَفْوَ مقتدرٍ وجَبَتْ لهُ نقمٌ فألغاها[٢]

من قوله فى ترك الشراب

ومن قوله فى تَرْكِ الشراب[٣] :

أيُّهَا الرائحان باللَّوْمِ لُوما لا أذوقُ المُدامَ إلاَّ شَمِيما
نَالَنِى بالملام فيها إمامٌ لا أرى لى خلافَهُ مستقيما
فاصْرِفاها إلى سِوَاىَ فإنّى لسْتُ إلاّ على الحديث نديما
جُلُّ[٤] حظى منها إذا هى دارتْ أنْ أراها وأن أشمّ النسيما
فكأنى وما أُزيّن منها قَعَدِىٌّ[٥] يُزَيّن التحكيما
[كَلَّ عَنْ حَمْلِه السلاحِ إلى الحر ب فأوصى المُطيق ألاّ يقيما][٦]

القَعَديّة : فرقة من الخوارج ، يَأمرون بالخروج ولا يخرجون ؛ وزعم المبرد أنه لم يُسْبق إلى هذا المعنى . وقال[٧] :

عَيْن الخليفةِ بى موكَّلةٌ عَقَد الحِذارُ بطَرْفِها طَرْفى
صحَّتْ عَلَانيتى له وأرى[٨] دِينَ الضمير له على حَرْفِ
ولئن وعدتك تَرْكَها عِدَةً إنى عليك لخائفٌ خُلْفى
سلبوا قِنَاعَ الدَّن[٩] عن رَمقٍ حى الحياة مشارف الحَتْفِ
فتنفّسَتْ فى البيت إذ مُزِجَت كتنفس الرَّيحَانِ فى الأَنْفِ

* * *

(١) فى الديوان : أمننى . (٢) فى الديوان : * حلت له نقم فأ كفاها *
(٣) ديوانه: ٣٢٥ . (٤) فى الديوان : كبر حظى . (٥) القعد : الخوارج ، ومن يرى رأيهم قعدى . (٦) من س ، ق . (٧) ديوانه : ٣٠٣ .
(٨) فى الديوان : ورأى . (٩) فى الديوان : قناع الطين .

من النقد

أخذ قوله : « ولئن وعدتك تركها عدة » الحسن بن على بن وكيع فقال :

متى وَعَدْتُك فى تركِ الصِّبا عِدَةً — فاشْهَدْ على عِدَتِى بالزُّورِ والكَذِب
أمَا تَرَى الليلَ قدولَّت عَساكِرُهُ — وأقبل الصبحُ فى جيش له لجَبِ (١)
وجدَّ فى أثر الجَوْزَاء يطلُبُها — فى الجوّ رَكْضاً هِلالٌ دائمُ الطلب
كصولجانِ لُجَين فى يدَىْ ملك — أدناه من كُرَةٍ صيغتْ من الذهب
فقُمْ بنا نَصْطَبِح صفراءَ صافيةً — كالنارِ لكنها نارٌ بلا لَهَبِ
عروسُ كَرْمٍ أتت تختالُ فى حُلَلٍ — صُفْرٍ على رأسها تاجٌ من الحَبَبِ

وقال أبو الفضل الميكالى فى اقتران الهلال بالزهرة (٢) :

أمَا ترى الزُّهرةَ قد لاحَتْ لنا — تحت هلال لونه يَحْكِى اللّهَبْ
كَكُرَةٍ من فضّة مجلوّةٍ — وافَى عليها صَوْلَجانٌ من ذَهَبْ

وعلى قول أبى نواس (٣) :

صَحّتْ عَلَانيَتِى له وأرى — دِينَ الضمير له على حَرْفِ (٤)

كتب أبو العباس بن المعتز إلى الطيب القاسم بن محمد النميرى (٥) :

يأيها الجافى ويستجفى — ليس تجنِّيك من الظَّرفِ
إنَّك فى الشوقِ إلينا كمَنْ — يُؤْمِنُ باللهِ على حَرْفِ
محوتَ آثارَك من ودِّنا — غير أساطيرك فى الصُّحْف
فإن تحامَلْتَ لنا زَوْرَةً — يوماً تحاملت على ضَعْف

وحدث أبو عمر الزاهد قال : دَلَكَ بعضُ الزهاد المرائين جَبْهَته بثَوْمٍ وعصَبها ، ونام ليُصْبِح بها كأثر السجود ، فانحرفت العِصابة إلى صُدْغه ، فأَخَذَ الأَثر هناك ،

---

(١) جيش لجب : ذو لجب . واللجب : الجلبة والصياح . (٢) اليتيمة : ٤ـ٣٤٤ .
(٣) ديوانه : ٣٠٣ . (٤) فى القرآن الكريم : ومن الناس من يعبد الله على حرف : أى على وجه واحد ، وهو أن يعبده على السراء لا على الضراء ، أو على شك ، أو على غير طمأنينة على أمره . (٥) ليست هذه الأبيات فى ديوانه المطبوع بين أيدينا .

فقال له ابنه : ماهذا يا أبت ؟ فقال : أصبح أبوك ممن يَعْبُدُ الله على حرف !

* * *

من قول أبى نواس فى الخمر

وقال أبو نواس فى الباب الأول (١) :

غَنِّنَا بالطلولِ كيف بَلِينا ... واسْقِنَا نُعْطِكَ الثناءَ الثمينا
من سُلَافٍ كأنها كلُّ شىءٍ ... يتمنَّى مخيَّرٌ أَنْ يكونا
أَكَلَ الدَّهْرُ (٢) ما تجسَّم منها ... وتبقَّى لبابُها المكنونا
فإذا ما اجتليتَها فهباءٌ ... يَمْنَعُ الكفَّ ما يُبيحُ العيونا
ثم شُجَّتْ (٣) فاستضحكت عن لآلٍ ... لو تجمَّعْنَ فى يدٍ لاقتُنِينا
فى كئوسٍ كأنهنَّ نجومٌ ... دائراتٌ بُرُوجُها أَيْدِينا
طالعاتٌ مع السُّقَاةِ علينا ... فإذا ما غَرَبْنَ يَغْرُبْنَ فينا
لو ترى الشَّرْبَ (٤) حولَها من بعيد ... قلت قوماً من قِرَّةٍ (٥) يصطلونا
وغزالٍ يُدِيرُها ببنانٍ ... ناعماتٍ يَزِيدُها الغَمْزُ لِينا
كلما شِئْتُ علَّنِى بِرُضَابٍ ... يَتْرُكُ القلبَ للسرور قرينا (٦)
ذاك عيشٌ لو دَامَ لى غيرَ أَنى ... عِفْتُه مكرَهًا وخِفْتُ الأمينا

وقال (٧) :

أَعاذل أَعتبت الإمامَ وأَعتبا ... وأَعْرَبْت عمَّا فى الضمير وأَعْرَبا
وقلتُ لساقيها : أجزها فلم أكن (٨) ... ليأبَى أميرُ المؤمنين وأَشْرَبا
فجوَّزَها عنى سُلَافاً ترى لها ... لدى الشَّرَفِ الأعلى شعاعا مُطنَّبا
إذا عَبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ ... يُقَبِّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

---

(١) ديوانه: ٣٣٩ . (٢) فى الديوان : درس الدهر . (٣) فى الديوان : مرجت . (٤) فى الديوان : الشاربون (٥) القر ــ بالضم : البرد ، والقرة ــ بالكسر : ما أصابك من القر . (٦) فى الديوان : خدينا . (٧) ديوانه: ٢٤٤ .
(٨) فى الديوان : فلم يكن .

ترى حيثما كانتْ من البيت مَشْرِقاً ... ومالم تكن فيه من البيت مَغْرِبا
يَدُورُ بها رَطْبُ البنان[1] ترى لهُ ... على مستدار الخدّ صُدغا مُعقْرَبَا
سقاهم ومَنَّاني بعينَيْهِ مُنْيَةً ... فكانت إلى قلبي ألذَّ وأطيبا

اغتصابه معانى الشعر

قال الحسين بن الضحاك الخليع : أنشدت أبا نواس قولي :

وشاطريِّ اللسانِ مختلق التَّكْـ ... ـرِيهِ شابَ المُجُونَ بالنُّسْكِ[2]

فلما بلغتُ فيه :

كأنما نُصْبَ كأسِهِ قمرٌ ... يَكْرَعُ فى بَعْضِ أَنْجُمِ الفَلَكِ

نعر[3] نَعْرَةً منكرةً ، فقلت : مالك ، فقد رعتني ؟ قال : هذا المعنى أنا أحقُّ به منك ؛ ولكن سترى لمن يُرْوِى ! ثم أنشد بعد أيام[4] :

إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خِلْتَهُ ... يُقَبِّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

فقلت : هذه مطالبة يا أبا على ! فقال : أتظنّ أنه يُرْوى لك معنى مليح وأنا فى الحياة ؟

وقال ابن الرومى فكان أحسن منهما[5] :

ومهفهف كملتْ محَاسِنُهُ ... حتى تجاوزَ مُنْيَةَ النَّفْسِ
تَصْبُو الكئوس إلى مَرَاشِفِهِ ... وتَضِجُّ فى يده من الحَبْسِ
أبصرْتُها والكأسُ بين فمٍ ... منه وبين أنَامِلٍ خَمْسِ
فكأنَّها وكأن شَارِبَها ... قمرٌ يقبّل عَارِضَ الشمس

وقال أبو الفتح كشاجم :

وسحاب يجرُّ فى الأرض ذَيلَيْ ... مُطْرَف[6] زَرَّهُ على الأرض زَرّا

(١) فى الديوان : يدير بها ساق أغن . (٢) أصل الشاطر : من أعيا أهله خبثا . وكرهه تكريها : صيره كريها . شاب : مزج . (٣) نعر كمنع وضرب : صاح وصوت بخياشيمه . (٤) ديوانه ٢٤٤ . (٥) ديوانه ١٠٧ . (٦) المطرف : رداء منخز مربع ذو أعلام .

بَرْقُه لَمْحَةٌ ولكِنْ له رَعْـ ‏ دٌ بطىءٌ يكسو المسامِعَ وَقْرا[1]
كخَلِىٍّ منافقٍ لِلّذى يهـ ‏ ـواهُ يَبْكى جَهْراً ويَضْحَك سِرّا
قد سقتنى المُدامَ فيها فَتاةٌ ‏ سحَرَتْنى وليس تُحْسِنُ سِحْرا
فإذا ما رأيتُها تشربُ الرَّا ‏ حَ أرَتْنِى شَمْساً تُقَبِّلُ بَدْرا

[طرف من أخبار بشار]

المهدى وغزل بشار

وإنما احتذى أبو نواس فى هذه الأشعار التى وصف فيها تَرْكَ الشراب وطاعته لأَمْرِ الأمين مثالَ بشّار بن بُرْد ، وصب على قالبه ؛ وذاك أنّ بشاراً لما قال[2] :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مخبَّأةٍ ‏ قَوْلٌ تغلّظه وإنْ جَرَحَا
عُسْرُ النساءِ إلى مُيَاسَرةٍ ‏ والصعبُ يُمْكِنُ بعدما جَمَحَا

بلغ ذلك المهدى فغاظه ؛ وقال : يحرّض النساءَ على الفجور ، ويسهِّل السبيل إليه ! فقال له خالُه يزيد بن منصور الحميرى : ياأميرَ المؤمنين؛ قد فتن النساء بشعره ، وأىّ امرأة لا تَصْبُو إلى مثل قوله[2] :

عجِبَتْ فَطْمَةُ من نَعْتى لها ‏ هل يُجيدالنعتَ مكفوفُ النَّظَرْ
بِنْتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قسِّمت ‏ بين غُصْنٍ وكثيبٍ وقَمَرْ
دُرَّةٌ بَحْرِيَّةٌ مكنونةٌ ‏ مازَها[3] التاجر من بَيْنِ الدرَرْ
أَذْرَتِ الدمع وقالت وَيْلَتِى ‏ من وَلوعِ الكفّ رَكّابِ الخَطَرْ
أُمّتى بدّدَ هَذا لُعَبى ‏ ووِشَاحِى حلَّه حتى انْتَثَرْ
فدَعِينى معه يا أُمّتى ‏ علّنا فى خَلْوَةٍ نَقْضِى الوَطَر
أَقْبَلَتْ فى خَلْوَة تضربُهَا ‏ واعتراها كجُنون مُسْتَعِرْ
بِأَبِى واللهِ ما أحسنَهُ ‏ دَمْعُ عين غسَّلَ الكُحْلَ قَطرْ

(١) الوقر : ثقل فى الأذن أو ذهاب السمع كله . (٢) المختار من شعر بشار ١٠٦ .
(٣) مازه : ميزه وعزله وفرزه .

أيها النُّوَّام هبُّوا وَيْحَكُم وسَلُونى اليومَ ما طَعْمُ السَّهَرْ

فأمره المهدى ألاَّ يتغزل ، فقال أشعاراً فى ذلك ، منها (١) :

يا منظراً حسناً رأيته من وجه جاريةٍ فدَيْتُه
لمتْ (٢) إلىَّ تَسُومنى ثَوْبَ الشباب وقد طويتُه
واللهِ ربِّ محمدٍ ما إن غَدَرْتُ ولا نَوَيْتُه
أَمْسَكْت عنك وربما عَرِض البلاءُ وما ابتغيتُه
إنَّ الخليفة قد أبى وإذا أَبى شيئاً أَبيتُه
ويَشُوقنى بيتُ الحبيـ ـب إذا غَدَوت (٣) وأين بَيْتُه
قام الخليفةُ دونَهُ فصبَرْتُ عنه وما قَلَيْتُه
ونهانىَ المَلِكُ الهما م عن النساء فما عصيْتُه
بل قد وفيتُ ولم أُضِع عَهْداً ولا رأياً رأيتُه

وقال أيضاً (٤) :

والله لولا رِضَا الخليفةِ ما أعطيتُ ضَيْماً علىَّ فى شجَنِ
قد عِشْت بين النَّدْمَان والرَّاح والْـ مِزْهر فى ظل مَجْلِسٍ حَسَنِ (٥)
ثم نهانى المهدى فانصرفَتْ نفسىَ صُنْعَ (٦) الموفَّق اللَّقِنِ

وقال :

أفنيتُ عمرى وتَقَضَّى الشبابْ بين الحميَّا والجَوَارِى العِذَابْ (٧)
فالآن شفَّعتُ (٨) إمام الهُدَى وربما طِبْت لحبٍّ وطَاب
لهوت حتى رَاعَنى دَاعياً صوتُ أمير المؤمنين المُجَابْ

---

(١) الأغانى : ٣–٢١١ ، ٢٣٩ . (٢) لمع بيده : أشار ، وفى الأغانى : بعثت .

(٣) فى الأغانى : إذا ادكرت . (٤) الأغانى : ٣–٢٤١ ، المختار : ١٠٥ .

(٥) هكذا بكل الأصول ، وفى الأغانى : قد عشت بين الريحان والراح والمزهر ...

(٦) فى الأغانى : صنيع . واللقن : سريع الفهم . (٧) الحميا من الكأس : سورتها وشدتها ، وفى ق ، س : الجوارى الأواب . (٨) شفعته : قبلت شفاعته .

لبّيك لبَّيك ! هجرتُ الصِّبا … ونَام عُذَّالِى ومات العِتَابْ
أَبصرت رُشْدِى وتركت المُنَى … وربما ذلَّتْ لهنَّ الرِّقَابْ

فى كلمة طويلة يقول فيها :

يا حامد القول ولم يَبلُهُ … سبقْتَ بالسَّيْلِ مَسَاك(١) السَّحَابْ
الفعلُ أَوْلَى بثناء الفتى … ماجاءه من خَطأ أَوْ صَوَاب
دعْ قولَ وَاء وانتظرْ فِعْلَهُ … يُثْنِى على اللِّقْحَةِ مافِى الحِلَابْ(٢)
إذا غـدا المهدىُّ فى جُنْدهِ … ورَاحَ فى آلِ الرسول الغِضَاب
بدَا لك المعروفُ فى وجهِه … كالظَّلْم(٣) يجْرِى فى الثنايا العِذَابْ

من غزله

ومن شعر بشار فى الغزل (٤) :

أيهـا الساقيانِ صُبَّا شَرَابى … واسقيانى من رِيق بيضاءَ رُودِ(٥)
إنّ دائى الصَّدى وإنّ شفائى … شَرْبَةٌ من رُضَاب ثَغْرٍ بَرُودِ
عندها الصبرُ عن لقائى وعنـدى … زفرات يأْكُلْنَ قَلْبَ الجليدِ
ولها مَبْسِمٌ كَغُرِّ الأَقاحى … وحديثٌ كالوَشْىِ وَشْىِ البُرُودِ
نزلَتْ فى السَّوَاد من حَبَّةِ القَلْـ … ـب ونالَتْ زيادةَ المستزِيدِ
ثم قالت : نَلْقَاكَ بعـد لَيالٍ … والليالِى يُبْلِينَ كلَّ جديد
لا أُبالى مَنْ ضَنَّ عنى بوَصْلٍ … إنْ قَضَى اللهُ منك لى يَوْمَ جُودِ

وقال :

تُلقَى بتسبيحةٍ من حُسن ماخُلِقَت … وتستفزّ حَشَا الرَّائى بإرْعَادِ
كأنمـا صوِّرَتْ من ماءِ لؤلؤةٍ … فكلُّ جارحةٍ وَجْهٌ بمِرْصَادِ

---

(١) المساك بفتح الميم : الموضع يمسك فيه الماء .

(٢) واء : واعد ، اللقحة : الناقة الحلوب . (٣) الظلم : ماء الأسنان .

(٤) الأغانى : ٣ــ١٨٧ . (٥) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وقال :

وهبَتْ له على المسواك رِيقاً فطابَ له بطيبِ ثنيَّتيك
أقبّله على الذكرى كأنّى أقبّل فيه فاكَ ومقلتيك

وقال :

لا أستطيعُ الهوى وهِجْرتها قلبى ضعيفٌ وقلبها حَجَرٌ
كأنَّ وجْدِى بها وقد حجبت فى الرأس والعين والحشا سُكُرُ

وأنشد له أبو تمام ، وكان يقول : ما رأيتُ شعراً أغزل منه :

زوِّدينا يا عَبْد قَبْلَ الفراقِ بتلاقٍ وكيف لى بالتَّلاقِ
أنا واللهِ أشتهى سِحْرَ عينيـ ـك وأخْشَى مصارِعَ العشاق
أَمَتِى من بنى عقيل بن كَعْب موضع السِّلْكِ فى طُلَا[1] الأعْنَاقِ

وقال :

لقد عشقَتْ أذنى كلاماً سمعتهُ رَخيا وقَلْبى للمليحةِ أعشقُ
ولو عايَنوها لم يَلوموا على البُكا كريماً سقاهُ الخمرَ بدرٌ مُحَلِّقُ[2]
وكيف تناسِى مَنْ كأنّ حديثهُ بأذنى وإن عنيت قُرْطٌ مُعَلَّقٌ

وقال[3] :

وقد كنت فى ذاك الشبابِ الذى مضى أُزَارُ ويَدْعُونى الهوَى فأَزُورُ
فإن فاتنى إلفٌ ظللْتُ كأنما يُديرُ حياتى فى يديه مُديرُ
ومُرْتَجَّة الأَرْدافِ مهضومة الحشاَ تَمُورُ[4] بسِحْرٍ عَيْنُهَا وتَدُورُ
إذا نظرت صبَّت عليك صبابةً وكادَتْ قلوبُ العالمين تَطِيرُ
خلوتُ بها لا يَخْلصُ الماء بيننا إلى الصُّبح دونى حاجِبٌ وسُتُورُ

---

(١) الطلا : أصول الأعناق . (٢) فى س : مخلق . (٣) اللآلئ : ٥١٨ .
(٤) تمور : تموج وتضطرب .

ومن هذا أخذ على بن الجهم قوله[1] :

صِليني[2] وحَبْل الوصل لم يتشعَّب ... ولا تهجرى[3] أَفْدِيك بالأُمّ والأَبِ
رَعَى اللهُ دَهْراً ضَمَّنَا بعد فُرْقَةٍ ... وأَدْنَى فؤاداً من فؤادٍ مُعَذَّبِ
عناقا وضمًّا والتزاماً كأنما ... يرى جَسدَانَا جسم روح مركب
فبِتْنَا وإِنا[4] لو تُرَاق زَجاجةٌ ... من الخَمْرِ فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وشعره فى هذا المعنى كثير .

شعره ورُوى أنه قال : أنا أَشْعَرُ الناسِ ؛ لأنَّ لى اثنى عشر ألفَ قصيدة ، فلو اختِير من كل قصيدة بيتٌ لاستندر ، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أَشعرُ الناس ؛ وقد نثرتُ نَظْمَه فى أضعاف الكتاب استدعاءً لنشاط القارئ وكراهة فى إملاله .

وكان بشارٌ أرقّ المحدَثين ديباجةَ كلام ، وسُمّى أَبا المحدثين ؛ لأنه فتَّق لهم أكمام المعانى ، ونهَج لهم سبيل البديع ، فاتّبعوه ؛ وكان ابن الرومى يُقدِّمه ، ويزعمُ أنه أشعرُ من تقدّم وتأخر .

ولاؤه وهو يتعلق فى شعره بولاء عَقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ويفتخرُ بالمضرية . قال له المهدى : فيمن تَعْتَزِى ؟ قال : أمَّا اللسان فعربىّ ، وأما الأصل فكما قلت فى شعرى . قال : وما قلت ؟ فأنشده[5] :

ونُبِّئت قوماً لهم إِحْنةٌ[6] ... يقولون مَنْ ذا وكُنْتُ العَلَمْ
ألا أيها السائلى جاهِلًا ... ليَعْرِفنى أنا إِلْفُ[7] الكَرَمْ
نَمتْ فى المكارمِ بى عامرٌ ... فُرُوعى وأصلى قُرَيشُ العَجَمْ
وإِنى لأُغنى مقام الفتى ... وأُصْبِى الفتاةَ فلا تَعْتَصِمْ

---

(١) ديوان على بن الجهم ٩٥ ، الأمالى ١ ـ ٢٣١ ، النويرى ٢ ـ ١٠٤ (٢) فى الديوان : ذرينى أمت والشمل ... (٣) فى الديوان : ولاتبعدى . (٤) فى الديوان : فبتنا جميعا .
(٥) معاهد التنصيص ١ ـ ٢٨٩ . (٦) فى المعاهد : بهم جنة . (٧) فى المعاهد : أنف الكرم .

البيت الأول من هذه الأبياتِ ينظرُ إلى قول جميل :

إذا ما رأونى طالعاً من ثنيـةٍ يقولون مَنْ هذا وقد عرَفونى

وفى هذه القصيدة يقول بشار[١] :

وبيضاء يضـحكُ ماءُ الشبا ب فى وجهها لكَ إذ تَبْتَسِمْ

روَاء[٢] العذارى إذا زُرْنَها أطَفْن بحَوْرَاء مِثْلِ الصَّنَمْ

يَرُحْنَ فَيَمْسَحْنَ أركانَها كما يَمْسَحُ الحجَرَ المُسْتَلِمْ

أصفراء ليس الفتى صَخْرَةً ولـكنه نُصْب هَمّ وغَمّْ

صببتِ هواكِ على قلبـهِ فضاق وأعْلن ما قد كَتَمْ

ويقال : إنه مولى لأم الظباء السدوسية ، ولذلك قال أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزّال[٣] رئيس المعتزلة لما هجاه بشار[٤] : أمَا لهذا الأعمى المُلْحِد المُشَنَّف المـكتنى بأبى معاذ مَنْ يَقْتُله ؟ والله لولا أنَّ الغِيلة من سجايَا الغَالِية ، لبعثتُ إليه من يَبْعَجُ بطنه فى جوف منزلِه ، ولا يكون إلا سَدُوسِيّا ، أو عُقَيْلِيّا .

* * *

واصل بن عطاء

وكان واصلُ بنُ عطاء أحد أعاجيب الدنيا ؛ لأنه كان ألثغ فى الراء ، فأسقطها من جميع كلامه وخطبه ؛ إذ كان إمامَ مَذْهَب ، وداعى نِحْلة ، وكان محتاجاً إلى جَوْدَةِ البيَانِ ، وفصَاحَةِ اللِّسَانِ . قال الجاحظ[٥] : فانظر كثرةَ ترداد الراء فى هذا الـكلام وكيف أسقطها؟ قال : الأعمى، ولم يقل الضرير ، قال : الملحد ولم يقل الـكافر، وقال : المشنَّف ، ولم يقل المرَعَّث ، وقال : المـكتنى بأبى معاذ ولم يقل بشاراً ولا ابن برد ، وقال : الغالية ، ولم يقل المغيرية ، ولا المنصورية[٦] ، وهم الذين أرد ، وقال :

---

(١) الأغانى ٣ـ١٦٤ . (٢) فى الأغانى : دوار . قال : وهو صنم ، وفى س: دواو.

(٣) فى س : العزال ـ بالعين . (٤) ارجع إلى الأغانى فى ذلك ٣ـ١٤٦ .

(٥) الأغانى ٣ ـ ١٤٦ . (٦) فى الأغانى : وقال : من سجايا الغالية ، ولم يقل الرافضة.

لبعثت ، ولم يقل : لأَرْسلت ، وقال : يبعَج ولم يقل : يبْقر ، وقال : فى جوف منزله، ولم يقل : فى داره ، وأراد بذكر عُقَيْل وسَدُوس ما ذكر من اعتزائه إليهم .

***

دين بشار

وزعم الجاحظ(١) أن بشاراً كان يَدِين بالرَّجعة(٢) ، ويُكَفِّر جميعَ الأُمة ؛ وأنشد له أشعاراً صوّب بها رَأْيَ إبليس فى تقديم النار على الطين ، منها قوله(٣) :

الأرض مُظْلِمَةٌ والنارُ مُشْرِقَةٌ ‏ والنارُ معبودةٌ مُذْ كانتِ النارُ

وقال داود بن رَزِين(٣) : أتينا بشاراً فأذِنَ لنا والمائدةُ بين يديه ، فلم يَدْعُنَا إلى الطعام ، ثم جلسنا نحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصلّ ، ودعا بطَسْت فَبالَ بحضرتنا ، فقلنا له : أَنت أستاذُنا ، وقد رأينا منكَ أشياءَ أنكرناها . قال : ماهى؟ قلنا : دخلْنَا والطعامُ بين يديك فلم تَدْعُنَا ، قال : إنما أذِنْتُ لتأْكلوا ، ولو لم نُرِدْ ذلك لم نَأْذن لكم . قلنا له : ودعوت بالطَّست ونحن حضور ، قال : أنا مكفوف ، وأنتم مأمورون بغضّ الأبصار دونى. قلنا : وحضرت الصلاة فلم تصلّ ! قال : الذى يقبلها تفارِيقَ يقبلها جملة ! هذا وهو القائل :

كيف يبكى لمَحْبَس فى طُلولِ ‏ من سيُفْضِى لحَبْسِ يومٍ طويلِ
إن فى البعثِ والحساب لشغلاً ‏ عن وقوفٍ برَسْمِ دَارٍ محيلِ

وقال :

ذكرتُ بها عيشًا فقلت لصاحبى ‏ كأَنْ لم يكُنْ ما كان حينَ يزولُ
وما حاجتى لو ساعد الدهرُ بالمُنَى ‏ كِمَابَ عليها لؤلؤٌ وشُكُولُ
بدا لىَ أن الدهرَ يَقْدَحُ فى الصَّفَا ‏ وأَنَّ بَقَائى إن حييت قَليلُ
فعِشْ خائفاً للموتِ أو غيرَ خائفٍ ‏ على كل نفسٍ للحِمامِ دَليل
خليلك ما قدمت من عملِ التُّقَى ‏ وليس لأَيَّامِ المَنُون خَلِيلُ

---

(١) الأغانى ٣ـ١٤٥ (٢) الإيمان بالرجوع بعد الموت فى الدنيا .
(٣) الأغانى ٣ ــ ١٨٦ .

سجعه ورجزه

وكان بشّارٌ حاضرَ الجواب ، سجّاعا خطيبا، صاحبَ منثور ومُزْدَوَج، ورَجز[١] ورسائل مختارة على كثير من الـكلام ، ودخـل[٢] على عُقْبة بن مسلم[٣] بن قتيبة ، فأنشده مديحا وعنده عقبة بن رُؤْبة ، فأنشده أرجوزة ، ثم أَقبل على بشار فقال : هذا طِرازٌ لا تحسنه يا أَبا معاذ ! فقال : والله لأَنا أَرجز منك ومن أبيك ! ثم غدا على عقبة من الغَد فأنشده أرجوزتَه :

يا طَلَلَ الحىّ بذاتِ الصَّمْدِ[٤] ... باللهِ خَبِّرْ كيف كنتَ بعدى

يقول فيها :

صدّت بخدٍّ وجلَتْ عن خَدِّ ... ثم انثَنَتْ كالنَّفَسِ المُرْتَدِّ

وصاحبٍ كالدُّمّلِ المُمِدِّ ... حملتُه فى رُقْعَـةٍ من جِلْدِى

حتى اغتدى[٥] غيرَ فقيدِ الفقْدِ ... وما درى ما رَغْبَتِى من زُهْدِى

وهذا كقول الآخر :

يودّون لو خاطُوا عليك جلودَهم ... ولا يَدْفع الموتَ النفوسُ الشحائحُ

وفيها يقول :

الحرّ يُلْحَى[٦] والعصا للعَبْدِ ... وليس للمُلْحِفِ مِثْلُ الردِّ

اسلَمْ وحُيِّيتَ أَبا المِلَدِّ ... مفتاحَ باب الحَدث المُنْسَدِّ

والبس طِرَازى غيرَ مُسْتَرَدِّ ... للهِ أيامُك فى مَعَدِّ

وهى طويلة[٧] ، فأجزلَ صلته ، فلما سمع ابن رُؤْبة ما فيها من الغريب قال : أنا وأبى وجدّى فتحْنَا الغريبَ للناس ، وإنى لخليق أن أسدّه عليهم . فقال بشار : ارحمهم رحمك الله ! قال : تستخفّ بى ، وأنا شاعر ابن شاعر ؟ قال : إذاً

---

(١) عبارة الجاحظ : وسجع ورسائل (الأغانى ٣ـ١٤٥) . (٢) الأغانى ٣ـ١٧٤ ، وفيه الأرجوزة . (٣) فى الأغانى : بن سلم . (٤) الصمد : موضع فى ديار بنى يربوع . وماء للضباب . (٥) فى الأغانى : حتى مضى . (٦) لحيت فلانا : لمته .
(٧) ارجع إليها فى الأغانى ٣ـ١٧٥ .

أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرِّجْس وطهَّرهم تطهيراً ! فضحك كلّ مَنْ حضر .

بعض طرفه

ودخل[1] على المهدى وعنده خالُه يزيد بن منصور الحميرى فأنشده قصيدة ، فلما أتمَّها قال له يزيد : ما صناعتك ياشيخ ؟ قال: أثقُبُ اللُّؤْلُؤَ . فقال له المهدى : أتهزَأ بخَالِي ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، فما يكونُ جَوَابى لمن يرَى شَيْخاً أعمى يُنْشِدُ شعراً فيسأله عن صِناَعته ؟

وقال جَوَارى المهدى للمهدى : لو أَذِنْتَ لبشَّار يدخـلُ إلينا يؤانسنا ويُنْشِدنا فهو محجوب البَصَرِ ، لا غيرة عليكَ منه . وأمره فدخل إليهن واستظرَفْنَه ، وقلن له: وددنا واللهِ يا أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارِقك ، قال : ونحن على دينِ كسرى ! فأمر المهدى ألّا يدخل عليهن .

وكأن المتنبى نظر إلى هذا فقال[2] :

يا أخْتَ معتَنِقِ الفوارس ِفىالوَغَى ... لَأَخُوكِ ثَمَّ أرقُّ مِنْكِ وأرْحَمُ
يَرْنُو إليكِ مع العفافِ وعِنْدَهُ ... أنَّ المجوسَ تُصِيبُ فيما تَحْكُمُ

[كلمات مأثورة]

فى المودة

قال على بن عبيدة الريحانى : المودَّةُ تَعاطُفُ القلوب ، وائتـلافُ الأرواح ، وحَنِين النفوس إلى مَثَابة السرائر ، والاسترواحُ بالمستكنَّات فى الغرائز ، ووحشة الأشخاص عند تَبايُن اللقاء ، وظاهر السرور بكثرة التّزوار ، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون اتفاقُ الخصَال .

فى العتاب

وقال: العِتابُ حدائقُ المتحابِّين، وثمارُ الأَوِدّاء، ودليل الظنّ، وحركات الشَّوق، وراحةُ الوَاجد ، ولسان المُشْفِق .

---

(١) الأغانى ٣ـ١٥٩ . (٢) ديوانه ٤ـ١٢٢ .

قال بعض الكتاب: العِتاب عَلامةُ الوَفاء، وحاصَّة الجَفاء، وسِلاحُ الأَكْفاء.

وقال على بن عبيدة: التجنّى رسولُ القطيعة، وداعى القِلَى [1]، وسبب السلوّ، وأوّلُ التجافى، ومنزل التهاجر. التجنى

وقال: الصدقُ ربيعُ القلب، وزكاة الخَلْقِ، وثمرة المروءة، وشُعاعُ الضمير، وعن جلالة القدر عبارته، وإلى اعتدالِ وزْن العقل يُنْسَب صاحبه، وشهادتُه قاطعةٌ فى الاختلاف، وإليه ترجع الحكومات. الصدق

وقال: الكذبُ شِعارُ الخيانة، وتحريفُ العلم، وخواطر الزّور، وتسويلُ أضغاث النفس، واعوجاجُ التركيب، واختلافُ البنية، وعن خمول الذكر مايكون صاحبه. الكذب

وعلى بن عبيدة كثيرُ الإغارة عَلَى ما كان غَيْرُه قد استَثَارَه.

فقر فى الكذب لغير واحد

بعض الفلاسفة ـ الكذَّاب والميّتُ سواء؛ لأنّ فضيلة الحىِّ النُّطق، فإذا لم يُوثَق بكلامه فقد بطلت حياته.

الحسن بن سهل ـ الكذّاب لِصّ؛ لأن اللصَّ يسرقُ مالك، والكذّاب يسرقُ عقلك، ولا تأمن مَنْ كذب لك أَنْ يَكْذِب عليك، ومن اغتاب غيرَك عندك فلا تأْمَنْ أن يغتابَك عند غيرك. قال إبراهيم بن العباس فى هذا النحو [2]:

إنى متى أحقِدْ بحِقْـ ـدك لا أَضُرُّ به سِوَاكا
ومتى أطعتُك فى أخـ ـيك أطعتُ فيك غداً أخاكا
حتّى أُرَى متقسّما يَوْمِى لذا وغداً لِذَاكا

حَسْبُ الكاذب بعقله سقما وبقلبه خصما.

---

(١) البغض. (٢) ديوانه ١٦٢.

ابن المعتز ـ علامةُ الكذاب جَوْدُه باليمين لغير مستحلف ، وقال :

وفى اليمين على ما أنت فاعلهُ ما دلّ أنك فى الميعادِ مُتّهَمُ

وقال : اجتنِبْ مصاحبةَ الكذّاب ، فإن اضطررت إليه فلا تصدّقه ، ولا تُعْلِمه أنك تكذّبه ، فينتقل عن وُدّه ، ولا ينتقل عن طبعه . يعترى حديثُ الكذاب من الاختلاف مالا يعترى الجَبَان من الارتعاد عند الحَرْب . لا تَصِحّ للكذّاب رُؤْيا ؛ لأنه يُخْبِر عن نفسه فى اليقظة بما لم يرَ ، فتريه فى النوم مالا يكون . وأنشد:

لا يكذب المرء إلا مِنْ مهانتِهِ أوعادة السوء أو مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ

ولأهل العصر : فلانٌ مُنْغَمِس فى عيبه ، يكذب لذيله على جَيْبِه ، يقول بَهْتاً[1] وزُوراً بَحْتاً ، قد ملأ قلبه رَيْنا ، وقوله مَيْنا[2] ؛ يدين بالكذب مَذْهبا ، ويستثير الزّور مركباً . أقاويلُ يتمشّى الزُّورُ فى مناكبها ، ويَبْرُزُ البهتانُ فى مذاهبها .

وقال أعرابى لابنه وسمعه يَكْذِب : يابنى ، عجبتُ من الكذّاب المُشِيد بكَذِبه، وإنما يدلُّ على عَيْبِه ، ويتعرّضُ للعقاب من رَبّه ؛ فالآثامُ له عادة ، والأَخبارُ عنه متضادّة، إن قال حقا لم يصدَّق ، وإن أراد خيراً لم يوفَّق، فهو الجانى على نفسه بفعاله، والدّالُّ على فضيحته بمَقَالِه . فما صحَّ من صدقه نُسِب إلى غيره ، وما صحّ من كذب غَيْرِه نُسِب إليه ، فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكذوب من المها نة بَعْضُ ما يحكى عليهِ
ما إنْ سمعت بكذبةٍ من غَيْرِه نُسِبَتْ إليهِ

[ثواب الشكر]

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون ـ بعد أن زُفّت إليه بوران وتوهّم القوادُ أن هذا التزويجَ قد أَنْسَى الحسَن حالَه قبل ذلك : قد تولّى أميرُ المؤمنين من تَعْظِيم عبده

---

(١) بهته : قال عليه ما لم يفعل . (٢) الرين : الدنس ، ورانت النفس : خبثت . والمين : الكذب .

فى قبول أَمَتِه شيئاً لا يتّسعُ له الشكرُ عنه إلّا بمعونة أَميرِ المؤمنين ، أدام الله عزّه فى إخراج توقيعه بتزيين حَالِى فى العامَّة والخاصة ، بما يراه فيه صواباً إن شاء الله .

نخرج التوقيع : الحسنُ بن سهل زِمامٌ على ما جمع أُمور الخاصة ، وكَنَف أسبابَ العامة ، وأحاط بالنفقات ، ونفذ بالولاة ، وإليه الخراجُ والبريدُ واختيارُ القضاة ، جزاءً بمعرفته بالحالِ التى قَرَّبَتْهُ منا ، وإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا .

[خطب النكاح]

قال يحي بن أكثم : أراد المأمون أن يزوّج ابنته من الرضا(1) فقال : يا يحي ؛ تكلم ، فأجلَلْتُه أن أقولَ: أنكحت ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، أَنت الحاكم الأكبر، والإمام الأعظم، وأَنْتَ أَوْلى بالكلام، فقال: الحمدُ لله الذى تصاغرت الأمورُ بمشيئته، ولا إلهَ إلا هو إقراراً بربوبيتّه ، وصلّى الله على محمد عند ذكره .

أمّا بعد ، فإنّ اللهَ قد جعل النكاح دِينا ، ورَضِيَه حُكْماً ، وأنزله وَحْياً ؛ ليكونَ سببَ المناسبة ؛ ألَا وإنى قد زوّجت ابنة المأمون من علىّ بن موسى ، وأمهرتها أربعمائة درهم ، اقتداءً بسنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاءً إلى ما دَرَج إليه السّلفُ ، والحمد لله ربّ العالمين .

ما كان يستحب من الخاطب والمخطوب إليه

قال الأصمعى : كانوا يستحبّون من الخاطب إلى الرجل حُرمته الإطالَة ؛ لتدلّ على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ، ليدلّ على الإجابة .

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ؛ فقال عمر : الحمدُ لله ذى الكبرياء ، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء ؛ أمّا بعد فإن الرغبةَ منك دَعَتْك إلينا ، والرغبة منا فيك أجابَتْ ، وقد زوّجناك على كتابِ الله : إمساكٌ بمعروف ، أو تسريحٌ بإحسان .

---

(١) على بن موسى .

وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن يخطُب له ، فاستفتح بحمدِ الله وأطال وصلّى على النبيّ عليه السلام وأطال ، ثم ذكر البدء وخَلْقَ السموات والأرض ، واقتصّ ذِكْرَ القرون حتى ضَجر مَنْ حضر ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما اسمُكَ أعزّكَ الله ؟ فقال : والله قد أُنسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى طالقٌ إنْ تزوجتها بهذه الخطبة؛ فضحك القوم ، وعقدوا فى مجلس آخر .

[الكتب والأقلام والخط]

الكتاب والقلم — وقال ابن المعتزّ: الكتاب وَالِجُ الأبواب ، جرىءٌ على الحجّاب، مُفهِم لا يَفْهَمُ، وناطقٌ لا يتكلّم ، به يشخص المشتاقُ إذا أقعده الفراق، والقلم مجهِّزٌ لجيوش الكلام، يخدم الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ، ويسكتُ واقفا ، ويَنْطِقُ سائراً ، على أرض بياضها مُظْلِم ، وسوادُها مُضِيء ، وكأنه يقبِّل بِساط سلطان، أو يفتح نُوَّار بُسْتان.

وهذا كقوله فى القاسم بن عبيد الله ، قال الصولى لما عُرض القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه — قال ابن المعتزّ :

قلمٌ ما أراهُ أم فلك يَجْـ ... رى بما شاءَ قاسِمٌ ويسيرُ
خاشعٌ فى يدَيْه يَلْثِمُ قِرْطا ... ساً كما قبّل البساطَ شكورُ
ولَطِيفُ المعنى جَليلٌ نَحِيفٌ ... وكبير الأفعال وهْوَ صَغِيرُ
كم منايا وكم عطايا وكم حَتْـ ... فٍ وعيشٍ تَضُمُّ تلك السُّطورُ
نقشت بالدُّجا نهارا فما أَدْ ... رى أخطٌّ فيهنَّ أم تَصْوِير
هكذا مَنْ أبوه مِثْلُ عُبَيْد الْـ ... لَّه ينمى إلى العُلا ويَصِير
عَظُمَتْ مِنَّةُ الإلهِ عليْهِ ... فهناك الوزيرُ وهْوَ الوَزِيرُ

صورة الخط — وقال بعض البلغاء : صورةُ الخطّ فى الأبصار سواد ، وفى البصائر بَيَاض .

وقال أبو الطيب المتنبى(١) :

---

(١) ديوانه ٢—١٥٧ .

دَعانِي إليكَ العِلمُ والحِلْمُ والحِجَى وهذا الكلامُ النَّظْمُ والنّائلُ النّثْرُ
وما قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكادُ بُيوتُهُ إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نورِهَا الحِبْرُ

وقال ابن المعتز فى عبيد الله بن سليمان بن وهب[(١)] :

عليمٌ بأعْقَابِ الأمورِ كأنهُ بمختلسات الظّن يسمعُ أو يرى
إذا أخذ القرطاس خِلْتَ يمينهُ يُفتِّح نَوْرًا أو ينظِّم جوهرا[(٢)]

بين صاحب سيف وصاحب قلم

فاخرَ[(٣)] صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم ، فقال صاحب القلم : أنا أقتلُ بلا غَرَر ، وأنت تقتلُ على خَطَر . فقال صاحب السيف: القلمُ خادِمُ السيف ، إن تمَّ مرادُه[(٤)]، وإلّا فإلى السيف مَعاده ؛ أما سمعت قول أبى تمام[(٥)] :

السيفُ أصْدَقُ إنباءً من الكُتُبِ فى حَدِّه الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصفائحِ لا سُودُ الصَّحائفِ فى مُتونِهنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وقال أبو الطيب[(٦)] :

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إبْلِى كُلَّمَا نظرَتْ إلى مَنِ اخْتَضَبَتْ أخْفَافُهَا بدَمِ
أُسيرُهَا بَيْنَ أصنامٍ أُشاهِدُهَا ولا أُشَاهِدُ فيهَا عِفَّةَ الصَّنَمِ
حتى رجَعْتُ وأقلامِي قوائِلُ لى المجدُ للسَّيْفِ ليْسَ المجدُ لِلقلَمِ
اكْتُبْ بِنَا أبداً بعدَ الكِتَابِ به فإنَّما نَحْنُ للأَسيافِ كالخدَمِ

هذا مقلوبٌ من قول على بن العباس النوبختى ، وقد رواه أبو القاسم الزجاجى لابن الرومى ، وإنما وهم لاتّفاق الاسمين[(٧)] :

إن يَخْدُمِ القلمُ السيفَ الّذى خضعَتْ له الرقابُ ودانَتْ خوفَه الأممُ
فالموتُ ــ والموتُ لا شىءٌ يُغَالبهُ ما زال يَتْبَعُ ما يَجْرِى به القلمُ

---

(١) ديوانه ١١٦ . (٢) فى الديوان : تفتح نورا أو تنظم .
(٣) ديوان المعانى ٢ــ٧٧ . (٤) فى ديوان المعانى : إن بلغ مراده . (٥) ديوانه ٧ .
(٦) ديوانه ٤ــ١٥٩ . (٧) ديوان ابن الرومى ٣٧٢ ، ديوان المعانى ٧٧ .

بذا[١] قَضَى اللهُ للأقلام مُذْ بُرِيت أَنّ السيوفَ لها ـ مُذْ أرهِفت ـ خَدَمُ

وقال ابن الرومى[٢] :

لَعَمْرُكَ ما السَّيْفُ سَيْف الكَمِىِّ بأخْوَفَ مِنْ قَلَمِ الْكاتِبِ
لَهُ شَاهدٌ إِنْ تأمَّلْتَهُ ظَهَرْتَ على سِرِّهِ الْغَائِبِ
أداةُ المنِيَّةِ فى جانبيه فمِنْ مِثْلِه رَهْبَةُ الرَّاهِبِ
سِنَانُ المنيةِ فى جَانِبٍ وحَدٌّ[٣] المنِيَّةِ فى جَانِبِ
ألم تَرَ فى صَدْرِهِ كالسِّنَانِ وفى الرِّدْفِ كالمُرْهَفِ الْقَاضِبِ[٤]

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أقسَم الأبطالُ يوماً بسيفهم وعدّوه مما يُكْسِبُ المجدَ والكرمْ
كفى قَلَمُ الكتّاب مَجْدًا ورفعةً مدَى الدَّهرِ أنّ الله أقْسَم بالقَلَمْ

وقد قيل : صريرُ الأقلام ، أشدّ من صليل الحُسام .

قال الصولى: أنشدنى طلحة بن عبيد الله:

وإذا أمرَّ على المَهَارِق كَفَّهُ بأناملٍ يَحْمِلْنَ شَخْتا مُرْهَفا[٥]
متقاصراً مُتَطاوِلا ومفصّلا وموصّلا ومشتّتاً ومُؤَلّفا
ترك العُدَاة رَواجِفاً أحشاؤُهَا وقِلَاعَها قِلَعاً[٦] هنالِكَ رُجَّفا
كالحيةِ الرَّقْشَاء إلّا أنه يستنزل الأَرْوَى[٧] إليه تلطّفا
يرمى به قلماً يمجُّ لُعابه فيعود سيفا صارِماً ومثقّفا

وقال محمود بن أحمد الأصبهانى :

---

(١) فى الديوان : كذا . (٢) ديوانه ١ ـ ١٧٤ ، ديوان المعانى ٧٨ .
(٣) فى الديوان : وسيف . (٤) القاضب : القاطع . (٥) المهرق : الصحيفة البيضاء ، والجمع مهارق . الشخت : الدقيق الضامر لا هزالا . (٦) القلعة ـ بالتحريك : صخرة تنقلع من الجبل وجمعها قلع بكسر القاف . أو هى قلع بفتحتين وهى السحب .
(٧) الأروية :أنثى الوعول . والكثير أروى .

أخرسُ يُنبيك بإطْراقِه عن كل ما شئتَ مِنَ الأمرِ
يُذْرِي[1] على قِرْطاسِه دَمْعَةً يُبْدى بها السرَّ وما يَدْرى
كعاشق أخْفَى هواه وقد نمَّت عليه عَبْرَةٌ تَجْرِى
تُبْصِرُه فى كلِّ أحوالِه عُرْيَانَ يَكْسُو الناسَ أو يُعْرِى
يُرى أسيراً فى دوَاةٍ وقد أطْلَق أقواماً من الأسْر
أخرق لو لم تَبْرِه لم يَكُنْ يَرْشُقُ أقواماً وما يَبْرِى
كالبَحْر إذْ يجرى وكالليل إذْ يَغْشَى ، وكالصارم إذْ يَفْرِى

وقال أحمد بن جِرَار[2] :

أهيفُ ممشوقٌ بتحريكهِ يحلّ عقدَ السّرِّ إعلانُ
له لسانٌ مُرْهَفٌ حدُّهُ من رِيقَة الكُرْسُف رَيَّان[3]
ترَى بسيطَ الفِكرِ فى نَظْمِه شَخْصاً له حدٌّ وجُثْمَان
كأنما يَسْحَبُ فى إثْرِه ذَيْلًا من الحِكْمة سَحْبَانُ
لولاه ما قام مَنَارُ الهدى ولا سَمَا لِلمُلْكِ ديوانُ

ومن أجود ما قيل فى صفة القلم قول أبى تمام لمحمد بن عبد الملك[4] الزيات :

أجود ما قيل فى وصف القلم

لكَ القَلَمُ الأعْلَى الّذى بِشَباتِه[5] تُصابُ من الأَمْرِ الكُلَى والمفاصِلُ
له رِيقةٌ طَلٌّ وَلكِنَّ وَقْعَهَا بآثارِهِ فى الشَّرْقِ والغَرْبِ وَابِلُ
لُعابُ الأفَاعِى القَاتِلاَتِ لُعَابُهُ وَأَرْىُ[6] الجَنَى اشْتَارَتْه أَيْدٍ عَوَاسِلُ
له[7] الخلوات اللاء لولا نَجِيُّها لمـا اختلفت[8] لِلمُلك تِلْكَ المَحَافل

(١) أذرت العين دمعها : صبته . (٢) هكذا فى كل الأصول، والضبط من س .
(٣) فى ط : ريقه، والريق : الرضاب والريقة أخص منه ، الكرسف : القطن .
(٤) ديوانه ٢٥٧ ، ديوان المعانى ٧٨ . (٥) الشباة : حد كل شىء .
(٦) الأرى : العسل . (٧) فى الديوان : لك . (٨) فى الديوان ، س : احتفلت .

وقال الأمير تميم بن المعز :

وذي عَجب من طول صَبْرِي على الذى ... أُلَاقِى من الأَرْزَاءِ وهو جليلُ
يقولون: ماتَشْكُو؟ فقلت: متى شكا ... شَبَا السيفِ عَضْبُ الشفرتَيْن صَقيلُ
وإنّ امرأً يشكُو إلى غير نافع ... ويَسْخُو بما فى نفسهِ لجَهُولُ
عذابىَ أَنْ أشكو إلى الناس أننى ... عليلٌ ومَنْ أشكو إليه عَليلُ
ويمنعنى الشكوى إلى الله علمُهُ ... بجُمْلَةِ ما أَلْقَاه قَبْلَ أقُول
سأسكتُ صَبْراً واحتساباً فإننى ... أَرى الصَّبرَ سيفاً ليس فيه فُلُول

وقال :

يادَهْرُ ما أقساكَ من متلوّن ... فى حالتيك وما أقلّك مُنْصِفَا
أتروح للنِّكس (١) الجهول مُمَهّدا ... وعلى اللبيب الحرِّ سيفاً مُرْهَفا
وإذا صفوت كَدرت، شيمةَ باخلٍ، ... وإذا وفيت نقضت أسبابَ الوَفَا
لا أرتضيك وإن كرمت لأننى ... أدْرِى بأنك لا تدومُ على الصّفَا
زمنٌ إذا أعطى استردّ عَطَاءَهُ ... وإذا استقام بَدَا له فتحرَّفَا
ما قام خيرُكَ يا زمانُ بشرّهِ ... أَوْلَى بنا ما قلَّ منك وما كَفَى

[الصدق فى النصيحة]

وكان أحمدُ بنُ يوسف منصرفاً عن غسَّان بن عباد ، وجرَتْ بينهما هَنَاتٌ بحَضْرَةِ المأمون ، فقال يوماً بحضرة خاصَّة أصحابه : أخبرونى عن غسّان بن عباد ؛ فإنى أُريده لأمرٍ جسيم ؛ وكان قد عزَم على تقليده السِّند مكانَ بِشْرِ بن داود ؛ فتكلّم كلُّ فريقٍ بما عنده فى مَدْحِه ؛ فقال أحمد بن يوسف : هو يا أميرَ المؤمنين رجلٌ محاسِنُه أكثرُ من مساويه ، لا يتطرّفُ به أمرٌ إلاّ تقدَّم فيه ، ومهما تُخوّف عليه فإنه لن يَأْتِى أمراً يعْتَذر منه ؛ لأنه قسّم أيامه بين أفعال الفَضْل ؛ فجعل لكلِّ

---

(١) النكس : المقصر عن غاية الكرم .

خُلُق نَوبة ، إذا نظرتَ فى أمْرِه لم تَدْرِ أى حالاته أعجب ؛ أماَ هداه إليه عَقْلُه أمْ ما اكتسبه بأَدبه ؟

فقال له المأمون : لقد مدحته على سوء رَأْيِك فيه ! قال : لأنى فى أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كَفَى ثمنا لِماَ أسْـدَيْت أنى | نصحْتُكَ فى الصديق وفى عِدَائى (١)
وإنى حين تَنْدُبُنى (٢) لأمرٍ | يكون هَواكَ أَغْلَبَ مِنْ هَوائى (٣)

قال الصولى : وقد رُوى هـذا لغير أحمد ، ولعلّ أحمد استعاره ؛ فأَعجب المأمون ذلك منه ، وشكره غسان بن عبّاد له ، وتأكّدت الحالُ بينهما .

أحمد بن يوسف

وكان أحمدُ بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى عِجْل بن لجيم عَالِى الطبقـة فى البلاغة ، ولم يكن فى زمانه أكْتَب منه ، وله شعرٌ جيد مرتفع عن أشعار الـكتاب . ووزر للمأمون بعد أحمد بن أبى خالد . وكان أول (٤) ما ارتفع به أحمد أن المخلوعَ محمد ابن الرشيد لما قُتِل أمر طاهرُ بنُ الحسين الـكتّاب أنْ يكتبوا إلى المأمون ؛ فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخْصَرَ من هذا ؛ فوُصِفَ له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة ، فأَحضره لذلك ، فـكتب : أمَّا بعد فإنْ كان المخلوعُ قسيم أمير المؤمنين فى النَّسَب واللُّحْمَة ، فقـد فرّق بينهما حكمُ الـكتاب فى الولاية والخدمة (٥) ، بمفارقته عِصمة الدين ، وخروجه عن الأَمْرِ الجامع للمسلمين ، لقول الله عزّ وجل فيما اقتصّ [علينا] (٦) من نبأ نوح وابنه : (إنه ليس مِنَ أَهْلِكَ إنه عملٌ غيرُ صالح) ، ولا طاعة لأحدٍ فى معصيةِ الله ، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعةُ فى ذاتِ الله ؛ وكتابى إلى أميرِ المؤمنين وقد أنجز اللهُ له ما كان ينتظرُ من سابق وَعْدِه ، والحمدُ لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقّه ، الـكائد له فيمن خَتَرَ (٧) عَهْدَه ، ونقَضَ عَقْدَه ، حتى ردّ به الأُلْفَةَ بعد فُرْقَتِها ،

(١) فى س : وفى عداى . (٢) ندبه إلى الأمر : دعاه . (٣) فى س: من هواى .
(٤) الأدباء ٥ـ١٦٧ . (٥) فى الأدباء : والحرمة . (٦) من س .
(٧) الختر : الغدر .

وجمع به الأمة بعد شتاتها ، وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ؛ وقد بعثت إليك بالدنيا وهى رأس المخلوع، وبالآخرة وهى البردة(١) والقضيب ؛ والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين .

من كلامه وكان أحمد بن أبى خالد كثيراً ما يصف أحمد للمأمون ويحثه عليه ، فأمره المأمون بإحضاره ، فلما وقف بين يديه قال : الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى استخصك فيما استحفظك من دينه، وقلدك من خلافته ، بسوابغ نعمه ، وفضائل قسمه، وعرفك من تيسير كل عسير حاول عليه متمرد ، حتى ذل لك ما جعله تكملة لما حباك به من موارد أموره بنجح مصادرها ، حمدًا نامياً زائدا لا ينقطع أولاه ، ولا ينقضى أخراه ، وأنا أسأل الله ياأمير المؤمنين من إتمام بلائه لديك، ومننه عليك، وكفايته ما ولاك واسترعاك ، وتحصين ما حاز لك ، والتمكين من بلاد عدوك ، ما يمنع به بيضة(٢) الإسلام ، ويعز بك أهله ، ويبيح بك حمى الشرك ويجمع لك متباين الألفة ، وينجز بك فى أهل العناد والضلالة وعده ؛ إنه سميع الدعاء ، فعال لما يشاء .

من كتابته فقال المأمون : أحسنت ، بورك عليك ناطقا وساكتا ، ثم قال بعد أن بلاه واختبره : يا عجباً لأحمد بن يوسف ! كيف استطاع أن يكتم نفسه !

وكتب إلى المأمون يستجدى لزوار على بابه(٣) : إن داعى نداك ، ومنادى جدواك جمعا ببابك الوفود، يرجون نائلك العتيد(٤)، فمنهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلى بسالف خدمة ، وقد أجحف بهم المقام ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه ، ويحقق ظنهم بطوله(٥) ، فعل .

فوقع المأمون فى عرض كتابه :

---

(١) فى س: البرد . (٢) البيضة : حوزة كل شىء . (٣) الأدباء ٥—١٦٩
(٤) فى الأدباء : المعهود . (٥) السيب : العطاء . والطول : الفضل .

الخيرُ متَّبَع ، وأموالُ الملوك مَظَانّ لطلاَّبِ الحاجات ؛ فاكتُبْ أسماءَهم ، وبيِّن مرتبةَ كلٍّ واحد منهم ، ليصيرَ إليه على قَدْرِ استحقاقه ؛ ولاتكدّرنَّ معروفنا بالمَطْلِ (١) والحجاب؛ فقد قال الشاعر :

فإنّك لَنْ ترَى طَرْداً لحُرّ كإلصاقٍ بِهِ طرَفَ الهوَانِ
ولم تُجْلَبْ مودَّةُ ذِى وَفَاءٍ بمثل الوُدِّ أو بَذْلِ اللِّسَانِ

قال أحمد بن يوسف : أمرنى المأمون أن أكتبَ فى زيادة قناديل شهر رمضان ؛ فأَعْيَا علىّ ، ولم أَجِدْ مثالا أحْتَذِى عليه ؛ فبتّ مغموماً ، فأتانى آتٍ فى النوم فقال : اكتب : فإنَّ فيها إضاءة للمتهجِّدين ، ونفياً لمكان الرِّيب ، وأُنْسًا للسابلة (٢) ، وتنزيهاً لبيوتِ الله من وَحْشَةِ الظّلم . فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه ، وأمر أن تمضى الكُتُبُ عليه .

وأهدى إلى المأمون فى يوم نوروز طبقَ جِزْع عليه ميل من ذَهب ، فيه اسمه منقوش ، وكتب إليه :

هذا يوم جَرَتْ فيه العادةُ ، بإلطاف العبيد السادة ، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طبق جزع فيه ميل .

فلما قرأ المأمون الرقعة قال : أجاءت هديةُ أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم . قال : هى فى دارى أمْ دارى فيها . فلما رفع المنديل استظرف الهديّة واسترجح مُهْدِيها .

وأهدى إلى إبراهيم بن المهدى هدية وكتب إليه: الثقةُ بك قد سهّلت السبيلَ إليك ، فأَهْدَيتُ هديةَ من لا يَحْتَشِم إلى من لا يَغْتَنِم .

وكتب إلى بنى سعيد بن سلم : لولا أَنَّ الله عزّ وجل ختم نبوّته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكتبَه بالقرآن ، لنزّل فيكم نبيَّ نِقْمَة ، وأنزل فيكم قرآنَ غدْر ؛ وما

(١) المطل : التسويف ، وفى س ، ق : ولا تكدون .

(٢) السابلة من الطرق : المسلوكة ، والقوم المختلفة عليها .

عَسيت أن أقولَ فى قومٍ محاسنُهم مساوى السُّفْل، ومساويهم فَضَائحُ الأمم، وألسنتُهم معقولة بالعِيِّ ، وأَيديهم معقودة بالبُخْل ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طَالتْ حياتُهُمُ ولا تَبِيد مَخازِيهم وإِنْ بَادُوا

وغنَّى مُغَنٍّ بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن مُحْسنا ، فلم يُنْصِتوا له ، وتحدَّثوا مع غِنائه ، فغضب المغنّى ؛ فقال أحمد بن يوسف : أنت عافاك الله تحمِّل الأسماع ثقلا ، والقلوب مَلَلا ، والأَعْيُن قَبَاحة ، والأنف نتَانة ، ثم تقولُ : اسمعوا منى ، وأنصِتوا إلىّ ! هذا إذا كانت أفهامُنا مُقْفلة ، وآذاننا صَدِئة ، فإما رضيت بالعَفْو منا ، وإلا قمت مذموماً عنا .

ألفاظ لأهل العصر فى ذم المغنين

يترنَّم فيُتْعِبُ ولا يُطْرِب . إذا غنَّى عَنَّى ، وإذا أدَّى آذى . يميت الطَّرَب ، ويحيي الكُرَب . ضَرْبُه يُوجِب ضَرْبَه . من عجائب غِنائه أنه يُورِد الشتاء فى الصيف . ما رؤى قطّ فى دارٍ مرتين . وحضر جحظة مجلساً فيه علىّ بن بسام ، فتفرّق القومُ المخادّ ، فقال جحظة : فمالى لم تعطونى مخدَّة ؟ فقال على بن بسام : غنِّ فالمخادّ كلها إليك تصير ! وفيه يقول ابن بسام :

يا مَنْ هَجَوْنَاه فغَنّانا أنت ، وبيتِ الله ، أَهجانا
سِيَّان إن غنّى لنا جحظةٌ أو مرَّ مجنون فزنَّانَا(١)

وكان خالد يُستَبرد ، فبعث بعضُ الظرفاء غلامَه يشترى له خمسة أرطال ثلج ، فأتاه بخالد وقال : يا مولاى ، طلبت خمسة أرطال ، وهذا حِمْل !

وتغنّى بحَضْرَة محموم ؛ فقال : ويحك ! دَعْنا نعرق !

وقال بعض المحدثين فى قريس المغنى :

---

(١) فى ط : فغنانا .

ألا فاسقني[١] قدحاً وافراً يُعِينُ على البَلْغَمِ الهائجِ
أكلنا قَرِيسا[٢] وغَنّى قريس فنحنُ على شرف الفَالجِ

ولقى أبو العباس المبرد برد الخيار المغنّى فى يوم ثَلْج بالجسر، فقال: أنت المبرّد وأنا برد الخيار، واليوم كما ترى، اعبُرْ بنا لا يهلك الناس بالفالج بسببنا.

وقال ابن عباد الصاحب فى مغنّ يعرف بابن عذاب:

أقول قولا بلا احتشام يعقله كلُّ مَنْ يَعِيهِ
ابن عذَاب إذا تغنّى فإننى منه فى أبيـهِ

* * *

من شعر أحمد ابن يوسف

ومن شعر أحمد بن يوسف:

ضَميرُ وَجْـدٍ بقَلْب صَبٍّ ترْجَمَ دَمْعِى بهِ فَشَاعا
فصار دَمْعى لِسانُ وَجْدى ضيّع سرِّى بهِ فَذاعا
لولا دموعى وفَرْط حُبِّى ما كان سِرِّى كذا مُضَاعا

وقال:

وعاملٍ بالفجورِ يَأْمُر بالْـ ـبرِّ كهادٍ يخوضُ فى الظُّلَمِ
أو كطبيب قد شفَّه سَقَم وهْو يُدَاوِى من ذلك السَّقَمِ
يا واعظَ النـاسِ غير متّعظٍ ثوْبَكَ طَهِّرْ أوْ لا فلا تَلُمِ

وقال:

إذا ما التقينا والعيونُ نواظرٌ فألْسُنُنا حَرْبٌ وأبصارنا سَلْمُ

وقال فى الحزن[٣]:

كثيرُ همومِ القلبِ حتى كأنما عليه سرورُ العالَمِين حَرَامُ

(١) فى س: اسقنى. (٢) سمك قريس: طبخ وعمل فيه صباغ وترك حتى جمد، والقريس: البرد الشديد، وأكثف الصقيع. (٣) الأدباء ٥–١٨٢.

إذا قِيلَ ماأضناكَ! أَسْبَلَ دَمْعَهُ فأخبر ما يلقى وليس كلامُ(١)

وقال :

كريمٌ له نفسٌ يَلينُ بِلِينِها ليردَعَ عَنْ سلطانه سُنَنَ الكِبْرِ
إذا ذكَّرَتْه نفسه عظمَ قَدْرِها دعاه إلى تسكينها عظم القَدْرِ

من توقيعاته

ووقَّع فى كتابِ رجل يحثُّه على استتمام صنائعه عنده : مستتمُّ الصنيعةِ من عَدَّلَ زَيْغَهَا(٢)، وأقام أَوَدها ، صيانةً لمعروفه ، ونصرةً لرأيه ؛ فإن أَول المعروف مستخفٌّ ، وآخره مستَثْقَل ، يكاد أَول الصنيعة يكون للهوى ، وآخرها للرَّأى ، ولذلك قيل : رَبُّ الصنيعة أشد من ابتدائها(٣) .

أحمد بن يوسف وأبو العتاهية

وكان أبو العتاهية له صديقٌ قبل ارتفاع حالِه فأَحسّ منه فى حين وزارته تغيّرا ، فكتب إليه :

أمنت إذ استغنيت من سَوْرةِ الفقْرِ فصرت ترَى الإخوانَ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ
أبا جعفر إنَّ الشريفَ يُهينهُ تَتَايُهه دونَ الأَخلَّاءِ بالوَفْرِ(٤)
فإنْ تِهتَ يوماً بالذى نِلْتَ من غنى فإن غنائى بالتجمُّل والصَّبْرِ
ألم تر أن الفقرَ يُرْجَى له الغنى وأنّ الغِنَى يُخْشَى عليه من الفقر

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال : حجب أحمدُ بن يوسف أبا العتاهية ، ثم عاد فقيل : هو نائم فكتب إليه :

لئن عدتُ بعد اليوم إنى لظالمٌ سأَصْرِفُ وجهى حيث تُبْغَى المكارِمُ
متى يظفر الغادى إليكَ بحاجةٍ ونِصْفُك محجوب ونِصْفُك نائمُ

وقال :

يا أبو جعفر أَخى وخَلِيلى فى عداد الموتى وفى ساكنى الدنـ

---

(١) رواية الأدباء : يبوح بما يخفى وليس كلام . (٢) فى س : زيغها .
(٣) الرب : التعهد بالإصلاح . (٤) الوفر : الغنى .

ميّتٌ مات وهْو فى ورق العَيْـ شِ مقيما فى ظِلّ عَيْشٍ ظليلِ
لم يمت مِيتةَ الوَفاةِ ولٰكِنْ مات عن كلِّ صالحٍ وجَميـلِ

مخاصمة ابن يوسف رجلا بين يدى المأمون

وخاصم أحمدُ بنُ يوسف رجلا بين يدى المأمون وكان صَغَا(٢) المأمون إليـه على أحمد ففطن لذلك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنه يَسْتَمْلِى من عينيك ما يَلْقَانِى به ، ويستَبِينُ بحركته ما تُجِنّه له ، وبلوغُ إرادتك أَحبُّ إلىّ من بلوغ أملى ، ولذةُ إجابتك أَمتَعُ عندى من لذَّةِ ظفرى ؛ وقد تركتُ له ما نازعنى فيـه ، وسلَّمتُ له ماطالبنى به . فاستحسن ذلك المأمون .

ومن كلامه

ومن كلام أحمد بن يوسف : مجالسةُ البُغَضاء تُثيرُ الهمومَ ، وتَجلِبُ الغموم ، وتُؤلم القَلْبَ ، وتقدح فى النّشاط ، وتَطْوى الانبساط .

ألفاظ لأهل العصر فى صفات الثقلاء

فلان ثقيـل الطَّلْعَةِ ، بَغيضُ التفصيل والجُمْلَةِ ، باردُ السكونِ والحرَكَةِ ؛ قد خرج عن حدِّ الاعتدال ، وذهب مِنْ ذاتِ اليمين إلى ذات الشّمال . يحكى ثقل الحديث المُعَاد ، ويَمْشِى فى القلوب والأكباد ، ولا أَدْرِى كيف لم تحمل الأمانةَ أرضٌ حملَتْهُ ؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعد ما أقلَّتْه ؟ كأنّ وجهَه أيامُ المصائب ، وليالى النوائب ، وكأنما قُربه فَقْدُ الحبائب ، وسوء العواقب . وكأنما وصلُه عدمُ الحياة ، وموتُ الفجأة ، وكأنما هَجْره قوة المنّة ، وريحُ الجنّة . يا عجبى من جِسْمٍ كالخيال ، وروحٍ كالجبال . كأنه ثقل الدَّيْنِ ، على وَجعِ العين . هو ثقيـلُ السكون ، بغيضُ الحرَكَةِ ، كثيرُ الشؤم ، قليلُ البركة . هو بين الجَفْنِ والعينِ قَذَاة ، وبين الأخمص والنَّعْلِ حصاة . ماهو إلا غداةُ الفراق ، وكتابُ الطلاق ، وموتُ الحبيب ، وطلوعُ الرقيب . ما هو إلّا أربعاء لا تَدُورُ فى صفَر ، والكابوسُ فى وَقْتِ السَّحَر ، وأثقل

---

(١) يقال : صغاه معك ، أى ميله .

من خَراج بلا غلّة ، ودَوَاءٍ بلا عِلّة ، وأبغَض من مثلٍ غيرِ سائر ، وأجْمع للعيوبِ من بغلة أبى دُلامة ، وحمار طيّار ، وطيلسان ابْنِ حَرْب ، وأير أبى حكيمة ، وأنشد:

مشى فدعا من ثقله الحوتُ ربَّهُ   وقال إلٰهى زِيدَتِ الأرضُ ثانيه

وأنشد:

تحمل منه الأرض أضعافَ ما   يحمله الحوتُ من الأرضِ (١)

وأنشد:

مشتَمِل بالبُغضِ لا تَنْثَنى   إليـه لَحْظاً مُقْلَةُ الرّامِقِ
يظلّ فى مجلسنا قاعداً   أثقَل من وَاشٍ على عاشِقِ

وقال الحمدونى :

سألتك باللهِ إلّا صدقْت   وعِلْمِى بأنّك لا تصدقُ
أتبْغِضُ نفسَك من ثقلها   وإلا فأنت إذاً أحْمَق

وكتب أبو عبد الرحمن العطوى إلى بعض إخوانه :

إذا أنت لم تُرْسِلْ وجئتُ فلم أصل   مَلَأْت بعذْرٍ منكَ سَمْعَ لَبيبِ
أتيتك مشتاقاً فلم أرَ حاجباً   ولا صاحباً إلا بوجـهِ قطوبِ
كأنى غريمٌ مُقْتَضٍ أو كأننى   طلوعُ رَقيبٍ أو نُهوضُ حَبيبِ

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقلُ جليساً اسمه زنباع ، فقال له رجل يوما : ما الزنبعة فى كلام العرب ؟ قال : التثاقُل ، ولذلك سُمِّى جليسُنا زنباعا .

وقد كَثَّر الناس فى الثقلاء ، وأنا أستحسن قول جحظة ، وإن كان غيره قد تقدّمه فى مثله :

يا لفظة النعْى بمَوْتِ الخليـلْ   يا وقفة التَّوْديع بين الحمولْ
يا شربةَ اليارج (٢) يا أُجرة الـ   مَنْزِل يا وَجْهَ العَذُولِ الثقيلْ

---

(١) إشارة إلى الخرافة التى تزعم أن الأرض يحملها حوت .   (٢) معجون مسهل.

يا طلعة النَّعْش ويا منزلًا أقْفَر من بعد الأَنيس الحُلُولْ
يا نهضة المحبوب عن غَضْبةٍ يا نعمةً قد آذَنَتْ بالرَّحيلْ
ويا كتاباً جاء من مُخْلِفٍ للوعد مملوءًا بعذرٍ طويلْ
يا بُكرة الثَّكْلَى إلى حُفْرةٍ مستودعٍ فيها عزيزُ الثُّكُولْ
يا وثبةَ الحافظِ(١) مستَعْجِلا بصَرْفِه القينات عند الأصيلْ
ويا طبيباً قد أتى باكراً على أخى سقم بماء البقول
يا شوكةً فى قدمٍ رَخْصَةٍ ليس إلى إخراجها من سبيل
يا عِشْرَةَ المجذوم فى رَحْله ويا صُعُود السِّعْر عند المُعِيل(٢)
يا رَدَّة الحاجب عن قَسْوَةٍ ونَكْسَةً من بعد بُرْء العليل

***

وجَحْظَة هذا هو(٣) أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، وقال أبو الحسن على بن محمد بن مقلة الوزير: سألتُ جَحْظَة مَنْ لقَّبه(٤) بهذا اللقب؟ فقال ابنُ المعتز: لقينى يوماً، فقال لى: ما حيوان إنْ نَكَّسُوه أتانا آلة للمراكب البحرية(٥)، فقلت: عَلَقٌ إذا نُكِّس(٦) صارَ قِلْعا، قال: أحسنت يا جحظة؛ فلزمنى هذا اللقب. وكان ناتئ العينين جدًّا، قبيحَ الوجه، ولذلك قال ابن الرومى(٧): جحظة

نبئت جَحْظَةَ يستعيرُ جُحوظَهُ مِنْ فِيل شِطْرَنْج ومن سرطانِ
يا رحمتى لِمُنَادِميه تحمَّلوا ألمَ العيونِ للذَّةِ الآذانِ

وكان طيِّبَ الغناء، ممتدَّ النفَس، حسنَ المسموع؛ إلا أنه كان ثقيلَ اليدِ فى الضرب؛ وكان حُلْوَ النادرة، كثير الحكاية، صالح الشِّعْرِ؛ ولا تزال تندر له الأبيات الجيدة؛ وهو القائل: من شعره

جانبت أَطْيَب لذَّتِى وشرابى وهجرت بعدك عامداً أصحابى

(١) الحافظ: الموكل بالشىء. (٢) المعيل: من أعول: كثر عياله.
(٣) ذيل اللآلئ: ٢٥. (٤) الأدباء: ٢–٢٤١. (٥) فى الأدباء: آلة للبحرية. (٦) فى الأدباء: عكس. (٧) وفيات الأعيان ١–٤١.

فإذا كتبتُ لكى أنزِّه ناظرى   فى حُسْنِ لفظك لم تَجُدْ بجَواب
إن كنت تنكر ذِلَّتى وتذلّلى   ونحولَ جسمى وامتدادَ عَذابى
فانظر إلى بَدنِى الذى موَّهتُه   للناظرين بكَثْرةِ الأثواب

وقال (١) :

وإذا جفانى صَاحِبٌ   لم أستَجِزْ ماعِشْتُ قَطْعَهْ
وتركته مِثْلَ القَبْو   رِأزورها فى كُلِّ جُمْعَهْ

وقال :

ضاقت علىَّ وجوهُ الرأى فى نَفَر   يلقون بالجَحْدِ والكُفْرَانِ إحسانى
أقلِّب الطرْفَ تصعيداً ومنحدراً   فما أُقابل إنسانا بإنسانى (٢)

وقال :

لقدمات إخوانىَ الصالحون   فمالى صديقٌ ومالى عماد
إذا أقبل الصبحُ وَلَّى السرور   وإن أقبل الليل وَلَّى الرقاد

وقال يهجو رجلا :

لا تعذلونى إن هَجَرْتُ طعَامهُ   خوفا على نفسى مِنَ المأكولِ
فمتى أكلت قتلتهُ من بُخْلهِ   ومتى قَتَلْتُ قُتِلت بالمقتولِ

ومن حكاياته ما حدّثنى خالدُ الكاتب (٣) قال : جاءنى يوماً رسولُ إبراهيم بن المهدى فصرت إليه ، فرأيتُ رجلا أسْوَدَ على فُرُش قد غاص فيها ، فاستجلسنى ، وقال : أنشدنى من شعرك ، فأنشدته :

رأتْ منه عينى منظرَيْنِ كما رأتْ   من الشمسِ والبدرِ المنير على الأَرْضِ
عشيّة حيَّانى بوَرْد كأنهُ   خدودٌ أُضيفت بعضُهن إلى بعضِ

---

(١) الأدباء ٢–٢٦٦ .   (٢) فى س : إنسانى بإنسان .
(٣) المختار من شعر بشار ١٨٢ .

ونازعنى كأساً كأن حبابها دموعى لما صدّ[1] عن مقلتى غمضى
وراح وفِعْلُ الراحِ فى حركاته كفِعْل نسيم الريح بالغُصُنِ الغضِّ

فزحف[2] حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال : يا فتى ، شبهوا الخدودَ بالوَرْدِ ، وأنت شبهت الورد بالخدود ، زِدْنى فأنشدته :

عاتبتُ نفسى فى هوا ك فلم أجدها تقبلُ
وأطعتُ داعيها إليـ ك فلم أُطِعْ من يَعْذُلُ
لا والذى جعـل الوُجُو هَ لحُسْنِ وَجْهِك تَمْثُلُ
لا قلتُ إن الصبرَ عنـ ك من التَّصَابى أَجْملُ

فزحف[2] حتى انحدر عن الفرش ثم قال لى: زدنى ، فأنشدته[3] :

عِشْ فحُبُّيك سَرِيعاً قاتلى والضَّنَى إن لم تَصِلْنى وَاصِلِى
ظَفِرَ الحبّ بقَلْب دَنف[4] فيك والسُّقم بجسمٍ ناحلِ
فهما بين اكتئابٍ وضَنًى تركانى كالقضيب الذَّابل
وبكى العاذِل لى من رحمةٍ[5] فبكائى لبكاء العاذِل

فنعر[6] طرباً وقال : يا يَلْبَق ؛ كم معك لنفقتنا ؟ قال : ثمانمائة وخمسون دينارا. قال: اقسمها بينى وبين خالد ، فدفع إلىَّ نصفَها .

وأنشد جحظة أو غيره ولم يسمّ قائله :

لا يبعد الله إخواناً لنا سلفوا أفناهُم حدثَانُ الدَّهْرِ والأَبدُ
نمدُّهُمْ كلَّ يومٍ من بقيَّتنا ولا يَؤُوب إلينا مِنْهمُ أَحَدُ

---

(١) فى المختار : لما فارقت . (٢) فى س : فرجف . (٣) المختار من شعر بشار ١٢٨ .
(٤) فى المختار : كلف. (٥) فى المختار : رقة . (٦) فى س ، ق : فتعرى .

[السكاكين]

لأحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف جالسا بين يدى المأمون ، فسأل المأمونُ عن السكّين فناوله أَحمد السكين ، وقد أمسك بنِصَابِها ، وأشار إليه بالحدّ ، فنظر إليه المأمون نظر مُنْكِر ؛ فقال : لعل أميرَ المؤمنين أَنكر علىَّ أَخْذِى النّصاب ؛ وإشارتى إليه بالحدِّ ! وإنما تفاءلت بذلك أن يكونَ له الحدُّ على أعدائه ؛ فعجب المأمون من سُرْعَةِ فطنته ، ولطيف جوابه .

وقال بعضُ الكتاب : السكين مسُّ الأقلام يشحذها إذا كلَّت ، ويَصْقُلُها إذا نَبَتْ ، ويُطْلِقُها إذا وقفت ، ويلمّها إذا شَعِثت ، وأَحْسَنُها ماعَرُضَ صَدْرُه، وأُرْهِفَ حدُّه ، ولم يفصل على القبضة نِصَابُه .

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم يرثى سكيناً سرقت له :

يا قاتل اللهُ كتّابَ الدواوين ... ما يستحلُّونَ من أَخْذِ السكاكينِ
لقد دهانى لطيفٌ منهم خَتِلٌ ... فى ذات حدٍّ كحدِّ السيفِ مَسْنُونِ
فأَقْفَرَتْ بعد عُمْرانٍ بموقعها ... منها دواةُ فتًى بالكُتْبِ مَفْتُون
تبكى على مُدْيَةٍ أودى الزمانُ بها ... كانت على جائرِ الأقلام تُعْدِينى
كانت تقدِّمُ أَقلامى وتَنْحِتُها ... نحتاً وتُسْخِطها بَرْياً فتُرْضِينى
وأضحك الطرس والقرطاس عن حُلَلٍ ... ينوب للعين من نَوْرِ البساتين
فإن قشَرت بها سوداءَ من صُحُفى ... عادت كبعض خدودِ الخُرَّدِ العِين
جزْعُ النصاب لطيفات شَعَائِرُها ... محسَّنات بأَصناف التَّحاسِين
هيفاء مُرْهَفَةٌ بيضاء مُذْهَبةٌ ... قال الإله لها سبحانه : كُونى
لكن مِقَطّىَ أمسى شامتاً جَذِلا ... وكان فى ذِلَّةٍ منها وفى هُونِ
فَصِين حتى يُضَاهِى فى صيانته ... جَاهِى لصَوْنِه (١) عمَّنْ لا يُدَانينى

---

(١) فى س : لصونته .

ولستُ عنها بسَالٍ ما حَيِيتُ ولاَ ... بواجدٍ عِوَضاً منها يُسليني
ولو يَرُدُّ فِدَاء ما فُجِعتُ بهِ ... منها فديناه بالدنيا وبالدين

ألفاظ لأهل العصر في صفات السكاكين

سكّين كأَنَّ القدرَ سائقُها ، أو الأَجَل سابقها ، مُرْهَفَة الصَّدْرِ ، مُخْطَفَة (١) الخَصْر ، يجولُ عليها فِرند العِتق ، ويموج فيها ماء الجَوْهر ؛ كأنّ المنيةَ تبرق من حدِّها ، والأَجل يَلْمَع من مَتْنِها ، ركِّبَتْ في نِصَاب آبنوس ، كأنّ الحَدق نفضَتْ عليه صبْغَها ، وحَبّ القلوب كسَتْه لباسها . أخذ لها حديدها الناصح بحظٍّ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالِك بسهمٍ من الزنج ، فكأنها ليلٌ من تحتِ نَهار ، أو مجمر أبدَى سَنا نَار ، ذات غِرار ماضٍ ، وذُبَاب قاضٍ . سكين ذات مِنْسَر (٢) بَازِيّ ، وجَوْهر هوائى ، ونِصَاب زنجى ، إن أُرضِيت أولت مَتْناً كالدِّهَان (٣) ، وإن أُسْخِطَتْ التقَتْ بنَابِ الأُفْعوان . سكّين أحْسَن من التَّلاَق ، وأقْطَع من الفِرَاق ، تفعل فِعْلَ الأَعْداء ، وتنفعُ نَفْعَ الأصدقاء . هى أمْضَى من القَضَاء ، وأنفَذُ من القَدَر المُتَاح ، وأقْطَعُ من ظُبَةِ السيف الحسام ، وألمع من البَرْقِ في الغَمام . جمعت حُسْنَ المنظر ، وكَرَمَ المَخْبَر ، وتملَّكتْ عِنان القلب والبصر ، ولم يُحْوِجْهَا عِتْقُ الجَوْهَرِ إلى إمْهاء (٤) الحجر .

[السمر والمنادمة]

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح : مازِلنا في سمَرٍ نَصِلُ فصولَه (٥) بتشوّقك ، فيُذْهِب ذِكْرُكَ مللَ السامر ، ونَعْسَةَ الساهر . فقال القاسم : مثلُك ذكر صديقه فأطراه ، واعتذر إليه فأرضاه ، ولو كنتم آذنتمُونى كنت أحدكم مسروراً بما به

(١) مخطف : ضامر . (٢) المنسر : المنقار ، وهو كمجلس ومنبر .
(٣) الدهان : الأديم الأحمر الصرف (ارجع إلى اللسان ــ دهن) . (٤) أمهى الحديدة : أحدها . (٥) في س : يصل في هوله .

سُرِرتم، مُفِيضاً فيما فيه أفَضْتُم .

شرط المنادمة

قال بعضُ الظرفاء : شَرْطُ المنادمة قِلّة الخلاف ، والمعاملةُ بالإنصاف والمسامحةُ في الشراب ، والتغافل عن ردّ الجواب ، وإدمان الرضا ، واطّرَاح ما مَضَى وإسقاط التحيّات ، واجتناب اقتراح الأَصوات ، وأكْل ما حضر ، وإحضار ما تيسّر ، وستْر العَيْبِ ، وحفظ الغيب .

وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوى في قوله :

حقوقُ الكاس والنَّدْمَانِ خمسٌ   فأوّلُها التزيُّن بالوَقَارِ
وثانيها مسامَحَةُ النَّدَامَى   فكَمْ حَمَتِ السماحةُ مِنْ ذِمار(١)
وثالثها ، وإن كنتَ ابنَ خَيْرِ الْ   برِيّة مَحْتِداً ، تَرْكُ الفَخَارِ
ورابعها وللنَّدْمَانِ حقٌّ   سوى حقّ القرابة والجوارِ
إذا حدثته فاكْسُ الحديث الـ   لذى حدّثْته ثَوْبَ اختصارِ
فما حُثَّ النبيذُ بمثلِ حسن الْ   أَغَانِي والأحاديثِ القِصَارِ
وخامسةٌ يدلُّ بها أخوها   على كرم الطبيعةِ والنِّجار
حديث الأمس ننساه جميعاً   فإنّ الذَّنْب فيه لِلْعُقَار
ومن حكَّمت كأْسَك فيه فاحْكُمْ   له بإقالةٍ عِنْدَ العِثار

وقال حسان بن ثابت (٢) :

نوليِّها الملامةَ إنْ ألَمْنَا   إذا ما كان مَغْثٌ(٣) أو لِحَاءُ

وشرب اليزيدى عند المأمون فلما أخذَتْ منه الكأس أقبل يعتزّ عليه بتعليمه إياه ، وأساء مُخاطبته ؛ فلما أفاق من سُكْرِه عُرِّف ما جرى ، فلبس أكفانه ، ووقف بين يدى المأمون فأنشده :

أنا المذنبُ الخطّاء والعفوُ واسعٌ   ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ

---

(١) الذمار : مايلزمك حفظه وحمايته . (٢) ديوانه ٣ . (٣) المغث : الشر والقتال ، وفى ق : مقت .

نمِلْتُ فأَبْدَتْ منِّيَ الـكاسُ بعضَ ما كرِهْتُ وما إن يستوى السُّكْرُ والصَّحْوُ
ولا سيما إِن كنتُ عنـد خليفةٍ وفى مجلسٍ ما إنْ يجوز به اللَّغْوُ
فإن تعفُ عنى أُلْفِ خطوى واسعاً وإلا يكن عَفْوٌ فقد قَصُر الخَطْوُ

فقال المأمون: لا تثريبَ عليك ، فالنبيذُ بساط يُطْوَى بما عليه .

وشرب كورَان المغنى عند الشريف الرضى ، فافتقد رِدَاءَه وزعم أنه سُرِق .
قال له الشريف : ويحك ! مَنْ تَتّهم منا ؟ أما علمتَ أنّ النبيذَ بِساط يُطْوَى بما
عليه ؟ قال : انشروا هذا البساط حتى آخذَ ردائى واطْوُوه إلى يوم القيامة !

وكان أبو جعفر أحمد بن جَدار كاتب العباس[1] بن أحمد بن طولون ينقل أخبارَ
أبى حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون على الشراب إلى العباس، فصار إليه[2]
أبو حفص فقال : ياأبا جعفر ؛ إنما مجلس المُدَام مجلس حُرمة ، وداعيةُ أُنْس ، ومسرح
ريحانة ، ومَذَادُ هَمّ ، ومَرْتَع لهو ، ومَعْهَد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يُتهم
بعيبه، ولا يُخشَى عَتْبه، وقد اتصل بى ما تُنْهِيه إلى أميرنا أبى الفضل أعز اللهُ أمره ،
من أخبار مجالستى ، فلا تفعَـل ، وأنشده :

ولقد قلت للأَخلاء يوماً قَولَ ساعٍ بالنُّصْحِ لو سمعوهُ
إنمـا مَجْلِسُ المُدَام بِساطٌ للمودّات بينَهم وَضَعُوهُ
فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا من نعيم ولذةٍ رفعوهُ
وهُمُ أَحْرياءُ ، إنْ كان منهم حافظٌ ، ما أتوه أَن يمنعوهُ

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه .

وأنشد أبو حفص :

كم من أخٍ أَوْجَسْتُ منه سجيّةً فأنِستُ بعـدَ وِدَادِهِ بفراقهِ

(١) اسمه فى الأدباء : ٧ـ١٨٢ أبو القاسم جعفر محمد بن حذار (بضم الحاء) .
(٢) الوافى بالوفيات : ٥٥ .

لم أحمد الأيام منه خليقةً　　فتركته مستمتعا بخلاقه

عوّل أبو حفص فى أكثر كلامه على نقل كلام أبى العباس الناشىء فى الشراب والأبيات التى أنشد أولا له .

أبو القاسم الصاحب : قدماً حملتْ أوْزارُ السُّكْرِ ، على ظهور الخمر ، وطوى بساطُ الشراب ، على ما فيه من خطأ أو صواب . متابعة العُقار تعذر فى خَلْعِ العِذار وتُغْنى عن الاعتذار . متابعة الأرطال ، تبطل سورة الأبطال ، وتَدَعُ الشيوخ كالأطفال

كتب إسحاق بن ابراهيم الموصلى إلى بعض الجِلَّة يستدعيه : يَوْمُنا يومٌ ليِّن الحواشى ، وَطِىء النواحى ؛ وسماؤنا قد أقْبلت ، ورعدت بالخير وبَرَقَتْ ، وأنت قُطْبُ السرور ، ونظام الأمور . فلا تُفْرِدْنا فنقلّ ، ولا تنفرد عنا فنذلّ .

وكتب بعض أهل العصر وهو السرى الموصلى إلى أخ له يستدعيه إلى مؤانسته

خِلالُك ما اختلّ(١) الصديق سَحَائِبُ　　وبِشرك ، ما هبَّتْ رِياحٌ ، مَوَاهِبُ
وأنت شقيقُ الرُّوحِ تُؤْثِرُ وَصْلَها　　إذا رَاعَها بالهَجْرِ خِلٌّ وصَاحِبُ
ونحن خلالَ القَصْفِ والعَزْفِ نجتنى　　ثمارَ مَلَاهٍ كلُّهنَّ أطَايب
وعندى لك الرّيحان زِينَ بِسَاطهُ　　بزَهْرٍ كما زانَتْ سماءً كَوَاكِبُ
وحِيش كما انجرَّتْ ذُيولُ غَلَائلٍ　　مُصَندلة(٢) تختالُ فيها الكَوَاعِب
وقد أُطْلِقَت فيه الشَّمائِل ، وانثنَتْ　　مُفَنّدَةً(٣) عن جانبيها الجَنَائِبُ
وحافظة ماءَ الحياةِ لِفتْيَةٍ　　حياتهمُ أن تُستلذَّ المشارِبُ
نُسَرْبِلُها أخْفَى اللباس ، وإنما　　يُلَفُّ بهـا أفْوَاهُه والسَّبَائِبُ
على جَسَدٍ مثل الزَّبَرْجَد لم تزل　　تشا كلُه فى لونه وتُنَاسِبُ
إذا استُودعت حُرَّ اللُّجَيْنِ سبائكا　　تَصوَّبَ فى أحشائها وهو ذَائِبُ

(١) اختل الصديق : أعدم وافتقر .　　(٢) الصندل : شجر طيب الرائحة .
(٣) فنده : أعجزه وأضعفه .

وفوق رءوس القـوم غَيْمٌ معلَّقٌ — من النَّدِّ لا يَجْرِى ولا هو ذَاهِب
بوارقُهُ خَمْرُ الـكئوس ورَعْدُهُ — أناملُ بيضٌ للطبول تُلَاعِب
ولا عائق يَثْـنِى عِنَانك عَنْ هوًى — رَغَى جانبٌ منه وأوْمَضَ جَانبُ
فبادِرْ ، فإن اليوم صافٍ من القَذَى — ويارُبَّ يومٍ بادَرَتْه النَّوائب

وقال ابنُ المعتز :

لا شَىْءَ يُسْلِى همِّى سِوَى قَدَحٍ — تَدْمَى عليه أوْدَاج (١) إبْرِيقِ
فِى غَيْمِ نَدّ يُزجى (٢) سَحَائبَهُ — بَرْقُ ابتسامٍ ورَعْدُ تصفيقِ

وقال الحسن بن محمد الـكاتب يصف طبلا :

يا حبَّـذا يومنا نَلْهُو بمُلْهِيَةٍ — تُلْهِى بشىء له رَأْسَانِ فى جَسَدِ
قد شُدَّ هذا إلى هـذا كأنهما — من شِدَّةِ الشدِّ مقرونَانِ فى صَفَدِ (٣)
نَظَلُّ نلطم خَدَّيْهِ إذا ضَرَبَتْ — بكلٍّ طاقتها لَطْماً بلا حَرَدِ (٤)
فنسمعُ الصوتَ منه حين تَضْرِبُه — كأنه خارجٌ من ما ضِغَىْ أسَدِ

ومن ألفاظهم فى الاستدعاء

نحن فى مَجْلِسٍ قد أبت رَاحُه أن تصفوَ لنا أو تتناولها يُمْنَاك ، وأقسم غِنَاؤُه لطاب أو تَعِيه أُذُنَاك ، فأَمَّا خدودُ نارنجه فقد احمرَّتْ خجَلا لإبطائك ، وعيون نرجسه قد حدَّقَتْ تَأْميلًا للقائك ، فبحياتى عليك إلاَّ تعجَّلْت ، وما تمهَّلْت .

نحن بغيبتك كعِقْد قد تغيَّـبَتْ وَاسِطَتُهُ ، وشبابٍ قد أخْلَقَتْ جِدَّتُه؛ وإذ قد غابت شمسُ السماء عنَّا ، فلابد أن تَدْنُوَ شمسُ الأرض منا . أنت من ينظم به شَمْـل الطرَب ، وبلقائه يُبْلَغُ كلُّ أرَب، طِرْ إلينا طيران السَّهْمِ ، واطلُعْ علينا طلوعَ

(١) الودج : عرق فى العنق كالوداج . (٢) زجاه : ساقه مثل أزجاه وزجاه .
(٣) الصفد : الوثاق . (٤) الحرد : الغضب .

النَّجم . ثِبْ إلينا وثوبَ الغزال ، واطلُعْ علينا طلوعَ الهلال ، فى غُرّة شوّال . كن إلينا أسرعَ من السهم إلى ممرّه ، والماء إلى مقرِّه . جشم إلينا قدمك ، واخلَعْ علينا كرَمَك ، وإن رأيتَ أن تحضرنا لتتَّصِل الواسِطَة بالعِقْد ، ونَحْصل بقُرْبِك فى جَنَّة الخُلْدِ ، وتُسْهِم لنا فى قُرْبِك الذى هو قوتُ النَّفس ، ومادةُ الأُنْس .

ولهم فى استدعاء الشراب

قد تألّف لى شمْلُ إخوانٍ كاد يفترق لعَوَز [1] المشروب ، واعتدنا فضلك المعهود ، ووردْنا بَحْرَك المورود ، وأنا ومَنْ ساعدنى الدهرُ بزيارته من إخوانى وأوليائك وقوفٌ بحيث يقفُ بنا اختيارُك من النشاط والفتور ، ويرتضيه لنا إيثارك من الهمّ والسرور ، والأمرُ فى ذلك إليك [2] ، والاعتمادُ فى جَمْعِ شمْلِ المسرَّةِ عليك ؛ فإن رأيتَ أن تَكِلَنى إلى أوْلى الظَّنَّيْن بك فعلت . ألطفُ المِنَن مَوْقعا ، وأجَلُّها فى النفوس موضعا ما عمر أوْطَانَ المسرَّةِ ، وطرد عوارض الهم والفِكْرَة ، وجمع شمْلَ المودةِ والأُلْفَةَ . قد انتظمتُ فى رُفْقَةٍ لى فى سِمْط [3] الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المُدَام عُدْنا كبنات نَعْش ، والسلام . فرأيك فى إرواء غُلَّتنا بما ينقعها ، والطَّوْلِ على جماعتنا بما يجمعها .

ولهم فى الكناية عن الشراب

قد نشط لتناول مايستمدّ البِشر ، ويشرح الصَّدْر . قد استمطر سحابةَ الأنس واستدرّ حلوبة السرور ، وقدَح زَنْدَ اللهو ، فهو يَمرِى [4] دِماءَ العناقيد ، ويفصد عروقَ الدِّنان ، ويَنْظم عِقْدَ النَّدْمان [5] .

---

(١) العوز — بالتحريك : الحاجة . (٢) فى س : لأن الأمر .
(٣) السمط — بالكسر : خيط النظم ، وقلادة أطول من المخنقة .
(٤) مرى الشىء : استخرجه . (٥) الندمان : جمع نديم .

كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح فى يوم دَجْن [1] لم يمطر: أماترى تكافؤ هذا الطمع واليأس فى يومنا هذا بقُرْبِ المطر وبعده، كأنه قول كثير [2]:

وإنى وتهيامِى بعزَّةَ بعدما ... تخلَّيْتُ مما بيننا وتخلَّتِ
لكالمرتَجِى ظِلَّ الغمامةِ كلما ... تبوَّأَ منها للمَقِيلِ اضمحلَّتِ

وما أصبحَتْ أُمنيتى إلاَّ فى لِقائك، فليت حجابَ النَّأى هُتِك بينى وبينك! رُقْعتِى هذه وقد دارت زجاجاتٌ أَوقعَتْ بعقلى ولم تتحَيَّفه [3]، وبعثت نشاطا حرَّكنى للكتاب؛ فرأيك فى إمطارى سروراً بسارِّ خبَرِك؛ إذ حُرِمْت السرور بمطرِ هذا اليوم، موفقًا إن شاء الله.

وكتب الحسنُ بن وهب: وصل كتابُ الأمير أيده الله وفَمِى طاعِم، ويدى عامِلة؛ ولذلك تأخر الجوابُ قليلا، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استوجب ذَنْباً استحقَّ به ذَما؛ لأنه إذا أشمس حكى حُسْنَك وضياءك، وإن أمطر حكى جودَك وسخاءَك، وإن غام أشبه ظِلَّك وفِناءَك، وسؤالُ الأمير عنى نعمةٌ من نعم الله عزّ وجل أُعفِّى بها آثارَ الزمان السيء عندى؛ وأنا كما يُحِبُّ الأمير، صرف اللهُ الحوادثَ عنه، وعَنْ حَظِّى منه.

وذمّ رجلٌ رجلافقال: دعواته وَلائم، وأَقْدَاحُه محَاجِم [4]، وكئوسُه مَحَابر، ونوادره بوادر.

وقال أبو الفتح كشاجم: كان عندى بعض المُجَّانِ من النبيذيين فسمعنى، وأنا أحمدُ اللهَ جلَّ ذِكرُه فى وسط الطعامِ لشىء خطر ببالى من نِعَم الله التى لاتُحْصَى فنهض وقال: أُعطِى اللهَ عهداً إن عاوَدْت! وما معنى التحميد هنا؟ كأنك تُعلِمُنا

---

(١) الدجن: إلباس الغيم الأرض. (٢) الشعر والشعراء ٤٩٧.

(٣) تحيفته: تنقصته من حيفته، أى نواحيه، وفى ق،س: تتخيفه.

(٤) المحجم: ما يحجم به.

أنا قد شبعنا . ثم مال إلى الدواة والقرطاس وكتب ارتجالا :

وحَمْدُ اللهِ يَحْسُنُ كلَّ وقتٍ ... ولكِنْ ليس فى أُولَى الطعامِ
لأنك تُحْشِمُ(١) الأضيافَ فيهِ ... وتأمرُهم بإسراعِ القِيامِ
وتُؤْذِيهم ، وما شبِعُوا بشَبْعٍ(٢) ... وذلك ليس من خُلُقِ الكِرَامِ

وكتب المَرِيمى إلى بعض إخوانه وقد ترك النبيذ :

إنْ كُنْتَ تُبْتَ عنِ الصَّهْباءِ تَشْرَبُها ... نُسْكاً فما تُبْتَ عَنْ بِرٍّ وإحسانِ
تُبْ راشداً ، واسقِنا منها وإن عَذَلوا ... فيما فعلت ـ فقلْ ما تاب إخوانى

وقال بعض النبيذيين وقد ترك الشرب :

تحامَوْنِي لتَرْكِى شُرْبَ رَاحٍ ... أَقَمْتُ مكانَها الماءَ القَرَاحَا(٣)
وما انفردُوا بها دونى لِفَضْلٍ ... إذا ما كنت أَكْثَرَهم مِرَاحَا(٤)
وأرفعهم على وترٍ وصَنْجٍ ... وأظْرَفهم وأظْرَفهم مُزَاحَا
إذا شقُّوا الجيوبَ شَقَقْتُ جَيْبى ... وإنْ صاحُوا عَلَوْتُهم صِيَاحا

فِقَر للنبيذيين

ماجُمِشَتْ(٥) الدنيا بأَظْرَفَ من النبيذ . ما للعُقَارِ والوَقَارِ . إنما العيشُ مع الطَّيْش . الراح ترياق سمِّ الهَمّ . النبيذ ستر فانظُرْ مع مَنْ تهتكه . اشرب النبيذ ما استبشعته ، فإذا استطبْتَه فدَعْه . لولا أنّ المخمورَ يعلم قصّته لقدّم وصيَّته . الصاحِى بين السكارى كالحىّ بين الموتى ، يضحك من عَقْلِهم ، ويأْكُلُ من نُقْلِهم(٦) . أحمق ما يكونُ السَّكْرَان إذا تعاقل . التبذُّل على النبيذ ظَرْف ، والوقار عليه سُخْف ، حد السَّكْران أن تَغْرُبَ الهموم ، ويظهر السرَّ المكتوم .

---

(١) أحشمه : أخجله . (٢) الشبع ـ بسكون الباء وكعنب : ضد الجوع .
(٣) القراح : الماء الخالص . (٤) فى ق ، س : مزاحا .
(٥) فى كل الأصول : جشمت . (٦) ما يتنقل به على الشراب .

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشرابِ : ما أَنْصَفْتَهَا ، تَضْحَكُ في وجهك، و تَعْـبِس في وَجْهِها .

وقال الطائي [١] :

إذا ذاقها ، وهي الحياةُ ، رأيتَهُ　　　يُعَبِّسُ تعبيسَ المقدَّمِ لِلقَتْلِ

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال :

وأن أُقَطِّب وَجْهِي حينَ تَبْسِمُ لي　　　فعند بَسْطِ المَوالي يحفظ الأدبُ

وترك رجلٌ النبيذَ ؛ فقيل له : لم تركتَه، وهو رسولُ السرورِ إلى القلب؟ قال: ولكنه رسولُ بأسٍ يبْعَثُ إلى الجَوْف فيذهب إلى الرأس .

وقيل لبعضهم : ما أصبّك بالخمر ! فقال : إنها تُسْرِج [٢] في يَدِي بنورها ، وفي قلبي بسرورها ؛ كأنَّ الناشئَ نظر إلى هذا الـكلام فقال :

راحٌ إذا علَتِ الأكفَّ كئُوسُها　　　فـكأنها من دونها في الرّاحِ

وكأنما الـكاسَاتُ ممـا حولها　　　من نورِها يَسْبَحْنَ في ضَحْضَاحِ [٣]

لو بُثَّ في غَسَقِ الظلام ضِياؤُها　　　طلع المساءُ بغُرَّةِ الإصباحِ

نفضَتْ على الأجسام ناصعَ لَوْنِها　　　وسرتْ بلذّتها إلى الأرواحِ

البيت الأول كقول البحتري [٤] :

يُخْفِي الزجاجةَ ضوءها [٥] فـكأنها　　　في الـكفِّ قائمةٌ بغيرِ إِناءِ

وللناشئ في هذا المعنى :

ومُدامةٍ يَخفَى النهارُ لنُورِها　　　وتَذِلُّ أكْنَافُ الدُّجَا لضيائها

صُبَّت فأَحْدَقَ نورُها بزُجاجِها　　　فكأنها جُعِلتْ إناءَ إنائها

وتُرَى إذا صُبَّت بَدَتْ في كأسها　　　متقاصرَ الأَرْجاءِ عن أرْجائها

وتَـكَادُ إنْ مُزِجَتْ لرقَّةِ لونِها　　　تَمْتَازُ عند مِزاجِها من مائها

(١) ديوانه : ٤٢٠ .　　(٢) تضيء — من أسرجت السراج ، وفي س : ماأصباك .

(٣) الضحضاح : الماء اليسير .　　(٤) ديوانه : ٤ .　　(٥) في الديوان : لونها .

صفراء تُضْحِي الشمسُ، إنْ قِيسَتْ بها ... في ضوئِها، كاللَّيْلِ، في أضوائِها
وإذا تصفَّحْتَ الهواءَ رأيتَهُ ... كَدِرَ الأَدِيمِ(١) عند حُسْنِ صفائِها
تَزْدَادُ مِنْ كَرمِ الطباعِ بقَدْرِ ما ... تُودِي بهِ الأَيَّامُ مِنْ أجْزائِها
لا شيء أعْجَب من تولُّد بُرْئِها ... من سُقْمِها، ودَوائِها مِنْ دائِها

وقال:

إنْ رُمْتَ وَصْفَ الراحِ فأتِ بما ... فيها من الأَوْصاف من قُرْبِ
هي ماءُ ياقوتٍ وإنْ مُزِجَتْ ... في كَأْسِها بالباردِ العَذْبِ
فكأنها وحبَابُها ذَهَبٌ ... كلَّلْتَه باللُّؤْلؤِ الرَّطْبِ

ولأهل العصر: الدنيا معشوقة رِيقُها الراح. أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي في صاعد بن مخلد:

فتًى هاجرَ الدنيا وحرَّم رِيقَها ... وهل رِيقُها إلا الرحيقُ المورَّدُ
ولو طَمِعَتْ في عَطْفِهِ ووِصالِهِ ... أبَاحَتْه منها مَرْشَفاً لا يُصَرَّدُ(٢)

الخمرُ أشبهُ شيء بالدنيا؛ لاجتماع اللذاتِ والمرارة فيها. الخمر مصباحُ السرور ولكنها مفتاح الشرور. لكل شيء سرٌّ، وسرُّ الراحِ السرور. لا يطيبُ المُدام الصافي، إلاّ مع النديم المُصَافِي.

ومن ألفاظهم في صفاتِ مجالس الأنس وآلات اللهو وذكر الخمر

مَجْلِسٌ رَاحُه ياقوت، ونَوْره وَرد، ونَارَنْجُه ذَهَب، ونرجسه دينار ودرهم يحملهما زَبَرْجَد. عندنا أُتْرُج كأنه من خَلْقِك خُلِق، ومن شَمَائلك سُرِق، ونارنج كَكُرَاتٍ من سَفَن(٣) ذُهِّبت، أو ثدي أبكار خُلِّقت. مجلسٌ أَخَذَتْ فيه الأوتار

(١) أديم النهار: بياضه. (٢) رشفه: مصه، والتصريد. التقليل.

(٣) السفن، بالفتح: جلد سمك خشن يسفن به الخشب حتى تذهب عنه آثار المبراة.

تتجاوب ، والأقداح تتناوب . أَعْلامُ الأُنْسِ خافقةٌ ، وأَلْسُن الملاهى ناطقة . نحن بين بدور ، وكاساتٍ تَدُور ، وبروقِ رَاح ، وشموس أَقْدَاح . قد نشأت غَمامة النَّدِّ[1] ، على بساط الوَرْدِ . مجلسٌ قد تفتَّحتِ فيه عيونُ النَّرْجس ، وفاحت مَجامِير الأُتْرُجّ ، وفتقت فَارَات[2] النَّارَنْج ، ونطقت ألسُنُ العِيدَان ، وقامت خطباء الأَوتار ، وهبَّت رياحُ الأقداح ، وطلَعَتْ كواكبُ النَّدْمَان ، وامتدَّتْ سماء النَّدّ . مجلسٌ مَنْ رآه حسب الجِنَانَ قد اصطفت عيونها ، فجعلت فى قدر من الأرض ، وتخيّرت فصوصها ، فنُقِلَتْ إلى مجلس الأُنْسِ واللَّهْوِ . قدفضّ اللهوُ ختامه ؛ ونشر الأُنْس أعلامه . قد هَبَّت للأُنْس ريحٌ بَرْقها الراح ، وسحابها الأقداح ، ورعودها الأَوتار ، ورياضها الأقمار . قد فرغنا للهو والدهرُ عنا فى شغل .

جُلّ هذا من قولِ بعض أهل العصر :

كم جوًى مثّله رَسْم مَثَل	ودَم قد طُلّ أثناء طَلَلْ
ولآلٍ كلّل الخدّ بها	لعب البين بربّاتِ الكِلَلْ
حبذا عيشُ الليالى باللِّوى	لو تجافَى الدّهْرُ عنَّا وغَفَلْ
إذ فرَغْنَا فيه للَّهو وقد	باتتِ الأَقْدَارُ عنَّا فى شُغُلْ
وأدرْنَا ذهباً فى لَهَبٍ	كلما أُخْمِدَ بالماء اشتَعَلْ

قد اقتعَدْنا غاربَ الأُنْسِ ، وجرينا فى مَيْدَانِ اللهو . عمدنا إلى أقْدَاحِ اللهو فأَجلْنَاها ، ولمراكبِ السرور فامتطَيْنَاها . قد امتطينا غواربَ السرور بالأقداح . مُدَامة تُورِد رِيحَ الوَرْدِ ، وتَحْكِى نَارَ إبراهيم فى اللَّون والبَرْدِ ، ولستُ أدرى أشقيق أم عقيق ، أم رحيق أم حريق . راحٌ كأنَّ الديوكَ صبَّتْ أحداقَها فيها . راح كأنما اشتقّت من الرَّوْح والراحة . قال ابن الرومى[3] :

---

(١) الند : طيب . (٢) فأرة المسك : نافجتها . (٣) ديوانه : ٢ — ١٠٢ .

والله ما نَدْرِى[١] لِأَيَّةِ عِلَّةٍ   يَدْعونَهَا فى الرَّاحِ بِاسْمِ الرَّاحِ
أَلِرِيحِهَا أمْروحها[٢] تحتَ الحَشَى   أمْ لِارْتِياحِ نَديمِها المُرْتَاحِ

راحٌ كالنار والنُّورِ والنَّوْرِ ، أَصْفَى من البَلُّور ومن دَمْعِ المهجور . روح نور لها من الكَأْس جِسم ، كأنها شمسٌ فى غِلالَةٍ[٣] سَرابٍ . شراب أكادُ أقولُ : هو أَصْفَى من مودَّتى لك ، ومِنْ نعم اللهِ عنـدى فيك ، وأَطْيَبُ من إسعافِ الزمان بلقائك . مُدَامة قد سبك الدهرُ تِبْرَها فصَفَا . كأسٌ كأنها نورٌ ضميرهُ نارٌ . راح كياقوتة فى دُرَّةٍ أَصْفَى من ماءِ السماء ، ودَمْعِ العاشقة المَرْهاء[٤] ، أَحسن من الدنيا المُقْبِلة ، والنعم المـكملة . أَحْسن من العافية فى البَدَن ، وأَطْيَب من الحياة فى السرور . أَرقّ من نسيمِ الصَّبا ، وعَهْدِ الصِّبا . أَرقّ من دَمْع محبّ ، وشَـكْوَى صَبّ . أَرقّ من دموع العشّاق ، مَرَتْها لَوْعَةُ الفراق . مُزِجَ نارُ الرَّاحِ بنُورِ الماء . راحٌ كأنها معصورة من وَجْنَةِ الشمس ، فى كَأْسٍ كأنها مخروطة من فِلْقَة البَدْرِ . كأسُها مِلْء اليدِ ، وريحها ملء البَلَد ، تصبُّ على الليل ثَوْبَ النهار ، كأنها فى الـكأس معنى دقيق ، فى ذِهْنٍ لطيف . كأنَّ الراح من خَدِّه معصورة ، وملاحة الصورةِ عليها مقصورةٌ . وهـذا من قول الطائى * كأنها من خَدِّهِ تُعْصَرُ *
وقال عبد السلام بن رَغْبان الملقب بديك الجن الشاعر المشهور :

معتّقة مِنْ كَفّ ظَبْيٍ كأنما   تناولهـا من خَـدِّه فأدارَها

تمشَّت الشهباءُ فى عِظامهم ، وترّقت إلى هامِهِمْ ، وماسَتْ فى أَعْطافِهِم ، ومالَتْ بأَطْرافهم . سارَتْ فيهم الـكئُوس ، ونالَتْ منهم سَوْرَةُ الخَنْدَرِيس . شربت عقولَهم ، وملـكت قلوبَهم .

---

(١) فى الديوان : تالله ما أدرى . (٢) فى الديوان : ألريحها ولروحها . . . وقال شارحه : ضبطت فى الأصل بضم الراء بمعنى ما به الحياة ، ويصح أن تضبط بفتح الراء بمعنى النسيم .
(٣) الغلالة : شعار تحت الثوب . (٤) مرهاء : بيضاء . ومرهت عينها : خلت من الـكحل .

وقال أبو نواس ، وهو أستاذ الناس فى هذا الشأن(١) :

صِفَةُ الطلولِ بَلاغَةُ الفدم(٢) ... فاجعل صفاتك لابْنَـةِ الـكَرْمِ
تصفُ الطلولَ على السماع بهـا ... أفَذو العِيان كثابتِ العِـلْمِ
وإذا وصفت(٣) الشيء متبعا ... لم تَخلُ من(٤) غلَطٍ ومن(٤) وَهْمِ

وقال :

الـكأس أهواها وإن رَزأت ... بُلغ المعاش وقلّلتْ فَضْلى(٥)
صفراء مجّـدها مَرَازِبُها ... جلّت عن النظراء والمثـلِ
ذُخِرت لآدَمَ قبـل خلقتهِ ... فتقدمته بخطوة(٦) القَبْـلِ
فاعذر أخاكَ فإنه رجـــلٌ ... مَرنَتْ مَسامِعُه على العَـذْلِ

وقال(٧) :

فتسليت بشُرْبِ(٨) عُقَارٍ ... نشأَتْ فى حِجْرِ أمّ الزمان
فتناساها الجديدان حتى ... هى أنصاف شطور الدِّنَان
وافترعنا مُرة(٩) الطَّعْم بها ... نزَقُ البكر ولين العوَانِ(١٠)
واحتسينا من رحيق عتيق(١١) ... وشديد كاملٍ(١٢) فى ليان
لم يُحفِها منزلُ القوم(١٣) حتى ... نجَمَتْ مثلَ نجوم السنان
أو كعِرْقِ السام تنشقّ منه(١٤) ... شُعَبٌ مثـل انفراج البنان

---

(١) ديوانه : ٣٢٣ . (٢) الفدم : العي عن الـكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم وفى رواية : القدم . (٣) فى الديوان : وإذا نعت . (٤) فى الديوان : عن .

(٥) رواية هذا البيت فى الديوان :

والراح أهواها وإن رزأت ... بلغ المعاش وقللت فضلى

وبلغ المعاش : مواد الرزق .

(٦) فى الديوان : بخطوة . (٧) ديوانه : ٣٣٨ . (٨) فى الديوان : فتقربت بصرف.

(٩) فى الديوان : مزة الطعم فيها . (١٠) فى س : الغوان .

(١١) فى الديوان : من عقيق رقيق . (١٢) فى الديوان : كامن .

(١٣) فى الديوان : لم يجفها مبزل القوم ، ويجفها : يبلغ جوفها . (١٤) فى الديوان : أو كقرن السام تشتق منه .

وقال[١] :

وخَدِينِ لذَّاتٍ معلّلٍ صاحب ... يَقْتَاتُ منه فكاهةً ومُزَاحا
قال ابْغِنى المصباحَ قلتُ له : اتَّئِدْ ... حسبى وحسبُك ضَوْءها مصباحا
فسكبت منها فى الزجاجة شربةً ... كانت له حتى الصباح صَبَاحَا

وهذا كقوله[٢] :

وخَمَّار أنخت[٣] عليه ليلا ... قلائصَ قد تَعِبْنَ[٤] من السِّفار
فترجم[٥] والكَرَى فى مُقْلَتَيهِ ... كمخمورٍ شكا أَلم الخُمَارِ
أَبِنْ لى كيف صرت إلى حريمى ... وجَفْنُ الليلِ مكتحلٌ بقَارِ
فقلت له ترفّق بى فإنى ... رأيتُ الصبحَ من خَلَلِ الديارِ
فكان جوابُه أنْ قال كلّا[٦] ... وما صبحٌ سوى ضوءِ العُقَار
وقام إلى الدِّنانِ[٧] فسدَّ فَاها ... فعاد الليلُ مسدولَ[٨] الإزارِ

وقال بعض المحدَثين :

ما زال يَشربُها وتَشْرَبُ عقْلَهُ ... خبلا وتُؤْذِنُ رُوحه برَوَاحِ
حتى انْثَنَى متوسِّداً بيمينِهِ ... سَكَراً وأَسْلَمَ رُوحَه للرَّاحِ

وقال الصنوبرى وذكر شَرْبا[٩] :

نازعتهم كأسا تخالُ نسيمَها ... مِسْكًا تضوّعَ فى الإناء عَتِيقَا
شقَّتْ قِناعَ الفَجْرِ لما غادَرَتْ ... كفُّ النديم قناعَها مَشْقُوقَا
صبغت سوادَ دُجَاهُ حمرةُ لونِها ... فكأنه سَبَجٌ[١٠] أُعِيد عقيقا

---

(١) ديوانه : ٢٥٦ . (٢) ديوانه : ٢٧٥ . (٣) فى الديوان : خططت إليه .
(٤) فى الديوان: قد ونين . (٥) فى الديوان : فجمجم . (٦) فى الديوان : قال صبح.
(٧) فى الديوان : إلى العقار . (٨) فى الديوان : مسود الإزار .
(٩) الشرب ، بالفتح : القوم يشربون . (١٠) السبج : خرز أسود .

وقال أبو الشيص :

وكأس كسا الساقِ لنا بعد هَجْعةٍ حَواشِيها ما مجَّ(١) من ريقة العِنَبْ
كأنَّ اطِّرادَ المــــاء فى جَنَباتِها تربُّـع ماءِ الدرّ فى سُبُك الذَّهَبْ
سقانِى بها،واللّيْـلُ قدشابَ رَأْسُهُ، غزالٌ بحنَّاء الزجاجة مختضِبْ

وقال أبو عدى الـكاتب :

وليس لهـا حدٌّ تحيطُ بوَصفهِ لغاتٌ ، ولا جِسْمٌ يباشرهُ لَمْسُ
ولـكنه كالبرقِ أَوْمَضَ ماضياً فلم يَبْقَ منه غيرُ ما تَذْكُرُ النَّفْسُ

وقال ابن المعتز(٢) :

أَلا فاسْقِنِيهَا قد مَشَى الصبح فى الدُّجا عُقَاراً كمثل(٣) النارِ حمراءَ قَرْقَفَا(٤)
فناولنى كأساً أضاءت(٥) بَنَانهُ تَدَفَّقُ ياقوتاً ودُرًّا مُجَوَّفا
ولمـا أريناها(٦) المزاج تسعَّرت وخِلْت سناهَا بارقا قد(٧) تـكَشَّفَا
يطوف بها ظَبْىٌ من الإنس شادِنٌ يقلِّب طَرْفاً فاسقَ اللَّحْظِ مُدْنفا
عليم بأسرار(٨) المحبين حاذقٌ بتسليم عينيـهِ إذا ما تخوّفا
فظل يُنَاجينى يُقلِّب طَرْفهِ بأطيب من نَجْوَى الأمانى وأَلْطَفا

وقال(٩) :

أَلا عُجْ على دار السرورِ فسلِّمِ وقل أينَ لذّاتى وأينَ تـكَلُّمى
وقل ما حَلَتْ بالعين بعدك لذةٌ سواكِ وإنْ لم تعلمى ذاك فاعلمى
وصفراءَ من صبغ المِزَاج برأسها، إذا مُزِجت ، إكليلُ دُرٍّ منظَّم
قطعتُ بها عُمْرَ الدُّجى وشربتُها ظلاميّة الأحشاء نوريّة الدَّم

---

(١) فى ق ، س : ما فج . (٢) ديوانه : ٢ ـ ٥٥ . (٣) فى الديوان : كلون .
(٤) القرقف : الخمر يرعد عنها صاحبها . (٥) فى الديوان : أضاء .
(٦) فى الديوان : أذقناها . (٧) فى الديوان : بارقا متكشفا .
(٨) فى الديوان : عليما بألحاظ المحبين . (٩) ديوانه ٢ ـ ٦٣ .

[من رسائل البديع]

رسالة إلى أبى عدنان يعزيه

كتب أبو الفضـل بديع الزمان إلى أبى عدنان بن محمد الضبى يعزّيه عن بعض أقاربه(١) :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ حوادِثَه أناخَ بآخرينـا
فقل للشامتين بنـا أَفِيقوا سيَلْقَى الشامتون كما لقينـا

أَحْسَنُ ما فى الدهرِ عمومُه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يَدْعو الجَفَلَى(٢) إذا ساء ، ويخصُّ بالنعمة إذا شاء ، فليفكّر(٣) الشامت ؛ فإن كان أَفلت ، فله أَنْ يَشْمت ، ولينظر الإنسانُ فى الدهر وصُروفهِ ، والموتِ وصنوفهِ ، من فاتحةِ أَمْرِه إلى خاتمةِ عُمْرِه ؛ هل يجدُ لنَفْسه أثراً فى نَفَسه ، أم لتدبيره عَوْناً على تَصْويره ، أم لعمله تقديما لأَمله ، أم لِحيَله تأخيراً لأَجَلِه ؟ كلا ، بل هو العَبْدُ لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ خُلِق مَقْهوراً ، ورُزِق مقدوراً ، فهو يَحْيَا جَبْراً ، ويهلك صَبْرا ، وليتأَمّل المرء كيف كان قَبْـلا ؛ فإن كان العَدَمُ أَصلا ، والوجودُ فصلا ، فليعلم الموت عَدْلا . فالعاقل من رقّع من جوانب الدهر ما ساءَ بمـا سرّ ، ليذهب ما نَفَع بما ضرّ(٤) ؛ فإنْ أحبّ الاَّ يحزن فلينظر يَمنة هل يرى إلا مِحْنَة ، ثم ليعطف يَسْرَةَ هل يرى إلّا حَسْرَة ؟ ومثلُ الشيخ الرئيس أطال الله بقاءَه من فَطِنَ لهذه الأَسْرار ، وعَرف هـذه الديار ، فأَعدّ لنعيمها صَدْرًا لا يملؤه فرحا ، ولبؤسها قَلْباً لا يطيره تَرَحا(٥) ؛ وصحب البريّة برأى من(٦) يعلم أنّ للمتعة حدًّا ، وللعاريّة رَدًّا ، ولقد نُعِى إلىّ أبو قبيصة قدّس الله رُوحه ، وبرَّد ضريحه ، فعُرِضت علىَّ آمالى قُعودا ، وأمانىَّ سوداً ، وبكيت ؛ والسخىُّ جودُه بما يملك ، وضحكت ، وشرُّ الشدائد ما يُضْحِك ، وعضضت الأُصبع

(١) رسائل البديع : ١٣١ . (٢) الجفلى : الدعوة العامة .
(٣) فى الرسائل : فلينظر . (٤) فى الرسائل : من رفع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ما ضر بما نفع . (٥) فى الرسائل : جزعا .
(٦) فى الرسائل : وصحب الدهر برأى من يعلم .

حتى أَدْمَيْتُه ، وذممت الموتُ حتى تمنَّيته ؛ والموتُ أطال الله بقاءَ الشيخ الرئيس خَطْبٌ قد عظُم حتى هان ، وأمرٌ قد خشُن حتى لَانَ ، ونُكْرٌ قد عَمَّ حتى عادَ عرفا ؛ والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموتُ أَخَفَّ خطوبِها ، وخَبُثَتْ حتى صار أقلَّ عيوبِها ، ولعل هـذا السهم قد صاب آخر ما فى كِنَانتها ، وأنْكأ (١) ما فى خزانتها ، ونحنُ معاشر التّبع نتعلمُ الأدبَ من أخلاقه ، والجميلَ من أفعاله ، فلا نحثّه على الجميل وهو الصَّبْر ، ولا نرغّبه فى الجزيل وهو الأَجر ، فلْيرَ فيهما رَأْيَه إن شاء الله .

رسالة إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب كتبه يهنّيـه بمرض أَبى بكر الخوارزمى وكانت بينهما مُقَارَعة ، ومنازعة ، ومنافَرة ، ومهاتَرة ؛ ولهما مجالس مستظرفة قهره البديع فيها وبهره ، وبكّته حتى أَسْكته ، ليس هـذا موضعها ، لـكنى أَذْكر بعد هذه الرسالة بعضَ مكاتبات جرَتْ بينهما ، إذ كان ما لهما من الابتداء والجواب آخذاً بوَصلِ الحـكمة وفَصْلِ الخطاب :

الحرُّ (٢) أَطال الله بقاءك ـ لا سيما إذا عرف الدهرَ معرفتى ، ووصف أَحوالَه صفتى ـ إذا نظر علم أنَّ نِعمَ الدَّهرِ ما دامت معدومة فهى أَمانىّ ، وإن وُجدت فهى عَوَارى ، وأنّ مِحنَ الأيامِ وإن طالت فستنفد ، وإن لم تصب فـكأنْ قَد ، فـكيف يشمت بالمِحْنَة مَنْ لا يأمنُها فى نَفْسِه ، ولا يَعْدَمُها فى جِنْسِه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يَمُتْ فسيموت ؛ وما أَقْبَحَ الشماتة ، بمن أَمِن الإماتة ، فـكيف بمَنْ يتوقّعُها ، بعد كل لحظة ، وعَقِبَ كلِّ لفظة ، والدَّهْرُ غرْثَان (٣) طُعْمه الخِيَار ، وظمآن شِرْبُه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكِلِه ، أم يُسَرُّ العاقلُ بسلاحِ قاتله ؟ وهذا الفاضلُ شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا فقدباطَنّاهُ وُدّاجميلا ، والحرُّ عند الحميَّةِ لا يصطادُ ، ولـكنه عند الـكرم يَنْقَادُ ، وعند الشدائد تَذْهَبُ الأحقاد ،

---

(١) فى الرسائل : ولعل هذا السهم آخر ما فى كنانتها وأربى .

(٢) الرسائل : ١١٦ . (٣) غرثان : جوعان .

فلا تتصور حالتى إلا بصورتها من التوجُّع لعلَّته ، والتحزُّن لمرضته ، وقاهُ اللهُ المكروه ، ووقانى سماعَ المحذور فيه ، بمَنه وحَوْله ولُطفه وطَوْله .

بينه وبين الخوارزمى

قال البديع فى سياقة أخباره مع أبى بكر الخوارزمى[١] :

أولها أنا وطئنا خُراسانَ ، فما اختَرْنَا إلّا نيسابور داراً ، وإلّا جوار السادة جِوَارا ، لا جرم أنا حططْنَا بها الرَّحْلَ ، ومدَدْنَا عليها الطُّنُب[٢] ، وقديما كنا نَسْمَعُ بحديث هـذا الفاضل فنتشوَّقه ، وبخبرِه على الغَيْبِ فنتعشّقه ، ونقدّر أنا إذا وطئنا أَرْضَه ، ووردْنا بلدَه ، يخرج لنا فى العِشرة عن القِشْرَة ، وفى المودَّةِ عن الجلدة ، فقد كانت كلمةُ الغُرْبَة جمعتنا ، ولُحْمَةُ الأدب نَظَمَتْنَا ، وقد قال شاعر القوم غير مدافع :

أجارتنا إنّا غريبان هاهُنا وكلٌّ غريبٍ للغريبِ نَسِيبُ

فأَخلف ذلك الظنّ كلَّ الإخلاف، واختلف ذلك التقدير كلَّ الاختلاف، وكان قد اتفق علينا فى الطريق من العرب اتفاقٌ[٣] ، لم يوجبه استحقاقٌ ، من بزَّة بَزُّوها[٤] ، وفِضَّة فضّوها ، وذهب ذَهَبُوا به ، ووردنا نيسابور براحةٍ ، أَنْقَى من الراحة ، وكِيسٍ أخْلى من جَوْفِ حمار ، وزى أوْحش من طلعة المعلم ، بل اطلاعة الرقيب ، فما حَلَلْنَا إلاَّ قصبة جواره ، ولا وَطِئْنَا إلا عتبة دارِه ؛ وهذا بعد رُقْعَةٍ قدَّمْنَاها[٥] ، وأحوالِ أُنْسٍ نظمناها ـ ونسخة الرقعة : إنا بقُرْبِ الأستاذ أطال اللهُ بقاه كما طَرِب النَّشْوَان مالَتْ به الخمرُ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العُصفُور بلّلَه القَطْرُ ، ومن الامتزاج بولائه كما التقَت الصَّهْباء والبارد العَذْبُ ، ومن الابتهاج لمزاره[٦] كما اهتزّ تحت البارِح الغُصْنُ الرَّطْبُ ، فكيف نَشاطُ الأستاذ سيدى

---

(١) الرسائل : ١٨ . (٢) أصل الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد .

(٣) هكذا فى ط ، والرسائل ، وفى ق : قد أنفق علينا فى الطريق إنفاق .

(٤) فى ق : من بز بزوه . (٥) فى الرسائل : كتبناها .

(٦) فى الرسائل : لمرآه .

لصديقٍ طرأ إليه ممّا بين قَصَبتى العراق وخُراسان ، بل عتبتى نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف :

رثّ الشمائل مُخْلَق الأثْواب ... بَـكَرَتْ عليه مُغيرةُ الأعْرَاب

وهو ـ أيّده الله ـ ولىُّ إنعامه ، بإنفاذ غُلامه ، إلى مستقَرّى ، لأُفْضِى إليه بما عندى إن شاء الله ـ فلما أخذتنا عَيْنُه سقانا الدُّرْدِىّ[1] من أوّلِ دَنّه ، وأجْنَانا سوءَ سوءَ العِشرة من باكورة فنّه ، من طَرْفٍ نَظَر بشَطْرِه ، وقيامٍ دَفَع فى صَدْرِه ، وصديقٍ استهان بقَدْرِه ، وضيف استخفّ بأمره ؛ لـكنّا أقطعناه جانب أخْلاقه ، ولّيناه خطَّة نفاقه ؛ فواصلناه إذ جانَب ، وقارَبْناه إذ جاذب ، وشَرِبناه على كُدُورته ، ولَبِسناه على خُشُونته ، ورَدَدْنا الأمر فى ذلك إلى زِىٍّ استغثّه ، ولباس استرثّه ، وكاتبناه نستمِدُّ وِداده ، ونستلِينُ قيادَه ، ونُقِيمُ مُنْآدَه ، بما هذه نسخته :

الأستاذ أبو بكر ، والله يُطيل بقاءه ، أزْرَى بضيفه أنْ وجده يَضْرِبُ إليه آباط القلَّة ، فى أطمار الغُرْبَة ، فأعمل فى رُتْبَتِه أعمالَ المصارفة[2] ، وفى الاهتزاز إليه أصناف المضايقة ، من إيماء بنِصْفِ الطَّرْف ، وإشارة بشَطْرِ الـكف ، ودَفْعٍ فى صدر القيام عن التمام ، ومَضْغٍ للـكلام ، وتـكلُّفٍ لردِّ السلام ؛ وقد قبلت ترتيبه صَعَراً[3] ، واحتملته وزرا ، واحتضَنْته نـكراً ، وتأبَّطته شرّا ، ولم آلُهُ عُذْرا ؛ فإن المرءَ بالمال وثياب الجمال ، ولستُ مع هذه الحال وفى هذه الأسمال ، أتقزّز من صَفّ[4] النعال ، فلو صدَقْتُه العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت : إنَّ بوادِينا ثاغية صباح[5] ، وراغية رَوَاح ، وناسا يجرّون المَطارِف ، ولا يمنعون المعارف :

---

(١) دردى الزيت : ما يبقى أسفله . (٢) فى ق : فأعمل فى ترتيبه أعمال المصادقة .

(٣) الصعر : ميل فى الوجه ، ويكون تهاونا من كبر ، وربما يكون خلقة .

(٤) فى الرسائل : أتقزز صف النعال ، وفى س ، ق : أتقرر . (٥) ثغت الشاة : صوتت .

وفيهم مقاماتٌ حِسَانٌ وجوهُهم وأَنْدِيَة يَنْتَابُها القَوْلُ والفِعْلُ

فلو طوّحت بأبى بكر ـ أيّده اللهُ ـ اليهم مطارِحُ[1] الغُرْبَة ، لوجد منزلَ البِشْرِ رحيبا ؛ ومحطَّ الرَّحْلِ قريبا ، ووَجه المضيف خصيبا ؛ فرأى الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه وُدّ ، والمرُّ الذى يَتْلُوه شهْد ، موفقاً إن شاء الله .

فأجاب بما نسخته[2] : وصلَتْ رُقْعَةُ سيدى ورئيسى أطال اللهُ بقاه إلى آخر السِّكْبَاج[3] ، وعرَفْت ما تضمّنه من خَشِنِ خطابه ، ومُؤْلِمِ عِتَابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضَّجْرةِ التى لا يخلو منها مَنْ مسَّه عُسر أو نبَا به دَهر ؛ والحمد لله الذى جعلنى موضعَ أُنْسِه ، ومظنَّة مشتكَى مافى نفسه ، أما ما شكاه سيدى ورئيسى مِنْ مصانعتى[4] إياه فى القيام ، فقد وفيته حقّه ـ أيَّده اللهُ ـ سلاما وقياما ، على قَدْرِ ماقدَرْت عليه ، ووصلت إليه ، ولم أَرْفَعْ عليه إلا السيّد أبا البركات أدام الله عزه ، وما كنتُ لأَرفع أحداً على مَنْ أبوه[5] الرسول ، وأمُّه البَتُول[6] ، وشاهداه التوراة والإنجيل ، وناصراه التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل ؛ فأما القومُ الذين صدر عنهم سيدى فكما وصف : حسن عشرة ، وسداد طريقة ، وجمال[7] تفصيل وجملة ، ولقد جاوَرْتُهم فأحمدت المَراد ، ونلت المُرَاد :

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهلهُ فما عهد نجدٍ عندنا بذميمِ

والله يعلم نيّتى للأحرار كافة ، ولسيدى من بينهم خاصة ؛ فإن أعاننى الدهرُ على ما فى نفسى بلغتُ له مافى النيّة ، وجاوزْتُ به مسافةَ القَدْر والأمنية ، وإن قطع علىّ طريقَ عَزْمى بالمعارضة ، وسوء المناقضة ، صرفتُ عِنَانى عن طريق الاختيار ، بيد الاضطرار .

---

(١) فى س : مطاريح ، وفى الرسائل : طوارح . (٢) الرسائل ٢١ .

(٣) السكباج : قائمة ألوان الطعام ، ودواء . (٤) فى الرسائل : مضايقتى .

(٥) فى الرسائل : من جده . (٦) فاطمة بنت النبى . (٧) فى الرسائل : وكمال .

فما النفسُ إلاّ نطفة بقَرارةٍ إذا لم تـكدّر كان صفواً غَدِيرُها[1]

وبعد ، فحبذا عتابُ سيدى إذا استوجَبْنَا عَتبا ، واقترفْنَا ذَنْبا ؛ فأما أن يسلفنا العَرْبَدة[2] فنحن نَصونهُ عن ذلك ، ونَصونُ أنفسنا عن احتماله ، ولستُ أَسومه أن يقول: ﴿استَغْفِرْ لنا ذنوبَنا إنّا كنّا خاطِئين﴾ ، ولـكن أسأله أن يقول : ﴿لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ يغفر اللهُ لـكم وهو أَرْحَمُ الراحِمين﴾ .

فحين وَرَدَ الجواب وعينُ العُذْر رَمِدَة[3] تركناه بعرِّه ، وطوَيْنَاهُ على غَرّه ، وعمدنا إلى ذِكْرِه فسحَوْنَاه[4] ، ومن صحيفتنا مَحَوْنَاه ، وصِرْنا إلى اسمه ؛ فأخذناه ونبذناه ، وتنكّبْنَا خطته ، وتجنّبنا حِطَّته[5] ، فلا طرنا إليه ، ولا طرنا به ، ومضى على ذلك الأسبوع، ودبَّت الأيام، ودَرَجت الليالى، وتطاولَتِ المُدَّة، وتصرَّم الشهرُ، وصِرْنا لا نُعيرُ الأسماعَ ذِكْرَه ، ولا نودع الصدورَ حَدِيثَه ؛ وجعل هذا الفاضل يستزيد، ويستعيد، بألفاظ تقطعها الأسماع من لسانه، وتؤدّيها إلىّ، وكلمات تحفظها[6] الألسنة من فمه ، وتُعيدها علىّ ؛ فكاتبناه بما هذه نسخته[7] :

أنا أَرِدُ من الأستاذ سيدى ـ أطال الله بقاه ـ شرعة وُدِّه وإن لم تَصفُ ، وألْبَس خلعة برِّه وإن لم تَضْفُ ، وقصارَاى أن أكيله صاعا عن مدٍّ ؛ فإنى وإنْ كنتُ فى الأدب دَعِىَّ النَّسب ، ضيق المُضْطَرَب، سيءُ المنقلَب ، أمتُّ إلى عشرة أهله بنيقة ، وأنزع إلى خِدْمَة أصْحابِه بطريقة ، ولـكن بَقِى أَن يكون الخليطُ مُنْصِفا فى الوداد، إذا زرت زَارَ ، وإنْ عُدْتُ عاد ، وسيدى ـ أبقاه الله ـ ناقشنى فى القبول أَولا ، وصارَمَنى فى الإقبال آخرا ؛ فأَما حديثُ الاستقبال وأَمْرُ الإنزال والأنزال[8] ، فنِطَاقُ الطمع ِضيّق عنه، غيرُ متسع لتوقّعه منه ، وبعد فكلفة الفَضْلِ بيِّنة، وفروض

---

(١) فى الرسائل : معينها . (٢) العربدة : سوء الخلق . (٣) فى الرسائل: رائدة.
(٤) سحاه : جرفه ، والشعر حلقه . (٥) فى الرسائل : خلطته.
(٦) فى الرسائل : تخطفها . (٧) الرسائل ٢٢ . (٨) الأنزال : جمع نزل وهو المنزل ، وما يهيأ للضيف أن ينزل عليه .

الودِّ متعيّنة، وأرْضُ العشرة ليِّنة، وطرقها هيِّنة ، فلمَ اختار [1] قعود التَّعالِى مركبا، وصعودَ التعالى مَذْهَبا ؛ وهلاّ ذاد الطيرَ عن شجر العِشْرَة ، وذاق الحُلْوَ من ثمرها ؛ فقد علم اللهأنشوقى إليهقدقدّ[2]الفؤادَ بَرْحاً إلىبرح ، ونكأه قرحا إلىقرح، ولكنها مِرّة مُرّة ، ونَفْسٌ حرّة ، لم تُقَد إلا بالإعظام ، ولم تُلْق إلا بالجلال والإكرام ، وإذا استعفانى من معاتبته، فأعْفَى نفسه من كُلَف الفَضْلِ يتجشَّمها ، فليس إلاَّ غصص الشوق أتجرَّعُها ، وحلل الصَّبْرِ أتدرَّعها ، ولم أعره من نفسى ، وأنا لو أُعِرْتُ جناحَىْ طائر لما طِرْتُ إلاّ إليه ، ولا وقعت إلا عليه :

أحبك يا شَمْسَ النهارِ وبدرَهُ ... وإنْ لامنى فيك السها والفَرَاقِدُ
وذاك لأنّ الفضلَ عندك باهرٌ ... وليس لِأن العيشَ عندك بَارِدُ

فلما وردت عليه الرُّقعة حشَد تلاميذَه وخدَمه ، وجَشِم [3] للإيجابِ قدمه ، وطَلَع علينا مع الفجر طلوعُه ، ونظمتنا حاشيتا دار الأمير أبى الطيب ؛ فقلنا : الآن تُشْرِق الحشمةُ وتنوِّر، ونُنْجِدُ فى العشرة ونُغَوِّر ، وقصدناه شاكرين لما أتاه[4]، وانتظرنا عادةَ بِرِّه ، وتوقَّعْنَا مادَّةَ فضله ؛ فكان خُلّبا شِمْناه ، وآلاً ورَدْناه[5]، وصرفنا فى تأخّره وتأخُّرنا عنه إلى ماقاله ابن المعتز :

إنَّا على البعاد والتفرُّقِ ... لنَلْتَقِى بالذِّكْرِ إنْ لم نَلْتَقِ

وأنشَدنا قول ابن عصرنا :

أُحبك فى البتول وفى أبيها ... ولكنى أُحبّك من بعيدِ

وبقينا نَلْتَقِى خيالا ، ونقنع بالذكر وصالا ، حتى جعلت عواصفه تهُبّ ، وعقاربه تَدبّ .

والمجلس طويلٌ جداً [6] .

---

(١) فى الرسائل : فلم أختر . (٢) فى الرسائل : قد كد ، وفى ق : قد قيد .
(٣) جشم الأمر : تكلفه على مشقة ، وفى الرسائل : وجشم الإيجاف قدمه ، وفى س : وحشم. (٤) فى الرسائل : لما أتاه . (٥) الخلب : البرق الكاذب ، والآل : السراب .
(٦) اختصره الحصرى ، وهو تام فى الرسائل كما أشرنا .

قلت : إِن كنتُ خرجت لطولِ هذا الكلام عن ضبط الشرط ، فلعلى أُسامَح فيه لفضله ، وعدم مثله ، وهو وإِن كان فى باب الاتصال ، فهو بتقدير الانفصال ، لقيامِ كلّ رسالةٍ بذاتها ، وانفرادِها بصفاتها .

كتابه إلى رئيس هراة

وكتب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد يصفُ ماجرى بينه وبين الخوارزمِى (١) : ما أَلُومُ هذا الفاضل على بساط شرٍّ طواه ، وموقد حَرْبٍ اجتواه ، ولكنى أَلُومُه على ما نواه ؛ ثم (٢) لم يتبع هواه ، ورَامَه ، ثم لم يبلغ آثامه ، وأقولُ : قد ضرب فأَيْنَ الإِيجاَع ، وأَنْذَر فأين الإِيقاع ، وهذه بَوارِقه فأَيْنَ صواعقه ، وذلك وعيدُه فأين عديده ، وتلك بنودُه ، فأين جنودُه ، وأنشد :

* هذى معاهده فأين عهوده *

وما أَهْول رعده ، لو أمطر بمده ! اللهمَّ لا كُفْرَان (٣) ، ولعن اللهُ الشيطان ، فإِنَّه أشفق لغريب أن يُظْهِر عَوارَه ، وإن طارَ طَوارَه ، وإِنْ كان قصد هذا القَصْدَ فقد أساء إلى نفسه من حيث أَحْسَن إلىّ ، وأَجْحَفَ بفضله من حيث أَبقَى علىّ ، وأَوْهم الناسَ أنه هاب البَحْرَ أن يخوضَه ، والأَسد أنْ يرُوضَه ، وشجَّعنى على لقائه ، بعد ما برَعَنى (٤) بإِعيائه ، فبينا كنت أُنشد :

* إنَّ جَنْبِى على (٥) الفراشِ لَنَابِ * إذ أنشدت :

* طاب لَيْلِى وطاب فيه شَرَابِى * وبينا أنا أقول : * ما لقلبى كأنه ليس منى * إذْ قلت : * أين مَنْ كان مُوعِداً لى بأَنى (٦) * فلو أنَّ (٧) هذا الفاضلَ قضى حقَّنا بالزيارة عند قدومِنا أو الاستزارة ، لكان فى الضّرب أحسن ، وفى طريق المعاشرة

---

(١) الرسائل ٣١٧ . (٢) عبارة الرسائل : ثم لم يبلغ هواه . وأراده ثم لم يور زناده ، ورامه ثم لم يبلغ مرامه . (٣) عبارة الرسائل : ولا كفران فلعله أشفق على غريب . . . والعوار : العيب . (٤) برع صاحبه : غلبه . (٥) فى الرسائل : عن .

(٦) فى الرسائل : أين من كان قائلا أنأعنى . (٧) هنا اختلاف كثير عما فى الرسائل .

أذهب . ألا ، ولكنه وعَد بالمُباراة أولا ، وهدّدنا بالمسائل ثانياً ، وأخلف بالتخلُّف ثالثا ؛ فأَبْلِغْ وَجْدى إليه ، واعْرِض شوقى عليه ، وقل له : إن كنت ندمت على النضال فلا تندَمْ على الإفضال ، فإن طَوَيتَنا حيث الجهاد ، فانشُرْنا حيثُ الوداد ، وإن لم تلْقنا فى باب المكاشرة [(١)] ، فأْتنا من بابِ المعاشرة .

كتابه إلى سهل بن محمد

وله إلى الإمام أبى الطيب سهل بن محمد [(٢)] : قد كان الشيخُ يَعِدُنى عن هذه الحضرة عِدَاتٍ أَشمّ لها الأنف ، لا ذهابا بتلك الفواضل عنها ، لكن استحالةً من هذا الزمان أنْ يجودَ بها ؛ فحين أشرفْتُ على الحَضْرَة ماجَتْ إلىّ أمواجُ الشرف منها ، وخلص إلىّ نسيمُ الكرَم عنها ، وأتْحَفَنى [(٣)] على رسم الإجلال بمركوب شامخ ، ومركب [(٤)] ذهبٍ سابغ ، وجنيبٍ [(٥)] شرفٍ زائد ؛ وسرتُ بحمد الله محفوفا بأعيانِ الكتّاب [(٦)] ، وعيونِ الرجال ، حتى شافَهْتُ بِساطَ العزّ ، مستقبلا مَلِكَ الشرق أدام الله علوَّه ، فجذب بضَبْعىّ [(٧)] عن أرضِ الخدمة ، إلى جوارِ ولىّ النعمة ، حرس اللهُ مكانه ، فاهتزَّ اهتزازا فات سِمَةَ الإكرام ، وتجاوز اسْمَ الإعظامِ إلى القيام، فقبلت من يُمْناه مِفْتاحَ الأرزاق ، وفتّاح الآفاق ، ولحقت منه بقاب [(٨)] العقَاب ، وخاطبنى بمُخَاطبات نَشَدْتُ بها ضالَّة الكِرام [(٩)] ، وهلمّ جرّا إلى ما تبعها من جميل الإنزال ، وسَنِىّ الأَجْزَال [(١٠)] .

وطرأت [(١١)] من الشيخ العميد على شَخْصٍ يسَعُه الخاتم ولا يَسَعُه العالَم ، ويهتزّ عند المكارم كالغُصن، ويثبت عند الشدائد كالرُّكْن [(١٢)] ، وسلطانٍ يحلم حِلْمَ السيفِ مُغْمَدا، ويغضب مجرّدا، فهوعندالكرم ليّن كصَفْحَتِه، وعندالسياسة خشِنٌ كشَفْرَته،

---

(١) كاشره : إذا ضحك فى وجهه وباسطه . (٢) الرسائل : ١٢١ .
(٣) فى الرسائل : وتلقيت. (٤) فى الرسائل : وموكب . (٥) فى الرسائل: وحنين شرف رائد . (٦) فى الرسائل : الكتائب . (٧) أى بعضدى . (٨) فى ط : تقاب .
(٩) فى ق : الكرم ، وفى الرسائل : الآمال . (١٠) فى الرسائل : الأنزال .
(١١) فى الرسائل : نظرات من الشيخ . (١٢) فى الرسائل : كالنكر .

وملك يَأْبَى الكرمَ نيّة [١] ، والفضلَ سجيّة ، ويفعل الشرّ كُلْفَة أو خطيّة ، فهو مَسرُور بآلاته [٢] ، نَفُوع بذاته ، عطارد قَلَمُه ودَوَاتُه ، والمريخ سَيْفُه وقَنَاتُه ؛ عيْبُه [٣] لا عَيْبَ فيه ، فيصرف عَيْن الكمال عن معاليه .

وصادفت من الشيخ الموفق أيّده الله ملَكا يُشاهَدُ عِيَانا ، وجبلا قد سمِّى إنسانا، وحسنا قد مُلِئ إحسانا ، وأسدا قد لقِّبَ سلطانا ، وبَحْراً قد أَمسك عِنَانا ، وحطَطْتُ رَحْلِي بفناء الأمير الفاضل أبي جعفر أدام الله عِزّه، فوجدت حكمى في ماله أَنْفَذَ من حكمه ، وقَسْمِى من غِنَاه أَوْفَرَ من قَسْمه ، واسْمِى فى ذاتِ يده مقدَّما على اسْمِه ، ويَدِى إلى خزانته أَسْرَعَ من يَدِه ، وإن قصدت أَنْ أُفْرِدَ لكلٍ مدحا [٤] ، وأعبر الجملة شرحاً ، أطَلْت ، فهلمّ جرّا إلى ما افتتحت الكتاب لأجله .

وردَ للخوارزمى كتاب يتقلّب فيه علىجَنْبِ الحردِ، ويتقلّى علىجَمْرِ الضّجَر ، ويتأوّه من خُمار [٥] الخجل ، ويتعثَّرُ فى أَذْيالِ الكَلَل ، ويذكر أنَّ الخاصة قد علمت لأَيّنا كان الفَلْج [٦] . فقلت : است البائن أعلم ، والخوارزمِى أعْرَف ، والأَخبار المتظاهرة [أعدل، والآثار الظاهرة] [٧] أصْدَق ، وحلبة السباق أحْكَم ، وما مضى بيننا أشْهد ، والعَوْدُ إن نشط أحْمد ، ومتى [٨] ، استزاد زِدْنا ، وإن عادت العقرب عُدْنا ، وله عندى إذا ما شاء ، كلُّ مَاسَاء [٩] !

وهى طويلة فيها هَنات صُنْتُ الكتابَ عنها ، وقد أعاد البديع معنى قوله فى صدر حكايته مع الخوارزمى ، فقال فى رقعة كتبها إلى أبى سعيد الإسماعيلى ، وقد وقفت به الضرورةُ على تلك الصورة من سلب العرب ماله :

---

(١) فى الرسائل : نشية . (٢) فى ط ، ق : ضرورى لأنه . (٣) فى الرسائل : حسب .
(٤) فى الرسائل : أن أقرر ذلك مدحا . (٥) فى س : غمار . (٦) الفلج : الظفر .
(٧) من الرسائل . (٨) فى س : ومن . (٩) فى س : ما شاء ، وفى الرسائل : كل ما ساء وناء .

كتابه إلى الإسماعيلي

كتابي[١]، بل رُقْعتي، أطال الله بقاء الشيخ ، وقد بكرت عليَّ مُغيرَةُ الأعراب، كمهلهل ، وربيعة بن مُكَدَّم ، وعتيبة بن الحارث بن هشام[٢] ، وأنا أحمد الله إلى الشيخ الفاضل ، وأذمُّ الدهر ؛ فما ترك لى من فِضَّةٍ إلّا فَضَّها ، ولا ذهبٍ إلا ذَهب به ، ولا عِلْق[٣] إلّا عَلقه ، ولا عَقار إلا عَقَرَه ، ولا ضَيْعَة إلا أضاعها ، ولا مال إلا مال إليه ، ولا سَبَد إلا استبدَّ به ، ولا لَبَد[٤] إلا لَبَد فيه ، ولا بِزَّة إلّا بَزَّهَا، ولا عارية إلّا ارتجعها ، ولا وَدِيعة إلا انتزعها ، ولا خِلْعَة إلّا خلعها ، وأنا داخل نيسابور ولا حِلْيَة إلا الجلدة، ولا بُرْدَ إلا القِشْرَة، والله ولِيُّ الخلف يعجِّله ، والفرج يسهِّله ، وهو حَسْبِي ونعم الوكيل .

وليس البديع بأبي عذرة هذا الخطاب، وسترى نظير هذا المعنى فى هذا الكتاب.

ومن إنشائه فى مقامات أبى الفتح الإسكندرى

من مقاماته: المقامة الفزارية

قال[٥] : حدَّثنى عيسى بن هشام قال : كنتُ فى بعض بلاد بنى فَزارة مرتحلا نَجيبة ، وقائدا جَنيبَة ، يَسْبَحانِ سَبْحا ، وأنا أهيم[٦] بالوطن ، فلا الليل يَثْنِينى بوعيده ، ولا البُعد يُدْنينى[٧] بِبيدِه ، وظَلِلْتُ أَخْبط ورقَ النّهار بعصاَ التّسْيار ، وأخوضُ بَطْنَ الليل بحوافر الخيلِ ، فبينا أنا فى ليلةٍ يضلُّ بها الغَطَاط[٨]، ولا يُبْصِر بها الوَطْوَاط ، أَسْبحُ ولا سانح إلا السبع ، ولا بارح إلا الضّبع ، إذ عنّ لى راكب تامّ الآلات ، يطوى منشور الفَلَوات ، فأخذنى منه ما يأخذُ الأَعْزَلُ من شاكى السلاح ، لكنى تجلّدت فقلت : أرضَك لا أمّ لك ! فدونك شَرْطُ الحِداد ، وخَرْطُ القَتَاد ، وخَصْمٌ ضخم ، وحَمِيةٌ أَزْدِيّة ، وأنا سِلْم إن شئت ، وحَرْبٌ إن أردت ،

---

(١) الرسائل ٦٨ .
(٢) فى الرسائل : وعتبة بن الحارث بن شهاب .
(٣) العلق : النفيس من كل شىء .
(٤) أصل السبد : القليل من الشعر . ويقال : ماله سبد ولا لبد ؛ أى لا قليل ولا كثير .
(٥) المقامات ٧٤ .
(٦) فى المقامات : أهم .
(٧) فى المقامات : يلوينى .
(٨) الغطاط : القطا .

فقل : من أنت ؟ قال : سلماً أصبت ، وخيراً أجبت ، قلت : فمن أَنت ؟ قال : نصيح إن شاورت ، فصيح إنْ حاوَرْت ، ودون اسمى لِثام ، لا تُميطه الأَعلام . قلت : فما الطُّعْمة ؟ قال : أَجُوب جُيوبَ البلاد ، حتى أَقع على جَفْنَة جواد ، ولِى فؤاد يَخْدُمه لسان ، وبيانٌ يَرْقُمه بنَان ، وقصارَاىَ كريمٌ ينفض إلىّ حقيبته ، ويخفّف[1] لى جَنيبته ، كان حُرّة طلع إلىّ بالأمس طُلوع الشمس ، وغرب عنى بغُروبها ، لـكنه غاب ولم يَغِبْ تذكارُه ، وودَّع وشيّعَتْنى آثارُه ، ولا ينبئك عَنْها أقربُ منها ، وأومأ إلى ما كان يَلْبسه ، فقلت : شحاذ وربّ الـكعبة أَخاذ ، له فى الصَّنْعة نَفَاذ ؛ بل هو فيها أستاذ ، ولابد أَن تَرْشَح له وتَسِحَّ عليه ، وقلت له : يا فتى ، قد أجليت عبارتك ، فأَين شعرُكَ من كلامك ؟ فقال : وأَين كلامى من شِعْرِى ! ثم استمدّ غريزته ، ورفع عَقِيرته بصوت ملأَ الوادى ، وأنشأ يقول :

وأَروَعَ أَهداه لِىَ الليـل والفَلَا ... وخَمْسٌ تمسُّ الأَرضَ لـكن كلا وَلَا
عَرَضْتُ على نارِ المـكارمِ عُودَهُ ... فـكانَ مُعمًّا فى السوابق[2] مُخْـولا
وخادَعْته عن ماله فخَدَعْته ... وساَهَلْتُه فى بِرّه فتسهَّلَا
ولـما تجالَينا وأَحمـدَ مَنْطِق ... بَلَانِىَ فى نَظْمِ القريضِ بِما بَلَا
فـا هَزَّ إلا صارماً حين هزَّنى ... ولم يَلْقَنى إلا إلى السَّبْقِ أَوَّلا
فلم أَرَه إلا أغرَّ[3] محجَّباً ... وما تحتَـه إلا أَغرّ محجَّلَا

فقلت : على رِسْلِك يا فتى ، ولك مما يصحبنى حكمك . فقـال : الجنيبة ، قلت : إنَّ ، وما عليها[4] . ثم قبضت بجُمْعى عليـه ، وقلت : لا والله الذى أَلهمها لَمسا ، وشقّها من واحدة خَمْسا ، لا تُزايلنا أو نَعْلَمَ عِلْمك ، فحَدَر لِثامه عن وَجْهه ، فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فما لبثت أن قلت :

توشّحتَ أَبا الفتح ... بهـذا السيفِ مُخْتالا

(١) فى المقامات : ويخفض . (٢) فى المقامات : فى السيادة .

(٣) فى المقامات : محجلا. (٤) فى المقامات : فقال : الحقيبة بما فيها . فقلت : إن وحاملتها .

وما تصنعُ بالسيف إذا لم تَكُ قتّالا
[فصُغْ ما أنت حليت به سيفَك خلْخَالا][1]

[بعض طرف الأدب]

نسب ورحم وعلى ذكر قوله : « إنَّ وما عليها » قال أبو عبيدة : وفد عبدُ الله بن الزبير الأسدى على عبد الله بن الزبير بن العوام فقال : يا أميرَ المؤمنين، إنّ بينى وبينك رَحِما من قِبَل فلانة الكاهلية ؛ هى أُختنا ، وقد ولدتكم ، وأنا ابنُ فلان ؛ ففلانة عمّتى . فقال ابنُ الزبير : هذا كما ذكرت ، وإن فكّرت فى هذا أصبت ، الناسُ كلهم يرجعون إلى أبٍ واحد ، وأم واحدة .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ نَفَقَتى قد ذَهَبَتْ . قال : ما كنت ضمنت لأهلك أنها تكفيك إلى أنْ ترْجع إليهم . قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن ناقتى قد نَقِبت ودَبِرَتْ[2] . فقال له : أنْجِد بها يَبْرُد خفّها ، وارفعها بسِبْت ، واخْصِفها بهُلْب[3] ، وسِرْ عليها البريدين . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما جئتك مستَحْمِلا ، ولم آتِك مستوصفا ، لعن اللهُ ناقةً حملتنى إليك . قال ابنُ الزبير : إنَّ وراكبها ! فخرج وهو يقول :

أَرَى الحاجاتِ عنـد أبى خُبَيْب[4] نَـكِدْنَ ولا أُمَيَّـةَ فى البلادِ
من الأَعياص[5] أو مِنْ آل حَرْبٍ أغرّ كغُرَّةِ الفرس الجوادِ
ومالى حين أَقْطَع ذات عرقٍ إلى ابنِ الـكاهلية من مَفـاد
وقلت لصحبتى أَدْنُوا ركابى أفارقُ بَطْنَ مكَّةَ فى سَوَادِ

---

(١) من س، والمقامات . (٢) نقب الخف : تخرق ، والبعير : حفى أو رقت أخفافه ، والدبر : قرحة الدابة . (٣) السبت : كل جلد مدبوغ ، خصف النعل : خرزها ، الهلب : الشعر كله ، أو شعر الخنزير الذى يخرز به . (٤) أبو خبيب : عبد الله بن الزبير .
(٥) الأعياص من قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر .

فبلغ شعره هـذا عبد الله بن الزبير ، فقال : لو علم أنّ لى أُمًّا أَحسن من عمته الـكاهلية لنسبنى إليها ، وكان ابنُ الزبير يكنى أَبا بكر وأَبا خبيب .

قال الصولى : أخذ المعتصم من محمد بن عبد الملك الزيات فرساً أَشهب أَحمّ[١] ، كان عنده مَكِينا ، وكان به ضَنينا ، فقال يرثيه : رثاء فرس

قالوا جزعت فقلتُ إنّ مصيبةً جلّت رزيّتُها وضاق المذهبُ

قال أبو بكر : هكذا أَنشدنيه ابنُ المعتز على أن (إنَّ) بمعنى نعم ، وأنشد النحويون :

قالوا : كبرتَ فقلتُ إن وربمـا ذَكَرَ الـكبيرُ شبابَه فتطرَّبا

كيف العزاء وقد مضى لسبيله عنَّا فودّعنا الأَحمُّ الأَشْهَبُ

دبّ الوُشَاةُ فباعدوه ، وربمـا بَعُدَ الفتى وهو الحبيبُ الأَقْرَبُ

لله يومَ غدوت فيـه ظاعناً وسُلِبْتُ قُرْبَك أىَّ عِلْقٍ[٢] أُسْلَبُ

نفسى مقسّمة أقام فَرِيقُها ومضى لِطِيَّتِه فريقٌ يُجْنَبُ

الآن إِذْ كَمُلَتْ أداتُك كلُّها ودعا العيونَ إليك حُسْنٌ مُعْجِبُ

وغدوت طَنّان اللّجام كأنمـا فى كل عُضْوٍ منك صَنْجٌ[٣] يُضْرَبُ

وكأنّ سَرْجَك[٤] ، إذْ عَلاك ، غَمامةٌ وكأنمـا تحت الغمامة كَوْكَبُ

أَنْساكَ ؟ لا زَالَتْ إذاً منسيـةً نفسى ، ولا بَرِحَتْ بمثلك تنكب

أَضْمَرْتُ منك اليَأْسَ حين رأيتنى وقُوَى حبالى مِنْ حِبَالِك تُقْضَبُ

يا صاحبىَّ لمثـل ذَا من أمرِهِ صَحِبَ الفتى فى دَهْرِه من يَصْحَبُ

إِنْ تُسْعِدا فصنيعةٌ مشكورةٌ أو تَخْذُلا فصنيعةٌ لا تَذْهَبُ

عُوجا فقولا مرحبا وتزوَّدا نظراً ، وقَلّ لمن تُحِبُّ المرحب

---

(١) لونه بين الـكمتة والدهمة ودون الحوة . (٢) العلق : النفيس من كل شىء .
(٣) الصنج : شىء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر ، وآلة بأوتار يضرب بها .
(٤) فى س ، ق : سرحك .

منعَ الرقادَ جَوًى تضمَّنَه الحَشَى ممـا أُكابده وهَمٌّ مُنْصِب

[المزاح]

قال الحجاج بن يوسف لابن القِرِّيَّة : مازالت الحكماء تَكْرَهُ المُزاح، وتَنْهَى عنه ، فقال : المُزَاح من أدْنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المُزَاح أوله فرَح ، وآخره ترَح . المزاح نقائضُ السفهاء كالشِّعْرِ نقائض الشعراء . والمزاح يُوغِر صدْرَ الصديق ، وينفِّر الرفيق . والمزاح يُبْدِي السرائر ؛ لأنه يظهر المعَايِر[1] . والمزاح يُسْقِطُ المروءة ، ويبدى الخنى . لم يجُرَّ المزح خيراً ، وكثيراً ما جرَّ شرًّا . الغالب بالمزاح وَاتِر ، والمغلوب به ثائر . والمزاح يجلب الشتمَ صغيرُه والحرب كبيرُه ، وليس بعد الحرب إلا عفوٌ بعد قدرة .

فقال الحجاج : حسبك ، الموت خيرٌ من عَفْو معه قدرة .

وذُكِر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : يُنْشِق أحدُكم أخاه مثل الخَرْدَل، ويُفْرِغُ عليه مثل المِرْجل ، ويَرْميه بمثل الجَنْدل . ثم يقول : إنما كنت أمزح !

أخذ هذا المعنى محمود بن الحسين الوراق فقال :

تَلْقَى الفتى يَلْقَى أَخاهُ وخِدْنَهُ في لَحْنِ مَنْطِقِه بمـا لا يُغفَرُ
ويقول : كنت ممازحاً ومُلَاعباً هيهات نارُك في الحشى تَتَسعَّرُ !
أو ما علمت وكان جهلك غالباً أنَّ المُزَاحَ هو السِّبَابُ الأَصْغَر

فقر في هذا النحو لأهل العصر وغيرهم

المُزَاحة[2] تَذْهَبُ بالمهابة ، وتُورِثُ الضغينة . الإفراط في المُزَاح مُجون، والاقتصاد فيه ظَرْف ، والتقصير عنه نَدَامة ؛ أوكد أسباب القطيعة المِرَاء والمُزَاح .

ابن المعتز ــ من كَثُر مُزَاحَه لم يَخْلُ من استخفافٍ به أو حِقْدٍ عليه .

---

(١) المعاير : المعايب . (٢) المزاحة : المزاح .

قال أيوب بن القِرِّيَّة : الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل الدّينُ شريعته، والحلم طبيعته ، والرأيُ الحسنُ سجيَّته؛ إن سُئل أجاب ، وإن نطق أصاب، وإن سَمِعَ العلم وَعَى ، وإن حدّث روى . وأما الأحمق فإنْ تكلّم عَجِل ؛ وإن حدّث وَهِل [1] ، وإن استُنْزِل عن رأيه نزل ، فإن حُمِل على القبيح حَمل . وأمّا الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدّثته شانَك ، وإن وثقت به لم يرعَك ، وإن استُكْتِم لم يكْتُم ، وإن عُلِّم لم يعلم، وإن حُدِّث لم يفهم ، وإن فُقِّه لم يَفْقَه .

[الطيرة والزّجْر]

قال أبو حية النميرى [2] :

جَرَى يَوْمَ رُحْنا عامدين [3] لأرضنا — سَنيحٌ فقال القوم : مرّ سَنيحُ
فهاب رجالٌ منهمُ فتعيفوا [4] — فقلت لهم جارى إلىّ ربيحُ
عُقَابٌ بأعقابٍ من الدار بعد ما — نَأَتْ نَأْيَةٌ بالظاعنين طَرِيحُ
وقالوا حمامات فحُمَّ لِقاؤها — وطَلْحٌ فنيلت [5] والمطىُّ طَلِيحُ
وقال صحابى هُدْهُدٌ فوق بانةٍ — هُدًى وبيانٌ بالنجاح يلوحُ
وقالوا دمٌ دامَتْ مواثيقُ بيننا — ودام لنا حُلْوُ الصفاء صَرِيحُ
لَعيناك يومَ البين أسْرَعُ وا كِفاً — من الفَنَنِ الممطور وهو مَرُوحُ [6]
ونسوةِ شَحْشَاحٍ غَيُورٍ يَخفْنَهُ — أخى ثقةٍ يَلْهُونَ وهو مُشيحُ [7]
يقلن وما يَدْرِين أنى [8] سمعتهُ — وهنَّ بأبواب الخيام جُنُوحُ
أهذا الذى غنّى بسمراء مَوْهِناً — أتاحَ له حسنَ الغناء مُتيحُ

---

(١) وهل : ضعف وفزع . (٢) اللآلئ : ٢٤٣ ، الأمالى : ١—٦٩ .
(٣) فى ق : عامرين . (٤) العائف : المتكهن بالطير أو غيرها . وفى الأمالى : وتقاعسوا
(٥) فى الأمالى : فزيرت . (٦) مروح : أصابته الرياح . (٧) فى ق : يلهين. مشيح : نحيل حريص . (٨) فى الأمالى : عنى ، قال هناك : عنى بمعنى أنى بإبدال الهمزة عينا ، وتسمى قيس وتميم هذا الإبدال عنعنة ، وفى س : سمعنه .

إذا ما تغنَّى أَنَّ مِنْ بَعْد زَفْرَةٍ كما أنَّ من حَرِّ السلاح جَرِيحُ
وقائلةٍ يا دَهْم وَيْحَك ! إنهُ على مابه من غُنّةٍ (١) لمليحُ
فلو أنَّ قولا يجرح الجلد قد بدا بجلدىَ من قول الوُشَاة قروح

وهذا من غريب الزجرّ مليح التفاؤل .

قال أبو العباس محمد بن يزيد أنشدنى أعرابىّ فى قصيدة ذى الرمة التى أوّلها (٢) :

ألا يَا اسْلَمى يادَارَ مىَّ عَلَى البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلاًّ بِجَرْعائِكِ (٣) الْقَطْرُ

بيتين لم يروهما الرواة فى ديوانه وهما :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبةٍ من القَضْبِ (٤) لم يَنْبُتْ لهاوَرَقٌ خُضْرُ
فقلت غرابٌ لاغتراب وقَضْبةٌ لقَضْبِ النوى هذى العيافةُ والزَّجْرُ

وقال آخر

دعا صُرَدٌ (٥) يوماً على غُصْنِ بانةٍ وصاح بذات البين منها غُرَابُها
فقلت أتَصْرِيدٌ (٦) وشَحْطٌ وغُرْبَةٌ فهذا لعمرى نَأْيُهَا واغْتِرابُها

النهى عن الطيرة

وقد أكثرت العرب من ذكر الطِّيَرة ، والزَّجْرِ ، وكانت تقتدى بذلك وتجرى على حكمه ، حتى ورد النَّهْىُ فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا عَدْوَى ولا طِيَرة . وقد قال الأول :

لعمركَ ماتَدْرِى الضَّوَارِبُ بالحصى ولا زَاجِراتُ الطَّيْرِ ما اللهُ صانعُ

---

(١) فى الأمالى : على غنة فى صوته . (٢) ديوانه ٦٤ .

(٣) الجرعة : الرملة الطيبة المنبت ، أوالأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل، أوالكثيب جانب منه رمل وجانب منه حجارة كالأجرع والجرعاء. (٤) القضبة : القضيب : الغصن. والقضب: كل شجرة طالت وبسطت أغصانها . (٥) صرد : طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير .

(٦) التصريد : التقليل، وفى السق دون الرى .

وقال ضابئ بن الحارث البرجمى :

وماعاجلات الطير تدْرِى مِنَ الفتى ... نجاحاً ولا عن رَيْثهنّ تجيبُ
ولا خيرَ فيمن لا يوطِّنُ نفسهُ ... على نائباتِ الدَّهْرِ حين تنوبُ
ورُبَّ أمورٍ لا تَضِيرك ضَيْرَةً ... وللقلب من مَخْشاتِهِنّ وَجيبُ

وقال الكميت بن زيد الأسدى :

ولا أنا ممن يزْجُرُ الطيرَ همُّه ... أصاح غرابٌ أم تعرَّض ثعلبُ
ولا السانحات البارحات عشيةً ... أمرَّ سَليمُ القَرْنِ أمْ مَرَّ أعْضَبُ[(١)]

وقال شاعر قديم[(٢)] :

لا يمنعنَّك من بُغَا ... ءِ الخير تَعْقادُ التَّمائم
ولا التشاؤمُ بالعُطَا ... س ولا التَّيامُنُ بالمقاسِم
فلقد غَدَوْتُ وكنت لا ... أغدو على واقٍ وحاتم[(٣)]
فإذا الأشائمُ كالأَيَا ... من والأيامنُ كالأشائمْ
وكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌّ على أحدٍ بدائمْ
قد خُطَّ ذلِكَ فى الزَّبُو ... ر الأوَّليَّات القدائمْ

ولقد أحسن ابن كناسة فى رثاء ولده يحيى، أنشده أبو العباس ثعلب :

تيمّمت فيه الفأل حتى رُزِئْتهُ ... ولم أدْرِ أنَّ الفال فيه يَفِيلُ[(٤)]
فسمَّيْته يَحْيِى ليَحْيَا فلم يكن ... إلى ردِّ أمرِ اللهِ فيه سبيلُ

كثير عزة يتطير

وروى المدائنى قال[(٥)] خرج كثيّر من الحجاز يريدُ مصر ، فلما قَرُبَ منها نزل بمنزل ، فإذا هو بغُرَاب على شجرة بَانٍ يَنْتِف رِيشَه ويَنْعَب ؛ فأسرع الرحيل ،

(١) الأعضب : المكسور القرن الداخل ، وقد يكون العضب فى الأذن أيضا .

(٢) اللسان — مادة حتم ، عيون الأخبار ١—١٤٥ ، وقد نسبت هناك إلى المرقش .

(٣) فى ط : وحائم . والحاتم : المشئوم والأسود من كل شىء كما فى اللسان ، وفى عيون الأخبار : الواقى : الصرد ، والحاتم : الغراب الأسود ، وكانت العرب تتشاءم بهما .

(٤) يفيل : يخطئ . (٥) عيون الأخبار ١—١٤٧ .

ومضى لوجهه ؛ فلقيه رجلٌ من بنى نَهْد ، فقال : يا أخا الحجاز ؛ مالى أراكَ كاسِفَ اللون ؟ قال : ما علمت إلا خيراً ، قال : فهل رأيت فى طريقك شيئاً أنْكَرْته ؟ قال : لا والله إلا فى منزلى هذا ، فإنى رأيتُ غراباً يَنْتِف رِيشَه على بانة وَيَنْعِب . قال : أما إنك تطلب حاجةً لا تدركها .

فقدم مصر والناسُ منصرفون من جنازة عزة ، فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فَوْقَ بانةٍ ... يُنَتِّفُ أعْلى رِيشه ويطايِرُهْ

فقلت : ولو أنى أشاء زجرتهُ ... بنفسىَ ، للنهدىّ هل أنت زاجره؟

فقال : غراب لاغترابٍ من النوى ... وفى البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاورهْ

فما أعيفَ النهدِىَّ لا دَرَّ دَرُّهُ ... وأزجرَه للطير ، لا عَزَّ ناصِرُه

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل ، وهو يقول[1] :

أقولُ ونِضْوى واقفٌ عند رأسها ... عليك سلامُ الله والعَيْنُ تَسْفَحُ

فهذا فراقُ الحق لا أن تُزيرنى ... بلادَكِ فتلاءُ الذراعين صَيْدَحُ[2]

وقد كنت أبكى من فراقك حيّة ... وأنتِ لعمرى اليومَ أنأى وأنزَحُ

التطير بالإبل

وقال جرير[3] :

بَانَ الخليطُ برامَتَيْن فوَدَّعُوا ... أوَ كُلَّماَ نعبوا[4] لبَيْنٍ تَجْزَعُ

إن السَّوانح[5] بالضُّحَى هَيَّجْنَنى ... فى دارِ زَيْنَبَ والحمامُ الوُقَّعُ

وقال عوف الراهب خلاف هذا :

غلط الذين رأيتهم بجهالةٍ ... يَلْحُونَ كلُّهم غراباً يَنْعَق

ما الذنبُ إلّا للأَباعر إنها ... مما يشتّ جميعَهم ويفرّق

إنَّ الغرابَ بيُمْنِه تَدْنُو النَّوى ... وتُشتِّتُ الشملَ الجميعَ الأَيْنُق

---

(١) المعاهد ٢ـ١٤٦ . (٢) صيدح : الفرس الشديد الصوت ، والصياح الصيت.
(٣) ديوانه ٣٤٠ . (٤) فى الديوان : رفعوا . (٥) فى الديوان : الشواحج
وفى س : السواحج .

وقد تبعه فى هذا المذهب أبو الشيص فقال :

ما فرَّق الأحبابَ بَعْـ ـد اللهِ إلّا الإبلُ
والناس يَلْحَوْن غُرا بَ البينِ لَمَّا جهلوا
وما على ظَهْرِ غُرا بِ البَيْنِ تُطوى الرّحل
ولا إذا صاح غُرا بٌ فى الديار احتملوا
وما غرابُ البين إلْـ ـلَا ناقةٌ أو جَمَلُ

وما أملح ما قال القائل :

زعموا بأَنَّ مطيهم عَوْنُ النوى والمؤْذِناتُ بفُرْقَةِ الأَحبابِ
وَلَوَ انّها حَتْفِى لما أبْغَضْتُها ولها بهم سببٌ من الأَسبابِ

ابن الرومى وتطيره

وكان على بن العباس الرومى مُفْرِطَ الطِّيَرة ، شديدَ الغلوّ فيها . قال علىّ بن عبدالله بن المسيب : وكان يحتجُّ لها ، ويقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يُحِبُّ الفأل ، ويَكْرَه الطِّيَرة ؛ أفتراه كان يتفاءلُ بالشيء ، ولا يتطيَّر من ضدِّه ؟

ويقول : إن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ برجل وهو يرْحَل[1] ناقةً ويقول : يا ملعونة ، فقال : لايَصْحَبُنا ملعون ، وإن عليا رضى الله عنه كان لا يَغْزُو غَزاة[2] والقمرُ فى العقرب ، ويزعم أنّ الطيرة موجودةٌ فى الطباع قائمةٌ فيها ، وأنّ بعضَ الناس هى فى طباعهم أَظهر منها فى بعض ، وأن الأَكثرَ فى الناس إذا لقى ما يكرهُه قال : على وَجْهِ من أصبحت اليوم .

فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى إلىّ عدةٌ من جوارى القيان ، وكانت فيهنّ صبيَّةٌ حَوْلَاء ، وعجوزٌ فى إحدى عينيها نكتة ، فتطيَّر من ذلك ، ولم يُظهِرْ لى أمره ، وأقام باقى يومه ؛ فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى

(١) رحل البعير : حط عليه الرحل . (٢) فى س : لا يغزى غزيا .

من بعض السطوح ، وجفاه القاسم بن عبيد الله ، فجعل سبَب ذلك المعنيين المغنيتين ، وكتب إلى (١) :

أيها المُتحفَّى بحُولٍ وعُورٍ أين كانت عنك الوجوهُ الحسانُ
قد لَعَمْرِى ركبت أمرا مهينا (٢) ساءنى فيك أيها الخُلْصَانُ (٣)
فَتَحُكَ المهرجان بالحُول والعُو رِ أرانا ما أَعْقَب المهرجانُ
كان من ذاك فقدُك ابنتُك الحرْ رَة مصبوغةً بها الأَكْفَانُ
وتجافى مؤمَّلٍ لى جَليلٍ (٤) لجَّ فيه الجفاءُ والهِجْرَانُ
وعزيز علىَّ تقريع خلٍّ لا يُدَانيه عندىَ الخُلاَّنُ
غير أنى رأيت إذكاره الحز م وإشمارهُ شِماراً يُصَانُ
لا تَهاوَنْ بطيرة أَيُّها النـ ظار واعْلَمْ بأَنها عُنْوان
قف إذا طيرة تلقّتك وانظُرْ واستمع ثَمَّ ما يقولُ الزَّمانُ
قَلَّما غاب من أمورك عنوا ن مبين وللزَّمَانِ لِسَانُ
لا تكن بالهوى تكَذّب بالأخـ بارِ حتى تهين مالا يُهان (٥)
لا يَقُدْكَ الهوى إلى نصرة الأَخْـ بارِ حتى يقدّم البرهان (٦)
إن عُقْبِى الهوى هُوِىٌّ وعُقْبى طول تلك المهوِّنات (٧) هَوان
لا تصدق عن النبيين إلاّ بحديث يلوحُ فيه البيان
خبَّر الله أنَّ مشأمةً كا نت لقومٍ وخبَّر القرآن
أفزُور الحديث تقبل أم ما قاله ذُو الجلال والفُرْقَانُ
أترى من يرى البشيرُ بشيرا يَمْتَرِى فى النذير يا وَسْنَانُ
فدع الهزل والتضاحك بالطـ يرة والنصح مُثْمِنٌ مجّان

---

(١) ديوانه : ١٧٢ . (٢) فى الديوان : مهيبا . (٣) الخلصان : الخالص المودة .
(٤) فى الديوان : خليل . (٥) ليس هذا البيت فى ديوانه المطبوع بأيدينا .
(٦) فى الديوان : حتى تهين مالا يهان . (٧) فى الديوان : التهاونات .

وقد فرّق حُذّاقُ أهل النظر فى المقال ، بين الطيرة والفأل ، فقالوا : الطيرة كانت العرب ترجِعُ إلى ما تمضيها ، وتَجْرِى على تقضِّيها ، وكان الذى يهُمُّ بهم إذا ما رأى ما يتطيَّر منه رجع عنه ؛ وفى ذلك ما يصرف عن الإحالة على المقادير الجارية بيد مُمْضيها ، النازلة على حكم قاضيها . والفَأْل لايردّ المريد عما يريد إنما يقوى مُنّته ، ويَسُرُّ مهجته ؛ وليس هذا موضع تطويل ، فى إيراد الدليل .

***

عتاب ابن الرومى للقاسم بن عبيد الله

وفى جفاء القاسم بن عبيد الله إياه يقول معاتباً :

ألم ترنى أقرضتك الودَّ طائعا ... ولم تر قبلى مُعسِراً قطّ أَقْرَضا
لعمرى لقد صوّرت أبيض مُشرِقاً ... فلِمْ لا تُرينى وَجْهَ نُعماك أبيضا
فياويح مولاك استغاث بمشربٍ ... فأشرق فاستشفى شفاء فأفرضا(١)
ولولا اعتقادى أنك الخيرُ كلّهُ ... لأزمعْتُ توديعاً، قضى الله ماقضَى
وإنى وإن دارَتْ علىّ دوائرٌ ... لأُعْرِض عمَّنْ صدَّ عنى وأعْرَضا
وما زلت عَرَّافا إذا الزاد رابَنى ... بخبثٍ وعيّافا إذا الماءُ عَرْمَضا(٢)

وهذا البيت كقول الآخر :

وإنى لِلْماء المخالط للقذَى ... إذا كثرت وُرَّاده لعيُوفُ

رثاء ابن الرومى لابنة المسيبى

وفى ابنة المسيبى يقول ابن الرومى(٣) يعزّيه :

أخا ثقتى أعزز علىّ بنكبةٍ(٤) ... منَاكَ بها صَرْفُ القضاءِ المقدَّرُ
أُصِبتَ، وماللمرءِ(٥) من حُكْمِ ربّه ... محيدٌ(٦) وأمرُ الله أعْلى وأقهرُ
وقد مات من لايخلف الدهر مثلَهُ ... عليك من الأسلاف والحقُّ يَبْهَرُ
تعزيت عمن أثمرتك حياتهُ ... ووَشْكُ التعزِّى عن ثمارِكِ أجدرُ

---

(١) أفرض : شرب من الفرضة ، وهى المشرع . (٢) عرمض : خبث وطحلب .
(٣) ديوانه : ١٠٤ . (٤) فى الديوان : بنوبة . (٥) فى الديوان : للعبد عن .
(٦) فى الديوان : محيص .

لأن اختيال الدهر فى ابن وفى ابنةٍ ... يسيرٌ وكرُّ الدهرِ شيخيك أعْسَرُ
تعذَّر أن نعتاض من أمهاتنا ... وآبائنا والنسل لا يتعذّر
فلا تهلِكَنْ حُزْناً على ابنة جنةٍ ... مضت(١) وهى عندالله تحيا(٢) وتُحْبَرُ
لعلّ الذى أعطاك ستر حياتها ... كساها من اللَّحْدِ الذى هو أسْتَرُ
فكم من أخى حرية قد رأيتهُ ... بنارِ ذوى الأصهار يكوى ويُصهر
فلا تتهم لله فيها ولايةً ... ولا نظراً فاللهُ للعبد أنظرُ
وأنت وإن أبصرت رشدك مرةً ... فذو النظرِ الأعلى برشدك أبْصَرُ

من تعازيه

ومن مليح تعازيه عن أبيه قوله لعلىّ بن يحيى المنجم :

لا تبعدنَّ كريمة أودعتها ... صِهْرًا من الأصهار لا يخزيكا
إنى لأَرْجُو أنْ يكونَ صداقَها ... من جنة الفردوس ما يرضيكا
لا تيأسنَّ لها فقد زوَّجتها ... كفؤا وضمّنت الصَّداق مليكا

[موت البنات]

وقال عبيد اللهِ بن عبد الله بن طاهر :

لكل أبى بنت يرجّى بقاؤها ... ثلاثةُ أصهار إذا ذُكر الصّهْرُ
فبيتٌ يغطيها وبَعْلٌ يَصُونُها ... وقبر يُوَارِيها وخيرها القَبْرُ

وقال عقيل بن علقمة وكان أغير العرب :

إنى وإن سِيق إلىَّ المهرُ ... ألفٌ وعُبدانٌ وذَوْدٌ عشرُ
أحبُّ أصهارى إلىَّ القبرُ

ومنه أخذ عبيد الله . قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد دخل علينا ابن خلف البهرانى فأنشدنا :

لولا أُمَيْمَةُ لم أجزع من العدمِ ... ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظلمِ

---

(١) فى الديوان : غدت . (٢) فى الديوان : تجبى .

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى   أنَّ اليتيمةَ يَجْفُوها ذوو الرَّحِمِ
أُحاذِرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها   فيهتك الستر عن لَحْمٍ على وَضَمِ
تَهوى حياتى وأهوى موتها شفقا   والموتُ أكرمُ نزَّال على الحُرَمِ

وكانت أميمة بنت أخته وكان قد تبنَّاها ، ثم غابت غيبة ، فسألناه عنها فأنشد :

أمست أُميمة مغموراً بهـا الرَّجَمُ   لدى صعيدٍ عليه التُّربُ مُرْتكِمُ(١)
يا شِقّةَ(٢) النفس إن النفسَ والِهةٌ   حرّى عليك ودَمْع العين مُنْسجِم
قد كنت أخشى عليها أن يؤخرها   عنى الحِمام فيُبْدِى وجهَها العُدُمُ(٣)
فالآن نمت فلا همٌّ يُؤَرِّقُنى   تَهْدَا العيونُ إذا ما أوْدَت الحُرَمُ
فالآن نمت فلا همٌّ يُؤَرِّقُنى   بعد الهدوء ولا وَجْد(٤) ولا حُـلُم
للموت عندى أيادٍ لست أنـكرها   أحيا سروراً وبى مما أتى ألم

[رجع إلى تطير ابن الرومى]

عاد ذكر ابن الرومى ــ وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد فى عصر ابن الرومى شابًّا مترفاً ، ومليحاً مستظرَفاً ، وكان يعبث به ، فيأتيه بسَحَر فيقرع الباب ، فيقال له : مَن ؟ فيقول : قولوا لأبى الحسن مُرة بن حنظلة ، فيتطيّر لقوله ، ويقيم الأيام لا يخرجُ من داره ، وذلك كان سبب هجائه إياه ، فمن أول ما عاتبه به(٥) :

قولوا لنحوينا أبى حسن   إن حسامى متى ضربت مَضى
وإنَّ نبلى إذا هممت بأَنْ   أرْمِى نَصَلْتُها بجمْرِ غَضا
لا تحسبنّ الهجاء يحفل بالرفـ   ـع ولا خفض خافضٍ خَفَضا

(١) الرجم : القبر وحجارة تنصب على القبر . والمرتـكم : المتراكم .
(٢) الشقة : نصف الشىء إذا نشق .   (٣) العدم : فقد المال .   (٤) حزن .
(٥) ديوانه : ١٠٨ .

ولا تَخَلْ عودتى كباديتى سأَسْعَطُ السمّ من أبى الحضَضا
أعرف فى الأشقياء[1] بى رجلا لا يَنْتَهِى أو يصير لى غرَضَا
يُلِيح[2] لى صَفْحَةَ السلامة وال ــ لم ويُخْفى فى قلبــه مَرَضا
أضحى مغيظا علىّ أنْ غضب ا لـ ــلّه عليه ، ونِلْتُ منه رضا
وليس تُجْدِى[3] عليه موعظتى إن قدّر الله حَيْنَهُ وقضى
كأننى بالشقىّ معتــذرا إذا القوافى أذقْنَهُ المَضَضا
ينشدنى العهد يوم ذلك والْـ ــعهدُ خضاب إذا له قبضا[4]
لا يأمَنَنّ السفيــهُ بَادِرَتى فإننى عارِضٌ لِمَنْ عَرَضا
عندى له السوط إن تلوّم[5] فى الـ ــسير وعندى اللّجام إن رَكَضا
أسمعت إنْبَاضَتِى[6] أبا حسن والصفحُ لاشكّ نصحُ من محَضَا
وهو معافى من السهاد فلا يحمل فيمسى فراشه قَضَضا[7]
أقسمت بالله لا غفرت لهُ إنْ واحدٌ من عُروقِه نَبضا

فاعتذر إليه ، وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد . وكان الأخفش أكثر الناس إخوانا ؛ فقبل عذره ، ومدحه بقصيدته التى يقول فيها[8] :

ذُكِرَ الأخفش القديمُ فقلنا إن للأخفش الحديثِ لفضْلاَ
وإذا ما حكمت ــ والرومُ قومى ــ فى كلام مُعرَّب كنت عَدْلا
أنا بين الخصوم فيــه غريبٌ لا أرى الزّور للمُحاباة أهْلا
ومتى قلت باطلا لم ألقَّب فيلسوفا ولم أسمَّ[9] هِرَقْلا

* * *

(١) فى الديوان : أعرف بالأشقياء . (٢) كل من لمع بشىء وأظهره فقد لاح به ولوّح وألاح ، وفى ق : يبيح . (٣) فى ق : تجرى . (٤) هكذا فى ق ، س ، وفى ط : يوم ذاك وللعهد خضاب أذاله فنضا . (٥) تلوم فى الأمر : تمكث . (٦) أصل الإنباض : أن تمد الوتر ثم ترسله فتسمع له صوتا . (٧) القضض : التراب يعلو الفراش . (٨) ديوانه : ٤٦٥ .
(٩) فى الديوان : أسوّد .

الأخفش القديم هو أبو الخطاب ، وكان أحد أستاذى سيبويه ، وهو من المتقدّمين فى النحو ، ويُعْرَف بالأخفش الكبير ، وكان فى عصر سيبويه أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، وهو الأَخْفش الصغير ، وهو الذى قال : كان سيبويه يَعْرِض ما وَضَع من النحو علىَّ ، ويرى أنى أعلمُ منه ، وكان فى وقته ذلك أعلم منى . الأخفش

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه ، واتصل به أنَّ رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطمَن عليها ، فقال قصيدته التى يقولُ فيها[1] :

أعتقتُ عبدىَّ فى القريض معا ... عبدةَ والفَحْل[2] من بنى عبده
إن أنا لم أَرم[3] بالإساءة مَنْ ... زَاغَ عن القَصْد أو أَبى سدده[4]
قلت لمن قال لى عرضت على الْـ ... أخفش ما قلته فما حَمِدَهْ
قصرت بالشعر حين تعرضه ... على مبين العمى إذا انتقدهْ
أنشدته مَنْطِقى ليشهدَه ... فغاب عنه عمًى وما شَهِدَهْ
مابلغت بى الخطوب رتبة مَنْ ... تَفْهَمُ عنه الكلابُ والقِرَدَه
ولا أنَا المفهم البهائم والـ ... طير سليمان قاهر المَرَدَه
فإن يقل إننى حفظت[5] فكالـ ... دفتر جَهْلًا بكل ما اعْتَقَدَه
سأُسمع النــاسَ ذَمَّه أبداً ... ما سَمِع اللّهُ حَمْدَ مَنْ حمده

عَبْدة بن الطبيب ، وعلقمة بن عبدة الفحل ، وكانا شاعرين مجيدين ، وقال علقمة ابن عَبْدة لرجل ورأى آخر يعتذرُ إليه وهو معبّس فى وجهه : إذا اعتذر إليك المعتذر فتلقّه بوجهٍ مُشْرِق ، وبِشْر مطلَق ؛ لينبسط المتذلّل ، ويؤمَّن المتنصّل .

* * *

(١) ديوانه : ٢٨٩ . (٢) فى ق : العجل ، والفحل هو علقمة .
(٣) فى الديوان : أجز . (٤) فى الديوان : رشده . (٥) فى الديوان : رويت.

ولابن الرومى فى الأخفش إخاش صُنْتُ الكتابَ عنه . قال [١] علىّ بن إبراهيم كاتب مسروق البلخى : كنت بدارى جالسا فإذا حجارةٌ سقطَتْ بالقرب منى ، فبادرتُ هاربا ، وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السَّطْح ، والنظر إلى كل ناحية ؛ من أَين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأةٌ من دارِ ابن الرومى الشاعر ! قد تشوّفتْ [٢] ، وقالت: اتقوا الله فينا ، واسقونا جَرَّةً من ماء ، وإلاَّ هلَكْنَا ، فقدمات من عندنا عطشا.

فتقدمتُ إلى امرأةٍ عندنا ذاتِ عَقْل ومعرفة أَنْ تصعدَ إليها وتخاطبَها ، ففعلَتْ وبادرتْ بالجرّة ، وأَتْبعَتَها شيئا من المأكول ؛ ثم عادت إلىّ فقالت : ذكرتِ المرأةُ أنّ الباب عليها مقفلٌ من ثلاث بسببِ طِيَرة ابن الرومى ، وذلك أنه يَلْبَس ثيابَه كلَّ يوم ، ويتعوَّذُ ثم يصيرُ إلى الباب ، والمِفْتَاحُ معه ، فيضَعُ عينَه على ثَقْبٍ فى خشب الباب ، فتقعُ عينُه على جارٍ له كان نازلا بإزائه ؛ وكان أَحْدَب يقعُد كل يومٍ على بابه ، فإذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه ، وقال : لا يفتح أحدٌ البابَ .

فعجبتُ لحديثها ، وبعثتُ بخادمٍ كان لى يعرفه فأمرتُه بأَن يجلسَ بإزائه ـ وكانت العينُ تَمِيلُ إليه ـ وتقدّمت إلى بعض أَعوانى أَن يَدْعوَ الجار الأَحدب ؛ فلما حضر عندى أرسلتُ وراءَ غلامى، لينهض إلى ابن الرومى، ويستَدْعيه الحضور؛ فإنى لجالسٌ ومعى الأَحدب إِذْ وافى أبو حذيفة الطَّرَسُوسِىّ ومعه بِرْذَعَة الموسوس صاحبُ المعتضد، ودخل ابنُ الرومى فلما تخطّى عتبة باب الصَّحْن عَثَر فانقطع شِسْعُ [٣] نَعْلِه ، فدخل مذعورا ؛ وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدلّ على تغيُّرِ حالٍ ؛ فدخل وهو لا يَرَى جارَه المتطيّر منه ، فقلت له : يا أبا الحسن ؛ أيكون شىءٌ فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ، ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقنى ما رَأَيت من العَثْرَة ، لأنى فكرت أَنَّ به عاهة ! وهى قطع أُنْثَيَيْه ، قال بِرْذَعَة : وشيخُنا

---

(١) معجم الأدباء : ١٣ ـ ٢٩٦ . (٢) تشوفت : نظرت وتطاولت .

(٣) الشسع : أحد سيور النعل .

يتطيَّر ؟ قلت : نعم ويُفْرط ، قال : ومن هو؟ قلت : على بن العباس[1]. قال الشاعر؟ قلت : نعم . فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهرَ يُؤْذنُ صَرْفُه … بتَفْرِيقِ ما بينى وبين الحبائبِ
رجعتُ إلى نفسى فوطَّنْتُها على … ركوبِ جميلِ الصَّبْرِ عند النوائبِ
ومَنْ صَحِبَ الدنيا على جَوْرِ حُكْمِها … فأيامُه مَحفُوفةٌ بالمصائبِ
فَخذْ خُلْسةً من كل يومٍ تعيشُه … وكُنْ حَذِراً من كامِناتِ العواقب
ودعْ عنك ذِكْرَ الفألِ والزّجْرِ واطّرحِ … تطيُّرَ جارٍ أو تَفاؤُلَ صَاحِبِ

فبقى ابن الرومى باهتا ينظرُ إليه ، ولم أَدْر أنه شَغَل قَلْبَه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبِرْذَعة معه ، فحلف ابنُ الرومى لا يتطيَّر أبدا من هذا ولا مِنْ غيره ، وأومأ إلى جاره فقلت : وهذا الفكر أيضاً من التطيّر ، فأمسك ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ، وحُسن مَأْتَاهُ ، فقلت له : ليتنا كتَبْنَاه ! قال : اكتبه فقد حفظته ، وأملاه علىّ .

ومن شدة حذره ، وعظيم تطيّره ، قوله لأبى العباس بن ثوابة[2] وقد ندَبَه إلى الخروج إليه وركوب دجلة[3] :

حَضَضْتُ[4] على حَطْبِى لِنَارِى فَلا تَدَعْ … لكَ الخَيْرُ ، تَحْذِيرِى شُرُورَ المَحاطِبِ
ومَنْ يَلْقَ مالاقَيْتُ فى كُلِّ مُجْتَنًى … من الشَّوْكِ يَزْهَدْ فى الثِّمارِ الأَطَايبِ
أذاقَتْنىَ الأَسْفَارُ ما كَرَّهَ الغِنَى … إلىّ وأَغْرَانِى برَفْضِ المَطَالِبِ
وَمِنْ نَكْبَةٍ لَاقَيْتُهَا بعد نَكْبَةٍ … رَهِبْتُ اعتِسَاف[5] الأَرْضِ ذَاتِ المَناكِبِ
فَصَبْرِى على الإقْتَارِ أيْسَرُ مَطْلَباً … على مِنَ التّغْرِيرِ بَعْدَ التّجَارِبِ
لَقِيتُ من البَرّ التّبَارِيحَ بَعْدَمَا … لَقِيتُ مِنَ البَحْرِ ابيضاضَ الذّوائبِ

(١) اسم ابن الرومى . (٢) اسمه أحمد بن ثوابة . (٣) ديوانه صفحة ٢٦٠ .
(٤) فى س ، ق : حططت. (٥) الاعتساف: الذهاب فى الطريق على غير هداية .

سُقِيتُ على رَيٍّ (١) به ألفَ مَطرةٍ ... شُغِفْتُ لِبُغْضِيها بِحُبِّ المَجادِبِ
ولم أَبْغِها (٢) بل ساقَها لمكيدَتِى ... تلاعُبُ (٣) دَهْرٍ جَدَّ بى كالمُلاعِبِ
أَبَى أنْ يُغيثَ الأرضَ حتى إذا رَمَتْ (٤) ... برَحْلِى أتاهَا بالغُيوثِ السَّواكِبِ
سقَى الأرضَ من أجلى فأضْحَتْ مَزَلَّةً (٥) ... تَمايَلَ صاحِيها تَمايُلَ شارِبِ
فمِلْتُ إلى خانٍ مُرِثٍّ بِناؤُهُ ... مَميلَ غريقِ الثَّوْبِ لَهْفانَ لاغِبِ
فما زِلْتُ فى جوعٍ وخَوْفٍ وَوَحْشَةٍ ... وفى سَهَرٍ يَسْتَغْرِقُ الليلَ واصِبِ
يُؤَرِّقُنى سَقْفٌ كأنّى تحتَهُ ... مِنَ الوَكْفِ تحتَ المُدْجِناتِ (٦) الهَواضِبِ
يَظَلُّ (٧) إذا ما الطِّينُ أثقلَ مَتْنَهُ ... تَصِرُّ نَواحيهِ صَريرَ الجَنادِبِ
وكم خانِ سَفْرٍ خانَ فانقَضَّ فوقَهمْ ... كما انقَضَّ صَقْرُ الدَّجْنِ فَوْقَ الأرانِبِ
وما زالَ ضاحِى البَرِّ يَضْرِبُ أهلَهُ ... بِسَوْطَىْ عذابٍ جامدٍ بعدَ ذائِبِ
فإنْ فاتَهُ قَطْرٌ وثَلْجٌ فإنَّهُ ... رَهينٌ بِسافٍ تارةً وبحاصِبِ
فذاكَ بلاءُ البَرِّ عِندى شاتياً ... وكم لِىَ من صَيْفٍ به ذى مَثالِبِ
ألا رُبَّ نارٍ بالفَضاءِ اصْطَلَيْتُها ... من الضِّحِّ يُودِى لَفْحُها بالحَواجِبِ (٨)
فَدَعْ عنكَ ذِكْرَ البَرِّ إنى رأيتُهُ ... لِمَنْ خافَ هَوْلَ البحرِ شرَّ المَهارِبِ (٩)
وما زالَ يَبْغِينى الحُتوفَ مُوارِباً ... يَحُومُ على قَتْلى وغيرَ مُوارِبِ
فطَوْرًا يُغادِينى بِلصٍّ مُصَلَّتٍ ... وطوراً يُمَسِّينى بوِرْدِ الشَّوارِبِ
وأمّا بَلاءُ البحرِ عندى فإنهُ ... طَوانِى على رَوْعٍ مع الرَّوحِ واقِبِ (١٠)
ولو ثابَ عقلى لم أدَعْ ذِكْرَ بعضِهِ ... ولكنَّهُ من هَوْلِه غيرُ ثائِبِ
ولِمْ لا ولو أُلْقِيتُ فيه وصخرةً ... لَوافَيْتُ منهُ القَعْرَ أوّلَ راسِبِ

---

(١) فى س : ربى . (٢) فى الديوان : ولم أسقها . (٣) فى الديوان : تحامق .
(٤) فى الديوان : إذا ارتمت . (٥) فى ط : مدلة . (٦) الوكف : أن يقطر الماء من سقف البيت . وفى س : المرجيات . (٧) فى الديوان : تراه .
(٨) الضح ، بالكسر : الشمس . (٩) فى الديوان : المهاوب ، وقال شارحه : هى جمع مهوب : أى المكان الذى يهاب فيه . (١٠) واقب : مستكن .

ولم أتعلَّمْ قَطُّ من ذى سِباحَةٍ سِوَى الغَوْصِ والمَضْعُوفُ(١) غيرُ مُغالِبِ
وأَيْسَرُ(٢) إشْفاقِى من الماءِ أنَّنى أَمُرُّ به فى الكوزِ مَرَّ المُجانِبِ
وأَخْشَى الرَّدَى منهُ على كل شارِبٍ فكيف بأَمْنِيهِ على نَفْسِ(٣) راكبِ

أَخذه من قول أبى نُوَاس وقد رأى التمساح بمصرَ أخذَ رجلا :

أَضْمَرْتُ للنيلِ هجرانا ومَقْلِيَةً مُذْ(٤) قيلَ لى إنَّما التمساحُ فى النيلِ
فمن رأَى النيل رَأْىَ العين عن كَثَبٍ ! فما أرى النيل إلّا فى البَراقيل(٥)

رجع

أظلُّ إذا هَزَّتهُ ريحٌ ولَألَأَتْ لهُ الشمسُ أمْواجاً طوالَ الغَوارِبِ
كأنّى أرى فيهنّ فُرْسانَ بُهْمَةٍ يليحُون(٦) نحوى بالسيوفِ القَواضِبِ
فإنْ قلتَ لى قد يُرْكبُ اليمُّ طامياً ودِجْلَةُ عند اليمِّ بعضُ المَذانِبِ(٧)
فلا عُذْرَ فيها لامْرِئٍ هَابَ مِثْلَها وفى اللُّجَّةِ الخضْراءِ عُذْرٌ لِهائِبِ
لدِجْلَةَ خِبٌّ لَيْس لليَمِّ إنَّها تَراءَى(٨) بحِلْمٍ تَحْتَهُ جَهْلُ واثِبِ
تَطامَنُ حتَّى تَطْمَئِنَّ قلوبُنا وتَغْضَبُ من مَزْحِ الرِّياحِ اللَّوَاعِبِ
ولِلْيَمِّ إنْذارٌ بمَوْصِ مُتُونِهِ وما فيه من آذِيِّه المُتَراكِبِ(٩)

وهى طويلة ، وفيما مرّ كفاية تنبئُ عنه وتدلّ عليه ، ولو مددت أَطناب الاختيار لتتبُّع هذا النحو من شعره لخرجتُ عن غَرَضِ الكتاب .

[من مليح العيافة والزجر]

ومن مليح العيافة والزجر ما رواه الصُّولى ، قال : كان لأبى نواس إخْوانٌ

---

(١) المضعوف . الضعيف . (٢) فى الديوان : فأيسر . (٣) فى الديوان : على كل .
(٤) فى س : إذ . (٥) البندق الذى يرمى . (٦) يليحون : يشيرون .
(٧) المذنب : الجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها . (٨) فى الديوان : ترائى .
(٩) فى الديوان : إعذار بعرض ، والآذى : الموج .

لا يُفارِقُهم ، فاجتمعوا يوماً فى موضع أَخْفَوْه عنه ، ووجَّهوا إليه برسولٍ معه ظهرُ قرطاس أبيض ، لم يكتبوا فيه شيئاً ، نخزَمُوه بزِيرٍ (١) ، وختموه بقَار ، وتقدموا إلى رسولهم ليرمِىَ بالكتاب من وراء الباب ؛ فلما رآه استعلم خبَرَهُمْ ، وعلم أنه مِنْ فِعْلِهم ، فتعرَّفَ موضِعَهم وآثارَهم ، فأتاهم فأنشدهم(٢) :

وجدتُ كتابَكم لمّا أتانى ... يمرُّ بسانِح الطيرِ الجَوَارِى
نظرت إليه مخزوماً بزِيرٍ ... على ظَهْرٍ ومختوما بِقَارِ
فقلت الزِّير ملهيةٌ (٣) وَلَهْوٌ ... وخِلْتُ القارَ من دَنِّ العُقار
وخِلْتُ الظَّهْرَ أَهْيَفَ قُرْطَقِيًّا ... يحيل العقلَ منه باحْوِرَار (٤)
فَهِمْتُ إليكمُ طَرَبا وشَوْقا ... فما أخطأت دَارَكمُ بدار
فكيف ترونى وترون وَجْدِى ... أَلَسْتُ من الفلاسفة الكِبَارِ !

وقال الطائى (٥) :

أتضعضعت(٦) عبراتُ عَيْنِك أَنْ دَعَتْ ... ورْقَاءُ حين تضعضعَ الإظْلَامُ
لا تنشجِنْ(٧) لها فإنَّ بُكاءها ... ضَحِكٌ وإن بكاءكَ استغرامُ
هنَّ الحَمام وإنْ كَسَرْتَ عِيَافةً ... مِنْ حَائِهنَّ فإنهنَّ حِمَامُ

***

الجمل الشاعر يأخذ معنى أبى تمام

وروى يَموت ابن المزروع قال : كان أحمدُ بن المدبر إذا مدحه شاعرٌ فلم يَرْضَ شِعْرَه قال لغلامه : امضِ به إلى المسجد الجامع فلا تفارِقْه حتى يُصلِّى مائةَ ركعة ، ثم خلِّه ؛ فتحاماه الشعراء ، إلا الأَفرادَ المجيدين ؛ فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصرى المعروف بالجمل ، فاستأذنه فى النشيد ، فقال : قد عرفت الشَّرْط ؟ قال : نعم . وأنشده (٨) :

---

(١) الزير : الكتان ، والدقيق من الأوتار . (٢) ليست فى ديوانه المطبوع بأيدينا .
(٣) فى س : ملهاة . (٤) القرطق : لبس . (٥) ديوانه : ٢٧٩ ، عيون الأخبار : ١ — ١٥٠ . (٦) فى ديوانه : اتحدرت . (٧) فى الديوان : لاتشجهن .
(٨) تحفة المجالس للسيوطى : ٣٥٥ .

أَرَدْنَا فى أَبِى حسَن مَديحا كما بالمَدْحِ يُنْتَجعُ الوُلاَةُ
فقلنا أَكرمُ الثَّقَلَيْنِ طرًّا ومن كفَّاه دجلةُ والفراتُ
فقالوا : يقبل المدحات لكِنْ جوائزُهُ عليهنّ الصَّلاة
فقلت لهم : وما تُغْنى صلاَتى عيالى ! إنما الشأْنُ الزَّكَاةُ
[فأما إذْ أبَى إلا صلاَتى وعاقتنى الهموم الشاغلاتُ](١)
فيأمر لى بكَسْرِ الصَّادِ منها فتصبح لى الصَّلاَةُ هى الصِّلاتُ

فضحك واستظرفه ، وقال : من أين أخذت هـذا ، قال من قول أبى تمام الطائى :

هن الحَمامُ فإن كَسَرْتَ عِيَافةً مِنْ حَائِهِنَّ فإنهنَّ حِمَام

فأحسن صلته .

* * *

الميكالى وأهل مرو

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى لقوم من أهل مَرْو انخلعوا عن طاعته :

يا راكبا أَضْحَى يَخُبُّ بعَنْسِهِ ليؤُمَّ مَرْوَ على الطريق المَهْيَعِ (٢)
أَبْلِغْ بها قَوْماً أثاروا فِتْنَةً ظلَّتْ لها الأكبادُ رَهْنَ تقطُّعِ
إذ أقدموا ظُلْماً على سُلْطَانِهم بالغَدْرِ والخَلْعِ الذميم المفظِعِ
وبحلِّ عقْدِ لوائه وإباحةٍ لجنَابِه وحَرِيمِه المتمنِّعِ
أبلغهمُ أنى اتخذت لفعلهم فَأْلاً ، له فى القوم أَسْوَأُ مَوْقِعِ
أمَّا اللِّوَاءُ وحلّه فمخبِّرٌ عن حَلّ عقدٍ بينهم مُسْتَجْمِعِ
والخلعُ يخبر أنْ ستُخْلَعُ عنهم الـ أرواحُ بالقتْلِ الأشدِّ الأشنَعِ
والغدرُ ينبئ أنْ تُغَادَرَ فى الوَغَى أشلاؤهم لنُسوره والأَضْبُعِ
والفرقتان فشاهدٌ معناهما بتفرُّقٍ لجميعهم وتَصَدُّعِ

---

(١) من س . (٢) العنس : الناقة الصلبة . وطريق مهيع : بين .

فتسمَّعوا لمقــالتى وتأهَّبُوا ... بذميم بَغْيكم لشرِّ المَصْرَعِ
فاللهُ ليس بغـافلٍ عن أمرِكم ... حتى تحـلَّ بكم عقوبةُ مُوجِع

صفة رجل للنظام

قال أبو عثمان الجاحظ : سمعت النظام ، وذكر عبد الوهاب الثقفى ، قال : هو أَحْلَى من أَمْنٍ بعد خوف ، وبُرْءٍ بعد سقم ، ومن خصب بعد جَدْب ، وغِـنًى بعد فَقْر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرج المـكروب ، ومن الوصال الدائم ، والشبابِ الناعِم .

[ابن أبى دواد يعفو عن الجاحظ]

وكان الجاحظ مائلا عن ابنِ أبى دُواد إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، فلما نُـكِب محمد بن عبـد الملك أُدْخِل الجاحظُ على ابنِ أبى دُواد مقيّداً ، فقال له أحمد : والله ما أَعْلَمُك إلّا مُتناسياً للنعمة ، كفوراً للصَّنيعة ، معدّداً للمساوى ، وما فُتّنى باستصلاحى لك ، ولـكن الأَيام لا تُصْلِح منك لفسادِ طويّتك ورداءة دَخِيلتك ، وسوء اختيارِك ، وتَغَالُبِ طباعك .

فقال الجاحظ : خفِّض عليك ، أَصلحك الله ، فوالله لأَنْ يكونَ لك الأمرُ علىّ خيرٌ من أن يكونَ لى عليك ، ولأَنْ أُسِيء[1] وتحسن أحسنُ فى الأُحْدُوثة من أن أُحْسِن فتسىء ؛ ولأَن تعفوَ عنى على حالِ قدرتِك علىّ أجْمَلُ بك من الانتقام منى .

فعفا عنه .

[عتبة وأعرابى]

قال سعد مولى عُتْبَة بن أبى سفيان : خطب عُتْبَة النـاسَ فى الموسم سـنة إحدى وأربعين ، والناسُ إذ ذاك حديثو عَهْدٍ بالفتنة ؛ فقال[2] قد وَلِينا هـذا المقام الذى يُضَاعَفُ فيـه للمحسن الأَجْرُ ، وللمُسِيء الوِزْر ؛ ونحن على سبيل قَصْد ،

---

(١) فى س : نسىء . (٢) الأمالى : ١ ـ ٢٣٦ ، العقد الفريد : ٢ ـ ١٥٩ ، البيان والتبيين : ٣ ـ ٢٣٠ .

ولا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا ؛ فإنها تُقْطَع دوننا ، فربَّ مُتَمَنٍّ أمراً حَتْفُه فى أُمنيته ؛ فاقبلوا منا العافية ما قبِلْنَاها منكم ؛ وأنا أسأل الله أن يُعِين كلاًّ على كلّ .

فناداه أعرابىٌّ من ناحية المسجد : أيها الخليفة ، فقال : لستُ به ولم تُبْعِد . قال : يا أخاه ، قال : سمعتُ فقل ، فقال : والله لأَنْ تحسنوا وقد أسَأْنا خيرٌ من أن تُسيئوا وقد أحسنّا ، فإن كان الإحسان منكم فما أوْلَاكم بإتمامه ، وإن كان منّا فما أوْلَاكم بمكافأتنا عليه ، وأنا رجلٌ من بنى عامر بن صعصعة يمتُّ بالعمومة ، ويختصُّ بالخؤولة ، كَثُرَ عِيَاله ، ووَطِئه زمانُه ، [وبه فقر][1] وفيه أجر ، وعنده شُكْر .

فقال له عتبة : أستغفر الله منك ، وأستعين به عليك ، وقد أمَرْتُ لك بغناك ، فليت إسراعى إليك يقوم بإبطائى عنك !

[الجاحظ يستعطف ابن الزيات]

قال الجاحظ : تشاغلت مع الحسن بن وَهْب أخى سليمان بن وهب بشُرْبِ النبيذ أياماً ، فطلبنى محمدُ بن عبد الملك لمؤانسته ، فأُخْبِر باتصالِ شُغْلى مع الحسن بن وهب، فتنكَّر لى ، وتلوَّن علىّ ؛ فكتبتُ إليه رقعة نسختها : أعاذكَ الله من سُوءِ الغَضَب ، وعَصَمَك مِن سَرَفِ الهوى ، وصَرَف ما أعارَكَ من القوّة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجّح فى قلبك إيثار الأَناة ، فقد خِفْتُ ـ أيَّدكَ الله ـ أن أكون عندكَ من المنسوبين إلى نَزَقِ السفهاء ، ومُجَانَبة سُبُلِ الحكماء . وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت :

وإنَّ امرءًا أمسى وأصبح سَالِماً   من النــاس إلّا ماجَنَى لَسَعِيدُ

وقال الآخر :

ومن دعا النــاس إلى ذَمِّهِ   ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالْبَاطِلِ

فإن كنتُ اجترأْتُ عليك ـ أصلحك الله ـ فلم أجترئْ إلّا لأنّ دوامَ تغافلك

---

(١) زيادة من المرجع السابق .

عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورِثُ الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمنُ مِنَ المكافأة ، ولذلك قال عُيَينة بن حِصْن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لِي منك أرْهَبنى فأَتْقَانى، وأعْطَانى فأغنانى ، فإن كنت لا تَهَبُ عقابى ـ أيدك الله ـ الخدْمَةِ فهَبْه لأياديك عندى ؛ فإنّ النعمةَ تشفع فى النِّقْمة(١) ، وإلّا تفعلْ ذلك لذلك فعُدْ إلى حُسْنِ العادة ؛ وإلّا فافعَلْ ذلك لحُسْن الأحدوثة ؛ وإلا فأْتَ ما أنتَ أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من استحقاق العقوبة ، فسبحان مَن جعلك تَعْفُو عن المتعمّد ، وتتجافى عن عقابِ المُصِرّ ، حتى إذا صرت إلى مَنْ هَفْوَته ذِكْر ، وذَنْبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكرَ إلّا لك. والإنعامَ إلّا منك ، هجمتَ عليه بالعقوبة . واعلم ـ أيَّدكَ الله ـ أنَّ شَيْنَ غَضبك علىّ كزَيْنِ صَفْحِك عنى ، وأنّ موت ذِكْرى مع انقطاع سببى منك لحياةِ ذكرك مع اتصال سببى بك ، واعلم أنّ لكَ فطنة عليم، وغَفْلَة كريم، والسلام.

[أعجب ما فى الإنسان]

قال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أَعْجَبُ ما فى الإنسان قَلْبُه ، وله موادّ من الحِكمة ، وأَضْدَاد من خِلَافها ؛ فإنْ سَنَح له الرجاءُ أذَلَّه الطمع ، وإن هاجه الطَّمَعُ أهلَكه الحِرْص ، وإن مَلَكه اليَأْسُ قتله الأسَف ؛ وإن عرض له الغضب اشتدَّ به الغَيْظ ، وإنْ أسْعد بالرضا نَسِى التحفظ ، وإن أتاه الخوفُ شغلَه الحَذَر ، وإن اتّسع له الأَمْن استلبته الغِرّة ، وإن أصابته مصيبة فَضَحه الجَزَع ، وإن اسْتفاد مالًا أَطْغاه الغِنَى، وإنْ عضَّتْه فاقةٌ بلغ به البلاء، وإن جَهد به الجوعُ قعد به الضَّعْف، وإن أفرط فى الشبع كَظَّتْه(٢) البطْنَة . فكلُّ تقصيرٍ مُضِرٌّ، وكلّ إفراطٍ له قَاتِل.

***

استطراد فى النقد

البيت الذى أنشد الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان فى أبيات يقول فيها :

متى ما يرَى الناسُ الغنىَّ وجارُهُ   فقيرٌ يقولوا : عاجزٌ وجَلِيدُ(٣)

---

(١) فى س : فى النعمة .   (٢) كظه الطعام : ملأه حتى لا يطيق النفس .

(٣) جليد : قوى شديد .

وليس الغِنَى والفَقْرُ من حيلةِ الفتى ... ولَكِنْ أَحاظٍ قُسِّمَتْ وجُدُودُ
وإن امرأً يُمسِى ويُصْبِحُ سالماً ... من الناسِ إلّا ماجَنَى لَسَعيد

والبيت الذى أنشده بعده لمحمد بن حازم الباهلى فى أبياتٍ يقول فيها :

إنْ كنتَ لا تَرْهَبُ ذَمّى لما ... تعلم مِنْ صَفْحِى عن الجاهلِ
فاخْشَ سكوتى آذِناً مُنْصِتا ... فيك لمسموعِ خَنَى القَائلِ
فسامعُ الشرِّ شَرِيكٌ لهُ ... ومُطْعِمُ المأكُولِ كالآكِلِ
مقالة السوء إلى أهلها ... أسْرَعُ مِنْ منحدرٍ سائلِ
ومَنْ دعا الناسَ إلى ذَمّهِ ... ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ
فلا تهِجْ، إن كُنْتَ ذا إرْبَةٍ (١)، ... حَرْبَ أخِى التجربةِ الْغَافِلِ
فإنَّ ذا العقلِ إذا هِجْتَهُ ... هِجْتَ به ذا خبَلٍ خابِلِ
تُبصِرُ به فى عاجلٍ شَدّاته ... عليك غِبَّ الضَّرَرِ الآجل

وفى ابن الزيات يقول الجاحظ (٢) :

بَدَا حين أثْرَى لإخوانهِ ... ففلَّلَ منهم (٣) شَباةَ العَدَمْ
وأبصر كيف انتقالُ الزمانِ ... فبادَرَ بالعُرْفِ قبلَ النَّدَمْ

[الجاحظ فى مرضه]

قال بعضُ البرامكة (٤) : كنتُ أتقلّدُ السِّنْدَ ، فاتّصل بى أنى صُرِفْتُ عنها ، وكنتُ كَسَبْتُ ثلاثين ألف دينار ، فخِفْتُ أن يَفْجَأَنى الصارف ، ويُسْعَى إليه بالمال ، فصُغْتُه عشرة آلاف إهْلِيلَجَة فى كل إهليلَجَة (٥) ثلاثةُ مثاقيل ، وجعلتها

(١) الإربة : الدهاء والعقل . (٢) المختار من شعر بشار : ١٩٦ .
(٣) فى المختار : عنهم . وفلله : ثلمه . (٤) اللآلئ ١٩٨ .
(٥) الإهليلج : ثمر ، والواحدة بهاء ، ويظهر أنه صاغها على شكل هذا الثمر .

فى رَحْلى ، ولم أبعد أن جاء الصارف؛ فركبْتُ البحرَ ، وانحدرتُ إلى البصرة ؛ نخبِّرْتُ أن بها الجاحظ، وأنه عليل ؛ فأحببْت أن أراه قبـل وفاته ، فصِرْتُ إليه ، فأفضيتُ إلى بابِ دارٍ لطيف ؛ فقرَعْتُه فخرجت إلىّ خادمٌ صفراء ، فقالت: مَنْ أنت ؟ فقلت: رجل غريب أحَبّ أن يدخل إلى الشيخ فيُسَرّ بالنظرِ إليه . فأدَّتْ[١] ما قلت ، وكانت المسافةُ قريبةً لصغر الدهليز والحجرة ، فسمعتُه يقول : قولِى له : وما تَصْنَعُ بشِقٍّ مائل ، ولُعابٍ سائل ، ولَوْنٍ حائِل[٢]؟ فأخبرتنى . فقلت : لابدّ من الوصول إليه ، فقال : هـذا رجل قد اجتاز بالبَصْرَة ، فسمع بى وبعِلّتى ، فقال : أراه قبل موته ؛ لأقول : قد رأيت الجاحظ .

فدخلتُ فسلّمت فردّ ردًّا جميلا واستَدْنانى ، وقال : مَنْ تـكون ؟ أعزك الله ! فانتَسَبْتُ له ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد ، الـكرام الأمجاد ، فلقد كانت أيامُهم رَوْضَ الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خَلْق ، فسَقْياً لهم ورعياً ؛ فدعوتُ له ، وقلت : أنا أسأَلُ الشيخ أن يُنْشِدَنى شيئاً من الشـعر أذكره به ، فأنشدنى :

لئن قُدِّمَتْ قبلى رِجالٌ فطالما ... مَشيْتُ على رِسْلِى فكنت المقدَّما[٣]
ولـكنَّ هـذا الدهرَ تأتى صروفُه ... فتُبْرِمُ منقوضاً وتنقضُ مُبْرَما

ثم نهضتُ ، فلما قاربتُ الدهليز صاح بى فقال: يافتى؛ أرأيتَ مفلوجا يَنْفَعُه الإهليلج؟ فقلت : لا ، قال : فأنا ينفعنى الإهليلج الذى معك ، فأنْفِذْ إلىّ منه . فقلت : السمع والطاعة . وخرجت مُفْرِط التعجب من وقوعه على خَبَرِى ، حتى كأنَّ بعضَ أحبابى كاتَبَه بخَبَرِى حين صُغْته ، فأنْفَذْتُ إليه مائة إهلِيلَجة .

مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال[٤]: جمعتنى مع رُفْقَة وَليمةٌ ، وأجَبْتُ إليها للحديث.

(١) فى س : فردت . (٢) حائل : متغير . (٣) على رسلى : على مهلى .
(٤) المقامات : ٧٩ .

المأثور فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دُعِيتُ إلى كُرَاع (١) لأَجبْتُ ، ولو أُهْدِىَ إلىّ ذراع لقبلت. فأفضى بنا المسيرُ إلى دار قد فُرِش بساطُها ، وبُسِطت أنماطها ، ومُدَّ سِمَاطُها ، وقومٍ قد أخذوا الوقت بين آسٍ مخضود (٢) ، ووَرْدٍ منضود ؛ ودَنّ مَفْصود ، ونَاى وعُود ؛ فصِرْنا إليهم وصاروا إلينا ، ثم عكفنا على خِوَان قد مُلِئَتْ حياضُه ، ونوّرَت رِياضُه ، واصطفت جِفَانُه ، واختلفت ألوانُه ؛ فمن حالك بإزائه نَاصِع ، ومن قانٍ فى تلقائه فَاقِعٌ ، ومعنا على الطعام رَجلٌ تُسَافرُ يَدُه على الخِوَان ، وتَسْفِرُ بين الألوان ، وتأخذُ وجوهَ الرُّغفان ، وتَفْقَأُ عيونَ الجِفَان ، وتَرْعَى أَرْضَ الجيران ؛ يَزْحَم اللُّقْمَةَ باللُّقْمَة ، ويهزِمُ المَضْغَة بالمَضْغَة ، وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَنْبِس ، ونحن فى الحديث نَجْرِى معه حتى وقفَ بنا على ذِكْرِ الجاحظ وخَطَابته ، ووَصْف ابن المقفَّع وذَرابتهِ ، ووافق أولُ الحديث آخِرَ الخِوَان ، وزُلنا عن ذَلِك المكان ، فقال الرجلُ : أين أنتم من الحديثِ الذى فيه كنتُم ؟ فأخذْنا فى وَصْفِ الجاحظ ولَسَنِه ، وحُسْنِ سنَنِه فى الفصاحة ، وسُنَنِه فيما عرفناه ؛ فقال : ياقومُ ؛ لكلٍّ عمل رجال، ولكل مقام مَقَالٌ، ولكل دارٍ سُكَّان ، ولكل زمان جاحظ، ولوانتقدتُم لبطَلَ مااعتقدتُمْ . فكلٌّ كشرَ له عن ناب الإنكار، وشَمَّ بأنفِ الإكبار ، وضَحِكْتُ إليه ، لأَجلبَ مالدَيْهِ ، وقلت : أَفِدْنا وزِدْنا . فقال : إنّ الجاحظَ فى أَحدِ شِقّى البلاغة يَقْطِف ؛ وفى الآخر يَقِف، والبليغُ من لم يقصِّر نظمُه عن نَثْرِه، ولم يُزْرِ كلامُه بشعرِه ، فهل تَرْوُونَ للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا : لا . قال : فهلمّوا إلى كلامه ؛ فهو بعيدُ الإشارات، قريبُ العبارات ، قليلُ الاستعارات ، منقادٌ لعريان الكلام يستَعْمِله ، نَفُورٌ من مُعْتاصِهِ يُهْمِلُه ، فهل سمعتُم له بكلمةٍ غيرِ مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة ؟ فقلت : لا ، فقال: هل تحبّ أن تَسْمَعَ من الكلام ما يخفِّفُ عن مَنْكِبيْك ، ويَنِمُّ على ما فى يَدَيْك ؟ فقلت : إى والله ، قال : فأَطْلِق لى عن

(١) الكراع : فى البقر والغنم كالوظيف فى الفرس والبعير ، وهو مستدق الساق .

(٢) الآس : الريحان . ومخضود : اتخذت منه أشكال للزينة فتجمع وتثنى من غير كسر .

خِنْصِرك ما يعين على شكرك ، فأنلته ردائى فقال :

لعَمْرُ الذى أَلْقَى إِلَىّ ثيابهُ ... لقد كسبت [١] تلك الثيابُ به مَجْدا
وقد قَمَرَتْهُ راحةُ الجود بِزةً [٢] ... فما ضربتْ قِدْحاً ولا نَصبتْ نَرْدَا
أَعِدْ نظراً يامَنْ كَسَانِى ثِيابهُ ... ولا تَدَعِ الأَيامَ تَهْدِمُنى هَدَّا
وقل للأُلى إنْ أَسْفَرُوا أَسْفرُوا ضُحًى ... وإن طلعوا فى غُمَّةٍ طَلَعُوا وردَا [٣]
صِلُوا رَحِمَ العَلْيَا وبُلُّوا لَهاتَها ... فَخَيْرُ النَّدَى ما سَحَّ وابِلُه نَقْدَا

قال عيسى بن هشام : فارتاحت الجماعةُ إليه ، وانثالت الصِّلاتُ عليه ، وقلت لما توانَسْنَا [٤] : من أين مطلع هذا البدر ؟ فقال :

اسكندريةُ دَارِى ... لو قرَّ فيها قَرَارِى
لٰكنّ ليلى بنَجْدٍ ... وبالحجازِ نَهَارِى

[من كلام الملوك]

أردشير ورعيته

تظلَّمت رعيَّة أردشير بن بابك إليه فى سنة مُجْدِبة لعَجْزِهم عن الخَراجِ ، وسألته أن يخفِّفه عنهم ؛ فكتب لهم ما نسخته : من أردشير المزيد بالبهاء ، ابن الملوك العظماء ، إلى الفقهاء الذين هم حفظَةُ البَيْضَة ، والكُتَّاب الذين هم سَاسَةُ المملكة ، وذوى الحرث الذين هم عمرَة البلاد ، أما بَعْدُ ، فإنّا نحمدُ الله تعالى حَمْدَ الصالحين ، وقد وضعنا عن رَعيّتِنا بفَضْلِ رأفتنا إِتاوَتنا [٥] الموظفة عليهم سنتنا هذه ، ونحن كاتبون مع ذلك نُعليهم [٦] بوصيَّة تنفعُ الكُلَّ : لاتستشعروا الحِقْدَ لئلا يَغْلِبَ عليكم العدوّ ، ولا تحبُّوا الاحتكار لئلا يشملكم القَحْط ، وكونوا للغرباء مُؤْوِين ، لتؤووا غدا فى المعاد . وتزوَّجُوا فى القرابة فإنه أحْسَنُ للرحم ، وأَثْبتُ للنَّسَبِ ، ولا تمدُّوا هذه

---

(١) فى المقامات : حشيت . (٢) فى المقامات : فتى قمرته المكرمات رداءه .
(٣) فى المقامات : سعدا . (٤) فى المقامات : تآنسنا .
(٥) الإتاوة : الخراج . (٦) فى س : تمليكهم .

الدنيا شيئا فإنها لا تُبقى على أحد ، ولا ترفُضُوها مع ذلك ؛ فإن الآخرة لا تُنالُ إلا بها .

أفضل الاكتساب لبزرجمهر

وقيل لبزرجمهر : أيُّ الاكتساب أفضل؟ قال: العلمُ والأدب كنزانِ لا ينفدان، وسِراجانِ لا يُطفآن ، وحُلّتان لا تبليان ؛ مَنْ نالهما أصاب الرَّشادَ، وعرَفَ طريق المَعَاد ، وعاش رفيعاً بين العِبَاد .

وقال أنو شروان لبزرجمهر لما ظفر به : الحمد لله الذى أظفرنى بك ، قال له : فكافِئْه بما يحبُّ كما أعطاك ماتحبّ . قال : وبِمَ أُكافِئه يا فاسقُ ؟ قال : بالعفو عمَّنْ أظفرك به اليوم ، كما تحب أنْ يعفوَ عنك غدا .

ونظيرُ هذا الكلام قد تقدّم لعلىّ رضى الله عنه .

أفضل الملوك لكسرى

وقيل لكسرى : أيُّ الملوك أفضل ؟ قال : الذى إذا جاورْته (1) وجدْته عليما ، وإذا خبرته وجدتَه حكيما ، وإذا أغضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما، وإذا وعدَ وفى ، وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شُكِى إليه وُجد رحيما .

[من رسائل الميكالى]

من الميكالى إلى الثعالبى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالى إلى أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى (2) : كتابى وأنا أشكو إليك شوْقاً لو عالجه الأعرابى لماصَبَا إلى رَمْل عالج ، أو كابده الخَلِىُّ لانْثَنَى على كَبِدٍ ذَات حُرَق ولَوَاعِج ؛ وأذمُّ زماناً يفرِّقُ فلا يحسن جمعاً ، ويخرق فلا ينوى رَقْعا ، ويُوجِعُ القلب بتفريق شَمْلِ ذوى الوِدَاد ، ثم يبخلُ عليهم (3) بما يَشفِى الصدور والأَكباد ؛ قاسِى القلبِ فلا يلينُ لاستعطاف ، جائر الحُكمِ فلا يميلُ إلى إنصاف ، وكم أستَعْدِى على صَرْفه وأستَنْجِد ، وأتلظّى غيظا عليه ، وأنشد :

---

(1) فى ط : جاورته . (2) يتيمة الدهر ٤ــ٣٣١ . (3) فى ق، س : يبخل عليها.

متى وعسى يَثْنِى الزمانُ عِنانَه   بعَثْرَة حالٍ والزَّمانُ عَثُورُ
فتُدْرَكَ آمالٌ وتُقْضَى مآرِبٌ   وتحدُث من بعد الأمور أُمُور

وكَلاَّ ، فما على الدهر عَتْب ، ولا له على أَهْلِه ذَنْب ؛ وإنما هى أقدار تجْرِى كما شاء مُجْرِيها ، وتَنْفُذ كالسهام إلى مَرَامِيها ؛ فهى تدورُ بالمكروه والمحبوب ، على الحُكْمِ المقدور المكتوب ، لا على شهواتِ النفوس وإرادات القلوب ؛ وإذا أراد أراد اللهُ تعالى أَذِنَ فى تقريب البعيد النازح ، وتَسْهِيلِ الصَّعْبِ الجامح ، فيعود الأُنْسُ بلقاءِ الإخوان كأتمّ مالم يَزَلْ معهوداً ، ويجدّد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعُهوداً ؛ إنه الملبِّى به ، والقادرُ عليه .

من الميكالى إلى أبيه

وله إلى أبيه ، لو مَلَكْتُ عِنَانَ اختيارى ، وأَسْعَفنى ببعض ما أَقْتَرِحُه القَدَرُ الجارى ، لما غِبْتُ عن حضرته آنسها اللهُ ساعةً من دهرى ، كلا أُعُدّ ساعاتِ بُعْدِى عنها ، وإخلاى لبابها من أَيَّام عُمْرِى ؛ ولكنت أبداً ماثِلاً بها فى زُمْرَةِ الخَدَمِ والعبيد ، جامعاً بها بين حاشيتى العزِّ المديد ، والشَّرَفِ المتيد ؛ لاسيما فى هذا الوقت وقد أَشْرَقَتِ البلادُ بنور طَلعَتِهِ التى هى فى ظُلْمَة الدهر صَبَاح ، وعزِّ مطالعته التى فيها لصدور ذوى الشنأ شجاً ، ولزَنْدِ الآمال اقتداح ، ومماودة ظلِّه التى أَضْحَتْ الشمسُ مِنْ حسَّاده ، والزمانُ من عَدَد ساكنيه وعَتاده ، إلا أنَّ الحريص ـ كما علمه مولانا ـ مُخلًى عن أعذب موارده ، وممنوعٌ بالعوائق عن أكرم مَطالِعه ومَقَاصِدِه .

للميكالى إلى بعض إخوانه

وله يستفتح مكاتبة بعض إخوانه :

أنا وإن لم تتقدَّمْ بينى وبينه المكاتَبَةُ ، وعادةُ المساجَلَة والمفاوضة ، من فَرْطِ حِرْصِى على افتتاحِها وتعَاطِيها ؛ واعتراض العوائق دون المراد والغَرَضِ فيها ، فإنَّ قلبى بودِّه مَغْمُور ، وضميرى على مُصَافَاته مقصور ، فاعتدادُه لفضائله التى أصبح فيها أَوْحَدِىّ العِنَان ، وزاحم فيها مَنْكِب العَنَان[1] ، واستأثر فيها بالغُرَر والأَوْضَاح ،

(١) العنان بالفتح : السحاب .

ما أوْفَى بها على غُرَّةِ الصباح ، حتى تشاهدَتْ بها ضمائرُ القلوب ، وتهادَتْ أنباءَها ألسِنةُ البعيد والقريب، اعتدادَ من يَجْمَعُ بالاعتداد لها بين شهادةِ قلبه ولسانه، ومَنْ ينظم فى إجلالِ قَدْرِها صفقةَ إسرارِه وإعلانه، فهو يتنسَّمُ الريحَ إذا هبَّتْ من ناحيته شوقا ونزاعا ، ويَسْتَمْلِى الوارد والصادِرَ خبرَ سلامته انصياعا بالودِّ إليه وانقطاعا .

من كلام الميكالى فى رسائل شتى

شذور من كلامه فى أثناء رسائل شتى : أياديه التى غمرتنى سِجَالُها ، واتَّسع عندى مَجَالُها ، وأعْيَا شكرى عَفْوها وانثيالها ، تناولت فيها المُنَى دانيةَ القطوف ، واجتليت أنوار العيش مأمونة الكسوف ، ليس يكاد يبرد غليلُ شوقى وحنينى ، أو ترجع نافرةُ أنسى وسكونى ، أو تَخْلُو من الاهتمام والفكرة فيه خواطرى وظنونى ، إلا بالتقاء يدنو أمدُه ، ويَقْرُبُ مَوْعِدُه ، وتعلو على الفراق يَدُه ، فنماوِد العيشَ طَلْقاً غزيراً ، ونجتنى ثمرَ المُنَى غضًّا نضيراً ، ونَجْتَلِى وجهَ الزمان مُشْرِقا منيراً . فوائده لها عندى أثرُ الغَمام أو أنفع، ومحلُّ السِّمَاكِ أو أرفع . حالى فى مفارقة حَضْرَتِه حالُ بناتِ الماء قد نَضب عنها الغَدِير، وبناتِ الأرض أخطأها النَّوْءُ المطيرُ . لهفى على دهر الحداثة إذ غُصْن شبابى غضّ وَرِيق ، ونُقْلُ شرابى عضٌّ ورِيق . كلامٌ أحلى من رِيق النحل ، وأصْفَى من رَيق الوبل . من تسوّد قبل وقته وآلته فقد تعرَّض لِمَقْتِه وإذالته. نظمُه له:

إن مَنْ يلتمس الصَّدْ رَ بلا وَقْتٍ وآلَه
لحقيق أنْ يُلقَّى كل مَقْتٍ وإذاله

الشكلُ للكِتاب ، كالحلى للكِعاَب . لو كان الشبابُ فِضّة لكان الشيبُ له خبثاً . النعمة عروسٌ مَهْرُها الشكر ، وثوبٌ صوْنُه النَّشر . الخضاب تذكرة الشباب . لاتقاسُ المَهاوى بالمَرَاقِى ، ولا الأقدام بالتَّراقى(١)، ولا البحورُ بالسواقى. كم أبلانى من عُرْفٍ جزيل لا يُبْلِى الدهرُ جِدّة رِدَائه ، وقضانى من دَيْن تأميل

---

(١) الترقوة : مقدم الحلق فى أعلى الصدر .

لا يَقْضِى الشكرُ حقَّ نعمائه . الشكر للنعمة نتاج ، والكُفْرَان لها رِتاج ، وكلما زدت النعمةَ شكراً ، زادت طيباً ونَشْرًا .

قطعة من شعره فى تجنيس القوافى

قال فى أبيه :

مبتدعاً فى شمائل المجدِ خِيماً (١) ما اهتدَيْنا لأَخْذِه واقتباسِهْ
فهو فظٌّ بالمالِ وقت نداهُ وجَوادٌ بالعفو فى وَقْتِ باسِهْ

وقال فيه :

إذا ما جادَ بالأموال ثنَّى ولم تُدْرِكْهُ فى الجودِ الندامَهْ
وإن هَجَست خواطرُه بجَمْع لرَيْبِ حوادثٍ قال الندى مَه (٢)

وقال فيه :

ولما تنازع صَرْفُ الزمان فزِعْنَا إلى سيدٍ نَا بِهِ
إذا كشَّرَ الدهرُ عن نابِهِ كشفْنَا الحوادثَ عَنَّا بِهِ

وقال فيه :

إنْ نابنا خَطْبٌ فآراؤهُ تغنى عن الجيش وتَسْرِيبِهِ
وإن دَجَا ليلٌ بَدَا نورهُ للرَّكْبِ نَجْما فهو يَسْرِى بِهِ

وقال يفتخر :

وكم حاسدٍ لى انبَرى فانْثَنَى لِعضَّة نَفْس شَجَاها شَجَاهَا (٣)
ومن أينَ يَسْمُو لنَيْلِ العُلا وما بَثَّ مالاً ولا رَاشَ (٤) جَاهَا

---

(١) الخيم : السجية والطبيعة . (٢) مه : إسم فعل بمعنى اكفف .

(٣) شجاه : حزنه وطربه . والشجا : ماعترض فى الحلق من عظم ونحوه . وفى س : لغصة.

(٤) راش السهم : ألزق عليه الريش . وراش: جمع المال .

ومنها قوله :

وسائلةٍ تُسَائِلُ عن فعالى ... وعمّا حازَ فى الدنيا جَمَالى
فقلت إلى المعالى حَنَّ قلبى ... وفى سُبُلِ المكارم لجَّ مَالِى
وللعلياء نَهْجٌ مستقيمٌ ... فمالى تارِكًا ذَا النَّهج مَالِى
إذاأسرجْتُ فى فَخْرٍ سمابى ... فَعالى والنِّجَارُ(١) فأَلْجَمَالى

وقال فى نوع من هذا الجنس :

ومن يَسْرِ فوقَ الأرض يطلبُ غايةً ... من المجد يَسْرِى فوقجُمْجُمَةِ النَّسْرِ
ومن يختلفْ فى العالمين نِجارهُ ... فإنّا من العلياء نَجْرِى على نَجْرِ(١)
ومن يتّجِرْ فى المال يَكسب ربحهُ ... فبالمال نَشْرِى رابحَ الحَمْدِ والنَّشْرِ(٢)

* * *

البستى ينحو نحو الميكالى

وعلى نحو هذا الحذو يقول أبو الفتح البستى :

أبا العباس لا تحسب بأنى ... لشىء من حُلَى الأَشْعَارِ عار
ولى طَبْع كسَلْسَالِ المجارِى ... زُلاَلٌ من ذُرَا(٣) الأَحجارِ جَارِى
إذا ما أَكْبَت الأدوار زَنْداً ... فلِى زَنْدٌ على الأَدْوَارِ وَارِى

وقال أبو الفتح البستى أيضاً(٤) :

بسَيْفِ الدولةِ اتَّسقَتْ أُمورٌ ... رأيناها مُبَدَّدَةَ النِّظَامِ
سَما وحمى بنى سامٍ وحَامٍ ... فليس كمثله سامٍ وحامِ

[واجب الحاجب]

قال بعضُ الملوكِ لحاجبه : إنك عينى التى أَنْظُرُ بها ، وجنَّتى التى أستنيم إليها ؛ وقد ولَّيتُك بَابِى ، فما تراكَ صانعاً برعيَّتى ؟

(١) النجار والنجر : الأصل . (٢) فى ق : النثر (٣) ذرا الشىء : أعاليه .
(٤) يتيمة الدهر ٤ـ٢٩٧ .

قال : أَنظر إليهم بعينك ، وأحملهم على قَدْرِ منازلهم عندك ، وأَضَعهم لك ، فى إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدْمتك ، مواضعَ استحقاقهم ، وأُرَتِّبهم حيث جعلهم ترتيبك ، وأُحْسِنُ إبلاغَك عنهم ، وإبلاغَهم عنك .

قال : قد وَفَيْتَ بما عليك قولا إن وَفَيْتَ به فعلا ؛ والله ولىّ كفايتك ومعونتك .

المهدى والفضل ابن الربيع

قال المهدى للفضل بن الربيع : إنى قد وَلَّيتُك سَتْرَ وجهى وكَشْفَه ، فلا تجعل السّتر بينى وبين خواصّى سبباً لِضِغْنهم بقُبْح رَدِّك ، وعُبُوسِ وَجْهك ؛ وقدّم أبناء الدعوة ؛ فإنهم أَوْلَى بالتقديم ، وثَنِّ بالأَولياء ، واجعل للعامة وَقْتاً إذا دخلوا أَعجَلَهُمْ ضِيقُه عن التلبُّث ، وصَرَفَهُم عَنِ التمكُّث .

للحسن بن سهل فى ذلك

وقال الحسنُ بن سهل : إذا كان الملك محتجباً عن الرعيّة ، ولم ينزل الوزير نفسه منزلةً تكون وسائلُ الناس إليه أنفسهم واستحقاقهم دون الشفاعات والحرمات ، حتى يختصَّ الفاضلَ دون المفضول ، ويرتّب الناسَ على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم ، امتزج التدبير (١) ، واختلَّت الأمور ، ولم يميّز بين الصدور والأَعْجاز ، والنواصِى والأذناب ، وكان الناسُ فوضى ، ووَهَتْ أسبابُ المُلْك ، وانتقَضَتْ (٢) مَرَائِرُه ، وشاعت سرائره ، وإنّ أَقْرَبَ ما أرجو به صلاحَ ما أتولاّه استماعى من المتنسِّمين بأنفسهم ، المتوسّلين بأفهامهم ، المتوصّلين بكفايتهم ، وابتذالُ نفسى لهم ، وصبرى عليهم ، وتصفُّحى ماتوسَّلوا به وانتحَلوه : من العقول والآداب ، والحماية والكفاية. فمَنْ ثبتت له دَعْواه أَنزلتُه تلك المَنْزِلة ، ولم أَتحيّفه حقَّه ، ولا نَقَصْتُه حَظَّه ، ومن قَصَّر عما ادَّعى كانت منزلتُه منزلَةَ المُقَصِّرين ، ولم أُخيِّب أَمَلَه من مقدارِ ما يستحِقّه .

لبعض البلغاء

وقال بعضُ البلغاءِ : إذا أَسْدَل الوالى على نفسه سِتْر الحِجَاب ، وَهَى عَمُودُ

---

(١) جواب إذا فى أول الرسالة .   (٢) المريرة : الحبل الشديد الفتل ، والجمع مرائر .

تدبيره ؛ واسترخَت عليه حمائلُ الحَزْمِ ، وازدلفَتْ إليه وفودُ الذمّ ، وتولّى عنه رشد الرّاجى ، ونال أمورَه خَلَلُ الانتشار ، وآفةُ الإهمال، وتسرّع إليه العائبون بلواذع ألسنتهم ودَبيب قوارضهم .

حاجب لئيم الطبيعة

وحُجب سعيد بن عبد الملك عن عبيد الله بن سليمان فكتب إليه : سِرْتُ إلى بابك ـ أعزّك اللهُ ـ عندما حدث من أمرك ، فلم يُقْضَ لقاؤك ، وعلمت أنّ ثِقتَك بما عندى قد مَثّلَتْ لك حالِى من السرور بنعمةِ اللهِ عندك ، وأَرَتْك موضعى من الاعتداد بكل ما خَصّك ووصَل إليك ، فوكلت العُذْر إلى ذلك . ثم إنّا نأْتِيك متيمنِّين بطَلْعَتك ، مشتاقين إلى رؤيتك ، فيحجبنا عنك مُلَاحظ . وهو كما علمت زَنيم (١) الصنيعة ، لَئِيم الطبيعة، يحْجُبُ عنك الكِرَام ، ويَأذَنُ عليك لِلّئام ، كلما نجمَتْ له يدٌ بيضاء أَتْبَعَها يدا سوداء ؛ فإن رأيت ـ أعزّك الله ـ أن تصرِفَه عن باب مكارمك فعلت ، إن شاء الله .

حاجب نافع

وقال أبو السمط بن أبى حفصة :

فتًى لا يُبَالِى المُدْلِجُونَ (٢) بنُورِهِ ... إلى بابِه ألاّ تُضِىءَ الكواكبُ
له حاجبٌ فى كلِّ خَيْرٍ يُعِينهُ ... وليس له عن طالبِ العُرفِ حَاجِبُ

***

استطراد فى النقد

أخذ البيت الأول من قول جده مَرْوان بن أبى حفصة الأكبر :

إلى المصطفى المهدىِّ خاضَتْ رِكابُنا ... دُجَى الليل يخبطْنَ السَّرِيحَ المُخَدَّمَا (٣)
يكون لها نورُ الإمامِ محمدٍ ... دَليلاً به تَسْرِى إذا الليل أَظْلَمَا

وقال إدريس بن أبى حفصة وذكر إبلا :

لها أَمامك نورٌ تَسْتَضِىءُ بِهِ ... ومِنْ رَجائك فى أَعْنَاقِها حَادى

---

(١) الزنيم : الدعى . وفى س : كز ، وفى ق : كن . (٢) أدلج : سار من أول الليل . (٣) الخدمة : السير الغليظ المحكم مثل الحلقة يشد فى رسغ البعير . قال الأعشى : وطايفن مشيا فى السريح المخدم ــ اللسان : مادة خدم . وفى ط : السريج .

لها أحاديث من ذِكْرَاكَ تَشْغَلُها عن الرُّتُوعِ وتُلْهِيها عن الزَّادِ

وأصله قول عمرو بن شأس الأسدى (١) :

إذا نحنُ أَدْلَجْنَا وأَنْتَ أَمامنا كفى لمطايانا بوَجْهِكَ هَادِيا
أليس يَزِيد العِيسَ خِفّةَ أَذْرُعٍ ، وإنْ كُنَّ حَسْرَى (٢)، أَنْ تَكُونَ أماميا

وقال بعض أهل العصر :

وليل وَصَلْنَا بين قُطْرَيه بالسُّرى وقد جَدَّ شوقٌ مُطْمِعٌ فى وصالكِ
أَرَبَّت علينا من دُجاهُ حَنَادِس (٣) أَعَدْن الطريق النهْجَ وَعْرَ المَسَالِكِ
فناديتُ يا أسماء، باسمك، فانْجَلت وأَسْفَر منها كلُّ أسودَ حالِكِ
بنا أنت من هادٍ نَجَوْنَا بذكرِهِ وقد نَشِبَتْ فينا أَكُفُّ المهالك
منحتك إخلاصى وأَصْفَيْتُك الهوى وإن كنت لمَّا تُخْطِرينى ببالك

وقال القطامى :

ذكرتكم لَيْلًا فنوَّر ذِكْرُكم دُجَى الليل حتى انجابَ عَنْه دَياجِرُه (٤)
فوالله ما أَدْرِى أَضَوْءٌ مُسَجَّرٌ (٥) لذِكْرَاكُمُ أم يَسْجُر الليلَ سَاجِرُه

وقال القينى :

وإنى من القومِ الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيِّدٌ قام صَاحِبُه
نجوم سماءٍ كلما انقضَّ كوكبٌ بدَا كَوْكَبٌ تأوِى إليه كواكبُه
أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْع ثاقِبُه (٦)

وقال الحطيئة :

نَمْشِى على ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لنا كما أَضاءت نجومُ اللَّيْلِ للسَّارِى

وقد ردّده فى موضع آخر فقال :

---

(١) اللآلئ ٨٢٦ . (٢) حسرى : متعبات . (٣) أرب : زاد ولزم وأقام . والحنادس : جمع حندس : الظلمة . (٤) الدياجر : الظلمات وفى س : يسحر الليل ساحره . (٥) المسجر : المرسل. (٦) الجزع : الخرز اليمانى .

هم القوم الذين إذا أَلَمَّتْ … مِنَ الأيامِ مُظْلِمةٌ أضاءوا

وكلام القاسم بن حنبل المَدَنى من هذا ، حيث يقول :

من البيض الوجوه بَنى سِنانٍ … لَوَ أنَّك تستضىء بهم أَضاءوا
فَلَوْ أنّ السماءَ دَنَتْ لمَجْدٍ … ومَكْرُمَةٍ دَنَتْ لهُم السَّماء
همُ حازُوا من الشَّرَفِ المعلَّى … ومن كَرَم العشيرة حَيْثُ شاءوا

وقال بعض المتقدّمين :

إذا أشرقَتْ فى جُنْحِ ليل وجوهُهم … كَفَوْا خَابِطَ الظلماء فَقْدَ المَصَابِحِ
وإنْ نَابَ خَطْبٌ أو ألَمَّتْ مُلِمَّةٌ … فكم(١) ثَمَّ مِنْ آسى جِراحٍ وجَارِحِ

وقال أبو بديل الوضاح بن محمد التيمى فى المستعين :

وقائلة والليلُ قد نَشَر الدُّجَى … فغطّى بها ما بين سَهْلٍ وقَرْدَدِ(٢)
أرى بارقاً يَبْدُ ومن الجَوْسَقِ(٣) الذى … بهِ حلَّ مِيْرَاثُ النبىِّ محمدِ
أضاءت لهُ الآفاقُ حتى كأنما … رأَيْنَا بنصف الليلِ نُورَ ضُحَى غدِ
فظلَّ عَذَارَى الحىِّ ينظمن تَحْتَهُ … سُلوكا من الجَزْعِ الّذى لم يُسَرَّدِ(٤)
فقلت : هو البَدْرُ الذى تعرفونهُ … وإلا يَكُنْ فالنُّورُ من وَجْهِ أحمد

[حث الاشتياق]

وقال عُمَر بن عبـد الله بن أبى ربيعة فى معنى قول عَمْرو بن شاس فى حثّ الاشتياق(٥) :

خليلىَّ ما بالُ المطايا كأنما … تَراها على الأَعْقَاب بالقَوْمِ تَنْكُصُ(٦)
فقد أتْعَبَ الحادِى سُراهُنَّ وانحنى … بِهِنَّ ، فما بَالَوا ، عَجولٌ مقلّصُ(٧)

(١) فى س ، ق : بكم . (٢) القردد : ما ارتفع من الأرض .
(٣) الجوسق : القصر . (٤) لم يسرد : لم يثقب . (٥) الأغانى ١ـ١١٣ .
(٦) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٧) فى الأغانى : وانتحى بهن فما يألوا .
والمقلص : الجاد فى السير .

وقد قطِّعت أعناقهنَّ صَبَابَةً فأَعْيُنُهَا مما تكلَّفُ تَشْخَصُ (١)
يَزِدْنَ بنا قُرباً فيزدادُ شَوْقُنَا إذا ازدادَ قُرْبُ الدارِ والبُعد يَنْقُصُ

وقال بعض الرجاز وذكر إبلا (٢) :

إنَّ لها لسائقاً خَدنَّجًا لم يُدْلِج الليلةَ فيمَنْ أَدْلَجَا

يريد امرأة يحبها فيحثّه ما يجدُه من الشوق على إجهاد مطاياه بالسوق . كما أنشد إسحق الموصلى :

صبّ يحثُّ مطاياهُ بذكرِكُمُ وليس يَنْسَاكُم إنْ حَلَّ أو سَارَا
لو يستطيعُ طَوَى الأَيامَ نحوكُمُ حتى يبيعَ بعُمْرِ القُرْبِ أعمارا
يَرْجُو النَّجاةَ من البلوى بقربكُمُ ، والقربُ يُلْهِبُ فى أَحشائِه نَارَا

هذا البيت يناسب أبيات ابن أبى ربيعة . يقول : كلما دنا ازدادَ حِرْصاً على اللقاء .

وشَخَصَ إسحقُ الموصلى إلى الواثق بسُرَّ من رأى ، وأَهْلُهُ ببغداد فتصيَّد الواثق وهو معه إلى نواحى عُكبَراء فلما قرب من بغداد قال (٣) :

طربتَ إلى الأُصَيْبِيَةِ الصِّغار وهاجَكَ (٤) منهمُ قُرْبُ المَزَارِ
وكلّ مسافر (٥) يَزْدَاد شوقاً إذَا دَنَتِ الديارُ من الدِّيَارِ

ولحَّنه وغنَّاه الواثق، فاستحسنه وأَطربه ، فصرفه إلى بغداد على ماأَحَبَّ ، وكان إسحق قال أولا :

وكلُّ مسافر يَشْتَاقُ يوماً إذا دَنَتِ الديارُ من الديار

فعابوا قوله «يوماً» ، وقالوا : هى لفظة قَلِقة فى هذا الموضع ، لم تحلّ بمركزها ،

---

(١) فى الأغانى : * فأنفسنا مما يلاقين شخص *
(٢) اللسان — مادة خدلج ، اللآلئ — ذيل : ٥٣
(٣) الأغانى : ٩—٢٨٥ ، اللآلئ : ٢٠٩ . (٤) فى الأغانى : وشاقك .
(٥) فى الأغانى : مفارق .

ولا لها هنا موقع . قال : فضَعُوا مكانها مِثْلَها لا خيراً منها . فما استطاعوا ذلك ، فغيّرها إلى ما أنشدت أولا .

وقال أبو نواس :

أمّا الدِّيارُ فقلما لَبِثُوا بها ... بين اشتياق العِيْسِ والرّكبانِ
وضعوا سياطَ الشَّوْقِ فوق رِقَابِها ... حتى طَلَعْنَ بها على الأوْطَانِ

وقال مَخلَد بن بكّار الموصلى :

أَقُولُ لِنِضْوٍ أَنْفَدَ السَّيْرُ نَيَّهَا ... ولم يُبْقِ منها غَيْرَ عَظْمٍ مجلّدِ (١)
خِدِى(٢) بِى ابتلاكِ اللهُ بالشَّوْقِ والهوَى ... وشاقَكِ تَحْنَانُ الحَمَامِ المُغَرِّدِ
فمرّتْ سريعا خَوْفَ دَعْوَةِ عاشِقٍ ... تَشُقُّ بِى المَوْمَاةَ فى كلِّ فَدْفَدِ (٣)
فلما وَنَتْ فى السير ثنَّيْتُ دَعْوَتى ... فكانت لها سَوْطاً إلى ضَحْوَةِ الْغَدِ

وكان مخلد حلو الطَّبع ، وهو القائلُ يمدحُ رجلا :

يَطْلُعُ النَّجْمُ على صَعدَتهِ ... فإذا واجَهَ نحراً أفلا
مَعْشَرٌ إنْ ظَمِئَتْ أَرماحُهُمْ ... أَوْرَدُوهنَّ مُجَاجَاتِ الطُّلَى (٤)
تَحْسُنُ الألوانُ منهم فى الوَغَى ... حين تُستنكر للرُّعْبِ الحُلَى
سُخط عبد الله يُدْنِى الأَجلا ... ورِضَاهُ يَتَعَدى الأَمَلَا
يُعشِبُ الصَّلْدُ إذا سالمهُ ... وإذا حارَب رَوْضاً أَمْحَلَا
[مَلِكٌ لو نُشّرت آلاؤه ... وأياديه على الليل انجلى](٥)
حَلَّ بالبَأْسِ ابنُ عَمْرٍو منزلاً ... طال حتى قَصُرَتْ فيه العُلَا
حَطَّ رَحْلِى فى ذَرَاه جُودهُ ... وتَمشَّى فِى نَدَاهُ الخَيْزَلَى (٦)

(١) النضو : المهزول من الإبل . والنى : الشحم . (٢) خدى : أسرعى .
(٣) الفدفد : الفلاة . (٤) الأعناق أو أصولها . أو هى الطلا بالفتح : الدم .
(٥) من س (٦) الخيزلى : مشية فى تثاقل .

[الخط الجيد]

سُئِل بعضُ الكتاب (١) عن الخطِّ متى يستحقُّ أن يوصَفَ بالجودة ؟ فقال : إذا اعتدلَتْ أقسامُه ، وطالت أَلِفُه ولامُه ، واستقامت سطورُه ، وضاهَى صعودَه حُدُورُه ، وتفتَّحَتْ عيونُه ، ولم تشتبه رَاؤه ونونُه ، وأَشْرَق قِرْطَاسُه ، وأظلمت أَنْقاسُه (٢) ، ولم تختلف أجْناسُه ، وأسرع إلى العيون تصوُّرُه ، وإلى العقول تَثَمُّرُه (٣) ، وقدِّرت فصوله ، واندَمَجَتْ وُصُوله ، وتناسب دقيقُه وجَلِيلُه ، وخرج من نَمَطِ الورّاقين ، وبَعُدَ عن تصنُّعِ المحررين ؛ وقام لصاحبه مقام النسبة والحِلْيَة ، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف فى صفة خط (٤) :

إذا ما تجلل قِرْطَاسَهُ ... وساوَرَه القلمُ الأَرْقَشُ
تَضمَّنَ مِنْ خَطِّهِ حُلةً ... كنَقْشِ الدنانيرِ ، بَلْ أَنْقَشُ
حروف تُعِيدُ لعين الكَلِيل ... نشاطا ويقرؤها الأَخْفَش

قال أبو هفّان (٥) : سألت ورّاقا عن حاله فقال : عيشى أضيق من مَحْبَرة ، وجسمى أدقّ من مِسْطرة ، وجاهِى أرقُّ من الزجاج ، ووَجْهى عند الناس أشدّ سوادا من الحبر بالزَّاج ، وحظِّى أخفى من شقّ القلم ، ويدَاى أضْعَف من قَصَبَة ، وطعامى أمرّ من العَفْص ؛ وشَرَابى أحرّ (٦) من الحبر ، وسوء الحال ألزمُ لى من الصَّمْغ ! فقلت له : عبَّرْتَ عن بلاء ببلاء !

وقال الحمدونى :

ثِنْتَانِ مِنْ أدوَاتِ العِلْمِ قد ثَنَتَا ... عِنَانَ شَأْوى عما رُمْتُ مِنْ هِمَمى
أمَّا الدَّواةُ فأدْمَى جرْمُها جَسَدِى ... وقلَّم الحظّ تحريفٌ مِنَ القَلَمِ
وحَبَّرَتْ لِى صُحْفَ الحَرْفِ مَحْبَرَةٌ ... تَذودُ عَنِّى سَوَامَ المَالِ والنِّعَمِ

---

(١) النويرى: ٧ــ١٤ . (٢) جمع نقس : المداد ، وفى كل الأصول : أنفاسه.
(٣) فى النويرى : ثمره . (٤) ديوان المعانى ٧٦ . (٥) ديوان المعانى ٨٢ .
(٦) فى ديوان المعانى : أسود .

والعِلْمُ يَعْلَمُ أنى حِينَ آخذُهُ   لعصمتى نَافِرٌ خِلْوٌ من العِصَمِ

الحمدونى

وللحمدونى فى الحرفة أشعار مستظرَفة ، وكان مليحَ الافتنان ، حُلْوَ التصرّف؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم بن حَمْدَويه ، وحمدويه جدّه ، وهو صاحب الزنادقة فى أيام الرشيد ، والحمدونى القائل :

مَنْ كان فى الدنيا له شَارَةٌ   فنَحْنُ من نَظّارةِ الدنيا
نَرْمُقُها مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةً   كأننا لَفْظٌ بلا مَعْنَى

وقال :

قد قُلْت إذْ خرجوا لكى يستَمْطِروا   لا تَقْنَطوا واستمطِرُوا بثيابى
لو فى حَزِيرانٍ (١) همَمْت بغَسْلِها   غَطَّى ضياءَ الشمس جوٌّ سَحابِ
فكأنها العباسُ يسْتَسْقِى به   عمرٌ فيرويهم دُعاء مُجَابِ

[حرفة الأدب]

وقال آخر فى المعنى الأول :

لما أجدْتُ حروفَ الخطِّ حرّفنى   عن كل حظٍّ وجاءت حِرْفَةُ الأدبِ
أقْوَتْ منازلُ مالى حين وطّنها   مخيِّمًا سَفَطُ الأقلامِ والكُتُبِ

وقال يعقوب الخريمى :

ما ازْدَدْتُ فى أدبى حَرْفاً أسَرُّ به   إلا تزيدت حَرْفاً تحته شُومُ
كذاك من يدَّعى حِذْقاً بصَنْعَته   أنَّى توجَّهَ فيها فهْوَ محْرُومُ

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز ، وزعم أنه مات حَتْفَ أنفه قال على بن محمد ابن بسام :

(١) حزيران : اسم شهر بالرومية .

لله درُّكَ مِنْ مَيتٍ بمَضْيَعَةٍ ... نَاهيكَ فى العلم والآدابِ والحسَبِ
ما فيــه لَوٌّ ولا لَيْتٌ فينقصهُ ... وإنما أدركَتْه حِرْفَةُ الأدَبِ

[أرزاق الحمقى والعقلاء]

قال ابن الرومى :

ياليت أهل البيتِ إذْ حُرِموا ... عُصِمُوا من الشهوات والفِتَنِ
لكنهم حُرِموا وما عُصِموا ... فقلوبهم مَرْضَى من الحَزَنِ
وهُمُ أَطَبُّ على بَلِيّتِهِمْ ... من غيرهم بمَضَاضَةِ[1] الشَّجَنِ

وقال جعفر بن محمد : إن الله وسَّع أرزاقَ الحَمْقَى ليعتبرَ العقــلاء ، ويعلموا أنَّ الدنيا لا يُنَالُ ما فيها بعَقْلٍ ولا حيلة ؛ ألَا إن كسب المال بالحظّ ، وحِفْظَه بالعقل .

قال إبراهيم بن سيّار النظام : الذهبُ لئيم ؛ لأَنَّ الشكلَ يصيرُ إلى شَكْلِه ، وهو عند اللئام أكْثَرُ منه عند الكرام . قال المتنبي ـ وأخذ هذا المعنى[2] :

وشِبْهُ الشيءِ مُنْجَذِبٌ إليْهِ ... وأَشبهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

وكان النظام له نظرٌ بوجوهِ التصرف ، وكان السلطان يَصِلُه بالكثير ، وكان محظوظا ؛ فإذا اجتمع له مالٌ حَبَس لنفسه بُلْغَة وفرَّق الباقيَ فى أبواب المعروف ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال: مِنْ حقِّ المالِ علىَّ أن أَطلبَه من مَعْدنه ، وأُصِيب به الفُرْصَةَ عند أهله ؛ ومن حقِّى عليــه أنْ يَقِيَنى السوءَ بنفسه ، ويصونَ عِرْضى بابتذاله ، ولا يفعل ذلك إلا بأن أسمح به ؛ ألا ترى ذا الغنى ؛ ما أدْوَمَ نَصَبه ، وأقلَّ راحته ، وأخسَّ من ماله حَظّه ، وأشدّ من الأيام حذَره ، وأغْرى الدهرَ بثَلْبِه ونَقْصِه ، ثم هو بين سلطانٍ يرْعَاه ، وذوى حقوق يسبُّونه ، وأكفاء يُنافسونه ، وولد يريدون فِرَاقَه ، قد بعث عليه الغِنَى من سلطانه العنَاء ، ومن أكفائه الحَسد ، ومن أعدائه

النظام

---

(١) المضاضة : وجع المصيبة . (٢) ديوانه : ٤ ـ ٧١ .

البَغْى ، ومن ذوى الحقـوق الذمّ ، ومن الولد الملال . وذو البُلغة قَنِع فدام له السرور ، ورفض الدنيا فسَلِمَ من المحذور ، ورَضِيَ بالـكفاف فتنكَّبَتْه الحقوق .

قال الصولى أنشدنى محمد بن أحمد بن إسحاق :

أدْمَى البُـكا جفنَىّ والمآقِ ۔ فظَلْتَ ذَا هَمٍّ وذا احْتِراقِ
ما إن أرى فى الأرض والآفاقِ ۔ أدْنَى ولا أشقَى من الوَرَّاقِ
إذا أتى فى القُمُص الأَخْلاقِ ۔ رأيتـه مطيرة العُشَّاقِ(١)
يفرح بالأقلام والأوراق ۔ كَفَرْحَةِ الجنـدىِّ بالأرْزَاقِ

وقال بعض الوراقين :

إذا كُنْتُ بالليلِ لا أكْتُبُ ۔ وطول النهـار أنَا ألعبُ
فطوراً يبطّلنى مَأْكَلٌ ۔ وطوراً يبطّلنى مَشْرَبُ
فإنْ دامَ هـذا على ما أرى ۔ فبيتىَ أوّل ما يَخْرب

وقيل لورّاق : ما تَشْتَهِى ؟ فقال : قلماً مَشَّاقا ، وحِبْراً بَرَّاقا ، وجلوداً رِقَاقا .
وكل امرىء فأمنيته على ما يُطَابِقُ غريزته ، ويوافِقُ نَحِيزَته .

[أطيب اللذات عند الشعراء]

أطيب لذات الدنيا

قال علىّ بن جبـلة العكوك(٢) : قال الأصمعى : سُئِل امرؤ القيس : ما أَطيب لذاتِ الدنيا ؟ قال : بيضاء رُعْبوبة(٣) ، بالحسن مكبوبة ، بالشّحْم مكروبة(٤) ، بالمِسْكِ مَشْبُوبة .

وسُئِل الأعشى عن ذلك، فقال: صَهْبَاء صافية ، تمزُجُها سَاقية ، من صَوْبِ غادية.

وسئل طرفة عن ذلك ، فقال : مركب وَطِىّ ، وثوبٌ بَهِىّ ، ومطعم شهى .

---

(١) القمص جمع قميص ، والأخلاق جمع خلق بفتحتين وهو البالى .
(٢) النويرى : ٢–١٤ . (٣) رعبوبة : حسنة حلوة ناعمة .
(٤) مكروبة : ممتلئة .

قال العكوك : فحدَّثتُ بهذا أبا دُلَف فقال :

أطيبُ الطيبات قَتْلُ الأعادِى واختيـالٌ على مُتُونِ الجيادِ
ورَسولٌ يَأْتِى بوَعْد حبيبٍ وحبيبٌ يَأْتِى بلا ميعـادِ

وحدَّثت بذلك حُميدا الطوسى ، فقال[1] :

فلولا ثلاثٌ هنَّ مِنْ لَذَّةِ[2] الفَتَى ، وجدِّك ، لم أحْفِلْ متى قام عُوَّدِى
فمِنهنَّ سَبْقُ العاذلاتِ بشَرْبةٍ كُمَيْت ، متى ما تُعْـل بالماءِ تُزْبِدِ
وكَرِّى إذا نادى المُضَافُ مُحنَّباً[3] كَسِيدِ الغَضَا ذى السَّوْرةِ المتورِّدِ[4]
وتقصيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ، ببَهْـكَنَةٍ[5] تحت الخِبَاء المعمَّدِ[6]

الشعر لطرفة بن العبد .

وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله ، فقال : ما أدْرِى ما قالوا ، ولـكنى أقول :

فاقْبَـلْ من الدَّهْرِ ما أتاكَ بهِ مَنْ قَرَّ عينا بِعَيْشِـه نَفَعَه

فـكان أسدَّهم .

والبيت للأضبط بن قُرَيع[7] أنشده أبو العباس ثعلب . قال : وبلغنى أن هـذه الأبيات قيلت قبل الإسلام بدَهْرٍ طويل :

لـكل ضيقٍ من الأُمورِ[8] سَعَه والصبحُ والمُسْىُ[9] لا فلاحَ مَعه
ما بالُ مَنْ سرّه مصابُك لا يملك شيئاً من أمْرِه وَزَعَهْ
أذُود عن حَوْضِهِ ويَدْفَعُنى يا قومِ ، مَن عاذِرِى مِنَ الخُدَعَهْ

(١) الشعر والشعراء : ١٤٤ ، النويرى : ٢ـ١٤ ، المعلقات : ٨٣ .

(٢) فى الشعراء : من عيشة . (٣) المضاف : الذى أحيط به . والتحنيب : انحناء وتوتير فى رجل الفرس ، والتحنيب فى الخيل مما يوصف به صاحبه بالشـدة ، اللسان ـ مادة جنب ، حنب ، وفى رواية مجنبا . (٤) فى الشعراء والمعلقات : نبهته ، والمتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٥) البهكنة : الجارية الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الحلوة .

(٦) فى ط : الممدد ، والمعمد : ذو العمد . (٧) الأمالى : ١ـ١٠٧ ، الشعراء : ٣٤٣ ، اللآلئ : ٣٢٦ . (٨) فى الأمالى : لـكل هم من الهموم سعة والمسى والصبح ...

(٩) فى ط : والمسا .

حتى إذا ما انجلت عَمايتُهُ أقبَلَ يَلْحَى وغيُّه فَجَعَهْ
قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمَعَهْ
ويقطعُ الثوبَ غيرُ لابسهِ ويلبس الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهْ
فاقْبَلْ من الدَّهْرِ ما أتاكَ بهِ مَنْ قرَّ عينا بعيشه نَفَعَهْ
وصِلْ حبالَ البعيد إنْ وَصَلَ الْـ حَبْلَ وأقْصِ القريبَ إنْ قطَعَهْ
ولا تُعَادِ الفقيرَ عَلّكَ أنْ تركع يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

هذا البيت شبيه بما رُوى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يستنشدنى قول اليهودى[1] :

ارفع ضعيفَكَ لا يَحُرْ[2] بك ضعفهُ يوما فتدرِكَه العواقبُ[3] قد نَمَا
يَجْزِيك أو يُثْنِى عليك ، وإنَّ مَنْ أثنَى عليك بما فَعَلْتَ كمَنْ جزَى

فأُنشده فيقول : إنى فطِنٌ لها .

وكان الأضبط سيد بنى سعد ، وكانوا يشتمونه ويؤذونه ، فانتقل إلى حىٍّ من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم ، فقال : حيثما أوجّه ألق سعدا ! فذهبت مثلا ، قال الطائى[4] : الأضبط

فلا تحسَبَنْ[5] هنداً لها الغَدْرُ وحدها سجيــةُ نفسٍ ، كلُّ غانيةٍ هِنْدُ

[وصف المحابر والأقلام]

قال بعضُ الكتاب يصف محبرة : بعض الأدباء يصف محبرة

ولقد مضَيْتُ إلى المحدِّث آنفاً وإذا بحضْرَته ظِباءٌ رُتَّعُ
وإذا ظِباءُ الإنْسِ تكتُبُ كلما يُمْلَى وتحفظُ ما يقولُ وتَسْمَعُ

---

(١) الشعراء : ٣٤١ ، اللآلىء : ٢٠٦ ، الأغانى : ٣ـ١٢، وفيها خلاف فى نسبتهما .
(٢) فى ط : لا يجز . (٣) فى الشعراء : فتدركه عواقب ما جنى .
(٤) ديوانه ١٢٠ . (٥) فى الديوان : فلا تحسبا .

يتجاذبون الحبْرَ مِن ملمومةٍ[1] بيضاءَ تحمِلُها عَلائِقُ أربعُ
من خالص البَلُّورِ غُيِّرَ لوْنُها فـكأنها سَبَجٌ[2] يَلوحُ ويَلْمع
إنْ نـكَّسوهَا لم تَسِلْ ، ومليكها فيما حوَتْهُ عاجلا ، لا يَطْمَعُ
ومتى أمالوها لرَشْفِ رُضابِها أدّاه فُوهَا وهى لا تتمنَّعُ
وكأنها قَلْبى يَضِنُّ بسِرِّهِ أبداً ويكتمُ كلَّ ما يُسْتَوْدَعُ
يمتاحُها ماضِى الشَّباةِ مُذَلَّقٌ[3] يجرِى بميْدانِ الطُّرُوس فيُسْرِعُ
رِجْلاهُ رأسٌ عنـده لـكِنَّهُ يلقاه برد حَفَاهُ ساعةَ يقطَعُ
وكأنَّه والحِبْرُ يَخْضِبُ رأسَهُ شيخٌ لوَصْلِ خريدةٍ يتصَنَّعُ
لِمَ لا أُلاحظه بعَيْنِ جلالةٍ وبه إلى اللهِ الصحائفُ تُرْفَعُ

لـكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

مَحْبَرَة جادَ لِى بها قمرٌ مستَحْسَنُ الخَلْقِ مُرْتَضَى الخُلُقِ
جوهرة خَصَّنى بجوهرةٍ ناطَتْ له المـكرماتِ فى عُنُقِ
بيضاء والحِبْرُ فى قَرَارَتِها أسْوَدُ كالمِسْكِ جِدّ مُنْفَتِق
مثل بياضِ العيــون زَيّنهُ مُسْوَدُّ ما شابَهُ مِنَ الحَدَق
كأنما حِبْرُها إذا نثَرَتْ أقلامُنَا ظِلَّه على الوَرَق
كُحْلٌ مَرَتْه[4] العُيونُ مِنْ مُقَلٍ نُجْلٍ فأوْفَتْ بِهِ على يَقَقٍ[5]
خَرساَء لـكنَّها تـكونُ لنا عَوْناً على عِلم أفْصَحِ النُّطُقِ

وقال عبد الله بن أحمد : القلم أمْرَهُ[6] ، ما لم يَكْتَحِل بإثْمِدِ الدَّوَاة .

وكتب إبراهيم بن العباس كتاباً فأراد مَحْوَ حرف فلم يجد منديلا ، فمحاه بكُمِّهِ ،

---

(١) يقال صخرة ملمومة : مستديرة . (٢) السبج : خرز أسود .
(٣) الشباة : حد كل شىء . وذلقه : حدده . وفى ق ، س : ماضى الشباب .
(٤) مرى الشىء : استخرجه . (٥) أبيض يقق : شديد البياض .
(٦) مرهت عينه : خلت من الـكحل ، أوفسدت لتركه ، أو ابيضت حماليقها .

فقيل له فى ذلك ، فقال : المالُ فَرْعٌ ، والعلمُ أصل ؛ وإنما بلَغْنا هذه الحال ، واعتقدنا هذه الأموال بهذا القلم والمداد ، ثم قال(١) :

إذا ما الفكرُ أضمرَ(٢) حُسْنَ لَفْظٍ   وأدّاه الضميرُ إلى العِيَانِ
ووَشّاه ونَمْنَمَهُ مُسَدٍّ(٣)   فصيحٌ بالمَقَالِ وباللِّسان
رأيت حُلَى البيانِ منوّراتٍ(٤)   تَضَاحَكُ بينها صُوَرُ المعانى

ألفاظ لأهل العصر فى أوصاف آلات الكتابة والدوِيّ والأقلام

الدواة من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عتاد ، وللخاطر زِنَاد . غدير لا بردُه غَيْرُ الأفهام ، ولا يمتح بغير أَرْشية الأقلام(٥) . دواة أنيقة الصَّنْعَة ، رَشيقة الصبغة ، مسكية الجلد ، كافُورِيّة الحِلْيَة . غدير تفيض ينابيعُ الحِكْمَة من أَقْطَارِه ، وتنشأ سُحُبُ البلاغة مِنْ قَرَاره . دواة تُدَاوِى مَرَض عُفاتك ، وتُدْوِى(٦) قُلُوبَ عداتك ، على مَرْفَع يُؤْذِنُ بدوام رِفْعَتِك وارتفاعِ النوائب عَنّ سَاحَتِك ، ومدادٍ كسواد العَيْنِ ، وسُوَيْدَاءِ القلب ، وجناح الغُرَابِ ، ولُعَابِ الليل ، وألوانِ دُهْمِ الخيل . وهذا من قول ابن الرومى :

حبر أَبِى حَفْصٍ لُعابُ الليلِ   كأنه ألوانُ دُهْمِ الخيلِ

قال العاصر : مدادٌ ناسب خافِية الغُرَاب ، واستعار لونَه من شَرْخِ الشباب ، وأَقلام جمَّةُ المحاسن ، بعيدة من المَطَاعِن ، تماصى الكاسى(٧) ، وتمانع الغامزَ القَاسِى . أنابيب ناسبت رِماح الخطِّ فى أَجْنَاسها ، وشاكلت الذهبَ فى ألوانها ، وضاهت الحديدَ فى لمعانها ؛ كأنها الأميالُ استواءً ، والآجالُ مَضَاءً ، بطيئة الحفَى ، قوية القُوَى ،

(١) ديوانه : ١٨٨ ، الأدباء : ١–٢٦٩ .   (٢) فى الديوان : ولد .
(٣) مسد من السدى : خلاف اللحمة .   (٤) فى الديوان : منشرات تجلى .
(٥) الأرشية جمع رشاء ، وهو حبل الدلو .   (٦) أدويته : أمرضته .
(٧) فى س : الكأسى .

لا يُشظّيها [1] القطُّ ، ولا يتشعّبُ بها الخطّ . أقلام بحرية موشية اللِّيط [2] ، رائقة التخطيط. قلمٌ معتدل الكعُوب، طويل الأنبوب ، باسِقُ الفروع ، رَوِىّ اليَنْبُوع، هو أَوْلَى باليد من البَنَانِ ، وأَخْفَى للسر من اللِّسان . هو للأَنامل مطيّة ، وعلى الكتابة معونة مَرْضِيّة ، نعم العُدَّة القلم ؛ يقلم أظافر الدّهر ، ويملك الأَقاليم بالنّهْى والأمر ، إن أَرَدْتَ كان مسجوناً لا يملّ الإسار ، وإن شئتَ كان جواداً جارياً لا يعرفُ العِثار ، لا ينْبُو إذا نَبَتِ الصِّفَاح [3] ، ولا يُحْجِمُ إذا أحجمت الرِّمَاح .

قال أبو الفتح كشاجم ، يصف محبرة ومقلمة وأقلاماً وسكيناً :

جِسْمِى من اللَّهْوِ وآلاتِ الطَّرَبْ ... ومن عتادٍ وثَرَاءٍ ونَشَبْ
ومن مُدَامٍ ومَثَانٍ تَصْطَحِبْ ... وهمةٍ طمَّاحَةٍ إلى الرُّتَبْ
مَجَالسٌ مَصُونَة مِنَ الرِّيَبْ ... معمورة من كلّ عِلْمٍ وأدَبْ
تَكَادُ مِنْ حَرِّ الحديثِ تَلْتَهِبْ ... شِعْراً وأخباراً ونحواً يقتضبْ
ولغةً تجمعُ أَلْفَاظَ العربْ ... وفِقَرا كالوَعْدِ فى قَلْبِ المُحِبّ
أو كتأتّى الرزق مِنْ غَيْرِ طلبْ ... أَجَلْ وحَسْبِى من دُوِىّ [4] تُنْتَخَبْ
محلّيات بِلُجَيْنٍ وذهَبْ ... محْبَرَة يُزْهَى بِهَا الحِبْرُ [5] الأَلَبّ
مثقوبة آذانُها وفى الثَّقْبْ ... مثل شُنُوفِ [6] الخُرَّدِ البِيضِ العرب
تضمَّن قطراً فيه للكُتْب عُشُب ... أَسود يجْرِى بمعانٍ كالشُّهُبْ
لا تَنْضُب الحكمةُ إلاّ إنْ نَضَبْ ... نِيطَتْ إلى يُسْرَى يَدَىَّ بِسَبَبْ
كالقُرْطِ فى الجيدِ تَدَلّى فاضْطَرَبْ ... تصحبها ، والأَخَواتُ تُصْطَحَبْ
كأنه يودع نَبْلا من قَصَبْ ... لم يَعْلُها رِيشٌ ولم تَحْمِلْ عَقَبْ [7]

(١) تشظى العود : تطاير شظايا .	(٢) الليط : قشر كل شىء .
(٣) يريد السيوف ، وكل شىء عريض ، صفاحة وجمعه صفاح .	(٤) جمع دواة .
(٥) الحبر : العالم أو الصالح .	(٦) الشنف : القرط الأعلى ، وجمعه شنوف .
(٧) العقب : العصب تعمل منه الأوتار .

لا تَضْحَكُ الأَوْرَاقُ حتى يَنْتَحِبْ ... تَرْمِى بها يمناىَ أَعْراضَ الكُتُبْ
رمياً متى أقْصِدْ بِهِ السَّمْتَ أُصِبْ ... ومُدْيَة كالعَضْبِ ما مَسَّ القَصَبْ
غَضْبىَ على الأَقْلامِ من غير سببْ ... تَسْطُو بها فى كلِّ حينٍ وتَثِبْ
وإنما تُرْضِيكَ فى ذاك الغَضَبْ ... فتلك آلاَتى وآلاتِى تُحَبّْ
والظَّرْفُ فِى الآلاتِ مما يُسْتَحَبّْ ... لا سيَّما ما كان مِنْهَا للأَدَبْ

[المأمون وبعض عماله]

تظلّم رجلٌ إلى المأمون من عامل له فقال . يا أمير المؤمنين ، ما ترك لى فِضَّة إلاَّ فَضَّها ، ولا ذهباً إلاّ ذهب به ، ولا غلَّة إلا غَلَّها ، ولا ضَيْعَةً إلاّ أضاعها ، ولا عِلْقاً (١) إلا عَلِقَه ، ولا عَرَضاً إلا عَرض له ، ولا ماشية إلا امْتَشَّها (٢) ، ولا جليلا إلا أجْلَاه ، ولا دقيقاً إلا أدقّه . فعجب من فصاحته وقضى حاجَتَه .

قال عمرو بن سعد بن سلم : كانت علىّ نوبة أنوبها فى حرس المأمون ، فكنتُ فى نوبتى ليلةً نخرج متفقّدا مَنْ حَضَر ، فعرفته ولم يعرفنى ، فقال : من أنت ؟ قلت : عَمْرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسْعَدك الله ، ابن سلم ، سلّمك الله. فقال : تَكْلَؤُنا منذ الليلة . قلت : الله يَكْلَؤُك قبلى ، وهو خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال المأمون :

إنّ أخاك الحقّ (٣) من يَسْعَى مَعَكْ ... ومَنْ يَضُرُّ نَفْسَه لينْفعَكْ
ومَنْ إذا صَرْفُ زمان (٤) صدَعَكْ ... بدَّد شَمْلَ نَفْسِهِ ليَجْمَعَكْ

وقال على بن العباس الرومى (٥) :

خَجِلَتْ خُدودُ الوَرْدِ من تَفْضِيله ... خجلا تَوَرُّدها عليه شاهِدُ

---

(١) العلق : النفيس من كل شىء .
(٢) امتش ما فى الضرع : أخذ جميعه .
(٣) فى س ، ق : إن أخا ينحاك .
(٤) فى ط : الزمان .
(٥) ديوانه ٧٦ ، النويرى ١١–٢٣٤ ، اللآلئ ٥٩٣ ، الأمالى ١–٢٦٧ .

لم يخجل الوردُ المورَّدُ لونهُ ... إلّا وناحِلُه الفضيلةَ عانِدُ[١]
للنرجس الفَضْلُ المبين إذا بَدَا ... بين الرياض طريفـه والتَّالدُ[٢]

[الورد والنرجس]

وكان ابنُ الرومى متعصباً للنرجس ، كثير الذمِّ للورد ، وكتب إلى أبى الحسن ابن المسيب[٣] :

أدْرِكْ ثِقَاتَكَ إنهم وَقَعُوا ... فى نَرْجِسٍ معه ابْنـةُ العِنَبِ
فهُمُ بحـالٍ لو بَصُرْتَ بها ... سبَّحْتَ من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
رَيْحَانُهم ذَهبٌ على دُرَرٍ ... وشرابُهم دُرٌّ على ذهَبِ
فى رَوْضَةٍ شَتْـوِيَّةٍ رَضعت ... دِرَّ[٤] الحيَا حَلَباً على حَلَبِ
واليومُ مَدْجُون فحُرَّتُه[٥] ... فيـهِ بمُطَّلِـعٍ ومُحْتَجِبِ
ظلت تسامرنا[٦] وقد بَعَثَتْ ... ضَوْءًا يُلاحِظُنَا بِلا لَهَبِ

وكان كِسْرى أنو شروان مستهتراً[٧] بالنّرجس ، وكان يقول : هو ياقوتٌ أصفر ، بين درّ أبيض ، على زمرّد أخضر . نقله بعض المحدّثين فقال :

وياقوتةٍ صفراء فى رَأْسِ دُرَّةٍ ... مركَّبة فى قائمٍ مِن زَبَرْجَدِ
كمثل بهىّ الدُّرِّ عقْد نظامها ... نَثِيرُ فِرِندٍ قد أَطاف بمَسْجَدِ
كأنَّ بقايا الطّلِّ فى جَنَبَاتِها ... بقيةُ دَمْعٍ فوق خَدٍّ مورَّدِ

رجع ابن الرومى[٨] :

فَصْلُ القضيةِ أنَّ هذا قَائدٌ ... زَهَر الرَّبيع وأنَّ هذا طاردُ
شتَّانَ بين اثنين هذا مُوعِدٌ ... بتَصَرُّمِ[٩] الدنيا وهذا وَاعِدُ

---

(١) فى س ، ق : إلاوفاضله الفضيلة عاقد . (٢) فى الديوان : لأنه زهر ونور وهو نبت واحد وفى النويرى والأمالى : وإن أبى آب وحاد عن الطريقة حائد .
(٣) ديوانه : ١١٨ . (٤) فى الديوان : درر . (٥) حرة اليوم : شمسه .
(٦) فى الديوان : شمس تسايرنا وقال شارحه : وفى الأصل : تساترنا . (٧) مولعا .
(٨) المرجع السابق . (٩) فى النويرى : بتسلب .

فإذا احتفظتَ به فأَمْتَعُ صاحبٍ ... بحياته لو أنّ حيًّا خَالِد
ينهى النديمَ عن القبيح بلَحْظِهِ ... وعلى المُدامَةِ والسَّماعِ يُسَاعِدُ
اطلب بعَقْلك[1] فى الملاح سَمِيَّهُ ... أبداً ، فإنك لا محالةَ وَاجِدُ
والوردُ إنْ فتَّشت فردٌ فى اسمه ... مافى الملاح له سمىٌّ وَاحِد
هذى النجوم هى التى ربَّتْها[2] ... بحَيَا السحابِ كما يُرَبِّى الوالد
فانظُرْ إلى الولدين[3]، مَنْ أدناهما ... شبَهاً بوالده فذاكَ الماجِدُ
أَينَ الخدود من العيون[4] نفاسةً ... ورياسةً ، لولا القياسُ الفاسدُ

وقد ناقضه جماعة من البغداديين وغيرهم فى هـذا المذهب ، وذهبوا إلى تفضيل الوردِ ؛ فما دانَوْه وما استطاعوه .

قال أحمد بن يونس الـكاتب رادًّا عليه[5] :

يا مَنْ يُشَبِّه نَرْجساً بنواظرٍ ... دُعْجٍ ، تَنَبَّهْ إنَّ فهمَك راقدُ
إنّ القياسَ لمن يصحُّ قياسهُ ، ... بين العيون وبينه مُتَبَاعدُ
والوردُ أَصدقُ للخدودِ حكايةً ... فعلامَ تَجْحَدُ فَضْلَه يا جَاحِدُ
مَلِكٌ قصيرٌ عُمْرُه مُسْتَأْهِلٌ ... تخليـده ، لو أنّ حيًّا خَالِدُ
إنْ قلت إنَّ الوردَ فَرْدٌ فى اسمه ... ما فى الملاح له سمىٌّ وَاحِـدُ
فالشمسُ تُفْرَدُ باسمها والمشترى ... والبدر يُشْرَكُ فى اسمه وعُطَارِد
أو قلت إنّ كواكبا ربينها ... بحَيَا السَّحَابِ كما يُرَبِّى الوالد[6]
قلنا أَحقّهما بِطَبْع أَبِيه فى الْ ... جَدْوَى هوالزَّاكى النجيبُ الرَّاشدُ
زُهْرُ النُّجُومِ تَرُوقنا بضِيَائها ... ولهـا منافعُ جمةٌ وعَوَائِدُ
وكذلك الوَرْدُ الأَنِيقُ يَرُوقُنَا ... وله فضائلُ جَمَّةٌ وفَوَائِد

---

(١) فى النويرى : إن كنت تطلب . (٢) فى الديوان : ربيتها .
(٣) فى الديوان : فتأمل الاثنين . (٤) فى الديوان والنويرى : أين العيون من الخدود .
(٥) اللآلئ : ٥٩٤ . (٦) حيا السحاب : المطر .

وخليفهُ إن غاب ناب بنَفْعِهِ وبنَفْحِه أبدا مقيمٌ راكِدُ
إنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ماذكَرْنَا بعدما وضَحَتْ عليه دَلائلٌ وشَواهِدُ
فانْظُرْ إلى المُصْفَرِّ لوناً منهما وافطن فما يَصْفَرُّ إلّا الحاسِدُ

نبذ من النظم والنثر فى صفات النَّور والزهر

لعلى بن الجهم قال على بن الجهم (١) :

لم يضحكِ الوردُ إلّا حين أعْجَبَه حُسن الرِّياضِ (٢) وصوتُ الطائرِ الغَرِدِ
بدا فأبْدَتْ لنا الدُّنيا محاسِنَها وراحَتِ الرَّاحُ فى أثوابِها الجُدُدِ
وقابلَتْهُ يَدُ المُشْتَاقِ تَسْنُدُهُ إلى الترائب والأَحْشَاء والكَبِدِ
كأنَّ فيه شفاءً من صَبَابتِهِ أو مانِعاً جَفْنَ عينيه مِنَ السُّهُدِ
بَيْنَ النَّديمين والخِلَّيْن مَصْرَعُه وسَيْرُه مِن يَدٍ موصولةٍ بِيَدِ
ما قابلَتْ طَلْعَةَ الرَّيْحَانِ طَلعتُه إلا تبيَّنْتَ فيه ذِلَّة الحسدِ
قامَتْ بحُجَّته ريحٌ مُعطَّرَةٌ تَشْفى القلوبَ من الأَوْصابِ والكَمَدِ
لا عَذَّبَ اللهُ إلّا من يُعَذِّبه بمُسْمِعٍ (٣) باردٍ أو صاحبٍ نَكِدِ

وكان أردشير بن بابك يصفُ الورد ويقول : هو درٌّ أبيض ، وياقوتٌ أحمر ، على كراسى زبَرْجَد أخْضر ، توسطه شذورٌ من ذَهبٍ أصفر ، له رِقّةُ الخمر ، ونفحات العِطْر . أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال :

كأنهنَّ يواقيتٌ يُطِيفُ بها زُمرّدٌ وسْطَه شَذْرٌ مِنَ الذَّهب
فاشْرَبْ على مَنْظرٍ مستطْرَفٍ حَسَنٍ من خَمْرةٍ مَزَّةٍ كالجَمْرِ فى اللَّهَبِ (٤)

المتوكل والحسين ابن الضحاك وقال يزيدُ المهلبى: أَحبَّ المتوكِّل أن ينادمَه الحسين بن الضحاك الخليع البصرى، وأنْ يَرَى ما بَقِى من ظَرْفِه وشهوته لما كان عليه ؛ فأحْضره وقد كبر وضَعُفَ، فسقاه

(١) ديوان على بن الجهم ٨٩، حماسة ابن الشجرى ٢٢٥ . (٢) فى الديوان : حسن النبات.
(٣) المسمع : المغنى . (٤) المزة : الخمرة اللذيذة الطعم .

حتى سكر ، وقال لخادمه شفيع : اسْقِه ؛ فسقاه وحياه بوَرْدَة ، وكانت على شفيع أثوابٌ مورّدة ، فمدّ الحسين يده إلى دِرْع شفيع، فقال المتوكل : أتخمش غُلَامى (١) بحضرتى ؟ كيف لو خَلَوْتَ به ! ما أحوجك ياحسينُ إلى أدب ! وكان المتوكل غمز شفيعا على العبث به ، فقال الحسين : سيدى ، أريد دواة وقرطاسا ؛ فأمر له بهما فكتب :

وكالوردة البيضاء حَيًّا بأَحْمَرٍ ... من الوَرْدِ يسعى فى قَرَاطِقَ كالوَرْدِ (٢)

له عَبَثَاتٌ عند كلِّ تحيَّةٍ ... بكفَّيْه يستَدْعِى الخلِيَّ إلى الوَجْدِ

تمنيتُ أنْ أُسْقى بكفيه شَرْبَةً ... تذكِّرنى ما قد نسيتُ من العَهْدِ

سَقَى اللهُ عيشا لم أنَمْ فيه ليلةً ... من الدهر إلاَّ من حبيب على وَعْدِ

ثم دفع الرقعةَ إلى شفيع ، وقال : ادْفَعْها إلى مولاك ؛ فلما قرأها استملحها ، وقال: لو كان شفيع ممن تَجُوز هِبَتُه لوهَبْتُه لك، ولكن بحياتى ياشفيع إلاّ كنتَ ساقيه بقيَّةَ يومه ! وأمر له بمالٍ كثير حُمِل معه لما انصرف .

قال يزيد المهلبى : فصرتُ إلى الحسين بعد انصرافه من عند المتوكل بأيام فقلت : ويحك ! أتدرى ما صنعت ؟ قال : لا أدَعُ عادتى بشىء ، وقد قلت بعدك :

لا رأى عطفة الأَحْبَـ ... ـبَةِ من لا يصرحُ

أَصْغَرُ الساقِيَيْن أَشْـ ... ـكَلُ عِنْدِى وأمْلَحُ

لو تراه كالظبى يَسْـ ... ـنح طَوْراً ويَبْرَحُ

خِلْتَ غُصْناً على كثيـ ... ـبٍ بنَوْرٍ يُوَشَّحُ

قال الصولى : وكأن الأول من أبيات الحسين من قول العباس بن الأحنف (٣) :

بيضاء فى حُمْرِ الثيابِ كوَرْدَةٍ ... بيضاءَ بين شقائقِ النعمانِ

تهتزُّ فى غَيد (٤) الشبابِ إذا مَشَتْ ... مثل اهتزازِ نَوَاعِمِ الأَغْصَانِ

(١) فى س ، ق : أتحشن. (٢) القرطق كجندب : لبس .

(٣) ليس فى ديوانه المطبوع بين أيدينا . (٤) غيد كفرح : لانت أعطافه .

قال أبو بكر الصولى : كان عند الخصى[١] الوزير ظبى داجن ربيب[٢] فى داره، فعمد إلى نيلوفر فأكله ، فاستملح الغزال وأنسه ، وقال : لو عمل فى أنس هذا الغزال وفعله بالنيلوفر لاشتمل العمل على معنًى مليح ! فبلغ الخبرُ أباعبد الله إبراهيم بن محمد ابن عرفة نفطويه ، فبادر لئلا يُسبق ، وعمل أبياتا أولها :

جرَتْ ظَبْيَةٌ غنّاء تَرْعَى برَوْضَةٍ تَنُوشُ[٣] لدَى أفْنَانِها ورَقاً خُضْرا

فى أبيات غير طائلة ، فاستبرد ما أتى به ، قال الصولى : فقلت :

ونَيلَوفرٍ يحكى لنا المِسْكَ طيبُهُ تراه على اللذاتِ أفضَلَ مُسْعِدِ
قد اجتنَّ خوفَ الحادثات بجُنَّةٍ تروقُ كثوبِ الراهب المتعبِّدِ
تُرَكَّب كالكاسَاتِ فى ذَهبيَّةٍ على قُضُبٍ مخضرَّةٍ كالزَّبَرْجَدِ
وأُلبس ثوباً يفضُلُ اللَّحْظَ حُسْنُه كما عبِثَتْ عينٌ بِخَدٍّ مُوَرَّدِ
غذَتْه أهاضيبُ[٤] السماءِ بدَرِّها تروحُ عليه كلَّ يومٍ وتَغْتدِى
تلبّس للأنْوَارِ ثَوْب سمائه ففضَّلَ عنه الحسن فى كلِّ مَشْهَدِ
وفى وسطه منه اصفِرارٌ يَزِينُه كياقوتةٍ زرقاءَ فى رَأْسِ عَسْجَدِ
أطاف به أَحْوَى المدامِع شَادِنٌ حَكى طَرْف من أهْوى وحُسن المقلّدِ
كما أخذ الظمآنُ بالفم كاسه ولم يستَعِنْ فى أخذه الكاسَ باليَدِ

لابن وكيع وقال أبو محمد الحسن بن على بن وكيع[٥] :

يومٌ أتاكَ بوَجْهِه المتهلّل ناهيك من يومٍ أغرَّ مُحجَّلِ
خلع الغمامُ على اخْضِرارِ سمائِه خلعا فبَيْنَ مُمَسّكٍ ومُصَنْدَلِ
وكسا الرُّبى حُلَلا تخالَف شكلُها بمورَّدٍ ومُعَصْفر ومُكحّلِ
وتمايلَتْ فيه قدودُ غُصُونِه من شُرْبِ كاساتِ الغيونِ الهُطّلِ

---

(١) فى س : الخصيبى . (٢) فى س : ربيت . (٣) تنوش : تتناول .
(٤) الهضبة : المطرة ، وجمعه هضب وهضاب، وجمع الجمع أهاضيب .
(٥) فى ق ، ط : أبو الحسن محمد بن على .

وعَلا على الأشجار قَطْرُ سمائِها ... فبدَتْ لعينِ الناظر المتأملِ
يَحْكى قِبَابَ زُمُرّدٍ قد كُلِّلتْ ... بمنظَّمٍ من لؤلؤ ومُفَصَّلِ
وأتاكَ نَوْرُ الباقلاءِ كأنما ... يرْنو إليك بعين أكْحَل أقْبلِ (١)
الوَرْدُ يُخجلُ كلَّ نورٍ طالع ... وتراه مُنْتَقِباً بحُمْرَةِ مُخجلِ
وحكى بياضُ الطَّلْع فى كافورهِ ... وجْهَ الخريدة فى الخمارِ الصَّنْدَلى
فـكأنما الدنيا عَرُوسٌ أقبلَتْ ... فى كل أنواع الملابس تَجْتَلى
فاشرب مُعَصْفَرَةَ القميص سُلافةً ... من صنعة البَرَدَانِ أو قطربُّلِ

لأبى الفتح البستى

وقال أبو الفتح البستى (٢) :

يومٌ له فَضْـلٌ على الأيَّامِ ... مزَجَ السَّحابُ ضياءَه بِظلامِ
فالبَرْقُ يخفق مِثْلَ قَلْبٍ هائمٍ ... والْغَيْمُ يَبْـكِى مثل طَرْفٍ هَامِ
وكأنَّ وَجْهَ الأرْض خَدٌّ متيَّم ... وُصِلت سجامُ دموعِه (٣) بسِجَامِ
فاطلبْ ليومك أربعاً : هنّ المُـنَى ... وبهنّ تَصْفُو لذَّةُ الأيامِ
وَجْه الحبيب ومنظرا مستشرقا ... ومغنيًّا غَرِدًا وكأسَ مُدام

للميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

سَلَّ الربيعُ على الشِّتَاءِ صوارماً ... ترَكَتْه مجروحاً بلا إغْمَادِ
وبكَتْ له عَيْنُ السماء بأدْمُعٍ ... ضَحِكَت لساجمها رُبَى الأنْجادِ
وبدتْ شقائقُها خِلال رِياضِها ... تُزْهَى بثوبَىْ حُمْرَةٍ وسَوادِ
فـكأنها بِنْتُ الشتاء توجَّعَتْ ... لمُصابه كشقيقـةِ الأولادِ
فقَنُوءُ حُمْرَتِها خِضَابُ نَجيعِهِ ... وسوادُ كُسْوَتِها لِباسُ حِـدادِ

---

(١) القبل : إقبال السواد على البياض ، أو مثل الحول ، أو أحسن منه .

(٢) يتيمة الدهر : ٤ـ٢٩٠ . (٣) فى اليتيمة : وصلت دموع سحابه .

وقال[1] :

تصوغُ لنا كفُّ الربيعِ حدائقا ... كعقد عَقِيقٍ بين سِمْطِ لآلِى
وفيهن أنْوَارُ الشقائقِ قد حَكَتْ ... خُدودَ عَذارى نُقِّطت بِغَوَالى

وقال[2] :

كأنَّ الشقائقَ إذ أبرزَتْ ... غِلالةَ دادٍ[3] وثَوْباً أحَمّ
قطاعٌ من الجَمْرِ مشبوبةٌ ... فأطرافُها لُمَعٌ مِنْ حَمَم

وقال فى حديقة ريحان[4] :

أعْدَدْت مُحْتَفلا ليوم فَراغى ... روضا غَدا إنسانَ عَيْنِ الباغى
روض يَرُوضُ همومَ قلبى حُسْنُهُ ... فيـه لـكأس الأُنْسِ أىّ مَساغِ
فإذا بدَتْ قُضْبَانُ ريحانٍ بِهِ ... حيَّتْ بمثْلِ سلاسلِ الأصْداغِ

وقال فى النرجس[5] :

أهْلًا بنرجس رَوْضٍ ... يُزْهَى بحُسْنٍ وطِيبِ
يرْنُو بعَيْـنَىْ[6] غزالٍ ... على قَضيبٍ رَطِيبِ
وفيـه معنى خفىٌّ ... يَزِينُـه[7] للقـلوبِ
تَصْحِيفُه إنْ نسَّمْتَ الْ ... حُرُوفَ بِرٌّ حَبِيبِ

وقال[8] :

وماضمَّ شَمْلَ الأُنْسِ يوماً كنَرْجِسٍ ... يقومُ بعُذْرِ اللَّهْوِ عن خالِعِ العُذرِ
فأحداقه أحـداق[9] تِبْرٍ وساقهُ ... كقامةِ ساقٍ فى غَلائلِهِ الخُضْرِ

---

(١) اليتيمة : ٤ـ٣٤٢ . (٢) اليتيمة : ٤ـ٣٤٣. (٣) فى اليتيمة : لاد ، والدادى : المولع باللهو لا يكاد يبرحه . (٤) اليتيمة : ٤ـ٣٤٢ .
(٥) نهاية الأرب : ١١ـ٢٣٣ ، اليتيمة : ٤ـ٣٤٣ . (٦) فى ط ، س : بعين .
(٧) فى النويرى واليتيمة : فى القلوب . (٨) اليتيمة : ٤ـ٣٤٣ .
(٩) فى اليتيمة : أقداح .

للبحترى

وقال البحترى[١] :

سَقَى الغيثُ أكنافَ اللِّوى[٢] من محلّةٍ إلى الحِقْف من رَمْل اللوى[٣] المتقاودِ
ولا زال مخضرٌّ من الرَّوْضِ يانعٌ عليه بمحمرٍّ من النَّور جاسدِ[٤]
شقائق يحملن الندى فكأنّه دموعُ التصابى فى خدودِ الخرائدِ
ومن لؤلؤ فى الأقحُوان[٥] منظّمٍ ومن نُكَتٍ مصفرّة كالفرَائدِ
كأن جنى الحوذان فى رَوْنَق الضحى دنانير تبرٍ[٦] من تُؤام وفارِدِ
إذا راوحتها مُزْنَةٌ بكرت لها شآبيبُ مجتازٍ عليها وقاصدِ
رِباع تردَّتْ بالرياض مجُودَةً بكل جديد الماء عَذْب الموارد
كأنَّ يدَ الفتح بن خاقان أقبلت تَليها بتلك البارقات الرّواعِدِ

* * *

شىءمن النقد

قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَويه : قال لى البحترى ، وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسَلَكْنَا مسلكا من المذاكرة : أشعرت أنى سبقت الناسَ كلهم إلى قولى :

شقائق يحمِلْنَ النَّدَى فكأنّهُ دموعُ التَّصابى فى خُدودِ الخرائِدِ
كأن يدَ الفَتْحِ بن خاقان أقبلَتْ تليها بتلك البارقات الرّواعِدِ

هكذا أنشد . فاستحسن ذلك المبرد استحساناً أسرف فيه ، وقال : ما سمعت مثل هذه الألفاظ الرّطبة ، والعبارة العَذْبة لأحدٍ تقدَّمك ولا تأخَّر عنك . فاعترَتْهُ أَرْيَحِيّةٌ جرّ بها رِداء العُجب ؛ فكأنه أعجبنى مايُعْجب الناس من مراجعة القول ؛ فقلت : يا أبا عُبادة ، لم تَسْبِق إلى هذا ، بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله[٧] :

(١) ديوانه : ١ـ١٣٦ ، المختار من شعر بشار ٢٤٥ . (٢) فى الديوان : الحمى .
(٣) فى الديوان : إلى الحف من رمل الحمى . (٤) فى ط : حاسد .
(٥) فى الديوان : الأرجوان . (٦) فى الديوان : نثر .
(٧) المختار من شعر بشار : ٢٤٧ .

عَذُبَ الفراقُ لنا قُبَيل وَداعِنا ... ثم اجترعناهُ كسمٍّ نَاقعِ
وكأنما أثرُ الدموع بخدِّها ... طَلٌّ تساقط(١) فوق وَرْدٍ يانعِ

وشركك فيه صديقُنا أبو العباس الناشئُ بما أنشدنيه آنفا(٢) :

بكَت للفراق وقد راعَنى ... بكاءُ الحبيب لبُعْدِ الديارْ
كأنَّ الدموعَ على خدِّها ... بقيةُ طَلٍّ على جُلَّنار

وما أساء على بن جريج ، بل أَحسن فى زيادته عليك بقوله(٣) :

لو كنتَ يوم الوداع شاهِدَنا ... وهنَّ يُطْفِينَ غُلةَ الوَجْدِ
لم ترَ إلّا دموعَ باكيةٍ ... تَسفَح من مُقْلَةٍ على خدِّ
كأنَّ تلك الدموع قطرُ ندًى ... يقطُر من نَرْجِس على وَرْدِ

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله(٤) :

من كل زاهرةٍ ترقْرَقُ بالنَّدَى ... فكأنها عينٌ إليه(٥) تَحَدَّرُ
تَبدو ويَحْجُبُها الجميمُ كأنها ... عَذْراءُ تبدو تارةً وتخفَّرُ(٦)
خَلقٌ أطلَّ من الربيع كأنَّهُ ... خُلُقُ الإمامِ وهَدْيه المتنشّرُ
فى الأرض من عَدْلِ الإمام وجُودِهِ ... ومن الربيع الغضِّ سَرح يُزهر(٧)
يُنسى الربيع وما يروِّض جودهُ(٨) ... أبدا على مَرِّ الليالى يُذْكَرُ

قال : فشقَّ ذلك عليه ، وحلّ حَبْوَتَه ونهض ، فكان آخر عهدى بمؤانسته ؛ وغَلُظ ذلك على محمد بن يزيد ، وقدح ذلك فى حالى عنده .

* * *

---

(١) فى المختار : سقيط . (٢) المختار من شعر بشار : ٢٤٦ .

(٣) المختار من شعر بشار : ٢٤٥، النويرى: ٢ــ٢٤٨ ، العكبرى : ٢ــ٣٠٢ .

(٤) ديوانه: ١٥٧ . (٥) فى الديوان : إليك . (٦) فى س : الجسيم، والجميم : النبت المغطى الأرض . (٧) فى الديوان : * ومن النبات الغض سرج تزهر* والسرح : كل شجر عال . (٨) فى الديوان : * تنسى الرياض وما يروض فعله *

وللبحترى

وقال البحترى يمدح الهيثم بن عثمان الغنوى[١] :

أَلست ترى مدَّ الفُراتِ كأنهُ جبال شرورَى[٢] جِئن فى البحرِ عُوَّما
وما ذاك[٣] من عاداته غير أنهُ رَأى شِيمَةً من جارِه فتعلَّمَا
وقد نبَّه النَّوْرُوزُ فى غَبَشِ[٤] الدُّجا أوائل وردٍ كُنَّ بالأمس نُوَّمَا
يُفتِّحها[٥] بَردُ النَّدَى فكأنهُ يَبُثُّ حديثاً بينهن[٦] مُكَتَّما
ومن شجرٍ رَدَّ الربيعُ لِباسَهُ عليه كما نَشَّرْتَ بُردًا[٧] مُنَمْنَماَ
أَحَلَّ فأَبدى للعيونِ بَشاشَةً وكان قذًى للعين مُذ[٨] كان مُحرِماَ
فما يمنع[٩] الراح التى أنت خِلُّها وما يَمْنَعُ الأوتار أنْ تترَنَّماَ
وما زلت خِلاًّ للنَّدامى إذا اغْتَدَوْا[١٠] وراحُوا بُدوراً يستحِثُّو ن أَنْجُماَ
تكرّمْت من قبل الكئوس عليهمُ فما اسْطَعن أنْ يحدثن فيك تكرّما

وقال[١١] :

حيَّتْك عنا شمالٌ طافَ طائفُهاَ بجنَّةٍ فَجرتْ راحاً[١٢] ورَيْحاَناَ
هبَّتْ سُحَيْرًا فناجَى الغُصْنُ صاحبَهُ سِرًّا بها وتداعَى الطَّيْرُ إعلانا
وُرْقٌ تغَنَّى على خُضْرٍ مُهَدَّلةٍ تَسْمُو بها وتَمَسُّ الأرضَ أحيانا
تخالُ طائرَها نَشْوانَ من طَرَبٍ والغُصْنَ من هزِّهِ عِطْفَيْهِ نَشْواناَ

أرجوزة ابن المعتز

ولابن المعتز فى أرجوزته البستانية التى ذم فيها الصّبوح صفة جامعة ، إذ قال[١٣] :

أَمَا ترى البُسْتَان كيف نوَّرا ونَشَّر المنثور بُرْدًا أصفَرا
وضَحَّك الوردَ إلى الشقائقِ واعتَنَق الورد[١٤] اعتناق الوامقِ

---

(١) ديوانه : ١ــ٢٣٤ . (٢) فى ط ، ق ، س : شدورى .
(٣) فى الديوان : ولم يك . (٤) فى الديوان : غلس . (٥) فى الديوان: يفتقها .
(٦) فى الديوان : كان قبل . (٧) فى الديوان : وشيا .
(٨) فى الديوان : إذ . (٩) فى الديوان : يحبس . (١٠) فى الديوان : انتشوا .
(١١) نسبه فى النويرى لابن الرومى : ١١ــ٢٦٤ ، ١ــ١٠٠ . (١٢) فى النويرى : فى جنة قد حوت روحا . (١٣) ديوانه ١١١ . (١٤) فى الديوان : القطر .

فى رَوْضَةٍ كحلية(١) العروسِ — وخُـدَّمٍ(٢) كهامةِ الطاوسِ
وياسمين فى ذُرَى الأغصان — منظم(٣) كقِطَعِ العِقْيَانِ
والسَّرْوُ مثل قَصَبِ الزَّبَرْجدِ — قد استمدَّ المـاءَ من تُربٍ نَدِ
على رياضٍ وثرًى نَدِىِّ — وجدْوَلٍ كالبَرْد الحلىِّ
وفَرّج(٤) الخشْخَاش جَيْبًا وفتق — كأنَّه مصاحِفٌ بيضُ الوَرَق
أو مثل(٥) أقداحٍ مِن البَلُّورِ — تخالها تجسَّمت مِن نورِ
وبعضُه عُرْيَانُ من أثوابه — قد خَجِل اليابس(٦) من أصحابهِ
تُبْصِرُه عنـــد انتثار الوردِ — مثـل الدبابيس بأَيْدِى الجُنْدِ
والسَّوْسَنُ الآزار مَنْشور الحُلَل — كقُطْنٍ قد مسَّهُ بعضُ بَلَل
نوَّرَ فى حاشيتى بُسْتَانِهِ — ودَخَّل الميدان(٧) فى ضمانه
وقد بدت فيه ثمار الـكنكر(٨) — كأنها جماجِمٌ من عَنْبَرِ
وحلَّق البهارُ بَيْنَ الآسِ — جُمْجُمَة كهامَةِ الشَّمَّاسِ
خلال شيح(٩) مثل شيب النَّصَفِ — وجوهرٍ مِن زَهَرٍ مُخْتَلفِ
وجُلّنار كاحْمِرارِ الوردِ(١٠) — أو مثل أعْراف ديوك الهندِ
والأقحوان كالثنايا الغُرِّ — قد صُقِّلَتْ أنواره(١١) بالقَطْرِ

لـكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم(١٢) :

وَرَوْضٍ عن صَنِيع الغيثِ رَاضٍ — كما رَضِىَ الصَّدِيقُ عن الصديقِ
إذا ما القَطْرُ أَسْعَدَهُ صَبُوحَا — أتمَّ لهُ الصنيعةَ فى الغَبُوقِ

---

(١) فى الديوان : كحلة . (٢) فى س ، ق ، ط : وحرم .
(٣) فى الديوان : منتظما . (٤) فى الديوان : وفرش، وفى س : وفرخ .
(٥) فى الديوان : صار كأقداح . (٦) فى الديوان : الأعين .
(٧) فى ديوانه : البستان . (٨) فى ديوانه : الـكبر . (٩) فى ديوانه : حبال نسج .
(١٠) فى ديوانه : مثل جمر الخد . (١١) فى ديوانه : نوارها . (١٢) فى النويرى :
١١ـ٢٦٩ .

يُعِيرُ الرِّيحَ بالنَفَحاتِ رِيحاً ... كأنَّ ثَراه مِنْ مِسْكٍ فتيقِ [١]
كأنَّ الطَّلَّ مُنْتَشِرا [٢] عليهِ ... بقايا الدَّمْعِ فى خدٍّ مَشُوقِ [٣]
كأنّ غصونَه سُقِيَتْ رَحِيقاً ... فمالَتْ مِثْلَ [٤] شرّاب الرَّحِيق
كأنَّ شقَائقَ النعمانِ فيه ... مُخصَّرةً شقَائقُ [٥] مِنْ عَقِيقِ
يُذَكِّرُنِى بَنَفْسَجُه بَقَايَا ... صنيعِ اللَّطْمِ فى الخدِّ الرَّقيقِ

وقال :

غَيْثٌ أتانا مُؤْذِناً بالخَفْضِ ... مُتَّصِلَ الوَبْلِ سَرِيعَ الرَّكْضِ
دَنَا نَخِلْنَاه دُوَيْنَ الأَرْضِ ... مُتَّصِلاً بطُولِه والعَرْضِ
إلْفاً إلى إلْفٍ بِسِرٍّ يُفْضِى ... ثم سَما كاللُّؤْلُؤ المُرْفَضِّ
فالأَرْضُ تُجْلَى بالنباتِ الغَضِّ ... فى حَلْيِها المحمرِّ والمبيضِّ
مِنْ سَوْسَنٍ أحْوَى ووَرْدٍ غَضِّ ... مِثْلِ الخدودِ نُقِّشَتْ بالعَضِّ
وأُقْحُوَانٍ كاللُّجَيْنِ المَحْضِ ... ونَرْجِس ذاكِى النَّسِيمِ بَضِّ
مثل العيون رَنَّقَتْ للغَمْضِ ... ترْنُو فَيَغْشَاها الكَرَى فتُغْضِى

جملة من هذا النوع لأهل العصر

قال أبو فراس الحمدانى [٦] : لأبى فراس

وجلَّنّارٍ مُشْرق ... عَلَى أعالِى شَجَرِهْ [٧]
كأنّ فى رؤوسِه [٨] ... أحمرِهِ وأصفرِهْ
قُرَاضةٌ من ذَهَبٍ ... فى خِرْقَةٍ مُعَصْفَرهْ

---

(١) فى النويرى : سحيق . (٢) فى النويرى : منتثرا . (٣) فى ط ، ق : فى الخد المشوق . (٤) فى النويرى : فماست ميس ... (٥) فى النويرى : محضرة كئوسا .
(٦) النويرى ١١ـ١٠٤ . (٧) فى النويرى : الشجرة .
(٨) فى النويرى : أغصانه .

وقال :

ويوم جَلَا فيه الربيع رِياضَهُ ... بأَنْوَاعِ حَلْىٍ فوقَ أثْوَابِهِ الخُضْرِ
كأَنَّ ذُيولَ الجلّنار مُطِلَّةً ... فضولُ ذيولِ الغانياتِ من الأُزْرِ

وقال أبو القاسم بن هانىء ، يصف زهرة رُمّان قطفت قبل عَقْدِها :

وبنت أَيْكٍ كالشباب النَّضْرِ ... كأنها بين الغُصُونِ الخُضْرِ
جَنانُ بازٍ أو جَنَانُ صَقْرِ ... قد خفقَّته (١) لَقْوَةٌ بوَكْرِ
كأنما سَحَّتْ دَماً مِنْ نَحْرِ ... أو نَبَتَتْ فى تُرْبَةٍ من جمرِ
[أو سُقِيَتْ بجَدْوَلٍ من خَمْرٍ](٢) ... لو كفَّ عنها الدهرَ صَرْفُ الدَّهْرِ
جاءت كمثل النَّهْدِ فوق الصَّدْرِ ... تَفْتَرُّ عن مِثْلِ اللِّثَاتِ الحُمْرِ
فى مثل طَعْمِ الوَصْلِ بعد الهَجْرِ

ولهم فى هذا المعنى

روضة رقَّتْ حَوَاشيها ، وتأَنَّق واشيها . روضة كالعقود المنظّمة ، على البرود المُنَمْنَمَة . روضة قد رَاضتها كفُّ المطر ، ودبَّجَتْهَا أيدى الندى . أخرجتِ الأَرْضُ أسرارَها، وأظهرَتْ يدُ الغيثِ آثارها، وأبدت الرياضُ أزهارها . الرياض كالعرائس فى حَليها وزَخَارِفها ، والقيانِ فى وَشْيِها ومَطَارِفها ، باسطة زَرابيّها(٣) وأنماطها، ناشرةً حِبَرَاتها(٤) ورِيَاطها ، زَاهية بحَمْرَائها وصفرائها، تائهة بعيدانها وغُدْرَانها ، كأنما احتفلت(٥) لوَفْد، أو هى من حبيب على وَعْد. روضة قد تضوَّعَتْ بالأَرَج(٦) الطَّيِّبِ أرجاؤها ، وتبرَّجَتْ فى ظُلَلِ الغمام صحراؤها، وتنافَجَتْ بنوافجِ(٧) المِسْكِ

---

(١) اللقوة : العقاب الأنثى أو الخفيفة السريعة ، وفى س : قد خلفته .

(٢) هذه الشطرة ليست فى س .

(٣) الزرابى : النمارق والبسط . (٤) ضرب من برود اليمن .

(٥) فى ق ، س : اختلفت . (٦) الأرج : توهج ريح الطيب .

(٧) النافجة : وعاء المسك .

أنوارُها ، وتعارضت بغرائب النُّطْقِ أطيارُها . بستان رقَّ نورُه النضيد، وراق عودُه النضير . بستان عودُه (١) خضر ، ونوره نَضِر ، ويُنْعه (٢) خَضِل ، وماؤه خَصِر . بستانٌ أَرْضُه للبقل والريحان، وسماؤه للنخل والرمان. بستان أنهارُه مفروزة بالأزهار، وأشجارُه مُوقَرَةٌ بالثمار . أشجارٌ كأنَّ الحورَ أعارَتْها قُدُودَها ، وكستْها بُرودَها ، وحلّتها عقودها . الربيعُ شبابُ الزمانِ ، ومقدمة الورد والريحان . زَمَنُ الوردِ مَرْمُوق ، كأنه من الجنَّةِ مسروق . قد ورد كتاب الورد بإقباله إلى أهل الوُد . إذا وردَ الوَرْد ، صدرَ البرد . مرحباً بإشراف الزهر ، فى أطراف الدهر ، وأنشد :

سقى اللهُ وَرْدًا صارَ خَـدَّ رَبيعنا فقد كان قبل اليـوم ليس له خدُّ

كأنّ عَيْنَ النرجس عيْن ، وَوَرقه وَرِق (٣) . النرجس نُزْهَةُ الطَّرْف ، وظَرْفُ الظَّرف (٤) ، وغذاء الروح . شقائقُ كتيجان العقيق على رءوسِ الزنوج ، كأنها أَصْداغُ المسك على الوجَنَاتِ المورّدة . شقائق كالزنوج تجارحت وسالت دِماؤُهَا ، وضَعُفَت فسال ذَماؤُها . كأن الشقيقَ جامٌ من عقيق أحمر ، مُلِئَتْ قرارَتُه بمسكٍ أذْفَر . الأرض زمرّدة ، والأشجارُ وَشْى، والماء سيوف ، والطيور قِيَان . قد غرّدت خطباء الأطيار على منـابر الأنوار والأزهار . إذا صدح الحَمامُ ، صدع الحِمامُ قلْبَ المُسْتَهَام . انظر إلى طَرَبِ الأشجار لغنَاَءِ الأطيار . ليس للبلابل (٥) كغناء البلابل، وخَمْرِ بابل .

ولهم فيما يتعلق بهذا النحو فى وصف أيام الربيع

يوم سماؤُه فَاختيّة (٦) ، وأرضه طاوُسيّة . يومٌ جَلَابيبُ غيومِه رواق ، وأَرْدِيَة نسيمه رِقَاق . يوم مُمَسّكُ السماء ، مُعَصْفَرُ الهواء ، مُعَنْبَر الرَّوْضِ ، مُصَنْدَل الماء .

---

(١) فى س : غصنه . (٢) الينع بالضم من جل الشجر . وبالفتح الأثمار الناضجة .
(٣) العين الذهب ، والورق : الفضة . (٤) فى س : الطرف .
(٥) البلابل : الهموم والوساوس . (٦) الفاختة : طائر .

يوم زُرَّ عليه جَيْبُ الضَّبَاب ، وانسحب فيه ذَيْلُ السحاب . يوم سماؤه كالخزّ الأَدْكَن ، وأَرْضُه كالديباج الأَخْضَر :

شادنٌ يرْتَعِى القلوب ببغدا د ولا يَرْتَعِى الكلا بالنِّبَاجِ (١)
أقبلَت والربيعُ يختالُ فى الرَّوْ ض وفى المزن ذِى الحيا الثَّجَّاجِ (٢)
ذو سماء كأَدْكَنِ الخزِّ قد غيـ مَتْ وأرض كأَخْضَرِ الديباجِ
فتجلى عن كل ما يتمنى موعد الكدخداةِ والهيلاجِ (٣)
فظللنا فى نُزْهَتَين وفى حُسْ نين بين الأَرْمَالِ والأَهْزاجِ
بفَتَاةٍ تسرُّنا فى المَثَانِى وعَجُوزٍ تَسُرُّنَا فى الزُّجَاجِ
أَخذَتْ من رءوسِ قومٍ كرامٍ ثارَها عند أَرْجُل الأَعْلاج

يوم حَسَنُ الشمائل ، مُمْتِع المخايل ، سَجْسَجُ الهواء ، مُونِقُ الأَرْجاء . يوم تبسَّم عنه الربيعُ ، وتبرَّجَ عنه الروضُ المريع . يوم كأَنَّ سماءَه مؤتم تتباكى ، وأَرْضه عَرُوسٌ تتجلَّى . يوم مشهرّ الأَوْصاف ، أَغرّ الأطراف . يوم يُغْفِى فيه النَّوْر ويَنْتَبه ، وتُسْفِر فيه الشمس وتَنْتَقِب ، وتَعْتَنِقُ الغصون وتَفْتَرِق ، ويوشى الغيم وينسكب . يوم غاب نَحْسُه وهَوَى ، وطلع سَعْدُه واعْتَلَى ، والزمانُ ساقطة جماره (٤) ، مُفْعَمَةٌ أنهاره ، مُونِقَةٌ أشجارُه ، مغرّدة أطيارُه . نحن فى غِبِّ سماء ، قد أَقلعت بعد الارْتِوَاء ، وأقشعت عند الاستغناء ، فالنَّبتُ خَضِلٌ ممطور ، والنَّقْعُ ساكن محصور . يوم جوُّه طَارُونِىّ (٥) ، وأَرْضه طاوسى . يوم دَجْنُه عاكف ، وقَطْرُه وَاكِف . يومٌ من أعياد العُمْرِ ، وأَعْيانِ الدَّهْرِ .

---

(١) النباج : موضع . (٢) ثج الماء : سال . (٣) فى كل الأصول : الكذخذاة وهذا من رسائل البديع والضبط من س . (٤) فى س : خماره .
(٥) الطرن : الخز ، والطارونى : نوع منه .

ولهم فى تشبيه محاسن الربيع بمحاسن الإخوان والسادة

غَيْثٌ متشبِّه بكَفِّك ، واعتداله مُضاهٍ لخُلقك ، وزَهْرُه مُوازٍ لنَشْرِك ، كأنما استعار حُلَلَه من شيمتك ، وحَلْيَه من سجيَّتك ، واقتبس أنوارَه من محاسن أيامك ، وأَمطارَه من جُودك وإنعامك . قدم الربيعُ مُنْتَسِباً إلى خلقك ، مُكْتَسِيا محاسِنَه من طَبْعك ، متوشّحا بأَنوار لَفْظك ، متوضِّحاً بآثار لسانِك ويَدِك . أنا فى بُستان أَذْكَرَنى وَرْدُه المفتّح بخلقك ، وجَدْوَلُه السايح بطبعك ، وزَهْرُه الجَنِىُّ بقُرْبك . أنا فى بستان كأنَّه من شمائلك سُرِق ، ومن خُلُقك خُلِق ، وقد قابلتنى أشجارٌ تَتَمايل فتذكرنى تَبْرِيحَ الأحباب إذا تداوَلَتْهم أَيْدِى الشراب ، وأنهار كأنَّها من يدك تَسيل ، ومن راحتيك تَفِيض . أنا على حافةِ حَوْضٍ أزرق كصفاء مودَّتى لك ، ورِقَّة قولى فى عَتْبك .

[فى الصوم]

وقال ابن عون الكاتب : الصوم فى الربيع

جاءنا الصومُ فى الربيع فهلا اخْ تَار رُبْعا من سائرِ الأرباعِ
وكأنَّ الربيعَ فى الصوم عِقْدٌ فوق نَحْرٍ غطّاه فَضْلُ قِناعِ

وكتب أبو الفتح كشاجم إلى بعض إخوانه يستدعيه إلى زيارته فى يوم شك : فى يوم الشك

هو يوم شَكٌّ يا علىُّ وبِشرهُ مُذْ كان يُحذرْ(١)
والجوُّ حُلَّتُه ممسَّكة ومُطْرَفُه(٢) مُعَنْبَرْ
والماء فضِّىُّ القميـ ـصِ وطَيْلَسانُ الأرض أخْضر
نَبْتٌ يُصَعِّد زَهْرُهُ فى الرَّوْضِ قَطْرَ ندًى تَحَدَّرْ
ولنا فُضَيْلاتٌ تكو نُ ليومنا قوتاً مُقَدَّرْ

---

(١) فى ط : يحزر ، والحزر : التقدير . (٢) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام.

ومُـدامةٌ صفراءُ أدْ رَكَ عُمْرَها كِسْرَى وقَيْصَرْ
فانْشَطْ لنـــا لِنَحثَّ مِنْ كاسَاتِنا ما كان أكْبَرْ
أو لَا فإنَّكَ جاهـــلٌ إن قلت إنّكَ سوف تُعْذَرْ

كتاب للبديع فى شهر رمضان

وكتب بديع الزمان إلى بعض أهل هَمَذان : كتابى أطال اللهُ بقاك عن شهر رمضان ، عرَّفنا اللهُ بركةَ مَقْدَمِه ، ويُمْنَ مُخْتَتَمِه ، وخصَّك بتقصير أيامه ، وإتمامِ صيامِه وقيامِه ؛ فهو ، وإن عَظُمَت بركَتُه ، ثقيلٌ حركته ، وإن جلّ قَدْرُه بعيد قَعْره ، [وإن عمّت رأفته طويل مسافته ، وإن حسنت قربته شديد صحبتُه ، وإن كبرت حرمته كثير حشمته ، وإن سرّنا مُبْتداه فلن يسوءنا منتهاه][1] ، فإنْ حَسُن وجْهُه فليس يَقْبُح قَفَاه ، وما أَحْسَنَه فى القَذَال ، وأشْبَه إدبارَه بالإقبال ، جعل اللهُ قدومَه سببَ تَرْحالِه ، وبَدْرَه فِداءَ هلاله ، وأمدَّ[2] فَلَكه تحريكا ، بتقضِّى[3] مُدَّتِه وَشيكا ، وأظْهر هلالَه نحيفا ، ليَزِفَّ إلى اللذاتِ زفيفا[4] ، وعفا اللهُ عن مَزْحٍ يكرهه ، ومُجونٍ يُسْخِطُه .

عوّل البديع فى هذا الكلام على قول أبى الفضل بن العميد فى رسالة له فى مثل ذلك :

لابن العميد فى مثل ذلك

أسألُ الله أن يُعَرِّفنى بركَتَه ، ويُلقِّينى الخيرَ فى باقى[5] أيامه وخاتمته ؛ وأَرْغبُ إليه فى أن يقربَ على الفَلَك دَوْرَه ، ويقصِّر سَيْرَه ، ويُخفِّف حَرَكته ، ويعجِّل نَهْضَته ، ويُنقِّصَ مسافةَ فلكه ودَائرته ، ويُزيل بركةَ الطُّولِ عن ساعاته ؛ ويَرُدَّ علىّ غُرَّةَ شوال ؛ فهى أَسْنَى الغُرَرِ عندى ، وأقرُّها لعَيْنى ؛ ويُطْلِعَ بَدْرَه ، ويُربِى الأَيْدِى متطلّبةً هِلالَه ببِشْر ، ويسمعنى النَّعْىَ لشهر رمضان ، ويعرض علىّ هلاله أخْفَى من السِّحْرِ ، وأظْلمَ من الكُفْر ، وأَنْحَفَ من مَجنونِ بنى عامر ، وأَبْلَى من أَسيرِ الهَجْرِ؛

(١) من س ، ق . (٢) فى ق : وأمر . (٣) فى س : يقضى .
(٤) زف : أسرع . (٥) فى س : ويلقنى الخير فى أيامه .

وأستغفرُ الله جلّ وجْهُه مما قُلْتُ إن كَرِهه ، وأسْتَعْفِيه من توفيق لما يذمُّه ؛ وأسأله صفحاً يُفِيضه ، وعَفْواً يُوسِعه ، إنّه يعلم خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصدور .

[الأمين]

قال المأمون لطاهر بن الحسين: صِفْ لى أخلاقَ المخلوع[1]. قال: كان واسِعَ الصَّدْرِ، ضَيِّقَ الأَدَب ، يُبيح من نفسه [2] ما تأْنَفُه هِمم الأحرار ، ولا يُصْغِى إلى نصيحة، ولا يقبل مَشُورة ، يستبدُّ برأيه ، ويُبَصِّر [3] سوءَ عاقبته ؛ فلا يَرْدَعُه ذلك عما يَهُمُّ به . قال : فكيف كانت حروبُه ؟ قال : كان يجمعُ الكتائب بالتبذير ، ويفرِّقُها بسوء التدبير . فقال المأمون : لذلك حلّ ماحلّ[4] به؛ أَمَا والله لو ذاق لذّاتِ النصائح، واختار مَشُورَاتِ الرجال ، وملَكَ نَفْسَه عن شهواتها ، لما ظُفِر به .

ولما عقد الرشيدُ البيعةَ للأمين وهو أصغرُ من المأمون لأجل أُمّه زُبَيْدة ، وكلام أخيها عيسى بن جعفر ، وقدّمه على المأمون ، جعل يرى فَضْلَ عقله فيندَم على ذلك فقال :

لقد بان وجهُ الرَّأْيِ لى غَيْرَ أَنَّنى ... غُلِبْتُ على الأَمْرِ الذى كان أَحْزَما
فكيف يُرَدُّ الدر[5] فى الضَّرْعِ بعدما ... توَزَّع حتى صار نَهْباً مقَسَّما
أخافُ الْتِوَاءَ الأمرِ بعد استوائِهِ ... وأنْ يُنقَضَ الحَبْلُ الذى كان أُبْرِما

قال أسد بن يزيد بن مزيد[6]: بعث إلىَّ الفضلُ بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الأنبارى ، قال : فأتيتُه وهو فى صَحْنِ داره ، وفى يده رُقْعة قد غضِب لما نظر فيها ، وهو يقول: ينامُ نَوْمَ الظَّرِبَان[7]، وينتبهُ انتباهَ الذئب ، هِمَّتُه بَطْنُه ، ولذّته فَرْجُه،

---

(١) يعنى الأمين . (٢) فى س ، ق : يبيح نفسه . (٣) فى س ، ق : فيبصر.
(٤) فى س ، ق : ما حل محله . (٥) الدر : اللبن . (٦) تاريخ الطبرى ١٠ـ١٥٨
(٧) دويبة كالهرة منتنة .

لايفكِّر فى زوالِ نِعْمَةٍ ، ولا يتروّى فى إمضاءِ رَأْى ولا مَكِيدة ، قد شمَّر له عبدُ الله عن ساقِه ، وفوَّق له أسَدَّ سهامِه ، يرميه على بُعْدِ الدار بالحَتْفِ النافذ[1] والموت القاصد[2] ، قد عبَّى له المنايا على مُتُونِ الخيل ، وناطَ له البلاءَ فى أسِنَّةِ الرماح وشفَارِ السيوف ، ثم تمثّل بشعر البَعيث :

يُقَارِعُ أتراكَ ابن خاقانَ لَيْلَهُ ... إلى أن يرَى الإصْبَاحَ لا يتلعثمُ
فيُصبحُ فى طُولِ الطِّراد وجِسْمُهُ ... نحيل وأُضحِى فى النعيم أصَمِّمُ
فشتان ما بينى وبين ابن خالدٍ ... أميّةَ فى الرِّزْقِ الذى الله يقسم[3]

ثم قال : يا أبا الحارث ، أنا وأنت نَجْرِى إلى غايةٍ إنْ قصَّرْنا عنها ذُمِمْنَا ، وإن اجتهدنا فى بلوغها انقطَعْنَا ؛ وإنما نحن شُعْبةٌ[4] من أصلٍ ، إن قَوِى قوينا ، وإن ضَعُفَ ضعفنا ؛ إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاءَ الأمة الوَكْفاءَ[5] ، يشاور النساءَ ، ويعتمدُ على الرؤيا ، وقدأمْكَنَ أهلَ اللهو والخَسَارةِ[6] مِنْ سَمْعِه ؛ فهم يمنُّونه الظَّفَر ، ويَعِدُونَه عواقب[7] الأيام ؛ والهلاكُ إليه أسرعُ من السيل إلى قِيعَانِ الرَّمْلِ ؛ وقد خشِيتُ أن نَهْلِكَ بهلاكه ، ونعطَب بعَطَبِه وأنت فارسُ العرب وابنُ فارسها ، وقد فزِع إليك فى[8] لقاءِ طاهر لأمرين : أحدهما صِدْقُ طاعتك ، وفَضْل نصيحتك ؛ والثانى يُمْنُ نَقِيبتك ، وشِدَّةُ بأسك ؛ وقد أمرنى أنْ أبسطَ يدك ، غير أنّ الاقتصاد رأسُ النصحية ، ومفتاحُ البركة ؛ فبادِرْ ما تريد ، وعَجِّل النهضة ، فإنى أرجو أنْ يوليك اللهُ شرَفَ هذا الْفَتْح ، ويلم بك شَعْثَ الخلافة .

فقلت له : أنا لطاعتك وطاعةِ أمير المؤمنين مُقْدِم ، ولما وَهَنَ عدوَّكما مُؤْثِر ؛

---

(١) فى ط : الناقر ، وفى س : النافر . (٢) هكذا فى الطبرى ، وفى ط ، س ، ق : القاصر . (٣) فى الطبرى : قاسم . (٤) فى الطبرى : شعب .

(٥) من الوكف : وهو الإثم والعيب والنقص . وفى الطبرى : الوكعاء ، وهى الحمقاء .

(٦) فى الطبرى : وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة

(٧) فى ق ، س : عقب . (٨) عبارة الطبرى : فزع إليك فى لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران .

غير أنَّ المحارِب لا يفتَتِحُ أمرَه بتقصير ؛ وإنما ملاكُ أَمرِه الجنود ، والجنودُ لا تكون بلا مال ، وقد رفع أمير المؤمنين الرغائبَ إلى قوم لم يُجْدُوا عليه ، ومتى سُمت مَنْ أقدرُ به الانتفاع له الرضا(١) بدون ما أَخذه غيرُه ممن لم يكُنْ عنده غناء ولا مَعُونة ، لم ينتظم بذلك التدبير ، وأحتاج لأصحابى رِزْقَ سنة قَبْضًا ، وحملا(٢) إلى ألفِ فرس لحمل من لا أَرْتَضِى فرسه ، وإلى مال أَسْتَظْهِرُ به ، لا أُلَام على وَضْعِه حيث رَأَيْت. فقال : شاوِرْ أمير المؤمنين ؛ فأَدخلنى عليه فلم تَدُرْ بينى وبينه كلمتان حتى أمر بحَبْسِى.

وروى أن الأمين لما أَعْيَتْه مكايدُ طاهر قال(٣) :

بُليت بأَشْجَعِ الثقلين نَفْسًا ... تَزُول الراسياتُ وما يَزولُ
له مع كل ذى بدن(٤) رقيبٌ ... يشاهده ويَعْلَمُ ما يقول
فليس بمغفلٍ أمراً عناهُ(٥) ... إذا ما الأمْرُ ضيَّعَه الجهولُ(٦)

وفى الفضل بن الربيع يقول بعض الشعراء : في الفضل ابن الربيع

كم مِن مقيمٍ ببغدادٍ على طَمَعٍ ... لولا رجاءُ أَبى العباس لم يُقِمِ
البدرُ إن نظروا والبحرُ إنْ رَغِبوا ... والحِصْن إن رهبوا والسيفُ ذُو النِّقَمِ

وقال عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع : ما مدحنا شاعرٌ بشعر أَحب إلينا من قول أبى نواس(٧) :

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ ... إن حُصِّلوا إلا أعز(٨) قَرِيعُ
ساد الربيعُ وسادَ فَضْلٌ بعدهُ ... وعلَتْ بعبّاس الكريمِ فروعُ
عباس عباسٌ إذا احتدم الوَغَى ... والفَضْلُ فَضْلٌ والربيعُ ربيعُ

وقيـل للعتابى : أمدحت أحداً ؟ قال : لا ، وليس لى على ذاك قدرة . فقيل له :

---

(١) هكذا فى كل الأصول (٢) فى الطبرى : وأحمل ألف رجل ممن معى على الخيل .
(٣) الطبرى : ١٠ـ١٨٩ . (٤) فى الطبرى : بدد . (٥) فى الطبرى : عنادا .
(٦) فى الطبرى : الفضول . (٧) ديوانه ٩٧ . (٨) فى الديوان : إلا أغر .
القريع : الذى يغلب فى المقارعة أو هو السيد فى قومه .

فقد مدحتَ الربيع ، فقال : ذلك ليومٍ يستحقّ فيه المدح ، فقلت :

ومعضلةٍ قام الربيع إزاءَها ... ليُعْمِد[1] ركن الدّين لما تهدَّمَا
بمكة والمنصور رهن كما أتى ... أخا الوحْى داعى رَبّه فتقدَّمَا
غداةَ عداةُ الدين شاحذةُ المُدى ... إليه وغُولُ الحربِ فاغِرَةٌ فَمَا

[بيعة المهدى]

وكان المنصور قد تُوفِّى بمكة وهو حاجٌّ فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، فأخذ الربيع للمهدى البيعةَ على الناس ، وأَخذ بتجديدها عن المنصور على أنه حىّ ، وأَدخل إليه قوماً فرأَوْه من بعيد وقد جلَّلهُ بثوب ، وأقعد إلى جنبه من يحرِّك يده وكأنه يُومِئُ بها إليهم ، فلم يشكُّوا فى حياته ؛ فما خالف أَحد ؛ فشكره المهدى لذلك ، وفى ذلك يقول أبو نواس فى مدحه الفضل بن الربيع[2] :

أَبوك جلَّى عن مُضَر ... يوم الرواقِ المحتضر
والحربُ تَفْرِى[3] وتَذَر ... لمـا رأى الأمر اقمطَرّ
قام كريما فانْتَصَرْ ... كهزة العَضْبِ الذَّكَرْ
ما مس من شىء هبَرَ ... وأنت تَقْتَافُ الأَثَرْ
من ذى حُجول وغُرَرْ

وقال أيضاً[4] :

آل الربيع فَضَلْتُمُ ... فضل الخَميس على العشير[5]
من قاس غيرَكم بكم ... قاس الثِّمَادَ[6] إلى البُحُور
أين القليـلُ بنو القليـ ... ـل من الكثير بنى الكثير

---

(١) عمده وأعمده : أقامه بعماد . (٢) ديوانه ٨٠ . (٣) فى الديوان : والخوف يفرى ويذر (٤) ديوانه ٨٤ . (٥) الخميس : الخمس ، والعشير : العشر .
(٦) الثماد : الماء القليل لا مادة له .

أين النجـومُ التاليا ... ت من الأهلّةِ والبدور
قومٌ كَفوا أيام مـ كّـ ـة نازل الخَطْبِ الـكبير
وتدارَكُوا نصْرَ[1] الخِلا ... فةِ وهْى شاسعة النَّصِير
لولا مقامُهُم بهـــا ... هَوَتِ الرواسى من ثَبير

ومن قول أبى نواس : «من قاس غيركم بكم ...» البيت ، أخذ أبو الطيب المتنبى[2] :

قواصِدَ كافورٍ توارِكَ غيرِهِ ... ومَن قَصَد البحرَ استقلّ السواقيا
فتًى ما سَرَيْنا فى ظُهورِ جُدودِنَا ... إلى عَصرِه إلّا نُرجِّى التّلاقيا

[وقت كلام الملوك]

وقال الفضل بن الربيع : من كلَّم الملوكَ فى الحاجات فى غيرِ وَقْتِ الـكلام لم يَظْفَر بحاجته ، وضاع كلامُه ، وما أشبههم فى ذلك إلّا بأوقات الصلوات لا تُقْبَـلُ الصلاةُ إلا فيها ، ومن أراد خطابَ الملوك فى شىء فلْيَرْصُد الوقتَ الذى يصلح فى مثله ذِكْرُ ما أراد ، ويسبّب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذِكْرُه بعَقِبه .

وقال المأمون للفضل بن الربيع لما ظَفِر به : يافضلُ ؛ أكان فى حق عليك ، وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك ، أن تَثْلِبَنى وتَسُبَّنى ، وتُحرِّض على دمى ؟ أتحبّ أن أفعل بك ما فعلتَه بى ؟

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ عُذْرى يُحقِدُك إذا كان واضحا جميلا ، فكيف إذاحفَّته العيوب ، وقبَّحَتْه الذنوب؛ فلا يَضِيقُ عنى من عَفْوِك ماوسع غيرى منك، فأنت كما قال الشاعر فيك :

صَفوحٌ عن الأَجرام حتى كأنهُ ... من العفو لم يَعرِفْ من الناس مُجْرِما
وليس يُبالى أن يكونَ به الأَذَى ... إذاماالأَذى لم يَغْشَ بالـكُرْهِ مُسْلِمَا

والشعر للحسن بن رجاء بن أبى الضحاك .

---

(١) فى الديوان : جزر .
(٢) ديوانه ٤ـ٢٨٧ .

[بين المنصور والربيع]

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة : دعا المنصور بالربيع فقال : سلنى ما تُرِيد ، فقد سكتَّ حتى نطَقْتَ ، وخففَّت حتى ثقّلت ، وأَقْلَلْتَ حتى أَكْثَرْتَ .

فقال : والله ياأمير المؤمنين ماأَرْهَب بُخْلَكَ ، ولا أَسْتَقْصِر عُمْرك ، ولا أستَصْغِر فَضْلَكَ ، ولا أَغْتَنِم مالك ؛ وإنّ يومى بفضلك علىّ أحسنُ من أمسى ، وغدك فى تأميلى أحْسَنُ من يومى ؛ ولوجاز أن يَشْكُرَكَ مثلى بغير الخِدْمَةِ والمُنَاصحَة لماسَبَقَنى لذلك أحد .

قال : صدقت ، عِلْمِى بهذا منك أحلَّك هذا المحلّ ؛ فسلنى ما شِئت ، قال : أسألك أن تقرِّب عبدك الفَضْل ، وتُؤْثِره وتحبّه .

قال : يا ربيع ؛ إنّ الحب ليس بمال يُوهَب ، ولا رُتبَة تُبْذَل ؛ وإنما تؤكّدُه الأَسباب. قال: فاجعل لى طريقا إليه ، بالتفضّل عليه ، قال : صدقت ، وقد وصَلْتُه بألف ألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عمومتى ، لتعلم مالَه عندى ، فيكون منه مايَسْتَدْعِى به محبَّتى ، ثم قال : فكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال: لأنها مفتاحُ كلّ خير ، ومِغْلَاق كلّ شر ، تُستَرَ بها عندك عيوبُه ، وتَصِير حسناتٍ ذنوبه . قال : صدقت وأتيت بما أردت فى بابه .

***

شىء من النقد

أخذ قوله : « خففت حتى ثقلت » أبو تمام فقال لمحمدبن عبدالملك الزيات[1] :

على أنّ إفراطَ الحياء استمالنى إليكَ ولم أعْدِل بعرضىَ مَعْدِلا
فثقّلتُ بالتخفيف عنك وبعضهُم يخففُ فى الحاجات حتى يُثقّلا

(١) ديوانه ٢٥٥ .

[سهل بن هارون يدعو للمأمون]

ودخل سهلُ بنُ هارون على الرشيد وهو يُضَاحِكُ المأمون، فقال: اللهم زِدْهُ من الخيرات، وابْسُطْ له من البركات، حتى يكونَ فى كل يوم من أيامه مُرْبيا على أمْسِه، مُقَصِّرًا عن غده.

فقال له الرشيد: يا سَهْلُ، من رَوى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحَه وأوضَحه إذا رام أن يقولَ لم يُعْجِزه القول.

فقال سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين؛ ما ظننت أنّ أحداً تقدّمنى إلى هذا المعنى. قال: بل أعشى همدان حيث يقول:

رأيتك أمْسِ خَيْرَ بنى لؤىٍّ ... وأنْتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنْتَ غداً تزيد[1] الخَيْرَ ضِعْفا ... كذاك تَزيد[1] سادة عَبْدِشَمْسِ

[من شعر الفضل بن الربيع]

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولى:

إنّى امرؤٌ من هاشمٍ ... بفِناء مَعْمُور النَّوَاحِى
أهل الهدى وذوى التُّقَى ... وأولى البَسالة والسَّماحِ
أهل المعالم والمكا ... رِم فى المَسَاء وفى الصَّبَاحِ
أهل النبوّة والخِلا ... فَة والكمالِ برَغْم لاحِى
يتألّمون من الصُّدُو ... دِ ويَصْبِرُونَ على الجِرَاحِ

[دابة]

حمل محمد بن عبيد الله بن خاقان أبا العيناء على دَابَّة زَعم أنها غَيْرُ فَارِه[2]،

(١) فى ق، س: تريد. (٢) فره: حذق، فهو فاره.

فكتب إليه : أعلم الوزير ، أعزه الله ، أن أبا على محمدا أراد أن يبرّنى فعقّنى ، وأن يُركبنى فأرْجلنى ، أمر لى بدابّة تقف للنّبْرة (١) ، وتعثر بالبعْرة ، كالقضيب اليابس عجَفا (٢) ؛ وكالعاشق المهجور دَنَفا (٣) ، قد أذْكرت الرواة عذرة العذرىّ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله، حُباقه مقرون بسُعاله ، فلو أمْسك لترجيت، ولو أفْرد لتعزَّيْت ، ولكنه يجْمعهُما فى الطريق المعمور ، والمجْلس المشهور ، كأنه خطيبٌ مُرْشِد ، أو شاعر مُنْشِد ، تَضْحكُ من فعْله النِّسْوان ، و تتناغى من أجله الصِّبيان؛ فمن صائح يَصيح : داوِه بالطباشير ، ومن قائل يقول : نوّله الشعير، قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمْصار ، فلو أُعين بنطق ، لروى بحقٍّ وصدق، عن جابر الجُعْفىّ ، وعامر الشّعبى؛ وإنما أُتيت من كاتبه الأعور، الذى إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أخْبث وأنزر ؛ فإن رأى الوزير أن يُبدّلنى به، ويُريحنى منه بمركوب يُضْحكنى كما ضحّك منى ، يمْحُو بحُسْنه وفَراهته ما سطّره العَيْبُ بقُبْحه ودمامته ! ولست أذكرُ أمْرَ سَرْجه ولجامه ؛ فإن الوزير أكرمُ من أن يَسْلب ما يهديه ، أو يَنْقُض ما يمْضيه .

فوجّه عبيد الله إليه برْذونا من براذينه بِسَرْجه ولجامه ، ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال عبيد الله: شكوت دابّة محمد، وقد أخبرنى الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وما هذا ثمنه لا يُشتَكى .

فقال : أعز الله الوزير ، لولم أكذب مستزيداً لم انصرف مستفيداً ، وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحقّ أنا رَاوَدْتُه عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ . فضحك عبيدالله ، وقال حجّتك الداحضة بملاحتك وظرْفك أبلغُ من حجّة غيرك البالغة .

---

(١) النبرة : صيحة الفزع . (٢) العجف : ذهاب السمن .

(٣) الدنف : المرض الملازم .

قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابى
عن أبى العباس بن سابور إلى الحسين بن صَبرة[1]
عن رقعة وردت منه فى صفة حَمَل أهْدَاه

وصلت[2] رُقْعَتك ففَضَضْتُها عن خطٍّ مُشْرق ، ولفظ مُونقٍ ، وعبارة مُصيبة ، ومعانٍ غريبة ، واتساع فى البلاغة يَعجزُ عنه عبدُ الحميد فى كتابته ، وقُسّ وسَحْبَان فى خطابته ؛ وتصرف بين جدٍّ أمْضى من القَدَر ، وهَزْلٍ أرقّ من نسيم السَّحَر ، وتقلُّب فى وجوه الخِطَاب ، الجامع للصَّوَاب ؛ إلا أنّ الفعلَ قصر عن القول ، لأنك ذكرت حَملاً ، جعلته بصفتك جَمَلًا ، فكان المُعَيْدِىّ الذى تسمعُ به ولا أنْ تراه . وحضر فرأيت كَبْشًا مُتَقَادِمَ الميلاد من نِتَاج قَوْمِ عَاد، قد أفْنَته الدّهور، وتَعَاقَبَتْ عليه العصور ، فظننته أَحَد الزَّوْجَين اللذين جعلهما نوحٌ فى سفينته ، وحفِظَ بهما جِنْسَ الغنم لذرِّيته ؛ صَغُر عن الـكبر ، ولَطُف عن القدم[3] ، فبانَتْ دَمامتُه ، وتقاصرت قَامَتُه ، وعاد ناحلا ضئيلا ، بالياً هزيلا ، بادِىَ السَّقَام ، عارى العِظَام ، جامعاً للمعايب ، مشتملا على المثَالِب ، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الحيـاةِ به ، وتأتِّى الحركةِ فيـه ، لأنه عَظْمٌ مجلّد[4] ، وصوف مُلبّد ، لا تجد فوق عظامه سَلَبا[5] ، ولا تَلْقَى يدك منه إلا خَشَبا ، لو أُلقِىَ إلى السَّبع لأَباه ، ولو طرح للذئب لعافَه وقَلاه ، قد طال للـكلأ فَقْدُه ، وبعُدَ بالمَرْعَى عَهْدُه ، لم يرَ القتّ[6] إلا نائما ، ولا عرف الشعير إلا حالما ، وقد خيّرتنى بين أن أَقْتَنِيه فيكون فيه غِـنَى الدهر ، أو أذبحه فيكون فيه خِصْب الرَّحل[7] ؛ فمِلْتُ إلى استبقائه لما تعرف من محبّتى فى التوفير ، ورغبتى فى التَّثْمير ، وجَمْعى للولد ، وادّخارى لغَد[8] ، فلم أَجِدْ فيـه مستمتعاً للبقاء ، ولا مَدْفعاً للفناء ؛

---

(١) فى ط : الخير بن ميزة. وفى س : بن ميرة . (٢) نهاية الأرب ١٠–١٢٨ .

(٣) فى النويرى : القدر . (٤) عظم مجلد : لم يبق عليه إلا الجلد .

(٥) السلب : ما على الرجل من اللباس . يريد هنا اللحم . (٦) القت : نبات تعلفه الدواب . (٧) فى النويرى : الشهر . (٨) فى ط ، س : للعتد، ويقال : فرس عتد: معد للجرى ، أو شديد تام الخلق .

لأنه ليس بأنثى فتحمِل ، ولا بفتى فينسُل ، ولا بصحيح فيَرْعَى ، ولا بسليم فيَبْقَى ؛ فملتُ إلى الثانى من رأييك ، وعوّلت على الآخر من قَوْلَيك ، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، وأقيمه رَطْباً مقام قَديدِ الغَزال ، فأنشدنى وقد أُضرِمت النـار ، وحُدِّت الشِّفار ، وشمَّر الجزّار[1] :

أُعيـذُهَا نظراتٍ مِنك صادِقَةً   أنْ تحْسِبَ الشَّحْمَ فيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

وقال : ماالفائدة لك فى ذبحى ؟ وأنا لم يَبْقَ منى إلا نَفَس خافِتٌ ، ومُقلةٌ إنسانُها باهت . لَسْتُ بذى لَحْم ، فأصلح للأكل ؛ لأنَّ الدهرَ قد أكل لحمى ، ولا جِلدى يصلُح للدّباغ ؛ لأنَّ الأيام قد مزَّقَتْ أديمى ، ولا لى صوف يصلُح للغزل ، لأن الحوادث قد حَصَّت[2] وَبَرى ؛ فإن أردتنى للوَقُود فـكفٌّ بَعْرٍ أبقى من نارى ، ولن تَفِيَ حرارةُ جمرى بريح قُتَارى[3] ، فلم يبق إلّا أن تطلبنى بذَحْل[4] أو بينى وبينك دَم . فوجدته صادقاً فى مقالته ، ناصحاً فى مَشُورته ، ولم أعلم من أى أمْرَيْه أعجب ؛ أمِن مماطَلَته للدهر بالبقاء ، أم من صبره على الضُّر واللأْواء ، أم من قدرتك عليـه مع إعواز مثله ، أم من تأهيلك[5] الصديق به مع خَسَاسة قَدْره ؟ ويا ليت شعرى إذ كنتَ ـ وإليك سوق الغنم ، وأمْرك يَنْفُذ فى الضأن والمَعز ، وكلُّ كبش سمين وَحَمل بطين مجلوبٌ إليك ، مقصورٌ عليك ـ تقول فيه قولا فلا تُرَدّ ، وتريده فلا تُصدّ ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه نَاشر[6] من القبور ، أو قائم[7] عند النفخ فى الصور ، فما كنتَ مُهْدِيا لو أنك رجل من عُرْض الـكُتَّاب ، كأبى علىّ وأبى الخطّاب ، ما كنت تهدى إلا كلْبا أجرب ، أو قرداً أحْدَب .

---

(١) ديوان المتنبى ٣ ـ ٣٦٦ .   (٢) حصت : حلقت وأذهبت .

(٣) القتار : الدخان من المطبوخ .   (٤) الذحل : الثأر .

(٥) فى النويرى : إتحافك .   (٦) فى النويرى : أنشر .   (٧) فى النويرى : أقيم .

[الحمدونى وشاة سعيد]

وقال الحمدونى فى شاة سعيد بن أحمد بن خوسنداذ[١] :

أسعيد قد أعطيتنى أُضحيّةً ... مكثَتْ زمانا عندكم ما تطعَمُ
نِضْواً تعاقرت الكلابُ بها وقد ... شدّوا عليها كى تموت فيولِموا
فإذا الملا ضَحِكوا بها قالت لهم ... لا تهزءوا بى وارحمونى تُرْحَمُوا
مرّت على عَلَف فقامت لم تَرِم ... عنه وغنّت والمدامِعُ تُسجم
وقف الهوى بى حيث أنْت فليس لى ... متأخَّر عنــه ولا متقدَّمُ

وقال أيضاً[٢] :

أبا سعيدٍ لنا فى شاَتك العِبَرُ ... جاءت وما إن لها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وكيف تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مكَثَتْ ... طَعامُها الأبيضانِ الشمسُ والقَمَرُ
لو أنَّها أبْصَرَتْ فى نومها عَلَفاً ... غَنَّت له ودموعُ العين تَنْحَدر
يا مانعى لذَّةَ الدنيا بأجمعها[٣] ... إنى ليفتننى[٤] من وَجْهِك النظرُ

وقال أيضاً :

شاةُ سعيدٍ فى أمْرِها عِبَرُ ... لمــا أتتنا قد مسَّها الضررُ
وهى تغنى من سوء حالتها ... حَسْبى بمــا قد لقيت يا عُمَرُ
مرَّت بقطف خضر ينشّرها ... قومٌ فظنَّتْ بأنها خُضُر
فأقبلَتْ نحوها لتأْكلها ... حتى إذا ما تبين الخَبَرُ
وأبدلتها الظنونُ من طَمَعٍ ... يَأْسا تغنَّت والدَّمْعُ مُنْحَدِرُ
كانوا بعيداً وكنت أمهلهم ... حتى إذا ما تقربوا هجروا

وقال[٥] :

---

(١) الفوات ١ــ١٨ . (٢) النويرى ١٠ــ١٣١ ، الفوات ١ــ١٨ .
(٣) فى النويرى : بما رحبت . (٤) فى النويرى والوفيات : ليقنعنى .
(٥) النويرى ١٠ــ١٣٢، الفوات ١ــ١٨ .

لسعيدٍ شُوَيْهَةٌ سلَّها الضُّر والعَجَفْ
قد تغنَّتْ وأبصرت رجلا حاملا عَلَفْ
بأَبي مَنْ بكفِّهِ بُرْءُ مابي من الدَّنَفْ
فأَتاها مطمِّعـا وأتتْـهُ لتَعْتَلف
فتولَّى فأقبلتْ تتغنَّى من الأَسَفْ
ليته لم يكن وَقَفْ عذَّب القلب وانْصَرَفْ

[الحمدونى وطيلسان ابن حرب]

[قال][1] : وإذ قد جرَتْ بعضُ تضمينات الحمدونى فى هـذا الموضع فأَنا أذكر هنا قطعةً من شعره فى الطيلسان ، وأَنْعطف فى غير هذا الموضع إليها وأَكر عليها ؛ وكان أحمد بن حَرْب المهلّبى من المُنْعِمين عليه والمحسنين إليه ، وله فيه مدائح كثيرة ؛ فوهب له طيلسانا أَخْضر لم يَرْضَه ، قال أبو العباس المبرّد : فأنشدنا فيـه عشر مقطعات ، فاستَحْلَينا مَذْهَبه فيها ، فجعلها فوق الخمسين ؛ فطارت كل مَطار ، وسارت كل مسار ، فمنها[2] :

يا بْنَ حربٍ كَسَوْتنى طَيْلَسانًا مَلَّ من صُحْبة الزمان وصَدَّا
فحسبنا نَسْج العناكب قد حا لَ[3] إلى ضعف طَيْلَسانك سدَّا
طال تَرْدادُه[4] إلى الرَّفْو حتى لو بَعَثْناه وَحْـدَه لتَهَدَّى

وقال فيه أيضاً :

ياطيلسان ابن حرب قد هممت بأنْ تُودِى بجسمى كما أَوْدَى بك الزَّمَنُ
ما فيك مِنْ ملبس يغنى ولا ثمن قد أَوْهَنَت حيلتى أركانُك الوُهنُ
فلو ترَانى لَدَى الرَّفَّاء مُرْتبطا كأننى فى يَدَيْهِ الدهرَ مُرْتَهن

---

(١) من س ، ق . (٢) الفوات ١ــ١٧ ، الوفيات ٣ــ٤٣٧ .
(٣) فى س ، ق : حين . (٤) الترداد : الترديد .

أَقولُ حين رآنى الناسُ ألزمهُ … كأنما لىَ فى حانوته وَطَنُ
مَنْ كان يسأل عنّا أيْنَ منزلُنا … فالأقحوانَةُ مِنّا منْزِلٌ قَمِنُ

وقال(١) :

قل لابْنِ حَرْبٍ طيلسا … نُك قومُ نوحٍ منه أَحْدَثْ
أفنَى القرونَ ولم يزَلْ … عمَّنْ مضى من قبل يُورَثْ
وإذا العيونُ لحَظْنَهُ … فكأنه باللَّحْظِ يُحْرَثْ
يُودِى إذا لم أرْفُهُ … فإذا رَفَوْتُ فليس يَلْبَثْ
كالكلب إن تَحْمِل علي … ه الدَّهْرَ أو تتْرُكْه يَلْهَثْ

وقال :

قل لابن حرب طيلسانُك قد … أوْهَى قُوَاى بكَثْرةِ الغُرمِ
متبينٌ فيه لمُبْصِرِه … آثارُ رَفْوِ أوائلِ الأُمَمِ
وكأنّه الخمرُ التى وصفت … فى : ياشقيق الرّوح مِن حكَمِ
فإذا رَمَمْناه فقيل لنا … قد صَحّ قال له البلى : انْهَدِمِ
مثل السّقيم برَا فراجعهُ … نُكْسٌ(٢) فأسلَمه إلى سَقَمِ
أنشدت حين طَغى فأَعْجَزنى … ومن العناء رِياضةُ الهرم

« الخمر التى وُصِفت » من قول أبى نواس(٣) :

يا شقيقَ النَّفْسِ من حكمٍ … نِمت عن لَيْلِى ولم أنمِ
فاسْقِنى البِكْرَ التى اعْتَجَرَتْ(٤) … بخِمَارِ الشَّيْبِ فى الرَّحِمِ
ثُمَّتَ انْصَاتَ(٥) الشباب لها … بعد أن(٦) جازت مَدَى الهرم
فهى لليوم الذى بُزِلت … وهى تِلْو(٧) الدَّهْر فى القِدَمِ

(١) وفيات الأعيان ٣-٤٣٨ . (٢) النكس : عود المرض .
(٣) ديوانه ٣٢٤ . (٤) فى الديوان : اختمرت . (٥) انصات : أجاب، وأقبل.
(٦) فى الديوان : بعد ما جازت . (٧) فى الديوان : ترب الدهر .

عُتِّقَتْ حتى لو اتصلت ... بلسانٍ ناطقٍ وفمِ
لاحْتَبَت فى القوم مائلةً ... ثم قصَّت قِصَّةَ الأُمَمِ
فَرَعَتْها بالمزاج يَدٌ ... خُلِقَت للكاس[1] والقلمِ

وقال الحمدونى :

طَيْلَسانٌ لابن حربٍ جاءنى ... خِلْعَةً فى يوم نَحْسٍ مستَمِرّْ
فإذا ما صِحْتُ فيه صَيْحَةً ... تركته كهشيم المحتضر
وإذا ما الريح هبَّتْ نحوهُ ... طيَّرَتْه كالجرادِ المنتشرْ
مُهْطِع[2] الدَّاعى إلى الرّافى إذا ... ما رآه قال : ذا شىءٌ نُكُر
وإذا رفَّاؤه حاول أن ... يتلافاه تَعَاطى فعقَرْ

وقال :

أيا طيلسانىَ أَعْيَيْتَ طبّى ... أَسلٌّ بجسْمِك أَم داءُ حبّ
ويا ريح صَيَّرْتنى أتقيك ... وقد كنتُ لا أتقى أن تَهُبّى
ومستخبر خَبَرَ الطيلسان ... فقلت له الروح من أمرِ ربّى

وقال فيه :

طَيْلَسانٌ لابن حربٍ جاءنى ... قد قَضَى التمزيقُ منه وَطَرَهْ
أنا من خوفٍ عليه أبداً ... سامِرىٌّ[3] ليس يَأْلو حَذَرَه
يا بْنَ حرب خُذْه أو فابْعَثْ بما ... نشترى عِجْلا بصفرٍ عشرَه
فلعل اللهَ يُحْيِيه لنا ... إن ضربناه ببَعْض البَقَرَهْ
فهو قد أَدرك نوحا ، فعسى ... عنده من عِلْم نوحٍ خَبَرَه
أبدا يَقْرَأُ مَن أَبْصَرَهُ ... أئذا كنّا عِظَاماً نَخِرَهْ

---

(١) فى الديوان : للسيف والقلم، وفرعتها : افتضتها . (٢) المهطع : الساكت المنطلق إلى من هتف به. (٣) السامرى : الذى عبد العجل ، كان عظيما من بنى إسرائيل .

وقال فيه[١] :

يابْنَ حربٍ أطَلْتَ فقْرِى[٢] برفْوِى ... طيلسانا قد كنتُ عنه غَنِيّا
فهو فى الرَّفْو آلُ فِرْعَوْن فى العَرْ ... ضِ على النار غُدْوةً وعَشِيَّا
زُرْتُ فيه معاشراً فازْدَرَوْنى ... فتغنَّيْتُ إذ رأونى زَرِيّا
جِئْتُ فى زِىٍّ سائلٍ كى أراكم ... وعلى الباب قد وَقَفْتُ مَلِيّا

وقال فيه[١] :

وهبتَ لنا ابنَ حربٍ طَيْلَسانا[٣] ... يَزِيدُ المرءَ ذا الضَّعَةِ اتِّضَاعَا
يُسلِّمُ صاحبى فيعيد شتمى ... لأنّ الروحَ يُكْسِبُه انصداعا[٤]
أُجِيل الطَّرْفَ فى طَرَفَيْهِ طُولاً ... وعَرْضا ما أرى إلّا رِقَاعَا
فلستُ أَشكّ أنْ قد كان قِدْماً ... لنُوحٍ فى سفينته شِرَاعا
فقد غَنَّيْتُ إذ أَبصرت منه ... جوانبه على بَدَنى[٥] تَدَاعَى
قِفِى قَبْلَ التفرُّقِ يا ضُبَاعَا ... ولا يَكُ مَوْقِفٌ مِنكِ الوَداعَا[٦]

[المأمون والحسن بن رجاء]

دخل المأمونُ بعضَ الدواوين فرأى غلاما جميلا على أُذنه قلم ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين الناشئُ فى دولتك ، المتقلِّبُ فى نعمتك ، المؤمّل لخدمتك ، خادِمك وابنُ خادِمك الحسنُ بن رجاء . فقال : أحسنت يا غلام ، وبالإحسانِ فى البديهة تفاضَلت العقُول . فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج : قال لى أبو العباس المبرّد : ما رأيتُ فى أصحاب السلطان مثل إسماعيل والحسن ؛ كنت إذا رأيته رأيت رجلا كأنما خُلق

---

(١) الوفيات : ٣ـ٤٣٧ . (٢) فى الوفيات : وترى . (٣) فى الوفيات : رأينا طيلسانك يابن حرب . (٤) رواية البيت فى الوفيات :

يسلم صاحبى فيقد شبرا ... به وأقد فى ردى ذراعا

(٥) فى الوفيات : بقاياه على كتفى . (٦) البيت للقطامى ، وضباعة : اسم امرأة .

لذِرْوَة مِنْبَر ، أو صَدْرِ مجلس ، يتكلّم وكأنه يتنفّس ، يُسْهِبُ ويُطْنِب ، ويُعْرِبُ ويُغْرِب ، ولا يعجَب ويعجِب .

أراد القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد ، والحسن ابن رجاء بن أبي الضحاك .

[المبرد والمتوكل]

وكان أبو العباس يُعَدّ في البلغاء ، وقال : لما دخلت على المتوكل اختار لي الفَتْحُ ابن خاقان وَقْتَ شُرْبه ، وكان الشراب قد أَخذ منه فسألني وقال : يابصرى ، أرأيت أحسنَ وجهاً منّي ، فقلت : لا والله ولا أَسْمَح راحة ، ثم تجاسرت فقلت :

جَهَرْتُ بحَلْفَةٍ لا أتَّقيها بشكٍّ في اليمين ولا ارتياب
بأنك أَحسنُ الخلفاء وَجْها وأَسْمَحُ راحتين ولا أُحَابى
وأنَّ مُطِيعك الأَعلى مَحَلاًّ ومَنْ عاصاك يَهْوى في تَبَاب (١)

فقال : أحسنت وأجملت في حُسن طبعك وبديهتك ، فقلت : ما ظننتُني أبلغُ هذا الشرف ، ولا أَنال هذه الرتبة ، فلا زال أميرُ المؤمنين يسمو بخدمه إلى أعْلى المراتب ، ويصرفهم في المذاهب .

[من أدب المبرد]

وكان ابنُ المعتزّ قد غضِبَ على بعض وكلائه ، فصار إلى أبي العباس المبرّد يسأله أن يكلّمه له ؛ فكتب إليه المبرّد : أَنْتَ والله كما قال مسلم بن الوليد في جدك الرشيد :

بأَبي وأُمي أَنتَ ما أنْدى يَدًا وأبرّ ميثاقاً وما أَزْكا كا
يَغْدُو عدوُّك خائفا فإذا رأَى أن قد قدرت على العِقَاب رَجَا كا

وهذا معنى كثير .

(١) التباب : الهلاك .

[استطراد فى المدح]

أنشد أحمد بن يحيى ثعلب الأعرابى(١) :

كريم يغض الطَّرْفَ فَضْل حَيَائِهِ ويَدْنو وأَطرافُ الرماحِ دَوَانِي
وكالسيفِ إن لا يَنْته لَانَ مَتْنهُ وحَدَّاه إِنْ خاشَنْتَهُ خَشِنَان

وهذا يناسب قول ابن المعتز فى بعض جهاته(٢) :

ويَجْرَحُ أحشائى بعَيْنٍ مريضةٍ كما لان مَتْنُ السيفِ والحدُّ قَاطِعُ

وقال الأخطل فى بنى مروان(٣) :

صُمٌّ عن الجَهْلِ ، عن قيل الخنا(٤) أُنُفٌ إذا أَلمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَرُوا
شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَاد لهم وأَعْظَمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا

وقال إبراهيم بن علىّ بن هرمة يمدح أبا جعفر المنصور :

كريمٌ له وَجْهَان : وجهٌ لدى الرضا طليقٌ ، ووَجْهٌ فى الكريهة باسِلُ
وليس بمُعْطِى الحقّ من غَيْرِ قُدْرَةٍ ويَعْفُو إذا ما أمْكَنَتْهُ المَقَاتِلُ
له لحظاتٌ من حِفافَىْ سريرهِ إذا كرَّها فيها عِقَابٌ ونَائِلُ
فأمّ(٥) الذى أمّنت آمنةُ الرّدى وأمّ الذى حاولت بالثُّكْلِ ثَاكِلُ

وقال الطائى فى أبى سعيد محمد بن يوسف(٦) :

هو السيلُ إن واجَهتَه انقدْتَ طَوْعَهُ وتقتادُهُ من جَانِبَيْهِ فيتبعُ

وكان عصابة الجرجانى ، واسمه إسماعيل بن محمد منقطعا إلى الحسن بن رجاء متصلا به ، وهو القائل فيه : رجع إلى الحسن بن رجاء

ومحجَّبٍ بالنور ليس بمدرَكٍ إلا بما تَأْتِى به الأَنْبَاءُ

---

(١) اللآلىء ـ ذيل: ٣٨ . (٢) ديوانه ١ ـ ٨٨ ، اللآلىء : ٥٢٠ .
(٣) الشعراء ٤٧٠ . (٤) فى الشعراء : حشد على الحق عيافو .
(٥) فى س ، ق : فأما . (٦) ديوانه ١٩٠ .

مَلِكٌ يُحِبُّ اللهَ فهو يُحِبُّهُ ... ويطيعه فتطيعه الأَشْيَاءُ
يمشى الهوينا للصلاة يُقِيمُها ... وإذا مشى للحَرْبِ فالخُيَلاَءُ
لله درّك أيما ابن عزيمةٍ ... يشوى الزمان ومَالَهُ إِشْوَاءُ

ثم عتب عليه فى بَعْضِ الأمر ، فهجاه هجاءً قبيحا ؛ فهرب إلى عمان ، ثم اعتذر إليه بقصيدته التى أولها :

لا تخضبنَّ عَوَالِيَ المُرّانِ ... إلا من العلق[(١)] النَّجِيع الآنِ[(٢)]

وهى أجود شعر قيل فى معناه ، وهى التى يقول فيها :

اقرَ السلام على الأمير وقل له ... إن المنادمةَ الرضاعُ الثّانِى
ما إِنْ أَتَى حشمى بأنّك سَاخِطٌ ... حتى استخفَّ بِمَوْضِعِى غِلْمَانِى
وغَدت علىّ مطاعمى ومَشَارِبى ... وملابسى من أَعْوَنِ الأَعْوَانِ

فكتب إليه الحسن :

أَبلغ أبا إسحاق أَنّ محلّهُ ... منى بحيث الرأسُ والعينانِ
لا تبعدنَّ بك الديارُ لنَزْغةٍ ... ولَتُبْعِدَنَّ نَوازِغَ الشيطانِ
فليفرخِ الرَّوْعُ[(٣)] الذى رُوِّعتَهُ ... إِن المحل محلُّ كلِّ أَمانِ

[جميل وعمر بن أبى ربيعة]

اجتمع جميل بن معمر العذرى بعُمَرَ بن أبى ربيعة المخزومى ، فأنشده جميل قصيدته التى أولها[(٤)] :

لَقَدْ فَرِحَ الوَاشُونَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِى ... بُثَيْنَةُ أو أَبْدَتْ لَنَا جانِبَ البُخْلِ
يَقُولُونَ مَهْلاً يا جميلُ وإِنَّنِى ... لأُقْسِمُ مَالِى عن بُثَيْنَةَ مِنْ مَهْلِ

---

(١) العلق : الدم . والنجيع من الدم : ما كان إلى السواد . (٢) فى ط : القانى ، وهذا من ق ، س : وأنى الحميم : انتهى حره فهو آن . (٣) الروع : الفزع .
(٤) ديوانه ٤٨ ؛ الأغانى ١ ــ ١١٤ .

خَلِيلَىَّ فيما عِشْتُما هَلْ رأيتُما   قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِى

نقله أبو العتاهية فقال :

يا مَنْ رأى قبلى قتيلا بكى   من شِدَّةِ الوَجْدِ على القاتلِ

فلما أتمّها قال لعمر : يا أبا الخطاب ، هل قلت فى هذا الروىّ شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشده (١) :

جرى ناصح بالود بينى وبينها   فقرضنى يوم الحِصَاب (٢) إلى قتلى

فما أنسَ م الأشياء لا أنْسَ قولَها   ومَوْقِفِها يوما بقارِعة النخل

فلما تواقفْنَا عرفتُ الذى بها   كمثل الذى بى حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ

فسلَّمْتُ واستأنستُ خِيفَةَ أَنْ يرَى   عدوٌّ مكانى أو يرى حاسد (٣) فِعْلِى

وأقبلَ أمثالُ الدُّمى يكتنفْنَها   وكلٌّ يُفَدِّى بالمودَّةِ والأَهْلِ

فقالت وأرْخَتْ جانب السِّتْرِ إنما   معى فتكلَّم غَيْرَ ذِى رِقْبَةٍ أهلى

فقلت لها : مابى لهم من ترقُّبٍ   ولـكنّ سرِّى ليس يحمِلُه مِثْلِى

فاستخذى جميل وصاح : هذا والله الذى طلبَت الشعراء فأخطأته ، فتعلّلوا بوصف الديار ، ونعت الأطلال .

ولما مات عمر بن أبى ربيعة نُعى لامرأة من مولّدات مكة وكانت بالشام فبكت وقالت : مَنْ لأَباطح مكة ، ومن يَمْدحُ نساءَها ، ويصفُ محاسنهن ، ويحكى طاعتهن ! فقيل لها : قد نشأ فتًى من ولد عثمان بن عفان على طريقته، فقالت: أنشدونى له فأنشدوها (٤) : خليفة ابن أبى ربيعة

وقد أرسلت فى السر لَيْلَى (٥) بأَنْ أَقِمْ   ولا تَقْرَبنَّا فالتجنُّبُ أَجْمَلُ

---

(١) ديوانه : ٢٨٠ ، الأغانى ١–١١٥ ، اللآلئ : ٧٠٩ . (٢) الحصاب : موضع رمى الجمار ، وفى ط : الخضاب ، وفى ق : يوم الخطاب (٣) فى الديوان والأغانى : كاشح.
(٤) هذه الأبيات — ماعدا الأخير — فى ديوان عمر بن أبى ربيعة صفحة ٨٠ ، ورويت فى أمالى الزجاجى للعرجى . (٥) فى ط : ليلا ، وفى أمالى الزجاجى : لقد أرسلت ليلى رسولا بأن أقم .

لعلّ العيونَ الرامقات لِوَصْلنا ... تكذب عنّا أو تنامُ فتغفل
أناسٌ أمنّاهم فبثُّوا حَديثنا ... فلما كَتَمْنَا السرَّ (١) عنهم تقوَّلُوا
فما حفظوا العَهْدَ الذى كان بيننا ... ولا حين هَمُّوا بالقطيعة أَجْمَلُوا

فتسلت وقالت : هذا أجلُّ عوض ، وأفضل خَلَف ، فالحمدُ لله الذى خلف على حرمه وأُمته مثل هذا .

وقال عروة بن أذينة : أنشدت ابن أبى عتيق للعرْجى :

فما ليلةٌ عندى وإنْ قِيل لَيلةٌ ... ولا ليلة الأَضْحَى ولا ليلة الفِطْرِ
بعادلةِ الإثنين عندى وبالحرَى ... يكونُ سواء مثلها ليلةُ القَدْرِ
وماأَنْسَ مِ الْأَشياءِ لاأنس قولَها ... لجارتها قُومِى سَلِى لى عن الوِتْرِ
فجاءت تقولُ الناس فى ست عشرةٍ ... ولا تَعْجَلِى عنه فإنك فى أجْرِ

فقال ابن أبى عتيق : هذه أفقه من ابن أبى شهاب ؛ أُشهِدكم أنّها حُرَّة من مالى إن أجاز أهلُها ذلك .

العرجى

والعَرْجى هو عبد الله بن عمرَ بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان ينزل بعَرْج الطائف (٢) فنُسِب إليه ، وهو القائل :

هل فى ادِّكَارِى الحبيبَ مِنْ حَرَجِ ... أمْ هل لِهَمِّ الفؤادِ من فَرَجِ
أمْ كيف أنْسَى مسيرنا حرما ... يَوْم حَلَلْنَا بالنَّخْلِ مِنْ أمَجِ (٣)
يوم يقولُ الرسولُ قد أذنت ... فأْتِ على غير رِقْبةٍ فَلِجِ (٤)
أقبلْتُ أهْوِى إلى رِحالِهِمُ ... أُهْدَى إليها بريحها الأَرِجِ

وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم واليا على مكة ، وهو خال

---

(١) فى ديوانه : السير . (٢) قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف .
(٣) قرية كثيرة المزارع والنخل ، وأهل أمج : خزاعة ـ معجم ماستعجم ١٩٠ .
(٤) من ولج .

هشام بن عبد الملك بلغه أنّ العرجىّ هجاه ، فضربه ضربا مبرحا ، وأقامه على أعين الناس ، فجعل يقول [١] :

سيغضب لى الخليفة بعد رقّى ويَسْأل أهل مكة [٢] عن مساق
علىّ عباءةٌ بَرْقاء [٣] ليست من البَلْوَى تجاوزُ نِصْفَ سَاقِ
وتَغْضَب لى بأسرتها [٤] قُصَىٌّ ولاةُ الشعبِ والطُّرق العماق [٥]

فحلف محمد بن هشام ألا يخرجه ما دامت له ولاية ؛ فأقام فى السجن سبع سنين حتى مات ، وهو القائل فى سجنه [٦] :

أضاعونى وأىّ فتًى أضاعوا ليوم كريهة وسِدَادِ ثَغْرِ
وخَلَّوْنِى [٧] ومعترك المنايا وقد شُرِعت أسنّتهم لنَحْرِى
كأنى لم أكن فيهم وَسِيطاً ولم تك نسبتى فى آلِ عَمْرو
أجرَّرُ فى الجَوامع [٨] كلَّ يوم ألاَ لله مَظْلِمَتى وهَصْرى
عسى الملِكُ المجيبُ لمن دعاهُ سيُنْجِينى فيعلم كَيْفَ شُكْرِى
فأَجْزِى بالكرامة أهْلَ وُدِّى وأجْزِى بالضغائن أهْلَ ضُرِّى

جملة من الفصول القصار لابن المعتز

البشر دالٌ على السخاء كما يدلّ النَّوْر على الثمر . إذا اضطررت إلى الكذّاب فلا تصدّقه ولا تُعْلِمْه أنك تكذّبُه ، فينتقل عن وُدِّه ، ولا ينتقل عن طَبْعِه . كما أن الشمس لا يَخْفَى ضوءها وإن كانت تحت السحاب ، كذلك الصبىُّ لا تخفى غريزة عَقْلِه وإن كان مغموراً بأَخْلَاقِ الحداثة . كَرَمُ الله عزّ وجل لا يَنْقُضُ حِكمته ولذلك

(١) معاهد التنصيص ٣—١٧٨ ، الأغانى ١١—٤١١ . (٢) رواية المعاهد :
سينصرنا الخليفة بعد ربى ويغضب حين يخبر ...
(٣) فى المعاهد : بلقاء. (٤) فى المعاهد : بأجمعها. (٥) فى المعاهد: قطين البيت والدمث الرقاق
(٦) الأغانى ١—٤١٣ . (٧) فى الأغانى : وصبر عند .
(٨) الأغانى : وصبرى والجوامع : مفردها جامعة وهى الغل .

لا يجعل الإجابة في كل دعوة . كما أنّ جلاءَ السيف أهْوَنُ من صُنْعه ، كذلك استصلاح الصديق أهونُ من اكتساب غَيْرِه . إذا استرجع اللهُ مواهبَ الدنيا كانت مواهب الآخرة . لولا ظلمةُ الخطإ ما أشرق نورُ الصواب . الحوادث المِمضَّة مُكْسِبةٌ لحظوظ جزيلة ، من صوابٍ مدَّخر ، وتطهيرٍ من ذَنْب ، و تَنْبيهٍ من غَفْلة ، وتعريفٍ بقَدْرِ النعمة ، ومُرُون على مُقَارَعَةِ الدهر .

ومثل هـذا الفصل محفوظ عن ذى الرياستين ، قاله بعقب عِلَّةٍ فأغار عليه ابن المعتز .

وكتب إلى أحمد بن محمد جوابا عن كتاب استزاده فيه : قَيِّدْ نِعْمَتى عندك بما كنت استَدْعيتها به ، وذُبَّ عنها أَسْبَابَ سوءِ الظن ، وَاسْتَدِمْ ما تُحِبُّ منى بما أُحِبُّ منك .

وكتب إليه : واللهِ لاقَابَلَ إحسانك منى كفرٌ ، ولا تَبِعَ إحسانى إليك مَنٌّ ، ولك عندى يدٌ لا أَقبِضُها عن نفعك ، وأُخْرَى لا أَبْسطُها إلى ظُلْمِك ، فتجنَّبْ ما يُسْخِطنى ؛ فإنى أَصون وجهك عن ذُلّ الاعتذار .

وكان أحمدُ بن سعيد يؤدّبه فتحمل البلاذرى على قبيحة أم ابن المعتز بقومٍ سألوا أن تأذن له أن يدخلَ إلى ابن المعتز وقتاً من النهار ، فأجابت أو كادَتْ تجيب، قال ابنُ سعيد : فلما اتصل الخبرُ بى جلستُ فى منزلى غَضْبَانَ لما بلغنى عنها فكتب إلىَّ ابنُ المعتز وله ثلاث عشرة سنة :

أَصبحتَ يابن سعيد خِدْنَ مَكْرُمَةٍ ... عنها[1] يقصّر مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ
سَرْبَلْتنى حِكْمةً قد هذّبت شِيَمِى ... وأَجَّجَتْ نارَ ذِهْنِى فهى تَشْتَعِلُ
أَكونُ إنْ شِئْتَ قُسًّا فى خَطَابَتِه ... أو حارثا وهو يوم الحَفْلِ مُرْتَجِلُ
وإنْ أَشَأْ فِكْرَ زَيْدٍ فى فرائضه ... أو مِثْلَ نعمانَ لما ضَاقَتِ الحِيَلُ

---

(١) فى ط : عما .

أو الخليل عَرُوضيّا أخَا فِطَنٍ ... أو الكِسَائِىّ نَحْوِيًّا لَهُ عِلَلُ
تَعْلو بَدَاهةُ ذِهْنِى فى مراكبها ... كمِثْلِ ما عَرَفَتْ آبائِىَ الأوَلُ
وفى فمى صارِمٌ ما سَلَّهُ أحدٌ ... من غِمْدِه فدرى ما العيشُ والجَذَلُ
عُقباك شُكْرٌ طويل لا نَفادَ لهُ ... يَبْقَى بجِدَّتِه ما أطَّتِ (١) الإبِلُ

وقسّ الذى ذكر هو قسّ بن ساعدة الإيادى ، وقد سَمِع النبى صلى الله عليه وسلم شِعْرَه ، وعجب منه .

وحارث هو الحارث بن حِلِّزة اليشكرى ، وصف ارتحاله يوم فَخْرِه بقصيدته التى أنشدها بحضرة عمرو بن هند التى أولها (٢) :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِها أسْماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ

وزيد هو زيد بن ثابت الأنصارى ، وإليه انتهى علم الفرائض . ونعمان هو أبو حنيفة النعمان رضى الله عنه ابن ثابت ، وسبق أهْلَ العراق فى الفِقْه . والخليل بن أحمد الفُرْهُودى ، ويقال الفَرَاهِيدى ، منسوب إلى حىّ من الأزد اليحمرى . والكسائى على بن حمزة الكوفى .

[لابن العميد إلى بعض إخوانه]

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض إخوانه : أنا أشكُو إليك — جعلنى فِدَاكَ — دهراً خؤوناً غَدُوراً ، وزماناً خَدُوعا غروراً ، لا يَمنحُ ما يمنح إلا ريْثَ ما ينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا رَيْث مايَرْتَجع ، يبدو خَيْرُه لمعا ثم ينقطع ، ويَحْلو ماؤه جُرعا ثم يَمْتَنِعْ . وكانت منه شيمَةٌ مألوفة وسجيَّةٌ معروفة أن يشفع ما يُبرِمُه بقُرْبِ انتقاض ، ويُهْدِى لما يبسطه وَشْكَ انقباض ، وكنا نَلْبَسُه على ما شرط ، وإن خان وقَسَط (٣) ؛ ونَرْضَى على الرغم بحكمه ، ونَسْتَنِمّ بقَصْدِه وظلمه ، ونعتدّ

(١) أطت الإبل : أنت تعبا أو حنينا . (٢) المعلقات : ٢٥١ . (٣) قسط : جار وعدل.

من أسباب المسرة ألاَّ يجيء محذورُه مصمتا بلا انفِرَاج ، ولا يَأْتِي مكروهُه صِرْفا بلا مِزَاج ، ونتعلّل بما نختلِسه من غَفَلَاته ، ونستَرِقُهُ من ساعاته . وقد استحدث غيرَ ما عرفناه سُنّةً مبتدعة ، وشريعةً متَّبَعة ، وأَعدَّ لكل صالحةٍ من الفساد حالا ، وقَرَن بكلّ خَلَّة (١) من المكروه خِلَالا . وبيان ذلك ـ جعلنى الله فِدَاكَ ـ أنه كان يَقْنَعُ من معارضته الإلفين، بتفريق ذات البَيْن؛ فقد أثنى مَمْنُوًّا (٢) فيك بجميع ما أُوْغِرَه ، وما أطْوِيه من البَلْوَى منك أَكْثَرُ مما أَنشُرُه ؛ وأَحسبنى قد ظَلَمْتُ الدهرَ بسوء الثناء عليه، وأَلزمته جرما لم يكن قدره بما يحيط به ، وقدرته ترْتَقِى إليه، ولو أنك أَعَنْتَه وظَاهَرْتَه ، وقصدت صرفه وآزَرْتَه، وبِعْتَنى بيع الخلق وليس فيمن زَادَ ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عنى إعراضَ غير مراجع ، واطَّرحتنى اطراحَ غير مُجَامل؛ فهلاَّ وجدت نفسك أهلا للجميل حين لم تَجِدْنى هناك ، وأَنفذْتَ من جلّ ما عقدت من غيرجريمة، ونكثت ما عهدت من غير جريرة، فأَجِبْنِى عن واحدة منهما ؛ ما هذا التَّغالِى بنفسك ، والتَّعالى على صديقك ؟ ولِمَ نَبذْتَنى نَبْذَ النَّواة ، وطرَحْتَنى طَرْح القَذَاة ؟ ولم تَلفِظنى من فِيك ، وتمجُّنى من حَلْقك ؟ وأنا الحلال الحُلوُ، والبارد العَذْب ، وكيف لا تُخْطرنى ببالك خَطْرة ، وتُصيِّرنى من أشغالك مرة ؛ فترسل سلاما إن لم تتجشّم مُكَاتبة ، وتذكُرنى فيمَنْ تَذْكُر إن لم تكن مخاطبة ؟ وأحسب كتابى سيَرِدُ عليك فتنكره حتى تتثبّت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكّر ؛ فقد صرت عندك ممن مَحَا النسيانُ صورتَه من صدرك، واسمَه من صحيفةِ حِفْظِك ، ولعلك أيضاً تتعجَّب من طمعى فيك وقد تولّيت ، واستمالتى لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد يتفجّر الصَّخْرُ بالماء الزلال ، ويَلين مَنْ هو أقسى منك قلبا فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أَنّ ودّى وقْفٌ عليك ، وحَبْسٌ فى سبيلك ، ومتى عدت إليه وجدته غضًّا طريّا ، فجرِّبْه فى المعاودة فإنّه فى العود أَحْمَد .

---

(١) الخلة : الخصلة . (٢) مناه يمنوه : ابتلاه .

اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار .

استطراد فى النقد

حلّ قوله « فقد يتفجر الصخْرُ بالماء الزلال » من قول ابن الرومى:

يا شبيه البدر فى الحسـ ـن وفى بُعْد المَنَالِ
جُد فقد تنفجر الصَّخْـ ـرة بالماء الزُّلالِ

وفى هذه الرسالة فى ذكر فتح وان لم يستبق منه المعنى : وقد خصنا اللهُ تعالى معاشر عبدالأمير عضدالدولة بنعمة يَعْلُومراتبَ النعم مَوْقِعُها ، ويفوتُ مقدارالمواهب موضعها ، فباسْمِه ـ أبقاه الله ـ فُتح الفَتْح، وبشعاره استُنزل النّجْح ، وبيُمْن نَقيبته فُرج الكَرْب ، وبسعادة جدّه كُشِف الخَطْب ، وباهتزازه للدولة وحمايته عاد إليها ماؤها ، وراجعها بهاؤُها ، فعزَّ الملك ونُصر ، وذلّ العدو وقُهر ، وحُميت أطرافُ الدولة ، وحُفِظت أكنافُ الملّةِ ، واستجدّ نظام النعمة ، وسُدِلَتْ ستورُ الصيانة دون الحرمة ، ولو جعل المولى ـ تقدّس اسمه ـ لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاءً غَيْرَ الإخلاص فى شكره ، وقَبِل مافى مقابلة المَوْهِبة التى يستجدها عند خَلْقِه غَيْرَ الإغراق فى حَمْده ، لرأيت ألاَّ أقتصر فى قضاء حقه على بعض الملك دون بعض ، ولجعلت فى صَدْرِ ما أبذل عن هذه النعمة الأعزَّيْن : الأهل والولد ، والأنْصَرين : الساعد والعَضُد ، بل العميدين : القلب والكبد ؛ بل النفس كلها ، والمُهْجة بأسرها .

[عتاب]

وقال سعيد بن حميد يعاتِبُ بعض إخوانه :

أَقلِلْ عتابك فالبقاء قليلُ والدَّهرُ يعدِل تارةً ويميلُ
لم أَبْكِ من زمن ذَمَمْتُ صُروفهُ إلاَّ بكَيتُ عليه حين يَزُولُ
ولِكُلّ نائبةٍ ألمّت مُدّةٌ ولكل حالٍ أَقْبلَتْ تَحْوِيلُ
والمنتمون إلى الإخاء جماعةٌ إنْ حَصَّلوا أفناهم التحصيل

ولعل أَحداثَ المنيَّةِ والرَّدَى ... يوماً ستَصْدَعُ بيننا وتَحول
فلئن سَبقْتُ لتبكينّ بحسرةٍ ... وليكثرنّ علىّ منك عَوِيل
ولتُفْجَعَنَّ بمُخْلِصٍ لك وامقٍ (١) ... حَبْلُ الوفاء بحَبْلِه موصول
ولئن سبقْتَ ـ ولا سبقت ـ ليمضيَنْ ... من لا يُشَاكِلُه لدىَّ خليل
وليذهبنَّ بهاءُ كلّ مروءةٍ ... وليُفْقَدن جمالُها المَـأْهول
وأراكَ تـكْلَفُ بالعتاب ووُدُّنا ... صافٍ عليه من الوفاء دليل
ودٌّ بدا لذَوِى الإخاء جمالُهُ ... وبدت عليه بَهْجَةٌ وقَبول
ولعل أيامَ الحياة قليلةٌ ... فعَلَامَ يكثر عَتْبُنَا ويَطُولُ

وقال أيضاً :

لقد ساءنى أَنْ ليس لى عنك مَذْهَب ... ولا لك عن سوء الخليقة مَرْغَبُ
أفكر فى ودٍّ تقادم بيننا ... وفى دونه قُرْبَى لمن يتقرَّبُ
وأنت سقيمُ الودِّ رثٌّ حِبالهُ ... وخيرٌ من الودِّ السقيمِ التجنّبُ
تُسِىءُ وتَأْبَى أَنْ تعقِّب بَعْدهُ ... بحُسْنَى وتَلْقانى كأنىَ مُذْنِب
وأَحْذَرُ إنْ جازيت بالسوء والقِلَى ... مقالةَ أقوامٍ هُمُ منك أَنْجَبُ
أَساء اختياراً أَو عَرَتْه ملالةٌ ... فعاد يُسىءُ الظنَّ أَو يتعتَّبُ
نخِـبْتُ من الودِّ الذى كان بيننا ... كما خاب رَاجِى البرق والبَرْقُ خُلَّبُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إلى كم يكونُ الصَّدُّ فى كل ساعةٍ ... ولمْ لا تملَّنَّ القطيعةَ والهَجْرَا
رويدك ! إنّ الدهرَ فيه بقيَّـةٌ ... لتفريقِ ذاتِ البين فانتظر الدَّهْرَا

آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنِّباً ... أنّ الصدُودَ هو الفِرَاقُ الأَوَّلُ

---

(١) الوامق : المحب .

حَسْبُ الأَحِبَّة أن يفرِّقَ بينهم صَرْفُ الزمان فما لنا نَسْتَعْجِلُ

آخر :

ذَرِ النفسَ تأخذ وسعها قبل بَيْنِها فمفترق جارَانِ دارهما العمرُ

ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضاً (١) :

زَوِّدِينَا من وجهكِ مادَا مَ فحُسْنُ الوجوهِ حالٌ يَحُولُ
وَصِلِينَا نَصِلْكِ فى هذهِ الدُّنْ يَا فإنَّ المُقامَ فيها قَلِيلُ

[من كلام الأعراب]

وقف أعرابىٌّ يسألُ فعَبِث به فتى ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بنى عامر بن صعصعة ، فقال : من أيِّهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا القدار من المعرفة ، فليس مقامى بمقام مُجادَلة ولا مفاخرة ، وأنا أقولُ: فإن لم أكن من هاماتهم فلستُ من أعجازهم . فقال الفتى : ما رويتَ عن فضيلتك إلاّ النقص فى حسبك .

فامتعض الأعرابى لذلك ؛ فجعل الفتى يَعْتذِر ، ويخلط الهَزْل والدعابة باعتذاره ، وأطَال الكلام ، فقال له الأعرابى : ياهذا ، إنك منذ اليوم آذيتنى بمَزْحِك، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف عن جَهْلِك بكلامك ما كان السكوت يَسْتُره من أمرك ، وَيْحك ! إنّ الجاهل إن مَزَح أسْخَط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدّثَ أسقط ، وإن قَدَر تسلّط ، وإنْ عزم على أمرٍ تورَّط ، وإن جلس مجلس الوقار تبسَّط ؛ أعوذُ منك ومن حالٍ اضطرتنى إلى احتمالِ مثلك !

وقال إسحق الموصلى : قال أعرابى لرجل كان يعتمده بالعطية : أسأل الذى رحمنى بك أن يرحمك بى .

(١) ديوانه ٣-١٤٩ .

وسأل أعرابى رجلا فأعطاه فقال : الحمد لله الذى ساقنى إلى الرزق وساقك إلى الأجر .

[من المقامات]

المقامة البلخية

ومن إنشاء البديع من مقامات الإسكندرى [١] :

قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : أفضت [٢] بى إلى بَلْخ تجارة البزّ ، فوردتها وأنا بفَرْوَةِ [٣] الشباب ، وبَالِ الفراغ ، وحِلْية الثروة ، ولا يهمُّنى إلا نزهة [٤] فكر أستفيدها ، أو شَرِيدة من الكلام أصيدها ؛ فما استأذن على سَمْعِى مسافةَ مُقامى أفصحُ من كلامى. ولمَّا حتى التفرقُ بنا قَوْسَه أو كاد ، دخل إلى شابٌّ فى زى مِلْء العَيْن، ولحية تَشوكُ الأَخْدَعَيْنِ ، وطَرْفٍ قد شرب بماء الرَّافدين ، ولَقِيَنى من البِرِّ فى السناء، بما زِدْتُه من الشكر والثناء ؛ وقال : أظَعْناً تُرِيد ؟ قلت : إى والله ، فقال: أخصَبَ الله رَائِدَكَ ، ولا أضلّ قائِدكَ ، فمتى عزَمْتَ ؟ فقلت : غداةَ غد ، فقال :

صباحُ اللهِ لا صُبْحُ انطلاقِ وطَيْرُ الوَصْلِ لا طَيْرُ الفِرَاقِ

قال : أين تريد ؟ قلت : الوطن ، قال : بلغتَ الوَطن، وقضَيْتَ الوَطَر ، فمتى العَوْد ؟ قلت : القابل ، قال : طويت الرَّيْط [٥] ، وثَنَيْتَ الخيط ، فأين أنتَ من الكرم ؟ قلت : بحيث أردت ، قال : إذا رجعك الله من هذه الطريق ، فاستَصْحِب لى عدُوًّا فى بُرْدَةِ صديق من تُجَار الصُّفْر ، يدعو إلى الكُفْر ، ويرقُص على الظُّفْر ، كدَارِة [٦] العين ، يحطُّ ثِقَلَ الدّين ، وينافِقُ بوَجْهين ! فعلمت أنه يلتمس دينارا، قلت : لك ذلك نقدا ، ومثله وَعْدا ، فأنشأ يقول :

رَأْيُك مِمّا خَطَبْتُ أعلى لا زلتَ للمَكْرُمات أهْلا

(١) المقامات : ١٨ ، وهى المقامة البلخية . (٢) فى المقامات : نهضت .

(٣) فى المقامات : بعذرة . (٤) فى المقامات : مهرة فكر أستقيدها .

(٥) الريطة : الملاءة ذات لفقين ، أوكل ثوب لين رقيق، وجمعه ريط . والمراد طويت أيام البعد

(٦) مستدير مثلها .

صَلُبْتَ عُوداً ودمت[1] جُوداً وفقت فرعاً وطِبْتَ أصلا
لا أستطيع[2] العَطاء حَمْلا ولا أطِيق السؤال ثِقْلَا
قصُرْتُ عَنْ مُنْتَهاك ظَنّا وطُلْتُ عما ظَنَنْتَ فِعْلَا
يا رحمة الله[3] والمَعالى لا لَقِىَ الدَّهْرُ منك ثُكْلَا

قال عيسى بن هشام : فنلْتُه الدينار . وقلت : من أين نبت هذا الفَضْل ؟ قال : نمتنى قريش ، ومُهِد لى[4] الشرفُ فى بَطْحائها . فقال : بعض من حضر : ألَسْت أبا الفتح السكندرى ؟ ألم أرك بالعِراق ، تطوفُ بالأسواق ، مُكدِيا بالأوراق ؟ فأنشأ يقول :

إنَّ لله عبيـدا أَخذوا العُمْرَ خَلِيطا
فهمُ[5] يُمْسُون أعرا با ويُضْحُون نَبيطا[6]

وله إلى أبى نصر الميكالى يشكو إليه خليفته بهَراة[7] : من البديع إلى الميكالى

كتابى أطال اللهُ بقاءَ الشيخ الجليل ، والماءُ إذا طال مُكْثُه ظَهَرَ خُبْثه ، وإذا سكن مَتْنُه ، تحرَّكَ نَتْنُه ، كذلك الضيفُ يَسْمُج لقاؤه إذا طال ثَوَاؤه ، ويثقل ظِلّه إذا انتهى مَحَلّه ؛ وقد حلَبْت أَشطر خمسة أَشْهر بهَرَاة وإن لم تكن دار مثلى لولا مُقامهُ ، وما كانت تسعنى لولا ذِمامُه[8] ، ولى فى بيتى قيس[9] مَثَلُ صدق ، وإن صدرا مَصْدَر عِشْق :

وأَدْنيتنى حتى إذا ما سبَيْتنى[10] بقولٍ يُحِلّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطِحِ
تجافَيْتِ عنى حيث لا لِىَ حِيلةٌ وخَلَّفْتَ ما خلّفْتَ بين الجوانحِ

---

(١) فى ط : وفقتجوادا، وطبت . (٢) فى ا : أتستطيع .
(٣) فى المقامات : يا رجة الدهر ، والرجة : السناد. (٤) فى ا : بى .
(٥) فى ا : صحبة . (٦) النبيط : جماعة من العجم . (٧) الرسائل : ١٥٥ .
(٨) الذمام : العهد ، وفى الرسائل : إمامه . (٩) هو قيس بن الملوح الذى يعرف بالمجنون ، وفى الرسائل : ولى فى ثنتين مثل صدق . (١٠) فى ا : ما استبيتنى .

نعم ، قَنصَتْنى [1] نِعَمُ الشيخ الجليل،فلما عَلِق الجناح، وقَلِق البَراح ، طرت مطارَ الريح ، بل مطار الرّوح ، وتركتنى بين قوم ينقض مَسُّهم الطهارة ، وتُوهِن أكفُّهم الحجارة ، وحُدّثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال: قضيت لفلان خمسين حاجةً منذ ورد هذا البلد ، وليس يَقْنع ، فما أصنع ؟ فقلت : يا أحمق ؛ إن استطعت أن ترانى محتاجاً ، فاستطع أن أراك محتاجاً إليك ، أفّ لقولك ولفعلك ، ولدهر أَحْوَج إلى مثلك ! وأنا أسأل الشيخ الجليـل أن يبيِّضَ وجهى بكتاب يُسَوِّد وجهه ، ويعرّفه قَدْره ، ويملأ رعباً صدره ، إلى أن تَبين على صفحات جَنْبِه آثارُ ذنبه .

وله إليه [2] يعاتبه :

كتاب له فى العتاب

قد عرف الشيخ الجليل اتّسامى بعبوديّته ، ولو عرفت وراءَ العبوديّة مكاناً لبلغته معه ، وأرانى كلما قدمت [3] صُحْبة ، رجعت رُتْبة ، وكلما طالت خِدْمة ، قصُرت حِشمة ، ولست ممن يذهب عليه أن للسلطان أَنْ يرفع عَبْداً حبشيا ، ويَضَع قُرَشِيّا ، ولـكن أحب أن أَقف من مكانى على رُتْبةٍ كوكبُها لايغور ، ومنزلةٍ لَوْلَبُها لايَدُور ؛ فإذا عرفت قَدْرى [4] وخطه ، لم أتخطَّه ، ثم إن رأيت محلّى وحدّه ، لم أتعدّه ، إن قدَّمنى يوماً عليها علمت أن عنايةً قدمتنى ، وإن أَخّرنى عنهـا علمت أنّ جنايةً أخرتنى . رُفع علىّ اليوم فلان ولستُ أُنـكِر سِنّه وفَضْلَه ، ولا أَجْحد بيته وأصله ، ولـكن لم تَجْرِ العادة بتقدّمه لا فى الأيام الخالية ولا فى هـذه الأيام العالية ؛ وشديدٌ على الإنسان ما لم يُعوّد ؛ فإن كان حاسدٌ قد همّ أو كاشِح قد نَمّ أو خَطْبٌ قد ألمّ أو أمرٌ قد وقع وتَمّ فالشيخُ الجليلُ أَولى من يعرفه ويعرّفنيه ، وإلا فما الرأى الذى أَوْجَب اصطناعى ثم ضياعى ، والسبب الذى اقتضى بَيْعِى بعد ابتياعى ؟

---

(١) فى ا : قبصتنى . (٢) فى الرسائل ٢٠٨ : وله إلى الوزير أبى نصر بن أبى بريدة .

(٣) فى الرسائل : فكلما أبعدت صحبة (٤) فى ا : مكانى وخطه .

[المأمون وإبراهيم بن المهدى]

ولما رضى المأمون عن إبراهيم بن المهدى أمر به فأُدْخِل عليه[(١)] ، فلما وقف بين يديه قال : وَلِىُّ الثأر محكَّم فى القصاص ، ومَنْ تناوَله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الرجاء أَمِن عادية[(٢)] الدهر من نفسه ، وقد جعلك اللهُ تعالى فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كلَّ ذى ذَنْب دونك ، فإن أخذتَ فبحقّك ، وإن عفوت فبفضلك . ثم قال :

ذَنْبى إليك عظيمٌ ... وأَنْتَ أعظم منهُ
فخُذْ بحقِّك أوْ لا ... فاصْفَحْ بفَضْلِك عنهُ
إن لم أكن فى فعالى ... مِنَ الكرام فكُنْهُ

فقال لى : إنى شاورتُ أبا إسحاق والعباس فى قَتْلك فأشارا به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال: قلت لهما : بدأناه[(٣)] بإحسان ، ونحن نَسْتأْمِره[(٤)] فيه ، فإن غيَّر فالله يغيّر ما به ، قال : إما أن يكونا قد نصحا فى عظيم ما جرَتْ عليه السياسة فقد فعلا وبَلغا ما يبلغك ، وهو[(٥)] الرأْىُ السديد ، ولكنك أبيت ألاَّ تستجلب[(٦)] النصر إلاَّ من حيث عوَّدك الله . ثم استَعْبَر باكياً ، فقال له المأمون : ما يبكيك ؟ قال : جذَلا ! إذ كان ذَنْبى إلى مَنْ هذه صفته فى الإنعام ، ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمى استحلال دمى ، فعِلْمُ أمير المؤمنين وفَضْلُه بلّغانى[(٧)] عفوه ، ولى بعدها شفاعة الإقرار بالذنب ، وحقُّ الأبوة بعد الأب . فقال : يا إبراهيم ، لقد حُبِّب إلىّ العفو حتى خِفْتُ ألاَّ أُوجَر عليه ، أما لو علم الناسُ مالنا فى العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنايات ، لا تَثْريبَ عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن فى حق نَسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلَّغك ما أَملت حسن تنصّلك ولطف توصلك . ثم أمر بردّ ضياعه وأمواله . فقال :

---

(١) اللآلئ: ٤٧٧ . (٢) فى ط : أمن من دعابة الدهر، وهذه من ا .
(٣) فى ا : بدأت له . (٤) فى ا : نثمره . (٥) فى ا : ما يبلغه ذو الرأى .
(٦) فى ا : أن تستجلب . (٧) فى ا : يبلغانى .

رددت مالى ولم تَبْخَل علىّ به ... وقبل رَدِّك مالى قد حَقَنْتَ دمى
وقام علمك بى فاحتج عندك لى ... مقام شاهدِ عدل غَيْرِ متَّهَمِ
فلو بذلتُ دمى أَبغى رضاكَ به ... والمالَ حتى أسلَّ النَّعْلَ عن قَدمى
ما كان ذاك سِوَى عارية سَلَفَتْ ... لو لم تهبها لـكنت اليـوم لم تُلَمِ

الطائى يأخذ قول المأمون

أخذ معنى قول المأمون : « لقد حُبِّب إلىّ العفو حتى خفت ألّا أُوجر عليـه » أبو تمام الطائى ، فقال[١] :

لو يعلمُ العافون كم لكَ فى الندى ... من لذة[٢] وقريحـةٍ لم تَحْمُدِ

فـكان أبو تمام فى هذا كما قال أبو العباس بن المعتز فى القاسم بن عبيد الله :

إذا ما مدحناه استعنَّا بفِعْله ... فنأخذ معنى قَوْلِنا مِنْ فعالِهِ

وكان تصويبُ إبراهيم لرأى أبى إسحاق المعتصم والعباس بن المأمون أَلطفَ فى طلب الرضا ودَفْع المـكروه واستمالتهما إلى العاطفة عليه من الإزراء عليهما فى رأيهما، وكان إبراهيم يقول : والله ما عفا عنى لرَحم ٍ ولا لمحبَّةٍ ، ولـكن قامت له سوقٌ فى العفو كَرِه أن يفسدها [بى][٣] .

وكان المأمون شاور ــ فى قتل إبراهيم ــ أحمدَ بن أبى خالد الأحول فقال : إن قتلتَه فلك نظير ، وإن عفوتَ عنه فلا نَظِيرَ لك ؛ فأَخْتار لك[٤] العفو .

وقال المأمون لإسحق بن العباس : لا تحسبنى أغفلت أَمْرَ ابن المهدى وتأييدك له وإيقادَك لِناره .

قال : والله يا أمير المؤمنين لَإجرامُ قريش إلى رسولِ الله صلى الله عليـه وسلم أَعْظَمُ من جُرْمى إليك، ولرَحِمى أمسّ بك من أرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسفُ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام لإخْوَته : لا تَثْريب عليكم اليـومَ يَغْفِرُ اللهُ لـكم

---

(١) ديوانه ١١٣ . (٢) فى الديوان : من فرحة .

(٣) من ا . (٤) فى ا : فاختار العفو .

وهو أَرْحَم الراحمين . وأنْت يا أمير المؤمنين أحَقُّ وارِثٍ لهذه الأمة فى الطَّوْل ، وممتثل لخلال العَفْو والفَضْل .

قال: هيهات! تلك أجرامٌ جاهلية عَفاَ عنها الإسلام ، وجُرْمُك جُرْمٌ فى إسلامك، وفى دارِ خلافتك .

قال: يا أمير المؤمنين؛ فوالله للمسلم أحقّ بإقالة العَثْرَة وغُفْرَان الذنب من الكافر. وهذا كتابُ الله بينى وبينك إذ يقول: وسارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ من ربكم وجَنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرْضُ أُعِدَّتْ للمتقين . الذين يُنْفِقُون فى السراء والضَّرَّاء والكاظِمِين الغَيْظ والعافِين عَنِ الناس والله يحب المحسنين . والناس يا أميرَ المؤمنين نسبةٌ دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف . قال : صدقت ، وَرِيَتْ بك زنادى ؛ ولا بَرِحْت أَرى من أَهلك أمثالك .

وقال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه : أسألك بالذى أَنت بين يديه غَداً أذَلُّ منى بين يديك اليوم ، وهو على عقابك أقْدَرُ منك على عقابى إلا ما[1] نظرتَ فى أمرى نَظَرَ من بُرْئِى أحبُّ إليه من سُقْمِى ، وبراءتى أحبُّ إليه من بليتى .

[بين معاوية وروح بن زنباع]

وأَراد معاوية عقوبة روح بن زنباع[2] فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله تعالى ألّا تضع[3] منى خَسيسة أنتَ رفعتها ، أو تنقض منى مَرِيرة[4] أنتَ أبرمتها ، أو تشمت بى عدوًّا أنت كبتّه ، وحاسداً بك وَقَمْتَه[5] ؛ وأَسأَلك بالله إلا أَرْبى حِلْمُك على خطئى وصفحك على جَهلى .

فقال معاوية رضى الله عنه : إذا الله ثنّى عقد شىء تيسّرا .

(١) فى ا : إلا نظرت .
(٢) الأمالى : ٢–٢٥٩، اللآلئ : ٨٨٩ .
(٣) فى ا : أن تضع .
(٤) المريرة : الحبل الشديد الفتل .
(٥) وقه : قهره وأذله .

أشار إلى هذا أبو الطيب[1] المتنبى إذ قال[2] :

أزِل حَسَدَ الحُسَّادِ عنى بكَبْتِهِمْ ۞ فأنْتَ الذى صيّرْتَهُم لِىَ حُسَّدَا

إذا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيِكَ فى يَدِى ۞ ضَرَبْتُ بسَيْفٍ[3] يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَدَا

[عفو الملوك]

المامون وعَتَب المأمون على بعض خاصته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قديم الحرمة وحديث التوبة يَمْحُوَان ما بينهما من الإساءة . قال : صدقت ، وعفا عنه .

احد ملوك فارس وكان فى ملوك فارس ملك عظيم المملكة ، شديدُ النقمة ، فقرَّبَ له صاحبُ المطبخ طعامَه فنقطت نُقْطَةٌ من الطعام على المائدة ، فزَوى له الملك وَجْهَه ، وعلم صاحبُ المطبخ أنّه قاتله ، فعمد إلى الصَّحْفَة فكفأها على المائدة ثم ولّى ، فقال له الملك : ما حمَلك على ما فعلت ، وقد علمتُ أَن سقوطَ النّقطة أخطأَتْ بها يدك ولم يَجْرِ بها تعمُّدك، فما عندك فى الثانية ؟ قال : استحَيْتُ للملك أنْ يُوجِب قتلى ، ويُبيح دَمَ مثلى ، فى سنِّى وحُرْمتى ، وقديم اختصاصى وخِدْمتى ، فى نُقْطة أَخْطَأَتْ بها يَدى ، فأَرَدْتُ أن يَعْظُم ذَنبى ليَحْسُنَ بالملك قَتْلى .

قال : لئن كان اعتذارُك يُنْجيك من القتل ، فليس يُنْجيك من التأديب ؛ اجلدوه مائةَ جَلْدة ، واخلعوا عليه خلع الرِّضَا .

بهرام جور وخرج بهرام جور متصيدا فعنّ له حمار وَحْشٍ ، فاتبعه حتى صَرعه ، وقد انقطع عن أَصحابه . فنزل عن فرسه يريدُ ذَبْحه ، وبصُر براعٍ فقال : أَمْسك علىّ فرسى، وتشاغل بذَبح الحمار ، وحانَتْ منه التفاتة ، فنظر إلى الراعى يقطع جَوْهرَ عِذار فرسه ، فحوَّل بهرام جور وَجْهه وقال : تأَمُّلُ العيبِ عَيْب، وعقوبةُ من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سَفَه ، والعفوُ من أَفعال الملوك ، وسُرْعَة العقوبة من أَفعال العامة .

---

(١) فى ا : إلى قول روح أبو الطيب ... فى قوله . (٢) ديوانه ١ـ٢٨٩ .

(٣) فى الديوان : ضربت بنصل .

ثم قال : يا غلام ، ما بال شِرْيَانك يضطربُ لعلّك آذاك تكسيرُنا أرْضك بحوافر خَيْلنا ، فقال : نعم ، وقد عزمتُ على أن أنقلع مائةَ فرسخ ، فقال بهرام : لا ترُع ، فهذا الموضع وما فيه لك ، وكان الراعى خبيثا ، فقال : إن الملوك إذا قالت قولا تَمَّتْ على قولها . فرجع بهرام إلى عسكره وقال : اتبعنى لأُوثق لك من هـذه الأرض ، فاتَّبَعه ، فلما بَصُر به الوزير قال : أيها الملك السعيد ، إنى لأرى جَوْهر عِذار فرسك مُتَقَلّعا[١] ، فتبسم وقال : أخذه من لا يردّه ، ورآه من لا ينمّ به ، فمَنْ أخذه صاحبُنا ولا نُطالبه به .

***

نقل ابن الرومى قول بهرام: « تأمل العيب » كما اتفق موزونا فقال[٢] :

تأمُّلُ الْعَيْبِ عَيْب ... مَافى الذى قُلْتُ[٣] رَيْبُ
وكلُّ خَـيْرٍ وشَرٍّ ... دُونَ العَوَاقِبِ[٤] غَيْبُ
ورب جِلْبَابِ هَمٍّ[٥] ... فيـه مِنَ الصُّنْعِ جَيْبُ
لا تَحْقِرنَّ سُيَيْبًا ... كم قاد خيرا سُيَيب[٦]

أخذ البيت الأخير من قول الطائى[٧] :

رُبَّ قَليـلٍ غداً كثيراً ... كَمْ مَطرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ

وقوله[٨] :

لا تزيلنْ[٩] صَغيرَ هَمّكَ وانظرْ ... كم بذى الأَثْـلِ دوحةً مِنْ قضيبِ

وقد أعاد ابن الرومى قوله :

وكُلُّ خَـيْرٍ وَشَر ... دُونَ الْعَوَاقِبِ غَيْبُ

---

(١) قلعه : انتزعه . (٢) ديوانه ١ــ١١٧ . (٣) فى الديوان : وليس فى الحق ريب . (٤) فى الديوان : خلف العواقب . (٥) فى الديوان : يا رب غمة خطب . (٦) بالتصغير ، والسيب : العطاء ، وانظر الديوان ص ١١٨ جزء أول .
(٧) المختار من شعر بشار ١٧٢ . (٨) ديوانه ٣٦، المختار من شعر بشار ١٧٢.
(٩) فى الديوان : لا تذيلن . ومعناه لا تحقرن .

فى قصيدته التى مدح بها أحمد بن محمد بن ثوابة حين ساوره ، وقال : لو أتى لبيد لتعجَّب منه ، فاستجزله وقال [١] :

ولمّا دعانِى للمثوبة سيّدٌ يرى المدحَ عاراً قبلَ بذلِ المثاوبِ
تنازعنى رغبٌ [٢] ورهبٌ كلاهُما قوىٌّ وأعيانى طُلُوع [٣] المعايبِ
فقدَّمتُ رِجْلًا رغبةً فى رغيبةٍ وأخَّرتُ رِجْلًا رهبةً للمعاطبِ
أخافُ على نفسى وأرجُو مفازَهَا وأستارُ غيبِ اللهِ دُونَ العواقبِ
ألاَ مَنْ يُرِينى غايتى قبلَ مذهبى ومِنْ أينَ والغاياتُ بعْدَ المذاهبِ

[اعتذار للبديع]

نسخة رقعة كتبها بديع الزمان إلى أبى على إسمعيل يعتذرُ إليه [٤] : سوءُ الأدب من سكر الندب ، وسكر الغضب من الكبائر التى تنالُها المغفرَة ، وتسَعُها المعذرَة ، وقد جرى بحضْرةِ الشيخ ما جرَى ، وقد أفنيْت يدى عضًّا ، وأسنانى رضًّا ، وإن لم أوف ماجرَى فالعُذْرُ أمدّ خطا ، فإنْ كان بساطاً يطوى ، وحديثا لا يُرْوَى فأولى مَن عذرَ اللاّعب ، وأحْرَى من غفَر الصاحب؛ وإن كان ميتا يُنْشَر ، وسببا يُذْكَر ، فليَكن العقابُ ماكان ، إن لم يكن الهجران ، على أنى قد أخذت قِسْطِى من العقاب واستفدْت من ردِّ الجواب ما كفى وأوْجَعْ القفَا ؛ فكان من مُوجب أدب الخِدْمَة إبقاءُ الحِشمة لولىّ النعمة ، باحتمال الشَّتْم ، والإغضاء عن الخَصْم ، لكنى أحْدَقتْ بى ثلاثة أحوال لا يَسْلَمُ صاحبها : اللعب وسكره ، والخصم وهُجْره ، والإدلال والثقة ، وهى اللواتى حملتنى على ماء الوَجْهِ فهرَقْتُه ، وحجابِ الحشمة نخرَقْتُه ، وقد منعنى الآن فَرْطُ الحياء من وَشْكِ اللقاء ، وعَهْدِى بوجهى وهو أصْفَقُ من العُدم الذى حملنى على جَهْلِه ، وأوْقَحُ من الدهر الذى أحوجنى إلى أهله ؛ لكن النعم إذا توالَتْ على وَجْهٍ رققَت قِشْرَته ، وألاَنت بَشَرته ؛ وأنا منتظرٌ من الجواب ماريش

(١) ديوانه ١ـ٢٥٨ . (٢) فى الأصل : رعب بالعين المهملة .
(٣) فى الديوان : اطلاع . (٤) الرسائل : ١١٧ .

جَنَاحِى إلى خِدْمَته ؛ فإنْ رأى أن يكتب فَعل إن شاء الله .

رسالته إلى ابن مشكويه

وله رقعة إلى أبى على بن مشكويه أولها [١] :

ويا عزّ إن وَاشٍ وَشَى بىَ عندكم ... فلا تُمْهِلِيهِ أَنْ تَقُولِى له مَهْلا

كما لو وَشَى واشٍ بعزَّةَ عنـدنا ... لقلنا تزَحْزَح لا قريبا ولا أهلا

بلغنى أطال اللهُ بقاءَ الشيخ أن قِيضَة [٢] كَلْب وافَتْه بأحاديث لم يُعِرْها الحقُّ نورَه ، ولا الصدقُ ظهورَه ، وأنه ـ أدام الله عزّه ـ أذن لها على مَجال أُذنه ، وفسح لها فِناء ظنّه، ومعاذ الله أن أقولها ، واستجيز معقولها؛ بل قد كان بينى وبين الشيخ عِتَابٌ لا ينزل كَنَفه ولا يجدف ، وحديث لا يتعدّى النفسَ وضميرها ، ولا يعرف الشفة وسَميرها ، وعرْبدة كَعَرْبَدَة أَهْل الفضل [٣] ، لا تتجاوزُ الدّلال والإدلال ، ووحشة لا يكشفها عتابُ لَحْظة، كعتاب جَحْظة، فسبحان مَنْ رَبّى هذا الأمرَ حتى صار أمراً ، وتأبّط شرًّا ، وأَوْجَب عُذْراً ، وأوحش حُرًّا . وسبحان مَنْ جعلنى فى حَيِّز [٤] العدو أشِيم بَارِقَته ، وأتخوّف صاعِقَته ، وأنا المُسَاءُ إليه ، والمجنىُّ عليه ، ولـكن من بُلِى من الأعداء بمثل ما بُليت ، ورُمِى من الحسد بما رُمِيت ، ووقف من التوحّد والوحدة حيث وقَفْت ، واجتمع عليه من المـكارِه ماوصَفْت ، اعتذر مظلوما، وضَحِك مشتوما ، ولو علم الشيخُ عددَ أولاد الجدد ، وأبناء العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همٌّ إلا فى سعاية أو شكاية أو حكاية أو نكاية ، لضنَّ بعِشْرَة غريب إذا بدر ، وبعيد إذا حضر، ولصَانَ مجلسه عمن لايَصُونُه عما رقى إليه ، وهَبْنى قد قلت ماحكى ، أليس الشاتم من أسْمع ، والجانِى مَنْ أبلغ ؟ فقد بلغ مِنْ كيد هؤلاء القوم أنهم حين صادفوا من الأستاذ نفسا لا تُستفزّ ، وجبلا لا يهزّ ، وشَوْا إلى خدمه بمـا أرّثوا نارهم ، وورد علىّ ما قالوه فما لبثت أن قلت :

فإن تَكُ حربٌ بين قومى وقومها ... فإنى لها فى كلِّ نائبة سلْمُ

---

(١) الرسائل : ١٠٠ . (٢) القيضة : القطعة من العظم الصغيرة .

(٣) العربدة : سوء الخلق . (٤) فى الرسائل : جنب .

وليعلم الأستاذ أنَّ فى كبد الأعداء منى جَمْرة ، وأنَّ فى أولاد الزنا عندنا كَثْرة ، وقُصاراهم نارٌ يشبُّونها ، وعقرب يُدَبِّبُونها ، ومَكِيدة يَطْلُبونها ، ولولا أن العذْرَ إقرار بما قيل ، وأكره أن أستقيل ، لبسطتُ فى الاعتذار شاذرْوانا ، ودخلت فى الاستقالة مَيْدانا ، لكنه أمرٌ لم أضعْ أوّله ، فلم أتَدارَكْ آخره .

وقد أبى الشيخ أبو محمد — أيده الله — إلا أن يوصل هذا النثر الفاتر بنظم مثله فها كه يلعن بعضه بعضا :

مولاى إنْ عدتُ ولم ترض لى ... أَنْ أشرب البارِدَ لم أَشْرَبِ
امتطِ خدى وانْتَعِل ناظرى ... وصِدْ بكفى حُمَةَ العَقْربِ
تالله ما أنطِقُ عن كاذبٍ ... فيك ولا أبرُقُ عَنْ خُلَّبِ
فالصفوُ بعد الكذب المفترَى ... كالصّحو عقْبَ المَطَرِ الصَّيِّبِ (١)
إن أجْتَنِ الغلطَةَ من سيدى ... فالشوكُ عند الثمر الطيب
أو يفسد الزَّوْر على نَاقِد ... فالخمر قد يعصب بالثيّب (٢)

ولعل الشيخ أبا محمد — أيده الله — يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلمُ واللسان؛ فنعم رائد الفضل هو ، والسلام .

فِقر من كلام سهل بن هرون للمأمون

كان المأمون استَثْقَل سَهْلَ بن هرون ، فدخل عليه يوماً ، والناسُ على مَراتبهم ، فتكلّم المأمون بكلام ذَهب فيه كلَّ مذهب ؛ فلما فرغ من كلامه أقبل سهلُ بن هرون على الجَمْع فقال : مالكم تسمعون ولا تَعُون ، وتشاهدون ولا تَفْقَهون ، وتفهمون ولا تتعجَّبون ، وتتعجَّبون ولا تُنْصفون ؟ والله إنه ليقولُ ويفعلُ فى اليوم القصير ما فعل بنو مروان فى الدهرِ الطويل ، عَرَبُكم كعجمكم ، وعَجَمُكم كعبيدكم (٣) ، ولكن كيف يَعرِف الدواء من لايشعر بالداء ؟ فرجع المأمونُ فيه إلى الرأى الأول .

---

(١) الصيب : المنصب . (٢) ليس هذا البيت فى ا . (٣) فى ا : كعجمهم .. كعبيدهم .

وكان أبو عمرو سهل بن هرون من أهل مَيْسان[١] نزل البصرة فنُسِب إليها ، وهو القائل: سهل بن هارون

يأهل مَيْسان السلام عليـ ـكم الطيبون الفرع والجِذْمُ[٢]
أما الوجوهُ ففِضَّةٌ مُزِجَت ذهبا وأيد سَحَّةٌ هُضُمُ[٣]
أتُرِيدُ كَلْبٌ أن أُناسبها قد قلّ من كَلْب بي العِـلْمُ
اجملت بيتا فوق رابيـة فرع النّجوم كأنه نَجْمُ
كُبُيْبيتِ شَعر وسط مجهلة بفنائه الجِعْلَانُ والبَهْمُ[٤]

وكان سهل شعوبيا ، والشعوبية فِرْقَةٌ تتعصب على العرب وتنتقصُها ، وكان أبو عبيدة يرمى بذلك .

وسهل ظريفٌ عالم حسَنُ البيـان ، وله كتب ظريفة صنّفها معارضاً للأوائل فى كتبهم بما لا يستَصْوبه منهم[٥] حتى قيل له بزرجمهر الإسلام . وقال يمدح رجلا : بعض شعره

عدوٌّ تِلادِ المال فيما يَنُوبهُ مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أحْزَما
مذال نفس قد أَبَتْ غير أنْ ترَى مَكارِهَ ما تأْتِى من العيش مَغْنَمَا

وهـذا نظير قوله فى كتاب ثَعْلَة وعُفرة الذى عارض به كليلة ودمنة : اجملوا أَداءَ ما يَجِـبُ عليكم من الحقوق مقدّما قبل الذى تجودون به من تفضُّلـكم ؛ فإن تَقْدِيمَ النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهِر على وَهَنِ العقيدة[٦] ، وتقصير الرويّة ، ومُضِرٌّ بالتدبير ، مخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع محمدَتِه عِوَض من فساد المروءة ولزوم النقيصة . وكتابه هذا مملوء حكما وعلما . وسهل القائل :

تقسَّمنى هَمَّانِ قد كسفا بالى وقد تركا قَلْبى محـلة بَلْبَالِ
هما أَذْرَيَا دَمْعِى ولم تدر عَبْرَتِى رهينة[٧] خِدْرٍ ذات سمط وخَلْخَالِ

---

(١) كورة بين البصرة وواسط . (٢) الجذم : الأصل .
(٣) يد هضوم : تجود بما لديها ، وجمعه هضم مثل كتب . (٤) الجعل : دويبة ، البهم : أولاد الضأن والمعز والبقر. (٥) فى ا : لا يقصر بهعنهم (٦) فى ا : العقدة. (٧) فى ا :ربيبة.

ولا قهوة لم يَبْقَ منها على المدى ... سوى أن تحاكى النور فى رأس ذيال
تحلّل منهــا جِرمها وتماسكت ... لها نَفْسُ معدوم على الزمن الخالى
ولـكنما أبكى بعَيْنٍ سخينـــة ... على حدث تبكى له عَيْنُ أمثالى
فراق خليل لا يقوم به الأسى ... وخَلَّة حرٍّ لا يَقُوم لهـا مالى
فواحسرتى حتى متى القلب مُوجَع ... لفَقْد خليل أو تعَـذُّرِ إفضـال
وما الفَضْلُ إلا أنْ تجـودَ بنائلٍ ... وإلا لقاء الخلّ ذى الخلق العـالى

وهو القائل :

إذا امرؤٌ ضاق عنى لم يَضِق خلق ... من أنْ يرانى غنيًّا عنه باليأسِ
لا أطلبُ المال كى أَغْـنَى بفضلته ... ما كان مَطْلَبُهُ فَقْراً إلى الناس

وأنشد له الجاحظ يهجو رجلا :

من كان يَعْمُرُ ما شادَتْ أوائلُهُ ... فأنتَ تَعْمُرُ ما شادُوا وما سَمَـكُوا(١)
ما كان فى الحق أن تحوى فعالُهم ... وأنت تَحْـوِى من الميراثِ ما تركوا

من نثره

وقال محمد بن زياد الزيادى: وجَدْتُ(٢) على سهل بن هرون فى بعض الأمر فهجوته فـكتب إلىّ : أما بعد فالسلامُ على عهدك وداعَ ذى ضَنّ بك ، فى غير مَقْلِيَة(٣) لك، ولاسَلْوَة عنك ، بل استسلامٌ للبَلْوَى فى أمرك ، وإقْرَار بالمعجزة فى استعطافك، إلى أوان فيئتك(٤) ، أو يجعل الله لنا دَولة من رجعتك ، والسلام .

وكتب فى أسفل الـكتاب :

إنْ تَعْفُ عن عبدك المسىء فى ... عفوك مَأْوًى للفضـل والمِنَنِ
أُتيتُ ما أستحقّ من خَطأً ... فجُدْ بما تستحق(٥) من حسنِ

للحسن البصرى فى يوم فطر

وقال الحسن البصرى رحمه الله فى يوم [فطر](٦) وقد رأى الناسَ وهيآتِهم : إنّ اللهَ تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخَلْقِه ، يستَبِقُون فيه بطاعته إلى مَرْضَاته ، فسبَقَ قوم ففازوا ، وتخلف آخرون نخابُوا فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويَخْسِرُ فيـه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومُسِىء بإساءته .

(١) سمكوا : رفعوا . (٢) وجد عليه : غضب . (٣) مقلية : بغض .
(٤) فى ط : بينك . (٥) فى ا : أستحق . (٦) من ا .

ونظر إلى قوم منصرفين من صلاة الفِطْر يتدافعون ويتضاحكون ، فقال : الله المستعان ! إن كان هؤلاء قد تقرّر عندهم أنّ صومهم قد تُقُبِّل فما هذا محلُّ الشاكرين، وإن علموا أنه لم يتقبل فما هذا محلُّ الخائبين .

وكان الحسن من الخطباء النّساك الفقهاء الأجواد، ويقال: إنه لم يكن تابعيّ أفضل منه.

هذا قول أهل العراق جميعا ، وأهلُ الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه ، وكان سعيد أحسن من الحسن وَرَعا ، وأشدّ الناس حَذَرا ، وأقلهم كلاما . وكان الحسن لا يَدع أن يتكلّم بما هَجَس فى نفسه ، وجاشَ فى صدرِه .

وعلى ذكر الحسن شهر رمضان [نقول][1] :

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بإقبال شهر رمضان مع ما يتصل بها من الأدعية

ساق اللهُ تعالى إليكَ سعادةَ إهلاله ، وعرّفك بَركةَ كماله . قسم اللهُ لك من فَضْلِه ، ووفَّقك لفَرْضِه ونَفْلِه . لقّاكَ الله ما ترجوه ، ورقاكَ إلى ما تحبُّه فيما تَتْلوه. جعل اللهُ ما أظلَّكَ من هذا الصوم مقرونا بأفضَلِ القبول ، مُؤْذِنا بدرك البُغْيَةِ ونجح المأمول ، ولا أخْلاكَ من برٍّ مرفوع ، ودعاء مسموع . قابل الله تعالى بالقبول صيامَك ، وبعظيم المَثُوبة تهجُّدكَ وقيامك . عرَّفك الله من بركاته ما يُرْبِى على عدد الصائمين والقائمين ، ووفَّقك اللهُ تعالى لتحصيل أجْرِ المتهجّدين . أسأل اللهَ تعالى أن يضاعِفَه بمنه لك ، ويجعله وسيلة بقبوله إلى مَرْضاته عنك . أعاد اللهُ إلى مولاى أمثاله ، وتقبَّل فيه أعماله ، وأصلح فى الدين والدنيا أحواله ، وبلّغه منها آماله . أسعده الله بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزل المَثُوبة والأجر ، ووفّر حظَّه من كل ما يرتفع من دُعاء الدَّاعِين ، وينزل من ثواب العاملين ، وقبل مساعيه وزَكاها ، ورفع درجاته وأعلاها ، وبلَّغَه من الآمال مُنْتهاها ، وظَفِر بأبعدها وأقصاها .

وقال الحسن : من أخلاق المؤمن قوةٌ فى دين ، وحَزْمٌ فى لين ، وحِرْص على العلم ، وقناعة فى فَقْر[2] ، ورحمة للمَجْهود ، وإعطاء فى حق ، وبرٌّ فى استقامة ، وفِقْهٌ فى يقين ، وكسب فى حلال . من نثر الحسن

وقال محمد بن سليمان لابن السماك : بلغنى عنك شىء . قال : لا أُباليه ! قال :

---

(١) ليست فى ا (٢) فى ا : فاقة .

ولِمَ؟ قال : لأنه إن كان حقًّا غفرته ، وإن كان باطلا كذبته .

لابن السماك

وقال محمد بن صُبيح المعروف بابن السماك : خيرُ الإخوان أقلُّهم مصانعة في النصيحة، وخيرُ الأعمال أحلاها عاقبة، وخيرُ الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرف السلطان ما لم يخالطه البَطَر ، وأغنى الأغنياء من لم يكن للحِرْصِ أسيرا ، وخيرُ الإخوان من لم يخاصم، وخيرُ الأخلاق أعونها على الورع . وإنما يختبر وُدُّ[1] الرجال عند الفاقةِ والحاجة.

وصف رجل لبعض البلغاء

ووصف بعضُ البلغاء رجلا فقال : إنه بسيط الكف ، رَحْب الصَّدْرِ ، موطَّأ الأكناف ، سَهْل الخلق ، كريم الطباع ، غَيْثٌ مُغِيث ، وبَحْرٌ زخور ، ضَحُوك السنّ ، بشير الوَجْهِ ، بادى القبول ، غير عَبُوس ، يستقبلك بطلاقةٍ ، ويحييِّك[2] ببِشْرٍ ، ويَسْتَدْبِرك بكرم غَيْب ، وجميل سرّ . تبهجك طلاقته ، ويرضيك بِشرُه ، ضحَّاك على مائدته، عَبْدٌ لضِيفانه، غير ملاحظ لأَكِيله[3]، بَطِينٌ[4] من العقل، خَمِيص من الجهل ، راجح الحِلْم، ثاقب الرَّأى ، طيِّب الخلق ، محصّن الضريبة[5]، مِعْطاء غير سائل ، كاسٍ من كل مَكْرُمة، عارٍ من كلِّ ملامة ، إن سُئِل بذَل ، وإن قال فعَل.

ولكشاجم

قال أبو الفتح كشاجم :

مزاجك لِلْمَثْنَى من العودِ والصَّبا ... من الرِّيح والصافِى الرقيقِ من الخَمْرِ

فلو كنت وَرْداً كنت وَرْداً مُضاعَفا ... ولو كنت طِيبا كنت من عَنْبَر الشِّحْر[6]

ولو كنت لَحْناً كنتَ تأليف مَعْبَدٍ ... ولو كنت عُوداً ما افتقرتَ إلى زَمْرِ

ولأعرابى

وقال أعرابى :

ألا حبَّذا البُرْدُ الذى تَلْبَسِينهُ ... ويا حبذا مَنْ باعك البُرْدَ من تَجْرِ[7]

فلو كنت ماءً كنت ماءَ غمامةٍ ... ولو كنت درًّا كنت من دُرَّةٍ بِكْرِ

ولو كنت لَهْوًا كنت تَعْلِيل ساعةٍ ... ولو كنت نَوْمًا كنت إغفاءةَ الفَجْرِ

ولو كنت لَيْلًا كنت قَمْراء جُنِّبَتْ ... نُحُوسَ لَيالِى الشَّهْرِ أو ليلة القَدْرِ

﴿ تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثانى ، وفيه الفهارس العامة للكتاب ﴾

---

(١) فى ط : ذل . (٢) فى ا : ويحبوك . (٣) الأكيل : الآكل . (٤) فى ا : ريان من العقل . (٥) الضريبة : الطبيعة . (٦) فى ط : البحر. (٧) التجر بالفتح جمع تاجر .